

الحياة..... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟

مؤلف جماعي
تحت إشراف:
جمال الكركوري أحمد الفرحان

الحياة.....

في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟

مؤلف جماعي تحت إشراف:

أحمد الفرحان

جمال الكركوري

يونيو 2020

الكتاب: الحياة... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"

إشراف: جمال الكركوري وأحمد الفرحان

رقم الإيداع القانوني: 2020MO2036

ردمك: 978-9920-9476-0-2

الطبعة الأولى 2020



لجنة القراءة

جامعة ابن طفيل، القنيطرة	أجعون أحمد
جامعة محمد الخامس، الرباط	أوشقير علي
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	الباهي حسان
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	بناني عز العرب لحكيم
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	البوعزاوي محمد
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	التياي سعاد
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	تيس يوسف
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	حاجي خالد
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	حبيدة محمد
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	حسيني عبد الله
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	حنشان محمد
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	الخمسي محمد
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	الزرغيلي أرسلان
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	زرو محمد
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	شباط عبد الإله
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	شفيق حسن
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	شكري سلام محمد
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	شكري سعيد
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس	علوي مولاي اسماعيل
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	العمرائي حفيظة
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	غواني سناء
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	الفرحان أحمد
جامعة مولاي اسماعيل، مكناس	قسطاني بن محمد
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	الكروري جمال
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	لغرايب محمد
جامعة ابن طفيل، القنيطرة	ماماد محمد

الفهرس

المقالات بالعربية

13	تاريخ الجوائح : دروس الماضي	
14	تاريخ الوباء من الطاعون الأسود إلى الكورونا	محمد حبيدة
24	المؤرخ والجوائح : بين العبرة وإعادة الاعتبار	سعيد البوزيدي
31	الجائحة بين الفقيه والطبيب : "مختصر كتاب الطاعون" تقديم وتخرير	حميد الفاتحي
43	جائحة "كوفيد-19" وإشكالية كتابة التاريخ الآني	محمد مزيان
55	الأوبئة والحجر الصحي في تاريخ المغرب المعاصر : قراءة في كتاب "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19" محمد أمين البزاز (1992)	أحمد النايوي
63	الأوبئة وتأثيراتها على السكان : الطاعون الأسود نموذجا (749هـ / 1350م)	حميد اجيلي
73	جائحة كورونا ورهانات السوسيولوجيا	
74	الروابط الاجتماعية وتدبير الأوبئة في مجتمع المخاطرة : نحو مقارنة متعددة التخصصات	عبد الغني شفيق
101	الجوائح والمجتمع من القلق والخوف إلى التدبير والتجاوز	مبارك الطايبي
119	معيش الأسرة المغربية في فترة جائحة كورونا واثاره المستقبلية ملاحظات أولية	إبراهيم حدادي
131	الأزمة الصحية والسلوكات السيكلوجية	
132	الآثار النفسية للحجر الصحي	نبيل عبد الصمد
141	قراءة سيكلوجية للانعكاسات الايجابية لقلق كورونا على الفرد والمجتمع المغربي	عائشة زيان
151	"كورونا" زمن انكشاف "دافع الموت"	خديجة وادي
159	اللغة العالمية في زمن "كورونا"	
160	التشكلات اللغوية في زمن "كورونا"	حنان بندحان
179	كوفيد-19: الفلسفة والجوائح	
180	جدلية الفلسفة والعالم في الكشف عن معنى الإنسان - تأملات في زمن الكورونا-	أحمد مصلح
191	أزمة الفيروس التاجي (كوفيد-19): هل من مخرج؟	رشيد بن السيد
199	ظروف الجائحة والاجتهادات القانونية والقضائية	
200	جائحة كورونا وتأثيرها على عقد التعليم الخاص	أحمد أنوار ناجي

المقالات بالفرنسية

13	استعجالية المسألة الأخلاقية في زمن الجائحة	
14	كوفيد-19، الحجر الصحي والفرز الصحي: في البحث عن معنى أخلاقي	أحمد الفرحان
23	كوفيد-19: إضاءات إيدميولوجية وجغرافية	
24	تطور جائحة كوفيد-19 في المغرب: إيدميولوجيا وخرائطية	عبد المجيد السليماني
		عبد الغني المختاري
34	انتشار جائحة كوفيد-19: أي دور للعوامل الجغرافية.	جمال الكركوري
		سعيد لهو ير
51	الاقتصاد وامتحان مرض كوفيد-19	
52	الحجر الصحي وسلوك المستهلك المغربي في مواجهة الأزمة الصحية لكوفيد-19	إمام الرحاوي
		محمد قيشو
70	الجوائح بين متطلبات الصحة العمومية والقيود الاقتصادية	هشام وكيل
		هدى لشهب
82	تحليل القياس الاقتصادي لوقع كوفيد-19 على تدفق الاستثمار الأجنبي المباشر إلى المغرب	زهرة منصوري
95	الحكامة والتنمية والبيئة في زمن الجائحة	
96	حكمة حضرية ذكية لمواجهة الأزمات غير المتوقعة: القنيطرة مدينة ذكية	محمد نبيل اسريفي
114	كوفيد-19 وتغير المناخ: عدم إهمال ما يمكن التنبؤ به	هند مجدوبي
133	الحجر الصحي العالمي ضد جائحة كوفيد-19 ووقعه على البيئة	حفيظة نعيم
146	تدبير الأزمة الصحية لكوفيد-19 : فرصة لتدقيق نموذج التنمية في المغرب	مريم شرقاوي
157	كوفيد-19: عندما يتحول البجع الأسود إلى بجمع أبيض في المغرب	ادريس زجلي
171	أزمة الفيروس التاجي والتعليم عن بعد في المغرب	
	التعليم عن بعد بشعبة اللغة الفرنسية وآدابها، الرسائل الفورية أداة تعلم	نجم الدين السوغاتي
172	متزامنة وسائل متعددة الأبعاد	هدى كيسان
189	إعادة تشكيل نظام التعليم في زمن الجائحة	يوسف حدوش

كلمة السيد عز الدين الميدواي رئيس جامعة ابن طفيل

وفقا للتوجيهات الملكية السامية، وفي تناسق تام مع التدابير الحكومية وتعليمات وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، انخرطت جامعتنا في مختلف المبادرات الوطنية الرامية إلى مواجهة تداعيات الأزمة الصحية التي تسبب فيها مرض "كوفيد-19".

فبالإضافة إلى الجهود التي بذلتها جامعة ابن طفيل لفائدة طلبتها، عملت على تشجيع الباحثين والباحثات من الأساتذة على الاستمرار في أبحاثهم العلمية خصوصا تلك المرتبطة بجائحة الفيروس التاجي المستجد.

في هذا الإطار يندرج هذا الكتاب الذي يستجيب لطموحات الرؤية الاستراتيجية في تطوير الجامعة المغربية وتأهيلها للانخراط الإيجابي والفعال في مجتمع المعرفة. إذ يعمل على تفعيل التكامل في مجالات البحث العلمي من خلال مقارنة الوباء مقارنة متعددة التخصصات (التاريخ، الفلسفة، العلوم الاقتصادية، الجغرافية، علوم البيئة، علم الاجتماع، علم النفس، العلوم القانونية، علوم التدبير، علوم التربية، العلوم التطبيقية والهندسة، اللسانيات...). ويؤرخ تعدد المواضيع الذي يؤثث الكتاب بأمانة، الهواجس العلمية لأساتذة جامعة ابن طفيل في زمن الفيروس التاجي.

يسعى الكتاب إذن، إلى فهم الحاضر وتوثيقه وتقديم مادة علمية رصينة تسهم في تطوير معارفنا بالجامعة لتكون مرجعا من المراجع المساعدة على تذليل الصعوبات وتجاوز الإكراهات. كما يستشرّف الكتاب المستقبل من خلال تقديم مقترحات ومناهج ومفاهيم ورؤى قادرة على إغناء النموذج التنموي المغربي المرتقب.

كلمة السيد محمد زرو عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يأتي إصدار هذا المؤلف الجماعي حول الفيروس التاجي كوفيد-19 في سياق وطني وعالمي يعيش ظرفية استثنائية من تاريخ البشرية في زمن الأوبئة. وإذا كان الكائن الإنساني يحيا إلى جانب الكائنات الحية الأخرى في بيئة متغيرة على الدوام. فإن امتلاك ناصية العلم والمعرفة بالتفكير العقلي المنطقي والممارسة الاستقرائية و الاستنباطية يسر للإنسانية الحفاظ على بقائها وتحسين شروط وجودها والرفع من جودة نسلها في مواجهة شروط الانقراض والهلاك الجماعي.

لقد تجذدت بلادنا بروح وطنية جماعية، وبوعي تضامني عال، وبحس أخلاقي راق، في التصدي للوباء. ولم تتوان كليتنا في تأمين شروط التعلم عن بعد لفائدة طلبتنا الأعزاء، رغم الظروف الصعبة والإمكانات المحدودة التي تطلبت تضحيات السادة الأساتذة والأستاذات والطاقم الإداري. كما واصلت تشجيع البحث العلمي من خلال تحفيز الأساتذة على الانخراط في المبادرات العلمية المرتبطة بالجائحة، فكانت الاستجابة تلقائية بناءة وفي مستوى الانتظارات.

في هذا السياق، تندرج مبادرة إنتاج مؤلف جماعي جامعي حول جائحة كورونا ليجمع لأول مرة، على مستوى جامعة ابن طفيل، أبحاث ثلة من الأساتذة ينتمون لمشارب علمية ومعرفية مختلفة. هذه المقاربة انعكست على مضمون الكتاب فتنوعت محتوياته حسب التخصصات مع الربط الوثيق بين ما هو نظري وما هو تطبيقي وميداني، وبين ما هو علوم دقيقة وتقنية، وبين ما هو علوم إنسانية واجتماعية. إن عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية أقدمت على دعم هذا المشروع البحثي المتعدد التخصصات، إيمانا منها بالمكانة الاستراتيجية التي يحتلها البحث العلمي في تطوير البلدان اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، وفي تعزيز القدرة التنافسية للجامعة المغربية على الصعيد العالمي.

لا يسعني إذن، في ختام هذه الكلمة المقتضبة، إلا أن أعبر عن مدى سعادتي بهذا الإنجاز وأن أتقدم بالشكر الجزيل لكل الأساتذة الذين ساهموا في بلورته سواء كانوا مؤلفين أو محكمين أو مشرفين ونتمنى أن يكون هذا العمل قد أضاف لبنة أخرى في سجل إنجازات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة.

تقديم

ولدت فكرة هذا الكتاب الجماعي في عز الذعر الذي صاحب جائحة كوفيد-19 التي أصابت العالم. ففي خضم الإجراءات الاحترازية التي أقرتها بلادنا من أجل الحد من انتشار هذا الوباء، ومن وحي الحجر الصحي الذي خضع له المجتمع المغربي انبثقت الفكرة. إنها تجربة فريدة عبارة عن رهان صعب، غايتها إنتاج كتاب في ظل ظروف استثنائية، وفي وقت وجيز وبمواصفات علمية محترمة.

منذ ما يقرب من شهرين انطلق الاشتغال بهذا المشروع من خلال الأرضية التالية "تشهد البشرية أزمة استثنائية بكل المقاييس جراء تفشي عدوى فيروس كورونا "كوفيد-19" في أغلب أرجاء المعمور، وفرضت هذه الجائحة واقعا جديدا بالنسبة للإنسانية جمعاء، وخلفت صدمة كبيرة نتيجة تسارع وتيرة انتشارها، وتنوع تأثيراتها، التي أصبحت تمس جميع مناحي الحياة، محليا وجويا ودوليا. في خضم الصراع الوجودي الذي تخوضه البشرية ضد هذه الآفة، وأمام حجم التغييرات التي أحدثتها والتي يحتمل أن تحدثها في المستقبل، لم يستكن العقل البشري ولم يستسلم، واتخذ التفكير عبر العالم أشكالا متنوعة حسب التخصصات المعرفية المتعددة، وتناقلت الآراء حسب الاهتمامات العلمية، وتباينت التحاليل حسب مناهج ومستويات التناول والمقاربة. ولكوننا نعيش نفس الأزمة بتداعياتها المختلفة والمتعددة، فمن واجبنا أيضا أن نعرف بآرائنا وبتحاليلنا وبتصوراتنا لواقع زمن كورونا، ولكن أيضا أن نستخلص العبر ونبني تصورات مستقبلية لما ستؤول إليه الحياة، وما يجب القيام به على جميع المستويات من أجل الاستعداد لمثل هذه الصدمات، قصد تخفيف تأثيراتها. ولفتح النقاش بين الباحثين والتعريف بآرائهم حول ما نعيشه اليوم، وما يحتمل أن نعيشه في المستقبل جراء تفشي فيروس كورونا، تقترح رئاسة جامعة ابن طفيل وعمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالكنيطرة، دعوة جميع الباحثين المهتمين إلى المساهمة في المؤلف الجماعي. وسينشر المؤلف في صيغة إلكترونية في المرحلة الأولى، على أن يتم طبعه ورقيا بمجرد أن تسمح الظروف بذلك". بتحقيقنا للهدف المحدد، نعتبر أن المشروع قد ربح الرهان، ففي ثنايا هذا الكتاب ما مجموعه 29 مقال، بالإضافة إلى عدد من الملاحق المرتبطة بالموضوع.

كما توقعنا ذلك، ولأننا لم نحدد منذ البداية محاور الكتاب من أجل أن نكفل حرية المبادرة للباحثين والباحثات، تنوعت المقالات بتنوع التخصصات المعرفية والمقاربات والمناهج، واختلقت لغة التأليف بين العربية والفرنسية. فارتأينا بداية، من وجهة نظر تقنية صرفة، تقسيم الكتاب لغويا إلى قسمين: المقالات المكتوبة بالعربية والمقالات المكتوبة بالفرنسية، ثم بعد ذلك أدخلنا تصنيفا موضوعاتيا على المقالات داخل كل مجموعة.

المقالات بالعربية

تبدأ المقالات العربية باستحضار المدخل التاريخي، فالماضي يعدّ خزاناً من التجارب والدروس للحاضر، في هذا السياق اهتمت المقالات الأولى بتاريخ الأوبئة في العالم، كرجعية علمية يجب توظيفها أثناء تجدد ظهور الأمراض المعدية من جهة، وكصدر لاستخلاص العبر والدروس من قبيل الإلحاح على "الاستثمار في البحوث الطبية والأساليب الوقائية المواتية والأنظمة الغذائية الصحية"، من جهة ثانية. ومن أجل الاستفادة من التجارب التاريخية واستشراف المستقبل، انتظمت في نفس السياق، مقالات أخرى إما من

خلال قراءة كتاب "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19" لصاحبه محمد البزاز الذي يعرفنا بالطرق التي واجه بها المغاربة الأوبئة في الماضي، أو من خلال تقديم وتخرّيج مخطوط تراثي يبين أن "الفقهاء، وعلى امتداد الزمن الاجتماعي المغربي، امتلكوا الكلمة الفصل في إبداء الرأي في أسباب الوباء، وأعراضه، وعلاجه بالدعاء والدواء، وطرق الاحتراز منه"، أو من خلال مناقشة إشكالية التأريخ الآني وما تطرحه من قضايا منهجية ومعرفية يجب التعامل معها بحذر. هذه الدراسات تبين بأن المدخل التاريخي في هذا الكتاب، يستند إلى كون المؤرخ من خلال تقديمه لتجارب وبائية عاشتها الإنسانية في الماضي يساهم بجدية في تنوير قرارات المجتمع بصفة عامة والمديرين بصفة خاصة لمواجهة مثل هذه الظروف.

من ناحية أخرى، يرى علم الاجتماع أن الجائحة التي تعيشها الإنسانية اليوم تعتبر فرصة فريدة للتحقق من مختلف الفرضيات التي يستند إليها. هذا الهاجس يتبلور ضمن هذا المحور من خلال ثلاثة مقالات. يسعى المقال الأول إلى "تناول موضوع الروابط الاجتماعية وتغيراتها في سياق الأوبئة والمخاطر" من خلال مفهوم مجتمع المخاطرة الذي صاغه عالم الاجتماع الألماني " أولريش بك Ulrich Beck". ويركز المقال على قيمة الثقة. "وما يتصل بها، من استراتيجيات يسلكها الفاعلون من أجل تدبير الجائحة". يتناول المقال الثاني مجموعة من القضايا التي تعتبر "مدخلا تهيئديا لفهم الوقع الاجتماعي للجوائح، ورصد مختلف التداعيات وأشكال التعامل المجتمعي مع ما يهدد الحياة الاجتماعية عامة". فخلص المقال إلى أن الجوائح ليست استثناء في الوجود الاجتماعي للمجتمعات وأنها فرصة لإعادة تكريس القيم الاجتماعية وإعادة النظر في أدوار المؤسسات وتعزيز مكانتها وحضورها المجتمعي. أما المقال الثالث فيرصد المعيش اليومي للمجتمع من خلال أفرادها ويقف عند الاختلالات المجتمعية التي تزايدت حديثا بفعل الجائحة وخص بالتمحيص وضعية المرأة والمسنين والأطفال بحكم أنهم فئات هشة أصلاً.

أضحت خدمات علم النفس جد مطلوبة خلال هذه الجائحة باعتبار أن الحجر الصحي كانت له تداعيات عديدة على نفسية المجتمعات. وهذا ما رصدته ثلاث مقالات ضمن هذا الكتاب. تقدم المقالة الأولى نتائج تحقيق ميداني عبر عينة محدودة عدديا لكن أجوبتها مليئة بالمعلومات عن بعض الصعوبات والارتدادات النفسية المترتبة عن الحجر الصحي. تقوم المقالة الثانية على قراءة سيكولوجية وصفية، لواقع الوباء الحالي وخلصت إلى أن ظروف الوباء فرضت بتبعاتها ومتطلباتها الحمائية والوقائية إعادة بناء سلوكات جديدة والتفكير وفقا لأسلوب جديد أدى إلى لإبداع والتجديد. أما المقالة الثالثة فتعتبر تحليلا للاستعدادات البيولوجية لمواجهة المخاوف المربعة كخوف الإنسان من موته الشخصي. وخلصت الدراسة إلى أن استقبلنا "لأزمة كورونا" ليس متشابها، فكل أن لدى البعض مناعة جسمية، يتمتع البعض الآخر بمناعة نفسية تجعل قلقه الخفيف صام أمان يقاوم به المرض.

لم تكن تأثيرات الجائحة مقتصرة على المستوى السلوكي و السيكولوجي فقط للمجتمعات بل أحدثت تغيرات لسانية أيضا وهو ما عملت دراسة لغياتية على تناوله. عملت الدراسة على جمع و تنظيم وتصنيف اللغية التقنية العاملة التي أفرزتها ظروف الأزمة وعلى توضيح مدى مساهمتها في بلورة قدرة اللغة العربية على تحقيق تواصل وظيفي.

لم تكن الفلسفة لتغيب عن مثل هذه الأعمال، فهي حاضرة من خلال مقالين. يتساءل أولهما عن معنى الإنسان في زمن الجائحة وكيف أن أوهام التفوق والقوة لم تستطع أن تقدّم إجابات فعالة عن هذه الأزمة الصحية. أما الثاني فهو عبارة عن ترجمة مقال فلسفي للفيلسوف سلافوي جيجيك ، الذي اعتمد في تحليله لجائحة كوفيد-19 على منهج التحليل النفسي بالاعتماد على المصفوفة الخماسية التي ابتدعتها المحللة النفسانية

إليزابيت كوبلر روس في دراستها للرضى الميؤوس من شفائهم. فعندما تواجهنا كارثة، فإننا نعانى من القلق أولاً ثم الغضب والإنكار، وفي الأخير نتقبل الأمر الواقع ونذعن له. يتعلق آخر مقال باللغة العربية بالجانب القانوني والقضائي ويتناول حالة عقد التعليم الخصوصي في ظروف الأزمات. إذ ترك هذا الأمر بيد الأطراف المتعاقدة مما يستدعى "ضرورة البحث عن موقف القانون والقضاء، وإلى أي حد استطاعا التلطيف من القوة الملزمة للعقد في ظل جائحة كورونا".

المقالات بالفرنسية

بداية المقالات بالفرنسية أملت استعجالية الإشكاليات الأخلاقية التي نعيشها اليوم في ظروف الجائحة. فن وجهة نظر فلسفية يعيد المقال الأول إلى النقاش، تطبيق معيار "العبرة بالنتائج" في أوقات الأزمات. فإذا كان المعيار فعالاً من حيث النتائج فإنه من غير الممكن أبداً أن يكون مبرراً أخلاقياً. ويستدل المقال على ذلك بالفرض الصحي بين الشباب والشيوخ.

باستعمال الإحصائيات والنماذج الرياضية والخرائطية، تتناول مقالتيْن جائحة كورونا من وجهة نظر إيدميولوجية وجغرافية. فالدراسة الإيدميولوجية تمكنت من وضع خرائط للوقع الكلي Incidence global ولعدد الحالات المتراكمة حسب الجهات لتحديد سرعة انتشار الفيروس، وخلصت إلى أن الوضعية الوبائية في المغرب متحكم فيها على الأقل في الفترة المدروسة وذلك نتيجة للإجراءات الاحترازية والطبية التي انخرط فيها المغرب منذ ظهور الفيروس التاجي في بلادنا. على صعيد آخر ومن خلال استعمال المعطيات التي تتيحها بعض المواقع الإلكترونية التي تتابع فوراً تطور المرض عبر أرجاء العالم، بالإضافة إلى معطيات وزارة الصحة المغربية تمكنت الدراسة الجغرافية من تحليل العلاقة الممكنة بين توزيع بعض العناصر الجغرافية من جهة، ومسار وسرعة انتشار الوباء من جهة ثانية. وأبانت النتائج الأولية للدراسة على أن خمسة عوامل كان لها وقع محسوس لكنه متفاوت على سرعة تفشي الفيروس التاجي وهي بالتتابع، عامل القرب (القرب من البؤرة الأصلية) وكثافة وسرعة التنقل البشري وهرم الأعمار والميتيورولوجيا وأخيراً درجة تلوث الهواء.

بحكم أنه القطاع الأكثر تضرراً من الأزمة الصحية، فقد كان الاقتصاد في الموعد مع هذا الكتاب من خلال ثلاث مقالات. تتناول الأولى اتجاهات سلوك التبضع عند المستهلكين المغاربة خلال هذه الجائحة. و تبين أن السلوكات تطورت مع تقدم زمن الوباء وأن احتياجات جديدة ظهرت وقد لا تكون محدودة في الزمن بحيث يمكن أن تستمر إلى ما بعد كوفيد-19. واستناداً إلى تحليل التجارب السابقة في مجال مكافحة الأوبئة، تبين المقالة الثانية أن التكلفة الاقتصادية للأمراض المعدية كانت دائماً أعلى من الآثار الصحية المباشرة، لأن جزءاً منها ينجم عن التدابير الوقائية المتخذة بالإضافة إلى التدابير المصاحبة. وباستخدام علم الاقتصاد القياسي، خلصت المقالة الثالثة إلى أن وباء كوفيد-19 كان له أثر كبير على اجتذاب الاستثمار الأجنبي المباشر والذي انخفض بشكل كبير.

الحكمة والتنمية والبيئة، مواضيع جد مترابطة تمت إثارتها من قبل خمس مساهمات غنية. فالمقال الأول يرافع من أجل تدبير ذكي للمدن في أوقات الأزمات، ويتطلب هذا التدبير توفر ثلاثة عناصر: الحكمة الذكية والموارد البشرية المؤهلة تاهيلاً عالياً، والبنية الأساسية التكنولوجية. ومن خلال تطبيق هذا المفهوم على مدينة القنيطرة، يستنتج المقال أن المدينة تتوفر على إمكانية حقيقية لتتحول إلى مدينة ذكية. يبحث المقال الثاني، من خلال الربط بين أزمة الفيروس التاجي وظاهرة التغير المناخي (الأزمات تكتسيان طابعاً شمولياً)، على وجوب

اعتبار جائحة كورونا كارثة عالمية كشفت عن هشاشة جميع البلدان بما في ذلك الأكثر تطورا منها. لذلك من المهم التعامل معها على أساس أنها تهديد شامل قائم وممتد في الزمن ولا يمكن تجنب تداعياته إلا عبر تقليص أسبابه والتأقلم مع تأثيراته. ومن وجهة نظر بيئية، تقف المقالة الثالثة عند الجوانب الإيجابية للحجر الصحي من جراء جائحة كورونا الذي انخرط فيه أكثر من 4 مليار نسمة من سكان المعمور. "بالفعل ساهم التوقف المفاجئ للأنشطة الصناعية وحركة النقل القارية و البحرية وكذلك الجوية في تراجع مهم لانبعاث الغازات الملوثة ولا سيما غاز ثاني اوكسيد الكربون و ثاني اوكسيد الازوت". وسمح ذلك أيضا بإنعاش التوازنات البيولوجية. يتناول المقال الرابع الجانب الإداري للأزمة الصحية في المغرب بحيث يرجع نجاحه لمقومين مهمين وهما مركزية القرار ووضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار أما المحددات فيختصرها في صعوبة تمويل الشركات ونقص آليات الحماية الاجتماعية. وأخيرا، يقترح المقال الخامس لمرحلة ما بعد كوفيد-19، خطة عمل جديدة تقوم على التعليم، والبحث من أجل التنمية، والإبداع، والقدرة التنافسية الاقتصادية، والتأهيل التكنولوجي، وتصنيع الاقتصاد، والذكاء الصناعي. كل ذلك، مع العمل على الحفاظ على الموارد الطبيعية وتعزيزها.

تأثرت عملية التدريس كثيرا بجائحة كوفيد-19، وكانت موضوعاً للتأمل على ضوء التوجه العام نحو التعليم عن بُعد. لقد اهتمت مقالتان بهذا الموضوع، الأولى تناول تجربة جامعة ابن طفيل من خلال شعبة اللغة الفرنسية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيطرة. وأكدت على أهمية الرسائل الفورية في تطوير التفاعل بين الطلبة والأساتذة بعد تحليل تفصيلي للتجربة المذكورة. أما المقال الثاني فيستحضر أيضا تجربة التعليم عن بعد في جامعة ابن طفيل أثناء انتشار الوباء ويرافع في اتجاه "إعادة تشكيل العملية التربوية من خلال اعتماد التدريس المختلط (الحضوري وعن بعد)، مما يتطلب تقنيات خاصة لإعداد وتقديم الدروس والتواصل من خلال مختلف التقنيات المختلفة وترتيبات تنظيمية وإدارية خاصة.

من خلال هذا التقديم يتبين إذن مدى تشعب الاهتمامات بخصوص جائحة كوفيد-19 وبالخصوص مدى تعدد المنطلقات والمقاربات.

نتمنى أن نكون، بهذا العمل، قد ساهمنا ولو بقسط يسير في إغناء النقاش، من جهة، حول الأزمات التي تترصد الإنسان بشكل عام سواء كانت صحية أو طبيعية أو تكنولوجية أو غيرها، ومن جهة أخرى حول جائحة كورونا من حيث طبيعتها و تداعياتها و طرق تدبيرها وتجاوزها.

في الأخير نود، من باب الاعتراف بالجميل، أن نتقدم بجزيل الشكر للسيد رئيس جامعة ابن طفيل والسيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية على دعمهما لهذا المشروع ولكل الأساتذة الذين أسهموا بمقالاتهم في إغناء محتويات المؤلف، كما نشكر جميع الأساتذة الذين شاركوا في تحكيم المقالات ورفعوا بملاحظاتهم واقتراحاتهم من جودة مشاريع المقالات التي توصلنا بها.

جمال الكركوري و أحمد الفرخان

تاريخ الجوائح: درس الماضي

تاريخ الوباء من الطاعون الأسود إلى الكورونا

محمد حبيدة

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة
houbaidamohamed@yahoo.fr

ملخص

يلقي هذا المقال نظرة عامة على تاريخ الأوبئة في العالم، وخاصة في بلدان أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك المغرب. من الطاعون الأسود (1348-1350) إلى الإنفلونزا الإسبانية (1918-1919) مروراً بالكوليرا (1830-1834)، عصفت الأوبئة والجوائح بالأهالي، وخلقت مآسي إنسانية فظيعة. لكن، بعيداً عن كل استسلام، كافح الإنسان بكل ما أوتي من وسائل من أجل إيجاد الحلول الممكنة. في القرن التاسع عشر، حيث تفتشت جائحة الكوليرا، عمل البيولوجيون والأطباء كل ما بوسعهم لاكتشاف الباسيل المسبب للأمراض، وصنع اللقاحات. واليوم، مع ما نجم عن فيروس كورونا من مشاكل صحية خطيرة، يستمر الكفاح العلمي من أجل إنقاذ البشرية

الكلمات المفتاح: تاريخ الوباء، الطاعون الأسود، الإنفلونزا الإسبانية، الكوليرا، الباسيل.

Résumé

Le présent article brosse un tableau général de l'histoire des épidémies dans le monde, et notamment dans les pays d'Europe et de la Méditerranée, y compris le Maroc. De la peste noire (1348-1350) à la grippe espagnole (1918-1919), en passant par le choléra (1830-1834), les épidémies ont ravagé les populations, et engendré des drames humains épouvantables. Mais, loin de toute résignation, l'on a toujours lutté, par tous les moyens, pour y faire face. Au 19^e siècle, en pleine pandémie de choléra, les biologistes et les médecins ont tout fait, par des recherches de laboratoire, pour découvrir les bacilles causant ces maladies et mettre au point des vaccins. Aujourd'hui, avec la survenue du covid-19, le combat scientifique continue pour sauver l'humanité.

Mots-clés : Histoire des épidémies, la peste noire, la grippe espagnole, le choléra, les bacilles.

مقدمة

حالات حمى شديدة، وجوهٌ شاحبة، حناجر ملتهبة، صدور تنفس بصعوبة، أصوات مبحوحة، حالات غثيان وقيء، موتى بالمئات والآلاف يوميا بأزقة المدن، عجزُ الناس عن إقامة صلوات وجنائز على الموتى، حُفرٌ جماعية أو آبار جافة تُلقى بها الجثث وتُدك بالتراب دكا، بخورٌ هنا وهناك لطرد الروائح الكريهة، ابتهالاتٌ وتضرعات إلى السماء أملا في رفع الوباء، مآسي، أراملٌ، أيتامٌ.. كانت هذه المشاهد مألوفة في تاريخ البشرية. ضربت الأوبئة المجتمعات، في كل أنحاء المعمور، بصورة دورية وبدرجات متفاوتة، بحسب المجالات والتجمُّعات والسياقات.

في مرحلة ما قبل التطور الصناعي والعلمي الذي عرفه العالم الغربي في القرن التاسع عشر، قاوم الناس الأمراض والأوبئة بما تيسر لهم من أعشاب، وما أُوتوا من معارف وأساليب وقائية، على بساطتها وقلة فعاليتها. لكن الخسائر البشرية كانت كبيرة، والمآسي الاجتماعية كانت فظيعة. هذا ما يفسر عقليات الناس، حيث رأوا فيها بلوى إلهية، وعقبا على الشرور والآثام، وغضبا من الجن، وتشبثوا بالغيب، وبكرامات الصلحاء والأولياء. في القرون الوسطى، وفي حقبة ما قبل الحداثة عموما، كان الخوف من الوباء هو سيد الموقف، ولا أحد كان يثق في الحياة. ولذلك، كانت الكرامات متنفسا سيكولوجيا للعوام، إذ كانوا يعتقدون إمكانية حدوثها في حياة أي شخص من الأشخاص، أو في أي لحظة من اللحظات الحرجة، حيث تتدخل الإرادة الربانية للإنقاذ (جاك لوغوف، 1964). اليوم، مع عجز الطب الحديث عن مكافحة وباء كورونا على نحو سريع وفعال، أسئلة كثيرة تُطرح من جديد، فلسفية ودينية، وليس فقط علمية.

تعددت الدراسات والأبحاث عن الأوبئة، خاصة عقب الإنفلونزا الإسبانية التي اجتاحت العالم عامي 1918-1919. لكن معظم هذه الأعمال، التي أُنعت خلال القرن العشرين، كانت في البداية بقلم المختصين في العلوم البيولوجية والطبية، حتى أن بعضهم، من المنفتحين على العلوم الاجتماعية، كتبوا عن تاريخ الأمراض والأوبئة بحس ديموغرافي وتاريخي كبير، كما هو الشأن مثلا بالنسبة للطبيب الفرنسي جون نويل بيرابين الذي كتب عام 1979 مؤلفا مرجعيا عن تاريخ الأوبئة في البلدان الأوروبية والمتوسطية. ثم ظهرت على ساحة البحث التاريخي مجموعة من الأعمال المؤسسة، في طليعتها الكتاب الجماعي الصادر تحت عنوان "تاريخ الفكر الطبي في أوروبا" (3 مجلدات) الذي أكد على أهمية الوباء القصوى باعتباره "ظاهرة شاملة تؤثر على الاقتصاد والديموغرافيا والطبائع" (جيريميك، 1995). وفي المغرب، اشتغل عدد من الباحثين في هذا الموضوع، منهم محمد أمين البزاز (تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، 1992)، وبوجعة رويان (الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب، 2013). وكلها أعمال تناولت آليات التحول التي نقلت العالم الغربي، في مرحلة أولى وباقي العالم في مرحلة موالية، من المقاربة الغيبية إلى المعالجة العلمية، والتي جعلت من الطب "تقنية" تستند إلى الملاحظة والتجربة، ابتداءً من عصر الصناعة، كما عالج انتقال الطب

الحديث إلى المستعمرات وما ترتب عن ذلك من تحسّن في الخدمات الصحية وتزايد في أعداد السكان.

الطاعون الأسود (1348-1350)

يعتبر عدد من المؤرخين الطاعون الأسود (1348-1350)، الذي انطلق من آسيا بواسطة القوارض، وضرب مناطق آسيا وأوروبا وشمال إفريقيا، أخطر وباء عرفته البشرية على الإطلاق، كونه عصف بحياة "ثلث سكان العالم"، كما تقول إخباريات ذلك الوقت، حيث كانت المناعة وحدها من تقرر بقاء الإنسان أو موته. وتفسّر هذه التسمية باللون القاتم الذي كانت تصبغ عليه حالة المريض. أما من الناحية الطبية، فيعرف هذا المرض بـ "الطاعون الورمي" بسبب ظهور أورام عند ثنية الفخذ والإبط. ومن الأعراض الأخرى التي كانت تظهر على المريض: التهاب الحنجرة والعرق والحكة وآلام عنيفة في الصدر والتقيؤ وبصق الدم والحمى وحرارة الجلد (تشارلز موليت، 1956).

كانت عدوى الطاعون تنتشر- بسرعة كبيرة عن طريق الاتصال المباشر، وحتى بواسطة الأشياء التي يلمسها المرء. وكانت فجائية المرض وحدته تصل إلى درجة يمر فيها الشخص من صحة جيدة إلى الموت في ظرف أقل من يوم واحد. وعموما كان المرض لا يميل المريض أكثر من خمسة أيام. يقول أحد الأطباء الذين عاصروا هذا الوباء، وهو غي شوليك الذي كان في خدمة البابا كليمان السادس: "هذا الوباء نوعان. الأول دام شهرين، إذ كان الناس يصابون بحمى لا تنقطع ويبصقون الدم. فكانوا يموتون في غضون ثلاثة أيام. أما الثاني، والذي دام بقية الوقت، فقد تميز، بالإضافة إلى الحمى المذكورة، بظهور أورام وجمرات على البدن، وخاصة عند الإبط وثنية الفخذ. فكان المرضى يموتون في غضون خمسة أيام. لقد كان المرض معديا لدرجة كبيرة جدا، وبالأخص عندما يتعلق الأمر بحالات بصق الدم، إذ كانت تنتقل العدوى لمجرد نظر البعض إلى البعض الآخر. فمات الناس من جراء ذلك في غم شديد، من دون رعاية عائلية أو دينية. فقد كان الأب لا يقترب من ابنه، والإبن لا يقترب من أبيه" (حبيدة، 2010).

ولذلك، كانت أعداد الموتي كبيرة جدا. في باريس مثلا كان يموت من الناس يوميا ما يقارب ثمانمائة شخص. وهذا المشهد كان يتكرر في الكثير من المدن الأوروبية، إذ عجز الناس عن دفن موتاهم على النحو المعتاد، مما اضطرهم إلى وضعهم في مقابر جماعية. وقد خلق المرض مشاهد رهيبية من الهلع والرعب في القرى والمدن، إذ تعفن الجو بالروائح الكريهة وانتاب الناس خوف شديد، إذ أن الذين لم يُعَجَّل بهم المرض إما أحرقوا منازلهم وإما هجروا عائلاتهم وفروا إلى الغابة، وإما تعاطوا للنهب والسرقة. فقد عم المجتمع الأوروبي، كما يقول الطبيب المذكور، جوا "انعدم فيه الرحمة وانقطع الرجاء".

وخلال هذا الوباء، جرّب الأوروبيون أساليب الوقاية والعلاج تجريبا ماديا، والتي وإن كانت محدودة الفعالية فإنها أسست لطريقة جديدة في رؤية الأمور بعيدا عن خرافات الكنيسة

التي لم تعد تجدي نفعا. ومن هذه الأساليب استعمال العطور والبخور لتطهير الهواء من عفونة المرض وروائح الكريهة، واستعمال خليط ماء الورد والخل لغسل الأيدي والقمم. ويبدو أن البابا كليمنت السادس قد نجا من المرض بفضل هذه الطريقة. ومن جهة أخرى، عملوا بإجراءات الحجر الصحي للحد من انتشار العدوى عبر الاختلاط والاحتفاظ. وكانت "الكروتينة" التي قضت، في القرون الوسطى، بحبس المطعونين لمدة أربعين يوما تفاديا للعدوى، قد استلهمت من نهج الطبيب الإغريقي أبقراط الذي كان يرى بأن المرض لا يتطور بعد أربعين يوما من الانعزال. وتعتبر مدينة ميلانو نموذجا في هذا الباب، إذ فرض حاكمها جون فيسكونتي، بشكل صارم هذه الإجراءات بواسطة جهاز من رجال الأمن، الذي صار يعوّض، من حيث السلطة المفروضة على الناس سلطة رجال الدين وذلك بصورة تدريجية. ولذلك، حاصر البيوت التي مسها المرض، بما فيهم الأصحاء، حتى لا تنتشر العدوى بالمدينة، مما يفسر، على الأرجح، كون أن المدينة لم تعرف نفس التزييف الديموغرافي الذي عاشته المدن الأوروبية الأخرى (حبيدة، 2010).

ولم ينج المغرب، وبلاد المغرب الكبير بصفة عامة، التي كانت تحت حكم المرينيين، من هذا "الطاعون الجارف"، وفق شهادات المعاصرين من أمثال ابن خلدون، وابن الخطيب، وابن خاتمة. وتعد الأفكار التي طرحها ابن خلدون في "المقدمة" عن الوباء ذات قيمة طبية أكيدة. فقد ربط بين تفشي "الطواعين" وكثرة "الموتان" بكثافة العمران وشدة الاختلاط والعفن وفساد الهواء، وانتشار "الأمراض المخصوصة بالرئة" و"الحُمَيَات في الأمزجة". ويبقى ما قاله عما تسبّب فيه الطاعون الجارف من خراب في العمران البشري وتزييف في النسيج الديموغرافي وضعف في الميدان السياسي، غاية في الأهمية:

"نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة (للهجرة) الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاه، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها وقل من حدّها وأوهّن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها. وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخرّبت الأمصار والمصانع، ودُرست السبل والمعالم، وحلّت الديار والمنازل، وضُعفت الدول والقبائل، وتبدّل الساكن، وكأنّ بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب... وكأنا نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض... وإذا تبدّلت الأحوال مجلّة، فكأنا تبدّل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلّق جديد ونشأة مستأنفة وعالم مُحدّث، فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والتّحل التي تبدلت لأهلها.." (ابن خلدون، 1989).

وقد استمر الطاعون في اجتياح بلدان أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط طيلة القرون اللاحقة. ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثلا، ضرب هذا الوباء، بقوة، إنجلترا وهولندا وفرنسا ما بين 1665 و1668، وألمانيا والنمسا عام 1679. ثم عاد ليحتاح فرنسا،

وخاصة مدينة مرسيليا بشكل عنيف عام 1720. لكن مقاومة الوباء ظلت حيوية مع ذلك، إذ ابتكر الأطباء الأوروبيون أساليب وقائية جديدة، تمثلت بالأساس في صنع زيّ طبي واقٍ من الطاعون، مكوّن من سترة طويلة تنزل حتى الكاحلين، مصنوعة من الجلد أو من قماش مُشَمَّع، ومدعومة بقبعة، وقفازات، وقناع منقاري مُقَمَّم يشبه منقار طائر الهدهد.

في هذه المرحلة، وبالضبط في عام 1799، انتشر الطاعون في المغرب بمختلف المناطق والمدن انتشارا فظيعا، حتى أن مدينة الرباط وحدها، وفق وثيقة قنصلية، سُجِّلت بها "20.000 ضحية، من أصل 30.000 نسمة". وقد أنجزت عن هذا الوباء الفتاك دراسات كثيرة، أقدمها تلك التي حرّرت بقلم طبيب فرنسي في بداية القرن العشرين تحت عنوان "طاعون 1799"، والتي اعتمدته أبحاث عديدة فيما بعد (رونو، 1921).

ولم يتم القضاء على هذا الوباء إلا في نهاية القرن التاسع عشر، بفضل الأبحاث المخبرية التي قام بها الطبيب والبيولوجي السويسري ألكسندر يارسن، حيث اكتشف عام 1894 الباسيل المسؤول عن المرض، وصنع أول لقاح ضد الطاعون، مما مكّن من إنقاذ حياة الملايين من البشر- عبر العالم.

الكوليرا (1830-1834)

في القرن التاسع عشر شكلت الكوليرا وباء هدد البشرية، انطلاقا من الهند، باعتبارها البؤرة الرئيسية التي امتد منها المرض ليعم مختلف أرجاء المعمور، شرقا باتجاه الصين واليابان، وغربا نحو أوروبا وألحوض المتوسط. لقد عصف هذا المرض الذي يسمّى أيضا بالخوف الأزرق، حيث كانت تلعو الجلد زرقة بسبب الإسهال الحاد والقيء، بحياة مئات الآلاف من البشر في هذه الأرجاء، بما فيها المغرب الذي قديم إليه من أوروبا بحكم العلاقات التجارية بينه وبين بلدانها. لما وصل الوباء إلى أوروبا وضررها ما بين 1830 و1834 كانت الظروف مواتية لتمدّد بقوة، ويعصف ليس فقط بحياة عامّة الناس، من البروليتاريين الذين عاشوا خلال هذه المرحلة بؤسا رهيبا في المدن الصناعية، نتيجة الاكتظاظ والسكن غير اللائق وقلة النظافة وغياب قنوات الصرف الصحي، بل بخاصّة الناس أيضا. الفيلسوف الألماني هيغل، مثلا، كان قد ذهب ضحية هذا الوباء عام 1831، مثله في ذلك مثل العالم الفرنسي جون فرانسوا شامبليون الذي فك رموز الهيروغليفية (اللغة المصرية القديمة)، والمستكشف الملاحي الروسي فاسيلي غولوفنين. ففي هذه السنوات المشؤومة كانت الكوليرا، التي نعتمها ألكسندر مورو دو جونيس في التقرير المقدّم للمجلس الأعلى للصحة الفرنسي بـ "وباء الكوليرا الخبيث"، قد خدشت معالم هذه الحادثة وذكّرت الجميع بأهوال طاعون القرون الوسطى. باريس وحدها، في ربيع عام 1832، توفي بها 18402 شخص (من أصل 785862 نسمة).

ومن موائى أوروبا وصلت الكوليرا إلى المغرب عام 1834، حيث كانت من وراء موت "خلق كثير وجم غفير"، بحسب العبارة التي ترددت في الكثير من النصوص التاريخية. وقد أورد

المؤرخ محمد الأمين البزاز، في كتابه "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب"، شهادة إخبارية تقول: "هو ريح ما سمعوا به، قاتل من حينه، ويسمونه عندنا في المغرب بأسماء الكوليرة والريح الأصفر وبوقليب.. إذا أصاب الرجل تغير لونه واسود جفن عينه ويجعله يقيء من أعلى ويسهل من أسفله، ومن الناس من يشتهي مع ما ذكر وجع رجله ويموت في الحزن" (البزاز، 1992). وثمة شهادات أخرى كثيرة، كذلك التي جاءت عند العربي المشرفي: "كان الموت موت بغتة وفجأة، حيث يرى الإنسان أخاه يمشي صحيحاً ويسقط ميتاً" (المشرفي، 2014). ثم ما لبث وباء آخر، من فصيلة بكتيريا التيفوئيد المسببة لحُمى وأوجاع حادة، أن عاد سنة 1842 ليصف ببحية الناس على نحو أشد فتكا، حيث أودى في مدينة مراكش بحياة نصف عدد المصابين، في ساكنة كان عدد أفرادها يتراوح بين 30.000 و 40.000 نسمة (البزاز، 1992).

تدل هذه الإشارات والأرقام التي تهّم المغرب إلى أي حد كان النزيف الديموغرافي كبيرا، لكن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن الأوبئة ضربت البلاد على نحو متفاوت من الناحية الجغرافية. كانت المدن والسهول الأطلنتية هي التي تضررت أكثر. وفي المقابل، نجت مناطق كثيرة أخرى، ولاسيما الجبال والواحات التي "تمتعت بنوع من المناعة" بفضل وسطها البيئي، حيث لم يكن بمقدور الوباء أن ينتشر في المناطق الجافة والباردة (بيرنار روزينزجي وحميد التريكي، 1974). ولذلك، لعب الناجون دورا ديموغرافيا مَقْوَمًا، إذ شكلوا خزانًا بشريا خلق نوعا من التوازن بواسطة هجرتهم باتجاه المناطق الفارغة.

وفما وراء حجم الخسائر البشرية التي خلفها الوباء، وتفاصيل المرض وما نجم عنه من مآسي اجتماعية، من موت جماعي وترُمُل وتيُم، يحتفظ المؤرخ برد فعل المجتمع والدولة في مواجهة هذه الكارثة البيولوجية. فقد أبان الناس عن قيم التضامن والتكافل من حيث الاعتناء بالمرضى، ومساعدة الفقراء، وتبني الأيتام. ولعب المخزن دورا كبيرا في التخفيف من معاناة الناس، إذ كان يوزع الصدقات على المحتاجين، وفق إشارات الوثائق، ويعاقب المضاربين الذين كانوا يستغلون الأزمة لتخبيئة المواد الغذائية والزيادة في أسعارها، كما كان يُخرج ما في مخازنه من حبوب لضمان وفرتها في الأسواق، وخلق توازن بين العرض والطلب.

غير أن ما يثير الانتباه في موضوع الكوليرا هو اختلاف المقاربة التي نهجتها المجتمعات إزاء الوباء. ففي الوقت الذي ظلت فيه المجتمعات الهندية والعربية الإسلامية، ومجتمعات أخرى في آسيا وإفريقيا، وفيّة لطرق العلاج التقليدية ومتشبثة بالغيب، سارت أوروبا على درب الملاحظة والتجربة وكافحت ضد الأمراض والأوبئة بطريقة علمية ومحبرة. ففي القرن التاسع عشر تطور العلم في الجامعات الأوروبية، وتعاظمت سلطة البيولوجيين والأطباء، واتخذت شكل ثورة علمية مع عالمي البكتيريا، الألماني روبرت كُوش مكتشف "بكتيريا الكوليرا"، والفرنسي لويس باستور مكتشف التلقيح. منذ ذلك الوقت، أصبح العنصر المرضي الرئيسي الواجب الاحتماء منه هو الميكروب الذي لا لون له ولا رائحة، والذي لا يمكن الكشف عنه إلا بواسطة المجهر.

وتحول هذا النهج العلمي إلى سياسة دولية لما نادى فرنسا عام 1834 بتوحيد مقاييس الحجر الصحي، والتي لم يصادق عليها المجتمع الدولي إلا سنة 1851 خلال أول مؤتمر طبي عالمي انعقد بمدينة باريس. وبذلك تغيرت الممارسات الصحية رأسا على عقب، تعززت مع إقرار أولى عمليات الفحص المنتظمة والفعالة عند الدخول إلى نيويورك عام 1887. ففي هذا القرن استطاع الغرب رسم حدود بيولوجية بين عالمين متفاوتين: عالم أوروبا وأمريكا الشمالية وحتى اليابان التي استطاعت اللحاق بالركب الغربي مع ثورة الميكي، من جهة، وباقي العالم (آسيا وإفريقيا) من جهة ثانية، حيث صارت الأوبئة ميدانا مواتيا للتعبير عن "تفوق" أوروبا العلمي، من خلال الاكتشافات الطبية والمخبرية، والتجارب السريرية، والمؤتمرات الصحية الدولية التي انعقدت في كبريات المدن الأوروبية، والمجلات المتخصصة، والتجهيزات الصحية، التي جعلت من الطب مؤسسة قائمة على البحث العلمي.

ومع موجة الاستعمار، عمت الثورة العلمية الباستورية (نسبةً للويس باستور)، القائمة على أساس التشخيص والمجهر والتحليلات الطبية، أقطار عريضة من العالم. في المغرب مثلا، الذي عانى لقرون طويلة من الأوبئة شأنه في ذلك شأن باقي المجتمعات البشرية، لعب "معهد باستور"، الذي رأى النور بالدار البيضاء عام 1929 بمبادرة من الطبيب الفرنسي إميل رُو، دورا كبيرا في الانتقال من طب تقليدي إلى طب حديث. ويبيّن الباحث بوجعة رويان في كتابه "الطب الاستعماري الفرنسي بالمغرب" (2013)، كيف أظهرت هذه المؤسسة للجميع تفوق العلم على الشعوذة والدجل، لَمَّا زُوِّدَت المستشفيات والمستوصفات بكليات كبيرة من اللقاح، إذ وفّرت ما بين 1932 و1935 ما يقرب من أربعة ملايين جرعة لقاحية لأغراض طبية مختلفة، إيذانا بمرحلة جديدة اتسعت فيها دائرة عمليات التلقيح وآليات العلاج المرتبطة بالإسعافات والأدوية ولوازم النظافة في معالجة الأمراض والأوبئة.

الإنفلونزا الإسبانية (1918-1919)

في خريف عام 1918، في الوقت الذي كانت فيه الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، تفشّت إنفلونزا قاتلة، بمضاعفاتها التنفسية، في مختلف أنحاء العالم. ويختلف الباحثون بخصوص المنطقة التي انطلق منها الوباء، إن كانت آسيا أو الولايات المتحدة الأمريكية، لكن، من باب المفارقة، حملت هذه الجائحة اسم "الإنفلونزا الإسبانية"، لأن صحافة إسبانيا، التي كانت محايدة خلال هذه الحرب، هي التي تكلمت كثيرا عن هذا الوباء في مرحلة كانت فيها الدول المشاركة في النزاع العالمي قد فرضت على المرض رقابة إعلامية تفاديا لما قد يترتب عن تضخم الأرقام الخاصة بضحايا المعارك من آثار سلبية على الجيوش. كما يسميها بعض المؤرخين بـ "الجائحة المنسية"، التي لم توقظ "الذاكرات النائمة" إلا لما تكررت الجوائح الزكامية في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة في أوائل القرن الحالي، مع وباء 2009 الذي خلق رعبا كبيرا، والمعروف باسم "إنفلونزا الخنازير" (صنف "إتش وإن إن وإن")، حيث تعددت دراسات الباحثين الذين تأثروا بالطلب

على التاريخ و"دروس الماضي" المرتبطة بحالات الخوف العظمى المعروفة في تاريخ البشرية (فريدريك فانيورون، 2018).

وبحسب الأبحاث التي جرت في مطلع الألفية الثالثة، والتي أخذت بعين الاعتبار الإحصائيات المتوفرة في مختلف أنحاء العالم وخاصة في آسيا، راح ضحية هذه الجائحة ما يناهز 50 مليون ضحية، أي أكثر بكثير من قتلى الحرب (20 مليون قتيل من العسكريين والمدنيين)، علما بأن أرقام الوفيات كانت صعبة للغاية في ذلك الوقت بسبب التداخل الحاصل بين ما تسببت فيه الحرب العالمية وما نجم عن الإنفلونزا.

قبل عام 1918، كانت جوائح الإنفلونزا تنتشر في أوساط الأهالي ثلاث مرات كل قرن، غير أن وتيرة ظهورها صارت متسارعة فيما بعد. ويرى الطبيب والبيولوجي الفرنسي باتريك بيرش بأن جوائح الإنفلونزا في الفترة الممتدة ما بين 1700 (الإنفلونزا الكندية) و1889 (الإنفلونزا الروسية) كانت متباعدة فيما بينها زمنيا بما يقارب الخمسين سنة، لكن هذا الفارق الزمني تقلص كثيرا، كما تدل على ذلك أوبئة أعوام 2003 (السارس) و2009 (إنفلونزا الخنازير) وما نعيشه اليوم مع الكوفيد-19، بفعل "التزايد الديموغرافي واتساع التمذُن وكثرة المبادلات الدولية" (باتريك بيرش، 2012).

وتمنح الإنفلونزا الإسبانية إمكانية تقاطع نظرة المؤرخ والبيولوجي من حيث ملاحظة ما حصل إبان وباء 1918-1919. فالجميع لاحظ كيف أن المرض عصف باليافعين على وجه الخصوص، في حين سلم الكهول والشيخوخ على نحو مثير للسؤال. ومرد ذلك أن هؤلاء كانوا قد اكتسبوا مناعة من جراء الإنفلونزا الروسية التي كانت قد اجتاحت أوروبا قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة، مما يفسر كثرة الضحايا في أوساط الشبان وصغار السن عموما.

لكن ما يثير انتباه المؤرخ، في تاريخ الإنفلونزا الإسبانية، هو الجانب الاجتماعي، وذلك بصرف النظر عن الأسئلة البيولوجية البعيدة عن اختصاصنا، والمرتبطة بالتطور الوراثي الذي من شأنه أن يغني التاريخ الطبيعى لفيروس الإنفلونزا، وعن حجم الخسائر البشرية التي جعلت بعض الباحثين يرون في هذه الإنفلونزا "الجائحة الأكثر إبادة في التاريخ". في هذا الباب، تؤكد الدراسات العرقية والنسائية، كيف أن تدبير الوباء عزز التفاوتات الاجتماعية والسياسية. في أمريكا الشمالية، مثلا، تفيد الدراسات التي أنجزها المؤرخون الأمريكيون والكنديون، انطلاقا من الوثائق المحلية، أن آليات رعاية المصابين، اتخذت شكلا اجتماعيا وسياسيا. ومعنى ذلك، أن المستشفيات والأطباء، في ظل عجز التجهيزات الصحية عن احتواء جميع المرضى، اعتنت بالدرجة الأولى بالرجال قبل النساء، وبالأغنياء قبل الفقراء، وبالبروتستانتين قبل الكاثوليكين، وبالبيض قبل السود (فريدريك فانيورون، 2018). كما اهتم الأطباء، في ظروف الحرب العالمية، بالعسكريين قبل المدنيين، هذا مع العلم أن هذه الحرب كانت قد جندت جميع الأطباء، بمختلف أصنافهم، العسكرية والمدنية، ووضعتهم على جبهات القتال.

لكن الدرس الرئيسي الذي احتفظت به الدول التي عانت من هذه الجائحة، هو درس حفظ الصحة. فقد عملت دول أوروبا وأمريكا الشمالية على إعادة النظر في منظومة الصحة برمتها، وذلك بتعزيز أساليب الوقاية، وتجديد التجهيزات الصحية، والاهتمام بطب الوقاية على نحو خاص، وتحفيز البحوث البيولوجية والطبية، لتحسين الرعاية الصحية حتى يستفيد منها الجميع من دون تمييز.

ومن جهة أخرى، طرح المؤرخون أسئلة علم، ذاكرة الهباء الجماعية. ما يلاحظ بهذا الخصوص، هو غلة ذاكرة الحرب علم، ذاكرة الهباء، إذ لم يتذكر الناس، الإنفلونزا الإسبانية، فما بعد، إلا كحدث من أحداث الحرب العالمية، مع العلم أنه في الوقت الذي انتهت فيه الحرب، وخصوصاً عام 1919، كان حديث الناس، قد همن، عليه المرض، وما خلقه من مأساة، في حياة العائلات أكثر مما انصب علم، الحرب التي، لم تنته بها سوى الصحف والتقارير السمية. لكن سمرعان ما طواه النسيان. ولذلك، لم تتجدد ذاكرة هذه الإنفلونزا إلا في النصف الثاني من القرن العشرين لما ظهرت موجات جديدة من الفيروسات المميتة.

وعلى غرار الجوائح السابقة الأخرى، مسّت الإنفلونزا المغاربة الذين سمّوها آنذاك بـ "المرض ديال اسبانيول"، وذلك عقب عودة الجنود المشاركين في الحرب إلى قراهم وبلداتهم، حيث أودت بحياة ما يقرب من 100.000 شخص، خلال الشهور الأخيرة من عام 1918، ومطلع العام الموالي، حتى أن قرى بأكملها أفرغها المرض من أهلها، على الرغم من جهود الطب الحديث الوارد من أوروبا، الذي كان ما يزال في بدايته في ذلك الإبان (موساوي وآخرون، 1992).

خاتمة

في الأزمنة الحديثة، إذن، تطورت الأمور. ظهر التلقيح، وتحسنت الخدمات الطبية وتضاعف عدد الشبه. وبعد الحرب العالمية الثانية، ازدادت ثقة الناس، في العلوم البيولوجية والطبية، ونسوا كوارث الماضي، الهائلة، خاصة لما اكتشف الباحثون المضادات الحيوية، وأدت منظمة الصحة العالمية النور عام 1947، وتعددت اللقاءات العلمية عبر العالم ومعها تبادل الخبرات. وأبان التقدم العلم، عن فعاليته في مواجهة التهديدات الوبائية التي، مثلتها الإنفلونزا: الإنفلونزا الآسيوية (1957)، وإنفلونزا الخنازير، في الولايات المتحدة (1976)، وإنفلونزا الطيور، في هونغ كونغ (1997). وحدث ما لم يكن، في الحسان، حيث ظهر فيروس جديد في مرم عام 1919 بالصحراء: فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، هذا السمر القاتل، الذي أثار جدلاً واسعاً بين المختصين، والمهتمين، وأبك حسانات الجمع. اليوم، مع تكنولوجيات الافتعال البيولوجي، لا أحد يعرف حقيقة هذا الفيروس، وها الأمر يتعلق بحرب بيولوجية كما يقول البعض. لكن الأمر الأكيد هو أن وباء اليوم يختلف عن وباء الأمس، لأنه كسّر "الحدود البيولوجية" التي أقامها الغرب في القرن التاسع عشر كما ذكرنا، وجمّع الدول المتقدمة والأقلام، تقدماً في سلة واحدة، كونه حصد الأرواح من دون تمييز، مذكراً العالم أجمع بكوارث الماضي، من طاعون وكوليرا وإنفلونزا.

والأكثر من ذلك، تطرح شدة الوباء على العلماء والمفكرين سؤال الحداثة، كونها ليست بالحصن المنيع، رغم ما تراكم من معارف وأموال وتجهيزات. هذا ما يُظهره عجز أوروبا وأمريكا الشمالية عن احتواء الكورونا، التي نشأت الهلع والخزع، احتواءً سمعياً وفعالاً وشاملاً، بالقاسم، إلى الأنظمة الصحية المتطورة التي تتوفر عليها. شيء آخر لا يد من إثارته: "عالم الغد لن يكون مثلاً، عالم اليوم"، هذا ما يقوله عدد من النباء ممن يتابعون تطورات هذا الوباء الذي أوقف عجلة الاقتصاد العالمي. لكن السؤال الذي ينبغي طرحه: أي تغير قد يصير عليه هذا العالم، اقتصادياً وساسياً؟ بعض المتفائلين يقولون بأنسنة العالم، لكن الأسئلة لا تعترف إلا بالمصلحة والربح ولا ترغب إلا في السيطرة. إذا غلست المصلحة الأنسنة، يداع إنعاش الاقتصاد وما قد يترتب عن ذلك من مديونية، معناه أن قانون المال والأعمال سحكم قبضته على الدول والمجتمعات والأفراد أكثر من أي وقت مضى. بآلياته المصرفة المعروفة، ودما علم، نحو أشد ما قد يتصوره البعض. ويبقى الدرس العملي والفوري، على المستوى الوطني بالخصوص، هو درس الحياة، كون أن الاستثمار في البحوث الطبية والأساليب الوقائية المواتية والأنظمة الغذائية الصحية، هو السبيل الوحيد لمستقبل بيئي يتسع لجميع الأجيال.

المراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن، 1989، المقدمة، بيروت، دار القلم.
- البزاز، محمد أمين، 1992، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- حبيدة، محمد، 2010، تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- رويان، بوجعة، 2013، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب، 1912-1945، الرباط نيت.
- المشرقي، العربي، 2014، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، تحقيق الحسين الفرقان، الرباط، منشورات دار التوحيدي.
- Berche, Patrick**, 2012, *Faut-il encore avoir peur de la grippe? Histoire des pandémies*, Paris, Odile Jacob.
- Biraben, Jean Noel**, 1979, *Les hommes et la peste en France dans les pays européens et méditerranéens*, (2 tomes), Paris – La Haye, Mouton.
- Grmek, Mirko Drazen** (éd.), 1995-1999, *Histoire de la pensée médicale en Occident*, Paris, Seuil (t. 1: Antiquité et Moyen Age; t. 2: De la Renaissance aux Lumières; t. 3: Du romantisme à la science moderne).
- Le Goff, Jacques**, 1964, *La civilisation de l'Occident médiévale*, Paris, Arthaud.
- Moussaoui D., Battas O., Chakib A**, 1992, «Histoire de la médecine au Maroc pendant le Protectorat», *Histoire des sciences médicales*, tome XXVI, n° 4, pp. 291-299.
- Mullett, Charles**, 1956, *The Bubonic Plague and England. An Essay in history of preventive medicine*, Lexington, University of Kentucky Press.
- Renaud, Henri P. J.**, 1921, «Recherches historiques sur les épidémies au Maroc: la peste de 1799», *Hespéris*, t. 1, 2° trim., pp. 160-182.
- Rosenberger, Bernard et Triki Hamid**, 1974, «Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e siècles», *Hespéris-Tamuda*, volume 15, pp. 5-103.
- Vagneron, Frédéric**, 2018, «La grippe espagnole: une historiographie centenaire revisitée», *Ler Historia*, 73, pp. 21-43.

المؤرخ والجوائح : بين العبرة وإعادة الاعتبار

سعيد البوزيدي

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

said.elbouzidi@uit.ac.ma

ملخص

يؤكد التاريخ أن الأوبئة أمر مُعتاد، تتكرر وتتجدد وتزداد انتشارا، ليس فقط، داخل الدولة الواحدة وإنما أيضا عبر القارات. تعددت الدراسات والاهتمامات التاريخية التي عالجت موضوع الجوائح والأوبئة واستعرضت أنواع الأمراض ونتائج تفشيها وآثارها على كل المستويات. وهي بالتالي تُشكل مرجعية علمية تقتضي توظيفها أثناء تجدد ظهور الأمراض المُعدية. من هنا، يضطلع المؤرخ بدور المؤتمن والوصي على هذه "الذخيرة العامة" للمساهمة، بدوره، في مكافحة الوباء المُتجدد. ولذلك، يتحمل "مسؤولية تاريخية"، تجعل منه أحد الفاعلين الأساسيين لتدبير الجائحة المُتجددة التي تضرب العباد وتخرب البلاد وقد تُغير من مجرى التاريخ.

الكلمات المفتاحية: الجائحة، الأوبئة، المؤرخ، المسؤولية، التوعية، الحلول، التنبيه، الانضباط.

Résumé

L'histoire nous apprend que les épidémies étaient courantes et habituelles. Leur caractère répétitif a ravagé les pays et les continents, tout au long de l'histoire de l'humanité. La multiplicité des études sur les pandémies et les maladies, ainsi que les résultats qui en découlent, constituent une base de références scientifiques qui pourrait être exploitée en matière de planification des stratégies de lutte contre les épidémies. A ce titre, l'historien, de par sa connaissance du passé, peut contribuer, en tant qu'acteur, dans cette lutte pour vaincre, aujourd'hui, ce mal qui a décimé, dans les siècles passés des populations entières et changé le cours de l'histoire.

Mots-clés : Pandémies, épidémies, historien, responsabilité, sensibilisation, alerte, discipline

مع دخول المغرب فترة الحجر الصحي ابتداءً من 20 مارس 2020، أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام السمعي البصري مصدر تتبع لأخبار تطور الوضع الصحي الناجم عن انتشار وباء كورونا - كوفيد-19. كما أنها تحولت إلى منصات إعلامية للتعبير عن اهتمامات "مُريدي" الشبكة العنكبوتية، وتبادل الأخبار حول "الحادث"، ونقل المُستجدات الآنية ذات الصلة بتطور الوضعية، والتعليق عليها.

في ظل هذه التفاعلات التواصلية، يضطلع المؤرخ بدور أساسي، من زاوية الطلب على معارفه، فيما يتعلق باستيعاب الحالة الوبائية التي تعيشها البلاد. ومعنى ذلك، أنه يتحمل "مسؤولية تاريخية" لأنه مُؤتمن على التجارب التي عرفتها الإنسانية عبر التاريخ، وعلى بيئة بتكرار وتجدد الجائحة¹، كونها "ليست حالة مرضية (فردية)، وإنما هي حالة مُعدية (جماعية)". فكتب التاريخ، تحمل في طياتها العديد من الأخبار والتجارب التي تُساعد على الفهم، وتمكّن من المساهمة في إيجاد الحلول المناسبة.

1. توالي ظهور الأوبئة وتجدها عبر التاريخ

لا تخلو فترة تاريخية، من القديم إلى المعاصر مروراً بالفترتين الوسيطة والحديثة، من ظهور أمراض وأوبئة ومجاعات وكوارث طبيعية. ويكفي أن نشير إلى أن المصادر التاريخية اليونانية والرومانية حبلت بمعلومات عن الأمراض والأوبئة التي عرفها العالم المتوسطي خلال الفترة القديمة (Thucydide، 1990). وهي تُميز بين المحلية والوافدة والقاتلة والمدمرة والفئكة، كما أنها تقدم مجموعة من التدابير التي أقدمت عليها الدول، مثل الحجر الصحي الذي عرفته قرطاج بعدما أصابها الطاعون في نهاية القرن 5 ق. م (Benoît Rossignol، 2002).

وجاءت المصادر التاريخية الوسيطة بكثير من الإشارات، وذكر للأزمات التي عرفها العالم المتوسطي، وخاصة أوروبا التي كانت تمر من "عصر الظلمات"، وما وأكبه من أمراض ومجاعات وأوبئة جعلت الكنائس تتحول إلى مُخلصة للبشرية عبر "صكوك الغفران" (Coppin Brigitte، 2006). ويبقى أشهر وباء شهده تاريخ أوروبا هو الطاعون الأسود (1348 - 1350) الذي قُدّر عدد ضحاياه بثلاث سكان العالم.

يظل تاريخ أوروبا غني بالمادة التاريخية التي تناولت موضوع "الجوائح والأوبئة" لما أحدثته من تغييرات على مستوى مسارها التاريخي. يقول محمد حبيدة في هذا الصدد: "ما يظهر من تجربة الأوبئة هذه، أنها دُشنت منذ كارثة الطاعون الأسود، خاصة في أوروبا، لمسلسل من التحول الاجتماعي والفكري، وذلك بتفكك النظام الإقطاعي، والشك الذي صار يحيم على إيمان الناس بتعاليم الكنيسة، لأنها ظلت متمسكة بغيب لم يُجد نفعاً. فقد مكّن الوباء شيئاً فشيئاً من تعويض سلطة الرهبان بسلطة قوات حفظ الأمن التي استندت إليها الدول القومية الصاعدة، والتي كانت ضرورية لفرض الحجر الصحي كوسيلة فعالة للحد من انتشار العدوى عبر الاختلاط والاكتظاظ" (محمد حبيدة، 2020).

¹ الجائحة : من جاح يبيح أي مهلكة، والجمع هو الجوائح ويعني الهلاك، والعلم الذي يهتم به يطلق عليه "علم الجوائح".

وتزايدت المعلومات التاريخية عن تاريخ الأوبئة مع الكشوفات الجغرافية والتوسعات الاستعمارية الأوروبية التي شكلت رجّة عنيفة في تاريخ الإنسانية في حوض البحر الأبيض المتوسط وباقي بقاع العالم. وحيث إن شعاع التواصل وجدة التفاعل أصبح قاريا، فإن انتشار ونقل الأمراض والأوبئة تزايد وتسارع. وهذا ما وقع في عامي 1831 و1832، حيث انطلق وباء الكوليرا من الهند وانتشر باتجاه اليابان والصين شرقا وأوروبا وبلدان الحوض المتوسط غربا. كما أن شعوب القارة الأمريكية عانت، هي الأخرى، من الأمراض الفتاكة التي صاحبت وصول الأوروبيين إلى أمريكا الجنوبية، وحتى أمريكا الشمالية، حيث فقد الهنود الحمر أعدادا هائلة من الأرواح فاقت ما فقدوه في حروبهم ضد هؤلاء (Benkimoun Paul, 2008).

لقد ارتبطت الأمراض والأوبئة بالتوسعات الاستعمارية الأوروبية، إذ اتخذت منها مطية لـ "ضرورة توليها" مساعدة الشعوب التي تعاني من أزمات صحية. في هذا الصدد يقدم كتاب بوجعة رويان تشخيصا لتوظيف الطب الكولونيالي في المغرب ما بين 1912 و1956. فقد جعلت الدول الأوروبية من الأوبئة والمجاعات "صوراً إخبارية" عن الأعمال التي قامت بها لفائدة الساكنة المحلية التي كانت تعاني من مختلف الأمراض (رويان بوجعة، 2013).

ويكشف تاريخ الأوبئة، خصوصا في حوض البحر الأبيض المتوسط، أن هذه الأخيرة كانت ظواهر طبيعية تعاقبت عبر الزمان والمكان، وأن الإنسان كبر للخروج منها بكل الوسائل والسبل، مستحضرا التجارب السابقة، وخصوصا تلك التي ساهمت في التخفيف من حدة الأمراض، وسمحت بالتعايش معها إلى أن يتم القضاء عليها. كما أن هذه التجارب تؤكد بأن مصدر القلق والخوف من هذه الظواهر لم يكن هو الموت، وإنما هي الفتنة التي كان يحدثها انتشار الأوبئة والجوائح في المجتمعات (الفرقان حسن، 2014).

توجد في أوروبا معاهد كثيرة متخصصة في دراسة تاريخ الأوبئة، تُنتج مجموعة من الدراسات التاريخية التي تشكل أرضية لتقديم استشارات واقتراحات من شأنها إيجاد حلول ممكنة، استنادا إلى نتائج البحث في التجارب التاريخية. من هنا، يلعب المؤرخ دور المرجع، إلى جانب التخصصات الأخرى، في اتخاذ القرار، وينتقل بالتالي من مُتبع لتاريخ الأوبئة التي مرت منها البشرية عبر تاريخها إلى مشخّص لها، مساهما بتراكم معرفته التاريخية في تدبير أزمة الجائحة.

2. الجوائح وتغير مجرى التاريخ

تشهد المصادر التاريخية أن المغرب عرف توالي الأوبئة والأمراض، وأنها كانت من الأسباب الرئيسة لتعاقب الدول على حكم المغرب. وتقدم هذه المصادر صورا بشعة عن

انتشارها، حيث كان المرض يقتل قبل أن يضرب. فقد جاء مثلاً في وصف مرض الطاعون أنه إذا أصاب الرجل جعله "يقيء من أعلى ويسهل من أسفل"، وهي "صورة إنذارية" عن حالة الموبوء. كما أن نتائجها لم تكن تهم الفرد فقط، والذي هو الضحية، وإنما المجتمع برمته، مدمراً البشرية (البزاز محمد الأمين، 1992).

تتفاوت شساعة انتشار الأمراض وقوة الأوبئة ونتائجها حسب الظروف التاريخية التي مر بها المغرب، ويبقى أن أمر تدبيرها شكّل، في غالب الأحيان، نقطة إجماع بين الحاكم والرعية، إذ كانت الجائحة تجعل كلا من المؤسسة الحاكمة والمجتمع في "مركب واحد". وتُشير نتائج الدراسات التي همت هذا الموضوع إلى أن فترات الازدهار كانت تعقب تجاوز الأزمات الاجتماعية الداخلية المرتبطة بانتشار المجاعة وتفشي مرض الطاعون على الخصوص (المكاوي أحمد، 2002).

ويعتبر عمل الباحثين برنار روزنبرجي وحيد التريكي، حول "المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17"، من الأعمال التاريخية التي اضطلعت بدور "المُنْبِئ"، إذ أكدت على أن وباء الطاعون كان الأكثر شيوعاً في المغرب، منذ أن ذكرته المصادر في سنوات 1521-1523، ليتجدد ما بين 1557-1558، ومن 1596 إلى 1610، وفي أعوام 1626-1631، ثم طاعوني منتصف القرن 18 وجائحة "بوكليب" عام 1834، الذي توالى ظهوره خلال سنوات 1854-1855، و1859-1860، و1895-1896. هذا بالإضافة إلى "التيفوئيد" الذي تفشى مع نهاية 1878 (روزنبرجي برنار و التريكي حيد، 2010).

كما أن الكتاب الجماعي الصادر تحت عنوان "المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"، يعتبر من الدراسات التي تقدم تشریحاً تاريخياً لأشكال المجاعات وتجدد الأمراض والأوبئة بالمغرب من القديم إلى الفترة المعاصرة، والتي شملت جوانب متعددة، تجاوزت الحقل التاريخي لتهم مواضيع مرتبطة بتغير السلوكيات في المجتمعات وتبدل الطبائع البشرية. ويؤكد عمل الأستاذ عبد العزيز بلفايدة حول "بيبلوغرافيا المجاعات والأوبئة"، أن الحقل التاريخي قد راك من الدراسات ما يستدعي منه المساهمة في تدبير الأزمة التي تمر منها البلاد والعباد (المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"، 2002).

وخصّصت أكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات أشغال الدورة العامة الرسمية لسنة 2010 لموضوع الأوبئة في المغرب. وقد تناولت مداخلات الندوة أشكال الأمراض المتجددة وتاريخها وكيفية التعامل معها، كما استعرضت مستويات التدخلات العلاجية وفعاليتها، وأثارت الانتباه إلى أن آثارها وانعكاساتها متفاوتة جداً بين المجالين الحضري والقروي، وبين الفئات الاجتماعية للمجتمع المغربي. وركز التقرير النهائي للأشغال على كون الأوبئة المتجددة في المغرب

هي ذات طبيعة مسترسلة ومُفاجئة، وأن تضافر الجهود أمر مطلوب، لأن نتائجها غير معروفة، وقد تؤدي إلى تغييرات على مستوى السلوكيات الاجتماعية (L'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, 2010).

وتقدم دراسات أخرى، همت هذا الموضوع، نتاج من شأنها المساهمة في فهم ما يجري اليوم، من حيث مجريات الأزمة وسبل تدبيرها، وتعدد التجارب حسب الحالات والأوضاع، وتفاوت حصيلتها. هذا ما تؤكد عليه دراسة انكبت على تاريخ الكوارث الطبيعية وأثرها على السلوكيات والعقليات، والتي تخلص إلى مسألة أساسية، هي اعتياد الإنسان المغربي على هذه الظواهر الوبائية (البياض عبد الهادي، 2008).

على مستوى العقليات، تنطلق قوة إيمان المغاربة بحتمية توالي الأوبئة والأمراض الفتاكة، من مرجعية دينية ترى بأن كل شيء قدر، وبأنه لا مرد لقدر الله في كونه. ولذلك، كانوا يؤمنون بالخير والشر، وبأن في كل بلاء دواء. وتتجذر المرجعية الدينية لهذه القناعة في الممارسة الدينية التي كان يجد فيها الإنسان ملاذه، ويستمد منها قوته من خلال الاعتكاف والاستغفار وطلب رفع الضرر على البلاد والعباد. ومعنى ذلك، أنه كان يستشعر هول الكارثة التي ألمت بالبلاد وتفشت في المجتمع، ويعيش دوامة كانت تأتي على الأخضر واليابس، ولا تفرق بين الذكر والأنثى، ولا تميز بين الطفل والشيخ. وكما قال الشاعر: "من تُصَبُّ ثُمْتُهُ ومن تُحْطَى يُعْمَرُ فِيْهِمْ".

ومن جهة أخرى، أبانت الدراسات التاريخية كيف أن تدبير المغاربة للجوائح كان بمثابة قياس لقوة المخزن في توفير الأمن والحفاظ على السلم، إذ أن اتخاذ الاحترازمات اللازمة وفرض التدابير الوقائية والإجراءات الصحية، أمور تطلبت قوة يؤمن بفاعليتها الناس. وإذا كانت الدول الغربية قد آمنت بقوة القانون، فإن المغاربة كانوا يهابون تطبيق المخزن لهذا القانون. هذا ما تكشف عنه نتائج الدراسات التاريخية لتجارب الأوبئة والأمراض التي عرفها المغرب الحديث والمعاصر، حيث طوق المخزن الحواضر، وأمن البوادي، ونظم التفاعل بين الموجات البشرية، وفرض تطبيق إجراءات صحية وتدابير أمنية مكنت من اجتياز المراحل الصعبة (جسوس عز الدين، 2002).

ولعل من الهزات الارتدادية القوية لظهور مثل هذه الأزمات الوبائية، خلخلة مجموعة من المفاهيم والقيم والسلوكيات المجتمعية. وحيث إن انتشار الأمراض والأوبئة تجعل من الطبيب والممرض في الصفوف الأمامية من المواجهة، فإنها تثير الانتباه أيضا إلى دور المؤرخ الذي يملك خزانة من التجارب السابقة. فعلى غرار باقي القوى الفاعلة في المجتمع، يضطلع بدور "الحكم" في عرض التجارب الاحترازية والوقائية والعلاجية (Sebti Abdelahad, 2010). ويكفي أن أشير

إلى الاعتبار الذي يحظى به مؤرخو الأوبئة والمجاعات في أوروبا سواء في الأوساط السياسية أو الإعلامية وحضورهم في كل الهياكل الرسمية التي تتولى تدبير أزمة كورونا - كوفيد-19 التي تجتاح العالم.

لقد سنحت مرحلة الحجر الصحي التي دخلها المغرب يوم 20 مارس 2020 فرصة تتبع البرامج الإخبارية والندوات التي تتناول موضوع كوفيد-19 المستجد. وما أثار انتباهي، حضور باحثين من العلوم الإنسانية، إلى جانب الأطباء والمختصين في العلوم البيولوجية، في كل المنصات الإعلامية. وكان حضور "المؤرخ" وازنا، لأنه يضطلع بدور "ضابط إيقاع النقاش" بين الصحفي والطبيب والسياسي ومدراء المؤسسات الدراسية بمخبرته التاريخية، مساهما بتدخلاته في طمأننة المواطن، كون أن الأوبئة والأمراض الفتاكة ظواهر طبيعية، ذات وتيرة متوالية وقوة متجددة، لكنها عابرة، وتتطلب الانضباط في تدبير أمر حدوثها. والملاحظ، أنه من تبعات اندماج المؤرخ في هذا النقاش تزايد الإقبال على الكتب ذات الصلة بالجوائح في تاريخ البشرية، من قبيل كتاب "الطاعون" لألبير كامو.

وتجدر الإشارة، في سياق هذه الفوائد التي يقدمها التاريخ، إلى أن تطبيق الحجر الصحي أو ما يُعرف بـ "الكرنطينة" هو نهج وقائي يعود إلى العصر القديم، بفضل الطبيب الإغريقي أبقرات الذي قال بأن "المرض المُتجدد" لا يتطور بعد مرور أربعين يوما من حدوثه وأن أنجع السبل لمحاربته هي "الحجر". وقد تم اعتماد هذا الأسلوب الوقائي في معظم دول أوروبا حتى القرن التاسع عشر قبل أن تطالب فرنسا عام 1834 بتوحيد معايير تطبيقه. وفيما بعد، أصبح الحجر الصحي مُنظما بمجموعة من القوانين ابتداءً من سنة 1851 مع أول مؤتمر طبي عالمي بباريس. وفي المغرب يستند تطبيق الحجر الصحي إلى المرسوم الملكي رقم 554.65، والذي هو بمثابة قانون صدر سنة 1967 في الجريدة الرسمية، عدد 2853 من نفس السنة.

وختاما يمكن القول إن حاجة المجتمعات الراهنة إلى المؤرخ تبقى ضرورية، إلى جانب الطبيب ورجل الأمن وباقي الفاعلين في المجتمع، لأنه يقدم مادة أساسية تعتمد على تجارب البشرية مع ما حصل في الماضي من أوبئة وأمراض فتاكة. من هذه الزاوية، يلعب دور المُطمئن للحد من الهلع، والمُنذر من آفة انتشار الفوضى والفتنة. كما يقدم مادة من شأنها أن تفيد علماء البيولوجيا والأطباء، الذين يشتغلون على توفير اللقاحات والمُضادات الحيوية، ويعالجون المرضى، وتوفّر للقيمين على الأمن تجارب قد تُسعفهم في اتخاذ الإجراءات الوقائية وفرض طرق الاحتراز في سبيل تحقيق "الانضباط" الذي هو مفتاح السلامة من كل الجوائح الفتاكة.

البيليوغرافيا

البزاز محمد الأمين ، (1992)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

البياض عبد الهادي، (2008)، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، (12 - 14م)، الطبعة الأولى، دار الطلعة، بيروت.

جسوس، عز الدين، (2002)، الكوارث الطسعة والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين 53 - 73 ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

حبيدة محمد، (2020)، من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم الغد، جريدة هسبريس، الأحد 29 مارس 2020

روزنبرجي برنار والتريكي حميد، (2010)، المجاعات والابوة في مغرب القرنين 16 و 17م، الرباط، دار الامان.

رويان بوجعة، (2013)، الطب الكولونالي، الفرنسية، بالمغرب 1912-1945، الرباط.

عمالك أحمد، الأزمة وتوطيد الحكم المركزي بمجاعة عام 1071 - 1072 نموذجاً، ص. 271 - 288، ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

الفرقان حسن، (2014)، أدبيات الابوة في مغرب القرن 19، نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي، تحقيق ودراسة، منشورات التوحيد، طنجة.

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب (2002)، منشورات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، جامعة شعيب الدكالي، بتنسيق مع الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 4.

المكاوي أحمد، (2002)، إشكالية العدوى والاحتراز من الأوبئة في مغرب القرن 19، ص. 405 - 425 ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

Sebti Abdelahad, (2010), «Epidémies et culture des calamités à propos de la longue expérience marocaine», *Actes de la session plénière solennelle, de l'Académie Hassan II des Sciences et Techniques*, 2010. p. 127 - 132

Rossignol Benoit, (2002), La peste antonine (166 ap. J.-C.), in *Hypothèses*, 1.3, pp. 31-37.

Coppin Brigitte et Welpy Michaël, (2006), *La peste: Histoire d'une épidémie*, Gallimard-Jeunesse, 2006.

L'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, (2010), Actes de la session plénière solennelle. 17 - 19 Février. 270 n

Benkimon Paul, (2008), *Christophe Colomb a bien importé la syphilis d'Amérique*, Le Monde, le 15 janvier

Thucydide, (1990), *Histoire de la guerre du Péloponnèse (description de la peste d'Athènes dans le livre II)*, Bouquins, Robert Laffont.

الجائحة بين الفقيه والطبيب: "مختصر كتاب الطاعون"

تقديم وتخرّيج*

حميد الفاتحي

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

hamid.elfatihi@uit.ac.ma

ملخص

نزلت جائحة كوفيد-19 بالمجتمعات الإنسانية على حين غرة، فاتجه كل حسب تخصصه إلى سبر أغوارها، وكان للمؤرخ دور في تأصيل الظاهرة الوبائية كرونولوجياً والكشف عن التحولات البنيوية التي أنتجها الطاعون. ويظهر من خلال النباش في النصوص التراثية أن الفقهاء، وعلى امتداد الزمن الاجتماعي المغربي، امتلكوا الكلمة الفصل في إبداء الرأي في أسباب الوباء، وأعراضه، وعلاجه بالدعاء والدواء، وطرق الاحتراز منه، وإمكانية القدوم على البلد المُجَاح أو مغادرته، وإجراء "الحجر الصحي" عليه. غير أن هذا الحكم تُضدُّرُه بعض الجهات اليوم دون التعامل المباشر مع النص الديني المُعَبَّر عن العقل الفقهي. لذلك سنعمل في هذه المساهمة على تخرّيج مخطوط من عمل شخصين مجهولين، وهو: "مختصر كتاب الطاعون" للفقيه محمد الرهوني مع إنجاز قراءة أولية فيه.

الكلمات المفتاحية: كوفيد-19، الوباء، الجائحة، الطاعون، الدعاء، الدواء، الرهوني.

Résumé

Consterné par la propagation de la pandémie Covid-19, les spécialistes de diverses disciplines observent le processus de contamination à travers toute la planète. Les historiens s'efforcent de fournir des éclairages sur les origines et la chronologie du phénomène pandémique, et sur les changements structurels engendrés par la peste. À travers le temps social marocain, les Faqihs possédaient le pouvoir moral de se prononcer sur les pandémies en décrivant les causes, les symptômes, le traitement par supplication et remèdes, les moyens de se prémunir, les restrictions d'entrer ou de quitter le territoire d'un pays touché, et les mesures qui devraient accompagner le "confinement sanitaire" d'un pays ou d'une région. Certains expriment ce jugement sans se référer directement aux textes qui reflètent la mentalité religieuse. De ce fait, cette contribution sera consacrée à l'annotation d'un manuscrit inédit. C'est un résumé écrit par deux anonymes intitulé : « Abrégé du livre de la peste » du Faqih Mahammad Rahouni. En parallèle, on procédera à une lecture préliminaire du texte et de son contexte.

Mots-clés : Covid-19, Pandémie, Supplication, Peste, remède, Rahouni.

* انظر المخطوط و تخرّيج "مختصر كتاب الطاعون" للفقيه محمد الرهوني في قسم الملاحق بالكتاب (الملحقين رقم 1 و 2).

مقدمة

هَجَرَتْ جائحة كوفيد-19 (COVID-19) على الناس أمام شاشات الحواسيب والأجهزة الإلكترونية كما هجرت عليهم في بيوتهم وجعلتهم يتساءلون، في ذهول، عن طبيعة فيروس كورونا المستجد؟ وبأي طريقة ينتقل؟ وما السبيل للنجاة من عدو غير مرئي؟

وفي هذا الخضم المضطرب، اشرأبت الأعناق للمختبرات الطبية عساها تعلن البشرى باكتشاف المصل أو العلاج. وفي ظل موجة من المعلومات الموثوقة والزائفة كذلك، والتي تقصف رؤوس الناس، برز دور المثقف بمقاربة الموضوع مقارنة تقوم على الملاحظة والرصد والتساؤل والنقد، في محاولة لبناء معرفة ترشف من معين العلوم الإنسانية والاجتماعية.

حكّم فيروس كورونا المستجد بتواري الوثيقة الورقية والانخراط في التواصل والتأطير عن بُعد، وفسح المجال أمام أعداد من الناس للتعبير عن آرائهم عن بيئة وعلى غير هدى. وفي هذا الخضم، اتجهت المواقع الإلكترونية للصحف والمجلات والمؤسسات العلمية للباحثين في التاريخ الذين شخّذوا همهم للتأريخ للأوبئة والكشف عن مصائر العالم بعد كل جائحة عصفت به، بل منهم من اتجه للتنبؤ واستشراف ما سيؤول إليه عالم ما بعد كورونا.

ولا سبيل إلى التغاضي عن قضية أساسية طبعت الفكر العالم والثقافة الشعبية إبان هذه الأزمة الصحية، وهي استحضار البعد الديني لها بالتوازي مع التأكيد على أهمية الطب وامتلاكه الكلمة الفصل في اكتشاف الترياق. وفي هذا الصدد تنازع عدد من الباحثين نفا من نصوص فقهية تعلن عن حقيقة الوباء وأساليب مواجهته والتعامل مع المصابين به والعلاجات المقترحة لذلك، بينما انبرى فريق آخر للحفر في أصول "الذهنية المعاصرة المطعونة" بأفكار تحرف النقاش في اتجاه تصور يسوق مبررات غير علمية.

أوحى لنا هذا السجال بضرورة الانكباب على النص الديني مباشرة، خصوصا ما أنتجه المالكية والمغاربة منهم، وبذلك وقع اختيارنا على مخطوط وضعه مجهولان باسم: "مختصر كتاب الطاعون" للفقهاء محمد الرهوني (ت1230هـ / 1815هـ) محاولين الإسهام في مقاربتهم من زوايا متعددة عساها تفيد في نسج صورة متكاملة عن علاقة المغاربة بالأمراض والأوبئة على مر التاريخ ونظرتهم إليها بعيون الفقيه والطبيب.

يترتب على ما سبق طرح السؤال التالي: هل يقتضي التعامل مع النص الفقهي التمييز بين المنظور الديني والمنظور التاريخي الهادف للكشف عن الخلفية الاجتماعية المؤسسة له؟ هل نحن أمام تدوين في تاريخ الوباء والطب؟ أم أمام كتابة فقهية صرفة؟ أم هي كتابة تقرن بين الفقه والطب في مجتمع كان يفصل فيه بين التخصصات خيط رفيع، فالطبيب قد يكون فقيها كذلك؟

وإذا تقرر لدينا أن النخب الاجتماعية التي كانت تقود المجتمع كانت ذات خلفية فقهية، هل يجوز لنا اليوم مع اشتداد أزمة جائحة الكوفيد-19 أن نتحدث عن استمرارية التراتبية ذاتها في وقت يتسمر الناس كل مساء في انتظار بيانات مديرية الأوبئة بوزارة الصحة لتتبع تطور الحالة الوبائية، وبيانات لجنة اليقظة الاقتصادية من أجل دعم القطاعات المتضررة، وتتصدى فيه الداخلية والشؤون الإسلامية والمجلس العلمي الأعلى لبعض مُتَحَدِّي قرارات السلطة باسم الدين وإصدار الفتاوى بخصوص إغلاق المساجد وإلغاء الجماعات والجمع.

1. نبذة عن محمد الرهوني

1.1. مسارات الرهوني

ينتمي أبو عبد الله محمد (فتحاً) بن أحمد بن محمد الرهوني المدعو بركشة إلى قبيلة رهونة، إحدى قبائل جبل الزيبب الواقعة مضاربها بين مدينتي شفشاون ووزان. وهو سليل أسرة اشتهرت بالولاية والصلاح. (الكتاني، 2004، 109/1. ابن زيدان، 2008، 217/4).

ولد محمد الرهوني في ذي القعدة من سنة 1159هـ / نونبر 1746م، وقد تنقل في طلب العلم بين بلده وتطوان، ومكناسة الزيتون وفاس، وتلمذ على شيوخ عصره أمثال أبي عبد الله محمد بن حسن الجنوي وأبي عبد الله محمد التاودي ابن سودة وأبي عبد الله محمد بن الحسن بناني. (الرهوني، 1978، 5/1). عاد الرهوني لوزان وانتصب للتدريس والإفتاء والتأليف، وقد وصفه الكتاني بما صورته: «من دارت عليه الفتيا في زمنه ببلاد الهبط... وكانت له معرفة تامة بالنوازل ورسوخ في الفقه، يحرر المسائل وينسبها لأربابها» (الكتاني، 2004، 109/1).

اقترب الرهوني من دوائر السلطة السياسية العلوية، فقد خطب الجمعة بمولاي سلامة بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل عندما بويغ له بوزان في اليوم نفسه 29 رجب 1206هـ / 23 مارس 1792م، بإشارة من علي بن أحمد الوزاني وبني عمومته وعلي بن ريسون. وقد بالغ مولاي سلامة في استمالة أهل وزان مادياً و«أفاض فيها الأموال الطائلة والملابس الفاخرة» غير أن ولايته لم تدم سوى شهرين وخرج فاراً من وزان. كما أن المولى سليمان بن محمد بن عبد الله داخل الرهوني وأخذ عنه وقرظ له حاشيته على الزرقاني. (ابن زيدان، 2008، 216/1، 218).

توفي الفقيه محمد الرهوني في رمضان من سنة 1230هـ / غشت 1815م ودفن بوزان (ابن زيدان، 2008، 219).

2. الإنتاج الفكري للرهوني

ألف الرهوني في مجالات فقهية تروم شرح مختصرات الفقه المالكي والتعامل بعض نوازل العصر سواء ما له صلة بالقضايا الداخلية أو بالتعامل مع الأجني، وما يذكر من مؤلفاته:

- حاشيته على الزرقاني وبناني الموسومة بـ "أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي". مطبوعة.
- حاشيته على الشيخ ميارة الكبير للمرشد المعين، وربما لم تكتمل.
- مجموعة خطب. مطبوعة.
- التحصن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة.
- إظهار ما يفكر أهل الفطنة ليعرض على ذوي الذكاء والفطنة. أدرجه في حاشية الزرقاني.
- تنبيه الخصوص والعموم في حرمة السفر بالشحم والشمع لأرض الروم.
- إزالة الالتباس في جواز أخذ كاس العدل من فيض ماء الأحباس.
- المنهج الواضح المرعي في أن نسب ساداتنا الشرفاء قطعي.
- جواب في أحكام الطاعون. مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم 2251. (ابن زيدان، 2008، 218/1، ابن سودة، 1997، 114، البزاز، 1992، 418).

2. التعريف بـ "مختصر كتاب الطاعون"

1.1. تفاعل مع قضايا العصر

عاصر الرهوني سلسلة من المجاعات والطواعين التي لم تكن لتختفي حتى تعود أكثر شراسة وأكثر فتكا، إذ تزامن مولده أواخر سنة 1159هـ / 1746م مع طاعون ضرب المغرب بصورة متقطعة بين 1155هـ / 1742 و 1160هـ / 1747م كما أن وفاته سنة 1230هـ / 1815م، تزامنت مع تمدد الطاعون الذي عاد للظهور في مصر 1228هـ / 1813م قبل أن يصل إلى المغرب في وقت لاحق. (البزاز، 1992، 57، 104)، واعتمادا على دراسة محمد الأمين البزاز يمكن رصد ذلك بإيجاز من خلال الجدول التالي:

الوباء أو المجاعة	تاريخه	المسار والتأثير	الصفحة
طاعون	1742-1744	طاعون ضرب المغرب في شتاء وربيع السنوات المذكورة وأوقع قتلا ذريعا في البلاد.	52-57
طاعون	1747-1751	انطلق من الجنوب وعم البلاد سنة 1751م، متزامنا مع جفاف وحروب أهلية، وخلف خسائر بشرية فادحة.	57-62
مجاعة	1776	غزارة في الأمطار وتصدير للأقوات وشح في الأموال وحدوث المجاعة الكبيرة.	71
مجاعة	1779-1782	انحباس المطر وغزو الجراد وحدوث الغلاء والمجاعة.	73-78
طاعون	1798-1800	وفود الطاعون من المشرق عبر تلمسان، وانتشاره بنوعيه الدملي والرئوي، وحدوث انهيار ديموغرافي خلت معه مدن من سكانها.	90-95
مجاعة	1817-1818	توالى هجمات الجراد والجفاف مما تسبب في أزمة غذائية.	102-103
طاعون	1818-1820	جائحة متوسطة وصلت إلى المغرب وعصفت به.	104-105

يظهر أن الرهوني عاصر سبعة من الجوائح والمجاعات التي ضربت المغرب، ومن دون شك، فإن هذه الأحداث قد طبعت شخص الرجل، ودفعته نحو التأليف في الموضوع بناءً على مرجعيته الفقهية مع الالتفات إلى قول الأطباء في الموضوع. وبذلك وضع «تأليفاً في الطاعون نفيساً جداً في نحو كراستين» كما ورد في مقدمة المختصر الذي نقدم له اليوم، ولسنا ندري إن كان هو نفسه "جواب في أحكام الطاعون" الموجود في المكتبة الوطنية، وبالرغم من أن نص جوابه مثبت في المعيار الجديد فإننا لا نجزم بتطابقهما (الوزاني، 1996، 257-241/2). وقد بينت المقارنة الأولية اختلاف نص الجواب المثبت في المعيار الجديد مع المختصر الذي نقدم له اليوم. ولم يفوت الرهوني اعتلاء المنبر لإلقاء خطبة الجمعة "في الحضر على الصبر عند نزول الطاعون". (الرهوني، 2015، 186). ويظهر أنه سار على نهج أستاذه محمد بن الحسن بناني الذي ألف "رسالة في الطعن والطواعين" (مخطوط، المكتبة الوطنية، الرباط، رقم 1854)، وذلك عندما وقع الطاعون بفاس عام 1156هـ / 1743م، وكان الطاعون قد هادن المغرب حوالي نصف قرن (البزاز، 1992، 52، 417).

وقد مكنا التنقيب في محركات البحث المتخصصة من تنزيل نسخة إلكترونية من "مختصر كتاب الطاعون" المحفوظة بقسم المخطوطات الطبية بالأكاديمية الملكية بقرطبة¹. والملاحظ أنه تم تصنيف هذه المخطوطة في قسم الطب رغم غلبة الطابع الفقهي عليها، فلم يثبت عن الرهوني في ترجمته أنه كان طبيباً بل كان «حامل لواء تحقيق الفقه المالكي في زمانه» (ابن زيدان، 215/4).

وإن كنا متأكدين من صحة نسبة تأليف الرهوني في الطاعون إلا أننا لم نعرف على وجه التحقيق من هو صاحب "مختصر كتاب الطاعون"، ولم نظفر باسمه في آخر المختصر ما عدا إشارة لا تغني فيها دعاء بالمغفرة لكاتبه وناظره. فالراجح أنه عمل اشترك فيه بعض من تتلمذ على الرهوني مشافهة أو بالسماع أو بالقراءة. ويتأكد وجود كاتبين لنص المختصر بوجود خطين مختلفين، أما الناظر، وإن كان قد راجع النص ورممه، فإنه مع ذلك، أغفل بعض الأخطاء والبياضات القليلة التي تتخلل النص.

وبالرغم مما سبق، فقد كتب "المختصر" بخط مغربي واضح، وسنضرب صفحاً عن بعض الأخطاء اليسيرة من قبيل كتابة بعض الكلمات بالتاء المبسوطة عوض التاء المربوطة أو إدراج

¹ - أهدت إسبانيا مكتبة الإسكندرية مجموعة متنوعة من المخطوطات، وهذه المجموعات يمكن حصرها في ثلاث: -مخطوطات من مكتبة الأكاديمية الملكية بقرطبة، وهي عبارة عن 11 فيما تشتمل على 56 مخطوطة، بالإضافة إلى قرصين يحتويان على نسخة إلكترونية من هذه المخطوطات الموجودة على الميكروفيلم. -مخطوطات من المكتبة البلدية بقرطبة، وهي عبارة عن 11 فيما تشتمل على 95 مخطوطة بالإضافة إلى قرصين يشتملان على 186 مخطوطة عربية.

- مخطوطات من المكتبة الوطنية الإسبانية على قرص يشتمل على 58 مخطوطة عربية.

انظر موقع: <https://www.ahlalheeth.com/vb/showthread.php?t=24249> (بتاريخ: 19 - 04 - 2020)

بعض المدود في كلمات معينة، وذلك تفاديا لإثقال النص بالتصحیحات التي تعتبر من باب تحصيل الحاصل.

2.2. منهج الرهوني في تصور الجائحة

على عكس الرهوني وأستاذه بمعاصرتهم دورات من الجوائح وتعدد مساهمتهما في موضوع الطواعين، فقد اقتحم علينا فيروس كورونا المستجد حياتنا دون استئذان، وجعل بحثنا فيه خاضعا لما تيسر من مظان في مكتبتنا الخاصة وما تجود به مواقع النت بعد أن فرض علينا الحجر الصحي عدم مبارحة بيوتنا إلا للضرورة بله شد الرحال للعاصمة الرباط وولوج المكتبة الوطنية من أجل الحصول على نسخة من "جواب في أحكام الطاعون". ولا مرأ في أن استشهاد بعض المقالات المنشورة بما ألفه الرهوني عن الطاعون جاء عرضا، ولم يغرف منه مباشرة. وحسبنا دليلا على ذلك ما ورد في مقالين اثنين: الأول، يحاول تفكيك الخطاب الديني المحكوم بالشروط التاريخية التي أنتجت حول الأوبئة والأمراض، وقد وصم صاحب المقال الرهوني ومن سار على نهجه بالضعف والتجاسر على ادعاء امتلاك الحقيقة. (الإبراهيمي، 2020). والثاني، يجزم بأن ما كتبه الرهوني وغيره يتسم بسيادة التصورات الدينية الغيبية التي تحول دون الوقوف عند الظاهرة بحد ذاتها أو تؤرخ لها، فكانت رسالة الرهوني كغيرها من «الرسائل التي تتقاسم نفس العناوين ونفس التصورات الجاهزة، التي تغلق الباب أمام أي اجتهاد» (الوزاني، 2020). في الواقع هذه الأحكام هي نفسها تظل جاهزة وتحتمي بالتعميم في مناقشتها للمصادر التراثية دون أن الحفر فيها لإمطة اللثام عن معطياتها والتمييز بينها.

تدور مواضيع مختصر كتاب الطاعون في فلك جملة من المواضيع التي شغلت بال من ألف في موضوع الطواعين على امتداد قرون طويلة وصولا إلى عصر الرهوني، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- حقيقة الوباء والطاعون والتمييز بين الجائحة والوباء.
- في القدوم على بلد الطاعون والخروج منه.
- ما ينبغي التحصن به من أدعية وحروز.
- في الأدوية التي توصف في حال الوباء.

تكشف هذه المحاور الأربعة عن تكوين الرهوني، وركونه للنصوص الفقهية بما يفوق الثلاثة أرباع في تأليفه، أما البقية فهي عبارة عن صفات لعلاجات متداولة، لم تُبرهن عن فعاليتها بشهادة الرهوني ومن قبله. إن هذا التفاوت في النسب لا يعكس فقط العقلية الفقهية، ولكن يعكس كذلك عجز الإنسان عن مواجهة الجائحة وإيجاد أجوبة علمية لها في زمن لم يكتشف فيه الطب اللقاحات الكفيلة بالتصدي للوباء.

3. مختصر كتاب الطاعون: رؤى متقاطعة

يحتمل مختصر كتاب الطاعون قراءات متعددة يمكن من خلالها امتلاك زمام فهم النص، وبالإضافة للقراءة الفقهية التي هي صلب الموضوع، نستطيع مقارنته مقارنة تمزج بين الفقهي والطبي والتاريخي.

1.3. القراءة الفقهية

في واقع الأمر، إن مختصر الرهوني، درج على مسالك الفقهاء، لذلك جاء في صورة مسرد لأقوال المالكية في القدوم على البلاد التي بها الوباء أو الخروج منها. وهنا يجب وضع كل هؤلاء الفقهاء في سياقهم التاريخي وترتيبهم ترتيباً كرونولوجياً، فبالإضافة إلى اعتماد القرآن والسنة في التأصيل الفقهي والاستدلال والحجاج، فإن الرهوني الذي عاصر المولى سليمان في بداية القرن 13هـ / 19 يعتمد على نقول من فقهاء يمكن حصرهم زمنياً فيما بين القرنين 4 و13هـ / 10 و19م، بمعنى أن العقل الفقهي المغربي بقي أسيراً لنظرة وسيطية، ولم يطله التجديد عكس الفكر الأوروبي الذي ترك التفكير الديني وراء ظهره بفعل الثورة الفكرية المرافقة لعصر النهضة، وكذلك بسبب عجز رجال الدين الأوروبيين عن إيجاد أجوبة مقنعة للطاعون الأسود الذي جرف أكثر من ثلث ساكنة أوروبا أواسط القرن 14م / 8هـ.

لقد استشهد الرهوني بالحديث الذي رواه البخاري: «الطاعون رجز أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه. وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه». كما استشهد بحديث آخر عن الطاعون أنه: «وخز أعدائكم من الجن». وهناك اتجاه آخر نبتة إليه، يفسر ظهور الطاعون بانتشار الفواحش والمنكرات.

حاول الرهوني أن يكون توفيقياً في مسألة "وخز الجن" مع الطب بتبنيه الفكرة التي تذهب إلى أن التعرف على أعراض الطاعون هي من اختصاص الأطباء لكن منشأه، في نظره، من طعن الجن ولا يدركه عقل الأطباء، بل إنه اقتبس كلاماً من الشيخ أحمد زروق يجمع بين الاتجاه الفقهي والطبي كون الجن تستغل فساد الهواء فتخز به الأجسام وتطعنها.

وبغض النظر عن التحقق من صحة هذه الأحاديث التي تبارت فيها كتب الحديث، فإن ما يهمنا هو استحضار هذه الأحاديث في جائحة كوفيد-19 وتوظيفها. استوفقنا هنا تقرير يستطلع آراء بعض الفقهاء عن تفسير فيروس كورونا المستجد بأنه بـ"وخز الجن"؟ وهل هو ثابت دينياً؟ وقد رافق هذا الجدل حول مدى توافق التفسير الديني مع التفسيرات الطبية المؤكدة على أن الطاعون ناشئ عن بكتيريا حيوانية وأن كوفيد-19 ناشئ عن مصدر فيروسي، وليس بكتيريا كما هو الحال في الطاعون. وأشار الباحث أسامة نمر أستاذ الحديث النبوي وعلومه في جامعة الزرقاء الأردنية، إلى أن الحديث الأول ورد من روايتين، يوجد في الأولى راوٍ مجهول، وفي الثانية

راوٍ مختلف فيه، وبهذا لا يمكن أن ينهض دليلاً للاحتجاج به على قضية غيبية، لا سبيل لإثباتها إلا بنص ديني قطعي الثبوت. أما نضال ثلجي، وهو متخصص في الحديث النبوي وعلومه، فيرى أن الحديث الأول أخرجه الإمام أحمد، والحاكم في المستدرک، وغيرهم، ومن جهة ثبوته يقول: «لا يعلم أحداً من علماء الحديث صرح بضعفه، وقد صححه ابن خزيمة والحاكم في المستدرک، وابن حجر في فتح الباري، ومن المعاصرين الشيخ الألباني». وواصل أسامة نمر حديثه بالقول: «ولو تنزلنا وقبّلنا به كنص ثابت، فهو ما ينبغي تأويله عن ظاهره، لأن الأمراض لها أسباب طبيعية معروفة عند الأطباء، وهي قرينة تجعلنا نصرف الحديث عن ظاهره، وتفسيره بأن الطاعون يأتي بخفاء وبسرعة، كما يتحرك الجن بخفاء وسرعة». وتساءل نمر: «ما الذي نستفيده أو نقرره حينما نذهب في تفسير الحديث إلى إثبات أن الطاعون من وخز الجن؟ ففي النهاية نحن مأمورون بالأخذ بالأمر الشرعي في التماس العلاج والتداوي بالأسباب الطبية المعروفة عند الأطباء، وبالذهاب إلى المستشفيات عند الحاجة إليها». (بسام ناصر، 2020).

والثير فيما له علاقة بالجانب الفقهي أن بعض الفقهاء من غير المالكية قد افتوا بعدم جواز الدعاء برفع الطاعون وَحَرَّمُوا الناس من التضرع إلى الله بحجة أن من يموت بالطاعون هو شهيد، والشهادة لا يجوز الدعاء برفعها. غير أن فقهاء المالكية أباحوا ذلك بحكم أن الطاعون مرض كسائر الأمراض يجب على الإنسان أن يلتمس له العلاج وأن يدعو برفعه، واستعان الرهوني برأي الغزالي في ذلك واستحسنه لكنه في الآن نفسه لمزه من بعيد كونه غير مالكي، وكأنه هنا يذكر بالحملة التي تعرض لها الغزالي من طرف فقهاء المالكية زمن الدولة المرابطة.

2.3. القراءة الطبية

قارنَ الباحث أحمد السعداوي بين الكتب والرسائل المؤلفة في الطواعين والجوائح، وخُلصَ إلى أن رسالة ابن خاتمة المؤلفة سنة 1349م، والمسماة: "تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، ورسالة ابن الخطيب "مقنعة السائل عن المرض الهائل" تمتازان بالدقة العلمية في وصف المرض وتقديم العلاجات والاحتياطات الضرورية. أما ما كتبه ابن حجر في "بذل الماعون في فوائد الطاعون" وابن أبي حجلة في "دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة"، فيدخل في حيز الفقه ويظل الجانب الطبي فيها هامشياً. (السعداوي، 1995، 120). لم يشذ الرهوني عن هذين الاتجاهين، وبالرغم من أنه غلبَ الجانب الفقهي، إلا أنه وقف في المنزلة بين المنزلتين، ما جعله يقدم معطيات قليلة عن الطب لكن فيها ضبط في المقادير ومقارنة بين الوصفات والمركبات الداخلة في علاج الجائحة واتقاءها.

ينقسم الطب عند الرهوني إلى قسمين:

- طب روحاني: هو الرقية بالمعوذات وغيرها من أسماء الله.

- طب جثماني: أو جسماني أو طب الأبدان، هو القائم على العلاج بالدواء.

يُنكِرُ الرهوني اللجوء إلى السحر والشعوذة، ويرى كغيره من طبقات الفقهاء أن الطب الروحاني أولى من الجسماني، وأن اللجوء إلى الدواء القائم على التجربة العلمية أمسى ضرورة بعد أن عزَّ الأبرار مستجابي الدعوة من أهل الرقية!

وبعد أن أورد بعض الأحاديث النبوية الروايات التي تعود لصدر الإسلام، استشهد الرهوني في تعريف معنى الوباء بكلام ينطلق من الواقع كونه: «مرضُ الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد من الأمراض الكثيرة وغيرها، ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف سائر الأوقات».

ينقل الرهوني كلام الأئمة في القدوم والخروج على البلد الذي يصيبه الوباء، وحصل فيه ثلاثة أقوال: وغلب القول الثالث بأن الأفضل أن لا يقدم عليه وأن لا يخرج عنه، اتقاءً لتفشي الوباء وحجراً على بعض الجهات الموبوءة، كما يشير إلى قول ابن رشد الذي يراعي العامل النفسي "للأوهام المُشَوِّشة". وفي هذا الصدد يورد كذلك رأي الونشريسي في إغلاق الحدود في وجه القادمين من الخارج تفادياً للعدوى. وبالمقابل، ألزم ابن لب أهل الأندلس بعدم مغادرة الجهات التي يعم فيها الوباء خوفاً على أنفسهم. وإذا كان ابن لب قد ألزم الناس بعدم ترك الجهات الموبوءة فراراً منها وتركاً لها، فإنه يوصي من سلم من الناس بالتحرز من الإلقاء بنفسه في تهلكة ودعا مخالطي المرضى إلى عدم التطير من ذلك.

ختم الرهوني رسالته في الطاعون بالتعريض على الأدوية النافعة، ولكنه لم يفصل في هذا المبحث كثيراً واكتفى بإيراد أقوال بعض الفقهاء كابن حجر وزروق، وهو أمر لا يمكن استغرابه بحكم تكوينه الفقهي الذي ربما منعه من التوسع فيما كتبه الأطباء في هذا الشأن. ويتضح من الوصفات التي قدمها أنها أشبه بالمهدئات منها بالأدوية، وهو ما يبرر استئثار الأدوية والحروز بالاهتمام الأكبر في بحثه باعتبارها علاجات تركز على مداواة الجانب النفسي في المريض في غياب العلاج الشافي واشتداد وطأة الوباء الذي كان يأتي على ملايين البشر بصفة دورية. وهذا الاتجاه تقاسمته الحضارة الإسلامية مع المسيحية التي كانت تلجأ هي نفسها لهذا النوع من الأدوية والرقى كلما عرَّم عليها خطب الطواعين. وبالرغم من عدم فعاليته التي أكدها توالي الجوائح على المغرب، اقترح الرهوني مُرْكَباً اسمه "روفش" أو شرب الماء بقوة أو شرب الخل، أو البنفسج.

3.3. البعد التاريخي

يكشف مختصر كتاب الطاعون عن بعض الأحداث التاريخية ذات الصلة بمواضيع الطواعين كتلك التي ضربت مجتمع الجزيرة العربية في صدر الإسلام، غير أن ما استوقفنا هو توظيف بعض النصوص الفقهية التي تشير إلى الطاعون الجارف الذي عم العالم أواسط القرن

الثامن للهجرة بداية من سنة 748-753هـ / 1347-1352م مع ارتداداته على امتداد هذه المرحلة بحيث أصبح الناس يَفِرُّونَ من المناطق التي مَسَّها الطاعون ويتركون المصابين في مواجهة مصيرهم كما اتضح من خلال النازلة التي عرضت على ابن لب الغرناطي. وفي سياق مواز يحيل استشهاد الرهوني بنصوص فقهية معاصرة لهذه الجائحة على أن هذه الجائحة طبعت العقل الفقهي في بلاد المغرب والأندلس قرونا عددا، وغدت مرجعا يستند إليه الفقهاء لتصريف مواقفهم.

لقد تربص الطاعون بمجتمعات بلاد المغرب، وظل يولد الفزع والرعب وَرَسَّخَ في الذاكرة الجماعية، ومن بينها طاعون 796هـ / 1393م الذي حلَّ بإفريقية، وتجلَّى ذلك في المصادر المعاصرة¹ (السعداوي، 1995، 119، 125)، واستمر شبَّحه جاثما على صدور من جاء بعده بحيث استحضِر الرهوني هذه الواقعة للكشف عن العامل النفسي في تاريخ الجوائح بعدم مخالطة البلد الموبوء، وساق رواية للفقهاء أبي عبد الله محمد الأبي حين وقوع الوباء بتونس حيث رفض الشيخ ابن عرفة الالتحاق بـ"مدرسة التوفيق" لإلقاء دروسه بعد أن مات بها أحد الطلبة الساكنين بها، ومباشرة بعد أن رفع الوباء: «سَحَّرَهُ اللهُ تعالى وجَدَّ في الإقراء في ذلك العام». تنازع ابن عرفة الخوف من الطاعون وحبُّ ممارسة مهنة التدريس ولقاء الطلبة، فكان أن انتصر الحب في الأخير وعاد إلى الصف وإلى حضن طلبته.

المصادر

- ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (2017)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ج10، صص532.
- ابن زيدان عبد الرحمن (2008)، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج4، صص625.
- الأبي أبو عبد الله محمد بن خليفة الوشتاني (د.ت)، إكمال الإكمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6، صص690.
- التنبكتي أحمد بابا (2000)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتب، طرابلس، صص702.
- حاجي أمير زاده (2016)، رسائل فقهية، دراسة وتحقيق صهيب محمود الجميلي، دار الكتب العلمية، بيروت، صص80.

¹ - قام المؤرخ التونسي محمد حسن في السنوات الأخيرة بتجميع ثلاث رسائل في الطاعون ألفها أندلسيون، وهم: ابن خاتمة (ت770هـ / 1369م) في "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" وابن الخطيب (ت776هـ / 1374م) في "مقنعة السائل عن المرض المائل" والشقوري (ت. بعد 776هـ / 1373م) في "النصيحة". وما يجمع هؤلاء كلهم معاصرة الطاعون الجارف الذي انتشر في المنطقة المتوسطية منتصف القرن الثامن الهجري / منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. وقد تناول المحقق، في تقديمه لهذه الرسائل، ثلاثة أمور أساسية: أولا: تطرق لنظرة هذه المصنفات للوباء. ثانيا: حلل المادة الطبية الواردة في الرسائل. ثالثا: استخرج مواقف الفقهاء من الجائحة. (حسن محمد، 2013).

- الرهبوني محمد (1978)، حاشية الإمام الرهبوني على شرح الزرقاني لمختصر خليل، دار الفكر، بيروت، ج1، صص442.
- الرهبوني محمد (2015)، الخطب المنبرية في الجمع والأعياد والكسوف والاستسقاء، دار الفكر، لبنان، صص224.
- الزبيدي محمد بن محمد الحسيني (2016)، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، صص727.
- زروق أحمد بن محمد البرنسي الفاسي (2020)، شرح على متن الرسالة، اعتنى به وكتب هوامشه أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، صص1200.
- السخاوي شمس الدين (د.ت)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ج3، صص344.
- السنوسي الحسيني أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف (2008)، مكمل إكمال الإكمال، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، صص690.
- الشوكاني محمد بن عبد الله (د.ت)، البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج2، صص652.
- القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري (2013)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق سالم مصطفى البدر، دار الكتب العلمية، بيروت، م2، ج3، صص445.
- الكتاني محمد بن جعفر (2004)، سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ج1، صص452.
- محمد حسن، تحقيق ودراسة. ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، سلسلة التاريخ، تونس، 2013، صص358.
- مؤلف مجهول (د.ت)، مختصر كتاب الطاعون للرهبوني، مخطوط الأكاديمية الملكية، قرطبة، قسم المخطوطات الطبية، 2. Serie, N°2. عدد الورقات. 19.
- الوزاني المهدي (1996)، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بـ "المعيار الجديد للجامع العربي عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب"، مقابلة وتصحيح عمر بن عباد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، نوازل الحج، ج2، صص659.
- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (1981)، المعيار العربي والجامع المغربي عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، تحقيق محمد ججي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج11، صص396.
- ياقوت الحموي (1977)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج3، صص470.

المراجع

الإبراهيمي زكرياء، كورونا وشيوخ من زمن الطاعون، هسبريس، جريدة إلكترونية مغربية:

(بتاريخ: 2020-03-18) <https://www.hespress.com/writers/463544.html>

ابن سودة عبد السلام (1997)، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر، بيروت، صص414.

البراز محمد الأمين (1992)، تاريخ الأوبئة والحجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، صص430. دار الإفتاء المصرية،

<https://www.facebook.com/EgyptDarAlIfta/posts/3383432481686510/>

(بتاريخ: 23 مارس 2020)

علي عبد الرحمن، "تحصنت بذي العزة" .. دار الإفتاء تنشر دعاء التحصين من الوباء، صحيفة اليوم السابع الإلكترونية، مصر.

<https://www.youm7.com/story/2020/3/15/> دار-الافتاء-تنشر-صيغة-دعاء-التحصين-من-الوباء-

تعرف-عليها (بتاريخ: 27 فبراير 2020)

محمود شعبان، دعاء الوقاية من أنفلونزا الخنازير: <https://al-maktaba.org/book/31615/32916>

(بتاريخ: 2020-04-14)

ناصر بسام، هل تفسير الطاعون بـ"وخز الجن" ثابت دينياً؟، العربي21، صحيفة عربية إلكترونية:

<https://arabi21.com/story/1261747/دينيا-ثابت-الجن-وخز-الجن-ثابت-دينيا>

(بتاريخ: 2020-04-16)

الوزاني حسن، الوباء ضيفا ثقيلا على المؤرخين، صحيفة العرب، لندن:

(بتاريخ: 2020-03-14) <https://alarab.co.uk/المؤرخين-على-الوباء-ضييفا-ثقيلا>

السعداوي أحمد (1995)، المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون الأعظم والطواعين التي تلتها، القرنين 8-9 /

15-14م، منشورات IBLa، الجزء 58، العدد 175، صص 119-141.

جائحة "كوفيد-19" وإشكالية كتابة التاريخ الأنّي

محمد مزيان

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

mohammed.meziane@uit.ac.ma

ملخص

عرف تاريخ البشرية سلسلة من الأوبئة والجوائح التي ساهمت في تغير البنيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي موازين القوى على المدى البعيد، مثل ما حدث بعد الطاعون الأسود 1348-1351. كما تعرض المغرب بدوره وعبر سيرورته التاريخية إلى سلسلة من الأوبئة والمجاعات، على مراحل متقاربة تخللتها مراحل استراحة قصيرة كان لها تأثير واضح على مختلف البنيات، مما وفر مواضيع وسرديات للمؤرخين للتعامل معها، وفق منهج تحليلي. لكن الوضع تغير مع جائحة فيروس كورونا المستجد بحكم أن التأريخ لهذا الفيروس يندرج ضمن تاريخ الزمن الراهن، مما يطرح عدة إشكالات منهجية ومعرفية وجب التعامل معها بحذر منهجي شديد من أجل فهم الحاضر واستشراف المستقبل، وحتى لا يبقى المؤرخ خارج دائرة الزمن.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الزمن الأنّي، فيروس كورونا المستجد، جائحة كوفيد-19، التأثيرات الجيوسياسية، المؤرخ.

Résumé

L'histoire de l'humanité a connu une série d'épidémies et de pandémies qui ont contribué au changement des structures politiques, sociales et économiques, à l'instar de ce qui s'est produit lors de la peste noire de 1348-1351. Le Maroc, de son côté, n'a pas échappé à travers son histoire, aux épidémies qui ont impacté sa démographie et son système économique et social. Toutefois, écrire l'histoire immédiate (celle du corona virus) pose aux historiens des difficultés épistémologiques et méthodologiques qui nécessitent beaucoup de prudence, et ce pour mieux comprendre le présent et anticiper l'avenir.

Mots-clés : Histoire du temps présent, Corona virus, impact sociopolitique, historien, changements méthodologiques.

تقديم

تستفز أخبار جائحة كوفيد-19 "COVID-19" (الناجمة عن فيروس كورونا المستجد) ذهن المؤرخ لانتشارها السريع في بقاع المعمور وعجز الدول، بما فيها المتقدمة، عن اكتشاف دواء يُمكن من القضاء عليها، زيادة على الإجراءات الاحترازية التي قامت بها السلطات العمومية للحد من انتشارها. وترتبت عن ذلك عدة أسئلة حول ما يمكن أن يقدمه الباحث في التاريخ من إفادة في هذا الموضوع؟ وهل التاريخ قادر على تقديم دروس تفيد في استيعاب ما يحدث؟ وهل للمؤرخ ما يكفي من المؤهلات للانخراط في هذا التاريخ الآني والتفاعل معه؟ وبأي أدوات منهجية يستطيع تحقيق ذلك؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن تحقيق تاريخي جديد لما قبل "كورونا" وما بعدها؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون حدثاً وبائياً عصفاً بالمجتمعات وخلخل بنياتها؟ كيف يمكن إنجاز بحث علمي تتقاطع فيه نظرة المؤرخ والطبيب، والتاريخ الاجتماعي والتاريخ البيولوجي وتاريخ الذهنيات؟

تهدف هذه المساهمة إلى مساءلة التاريخ حول ما يمكن أن يقدمه من إجابات لما يعيشه العالم. فإذا كان الرأي السائد يرى بأن هذا التخصص يهتم بما وقع في الماضي اعتماداً على مستندات وأرشيفات وسجلات وغيرها، مما يجعله حبيس الماضي فقط، فإن المعرفة التاريخية، في حقيقة الأمر، تهتم بالإنسان في الزمن بعيداً عن التنميط أو الجمود. ولهذا يشكل حقل التاريخ الراهن مدخلاً لهذه المساهمة.

1. جائحة فيروس كورونا وإشكالية التاريخ الآني

1.1. إشكالية التاريخ الآني

نستهل الحديث عن هذه الجائحة في الفترة الراهنة بالمحاذير المنهجية التي تعترض أي باحث في التاريخ حين يؤرخ لحدث معيش وساخن لم تظهر نتائجه النهائية بعد، ولم يفصح عن كثير من مكنوناته. فهو تاريخ متغير غير قابل لأي نوع من التأطير أو لأي نوع من الملائمة المرضية، إذ يقول جون لاكوتير إن التاريخ الآني يتكون بصورة أساسية من القرب الزمني لعملية التحرير من الموضوع المتطرق إليه، ومن القرب الميداني بين الباحث والأزمة موضوع الدرس (جاك لوغوف، 2007). وقد ساهم تاريخ الزمن الراهن في تجديد مجال التأريخ. فإذا أردنا تعريفه، فإننا سنصطدم بمفهوم إشكالي هو "الزمن". وما لا شك فيه، يمنح التاريخ الراهن للمؤرخ مساحة صغيرة من هذا الزمن، كنقطة بسيطة عابرة وسط أحداث قريبة، منفصلة، تختفي لحظة بدايتها وتشكلها (فرانسوا بيداريدا، 2001). لهذا، وجب اعتماد منهج صارم بعيداً عن التبسيط والسطحية. وقد حدد القديس أوغسطين في اعترافاته الأبعاد الثلاثة للزمن بقوله:

"حاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة، وحاضر الأشياء المستقبلية هو الترقب (الانتظار)" (القديس أوغسطين، 1991). وهو ما يحيل على أن كتابة تاريخ الزمن الراهن هي كتابة عن الماضي من منظور الحاضر وتوقع للمستقبل (فرانسوا بيداريدا، 2001). فدينامية التاريخ الراهن تمكن من خلق حوار مزدوج بين الماضي والمستقبل وفقا للصيغة المعروفة: "كل تاريخ هو تاريخ معاصر".

من هذه المنطلقات، اعتُبر التاريخ الراهن أو الآني نقلا مباشرا للحدث. وفي هذا السياق، يتداخل في التأريخ لجائحة كوفيد-19 الصحفي وعالم الاقتصاد ورجل السياسة والطبيب وعالم الاجتماع وعالم النفس، علاوة على تغير ملحوظ في شكل وطبيعة الوثائق التي اعتاد المؤرخ فك شفراتها، فقد تسارعت الأخبار والصور والتحليلات وإحصائيات عدد المصابين وعدد الوفيات والناجين وكلفة ذلك على الصعيد الاقتصادي وانعكاساته السياسية على الدول الوطنية والنظام العالمي والتكتلات الإقليمية مثل الاتحاد الأوروبي، عبر المواقع الإلكترونية والإعلامية ومنصات التواصل الاجتماعي، فأصبحت كلها ناقلة للخبر، مما يطرح إشكالات منهجية أمام المؤرخ بخصوص التعامل مع هذا الزخم من المعلومات والأحداث المتجددة على مدار الساعة، والتمييز بين صحيحها وخطئها وتجربتها من أيديولوجيتها، والابتعاد عن الاستعجال. لهذا، وخدمة للمعرفة التاريخية، يتدخل المؤرخ من أجل ترتيب المعطيات وتحليلها وتقديم تفسيرات لها، خاصة وأنها لم تبح بكل أسرارها. ومن المهم الإشارة إلى أن المؤرخ لجائحة "كوفيد-19" يجمع اليوم بين كونه مختصا في الدراسات التاريخية، إذ يمتلك الأدوات المنهجية التي تمكنه من تحليل وتفسير الظاهرة، وكونه شاهدا على مرحلة معيشة بتجلياتها وانعطافاتها، بكل ما يحمله الشاهد من انفعالات نفسية ووجدانية.

ويبقى من السابق لأوانه الخروج باستنتاجات عامة أو شبه مؤكدة حول طبيعة الفيروس ومنطلقه، والعدد الإجمالي لضحاياه، وآثاره الجيوسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية. لكن، لتحقيق ذلك يبقى من الضروري أن يفتح المؤرخ على تخصصات أخرى من قبيل البيولوجيا وعلم الاجتماع وعلم الإحصاء والعلاقات الدولية والاقتصاد وغيرها، لتوسيع مداركه وللإحاطة بالموضوع بشكل عام. فالمعطيات الرقمية اليوم متوفرة ويمكن تحليل منحنياتها، كما يمكن الاستفادة من الوسائل التقنية للاحتفاظ بالمعلومات وتخزينها من أجل الحصول على إحصائيات نهائية، وعلى وضع صورة عن هذه الأزمة عندما تنجلي.

2.1. الكتابة التاريخية والأوبئة

ومن المحتمل أن يكون التأريخ لهذه الجائحة مغايرا لمسار التأريخ للأوبئة التي اجتاحت المغرب عبر فترات تاريخية مختلفة، نظرا للتغيرات المنهجية التي عرفها حقل الكتابة التاريخية

عالميا منذ القرن التاسع عشر مع المدرسة الوضعانية ثم خلال القرن العشرين مع مدرسة الحوليات، حيث انصر الحديث في تاريخ العلوم الطبية وتم تدشين درب جديد في هذا المجال من البحث (فريدريك فانيورون، 2020).

والواقع أن الأعمال التي تندرج ضمن إنتاجات مؤرخي مدرسة الحوليات أو التاريخ الجديد تناولت مسألة الأوبئة في علاقة بالهدر الديموغرافي الذي كان مصاحبا لها، إذ قاد البحث عن أسبابه، الباحثين إلى الحفر في تاريخ الأوبئة التي عاشتها أوروبا خلال مسارها التاريخي. ففي فرنسا مثلا، تم تجديد البحث حول تاريخ الأوبئة والصحة بعد العمل الذي قامت به مدرسة الحوليات والتنقيب في الديموغرافيا التاريخية خلال السنوات 1950-1960، والوقوف على منحنيات الموت. وأدت دراسة أوبئة الماضي، خاصة من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وربطها بالظروف المعيشية الجديدة، ودور الأطباء، وتطور النظريات الطبية وسياسات الصحة العامة، وبدايات الوقاية من خلال التطعيم في القرن التاسع عشر وانتشار العلاجات الفعالة، والوقوف على التطور الذي عرفته البشرية لضمان بقائها واستمرارها، إلى تحقيق تراكم في الأبحاث المنجزة حول أوبئة الماضي، والاحتفال بالانتصارات المتتالية للعلم والطب على الموت الوبائي، وإبراز تقدم الحضارة. وتحدد نهج كتابة تاريخ الأوبئة والطب، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عبر خوض مغامرة "الفهم الكامل للتاريخ"، والبحث في الجوانب البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وفي سلسلة الأسعار والإنتاج والزواج والدفن (باتريس بوردوليه، 1997).

وفي هذا الصدد قدم جاك لوغوف وجون نويل بيرابن بحثا حول "وباء العصور الوسطى العليا"، وحاولا من خلاله إعادة رسم طرق الوباء ومناطق انتشاره، مجسدين رؤية مدرسة الحوليات في كتابة التاريخ.

واستمر القلق المنهجي حول الفصل في التحليل بين المستويات المختلفة (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) من جهة، وتوظيف الزمن البروديلي¹، من جهة أخرى، في تصور هؤلاء المؤرخين للهياكل الاقتصادية، والمناخ، والظواهر البيولوجية التي تؤثر على تاريخ الإنسان، وعلى هياكل التجارة الدولية، عبر شبكة المبادلات بين عالمي البحر الأبيض المتوسط، ومراكز التجارة الإيطالية في البحر الأسود، وعلى نظام الإنتاج، حيث انتشر الطاعون، حسب العديد من الباحثين. وفي ذلك، يشير صاحب كتاب الطب الإمبريالي إلى أن وسائل التجارة والنقل الأوروبية ساعدت على نشر الأمراض وعلى تفشي الكائنات الناقلة للأمراض والأوبئة، مثل

¹ - قسم فرناند بروديل (Fernand Braudel) الزمن إلى ثلاثة مستويات: الزمن الطويل المدى، الزمن المتوسط، ثم الزمن الفردي أو الزمن القصير.

البعوض والبراغيث والقمل. هذا ما حصل قبل عام 1800 بطول السواحل الإفريقية والأسبوية.

وكرس القرن التاسع عشر هذا الوضع، مع الاختراق الاستعماري الأوروبي، التجاري والسياسي، وما رافق ذلك من بنية تحتية: الطرق والسكك الحديدية ومنظومات الهجرة العمالية والتجنيد العسكري والإدارة المدنية (دافيد أرنولد، 1998). هذا ما يدفعنا إلى القول إن الترابطات العالمية، نتيجة التطور الاقتصادي والاستعماري، ساهمت في نقل العدوى ومُوصلاتها من بلدان المنشأ إلى باقي المناطق خاصة الإفريقية والأسبوية (دافيد أرنولد، 1998).

3.1. الباحثون المغاربة والتأريخ للأوبئة

تناول الإخباريون المغاربة أمثال الضعيف الرباطي، وأحمد بن خالد الناصري، وابن زيدان، والمختار السوسي، مسألة الوباء والمجاعة في عمومية الظاهرة ووصفوها من خلال الحديث عن الوقائع السياسية والاقتصادية التي ميزت فترة حكم دولة ما أو سلطان معين، وبالتالي ورد الحديث عن الأوبئة والجوائح داخل ثنايا المصادر كوصف سردي وفي غياب لمعطيات إحصائية دقيقة. كما ركزوا على المراكز الحضرية الكبرى مثل فاس ومراكش وتطوان مع إغفال الحديث، في بعض الأحيان، عن وضعية البوادي والقرى. أما باقي المظان والوثائق، فنجد فيها معلومات متناثرة هنا أو هناك، فأغلبها إما نصوص منقوبة أو فتاوى فقهاء أو إجازات طبية متفاوتة القيمة العلمية والتأريخية، حيث تناولت الجوائح بشكل عام مغلف بنفحة دينية، وصنفت على أنها من أدبيات الطواغين والأوبئة (محمد الأمين البزاز، 1992).

بيد أن المؤرخين اللاحقين وتساوقاً مع تطور مناهج الكتابة التاريخية التي عرفها العالم منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، انصب اهتمامهم على تتبع الخريطة الوبائية بالمغرب من خلال البحث في المجاعات والأوبئة¹ التي اجتاحت المغرب في فترات تاريخية مختلفة، وكذا البحث في الرحلات الحجازية والسفارية ودورها في نقل الأوبئة، وانعكاسها على الوضعية الديموغرافية والاجتماعية، وما ترتب عنها من مشاكل اقتصادية جمة أثرت على المعيش اليومي وعلى الكتلة الديموغرافية للمغاربة وعلى حركة السكان وتقلاتهم. فيما رصدت أعمال أخرى دور القوى الاستعمارية في الضغط على المخزن من أجل اتخاذ التدابير الوقائية والحجر الصحي على المناطق الموبوءة، بعد إنشاء المجلس الصحي الدولي بالمغرب سنة 1792، إذ اهتم قناصل الدول الأوروبية بطنجة بالمشاكل الصحية وأسبابها والحد من تفاقها، وبأمر النظافة والمجازر والإنارة والطرق (محمد بن هاشم، 2000).

¹ - مثل: أعمال الأيام الوطنية العاشرة التي نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي في موضوع: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ضمن سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 4، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، جامعة شعيب الدكالي، المملكة المغربية، 2002.

يرجع اهتمام المؤرخين المغاربة بهذه القضايا إلى انفتاحهم على مناهج جديدة وبالأخص، مناهج مدرسة الحوليات التي جسدها كتابات فرناند بروديل وجاك لوغوف، إذ تناولت الجوانب الجغرافية وعلاقتها بالوضع الديموغرافية، وكذا بالأوبئة التي ضربت المجال المتوسطي في العموم بشكل دوري تقريبا. كما كانت مناهج وأدوات التاريخ الجديد وسيلتهم لتحطيم الجدران العازلة والخوض في قضايا الحياة والموت والتطورات المرتبطة بها على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في بنية زمنية طويلة، مع الاستفادة كذلك من تاريخ الذهنيات الذي منح متنفسا وحرية كبيرة في مجال التاريخ. لقد أوكلت دائما للتاريخ مهمة تأدية أكبر الأدوار الاجتماعية بمدلولها الواسع (لوغوف، 2007)، فأصبح وعي المؤرخ المعاصر بضرورة الإحاطة بمختلف أبعاد الظاهرة التاريخية والعوامل الفاعلة فيها مرتبطا بالتسلح بمناهج أخرى غير المنهج التاريخي (الحسين بولقطيب، 2002). وفي هذا الصدد، نقدم بعض الأبحاث على سبيل المثال لا الحصر، التي توضح اهتمام المؤرخين المغاربة بموضوع الأوبئة خلال فترات تاريخية مختلفة منها:

- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين.

- بوجعة رويان، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945.

بالإضافة إلى بعض الدراسات المؤسسة لتاريخ الأوبئة والمجاعات، مثل العمل الذي قدمه برنار روزنبرجي وحيد التريكي بعنوان "المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرنين 16 و 17".

2. المؤرخ وجائحة "كورونا"

1.2. فعالية التاريخ

يعيش المعمور انتشار فيروس مدمر سريع الانتشار، والذي ظهرت بوادره الأولى في دجنبر 2019 بمدينة ووهان بالصين، واجتاح باقي الدول نظرا لقوة الارتباطات الاقتصادية والتجارية والسياحية والدينية، وحرية مرور الأفراد والرساميل. وبغض النظر عن طبيعة هذا الفيروس المجهري وأسباب ظهوره، وبعيدا عن فكرة المؤامرة، فإن ما تعيشه الإنسانية اليوم راجع بالأساس إلى اكتساح النيوليبرالية المعتمدة على الربح كمحرك للاقتصاد، ومبادئ العولمة التي تتجاهل البعد الإنساني وتضعه في مرتبة أقل أهمية، وتغييب أو ضعف أنظمة الرعاية الصحية والاجتماعية المناسبة في العديد من البلدان، والمثال واضح في هذا الشأن على أكثر من صعيد.

اليوم وأمام ما يعرفه العالم من اكتساح جائحة "كوفيد-19" يمكننا أن نتساءل، كما تساءل باتريك بوشرون من قبل، حول ما الذي يستطيع أن يفعله التاريخ اليوم؟ وما ينبغي عليه فعله ليستطيع الاستمرار ولبقى وفيا لنفسه؟ ويجيب هذا المؤرخ بأن التاريخ، أصلا، يتمرّد على سلطته

نفسها ولا يمارس سلطته على أي شيء. كما أننا لا نطالب بإعطاء أي شيء للمؤرخين. ولذلك، علينا، بالأحرى، أن نتساءل عما يستطيعه التاريخ؟ بمعنى آخر: عما هو ممكن بالنسبة إليه وعما هو كامن فيه؟

تلك هي قوة التاريخ، إذ يمكنه أن يكون فن القطاع، فهو يعرف كيف يتلاعب بالنظام القسري للتسلسلات الزمنية، وبالتالي كيف يكون مثيرا للحيرة وللدهشة. فهو يزج الجينيات ويشير قلق الهويات ويفتح فضاءً زمنياً يستطيع من خلاله المستقبل أن يستعيد حقوقه الكاملة في الشك، وأن يرحب، بالتالي، بكل ما يسمح بتعقل الحاضر وبفهمه (مستعد، 2016). لهذا، فالتاريخ لزمن "الكورونا" يستدعي قدرتنا على الفهم والمساءلة والتفاعل مع ما يجري من تطورات أحدثها الفيروس المستجد. لأن الغاية الكبرى من الكشف عن كنه الأشياء وطبيعتها والعوامل المتحركة فيها والعلم بكيفيات حصولها، وفق منهج مضبوط والاستعانة بالمعارف المتعددة، هي بلوغ الفهم الذي يعد مسألة أساسية في الفكر التاريخي، لأنه يمكن من يتجاوز مستوى السرد والإخبار عن الوقائع السابقة والارتقاء إلى تحليل الأحداث وفهم طبيعتها وتفسيرها.

2.2. إشكاليات أمام المؤرخ

تشير قصاصات الأخبار إلى تزايد الطلب على كتابات تاريخ الأوبئة وأدب الوباء، وخاصة "الطاعون" لألبير كامي، و"الحب في زمن الكوليرا" لغابرييل غارسيا ماركيز، و"عيون الظلام" لدين كوتز، التي صارت تقرأ من جديد. كما تم الرجوع بقوة إلى الكتابات التاريخية التي تناولت تاريخ الأوبئة، باحثاً عن العلاقة بين ما حدث وما يحدث، ومحاولة سد الفراغات أو تجاوز الأخطاء السابقة أو المواقف الخاطئة.

ير العالم بأزمة كبيرة على جميع الصعد، لذا فن الطبيعي أن نفترض أنها ستكون نقطة تحول في التاريخ المعاصر، إذ اختلف المحللون من جنسيات متعددة، ومنذ ظهور الجائحة، حول طبيعة النظام الذي ستخلفه. وجادل معظمهم بأن ما بعد الجائحة سيكون مختلفاً بشكل أساسي عما كان موجوداً من قبل. وتوقع البعض الآخر أن يؤدي الوباء إلى نظام عالمي جديد بقيادة الصين أو ربما عالم متعدد الأقطاب؛ فيما يعتقد طرف ثالث أن الجائحة ستؤدي إلى اضمحلال زعامة الصين. وأما أكثر المتشددون فيبشرون بنهاية عهد العولمة؛ بينما يأمل البعض الآخر أن تكون فاتحة لعصر جديد من التعاون العالمي. ولا يزال البعض الآخر يتوقع أن القومية ستنتصر، وتقوض التجارة الحرة، وتؤدي إلى تغيير النظام في مختلف البلدان (ريتشارد هاس، 2020).

وبرأيي، لا يمكن الركون إلى هذه التوقعات التي تظل ظرفية فقط وغير نهائية، كما أن الحديث عن عودة الدولة القومية بعد إغلاقها لحدودها وتحكمها في مجالها، كما كان الأمر في القرن

التاسع عشر، واسترجاع الدولة لسيادتها، كلام نسبي، لأن العولمة قطعت أشواطاً متقدمة، وبالتالي لا يمكن أن تعود القهقري ونعيش سيادة الدولة الوطنية كما السابق، زيادة على أن الدولة ظلت حاضرة بشكل قوي في المجتمعات النامية ذات الأنظمة الاستبدادية والتسلطية، ومارست عنفها المشروع وغير المشروع.

صحيح أن هذه الأزمة أبانت عن ضعف متعدد، وعن توحش النظام النيوليبرالي، وكذا عن أولوية الاقتصاد والتسليح على حساب الجانب الاجتماعي والصحي، وجعلت نظام العولمة أمام الاختبار بسبب انهيار سلاسل الإمدادات التجارية العالمية، وتخزين الدول للوسائل الطبية واعتراض حملات المواد الطبية الموجهة إلى دولة من الدول كشكل من أشكال القرصنة الجديدة، وغلق الحدود أمام حركة السفر الدولية، والاتفاق على تخفيض الدول المصدرة للنفط لإنتاجها إلى درجة غير مسبوقة حتى لا يؤدي استمرار الانتاج إلى انخفاض كبير في الأسعار.

ويفرض هذا الواقع إعادة تقييم رئيسية للاقتصاد العالمي المترابط، فالعولمة لم تسمح بالانتشار السريع للأمراض المعدية فقط، بل عززت الترابط العميق بين الشركات والدول، مما يجعلها أكثر عرضة للصدمات غير المتوقعة. الآن، تكتشف الشركات والدول على السواء مدى ضعفها. لكن درس الفيروس التاجي الجديد لا يكمن فقط في فشل العولمة، بل في هشاشتها (هنري فاريل وأبراهام نيومان، 2020). لذلك، فالفرصة مناسبة لإعادة التفكير في طريقة وأسلوب العيش، مما يحتم على الدول إعادة النظر في أولوياتها وفق عقد اجتماعي جديد يحدد المسؤوليات والصلاحيات ويهتم بالقطاعات الاجتماعية بعيداً عن منطق اقتصاد السوق.

على المستوى الجيوسياسي، فالأكيد أن عالم ما بعد كوفيد-19 لن يكون شبيهاً لما قبل الجائحة، فقد جاء في مقال نشر في "فورين أفيرز" الأمريكية أنه مع عزل مئات الملايين من الناس حول العالم، أصبحت جائحة فيروس "كورونا المستجد" حدثاً عالمياً. ويجب وضع آثارها الجيوسياسية والصحية في الاعتبار، إذ تميل الأنظمة الدولية إلى التغير تدريجياً ثم تتغير فجأة. ويقارن ذلك بما حدث سنة 1956، حين كشف فشل التدخل في قناة السويس عن انحطاط القوة البريطانية، ووسم نهاية عهدها كقوة عالمية. اليوم، يجب على صانعي السياسة الأمريكية أن يدركوا أنه إذا لم تتمكن الولايات المتحدة من مواجهة الجائحة والخروج منها بأقل الخسائر، فإن جائحة الفيروس التاجي يمكن أن تشكل لحظة ماثلة لإخفاق بريطانيا في السنة المذكورة، إذ يمكن أن يفتح ذلك فرصاً اقتصادية أمام الصين، المنافسة الشرسة للاقتصاد الأمريكي (كورت كامبل وروث دوشي، 2020).

سيترك الوعي بتداخل تأثيرات الفيروس، على أكثر من صعيد، آثاره على العلاقات الدولية وعلى السياسات الخارجية للدول، إذ من الممكن أن نرى إعادة رسم السياسات الخارجية وخلق

آليات تعاون جديدة تضع في الاعتبار الجانب الإنساني ومصالح الشعوب بالدرجة الأولى وليس المصالح الاقتصادية. لكن، من المستبعد أن نشهد تغيراً في ميزان القوى على المستوى العالمي، على الأقل في الزمن القريب، في حين ستظهر آثارها الاقتصادية والاجتماعية وكذا النفسية في الأيام القليلة القادمة.

3.2. المؤرخون المغاربة والكتابة عن الجائحة

تفاعل عدد من الباحثين المغاربة مع انتشار وباء كورونا فأنجزوا مجموعة من المقالات جعلت من التاريخ ميدانا خصباً لتذكير القراء بما عاشه المغرب وخارجه من أوبئة ومجاعات، لدرجة يمكن القول معها بوجود طفرة في المقالات والملفات الصحفية حول الأمراض التي أنهكت المجتمع المغربي عبر التاريخ، على اعتبار أن الأوبئة غالباً ما شكلت حدثاً مأساوياً، ولكن في الوقت نفسه حدثاً مفصلياً في مرحلة تاريخية معينة، مثل ما تمخض عن وباء الطاعون الأسود (1348-1350)، على المدى المتوسط والطويل، من بروز حركة انعتاق وتحرر فكري أدت في النهاية إلى انهيار النظام الفيوذالي، وتراجع سلطة الكنيسة، وبزوغ التطلع إلى نظام اقتصادي واجتماعي جديد قائم على العقلانية. ولذلك، يعتبر المؤرخون الموت الأسود بداية عصر النهضة الأوروبية.

وعليه، فقد تساءل عدد من الباحثين عن دور التاريخ، وعن الحاجة إلى المؤرخ في مثل هذا الظرف الوبائي، وهل يمكن الحديث عن تحقيب تاريخي جديد اعتباراً لدور الأوبئة في سقوط وقيام الحضارات (القادري بوتشيش، 2020). ومنهم من رجع إلى كتابات عبد الرحمن بن زيدان والمختار السوسي ومحمد الأمين البزاز والأرشيف الفرنسي.

وذهب باحث آخر إلى القول بأن الأوبئة كانت سبباً في إعادة التفكير في العديد من الممارسات والمفاهيم والمواقف، فنشأت سلطة جديدة مثلاً الأطباء بدل سلطة الكنيسة، حيث استطاعوا مكافحة وباء الكوليرا بطريقة مرتبطة بالبحث العلمي، فتغيرت الممارسات الصحية رأساً على عقب، وشكلت ثورة علمية مع لويس باستور (حبيدة، 2020). فيما تنبه باحث ثالث إلى أهمية التاريخ الديموغرافي لدراسة وباء الطاعون الأسود رغم غياب الإحصائيات وعدم معرفة العدد الإجمالي للسكان، وأقر بأن الدراسات التي أنجزت حول تاريخ المغرب لم تشر إلى تقدير عدد السكان، إذ قبل كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان لا يوجد مصدر حاول الوقوف على تقدير عددهم. (اجميلي، 2020).

وتفاعل عدد من الباحثين مع الحدث عن طريق إجراء حوارات صحفية بهدف تقريب عموم القراء والمشاهدين من هذا الوضع وإبراز خطورته، والوقوف على الإجراءات الاحترازية المتبعة والبحث في متون التاريخ عن تجارب مماثلة، مثل الوقوف على الإنفلوانزا الإسبانية 1918-

1919 كوباء مأساوي خلف ملايين الضحايا، وأبان عن الحاجة إلى اللقاحات. كما ظهرت باستمرار بعض الأسئلة في الأدبيات حول أصوله وتفشييه وعدد ضحاياه في بؤرها وعند تنقلها، والرد الاجتماعي عليه (فريدريك فانيورون، 2020). علّ ذلك يسهم في زيادة منسوب الوعي بخطورة ما نعانيه اليوم، خاصة وأن بعض الفئات من المجتمع المغربي لم تلتزم بالحجر الصحي الذي طبقه المغرب منذ 20 مارس 2020، بشكل كلي، بل خرج البعض في تظاهرات حاشدة ضد الجائحة، كما حدث في مدينتي فاس وطنجة مستحضرين حملات قراءة اللطيف التي سجلها التاريخ المغربي. زيادة على تجذر معتقدات وخرافات مرتبطة بالتفسيرات غير العلمية التي تناولت الجائحة، على الأقل في بدايتها، من ذلك مثلا أن قوة المناعة لدى البعض، من شأنها أن تقيهم الوباء، جراء تناولهم مواد غذائية بشكل يومي مثل البصل والثوم وزيت الزيتون والشاي... وهي أفكار موجودة في التعابير اليومية للمغاربة، وتعبّر عن غياب الوعي العالمي بهذا المشكل، كما أنها ممارسات كانت موجودة في كثير من الوقائع التاريخية، مما يشير إلى استمرار بنية فكرية قديمة، رغم ما يقال عن الحداثة والتحديث في هذه المجتمعات.

ومرد اهتمام المؤرخين بهذه التغيرات إلى وعيهم بخطورة المرحلة، وإلى رغبتهم في الانخراط في النقاش المجتمعي، وإبداء رأيهم في القضايا المطروحة على الصعيد الوطني والدولي، خاصة وأن جائحة فيروس كورونا تشكل خطرا يستهدف الجميع دون تمييز ولا تعترف بالحدود الوطنية. وإلى حدود كتابة هذه الورقة، يمكن التقاط مجموعة من الإشارات، منها مثلا الصراع السياسي الواضح بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، وفشل الاتحاد الأوروبي في تحقيق التضامن وتعزيز آليات التعاون. إذ أصبح مقسما بين دول الشمال ودول الجنوب الأوروبي التي اجتاحتها "كوفيد-19" ولم تجد السند والدعم الكافي من باقي دول الاتحاد. فهل سيساهم ذلك في تفكك الاتحاد الأوروبي مستقبلا؟ يبقى من المجازفة الحديث عن تغير النظام العالمي بشكل جذري بعد "كورونا"، لأن ذلك في نظرنا يحتاج إلى عدة تغيرات تمس هياكل التجارة الدولية وآليات صنع القرار السياسي العالمي، والبنية الفكرية للمجتمعات عبر بنية زمنية طويلة. لكن، نلاحظ أن بعض الدول، مثل المغرب، بادرت إلى الاعتماد على الذات والتقليل من التبعية للخارج، فتحوّلت بعض الشركات إلى إنتاج أدوات طبية مثل الكمامات وتزويد الأسواق المحلية من هذا المنتج، كما ظهرت بعض الكفاءات الوطنية لاختراع أجهزة التنفس الاصطناعي. كل هذه مؤشرات دالة على إمكانية الاعتماد على الطاقات والمواد الوطنية من أجل تعزيز الإنتاج الصناعي الوطني. وبالتالي إعادة بناء الإنسان. وإذا ما تحقق ذلك يمكن أن يساهم في إعادة بناء العالم بعيدا عن اللامعنى وعن القلق الذي أصبح يعيشه في الحجر الصحي وتجاوز الفئات المهددة لأمنه البيولوجي.

خاتمة

تأسيسا على ما سبق، نُقر الآن أننا أمام وقائع هشة أو متقلبة وغير مستقرة، لكنها في الوقت نفسه تسمح بالتطلع للمستقبل، إذا ما استوعبنا خصائص المرحلة الوبائية التي اجتاحت العالم وتمكنا من الخروج منها بأقل الخسائر بعيدا عن التهويل، وعن التبسيط في الآن نفسه. فقد نحتاج إلى نيوديل آخر (New Deal) بإجراءات حقيقية تعيد للإنسانية آدميتها، وتركز على نماذج تنمية أكثر إنسانية، بعيدا عن الفردانية المقيتة.

من جانب آخر على المؤرخ أن يقدم معرفة تاريخية حول هذه الجائحة بما يتوفر عليه من أدوات منهجية، وجمع المعطيات وتمحيص المعلومات وتفسيرها ونقدها وإبرازها في قالب علمي، فالفترة الآن مناسبة لإعادة التفكير في هذا التخصص ومساءلة الحقب التاريخية التقليدية، والحاجة ماسة لكتابة تاريخ كوني جديد ووضع منهجية منفتحة بإقامة جسر للتواصل مع كتابات متنوعة المشارب، تجمع بين الصحة والديموغرافية التاريخية والاقتصاد والاجتماع ... واستثمار الذاكرة الجماعية التي بدأت تتشكل حول الموضوع، وتوظيف المعطيات الرقمية حول عدد الوفيات والمصابين والخريطة الوبائية والانعكاسات النفسية ... وغيرها من المجالات للتمكن من الخروج من حالة الانحسار وخلخلة وإرباك كل اليقينيات.

ذاك هو درس التاريخ الذي يمكن للمؤرخ أن يبرزه للقارئ.

المراجع

- اجيلي حميد، "الطاعون الأسود" <https://www.hespress.com/writers/466474.html> تاريخ الاطلاع، 6-2020-4
- أرنولد دافيد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، عدد 236، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998.
- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن 2002 .
- القادري بوتشيش إبراهيم، "هل يقرب وباء كورونا نهاية العولمة وبداية تحقيب جديد للتاريخ؟" على الرابط <https://www.hespress.com/histoire/465665.html> تاريخ الاطلاع 6-2020-4
- القديس أوغسطين، الاعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، الطبعة الرابعة دار المشرق، بيروت، 1991.
- بن هاشم محمد، "العلاقات المغربية الأمريكية دراسة في تاريخ التمثيل الدبلوماسي الأمريكي بالمغرب 1776-1912"، أطروحة دكتوراه الدولة: جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس 2000 .
- حبيدة محمد، من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم الغد" على الرابط <https://www.hespress.com/histoire/465330.html> تاريخ الاطلاع، 2-2020-4
- فريدريك فانيورون، الإنفلونزا الإسبانية عودة إلى وباء 1918-1919" ترجمة محمد حبيدة، على الرابط <https://www.mominoun.com/articles/%> تاريخ الاطلاع، 16-2020-4

كوثراني وجيه، "التاريخ والذاكرة والكتابة التاريخية دراسة نماذج: سايكس بيكو، الخلافة، ذاكرات طوائف لبنان"، مجلة أسطور، العدد 4، يوليو 2016.

لوغوف جاك، التاريخ الجديد، (إشراف)، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم، محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى بيروت 2007.

محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1992.

مستعد محمد، "ماذا يستطيع التاريخ؟" من أجل تأمين علمي جديد لنظام الحقيقة لمهنة التاريخ" على الرابط <https://ribatalkoutoub.com/?p=2402> تاريخ الاطلاع 2020-2-6

Bédarida François, « Le temps présent et l'historiographie contemporaine », *Vingtième Siècle. Revue d'histoire* 2001/1 (no 69), p. 153-160. DOI 10.3917/ving.069.0153

Bourdelaïs- Patrice, "Histoire de la population, histoire de la médecine et de la santé: cinquante ans d'expérimentations", *Dynamis, Acta Hispanica ad Medicinæ Scientiarumque Historiam Illustrandam*, 1997, 17, Grenade, pp. 17-36.

Henry Farrell and Abraham Newman, "Will the Coronavirus End Globalization as We Know It? The Pandemic Is Exposing Market Vulnerabilities No One Knew Existed", <https://www.foreignaffairs.com/articles/2020-03-16/will-coronavirus-end-globalization-we-know-it> (March 16, 2020)

Kurt M. Campbell and Rush Doshi, "The Coronavirus Could Reshape Global Order China Is Maneuvering for International Leadership as the United States Falters", https://www.foreignaffairs.com/articles/china/2020-03-18/coronavirus-could-reshape-globalorder?fbclid=IwAR3sPOmIy61L8GFQ8EMqe2-Z7M1aH1z-ixKsb_XYi08UaPszR49z1U7YXb0, (March 18, 2020)

Richard Haass "The Pandemic Will Accelerate History Rather Than Reshape It Not Every Crisis Is a Turning Point". <https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2020-04-07/pandemic-will-accelerate-history-rather-reshape-it> (April 7, 2020)

الأوبئة والحجر الصحي في تاريخ المغرب المعاصر

قراءة في كتاب "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19"

لمحمد أمين البزاز (1992)

أحمد الناوي

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

ahmednaoui3@hotmail.fr

ملخص

تكسي قراءة تاريخ الأوبئة أهمية كبرى في التعرف على التأثيرات التي خلفتها في حياة المغاربة، خاصة وأن المغرب عانى من ويلاتهما على مدى القرنين 18 و 19. عدم الاعتناء بصحة المواطنين آنذاك، جعل وباء الطاعون يضرب المغرب على مدى ثمانية عقود كاملة، ليمتد وباء الكوليرا أيضا على مدى أربعة عقود، ثم وباء الجدري. توالي هذه الأوبئة الفتاكة، بفعل غياب سياسة صحية، وعدم الأخذ بشروط التطبيب والوقاية من الأوبئة كتلك التي كانت سائدة في أوروبا المتحضرة، من عزل للمرضى والحجر الصحي "الكرنتينة" وغيرها، بحجج واهية دينية وحضارية وبسبب التخلف العلمي والطبي، ونقص الإمكانيات الطبية الكافية لمواجهة هذه الأوبئة الفتاكة. بالإضافة أحيانا إلى تجاهل نصائح المجلس الصحي بطنجة للحد من انتقال عدوى الجوائح وامتدادها في ربوع المغرب. هذا في وقت ساد فيه الفكر الغيبي. لقد شكلت هذه الأوبئة عراقيل حقيقية أمام تنمية البلاد، وأهدرت بسببها فرص ملائمة لتطور وتقدم المغرب في جميع المجالات، على غرار ما شهدته أوروبا آنذاك.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة، الصحة، الطاعون، الكوليرا، الجدري، العدوى، الوقاية، الحجر الصحي، المجلس الصحي، المخزن، التنمية.

Résumé

La lecture de l'histoire des épidémies est d'une grande importance pour connaître les effets qu'elles ont eus sur la vie des Marocains, et ce que les aléas ont fait endurer au Maroc au cours des XVIII^{ème} et XIX^{ème} siècles. L'absence d'intérêt accordé à la santé a fait en sorte que l'épidémie de la peste sévisse pendant huit décennies entières, et que l'épidémie du choléra dure quatre décennies, suivies par l'épidémie de la variole. Face à la succession de ces pandémies, le Maroc n'a pas pris des mesures susceptibles de les enrayer. Ceci en raison du non-respect des conditions de médication et de prévention des épidémies à l'instar de celles qui prévalaient en Europe civilisée, comme l'isolement des malades et la mise en quarantaine, etc.. Ces épidémies ont constitué de vrais obstacles devant le développement du Maroc.

Mots-clés: épidémies, santé, peste, choléra, variole, infection, prévention, quarantaine, Conseil de Santé, Etat, développement.

مقدمة

اعتدنا في جل كتابات المؤرخين على سرد وتحليل الأحداث السياسية والملحمية الباهرة، بينما يُهمل أحيانا تاريخ الأزمات الاقتصادية والاجتماعية. في حين أنها تشكل جزءاً هاماً من تفسير السياق التاريخي لوقائعه الرسمية المختلفة. لهذا يستحسن التطرق إليها، ليس من باب اكتشاف الوقائع، وتوسيع المدارك فقط، بل من أجل الاعتبار والوعي بالواقع المعاش، واستشراف المستقبل.

انطلاقاً من هذا الجانب، تطرح على كل مكونات المجتمع، خاصة الفئة المثقفة منها، وعموم الباحثين الأكاديميين في تخصصات التاريخ، والجغرافيا، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، والبيولوجيا، والطب، وغيرهم، المساهمة عبر إنتاجاتهم الفكرية في تحليل الأزمات التي تصيب المجتمع، ومنها الجوائح الوبائية، وتحليلها والبحث في أسبابها، وطرق تجنب الإصابة بها، ومنها جائحة "كورونا" التي تحتاج العالم الآن، والعمل على التوعية بها، وتوجيه المواطنين إلى أفضل السبل لتجنبها والتقليل من تبعاتها الوخيمة.

في هذا السياق قمنا بقراءة في كتاب قيم يؤرخ لتاريخ الأوبئة في مغرب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك للتعرف على الطريقة التي واجه بها المغاربة الأوبئة في الماضي، خاصة الحجر الصحي (الكرنيتينة)، أخذاً للعبرة، وتوعية للمواطنين بضرورة اتباع شروط الوقاية لمواجهتها، كما فعل أجدادنا في الماضي.

1. وباء الطاعون: سنوات 1742 - 1751

بحكم الموقع الجغرافي، ظل المغرب مهددا باستمرار بالأوبئة الفتاكة القادمة سواء من البلدان المجاورة، أو من جراء الكوارث الطبيعية الدورية التي لحقت به. هكذا، ظهرت جائحة الطاعون خلال سنوات 1678 - 1680، أولاً في تونس والجزائر ومرسيليا، ثم في مصر ما بين 1670 و1736، وفي الجزائر، عاود بين 1738 و1741، ليصل إلى المغرب الأقصى عام 1742. وتذكر المصادر التاريخية أن أسباب هذا الوباء متضاربة، منها المناخية، والغذائية، والعدوى المنقولة بواسطة القوافل التجارية القادمة من الشرق إلى فاس. ويبقى هذا الاحتمال الأخير وارداً. وقد ساهمت الصراعات السياسية آنذاك في "حركة كبرى للمحاربين من مختلف القبائل في الشمال والجنوب، مما ساعد على نقل الوباء على مساحات واسعة من البلاد، كما أن الظروف الاقتصادية السيئة ساهمت في حركة هجرة وتنقل للسكان في أرجاء البلاد بحثاً عن لقمة العيش"، كما يقول الضعيف في "تاريخ الدولة السعيدة".

وتراجع الوباء قليلاً عام 1744، "إلا أنه عاود ظهوره منتصف عام 1747، وامتد إلى غاية عام 1751، حيث كانت العوامل الطبيعية والغذائية وقوداً لهذه الجائحة"، حسب شهادة

الناصري في "الاستقصا". كما كانت "للتنقلات وحركات المحاربين عبر جهات المغرب الأقصى أبلغ الأثر في انتشار الوباء وذلك عبر نقل العدوى"، بحسب ما ورد عند الناصري، لينقطع عام 1751.

لقد أسفرت جائحة وباء الطاعون، التي عرفها المغرب الأقصى بين عامي 1742 و1751، عن تراجع اقتصادي شامل، ساهمت فيه ظروف طبيعية سيئة، وهجرات واسعة، ونزيف ديموغرافي، واضطراب سياسي متردد. وقد غذت هذه الأوضاع المعتقدات الغيبية لدى الناس في تفسير أصل هذه الجائحة، إلا أنها ركزت عموما على مسؤولية الإنسان لا الطبيعة.

2. جائحة طاعون 1798 - 1800

بعد طاعوني منتصف القرن الثامن عشر، عرف المغرب فترة هناء، استمرت زهاء نصف قرن. فمع تولي سيدي محمد بن عبد الله نشطت حركة تصدير الحبوب إلى أوروبا منذ 1766، بفضل كثرة المحاصيل والأمن والاستقرار، إلا أن المبالغة في التصدير أدت إلى نقص المخزون". وما لبثت الظروف الطبيعية أن تدهورت، مما أثر سلبا على النشاط الفلاحي عامي 1779 - 1780.

ومنذ 1787 تفشى وباء الطاعون في الإسكندرية، وفي السنة الموالية نقله الحجاج والتجار إلى تونس، ثم انتقلت العدوى إلى الجزائر، التي عاودها الوباء عامي 1792 و1797. وبقي المغرب بعيدا عن العدوى، بفعل بعض الإجراءات الوقائية التي اتبعها المخزن آنذاك، من ذلك إقامة السلطان

لنطاق عسكري للحماية من الوباء على مشارف الجزائر. وابتداءً من عام 1792، اتخذت الهيئة القنصلية بطنجة (الخونطة) إجراءات صحية وقائية على الواجهة البحرية، كما فرضت حجرا صحيا على الجزائر عام 1793، وعلى السفن القادمة من أوروبا عام 1797. وبذلك بقي المغرب بمنأى عن وباء الطاعون اللعين. لكنه داهم البلاد بقوة بعد سنتين، أي عام 1799، حيث قدم من الجزائر. في هذا الصدد، يذكر المؤرخ الفشتالي "أن الوباء داهم قبيلة الوداية وقصبة فاس ثم فاس الجديد عام 1798 وفاس البالي عام 1799". وقد أشارت المصادر إلى "أن الطاعون كان دملي يصاحبه إسهال وقيء، في حين أن الوباء الرئوي عصبي سريع القتل".

وقد نهت الهيئة القنصلية بطنجة (الخونطة) المخزن آنذاك، إلى ضرورة اتخاذ التدابير الصحية الوقائية اللازمة للحيلولة دون انتشار الجائحة، وتمكنت البلاد من فرض حجر صحي على مدينة مليلية، كما أقامت أحزمة صحية حول طنجة، والعرائش، وتطوان، إلا أن ذلك كان محدودا، مما نتج عنه انتشار الوباء في كل البلاد، "بفعل منحها السياسية، مع تعدد الحركات المخزنية، وتنقل المحاربين والسكان بين الجهات دون احتياطات صحية ضرورية"، كما تقول

المصادر، و"مخنها الاقتصادية من جفاف واكتساح الجراد"، برأي بول باسكون. ولذلك، أحدث الوباء انهيارا ديموغرافيا كبيرا، حيث "خلت بعض المدن من سكانها، كما هجرت القرى، وقدرت خسائر الجائحة بضياح حوالي ثلث سكان المغرب"، حسب التقديرات التي قدمها أحد التجار الإنجليز، جيمس كري جاكسون. لقد عانت البلاد طويلا من مخلفات هذه الجائحة على جميع الأصعدة، مما دفع قناصل طنجة (الخونطة) إلى رفع توصية للسلطان بفرض حجر صحي (الكرنتينة) عام 1817.

3. جائحة طاعون 1818 - 1820

مع بداية القرن التاسع عشر، عم الأمن والرخاء، وبدأ تصدير الحبوب إلى السويد، وفرنسا، وتونس، وطرابلس، إلا أن هذه الأوضاع لم تدم طويلا، إذ عادت جائحة الطاعون عام 1817، فضربت عدة بلدان متوسطية منذ 1806، خاصة مصر ومالطا عام 1816، والجزائر 1817، حيث انتقلت غربا مع قوافل الفارين.

وفي المغرب تولت (خونطة) القناصل، منذ 1800، مهمة طرد المراكب الموبوءة من مراسي المغرب، أو إخضاع ركابها للحجر الصحي (الكرنتينة)، وبذلك نجت البلاد من عدة أوبئة، منها الحمى الصفراء القادمة من جبل طارق ومالقا عام 1810، ووباء الطاعون "بعد فرض الدولة (الكرنتينة) عام 1817 على كل المراكب القادمة من الجزائر، وتونس، وطرابلس، والمشرق، لمدة أربعة أيام، ولمدة يومين على المراكب الأوروبية، وتعميم القرار على مراسي تطوان، والعرائش، والرباط، والصويرة". وقد جاء في رسالة السلطان المولى سليمان للقناصل بطنجة، دعمه لقرارهم: "... فأنتم تعرفون كيف تتعاملون مع أهل الوباء في بيعاتكم ومشترياتكم وتجعلون الدراهم في الخل وتحفظون كل التحفظ، والمسلمون لا يعرفون ذلك... وذلك فيه ضرر عليهم.. وعليكم...". إلا أن الحجر الصحي كان يصطدم أحيانا بالتحفظ والتردد، خاصة عندما يتعلق الأمر بالحجاج المغاربة، وقد أدى ذلك إلى تسلسل الوباء إلى البلاد عام 1818، "بسبب مركب للحجاج نقل العدوى إلى طنجة، وقد بعثت (الخونطة) التماسا إلى السلطان لفرض حجر صحي على مركب إنجليزي يحمل حجاجا، فأبدى موافقته، بل وحدد بنفسه مدة (الكرنتينة) ومكان عزلهم بطنجة البالية.. إلا أن الحجاج نزلوا بالمرسى فانتقلت العدوى من الحجاج إلى أسرهم، ثم إلى الحي المجاور"، فقبض القناصل والأوروبيون في دورهم، وامتنعوا عن تلقي أي شيء إلا بعد غمسه في الخل.

كان هذا الوباء الجديد خفيفا، في البداية، وكان ضحاياه من الأطفال والنساء والشيخوخ من ضعاف البنية، لكنه احتد بعد ذلك، إذ وصفه القنصل الفرنسي آنذاك "بالصاعقة يقتل في الحين، حتى ضاقت مقابر المسلمين"، ثم بدأت الجائحة تنحسر تدريجيا، وتقلص عدد الضحايا

حتى انقطع تماما عن طنجة في مارس عام 1819، مخلفًا حوالي 2207 ضحية من أصل 9 إلى 10 آلاف ساكن. وانتشر الوباء من الساحل الشمالي نحو الداخل، خاصة فاس، ومكناسة، وتطوان، كما ضرب الوباء تادلا، وسوس. وفي عام 1820، وصل مراكش والصويرة وأقاليم حاحة والشياطمة وسانت كروا (أكادير). و"أصبحت المناطق الجبلية بدورها وتفشَّت في سفوح الأطلس الكبير"، بحسب الدراسة التي أنجزها أحمد التوفيق. وتشير دراسة الطبيب رينو المنجزة عام 1923 إلى "أن الجائحة أصابت 5/3 من السكان آنذاك، وضاع منهم 1/4 سكان المغرب".

ويظهر أن هذه الجائحة كانت أخف من سابقتها، إلا أنها خلفت نتائج مهمة على جميع المستويات:

1 اقتصاديا: تدهورت التجارة والفلاحة والحرف، خاصة في السهول فتفتشت المهن الرعوية أكثر، وزادت هجرة القبائل، حيث انتقلت قبيلة الرحامنة من الصحراء إلى سوس، ووصلت إلى نواحي مراكش، وظهرت قبيلتا كروان وأيت أمالو بتادلا، وأيت حديدو بملوية، وهاجرت قبائل صحراوية رعوية إلى السهول الغربية. وعرفت الجبال أيضا فراغا بشريا بفعل الوباء، وجلبت أسرا من أمزميز وسوس.

2 اجتماعيا: أدت الجائحة إلى تغير أحوال الناس وبُنى الثروة والتملك والعلائق القبلية. كما كان لها نتائج نفسية، حيث كثرت أعمال الخير والصدقات وزيارة الأضرحة والمساجد للدعاء وطلب الرحمة، فكثر الوعاض المتشائمون من الأوضاع ومن الدنيا، والمنذرون بقرب نهاية العالم.

3 سياسيا: بعد انقطاع الجائحة، عم الأمن والرخاء، واستعادت البلاد نشاطها المعهود.

4. جائحة كوليرا 1834 - 1896 وجائحة جذري 1891

بعد جائحة الطاعون لسنوات 1818 - 1820 حلت جائحة الكوليرا (بوكليب) أو (الريح الأصفر) كما كان يسميه المغاربة. ظهر الوباء ضمن موجات اكتسحت العالم منذ عام 1817 قادمة من الهند والحجاز، ووصلت دول المتوسط وعبرت إسبانيا وفرنسا، لتصل إلى المغرب رغم الإجراءات الوقائية بالمراسي منذ 1829، التي شملت الطرد والحجر الصحي ضد السفن الموبوءة، خاصة القادمة من الجزائر وجبل طارق. وبعد اكتساحه إسبانيا، أمر السلطان المولى عبد الرحمن عماله بالمراسي بتنفيذ تدابير الحجر الصحي، إلا أن الكوليرا ظهرت بفاس عام 1834، ومنها انتقلت إلى جل المدن والقرى والواحات الشرقية. وفي عام 1835 ظهر بطنجة وتطوان، ثم اختفى تدريجيا، ليعود بعد الأزمة الغذائية لسنوات 1847 - 1851. وقد قام المخزن بتنظيم عملية إغاثة، قدّم خلالها المولى عبد الرحمن أموالا للفقراء لشراء الأقوات. ثم ضربت الجائحة المغرب من جديد عام 1854، بعد ظهورها في فرنسا وإيطاليا وتونس، حيث فتكت بالناس في

فاس وهرب خلق كثير، إلا أن الوباء كان يلاحقهم، حتى أفنى 3000 ضحية في حي اليهود بفاس. كما سرى أيضا في مدن تطاون وسلا والدار البيضاء عام 1855.

في مرحلة ثانية، نقل الجيش الإسباني العدوى إلى المغرب مع حملته على تطاون عام 1859-1860، كما نقلها من قبل الجيش الفرنسي في حملته على بني يزنسن إبان معركة إسلي عام 1844. وقد ساعد الجفاف والمجاعة على نشر الجائحة في سبتة وتطوان والريف، ووصل الوباء إلى سلا والرباط أزموور وفاس، وذلك في خضم التوسع الاستعماري الناجم عن تطور الرأسمالية الأوروبية وحاجتها إلى الأسواق والمواد الأولية. في هذا السياق، حصلت إنجلترا على اتفاقية تجارية مع المغرب عام 1856، استنزفت موارد البلاد وأربكت سياسة الدولة آنذاك، التي تكالبت عليها أطماع الدول الأجنبية والظروف الطبيعية السيئة والجوائح الفتاكة.

عمت الموجة الرابعة للوباء العالم ابتداءً من عام 1865، قادمة من الشرق، حيث وصلت إلى أوروبا، لكن المغرب بقي في منأى عنه، بفعل إجراءات المجلس الصحي الدولي بطنجة، وتدابير الحجر الصحي على سفن جبل طارق، وحجز سفن الحجاج بجزيرة الصويرة حسب "ظهير 1866". لكن وباء الكوليرا دخل من الشرق عام 1867، وظهر بتطوان وطنجة قادما من وهران براً، كما عمّ كل الأقاليم عدى المراسي، ووصل إلى فاس ومكناس وسلا والرباط والدار البيضاء وأزموور والجديدة وأسفي والصويرة ومراكش ودمنات وتامكروت. لقد شكلت هذه الجائحة مأساة حقيقية خلفت آثارا ديموغرافية واقتصادية واجتماعية، إذ قلصت أعداد السكان، وزادت من الفوارق الاجتماعية، حيث استفادت البورجوازية الحضرية من الانفتاح على الغرب، وظهرت عليها علامات الترف وسمات الحضارة الأوروبية. ومن جهة أخرى، كبحت الحماية القنصلية تدخل الدولة لخلق التوازن المعهود في الثروات، واستغل التجار الأوروبيون الوضع الاقتصادي السيئ فوسعوا ممتلكاتهم وحولوا بذلك عددا من الفلاحين إلى خماسين في الأراضي التي فقدوها، كما يشير إلى ذلك الناصري.

استمر الوباء حتى عام 1869 ليعود عام 1878. كان هذا الوباء قد بدأ بأزمة غذائية شاملة، مما يفسر توجه المغرب إلى استيراد الحبوب بعدما كان يصدرها، فظهر المرض بمكناس ووصل إلى مراكش ثم تافيلالت والمراسي وفتك بمخلق كثير، رغم محاولة إخفائه من طرف الأجانب لحماية مصالحهم التجارية. ومع ذلك، وُضع حجر صحي على الوافدين على طنجة والعرائش وتطوان تراوحت مدته بين 8 و15 يوما، لكن العدوى انتقلت إلى الجنوب خاصة المدن، فكانت الخسائر حسب كثافة سكانها.

وبعد الكوليرا، جاء وباء التيفوئيد ليضرب مراكش والجديدة وفاس عام 1879، ثم باقي البلاد، بفعل نقل العدوى عبر الأقاليم، فحصد الأهالي والأجانب والقناصل ونوابهم، حيث هلك

قنصلا إيطاليا والبرتغال في الصورة، وقنصل إيطاليا في آسفي، ونائب قنصل النمسا في الجديدة. وكان سبب الجائحة هو الجوع وسوء النظافة لانعدام تصريف المياه المستعملة، وبيوت الخلاء وكثرة الأزبال. كما ساهمت الهجرة القروية في نشر الوباء، إذ قضى على ثلث السكان حسب القنصل، مع العلم أن عدد سكان المغرب لم يتجاوز أربعة ملايين نسمة آنذاك، وفق تقديرات الطبيب رينو السالف الذكر.

وعاد الرخاء إلى المغرب من 1885 إلى 1895، على عهد المولى الحسن الذي سرح تصدير الحبوب مجدداً، إلا أن الجفاف والجراد عادا عام 1890، مخلفا أضرارا جسيمة، كما تفشت جائحة "الجدري" بالصويرة عام 1891، ثم مراكش وسوس، وطنجة وتطوان. ومع ذلك، استمر تصدير الحبوب إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من مراسي هاتين المدينتين الشاليتين.

5. جائحة كوليرا 1895 - 1896

ظهر الوباء متأخرا بالمغرب ضمن الموجة الخامسة العالمية بفعل الحجر الصحي الصارم ضد السفن الموبوءة. إلا أن وصول سفينة حجاج إلى طنجة عام 1895 أدخل الوباء إلى البلاد، مع أن الضحايا كانوا قلة (700 فرد من أصل 40 ألف نسمة بالمدينة). وبلغ الوباء تطاون عبر السلع، وداهم المدينة، حيث قضى على 865 فرد من أصل 20 ألف نسمة. ونقل الحجاج العدوى إلى باقي جهات المغرب خاصة اغمارة والهبط، وفاس، والرباط، والغرب، ومكناس، كما ساهمت حملة المولى عبد العزيز على الرحامنة في نقل العدوى إلى الجنوب، لكن الوباء توقف في مراكش عام 1896.

اجتهد المغاربة في تفسير أسباب الجوائح التي أملت بهم آنذاك، فابتدعوا ممارسات مختلفة وغريبة أحيانا للحد من آثارها، منها الغيبية، والاقتصادية. سادت التفسيرات الغيبية منذ القرن الرابع عشر، حيث أرجعها البعض إلى غضب السماء، والفساد الذي عم الأرض. لهذا توجهت العامة إلى الطقوس الدينية كالصلاة، والصوم، والابتهاال، والتبرك بالأضرحة والأولياء، وتعظيم أهل الصلاح والزوايا، كما كثرت الصدقات والذبيحة كقربان، والأعمال الإحسانية، والوقف، والدعوة للاستقامة والتقوى. ومن جهة أخرى، لجأ المغاربة إلى ممارسات اقتصادية، كتخزين الأقوات والزريعة في حالات المسغبة والجوع قبل وبعد الجائحة، كما اقتاتوا بالنباتات البرية، كالدهقل أو نبتة (برني) التي كان يصنع من عروقها خبز أبيض، والنبق، والخروب، والبلوط، والدوم، وأركان، والجراد، والسّمك التّن، وغيرها.

ولمواجهة هذه الجوائح، تدخل المخزن بإعطاء المال لشراء الأقوات، وفرض إجراءات الحجر الصحي، وتوزيع الصدقات على ضعفاء الرعية، واستيراد الحبوب، وتزويد الأسواق بالسلع، ومحاربة الاحتكار، والحث على الزراعة.

وتركت الأوبئة بصمات على الحياة الفكرية آنذاك، فعلى غرار مؤلفي العصر الوسيط، كابن الخطيب، والمقريري، وابن تغري، والعسقلاني، وابن حجلة، كتب المغاربة رسائل عن الأوبئة منذ القرن الرابع عشر. ففي رسالته "ماهية الأمراض الوبائية"، فسر ابن هيدور الفاسي الوباء تفسيراً فلكياً ومناخياً، كما ربطه بفساد الأغذية زمن القحط والمجاعة، ولخص طرق العلاج في إصلاح الهواء ناقل العدوى، ولزوم البيت ورشه بالرياحين، ومسح الأطراف بالخل، وتنظيم الغذاء، والنظافة. وتحذرت المخطوطات، التي ألفت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عن حكم الخروج من أرض الوباء أو الدخول إليها، تبعاً للأحاديث والآيات، لكن دون تحديد مواقف واضحة، كما جاء في رسائل محمد بناني والحضيكي والمطفي، إذ ركزت على حتمية الموت، وضرورة الاحتراز والتحصن. أما بنعجيبة التطواني، فكان يرى أن "لا حذر من القدر"، في حين ركز العربي المشرفي على آراء ابن سينا في عدم الاختلاط وقت الوباء، واستعمال الخل كوقاية. وعلى غرار ذلك، سار فقهاء ذلك الزمان، إذ تعاملوا بمرونة مع النصوص، فأكدوا على تدابير الوقاية كالعزلة، والانعزال في المسكن بعيداً عن المريض، وترك الأفراح، والجنازات، والتماس العلاج، والأكل المناسب، واستعمال الأعشاب العطرية، والنظافة، ودوام الدعاء لتخفيف حدة الوباء. ومن أدعية المغاربة آنذاك: "يا حي يا حكيم، يا حنان يا كريم"، "اللهم اكفني شر هذا الريح، وما جاء به بفضل بسم الله الرحمن الرحيم"، "اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تعصمنا من الأحوال والآفات وتطهرنا من السيئات". وقد ارتبطت هذه الابتهالات الروحية بقيم وسلوكيات نفسية، سادت في مجتمع كان شبه أعزل أمام قوة الجوائح القاتلة وعنفاً.

خاتمة

من خلال هذه القراءة في تاريخ الأوبئة في مغرب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يظهر أن الظروف الطبيعية السيئة، وانتشار الأوبئة دورياً، قد شكلت حجر عثرة أمام تطوره وتحريك عجلة اقتصاده، في الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا قد جندت مبكراً كل الوسائل لمقاومة هذه الجوائح، عبر الحجر الصحي والحصار الشامل للأوبئة، حمايةً لسكانها، ودعمًا لاقتصادها. فقد كانت عودة الجائحة تعيد الاقتصاد المغربي إلى مستوى الصفر. وزاد من ثقل ذلك ضعف البنى الاقتصادية، التي ظلت تقليدية، جامدة، وموروثة عن أساليب الماضي، من جهة، وتكالب الأطماع الأجنبية على البلاد من جهة أخرى، مما تسبب في تهاوي الرصيد الديموغرافي مع كل جائحة، وعرق كل تطور اقتصادي منشود عرقلة حقيقية.

الأوبئة وتأثيراتها على السكان الطاعون الأسود نموذجا (749هـ / 1350م)

حميد اجميلي

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

hamid.jmili@uit.ac.ma

ملخص

تحاول هذه الورقة ملامسة قضية الطاعون الأسود الذي ضرب العالم والغرب الإسلامي في منتصف القرن الثامن الهجري 749هـ / 1350 م، من خلال مفهوم الوباء والخسائر الديموغرافية التي خلفها، وذلك عبر تتبع مختلف المصادر التي تناولت هذا الموضوع، بطريقة كمية في بعض الأحيان. لهذا الاستحضار التاريخي أهمية كبرى، لأن ما حصل في الماضي يعتبر وعاء من التجارب والدروس بالنسبة للحاضر، خاصة وأن الأوبئة كانت لها آثار مدوية، ليس فقط من الناحية الديموغرافية، بل الاقتصادية والاجتماعية أيضا، من حيث ركود الاقتصاد، وظهور أشكال من التضامن الاجتماعي، كما يحدث الآن مع وباء كورونا الذي فرض على المغرب والعالم أجمع أنماط حياتية جديدة.

الكلمات المفتاح: الطاعون الأسود، وباء، خسائر ديموغرافية، كورونا.

Résumé

Dans cet article, nous abordons la question de la peste noire qui a frappé le monde et l'Occident Islamique au milieu du XIV^e siècle, en mettant en exergue le concept de l'épidémie et les pertes démographiques qu'elle a causées, et ce par le biais des sources ayant traité de cette question, de manière quantitative parfois. Ceci dit, évoquer l'histoire est de la plus haute importance, car le passé peut être considéré comme un vivier d'expériences et de leçons pour le présent, d'autant plus que les épidémies ont eu des effets retentissants, non seulement sur le plan démographique, mais économique et social également, en termes de stagnation de l'économie, et d'émergence des formes de solidarité sociale, comme c'est le cas aujourd'hui avec l'épidémie de Covid-19 qui a imposé au Maroc et à l'ensemble de l'humanité de nouveaux modes de vie.

Mots-clés : Peste noire, Epidémie, pertes démographiques, covid-19.

تمثل الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية، أحد الثوابت في تاريخ المغرب، إذ يصعب الحديث عن ماضي البلاد في غياب الإلمام بها أو رصد آثارها المتعددة الجوانب (البزاز، 1993). ولا غرو، فإن ملامسة هذه المواضيع والمجالات في التاريخ المغربي، لم تحظ بالاهتمام إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبداية الواحد والعشرين، حيث أنجزت عدة دراسات في هذا المجال (البزاز 1992، رينو 1923، روزينبرجي، 1975). ونسعى في هذه الورقة البحثية إلى تقديم صورة مقتضبة عن الطاعون الأسود الذي ضرب الغرب الإسلامي ومن ضمنه المغرب، خلال العصر الوسيط (منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، وفق مقاربة ديموغرافية (اجميلي، 2018)، وما خلفه من خسائر بشرية وتأثير على سلوكيات الإنسان. ولهذه المقاربة فائدتها الراهنية، إذ تمكن من فهم ما يجري الآن، مع تداعيات كوفيد-19 الذي يحتاج المغرب والعالم أجمع.

1. الوباء والطاعون: محاولة تحديد

لا شك أن المصطلح الأول الذي يحتاج إلى فهم هو الوباء، خصوصا وأن الناس تختلف في إطلاقه على بعض الأمراض الفتاكة التي تؤدي إلى الموت. ومن حسن الحظ أننا نتوفر على نصوص في الأحاديث النبوية وكذا الاجتهادات الفقهية، التي حاولت تحديد أهم الجوانب التي تحيط به، ومن ثم وجب وضع توطئة عامة قبل أن نرصد هذا المرض من خلال المصادر التاريخية.

يذكر أحد الدارسين (الفرقان، 2004)، أن الغموض المرتبط بتعريف الطاعون وعمومية المعلومات التي نجددها في المصادر المغربية والعربية يتحدد على مستوى المصطلح، ذلك أن لفظ الوباء يرد باستمرار عند ذكر أي مرض فتاك، سواء أكان طاعونا أم حمى وبائية تتميز بالانتشار الواسع وتحصد أعدادا كبيرة من الضحايا. هذا الغموض حسب الدارس، كان له ما يشبهه في المصادر الأوروبية، مثل الإغريقية التي استعملت مصطلح "الواموس" أو "الومييا". ويشير دارس آخر (بورغيار، 1986) أن المصادر اللاتينية استعملت مصطلح "بستيس" للدلالة على كل الأمراض البشرية المعدية والفتاكة والصعبة. وفي نفس السياق، كان لفظ الوباء كثير الاستعمال لدى المؤرخين المغاربة وغيرهم من المسلمين، إذ تارة يقولون "وباء" وتارة أخرى "طاعون". وسيرا على نهج الأقدمين "كل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون". يقول القاضي عياض: "إن أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعونا لشبهها بها في الهلاك" (منفعة، 1999).

2. صعوبة تحديد جغرافية وزمن الوباء

اختلفت الأقوال في تحديد مكان ابتداء ظهور الوباء الأسود، الذي ضرب معظم مناطق العالم القديم (نشاط، 2003)، فابن خاتمة يذكر أن بعض التجار القادمين إلى المرية، أكدوا أن الوباء كان ابتداءه من "بلاد الخصاص" وهي بلاد الصين (ابن خاتمة رقم 1785 م خ ع)، ثم انتشر في آسيا الوسطى سنة 746هـ / 1345م. وثمة روايات أخرى تؤكد أن انتشاره ابتداءً بأرض الحبشة، حتى انتهى إلى ديار مصر والشام (ابن خاتمة رقم 1785 م خ ع). والمؤلف نفسه يؤكد أن اختلاف الروايات حول مكان ابتداء حدوثه، يدل على أن الوباء حينما يظهر في جهة من الجهات يعتقد الناس أن ابتداء الحادث انطلق منها. وهذا يوضح أن الوباء كان عامًا، وانتشر في مناطق مختلفة من العالم، وفي أوروبا منتصف ق 8هـ / 14م، فقد شمل "أرض بيرة والقسطنطينية العظمى والجزر الرومانية.. وبلاد جنوة وأرض فرنسة، أخذًا على ريف الأندلس، فشمل بلاد أرغون برشلونة وبلنسية وغيرها، وعم أكثر مملكة قشتالة حتى انتهى إلى إشبيلية من أقصى المغرب، واتصل مع ذلك بجزر البحر الرومي بجزيرة صقلية وسرذانية وميورقة ويابسة، وانعطف على سواحل العدو وبلادها من أرض إفريقية إلى ما يلي المغرب.." (ابن خاتمة رقم 1785).

وإذا ما حاولنا تتبع جغرافية الوباء بالمغرب الأقصى، فإن المصادر والإشارات لا تمكننا من ذلك (نشاط، 2003)، حيث اقتصر على ذكر لفظ عام هو المغرب، أو ذكر المدن التي تعرضت للوباء مثل فاس وطنجة وسبتة، وسلا وسوس ومراكش. ويتضح أن هذه المدن تعد من أهم حواضر بلاد المغرب الأقصى. وهنا نطرح سؤالًا مفاده لماذا ركزت المصادر على ذكر الوباء الذي أصاب المدن والحواضر ولم تذكر البوادي؟ الجواب أن الحواضر كانت أكثر إصابة بالطاعون، بسبب تجمع السكان وسهولة انتقال الوباء (نشاط، 2003)، في حين كان انتشار العدوى بالبوادي ضعيفًا، بحكم تشتت الدور، وهذا بحسب أحد الباحثين ينسجم مع ما أشار إليه ابن الخطيب عندما ذكر أنه "تواترت الأخبار بسلامة أماكن لا تطؤها الطرق ومنقطعة عن الناس" (نشاط، 2003). وعندما رجع ابن بطوطة من تونس إلى المغرب، مر بمجموعة من المناطق مثل تنس (تونس) ومازونة ومستغانم وتلمسان والعباد... ولم يذكر أنها تعرضت للوباء، لكنه علم بوفاة أمه جراء ذلك عندما حل بمدينة تازا (ابن بطوطة، 1981).

ويبدو أن صعوبة معرفة المناطق التي شملها الوباء بالمغرب، تبين طابع التعميم الذي غلب على المصادر، إضافة إلى عدم توفر إحصائيات تحدد حجم الخسائر البشرية، وكذا الزوج السكاني بسببه. وفي تفسير آخر لابن خلدون يذكر فيه، أن "المخصبين في العيش المنغمسين في طبيائهم من أهل البادية وأهل الحواضر والأمصار، إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم

الهلاك أكثر من غيرهم، مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء، ولا مثل أهل بلاد النخل الذي غالب عيشهم التمر، ولا مثل أهل إفريقية لهذا العهد الذي غالب عيشهم الشعير والزيت، وأهل الأندلس الذي غالب عيشهم الذرة والزيت، فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات، فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك والجوع بل ولا يندر. والسبب في ذلك -والله أعلم- أن المنغمسين في الخصب، المتعودين للأدم والسمن خصوصا، تكتسب من ذلك أعضاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدها، فإذا خولف بها العادة بقلّة الأوقات، وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء، أسرع إلى المعى اليبس والانكماش.. فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه.. فالهاكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق" (المقدمة، 2000).

3. الطاعون الأسود وخسائره الديموغرافية بالغرب الإسلامي

يعاني الباحث عند وقوفه على حادث الطاعون الأسود في بلاد الغرب الإسلامي عموما، من شبه غياب كلي للإحصائيات التي تهم حجم الخسائر البشرية، ذلك أن جل ما نصادفه في المصادر مجرد عبارات انطباعية مثل "تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل" (ابن خلدون 1959)، "الطاعون الجارف" (ابن بطوطة، 1981)، "الوباء العام" (ابن مرزوق)، "الطاعون الأسود" (المقدمة، 2000)، "الوباء الذي عم المسكونة شرقا وغربا" (الاستقصا، 1955). وغياب الأرقام يحرم الباحثين من الوقوف على أهم لحظة تاريخية في القرن الثامن الهجري، بغية فهم أهم التحولات الديموغرافية التي أصابت المجتمع المريني. وما يؤشر على فداحة الخسائر البشرية أن الوباء كان عاقما، ونُعت بنعوت تعبر عن قوته مثل "الأسود"، "الجارف"، "العام"، وهي تحمل دلالات معبرة. وإذا كانت المصادر لا تحصى عدد الموتى، فإنها أشارت إلى موت بعض أصناف الناس من العلماء والعمال والفقهاء.. فعلى سبيل المثال توفي "عبد الله الرندي"، و"يحيى بن يحيى بن مليل" (ابن الأحرر، 1972) الذي كان والي الخراج في دولة بني مرين، و"محمد بن أحمد بن خميس الأنصاري"، إضافة إلى وفاة "والدة ابن بطوطة" (ابن بطوطة، 1981) وأسرة سنان السوسية" (البزاز، 1990). كما توفي "محمد بن عبد الله ابن عبد النور الندرومي القادم بالوباء الجارف بتونس سنة 749هـ (ابن القاضي، 1973)، إلى غير ذلك من الشخصيات التي حظيت بالتدوين. وهذا ما دفع أحد الباحثين (ياسر الهلالي، 2004) في الموضوع إلى القول بأنه لا تتوفر ولو على معطى إحصائي واحد. ومن خلال تتبعنا لحادث الطاعون في كتاب ألف سنة من الوفيات وجدنا بعض أسماء العلماء والصلحاء الذين ماتوا بسببه:

جدول رقم (1): بعض الأعلام الذين قتلوا بالطاعون الأسود

العالم	الأصل	تاريخ الوفاة	المصدر (ألف سنة من الوفيات، 1976)	ملاحظات
عبد المهيمن الحضرمي	سبته	749 هـ	ص 202.	كان كاتباً لأبي الحسن المريني، وتوفي بتونس بوباء جارف
محمد بن علي بن خاتمة المريني الأنصاري		750 هـ	ص 120	فقيه توفي بالطاعون
محمد بن عبد النور الندرومي	من أعمال ندرومة، وهو صنهاجي	750 هـ بتونس	ص 118	كان قاضي عسكر السلطان أبي الحسن بتونس هلك بالطاعون
محمد ابن التجار التلمساني	تلمسان	سنة 750 هـ بإفريقية	ص 118	انتقل إلى المغرب وقربه السلطان أبو الحسن، وسافر معه إلى إفريقية هلك في الطاعون
أحمد بن شعيب الفاسي	فاس	سنة 750 هـ بإفريقية	ص 119	برع في اللغة والطب، كان كاتباً لأبي سعيد المريني، وسافر مع السلطان أبي الحسن إلى إفريقية

لا شك أنه من خلال هذه المعطيات الشحيحة يستحيل علينا الظفر بالنتائج الديموغرافية لهذا الوباء، وهذا ما جعل أحد الدارسين يقر بصعوبة دراسة الطاعون الأسود (نشاط، 1996)، ومن ثم صعوبة تلمس عدد الخسائر البشرية (نشاط، 2003).

4. وصف ابن خلدون لعواقب الطاعون الأسود

هذا وقد قدم ابن خلدون نصاً في غاية الأهمية حيث وصف بدقة العواقب الخطيرة التي نجمت عن هذا الوباء بالمغرب فقال: "نزل شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجليل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحامها، وجاء للدول على حين هزمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها. وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن، وكأن بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب..، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالحمول والانقباض..، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله،

وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها.. (المنوني، 2000).

هكذا، يقدم ابن خلدون نظرة عامة وقائمة عن أحوال المغرب، بل والمشرق أيضا، وعن عدد السكان الذي تناقص بشكل كبير، وأدى إلى تدهور العمران، وضعف الدول وسقوطها. وكان من ذلك تراجع الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، وإن كان ذلك لم يظهر بشكل واضح إلا بعد وفاة أبي عنان (المنوني، 2000). وبناء على ذلك، يتمثل هدفنا في محاولة الوقوف على أهم الإشارات التي تحيل على قوة تأثير هذا الوباء على الساكنة، وكذا عقد مقارنة بين المغرب الأقصى وبين بعض مدن بلدان الغرب الإسلامي الأخرى. فمن خلال ما تقدم، نطرح السؤال عن سبب قلة المعطيات الخاصة بحجم الخسائر البشرية، هل هي راجعة، كما قال أحد الدارسين (نشاط، 2003)، لكون أن المغاربة ألقوا الموت بفعل توالي دورة الطاعون، فضلا عن الحضور القوي للحروب والفتن وباقي الجوائح الأخرى، التي كانت تعصف بعدد كبير من الناس؟ أم يرجع الأمر إلى ذهنية المؤرخين، الذين ظلوا حبيسي الحدث السياسي فقط؟

يتعذر معرفة حجم النزيف الديموغرافي الذي أحدثه الوباء في غياب الإحصائيات، والعدد الإجمالي للسكان أيضا، ذلك أن الدراسات التي أنجزت حول تاريخ المغرب لم تقدر عددهم. فقبل كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، لا يوجد مصدر كمي. ويظل كتاب "تاريخ المغرب" الذي أشرف عليه جون برينيون، المحاولة الوحيدة التي حاولت تقدير الخسائر البشرية التي خلفها الطاعون الأسود بالمغرب حسب الباحث مصطفى نشاط، إذ تتراوح نسبة الخسائر الديموغرافية ما بين (2 على 3) و(1 على 6). مع الأخذ بعين الاعتبار أن أوروبا فقدت النسبة نفسها من سكانها بفعل الوباء (برينيون، 1994). ونضيف أن هذا الطاعون، حسب أحد المصادر، حصد نصف الساكنة، كما ورد ذلك عند محمد الطالبي من مصدر مخطوط (الطالبي، 1917).

وفي إطار المقارنة بين حجم الخسائر البشرية التي عرفت "تونس" و"تلمسان" و"بلنسية" و"جزيرة ميورقة" من وباء الطاعون، أورد ابن خاتمة نصا مفيدا يضم إحصائيات مهمة عن عدد القتلى. فبعد أن أكد على أن بلد ألمرية مات فيه في يوم واحد نحو 70 نسمة، يتساءل عن حجم الخسائر بالمناطق السالفة الذكر إذ يقول: "وأين هذا العدد ما بلغنا عن غيره من بلاد المسلمين والنصارى، فقد بلغنا على السنة الثقات، أنه هلك في يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتا نسمة ..، وتلمسان سبعمائة نسمة ونيف، وأنه هلك ببلنسية يوم العنصرة القريب ألف وخمسمائة نسمة وهلك بجزيرة ميورقة يوم أربعة وعشرين من شهر مايه ألف ومائتان وإثنان وخمسون نسمة.. وخمن (أي تخيل) من بقي من ناسها بعد ارتفاع الوباء بربع الجميع، وكذلك كان الأمر بسائر البلاد صغیرها وكبیرها على ما تأدی إلینا" (ابن خاتمة). وانطلاقا من هذا النص الفريد، نرصد هذه المعطيات الإحصائية:

جدول رقم (2): عدد موتي مرض الطاعون الأسود ببعض مدن الغرب الإسلامي (دراسة مقارنة)

المدن	عدد الموتي	المدة الزمنية	افتراض حصيلة عدد الموتي خلال شهر كامل
ألمرية	70 نسمة	يوم واحد	$2100=30*70$
تونس	1202 نسمة	يوم واحد	$36060=30*1202$
تلمسان	700 ونيف نسمة	يوم واحد	$22500=30*750$
بلنسية	1500 نسمة	يوم العنصرة القريب	$45000=30*1500$
جزيرة ميورقة	1252 نسمة	يوم 24 من شهر مايو	$37560=30*1252$

قبل تحليل معطيات هذا الجدول، ونظرا لغياب أرقام حول نتائج هذا الوباء في مدن المغرب الأقصى، نستعين بالتاريخ ونعود إلى سنة 571هـ حيث تعرض المغرب لوباء قاتل. ونتوفر على بعض الإحصائيات خصوصا مدينة مراكش، حيث يشير ابن عذاري إلى بعض خسائره وإن اختلفت حسب المصادر، حيث بلغ عدد الأموات بمراكش في كل يوم ما بين 100 و190 شخصا وأكثر، علما بأن الموت شملت الأعيان وكبار القوم والعبيد. فإذا كنا لا نعرف كم دام هذا الوباء، فإننا نجعل كم خلف من الخسائر. وإذا افترضنا أنه دام شهرا كاملا ومات في كل يوم 190 شخصا في المتوسط، فإن عدد الأموات قد يصل إلى 5700 شخصا. إلا أن صاحب روض القرطاس وابن الأبار يذكران أن الطاعون قتل 1700 شخصا، بمعنى أنه استمر 9 أيام على أبعد تقدير، إذا اعتبرنا أن عدد القتلى يوميا كان هو 190. $1710 = 190 \times 9$ شخصا. إلا أن صاحب المن بالإمامة وابن عذاري، يذكران أنه كان يموت من العبيد في قصور الأسياء في كل يوم 30 شخصا، حتى فني أكثر من كان في قصورهم ودورهم، مما يجعلنا نرجح أن عدد القتلى ربما كان أكثر بكثير من 1700 شخص (اجيلي، 2016).

ولأهمية المعلومات التي يذكرها ابن خاتمة في الجدول عن عدد موتي بعض المدن بالغرب الإسلامي بسبب الطاعون الأسود، فضلنا تناوّلها في إطار المقارنة وشمولية الظاهرة، وتشابه الخصائص الطبيعية والاجتماعية للمنطقة ككل. ويتضح من خلال ذلك أن المعلومات الإحصائية التي قُدمت تهم فقط عدد الموتي في يوم واحد. ولذلك يطرح هذا السؤال نفسه: كم سيكون عدد الموتي لو توفّرنا على عدد الأيام والشهور التي دام فيها الوباء؟ مع العلم أن مدته لم تكن قصيرة، لكن الإشارة الأخيرة التي جاءت في نص ابن خاتمة ذات دلالة ديموغرافية هامة، حيث يقول عند حديثه عن جزيرة ميورقة: "...وخمن من بقي من ناسها بعد ارتفاع الوباء بربع الجميع"، أي ثلاثة أرباع السكان تعرضت للموت. والأكثر من ذلك، يذكر المؤلف أن الأمر

نفسه كان بسائر البلاد صغيرها وكبيرها. وهذا يبيّن مدى فداحة الخسائر البشرية التي تعرضت لها مناطق الأندلس مثل "ألمرية" و"بلنسية" و"جزيرة ميورقة"، وأجزاء هامة من الغرب الإسلامي (من بينها المغرب الأقصى) مثل "تمسان" و"تونس". ومن خلال الجدول، يظهر أن الطاعون فتك بأهل مدينة تونس، ففي يوم واحد مات حوالي ألف ومائتي نسمة. وقد تزامن الطاعون مع الحملة العسكرية التي شنّها أبو الحسن المريني وانتفاضة إفريقية. وقد زاد غلاء الأسعار في تأزم الوضع الاجتماعي، إذ "اشتد القلق في الطعام فبلغ قفيز القمح ثمانية دنانير كبيرة والشعير على الشطر في ذلك، وكثر الوباء حتى انتهى عدد الأموات إلى ألف شخص ومات جماعة من العلماء والصلحاء.." (ابن الشعاع، 1984).

هكذا كان المغرب الأقصى إبان ظهور الطاعون محروما من خدمات أميره أبي الحسن المريني الذي مني بهزيمة كبيرة في إفريقية (ابن الشعاع، 1984)، وفقد عددا مهما من جيشه عن طريق الحرب والبعض الآخر بسبب الغرق أو الطاعون (مجهول، 1984). وقد انعكست هذه الظروف القاسية على الوضع الداخلي للمغرب، سياسيا واجتماعيا وديموغرافيا، إذ بعد تفشي الطاعون ازدادت الأحوال سوءا واضطرابا (زيبب، 1995)، حيث كان الوباء "عظيما لم يعهد مثله.. عم أفطار الأرض وتحيف العمران جملة..". (الناصري، 1955). كما ساهم الطاعون بتونس في تردي وضعية الرباطات والزوايا، وتقلص عدد السكان، حيث أدى "إلى تضائل عدد المرابطين حتى إن الحصن صار عاجزا عن إقامة صلاة الجُمع لقلة الناس..". (محمد حسن، 1999).

وختاما، وبالقياس إلى الأزمة الصحية التي نعيشها اليوم، يمكن القول إن جائحة كوفيد-19 تدفع المؤرخ ليس فقط إلى المقارنة بين الماضي والحاضر، على مستوى فظاعة المرض وحجم الخسائر الديموغرافية، بل أيضا إلى تجديد قائمة الأسئلة التي يشتغل عليها. فإذا كان ابن خلدون قد عايش الطاعون الأسود وأرخ له، انطلاقا من نظرة شمولية وقفت على "تبدّل الخلق من أصله"، و"تحول العالم بأسره"، فإن التأريخ لجائحة كورونا يحتاج، اعتبارا لما تتطلبه المناهج الحديثة من أدوات ومفاهيم، واستحضارا لتعدد الحياة المادية والثقافية، إلى تظافر جهود الباحثين في مختلف التخصصات، من تاريخ وسوسولوجيا وسيكولوجيا وعلوم اقتصادية وقانونية، لطرح أسئلة أخرى أكثر عمقا وتعقيدا، ورصد معالم التحول التي صارت ترسم في الأفق.

المراجع:

ابن الأحمر إسماعيل، 1972، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة، الرباط، ص 43.
ابن بطوطة محمد، 1981، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق المنتصر كتاني، مؤسسة الرسالة، ط 2، ج 1-2، صص 508، 509، 666.

- ابن خاتمة، رقم 1785، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مكتبة الإسكوريال بمدير، عدد ورقاته 68، الخزانة العامة بالرباط، رقم الفيلم 2112، الورقة 57ب، الورقة 58 أ.
- ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت (ط 2) ص 86.
- ابن خلدون عبد الرحمان، ط 1959، تاريخ بن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، المجلد السابع، القسم الأول، صص 375-376.
- ابن الشاع محمد، 1984، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد العموري، الدار العربية للكتاب، ص 98.
- ابن القاضي أحمد، 1973، جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، القسم 1، ص 302.
- ابن مرزوق محمد، 1981، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماري خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 376.
- البزاز محمد الأمين، 1993، حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب الرباط، العدد 18، ص 93.
- البزاز محمد الأمين، 1992، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18.
- البزاز، محمد أمين، 1990، أوبئة ومجاعات المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دار النيابة العددان 27/26، ص 50.
- البياض عبد الهادي، 2008، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك الإنسان بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط (القرن 6-8 هـ - 12-14 م)، دار الطليعة بيروت ط 1.
- اجيلي حميد، 2018، المسألة الديموغرافية بالمغرب الأقصى مؤشرات إحصائية حول الاقتصاد والتمدين خلال العصر الوسيط (ق 6-8 هـ / 12-14 م، منشورات الزمن، سلسلة شرفات عدد 97، صص 7-8-9.
- اجيلي حميد، 2016، جوانب من التاريخ الديموغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (ق 6-8 هـ) رصد أولي لبعض قضايا الديموغرافيا التاريخية، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية مطبعة أنفو برانت فاس، صص 182، 183.
- حسن محمد، 1999، المدينة والبادية، بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تونس الأولى، المجلد XXXII، سلسلة تاريخ، شركة اربيس للطباعة، ج 2، ص 740.
- زبيب نجيب، 1995، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، (ط 1)؛ دار الأمير للثقافة والعلوم بيروت لبنان، ج 3، ص 84.
- الفرقان الحسين، 2004، مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التاسع عشر، ضمن كتاب المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، أعمال الأيام الوطنية العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي بجامعة أبي شعيب الدكالي، سلسلة ندوات ومناظرات، ع 4، صص 310-311.
- مجموعة من المؤلفين، 1976، ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر سلسلة تراجم، تحقيق محمد ججي، الرباط، صص 202، 120، 119، 118.
- مجهول، 1984، بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، صص 26-27.

- منفعة محمد، 1999، الوضعية الديموغرافية بفاس خلال وباء 1213/1799، مجلة كنانيش، ع 1، منشورات كلية الآداب وجدة، ص 158.
- المنوني محمد، 2000، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 20، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، صص 16، 12.
- الناصرى أحمد، 1955، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، نشر في 4 أجزاء، ج 1 و 4، صص 172، 82.
- نشاط مصطفى، 2003، إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب، وجدة، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 23، صص 122-123.
- نشاط مصطفى، 1996، من صعوبات البحث في الديموغرافيا التاريخية، مجلة كلية الآداب وجدة، ع 6، صص 27-45.
- الهلالى محمد ياسر، 2004، أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية، ضمن كتاب المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، أعمال الأيام الوطنية العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي بجامعة شعيب الدكالي، سلسلة ندوات ومناظرات، ع 4، ص 175.

- Brigno Jean (éd.), 1994, *Histoire du Maroc*, Librairie Nationale, Casablanca, p. 15.
- Burguière André, 1986, *Dictionnaire des sciences Historiques*, PUF, Paris, p. 505.
- Renaud H.P.J., 1923, « La peste de 1818 au Maroc », *Hespéris-tamuda*, V.3, pp. 13-35.
- Rosenberger B. et Triki H., 1975, « Famines et épidémies au Maroc, XVIe et XVIIe siècle », *Hespéris-Tamuda*, T 1, 1^{ère} partie, 1974, pp. 109-175, 2^o partie, pp. 5-103.
- Talbi Mohamed, 1917, « Effondrement Démographique au Maghreb du XIe au XVe siècle », *Cahiers de Tunisie*, XXV, pp. 51-60.

جائحة كورونا ورہانات السوسيولوجيا

الروابط الاجتماعية وتدير الأوبئة في مجتمع المخاطرة: نحو مقارنة متعددة التخصصات

شفيق عبد الغني

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

sociochaf@gmail.com

ملخص

نحاول من خلال هذه المقالة مقارنة موضوع الروابط الاجتماعية وتغيراتها في سياق الأوبئة. ويتيح لنا مفهوم "المخاطر"، الذي صاغه عالم الاجتماع الألماني أولريش بك في كتابه "مجتمع المخاطرة، نحو حادثة جديدة"، إمكانية تحليل صيرورة التحول المعقد الذي أدى إلى الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع ما بعد الصناعي أو المجتمع التقني بحسب تعبير رادوفان ريشتا.

ينطلق موضوع المقالة من فكرة كون الوباء الذي نعيش على وقعه اليوم، يشكل جزءا لا ينفصل عن صيرورة تحول عميق مس المجتمعات طيلة القرنين الماضيين ولم يستثن من ذلك مجتمعاتنا. من هذا المنطلق، فإن تحليل آثار الوباء على الروابط الاجتماعية، يقتضي الوعي بامتداده في الماضي. ويفرض هذا النمط من التحليل، فهم سياقات الجوائح التي أحدثت خرابا في الحياة الإنسانية وساهمت في تعديل بنيات المجتمع وعلاقات أفرادهم وقيمهم. علاوة على معرفة خصائصها والشكل الذي تتخذه في الحاضر وآفاق تطورها في المستقبل.

من هذا المنطلق، تسعى المقالة إلى تحليل الروابط الاجتماعية والقيم في المغرب وتركز على تغير قيمة الثقة بين الأفراد والمؤسسات بشكل خاص. ثم، تقف عند الاستراتيجيات التي ينفجها الفاعلون من أجل تدبير أفضل للجانحة، بالإضافة إلى الرهانات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتحركة في كل شكل من أشكال التدبير.

الكلمات المفتاح: روابط اجتماعية، حادثة، مخاطرة، وباء، جائحة، ثقة.

Résumé

A travers cet article, nous avons tenté d'étudier les liens sociaux et leurs changements dans le contexte des épidémies. À cet égard, le concept de «risque» peut s'avérer utile. Ce concept formulé dans les sciences sociales par le sociologue allemand Ulrich Beck dans son livre « La Société du risque, sur la voie d'une autre modernité », permet d'analyser le processus de transformation complexe de la société industrielle à une société post industrielle, ou société technicienne selon l'expression de Radovan Richta.

Le sujet de l'article découle de l'idée que l'épidémie dans laquelle nous vivons aujourd'hui fait partie d'un processus de transformation global et profond qui a affecté toutes les sociétés, y

compris la nôtre, durant les deux derniers siècles. A partir de cet hypothèse et pour analyser les impacts de la pandémie, nous devant donc, être conscients de son enracinement dans le passé.

Une analyse de l'impact de l'épidémie sur les liens sociaux, impose la nécessité de comprendre les contextes des pandémies qui ont ravagé et façonné notre humanité dans le passé, et les caractéristiques qu'elles prennent dans le présent ou qu'ils prendront à l'avenir. De ce point de vue, cet article se concentrera, en particulier, sur l'analyse des liens sociaux et des valeurs au Maroc, notamment les changements au niveau de la confiance entre les individus et les organismes en général. Nous reviendrons aussi sur les stratégies poursuivies par les acteurs pour gérer la pandémie. Enfin, nous traiterons les enjeux économiques et sociopolitiques liés à chaque mode de gestion.

Mots-clés : Liens sociaux, Modernité, Risque, Epidémie, Pandémie, Confiance.

تقديم:

تشكل مخاطر العالم المعاصر من جملة من التهديدات التي تنفلت من رقابة الإنسان، متناسلة في إطار موجات من فيروسات وأوبئة مرضية، وأصناف من التلوث والإشعاعات النووية والغازات المنبعثة والأمراض الفتاكة التي تهدد وجود البشرية برمتها. وتتصل هذه المخاطر على الدوام بالأنشطة الإنتاجية التي بمقدار ما تسرع وتيرة النمو المتزايد للسلع وتوسع من دائرة انتشار التقنية، تعمل على توسيع دائرة الجوائح الصامتة وغير المرئية. وهو ما يعزز انتشارها بشكل متواصل في مجتمع أصبح يوسم بمجتمع المخاطرة، أو مجتمع "مخاطر الحادثة الجديدة" على حد تعبير أولريش بك.

ويبدو أن خصائص وباء كورونا الذي يعيشه العالم على وقعه اليوم، لا تنفصل عن هذا النوع من المخاطر من حيث أضراره وسرعة انتشاره وعدم توقعه. فقد نجم عنه، خلال مدة زمنية قصيرة، نتائج وخيمة بدأت معالمها تتبدى على جميع الأصعدة. بدءاً بالأضرار الصحية والاقتصادية والاجتماعية، وصولاً إلى ما أحدثه من اختلال في تدبير الزمن الاجتماعي وتفاعل الأفراد مع المكان. وبالمقابل، فقد أفرز سياقه ظهور معالم قيم، إن لم تكن جديدة، فإنها تعاود الظهور من جديد. وما من شك، أن هذا الوباء الطارئ الذي غير معالم الحياة الاجتماعية، ولو بشكل مؤقت، سيشكل حدثاً فارقاً في تاريخ الألفية الثالثة.

والظاهر أن كثافة الحدث وتوتراته، إضافة إلى تتابع وقائعه قد جعلت منه مادة خاماً لخطابات شتى. تحتل مقاربة العلوم البيولوجية مكانة الريادة فيها. بيد أن خطابها هذا، إن كان له ما يشرعن أسبقيته في امتلاك القول، فإنه سرعان ما يكشف عن محدوديته في غياب خطاب

علمي مواز، يستحضر الدلالات الاجتماعية والسياسية للمخاطر والأوبئة. وبالتالي، فإنه ينحو نحو اختزال الكائن البشري في بعده العضوي. أمر يفرض على العلوم الاجتماعية حضوراً يراعي أهميتها ومكانتها والحاجة إليها، من دون السقوط في أسر الخطابات الظنية (Doxa) أو الحس المشترك.

في سياق هذا القول، تروم مقالتنا هذه، الإسهام في تناول الموضوع، من خلال مفهوم مجتمع المخاطرة الذي صاغه عالم الاجتماع الألماني " أولريش بك". وينطلق موضوع المقالة، من فكرة كون الوباء الذي نعيش على وقعه اليوم، يشكل جزءاً لا ينفصل عن صيرورة تحول عميق، مس المجتمعات البشرية عموماً، ولم يستثن منه مجتمعنا. من هنا، فإن تحليل آثاره ومآلاته تحتاج إلى إدراك امتداداته القليلة والحالية والمستقبلية. من هذا المنطلق، ستركز الورقة على مسألة الروابط والقيم الاجتماعية، خاصة قيمة الثقة. وما يتصل بذلك من استراتيجيات يسلكها الفاعلون من أجل تدير الجائحة. إضافة إلى الرهانات الاجتماعية المتحكمة في ذلك.

1. الأوبئة ومجتمع المخاطر، في الحاجة إلى مقارنة متعددة التخصصات

يحرص المنافخون عن خصوصية العلوم الاجتماعية وموضوعاتها، وفراة مقاربتها، على وجوب ترك مسافة فاصلة بين زمن حدوث الواقعة والكتابة حولها. ادعائهم في ذلك أن كل حدث يتطلب مسافة اختار حتى يكتسب دلالة لدى الأفراد ويصم أثره في نفوسهم. وهو الأمر الذي لا يستقيم، في نظر هؤلاء، مع وباء كوفيد-19. ويبدو أن ليس في الأمر ما يثير الاستغراب مادام التناول العلمي لهذا الوباء يواجه بتعدد الوقائع وبالتوتر واللايقين وغزارة الخطاب حوله وتعدد (خطاب الخبراء المتخصصين، خطاب الإعلام، خطاب الفاعل السياسي...). وقيم منطق التبرير، هذا، الذي يشرعن القول في الموضوع أو يستنكره، ادعاءاته على فكرة كون الوباء حدثاً فجائياً معزولاً ومنفلاً من كل فهم. كما أن كل دراسة لموضوع كهذا، في نظر الكثيرين، تتطلب احترام مقتضيات البحث العلمي وإجراءاته، وفي مقدمتها الكشف عن الخطوات المنهجية ومن بينها طرق جمع المعطيات، المرتبطة بالمقاربات المختلفة، التي قد تكون مسئولة عن وجود اختلافات في النتائج أو غيابها. وعوض الاهتمام بالنتائج في المستوى النهائي للأشياء (Opus operatum)، يحرص هؤلاء على تسليط الضوء على مسار تشكل هذه النتائج. بمعنى، الاهتمام بالفعل قيد الانجاز وسياق تشكله والخطوات التي صاحبت ذلك (Modus operandi). من هنا، ينتقد، البعض من هؤلاء، وجهات النظر التي تدرك الممارسات والأفعال من الخارج كوقائع اكتملت وأنجزت، بدلاً من أن تبني لها المبدأ المولد والمكون انطلاقاً من حركة فعلها وإنجازها.

وفي سياق متصل، تجابه الباحثين في موضوع الوباء، أسئلة ترتبط بالمقاربات العلمية المختلفة لموضوع المخاطر بكيفية عامة والأوبئة بشكل خاص، وتتمثل في مدى نجاح المقاربات التخصصية الضيقة في تناول موضوع المخاطر وسياق تشكلها. ومن بين هذه الأسئلة على سبيل

المثال: أيستقيم تفكيك المفكك وعزل المقاربات في جزر معرفية تكرر حوار الطرشان بين العلوم الإنسانية والاجتماعية ونظيرتها الطبيعية؟ ما الذي يدعو هذه المقاربات للنظر إلى الأحداث والوقائع، على هذا النحو، نظرة مجزأة؟ أليس الوباء الذي يجابهنا اليوم هو جزء من امتداد الوقائع والأحداث وتشابك أبعادها في الزمان والمكان؟ ثم، أليس الوباء نفسه إفراز لمسار طويل من المخاطر المترابكة، وبذلك، لا يشكل إلا جزءا من كل؟

هي أسئلة، إذن، لا تعيد نقاشا قديما حول نموذجية العلوم الطبيعية ووجوب اعتماد مناهجها، أو تفرّد الظاهرة الإنسانية وخصوصيتها ووجوب فهمها. وإنما تفتح التفكير حول حاجتنا إلى مقاربات متكاملة ومتعددة التخصصات لتناول ظواهر تحمل من التعقيد ما يعسر القبض بناصيتها.

رغم التقدم الذي عرفته العلوم الاجتماعية على مستوى النظريات والنماذج التحليلية والمناهج، فإن الأمر لا يخفي مركزية خطاب العلوم الطبيعية في تناول قضايا الأوبئة والكوارث البيئية والمخاطر الطبيعية كما تعلق الأمر بمعرفة آنية حول هذه الظواهر. فالنقاش الدائر اليوم حول عدد من المخاطر، سواء تلك المتمثلة في الأمراض الفتاكة أو المواد الملوثة والمواد الإشعاعية الضارة بصحة الإنسان، وما يتناسل من جوائح، كلها قضايا يبدو حضور المقاربات الاجتماعية، بكيفية عامة والسوسولوجية خصوصا، في إطارها، حضورا متأخرا. ومع أن إنتاجات لا يستهان بها حول موضوع الأوبئة والمجاعات أو الكوارث الطبيعية، قد برزت في تخصصات اجتماعية كالتاريخ وعلم الاقتصاد والجغرافيا، وبدرجة أقل في سوسولوجيا الصحة وسوسولوجيا البيئة، فقد ظل النقاش حول تقويض الطبيعة والمحيط الحيوي نقاشا لا يفهم في عمومته إلا في سياق ما تنتجه العلوم الطبيعية اليوم من مقولات، وما تلخص إليه من مؤشرات ونتائج، وما يتمخض عن ذلك من تجارب وأبحاث. والحال أن ما يجب الانتباه إليه هنا، أنّ لهذه الخلاصات والنتائج العلمية دلالات اجتماعية وثقافية ورهانات سياسية واقتصادية غالبا ما تطمسها المقاربات الأحادية النظر وتعمل على كتمانها.

إن تناول موضوع الأوبئة في العلوم الطبيعية يطرح العديد من المشاكل المنهجية، ويؤدي إلى نتائج تفتقر عموما إلى نظرة متكاملة. ذلك أن كثافة المؤشرات وما يمكن أن تكسبه من مصداقية في أعين المغالين في الإمبريقية، غالبا ما تخفي كون هذا الهوس، الذي يركي فهمهم للمصداقية العلمية وفعالية التجارب، يجعل التنبؤ بالسلوكيات الخطرة، من خلال العلاقات السببية البيولوجية على حساب فهم الظواهر والسلوك البشري، أمرا غير مجد. ما دام ينسى، كما ينهبنا إلى ذلك إدغار موران، أننا "نحتاج إلى عقلانية مركبة تواجه التناقضات واللايقين، من غير أن تغرقهما أو تفتتتهما" (إدغار موران 2012).

ويكشف عمل علماء الاجتماع، على العكس من ذلك، أن الظواهر الوبائية الخطرة تحمل معنى لدى الأفراد الذين يواجهونها. وحتى لو سلمنا، على غرار ما يشير إليه برينو لاتور، من كون العلوم الإنسانية تفضل الظواهر التي لا تضفي عليها العلوم الصلبة حقيقة واقعية. والتي لا يؤمن الباحثون بها حقاً، مثل: الاجتماعي، الرمزي، القيم، التمثلات (فيليب كابان، 2010)، فإن الاجتماعي بقيمه وتمثلاته ورموزه هذه، يغدو هاماً في مقارنة العلاقة بين الإنسان وهذه الظواهر الوبائية والأمراض التي تتناسل عنها، وفي علاجها. "لم يكن العلاج ينطلق من محاولة إعادة النظام للجسد المريض، وإنما من محاولة إعادة تنظيم المجتمع بشكل عام" (Marc, Augé, 2000).

من هنا، تأتي أهمية تناول الوباء في سياق مقارنة دياكرونية تولي أهمية لسياق تشكل الحدث وعلاقته مع العناصر الخارجية من خلال دراسة الصيرورة التي أفرزته. فالوباء الحالي رغم فجائيته، يمثل جزءاً من مخاطر امتدت لسنوات وعقود. تظاهرات في شكل أمراض (السيدا)، أو فيروسات (جنون البقر، السارس...) أوفي شكل مخاطر نووية (كارثة انفجار مفاعل تشيرنوبيل 1986)، بالإضافة إلى انبعاث الغازات وما تخلفه من أضرار على البيئة. كل ذلك لا يمكن فصله عن بعض، ما دام يشكل جزءاً من خلل يعتري عالمنا اليوم، الذي لم تعد الأخطار المستفحلة فيه تستثني حدوداً جغرافية أو دولة. فهي تمحو كل حدود وطنية وتمس مجالات حيوية. وليس هنالك ما هو أبلغ من توصيف دافيد لوبروتون، عندما شبه المخاطر التي تواجهنا بـ"البدو الذين يقضون الثقة اللازمة للروابط الاجتماعية لإحداث الرعب في قلوب أكثر الأماكن سمية" (David Le Breton, 2017). من هنا وجدت الكثير من الدراسات، المهتمة بمجمل التحولات هذه، نافذة لها من خلال مفهوم المخاطر، الذي أدخل لمجال العلوم الاجتماعية منذ ما يربو الثلاثة عقود. أي، منذ صدور كتاب "مجتمع المخاطرة، نحو حادثة جديدة" (أو المجتمع المحفوف بالمخاطر، نحو حادثة جديدة)، لعالم الاجتماع الألماني أولريش بك، سنة 1986. غير أن علماء آخرين تناولوا آثار المخاطر على حياة الإنسان والمحيط البيئي، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال دراسة آثار التقنية على التعديل الجيني والطبيعة الإنسانية، أو على البيئة والمحيط الحيوي. وأسهموا بعمق في فهم صيرورة تحولها. ومنهم يورغن هابرماس، دافيد لوبروتون، ألان تورين، فرانسوا إوالد، ماري دوغلاس، دافيد نجيت، برونو لاتور، سيرج موسكوفيتشي، إدغار موران، ديانا ديفيس، ألان شنبرغ، والقائمة تطول.

2. الأوبئة في مجتمع المخاطر

يرتبط الخطر، أو المخاطر بكيفية عامة، بنتائج الفعل البشري المنتج للأضرار والمنعكس سلباً على الأفراد والجماعات وعلى محيطهما الحيوي. ولقد شكلت أوبئة القرون الوسطى وكوليرا القرن التاسع عشر بموجاتها الثلاث جوائح فتاكة (محمد الأمين البزاز 1992) تنهض قرينة على تجذر الأخطار في تاريخ البشرية. غير أن درجة انتشار المخاطر وتهديداتها، خلال القرن الماضي

وبداية الحالي، سرعان ما اتخذت وتيرة مختلفة عن سابقتها. والحال أن المخاطر التي أفرزها المجتمع الصناعي وما بعد الصناعي، لا يمكن فهم مساراتها من دون ردها إلى الاختلالات المدمرة التي مست الطبيعة برمتها من فرط استغلالها. بعدما توسل الإنسان، في ذلك، بالتقنية. لقد بلغ التوتر بين الإنسان والطبيعة ذروته، وغدت علاقته بها علاقة ممزقة. وبدأ الارتباط العضوي بينهما يضمحل شيئاً فشيئاً " لأن الإنسان لا يسمح، كما محفزاته المادية أيضاً، للطبيعة بالهامش الضروري لأجل إعادة إنتاج المحيط الطبيعي بشكل غير مشوه" (أكسيل هونيت 2019). ولقد سبق أن أثار هذا التوتر حول مآلات العلاقة طبيعة- إنسان حنق الكثير من المفكرين من علوم مختلفة. لعل أبرزهم بعض رواد الجيل الثاني من مدرسة فرنكفورت النقدية، منهم يورغن هابرماس. هذا الأخير الذي ظل منالفا عن الحقوق الطبيعية، وأبرزها الحق في إرث جيني غير معدل ولا مستنسخ أو خاضع للتهجين. حتى لا تتحول التقنية الوراثية إلى عقل هادم لنفسه، أو تنقلب السيطرة على الطبيعة إلى تبعية النوع بالنسبة إلى الطبيعة (يورغن هابرماس، 2006).

والواقع أن هذا الخطاب الممزوج بالحذر والتوجس من المآزق التي وصلت إليها الحداثة، والتي ساقط المجتمع إلى اللاتقنين، وفتحته على مستقبل مشوب بالمخاطر، كانت معالمه قد ظهرت منذ عقد الثمانينيات، مع عالم الاجتماع الألماني أولريش بك كما أشرنا آنفاً. فقد لفت الانتباه إلى وجود قطيعة حصلت داخل حداثة انعتقت من حدود المجتمع الصناعي الكلاسيكي لتبني شكلاً جديداً من " المجتمع الصناعي للمخاطرة" (أولريش بك، 2009).

لقد مثل أولريش بك، بعمله الضخم هذا، أبرز علماء الاجتماع المعاصرين الذين اهتموا بدراسة المخاطر التي أصبحت تكتسح العالم، والتي لا تعتبر - في نظره- من اختراع العصر الحديث (أولريش بك، 2009)، بل هي قديمة تعود إلى ما قبله. ومع ذلك، فقد اتخذت في عصرنا الراهن طابعاً جديداً وأكثر خطورة يندر بالأسوأ (أولريش بك، 2009). وهذا ما يجعل من تحليل المخاطر وتدبيرها، اليوم، صناعة حقيقية على حد تعبير جون شورت (James F. Short, 1984).

فالأنشطة البشرية تحدث تأثيرات، لا مفر منها، على البيئة الطبيعية والاجتماعية. والأفراد يعدلون باستمرار، وغالباً بطريقة غير يقينية، إمكاناتهم المادية والرمزية التي تظل جزءاً لا يتجزأ من مستقبلهم ومستقبل الآخرين. غير أن الأفراد لا يقيّمون، بكيفية عامة، نتائج إجراءاتهم تبعاً لنموذج توقعات احتمالية. بل يلجؤون، بالأحرى، إلى الاستدلال بعقلانية محدودة. عقلانية تبدو عاجزة أمام أنواع عديدة من المخاطر التي تؤثر على الطبيعة وعلى صحة الإنسان وتهدد بقاءه. وتنوع بين مخاطر تكنولوجية وأخرى طبيعية بيئية، تخضع لتطور ناجم عن التفاعل بين الإنسان ومحيطه الحيوي.

ومع تنامي أخطار التلوث الصناعي، فإن المخاطر المهددة للبيئة والإنسان والمنذرة باستفحال الأوبئة، لم تعد تقتصر على مخلفات المعامل من مواد كيميائية فحسب، بل أصبحت النفايات الإلكترونية تمثل جزءا هاما ضمن هذه الملوثات (Cheikh Diop, 2004). كما يؤدي تدخل الإنسان في تعديل جينات بعض الكائنات في انفلاتات غالبا ما تترك آثارا سلبية، كما هو الحال في العديد من الفيروسات المعدلة مخبريا. وما يثير الخوف في كل ذلك، أن ما يؤثر على الصحة أو يدمر الطبيعة قد لا يكون قابلا لتحديد هويته (أولريش بك، 2009). كما لا يكتمل فهمه من دون ربطه بصيرورة تحولات عميقة أفرزت تناقضات لازمت الحضارة الغربية "الحديثة" منذ نشأتها إلى يومنا هذا، وأصبحت تتعمق أكثر فأكثر، لتكشف الصفة اللاعقلانية لعقلانية هذه الحضارة على حد تعبير هربرت ماركوز. " هذه العقلانية التكنولوجية تسفر النقاب عن طابعها السياسي في الوقت نفسه الذي تغدو فيه أعظم ناقل لأكل سيطرة، بخلفها عالما كليا استبداديا بكل ما تحمله الكلمة من معنى " (هربرت ماركوز، 1988).

لقد أصبح عالم المخاطر فضاء تشترك فيه الكائنات. ف منذ 1980 نقل داء فقدان المناعة المكتسبة مستوى الخطر إلى العلاقات الاجتماعية (Le Breton, 2017) ووسع ضحاياه في صمت مريب. ولا شيء يضاهي ما خلفه لحد الآن من دمار، يظهر في مؤشرات وفيات وصلت 36 مليون وفاة، و 37 مليون ممن يتعايشون معه (Sciences et Avenir, 2017).

يبدو أن العالم يتجه صوب المزيد من الكوارث التي أصبحت جزءا من منظومة اختلت. وما يجري اليوم، إذا ما حملنا توصيف دافيد لوبروتون بعين الحساب، إنما هو تعديل مظاهر الخطر ونظرة الناس إليه. ولقد ارتبط تاريخ المخاطر بتطور نظم التأمين في المجتمعات الصناعية، التي بنيت على ثنائية زيادة الإنتاج/ انتشار المخاطر. فهذا النمط من المجتمعات يتجه، متسارع الخطى، نحو تقدير الثروة المادية التي تتزايد، متجاهلا المخاطر التي تشكل أحيانا يصعب إدراكها. وتساهم العولمة الثقافية، من خلال قيمها الاستهلاكية، وعلى الخصوص العولمة الاقتصادية وتكثيف وتيرة التجارة دوليا في توسع دوائر المخاطر التي تفتح العالم على أفق مستقبلي من الحالات الوبائية. تتناقل مخاطر عالمنا المعاصر، وتورث عبر الأجيال، وتتمظهر صورها في ما يصيب الأطفال المولودين حديثا من أمراض و"إعاقات" جسدية. ومن دون شك، ستكون مخلفاتها كالبحة لكل تطور متوازن. فهي تجتاح كل الفئات وتعمق في صفوف المستبعدين اجتماعيا. ما يوسع من تصاعد وتيرة اللاتيقين الاجتماعي، وتفكيك الرابط (Désaffiliation) الذي تحدث عنه باستفاضة، عالم الاجتماع روبر كاستل. وما يزيد من صعوبة إدراكها، أن تعيين الفاعل في سلسلة المخاطرة المتتالية يبدو معقدا. يتعلق الأمر بنسق يشتغل في الخفاء من دون أن يكف عن توجيه الكل. فالمخاطر هي نتاج فعل أو أفعال لا يدرك أي منا مسؤوليته فيه كما لا يدرك مسؤولية من؟ وكأن الأمر يرتبط بقانون اشتغال النسق برمته، الذي يصبح موجها لنا من

دون قدرة منا على الرضا. لذلك، ولتحديد سببها، تحتاج مخاطر اليوم " اللجوء إلى حواس الإدراك التي يستلزمها العلم- نظريات، تجارب، أدوات قياس، حتى يتسنى لها أن تصبح مرئية قابلة للتأويل بوصفها مخاطر" (أولريش بك، 2009). فمن فرط تشابك المخاطر واتساعها وتسارع وتيرتها، أضحت الحادثة تنتج مسلسلًا من الأزمات التي تنفلت من مراقبة الإنسان. من هنا، يظل الآن تورين على صواب عندما يتساءل: ألم يدخل العالم في التحلل الكبير حيث تكتمل الحادثة وتلغى نفسها؟ (الآن تورين، 2010).

3. الروابط الاجتماعية في سياق مجتمع المخاطرة: في الحاجة إلى مأسسة الثقة

يمثل الرابط الاجتماعي قوة مركزية جاذبة، وناظمة للعلاقات بين أفراد المجتمع، تدعمها قيم تقوي الانتماء المشترك بينهم وتدعم هويتهم المشتركة. وتمثل الروابط، وفق ذلك، إسمت الحياة الاجتماعية التي تصبح بمثابة حركة لا تتوقف العلاقات بين الأفراد من خلالها عن تعديل بعضها البعض. وربما ذاك ما يفسر ميلها المتضارب نحو التماسك والتبعثر في إطار حركة دائمة.

يعود الاهتمام بسؤال الرابط الاجتماعي في العلوم الاجتماعية إلى اللحظة التي بدأ فيها النظر إلى الفرد يزداد، في سياق التحولات الكبرى التي عرفت ظهور المجتمع الحديث. والتي تبلور في نطاقها اهتمام أخلاقي بالفرد كقيمة مثلى. لكن بشكل خاص، خلال القرن التاسع عشر، من جراء تزايد الاهتمام بمشاكل المجتمع الصناعي بأوروبا، وما نتج عنه من تناقضات مست الفرد والمجتمع. وقد أثار سؤال الرابط الاجتماعي مفارقة هامة وسمت تاريخ المجتمعات الحديثة. فخواها، أن الاستقلالية المتزايدة للفرد تؤدي في الواقع إلى ترابط أوثق مع أعضاء آخرين في المجتمع. شكل هذا الترابط نتائج عملية تاريخية تضع كل فرد في قدر أكبر من الاستقلال الذاتي الواضح مقارنة بالمجموعات التي يرتبط بها. ولكنها تلزمه بتعريف نفسه وفقًا لنظرة الآخرين الذين يمثلون جزء من دوائر انتماؤه. غير أن النظرة إليه انطبعت بروح القيم النفعية (الاقتصادية) التي تمخضت عن توسع اقتصاد السوق الحرة.

والحاصل، أن الانتقال من نظم تقليدية إلى مجتمعات حديثة في أوروبا قد أدى إلى محو التعارض القائم بين مصالح الأفراد الشخصية وبين روابطهم مع الجماعة ومصلحتها. وشكلت هذه المفارقة موضوع اهتمام الفكر الاجتماعي والاقتصادي الذي رأى في الروابط الاجتماعية الجديدة في المجتمعات الحديثة لحظة تاريخية فارقة. وقد عبر أحد منتسبي مدرسة شيكاغو الاقتصادية ميلتون فريدمان عن محو التعارض هذا، من خلال فكرة "فرص التعاون بدون إكراه" التي تجد بعض مضامينها في فكر آدم سميث، خاصة في "ثروة الأمم". لقد رأى هذا الأخير في الدفع قدما بمصالح الفرد، سبيلا لتحقيق مصلحة الجماعة من دون تضارب. وهو ما تجسده

عبارته " نحن لا ننتظر غذاءنا أو عشاءنا من طيب خاطر القصاب، أو صانع البيرة، أو الخباز، بل من اهتمامهم بمصالحهم الخاصة" (كريس هان وكيث هارث 2014).

ومن نافلة القول، إن الاهتمام بفكرة الفرد والروابط، قد برز لدى العديد من علماء الاجتماع الذين درسوا تحولات الروابط الاجتماعية وآليات اشتغالها. لعل أهمهم، على الإطلاق، عالم الاجتماع الألماني جورج سيميل الذي رأى أن التوسع الكمي للمجموعات الاجتماعية ينتج تمايزاً متزايداً بين أعضائها يفضي إلى مزيد من التفرد. لقد نتج التشديد المتزايد على الفرد كقيمة اقتصادية في المجتمع، في نظر الكثير من علماء الاجتماع، عن " التغيرات البنيوية الاقتصادية والاجتماعية [...] وليس نتيجة مجرد تحول في الأفكار وطرائق التفكير المسيطرة" (روزماري كرومبتون، 2016). وليس عبثاً أن يدعي ماركس في "البيان الشيوعي" أن التاريخ الإنساني هو محصلة لصراعات اقتصادية وليست سياسية فحسب.

ظل تحول الرابط الاجتماعي، إذن، على صلة وثيقة مع ما شهدته الأسواق والمعاملات الاقتصادية من تطور طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين. وما أفرزته الرأسمالية الصناعية من تناقضات جعلت العصر الحديث بمثابة نقطة تحول كبرى في التاريخ العالمي. وساهم تطور الرأسمالية في تفكك الكثير من التنظيمات الاجتماعية التقليدية التي مثلت مؤسسات حماية واحتضان للفرد. وأدى الأمر إلى بروز مدن صناعية جديدة، شكلت قبلة للفلاحين والمزارعين والمعدمين ممن طردتهم ظروفهم المعيشية بالبوادي، أو اجتثوا من جذورهم بفعل تفكك الاقتصاد الزراعي ونظام الإنتاج الذي ساد قبل ذلك. وتولد من رحم هذه التكتلات الحضرية الناشئة مشكلات جديدة ترتبط بالضبط الاجتماعي وإضعاف الروابط التقليدية. لكن التحولات التي عرفتھا الدول والمجتمعات طيلة القرن العشرين، وخاصة مرحلة انتعاش الدولة الرعاية، مثلت بريق أمل أمام الأفراد.

نجم عن تفكك الروابط التقليدية، ارتفاع منسوب القلق الذي تقوى من جراء تحولات اقتصاد السوق، وتقلص جماعة الحماية. ولفهم هذه السيرة من التحول في الروابط، من الضروري استحضار عامل أساسي أفرزه تحول شكل الدولة وأدوارها في المجتمعات الحديثة. يتعلق الأمر بإنشاء نظم للحماية الاجتماعية المعممة وتطورها. وقد مثل النموذج الذي وضعه ليون برجوا (Leon bourgeois) في فرنسا أهم نماذج التأمين الاجتماعي، التي وسعت من دائرة الحماية الاجتماعية المستندة على فكرة الدين الاجتماعي بين الأفراد والفئات الاجتماعية والأجيال.

غير أن نظام الحماية هذا، الذي شكل صمام أمان للفرد في المجتمعات الصناعية، في فترة هيمن فيها اقتصاد استمد توجهاته من أفكار كينزية-نسبة إلى جون مينارد كينز- سرعان ما سيهتز من جراء التحولات التي مست الحماية الاجتماعية، بفعل إحلال نموذج من الدولة التركيبية

(Etat synthèse) الذي استعويض به عن نموذج دولة العناية وحدّ من تدخلات هذه الأخيرة، في سياق المنداة " بالقليل من الدولة وبكف اليد عن التحكم في السوق". وأعيد، على إثر ذلك، نهج سياسة نيوليبرالية أدخلت السوق بوصفها آلية فضلى للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي. كما أدخلت " أشباه الأسواق - Quasi-markets- في مجالات الخدمات العامة مثل التعليم والصحة" (روزماري كرومبتون، 2016). هذا التحول الذي مثل وجها من وجوه المخاطر التي أصبحت تجابه الأفراد في سياق نظام نيوليبرالي كاسخ، كان له وقع شديد على أمن الأفراد من خلال توسيعه دائرة المخاطر التي تهدد كيانهم . لقد زاد التراجع في نظم الحماية، مع تسجيل تفاوت بين الدول، من خشية الأفراد الذين نجم عن توسع استبعادهم الاجتماعي سقوطهم في فخ الحرمان. " لم تعد حوادث العطالة أو مخلفات الشيخوخة التي يواجهها الأفراد من دون حماية اجتماعية ما يثير خشيتهم فحسب، بل أصبحت المخاطر الأساسية التي يواجهونها متمثلة في الإقصاء الاجتماعي" (Vincent Grégoire, 2009).

واليوم، من فرط توسع الهشاشة التي تكتسح فئات واسعة من جراء التحولات الهيكلية التي يعرفها عالم الشغل في سياق عولمي مركب، ومن فرط اقتصاد عابر لحدود الدول، يزداد سؤال الرابط بروزا مع تنامي الشك في الحداثة وما بعدها، وفي قيمها ومآلاتها. فإذا كانت الحداثة التي رفعت شعار فك السحر عن العالم ومأسسة قيم الديمقراطية والعقلانية " قد ربطت بين التقدم والثقافة، معارضة ثقافات ومجتمعات تقليدية بثقافات ومجتمعات حديثة، مفسرة كل واقعة اجتماعية أو ثقافية بمكانتها على المحور تقليد- حداثا، فإن ما بعد الحداثة تفصل ما كان مرتبطا"(ألان تورين، 2010).

لقد أزيلت معالم المجتمع التقليدي وبرزت على أنقاضه الرأسمالية الصناعية، في دول أوروبا، وتوطدت أسس عقلانية النظام الاجتماعي الجديد وعقلانية السلوك الاقتصادي " ولم يكن بالإمكان تحقيق توسع الأسواق وتحول عمليات الإنتاج التي رافقت الثورة الصناعية من دون تغير الأنظمة التقليدية في التجارة والتصنيع". (روزماري كرومبتون، 2016). لكن التحولات التي حصلت بهذه البلدان، رغم بلوغها مرحلة ما يطلق عليه " المجتمع ما بعد الصناعي، مجتمع الحداثة المفرطة" أو ما يطلق عليه الفيلسوف التشيكي رادوفان ريتشا "المجتمع التقني"، قد أحدثت فراغا اجتماعيا ناجما عن تشظي الروابط وضعفها. وقد شكل هذا التشظي موضوع اهتمام عالم الاجتماع الفرنسي ألان تورين الذي عالج أوجهه في كتابه " برادغما جديدة لفهم عالم اليوم" لما هو أبرز العواقب الناجمة عن هذا الفراغ الاجتماعي " الذي يمس أكثر ما يمس الفئات الأضعف والأشد تبعية، وهي فئات منفية خارج عالم العمل أو موضوعة على هامشه، وتشكل كتلا ضخمة مغمورة في ظلمات التصنيف الاجتماعي إلى حد يجعل إحصاءها أمرا مستحيلا" (ألان تورين، 2011).

وتكشف التحولات التي تطال العالم اليوم، ما ينجم عن صيرورة تغير الرابط الاجتماعي من ظهور لآليات وسبل مقاومة مضادة، تغذيها نزعات قومية وثقافية ومجموعات عشائرية محلية وطوائف دينية. سواء في المجتمعات الصناعية، أو بدرجة أقوى في بلدان العالم الأخرى التي اتم تطورها ببطء. في هذا النموذج الأخير، يطرح سؤال الرابط وأنظمة الحماية مشاكل أعقد، من جراء هجانة البنيات والمؤسسات والنظم.

لقد أفرز التاريخ الحديث لهذه الدول، الذي تشكل جزء منه تحت وطأة الاستعمار، توترا عميقا بين الأفراد والمؤسسات. كانت بعض أسبابه ناجمة عن تفكيك المؤسسات التقليدية لهذه البلدان واستبدالها. ولم تفلح سياسات التحديث الجزئي أو الكلي التي نهجتها الكثير من هذه البلدان في عصرنة المؤسسات وتقوية أركان الدولة الحديثة. وتراكت على إثر ذلك عوائق بنوية حالت دون مأسسة الروابط في كثير من بلدان العالم الثالث. ما ساهم في فشل نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدى أول اختبار لها إلى انفكك لحمة المجتمع وتحول الكثير من النماذج إلى دول فاشلة.

والبين أن الوضع الذي يكشفه توصيف ألان تورين، السالف الذكر، يتوسع أثره ليمس الكثير من البلدان السائرة في طريق النمو ويجعل وضعها أكثر تعقيدا. خاصة مع ما يعيشه بعضها من عسر انتقال، جعل الاختيارات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية مزدوجة التوجه وتتجاهلها قوى مختلفة. ورغم أن معظمها استفاد من انتشار التكنولوجيا الحديثة ونهج سياسة اقتصادية منفتحة، إلى حد ما، ووسع من عصرنة المؤسسات، فقد ظلت تحولات أغلبها، في المجمل، تتسم بنوع من التركيب والترسب المعقد للقيم والروابط والعلاقات وازدواجية النظم. وجرى على إثر ذلك توليف واسع بين التقليدي والحديث، العقلاني واللاعقلاني، الاستبدادي والديمقراطي، الفردي والجماعي، الديني والعلمي. (محمد شكري سلام، 2019).

وتبرز حالة المغرب كواحدة من الحالات التي يتبدى فيها النموذج التركيبي المعقد، الدامج بين البنيات المادية والبنيات الرمزية، بين المصالح الاقتصادية والقيم الثقافية. ومع هذا الطابع المميز للدولة والمجتمع، فقد سعت هذه الأخيرة إلى تحديث المؤسسات وتحديث اقتصاد البلد في إطار نهج يتخذ من الليبرالية الكثير من المبادئ التوجيهية.

لكن مع كل ذلك، فقد أظهرت هذه الازدواجية التي وسمت البنيات والعلاقات والمؤسسات عودا متكررا للكثير من القيم والروابط التي ترعاها مؤسسات تقليدية، بعضها ظل يحافظ على وجوده، كالأسرة. وبعضها الآخر تلاشى وجوده، لكن قيمه المرتكزة على الولاءات والزبونية والقرابة والروابط التي تدعمها ظلت قائمة ويعاد إنتاجها حتى في المؤسسات العصرية التي يعمل الفاعلون فيها على استمراريتها. وتطفو هذه القيم والروابط في اللحظات الفارقة من

تاريخ المجتمع المغربي. كما تبرز مؤسسات مؤمنة لها كالأسرة، التي استطاعت، حتى حدود نهاية القرن العشرين، على عكس الزاوية والقبيلة وباقي التنظيمات التقليدية، أن تواجه الصدمة الناتجة عن التقاء حضارتين (غربية ومغربية). ورغم تغييرها خلال العقدين الأخيرين إلا أنها ظلت، في المجمل، حضناً آمناً لأفرادها، خاصة في لحظات العسر والتوتر.

4. الروابط وقيم الثقة في بعض المؤسسات بالمغرب: ملاحظات أولية

تكشف سياقات الأوبئة ولحظات العسر والأزمات التي تنتاب حياة المجتمعات المعاصرة عن درجة استنفار خاص لقيم التضامن والروابط التي تسندها، في إطار مواجهة جماعية للمخاطر وتدبير لحظات الخوف واللايقين. ومع ذلك، يقر الكثير من الباحثين بوجود أزمة ثقة تنخر العديد من المجتمعات وتؤثر على تلك الروابط الاجتماعية (محمد بن المقدم، 2019)، بكيفية تتجاوز الثقة كإشكال فردي وأخلاقي إلى الثقة كإشكالية مؤسسية وسياسية. وتظل سياقات الأخطار الوبائية والمخاطر الطبيعية كاشفة، باستمرار، عن مدى أهمية الثقة وفعالية الروابط بين الأفراد والمؤسسات وترتيبها في سلم العلاقات الاجتماعية والأولويات. فكيف يستثمر المجتمع المغربي روابطه وقيمه؟ وما هي الروابط التي تظل مركزية في علاقات الأفراد، والتي يتم الاحتفاء بها في حياة هؤلاء؟ وكيف ينظر المغاربة إلى المؤسسات؟

تستند مقاربتنا لهذه الأسئلة على استثمار مجموعة من الدراسات والتقارير التي أنجزت في هذا السياق، طيلة العشرين سنة الماضية، سواء تلك التي أنجزها باحثون مغاربة (تقرير الخمسينية 2006، البحث حول الرابط الاجتماعي 2012، الإسلام اليومي 2007، تقارير ودراسات المندوبية السامية للتخطيط 2008/2014/2018/2019، دراسات حول الثقة في المؤسسات 2011/2012/2019)، أو بعض الأبحاث التي أنجزت دولياً، أبرزها المؤشر الدولي حول القيم (2011-2012).

يُميز سيرج بوغام بين أربعة أنواع رئيسة من الروابط الاجتماعية: روابط الانتساب، روابط المشاركة الانتخابية، روابط المشاركة العضوية وروابط المواطنة. وتشكل ما يطلق عليه الباحث نفسه مفهوم "روابط التعلق". وتعد روابط التعلق هذه، ذات أهمية قصوى في تقوية الاندماج في مختلف المؤسسات الاجتماعية التي تحميها وتعيد إنتاجها. وتعمل من خلالها على ترسيخ الحماية والاعتراف بالأفراد. وتمثل الأسرة، في هذا الشأن، حاضناً هاماً للروابط والقيم (Serge Paugam, 2005).

ومن الجدير بالذكر، أن الروابط الأولية المستمدة من الانتبئات الدموية والقربانية الضيقة، غالباً ما تطفو بقوة أكبر في لحظات الجوائح والأزمات، وتكشف عن نفسها في معظم المجتمعات، غير أنها تبرز بقوة أكبر في المجتمعات التقليدية، التي لم تخضع لتحولات عميقة. أو

تلك التي تعيش مراحل انتقالية. وتكشف معظم الدراسات حول القيم والروابط بالمغرب، أنه في الوقت الذي تنحو فيه العلاقات الاجتماعية نحو الفردنة وانتشار القيم التي تسندها، تظل بعض الروابط الأولية أساسية في الحياة الاجتماعية.

لقد أظهرت نتائج البحث حول الرابط الاجتماعي (IRIS, 2012)، عن درجة التوتر التي تميز علاقة الفرد المغربي بالمؤسسات السياسية. وتبرز خلاصاته، مجموعة من المعطيات التي تسمح لنا بمقاربة ما يمس الروابط والقيم بمجتمعنا من تغيرات في السياق الحالي المتسم بارتفاع منسوب المخاطر والازتياب واللايقين كونيا. ولئن كانت هذه النتائج لا تسعفنا في إصدار أي خلاصة قطعية حول مآلات القيم التي تطفو بشكل ظرفي في سياق هذا الوباء، فهي مع ذلك تمكننا من فهم عميق للتحوّل الذي مس علاقة الفرد بالمؤسسات وأدوارها. لن نقيم ترابطا، بأي درجة من اللزوم، بين ما تفصح عنه الأرقام والمؤشرات وبين الروابط والقيم الظرفية التي طفت خلال هذه الجائحة. وفي واقع الأمر، إن كان لهذا المحور من مقالاتنا فائدة ما، فهي لا تتجاوز فتح باب التفكير في بعض الروابط وممكنات تقويتها والوقوف عند القيم التي يمكن لإضعافها أن يهدد كيان المجتمع.

1.4. أولوية الروابط الأسرية في حماية الفرد

شكلت الأسرة المغربية حقلا هاما لتحوّلات عميقة مست أدوارها ووظائفها، وبنيتها وجمعها خلال ما يزيد عن نصف قرن. ساهمت هذه التحوّلات الكبرى في تنوع النماذج الأسرية، والتي أصبح "النموذج النووي"، في نطاقها، مهيمنًا أكثر وأكثر. حيث كشف البحث الوطني حول القيم أن نسبته تصل إلى حوالي 60% (المغرب الممكن، 2006). ومع أن تنوع النماذج الأسرية قد ظل سمة مميزة لهذا التحوّل، إلا أن الأسرة الممتدة تتجه شيئا فشيئا نحو الانحسار والتلاشي.

وتشهد مؤشرات كثيرة بمحدوث تحولات عميقة مستمرة في المؤسسة الاجتماعية. وقد تنبنا منذ الآن إلى تغيير قيم وروابط كثيرة وبروز أخرى. وما يدعم هذا التغير المحتمل، اتساع حضور الأسر الأحادية (Famille monoparentale)، خاصة تلك التي تعيلها نساء. صنف ظل، إلى عهد قريب، مغيبا في النقاشات العمومية وفي الدراسات الأكاديمية كذلك. لقد بلغت سنة 2008 حوالي 18%، واستمرت النسبة بقليل من الانخفاض سنة 2014، حيث سجلت نسبة 16.22% (المنذوبة السامية للتخطيط، 2008، 2018). ويضاف لهذا المعطى مؤشر هام يكشف دينامية التغير الذي سيغال بنية الأسرة. فحسب توقعات مستقبلية أعدتها المندوبية السامية للتخطيط، سيعرف عدد المسنين ارتفاعا قياسا لما هو عليه الآن، في مقابل تراجع نسبة الشباب في غضون 2030. علما أن متوسط الأعمار عند أول زواج يتجه نحو الارتفاع التدريجي، حيث بلغ سنة 2018، حوالي 31.9 بالنسبة للذكور وحوالي 25.5 بالنسبة للإناث. وفي سياق متصل،

يرتقب أن يبلغ عدد الأسر أزيد من 13.7 مليون أسرة سنة 2050. في الوقت الذي يتجه فيه حجم الأسر المغربية نحو التقلص التدريجي، لينتقل في المتوسط إلى 3.2 سنة 2050 عوض 4.6 المسجلة سنة 2014. (CERED 2017، المندوبية 2018).

ومن المتوقع أن يؤدي تقلص حجم الأسر وازدياد نسبة المسنين إلى وضع ديموغرافي جديد. سيصاحبه، بلا شك، بروز روابط وقيم أخرى. وهو ما سيفرض على الدولة والمجتمع، إن عاجلا أم آجلا، التفكير في طرق احتواء ما ينجم عن ذلك من تبعات. فقد سجل الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 2014 توسعا لحضور المسنين الذين يعيشون في عزلة (المندوبية السامية، 2018). والواضح أن لهذا الأمر تبعات اجتماعية واقتصادية، خاصة في ظل محدودية أنظمة الحماية الاجتماعية وضعف أنظمة الرعاية الخاصة بهذه الفئة وفئات هشة أخرى. وفي ظل النقص المسجل في الوسائل المرصودة للصحة وللتأمين الصحي الذي يجد جذوره في تطور ظل جنينيا، وعلى مدى فترات طويلة، للآليات الجماعية للتأمين. ما يضطر الأسر إلى تحمل الجزء الأكبر من الأعباء المادية المرتبطة بالعلاج والأدوية (CES). وكل هذه المتغيرات تجعل من الأسرة بالمغرب، باستمرار، مؤسسة هامة. ويقوي من روابط أفرادها رغم كل التحولات التي تمسها.

عكس ما تعرفه الكثير من المجتمعات التي أدت فيها الفردانية إلى انكسار الرابط الاجتماعي، كما في حال فرنسا (ألان تورين، 2019)، فإن قيم الفردانية التي عرفت توسعا بالمجتمع المغربي وامتدت لتشمل القيم الدينية والممارسات، كما تشير مجموعة من الدراسات (Elayadi, Rachik et Tozy, 2007)، لا تحيل على الاستقلالية التامة لما يتعلق الأمر بالأسرة. وقد أظهر البحث حول " الرابط الاجتماعي بالمغرب " مركزية هذه المؤسسة باعتبارها قاعدة البنية الاجتماعية المغربية. حيث لا يميل الرابط الأسري إلى فقدان أهميته إلا حينما يتعلق الأمر بأسر بعيدة على مستوى الخط القرابي. وفي الوقت الذي تتقلص فيه الثقة في الكثير من المؤسسات، خاصة السياسية منها، يتجه الأفراد نحو تدعيم روابطهم مع الأقرباء دمويا. فحوالي 82.3% من المستجوبين يقرون بقوة التضامن مع الآباء، في مقابل ضعفه مع المنظمات بما فيها الخيرية (2.1 % فقط من تضامنوا مع منظمات) (IRIS, 2012). ويتخذ التضامن مع المسنين، الذي يظل قويا لدى أغلب المغاربة (78%)، صبغة دينية يكشف عنها مفهوم " الصدقة " الذي أظهرت دراسات كثيرة أهميتها لدى المغاربة. يضاف إلى ذلك، تضامنا وروابط أخرى تبرز في العلاقة مع الأصدقاء، ومع الفئات الهشة. فقد كشفت معطيات نفس البحث حضورا هاما لقيم التضامن مع الفقراء (20.2%) والمطلقات (16.4%) وذوي الاحتياجات الخاصة (7.9%).

تجد هذه الخلاصات ما يدعمها في لحظات الأزمات والتوتر. وهو ما تكشف عنه سياقات الوباء الحالي (كوفيد-19). فع أننا نفتقد لمؤشرات حول درجة انخراط الأسر في مواجهة هذه الجائحة، إلا أن عددا من الباحثين أقرّوا بعودة التضامن الأسري بشكل أقوى (ادريس بنسعيد 2020). ومن الملاحظ أن بروز قيم التأزر بكيفية ظرفية، لم يقتصر على أفراد الأسرة، بل ظهر اهتمام كبير بالتأزر بين فئات اجتماعية مختلفة، ظهرت بواده في المساعدات المقدمة والعمل الخيري الذي ازداد منسوبه بين الكثير من الفئات. وهو ما أعاد للذاكرة الجماعية ممارسات ظلت راسخة في كل فترات الأوبئة والمجاعات بحسب ما أظهرته كتابات المؤرخين. في هذا السياق، يذكرنا محمد الأمين البزاز في كتابه "الأوبئة والمجاعات" أنه لم تكن تخلو أية مدينة مغربية من عائلات خصصت قسما من أملاكها للإسعاف الاجتماعي. كما أن تزويد العائلات لبعضها بالأغذية كان أمرا سائدا خلال الأوبئة والأزمات (محمد الأمين البزاز، 1992).

تبدو قوة الروابط الأسرية أمرا مستساغا في مجتمعات الندرة. ففي هذا النموذج من المجتمعات التي تفتقد إلى نظم مؤسساتية للحماية وتظل التعاقدات السياسية والاجتماعية هشة، تنزوي الروابط إلى مستوى الدوائر الأولية للانتماء (العائلة، الطائفة...). ولئن كانت مجتمعات كثيرة تعيش نهاية الاجتماعي وتمزقه بتعبير ألان تورين، فإن قوة الروابط الأسرية وسمو قيم الثقة في هذه المؤسسات الاجتماعية القاعدية، يجب أن يقابله تعاقدات على مستوى الدولة والمجتمع، تقوي من أشكال الروابط الأخرى التي تحدث عنها سيرج بوغام (روابط العضوية، الروابط السياسية والمدنية) (Paugam, 2005). بشكل يسهم في إنتاج "إيتوس الثقة" في باقي المؤسسات ويقوي من الارتباطات الوجدانية بها ويحول دون الوصول إلى وضعية اللاتوازن أو وضعية من التوازن الهش.

2.4. ضعف الثقة في المؤسسات السياسية

تمثل الثقة رغم ما تتسم به من هشاشة، في أغلب المجتمعات، لحة الرابط الاجتماعي. وتعتبر بذلك، عن علاقة مؤسسة على نسق من الاعتقادات والأحاسيس التي تشرعن استدامة الروابط مع الآخرين. لذلك، فإن ما ينتابها من تقلبات أو ضعف قد يؤدي إلى تحلل الروابط الاجتماعية وفقدان العقد الناظم بين الأفراد ومؤسساتهم. غير أن قيمة كهذه تظل على صلة بالتحويلات التي تمس المجتمع ومؤسساته تلك. وتظل حاملة لأبعاد مختلفة سياسية واقتصادية وثقافية، ولاهوتية. وقد أصبحت الثقة والمخاطر ترتبطان ارتباطا وثيقا في سياق تزايد مظاهر العولمة في حياتنا المعاصرة. وأصبح الإنسان في عالم اليوم، يعقد آماله على "أنساق مجردة" لا يعرفها معرفة وثيقة،

ولكنها تؤثر تأثيرا مباشرا في حياته، مثل المصانع التي تنتج غذاءه والأجهزة التي تقوم بتقنية مياهه التي يشربها والبنوك التي يودع فيها أمواله (أنتوني غدنز، 2005).

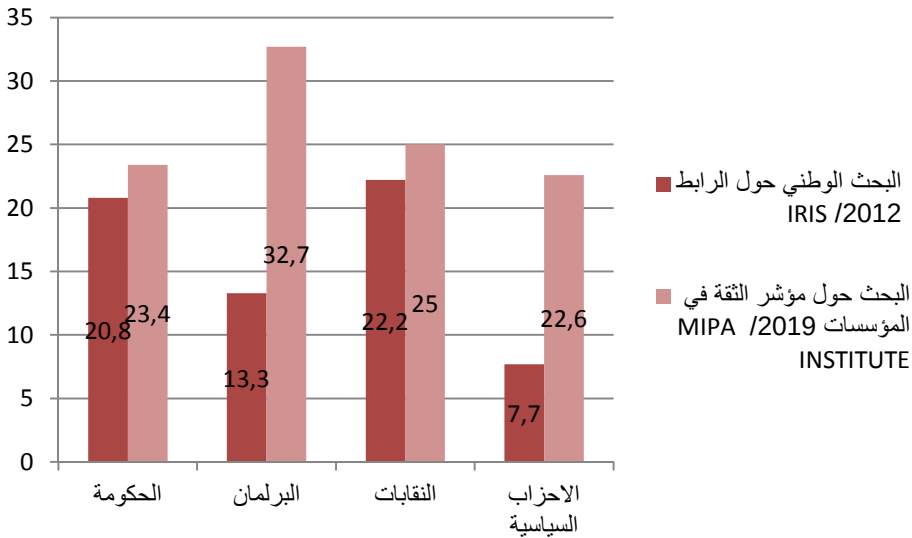
وإذا كانت قيمة الثقة، كما الرابط الاجتماعي، تعيد قوتها في بعض لحظات الجوائح والأزمات، في كثير من المجتمعات، فإن منسوبها يخف في حالات كثيرة من فترات الاضطراب الاجتماعي والسياسي، لتغدو بذلك أزمة الثقة أزمة هيكلية قد تهدد بقاء الدول ونظمها. ويمثل غيابها أو تراجع منسوبها فرصة لبروز "نزوعات ديماغوجية" تغذيها توجهات إيديولوجية وانتاءات ومصالح تقدم نفسها بديلا عن الدولة وحاضنة للمجتمع.

والواقع، أن التوتر بين الأفراد والمؤسسات يكاد يمثل سمة عصرنا هذا. خاصة من جراء تراجع نط الدولة الاجتماعية التي ظلت مؤسساتها حامية للأفراد. وما نتج عنه، بحسب ألان تورين، من تباعد بين الدول ومجتمعاتها، وساهم في نهج سياسات عمقت من حدة التهميش واللامساواة. وأضعف من قدرات المجتمع على الفعل والانتعاش. وأصبح هذا الأخير يقدم نفسه كضحية لوضعية لا يد له فيها (Alain Touraine, 2016). ما يفسر أنه حيثما يتسع الحرمان والهشاشة الاجتماعية والاقتصادية يرتفع منسوب الارتياب من النظم والمؤسسات، فتتلاشى الثقة كقاعدة للعلاقة الاجتماعية. ويغذي هذا التحول بروز مجتمع الشك والارتياب، بحسب تعبير ألان بيريفيت Alain Peyrefitte، الذي يرى في المجتمعات المعاصرة مجتمعات سريعة التآر. قائمة على معادلة قوامها "إذا رحبت أنت فسوف أخسر أنا". الأمر الذي يجعل من المجتمع المعاصر مجتمع الصراع والنفاق والعدوانية والانغلاق (محمد بن المقدم، 2019).

ومع أن السياقات التاريخية تختلف حسب المجتمعات، فإن هوة التباعد ظلت سمة مميزة لعلاقة الفرد بالمؤسسات في بلدان العالم الثالث في مجملها. وإذا كنا قد أبرزنا مركزية الأسرة كمؤسسة اجتماعية، في إعادة إنتاج القيم والروابط وصهر المتخيل الجماعي، فإن التوتر، في مقابل ذلك، ظل واسما لعلاقة الفرد بالكثير من مؤسسات الدولة بالمغرب، وبالمؤسسات السياسية خاصة. وهو أمر يكشف عنه المؤشر العربي للثقة، الذي أظهر كون الشباب في العالم العربي، عموما، أكثر الفئات ارتيابا من المؤسسات. حسب هذه النتائج حوالي 47% من المستجوبين لا يتفقون قطعا في الأحزاب السياسية و24% لا يتفقون إلى حد ما. رغم أن 73% من المستجوبين عبروا عن أن حرية الانتماء للإطارات الحزبية مكفولة للجميع. أما المنتمون لجمعيات مدنية فلم تتجاوز نسبتهم 7%.

وفي سياق متصل، تدعم دراستان حول الرابط الاجتماعي، وحول مؤشر الثقة في المؤسسات أنجزتا بين سنتي 2012 و 2019، نفس الاتجاه.

تفسر هذه المؤشرات مسارا طويلا من التوتر بين الفاعلين السياسيين والاجتماعيين بالمغرب، امتد ل عقود. ومع أن الأحزاب السياسية باعتبارها مؤسسات للتنشئة السياسية، قد امتلكت طوال تاريخها قدرات تنظيمية وتعبوية لا يمكن الاستهانة بها، وأثرت في الرأي العام في كثير من اللحظات. إلا أنها بدأت تعرف تراجعا تكشف عنه نسبة الانخراط في صفوفها، ودرجة الإقبال على الفعل السياسي بكيفية عامة، الذي تمثل المشاركة في الانتخابات مؤشرا من بين مؤشرات. ويكشف المسح الدولي للقيم، في هذا الإطار، عن كون 92.1 % ممن جرى استجوابهم لا ينتمون إلى أحزاب سياسية، كما أن 75.5 % لا يرون أي أهمية للسياسة.

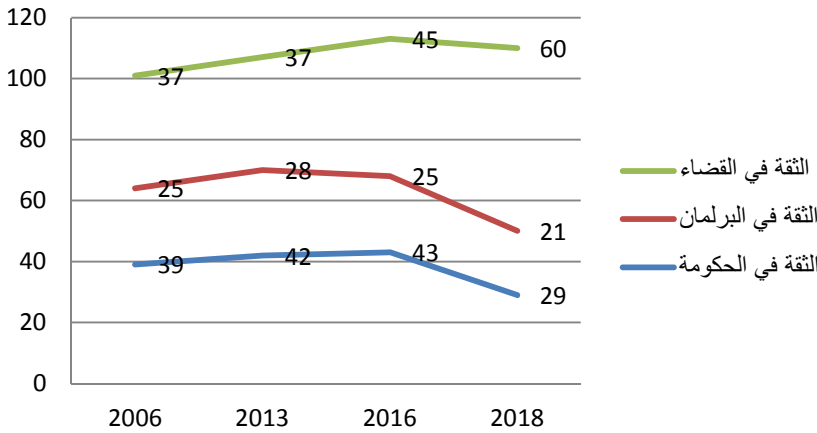


مبيان رقم 1. مؤشر الثقة في المؤسسات من خلال دراستين أنجزتا سنتي 2012 و 2019. MIPA INSTITUTE & IRIS.

يتصل مؤشر ضعف الثقة، ب بروز بدائل أخرى، كالحركات الاجتماعية. إضافة إلى توسع عرفته فضاءات تصريف الفعل (فضاءات التواصل الاجتماعي). غير أن ذلك، أيضا، يظل على صلة بما يعرفه العالم من تشكل لهويات سائلة وتوسع لحركات الرأي التي تجدد في وسائل التواصل، قنوات للدفاع عن مطالبها في مواجهة أجهزة الدولة ومؤسساتها. وذاك ما يشير إليه بيير روزنفالون باسم " الديمقراطية المضادة، التي تأسست على الارتياح في المؤسسات باسم الديمقراطية نفسها" (ألان تورين، 2019). بيد أن ذلك، كذلك، لا ينفصل عن نظرة الفرد المعاصر للسياسة ككل. وفي هذا الصدد، يربط ألان تورين بين التمثلات الاجتماعية للسياسة، وما آتت إليه هذه الأخيرة. إذ " لم تعد السياسة تغيير الحياة. والبرلمانات فقدت دورها في تمثيل المطالب

الاجتماعية. لم تعد سوى أمكنة تتحدد فيها، على نحو أكثر فأكثر براغماتية، قاعدة استناد السلطة التنفيذية التي هي إدارة أو بنك بالأساس" (الآن تورين، 2010).

ففي الوقت الذي يبدو فيه مؤشر الثقة قويا في بعض مؤسسات الدولة كالجيش 78 % والقضاء 60%. تتسم علاقة الأفراد بمؤسساتهم التشريعية بنوع من التوتر، كما تكشف بعض الأبحاث الميدانية (البارومتر العربي 2019).



مبيان رقم 2. درجة الثقة في المؤسسات بالمغرب البارومتر العربي 2019

لئن كانت قيمة الثقة تختزل مسارا من العلاقة المتسمة بالتوتر تارة والتواصل أحيانا، بين الأفراد والمؤسسات، فإن قوتها أو فتورها لا ينفصل عن رضا الأفراد وتلبية حاجياتهم الخاصة. من هنا، تربط نتائج البحث حول الرابط الاجتماعي بين غياب الثقة لدى أغلب المستجوبين وبين بعض المؤشرات التي تشكل ركائز العيش المشترك. في سياق ذلك، يعتقد أغلب الذين شملهم البحث أن العناصر الكبرى لحماية العيش المشترك إنما تقوم على ثلاثة مكونات:

المكون المادي: يرتبط أساسا بمطلب الشغل ومدى انخراط الدولة في إيجاد حل لمشكل البطالة، علاوة على تكريس التضامن. وتبرز أهميته أكثر لدى أغلب المستجوبين، من خلال إصرارهم على ضرورة أن تنهج الدولة من خلال مؤسساتها سياسة لمحاربة الرشوة والفقر، وإقرار العدالة الاجتماعية، التي يعتقد هؤلاء أن غيابها يمثل أهم عائق نحو عيش مشترك. وتعزز معطيات أخرى الانطباعات التي يحملها الأفراد حول جدوى السياسات العمومية ومدى انخراطها في تحسين أوضاعهم، حيث يرى حوالي 74% من الشباب من الشريحة العمرية (18-29)، أنهم لم يلمسوا أن هنالك نجاعة في سياسة محاربة الفساد. (البارومتر العربي 2019).

المكون العقدي: يشدد عدد هام من المستجوبين على أهمية الحفاظ على انتمائهم الديني كرابط للعيش المشترك (IRIS, 2012). مؤشر يركيه ما كشف عنه المسح الدولي حول القيم (2011) الذي أظهر أهمية هذا المكون لدى 74.1% من المغاربة المستجوبين (World Values Survey).

المكون السياسي والمدني: يؤكد معظم المستجوبين على أهمية احترام الحقوق والواجبات وحفظ الأمن. لكن، إذا كان أغلبهم يحرص على المطالب السابقة، كعناصر أساسية، فإن الشباب (أقل من 30 سنة)، يشددون أكثر على احترام الحقوق والواجبات كأساس للعيش المشترك (IRIS, 2012).

تقدم هذه المؤشرات المتعلقة بالروابط وقيم التضامن والثقة في بعض المؤسسات أرضية للتفكير في وضعية المغرب الراهنة في سياق الوباء. لقد كشفت الجائحة عن حضور لبعض مؤسسات الدولة من خلال انخراطها المتواصل واليومي في تدبير خطر الوباء (الصحة، الإعلام، مؤسسات الجيش...). كما كشف أهمية المجتمع المدني في عملية التوعية والتضامن. وفي مقابل ذلك، أظهر ضعف التواصل لدى أغلب الفاعلين السياسيين وفتور دور الأحزاب السياسية، مع استثناءات قليلة، التي تراجع حضورها أو جرى إضعافها من قبل فاعلين مختلفين.

وفي مقابل هذا الفتور، برز فاعلون افتراضيون (يتواصلون عبر الفضاء الأزرق)، وهيئات مدنية مختلفة تتجاوز سلطة الوساطات التقليدية (أحزاب سياسية، نقابات). وهو أمر بقدر ما زاد من توسع قيم التطوع والتآزر، فإنه قد يؤدي، مستقبلا، إلى مزيد من إضعاف قيم الثقة بين المجتمع ومؤسساته السياسية. ويساهم في انحسار أدوارها في التنشئة والتأطير ويضيق من أفق الفعل السياسي. وربما تكون من أسوأ نتائج فتور العلاقة بين الأفراد والحقل السياسي وعزوفهم المتواصل عنه. فباستثناء بعض الحساسيات السياسية القليلة العدد، كشفت لحظة الوباء عن حضور مؤسسات الدولة المرتبطة بتدبير الحياة اليومية للسكان، في مقابل بروز يقظ لفاعلين مدنيين يتشكل معظمهم من الشباب المتعلم.

لقد اتضح في لحظات كثيرة، كان آخرها حملة الرفض التي رافقت ما عرف بمشروع " قانون تكيم الأفواه 20-22"، الحضور القوي لحركات مقاومة افتراضية، تشتغل خارج منطق المؤسسات التقليدية وآلياتها. ومن غير المستبعد أن تزداد قوة هذه الحركات الجديدة بفعل توسع حضورها وجدة أساليب التعبئة التي تعتمد عليها في تصريح خطاباتها. وذلك ما سيمكنها من تعضيد شرعيتها، أكثر فأكثر، في نظر العديد من الباحثين الذين يعتبرونها فاعلا جديدا في المشهد الحضري بالمغرب (عبد الرحمن رشيق، 2016، 19).

5. تدبير المخاطر بين منطق المؤسسات ورهانات الفاعلين الاجتماعيين

يعتقد باتريك لاغاديك أن خطط الأزمات الفجائية غالباً ما تكون عديمة الجدوى في الحد من المخاطر (Patrick LAGADEC, 1991). ففي مناطق معزولة أو مجهولة، تجابه خطط مواجهة الأوبئة والأزمات قصوراً بسبب أخطاء في الترقب، وضعف تقدير المخاطر في ارتباط مع مجال حدوثها. حيث تشكل الأوبئة والأزمات، في غالب الأحيان، ما يمكن تسميته مع باتريك لاغاديك بالهياكل المولدة للمخاطر. وتشارك الأوبئة المعاصرة في صعوبة توقعها. لقد كشف وباء كوفيد-19 عن هذه الصعوبة حيث لم يتوقع أحد، بما في ذلك المتخصصين، تبعاته. وظل الجميع يعاني نقصاً في المعلومات حول خطورته. ورغم ما تثيره الأرقام المقدمة، من جهات مختلفة، من قلق جراء تزايد الوفيات وتضاعف عدد المصابين، فإن الأمر لا يجعلها تختلف، من حيث خطورتها، عن أصناف مختلفة من الفيروسات، دأب الإنسان على مواجهتها طيلة العقدين الماضيين. وربما يقع الفرق، فحسب، في عدم التوصل لحد الآن إلى لقاح. كما أن هنالك، أيضاً، عدم يقين بخصوص العقاقير التي تقترح حالياً للمعالجة.

إن ما يزيد من انحسار إدارة الأزمات في العديد من بلدان العالم، أن الخطط التي تطرحها الدول والمؤسسات لمواجهة الأوبئة حال حدوثها، قد لا تكون ذات فعالية. ذلك أن مخططات من هذا القبيل، غالباً ما تنطلق من فرضية أن الناس يتعاونون أو أنهم سيكونون مستعدين لذلك. لكن رد فعلهم ليس دائماً مطابقاً للتوقعات. فما يمثل رهان الحكومات قد يختلف بالنسبة للفئات الهشة التي تظل في مواجهة دائمة مع المخاطر (صعوبة تأمين الصحة، صعوبة تأمين السكن، تعليم الأبناء، الشغل...). في هذا السياق، تمثل المخاطر جزءاً من معيش يومي. ويبني الأفراد، تبعاً لذلك، فهمهم الخاص حولها وحول سبل مواجهتها. فهم قد يختلف كلياً عن مساعي الدولة والمؤسسات. ويستنفر الأفراد كل طاقاتهم للتعايش والمواجهة من خلال ما يمتلكون من رساميل مادية ورمزية وما يمتحون من نظمهم الاجتماعية والثقافية من قيم وممارسات. وعلى غرار ما يرى دافيد لوبروتون "فإن كل المجتمعات تبني نظمها الرمزية وتستنفرها لصد الخطر مهما كان مصدره. وتسعى إلى إبعاد الخطر من خلال الشعائر والتعويذات والصلوات والقداسات والمواكب وطرده الأرواح الشريرة، أو من خلال وسائل تكنولوجية حديثة وطرق للتنظيم تقوي الرابط الاجتماعي في مواجهة الشدائد" (David Le Breton, 2017). مما يجعل درجة الاستجابة للخطر تختلف حسب الفئات الاجتماعية والثقافات.

غالباً ما يكشف تعاظم الأفراد مع المخاطر أن النظر إليهم باعتبارهم غير عقلانيين وتنقصهم المسؤولية، أمر ينطوي على قدر من المبالغة أو الجهل. إذ إن المرونة في تطبيق التدابير أو تجاهلها، والتشكيك في خطط الخبراء من قبل الأناس العاديين إنما تجد تفسيرها أحياناً في فهم هؤلاء للمخاطر. من هنا، تتعدد المواقف الاجتماعية التي تؤثر على نماذج تقييم المخاطر. فالخطر

المقبول من طرف البعض هو غير ذلك، بالنسبة للبعض الآخر. والمزج بالنسبة للبعض، هو قابل للتعايش من طرف البعض. وتبعات ونتائج المخاطر تختلف تبعاً للسياق الثقافي والمستوى الاقتصادي والمجال الجغرافي كذلك. غير أن الفئات الفقيرة تظل أقرب للتعرض للأخطار نتيجة لانعدام عدالة في توزيع الموارد والمخاطر على قدم المساواة.

يمكن أن تكون مقاومة الأشخاص العاديين لمختلف التدابير، بما فيها الشخصية، خياراً مدروساً ومعقولاً تماماً من وجهة نظرهم. وهو وضع يواجهه الأفراد في حياتهم الخاصة. إن ردود الأفعال التي تصدر عنهم في وضعيات وبائية أو أمراض وأزمات اجتماعية تفرض فهماً خاصاً لها، بارتباط مع البدائل الممكنة والمتوفرة لهم. كما أن تماثلهم للوباء والمرض والصحة تُظهر بوضوح أن اللغة التي يعبرون من خلالها عن معاناتهم وعن تجربتهم مع الوباء والمرض "لا تمثل لغة جسم الكائن العضوي فحسب، ولكنها لغة العلاقة بين الفرد والمجتمع الذي نشأه" (Claudine, Hérzlich 2000).

يؤدي التفاوت الاجتماعي والاقتصادي بين الفئات إلى اختلاف في إدراكها المخاطر. وبالتالي، يصبح الفقراء أكثر حساسية تجاه عدد معين من المخاطر دون أخرى. خاصة مع التحولات الهيكلية في سوق الشغل واتساع اقتصاد الظل وارتفاع البطالة. وكلها معطيات تساهم في توسع الفقر، وتوسع أحزمة السكن غير اللائق، الذي يصبح مجالاً للتوترات الاجتماعية. ومن ثم، مجالاً طارداً لأفراد الذين يجدون أنفسهم خارج رهانات الفاعلين الحريصين على إنجاح هذه الخطوة أو تلك. فجزء من هؤلاء يتوسع استبعادهم الاجتماعي كما يشير إلى ذلك سيرج بوغام (Paugam, 2005). ويؤدي وضعهم هذا إلى السقوط في فخ الحرمان. ومن ضمن هؤلاء فئة واسعة من المهاجرين الذين يعيشون إقصاء متعدد الأبعاد، مجالياً واقتصادياً وثقافياً. مما يجعلهم يعيشون الحياة الحضرية "كنوع من ألعاب الصدفة والاختيار" على حد تعبير الباحث عبد الرحمن المالكي (عبد الرحمن المالكي، 2005). من هنا، فإن طرق إدارة المخاطر الصحية التي تسعى السلطات، في أي بلد إلى نهجها، لا تمثل دوماً أولوية للجميع. فكثير من الناس يخشون من عواقب إدارتها على أنماط حياتهم أو ظروفهم المعيشية. من هنا يبدو أن "الفاعلية الاجتماعية لتعريفات المخاطرة لا علاقة لها، إذا، بصلاحياتها العلمية" (أولريش بك، 2001)، ولا بنهج مواجهتها كما يرسمه الخبراء.

فخارج كل خطاب منبري، يدعي لنفسه العقلانية والموضوعية، المستندة إلى خطاب المؤشرات والأرقام فقط، أو خطاب الخبراء، يصبح للفاعلين الاجتماعيين فهمهم الخاص للوباء وسياقاته المؤثرة في معيشتهم اليومي. وحتى من زاوية نظر مفعمة بيقين تقني مبالغ فيه أحيانا ومطلوب أحيانا أخرى، تبدو الحاجة ملحة لاستحضار الرهانات الاقتصادية والمصالح الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كذلك، التي تسم سياق الوباء. إنها حاجة إلى تساكُن كل

المعطيات في نهج تركيبي يفرضه تعقد المخاطر التي يفشل التحليل الأحادي النظرة والتفسيرات السببية الخطية في إدراك صيرورتها. مما يستدعي من السياسي ورجل الإدارة والفاعلين الاجتماعيين، بشكل ملخ، التسليح بنظرية عامة للمخاطر كما يرى، ذلك، جاك بويسو (Jacques Bouyssou , 1997). خاصة أن تدبير هذا الصنف من الأوبئة والمخاطر (الأوبئة، الأمراض، الكوارث الطبيعية...)، أو العودة إلى جذورها، أمر يقع في صلب النقاش العمومي. الذي يؤدي في أحيان كثيرة إلى إفراز تكتلات إيديولوجية، تتغذى من يوتوبيات دهريّة حاملة. أو قوى سياسية وفاعلين اقتصاديين تمتاز مصالحهم تارة وقد تتضارب تارة أخرى. وقد تظهر في خضم هذا النقاش أطراف أخرى لا ينفصل تاريخها عن تاريخ المخاطر، كما هو شأن مؤسسات التأمين التي لا ينفصل وجودها وتطورها عن حدوث المخاطر وتغير مضمون الخطاب حولها، كما يرى كل من دفيد نغيث ومارتان بيتيت كليرك (David Niget et Martin Petitclerc, 2012).

تتأرجح الخطابات المنتجة حول فهم الجائحة وأبعادها وسبل التدخل فيها، باعتبارها جزءا من مخاطر أشمل تواجه عالم اليوم، بين عقلانيات مختلفة. عقلانية علمية "أو توسم نفسها كذلك" مسندة بنتائج مخبرية مدعمة بتصورات نظرية، وعقلانية اجتماعية تمتح من فهم خاص ومن منظومة ثقافية وبناءات اجتماعية للمخاطر وسبل الوقاية منها أو علاجها.

إن تدبير المخاطر من خلال استراتيجيات الاحتواء والحجر المعمم للسكان، بقدرما تساهم في ارتفاع احتمالات التحكم في الوباء، فإنها تخلق، بالموازاة مع ذلك، وضعا اجتماعيا قاسيا بالنسبة للفئات الهشة (المسنين، ذوي الاحتياجات الخاصة، الفئات الفقيرة والمعدمة، المهاجرين غير القانونيين). ويمكن أن تكشف الأزمات، في هذا الصدد، عن نقاط الضعف الهيكلية في كثير من المجتمعات. وعن اختلالات في برامج الحماية الاجتماعية أو نقص في وسائل الاستشفاء، كما حدث في العديد من دول العالم خلال وباء كوفيد-19 (نقص الأسرة، التجهيزات الطبية، الكمادات، أجهزة التنفس...). وهذا الأمر مرتبط بصيرورة تحولات مست الحماية الاجتماعية في بلدان كثيرة، من جراء ما عرف في أدبيات العلوم الاجتماعية بنهاية الدولة الرعاية L'Etat Providence، التي تقلص تدخلها في المجال العمومي بفعل ترسيخ مبدأ "القليل من الدولة". وعكس هذه الاختلالات التي يكشف عنها الوباء، فإنه يقدم فرصا سياسية واقتصادية واجتماعية، يمكنها تيسير تغيير المجتمع، من خلال السماح باتخاذ قرارات لم يكن من الممكن اتخاذها في ظروف أخرى مغايرة.

لا مرأ أن تدبير المخاطر يظل رهين حسابات واحتمالات شتى. ويقع المجتمع أو بعض فئاته ضحية اختياراته مهما كانت نجاعتها. فمن غير المتوقع أن تستفيد كل الفئات من العواقب الوخيمة للأوبئة ومن مزاياها دونما تمييز. ذلك أن حسابات الربح في هذا السياق، تجري من خلال مخططات تأخذ بعين الاعتبار المخلفات على المدى البعيد. وإذا كانت أولى الخسائر المصاحبة

للحجر تمس هيكل الاقتصاد برمته (في حالة المغرب، تشير المندوبية السامية للتخطيط إلى توقع تراجع النمو إلى ما بين 2.2% و 2.3% عوض 3.5% و 4.5%، مع توقع فقدان 5 ملايين سائح)، فإن مقايضة ذلك بالثروة البشرية تكشف عن فارق الخسارة التي يمكن أن تظهرها احتمالات الوفيات الممكنة في وضع مغاير. يعكس الاختلاف في الاستراتيجيات وجود رهانات اقتصادية واجتماعية وسياسية وأخلاقية تتحكم في تدبير المخاطر. وتظل كل خطة، تروم التدخل للحد من الأخطار، عاجزة عن تحقيق النجاعة المتوخاة منها، ما لم تراعى قدرا من التوزيع العادل للأرباح كما الخسائر. أي، للثروات والمخاطر في الآن نفسه. كتب جيم بويص عن اللامساواة المترتبة عن توزيع أضرار البيئة، والمخاطر المعقدة المتصلة بتدهورها، قائلا: "من دون مستفيدين لا يحصل تدهور بيئي. ومن دون خاسرين لن يكون هناك ما يدعو للقلق".

يتساءل كل من إلوا لوران وباتريسيا كريفو: كيف يفرض الراجحون تكلفة التدهور البيئي على الخاسرين؟ لماذا لا يرفض الخاسرون تكلفة ضرر من هذا النوع؟. لكن سرعان ما يجيبان، من خلال العودة إلى جيم بويص، لأن الخاسرين يجهلون نتائج اللامساواة لما يتعلق الأمر بالبيئة ومخاطرها. ولأنهم أيضا، لا يملكون سلطة أو قوة ونفوذ لتصحيح هذه الاختلالات (Patricia Crifo et Eloi Laurent, 2013). من هنا، تصبح اللامساواة ذات طابع مزدوج بالنسبة للفئات الفقيرة. فمن جهة، تظل هذه الأخيرة أقل حظا في الحصول على الثروات والموارد. ومن جهة أخرى، تصبح أكثر عرضة للمخاطر الناجمة عن إنتاج مكثف واستغلال متزايد للطبيعة والمحيط الحيوي، فرضه منطق النيوليبرالية المتوحشة، وما يخلفه ذلك من مخاطر (أمراض وأوبئة وكوارث طبيعية) تظل عرضة لها أكثر من غيرها.

في مقارنته بين استراتيجية الرعاة واستراتيجية الصيادين، يرصد الأنثروبولوجي الفرنسي فريدريك كيك، اختلاف سياسية التدخل لمواجهة الأوبئة، بما في ذلك كوفيد-19 (فريدريك كيك، 2020). ويعزى الأمر إلى اختلاف النظم الثقافية واختلاف الرهانات الاقتصادية والسياسية والسياقات التاريخية أيضا. فعلى عكس بلدان أوروبا، التي تم فيها بناء الأمن الاجتماعي على مبدأ الوقاية وليس على مبدأ الاستعداد، حيث ترتبط الوقاية الصحية بدولة قومية على أرض محددة، وتبعاً لذلك، تجري مواجهة الأمراض والأوبئة من خلال خطط استباقية تقوم على التلقيح والتطعيم ضدها، تفضل بعض مجتمعات شرق آسيا نهج خطط الصيادين.

يوجد بون شاسع بين آثار كل منهما. وتوجد مساحة بين منطق الراعي ومنطق الصياد. أي بين الاستعداد والوقاية، تتمثل في الاحتياط (فريدريك كيك، 2020). فأسلوب التدخل الأول يفترض تضحية أكبر. لذلك، يتوقع وفاة أشخاص من جراء الإصابة بالفيروس. لكنه، يراهن أكثر على صحة الساكنة في عمومها. وهو أسلوب يقيم نجاعته على حجم الخسائر البشرية (عدد

الوفيات) من مجموع الاحتمالات الممكنة. عكس ذلك، تقوم استراتيجية الصيد على تعقب الفيروس. وهذا ما نهجته بلدان كسنغافورة وتايوان من خلال تتبع حالات الأشخاص المصابين الذين ظلوا على اتصال بالمرضى الأوائل. وقد مكن هذا النهج من التحكم في انتشار الوباء. لم يسلكوا نهج الحجر إلا على الفئة المصابة فحسب، تجنباً للتكلفة الاقتصادية والاجتماعية للحجر طويل الأمد. غير أن هذا النهج يتطلب تدخلاً مبكراً، وإلا كانت العواقب وخيمة.

إن تدبير المخاطر بناء على هذه الخطة أو تلك، يظل على صلة وثيقة بمدى انخراط السكان. وفهمهم الخاص لوقوع المخاطر عليهم، وسبل المواجهة الممكنة بالنسبة لهم. وقد كشفت العديد من الدراسات حول داء فقدان المناعة المكتسبة وأمراض أخرى متنقلة، أن الفاعلين يحمون أنفسهم من خلال ما يبنونه من صور نمطية حول ذوات " سيئة"، ترتبط ببعض الفئات الاجتماعية كالمدمنين والمثليين (Le Breton, 2017) وتتمثل أهم الالتباسات التي تواجه مخططات تدبير الأزمات، مهما اختلفت حدتها، في عدم اليقين حول كيفية رد فعل السكان، وحول تمثالتهم للخطر. ويتيح اتساع دائرة اللاتيقين وغموض ردود أفعال الأفراد في تفضيل سبل الوقاية، التي تعد أسلوباً كلاسيكياً في إدارة الأزمات. غير أنه خيار يصبح في حالة المخاطر غير المتوقعة دون جدوى. إن سبيل الوقاية ينبغي اتخاذ تدابير تحد من احتمالات وقوع الخطر أو التقليل من تبعاته وآثاره. لكن في أصناف المخاطر التي تواجه العالم اليوم (الأوبئة والإشعاعات والكوارث البيئية غير المتوقعة) والتي تشتغل وفق منطق نسقي، تفشل كل سياسات التدخل المرتكزة على الوقاية، كلما كانت جزئية.

لذلك، فإن المخاطر الراهنة التي تتواتر في العقود الأخيرة، تفرز آثاراً قابلة للحلول، سرعان ما تتولد عنها مشاكل جديدة. مما يضع العالم في إطار حلقة مفرغة تحيل مصير الإنسان المعاصر إلى أزمات متدرجة تتناوب فيها الأمراض والأوبئة والكوارث البيئية والفقر والحرمان.

والجواب عن كل هذه المعيقات، إنما يتمثل في ما أسماه ألان تورين، في " القرن السياسي الجديد"، الرجوع إلى نقطة الانطلاق، وإلى التحولات العميقة للتحليل السوسيولوجي (Alain Touraine, 2016). ذلك أن التحولات المتواصلة التي يعرفها العالم في العقود الأخيرة تشي بوجود خلل يعترى مسار المجتمعات ويحمل في طياته مؤشرات الهدم أكثر من البناء. وضع يمكن تجاوزه من خلال فكرة خلق الذات. ليست الذات التي تجعل من نفسها سيده الطبيعة والمالكة لها، لكن الذات القادرة على الخلق والإبداع الانعكاسي (création réflexive). الذات التي تتعرض أيضاً لأزمات طبيعية رهيبية فتتفاعل معها بنوع من اللاتيقين بقدر احترامها.

خلاصة

يبدو أن مسلسل الحداثة وقيمها التي ظلت ترنو إلى تحقيق الرفاه وتنشد العقلانية والتقدم، قد دفعت بالعالم اليوم إلى لحظة تراجع وفقدان للمعنى. ومن دون شك، أن ذلك سيؤثر على الرابط الاجتماعي والقيم التضامنية في حياة الإنسان المعاصر. من هنا، يكون حريا بالباحثين في علم الاجتماع ضم جهودهم لجهود الباحثين في كل التخصصات، لتفكيك ما يعتمل في الواقع من تحولات بنيوية عميقة، وإمالة اللثام عن صيرورة تشكل الوباء. وما يمكن أن ينجم عنه من ظواهر بيولوجية، اجتماعية، اقتصادية وسياسية مستقبلية. وفي الآن ذاته، العمل على نقد مختلف المؤشرات التي تنتج حول الأوبئة من خلال طرح الأسئلة الجوهرية الآتية: من يتضرر أكثر؟ كيف يؤثر الأمر على حياة المتضررين وعلاقاتهم الاجتماعية؟ كيف يبني الأفراد فهما خاصا حول الأوبئة والمخاطر، وكيف يتفاعلون معها؟ كيف يدبر المتضررون آثار هذه الأوبئة وآثار مختلف الكوارث التي تمس حياتهم؟ من يستفيد منها ولو بشكل مؤقت؟ ما هي الرهانات التي تتحكم في سياسات التدخل وإدارة الأزمة؟ الخ.

يستدعي الأمر من كل الفاعلين في السياسات العمومية إعادة النظر في نظم الحماية الاجتماعية، والسعي قدما نحو إعادة مأسسة الثقة بين الأفراد والمؤسسات، بشكل تتجاوز فيه سياسة تدبير المخاطر الخطط الظرفية المؤقتة. والاهتمام بالمخاطر الاجتماعية، كذلك، من خلال نهج مقارنة متكاملة، تدمج الأبعاد الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مشروع تنموي مستدام. وهو أمر يتطلب العودة إلى نموذج ما من الدولة الاجتماعية. قد لا يكون كسابقه، غير أنه يجب أن يكون نمودجا يتجاوز البعد الإحساني للرعاية ويكرس سياسات اجتماعية قائمة على تعاقديات مختلف الفاعلين.

المراجع

- البارومتر العربي 2019، منشور في: <https://www.arabbarometer.org/ar/countries/morocco-ar/>
- البزاز محمد الأمين 1992، تاريخ الأوبئة والمجاعات في تاريخ المغرب، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سلسلة رسائل وأطروحات، منشورات كلية الآداب، الرباط، 186-354.
- المالكي عبد الرحمان، 2005، سوسيولوجيا التحضر في المغرب، دراسة في العلاقة بين الأطر الأيكولوجية والأنساق الثقافية بفاس. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في علم الاجتماع. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، الجزء الأول، ص 176.
- بك أولريش، 2009، مجتمع المخاطرة، ترجمة جورج كتورة وإلهام الشعراني، المكتبة الشرقية، بيروت، ص -ص: 21. 41. 47. 65
- بن المقدم محمد، 2019، الثقة من اللاهوت إلى الحداثة، مجلة قيم، العدد الأول، منشورات مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث في القيم والمجتمع، مكناس، ص 109.

- بنسعيد ادريس: خطورة تقوية الأجهزة وإضعاف المؤسسات تتركس عزوف الناس عن السياسة وتبخيسها. نشر الحوار يوم 2020/05/14 <https://www.maghress.com/lakome/180621>
- تورين ألان ، 2010، *تقد/لحداثة*، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص 174.185.191.194.
- تورين ألان، 2011، *برايغما جديدة لفهم عالم اليوم*، ترجمة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص 126.
- رشيق عبد الرحمان، 2016، *السياسة العمرانية والعلاقات الاجتماعية في المغرب*، مجلة عمران، المجلد الخامس، العدد 18، ص 20-19.
- تورين ألان، 2019، *التفكير على نحو مغاير، علم الاجتماع ونهاية الاجتماعي*، ترجمة عبد المالك ورد، شمس برينت، الرباط، ص 196-197.
- سلام محمد شكري، 2019، *استراتيجية التفاوض القيمي: في التغير المركب والهويات السائلة*، مجلة قيم، العدد الأول، منشورات مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث في القيم والمجتمع، مكناس، ص 118.
- عبد الرحمان المالكي، 2005، *سوسيولوجيا التحضر في المغرب، دراسة في العلاقة بين الأطر الأيكولوجية والأنساق الثقافية بفاس*. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في علم الاجتماع. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، الجزء الأول، ص 176.
- عبد الرحمان رشيق، 2016، *السياسة العمرانية والعلاقات الاجتماعية في المغرب*، مجلة عمران، المجلد الخامس، العدد 18، ص 20-19.
- غدز أنتوني، *علم الاجتماع*، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص 730-731.
- فريدريك كيك 2020، (حوار) ليس لدينا الخيال لفهم ما يحدث لنا، ترجمة حسن مصباح. منشور بتاريخ 2020/03/31، على الرابط: <https://dabapress.com/50076/>
- كابان فليب ودورتيه جان فرانسوا ، 2010، *هل الجرثومة فاعل اجتماعي؟ مقابلة مع برينو لاتور، من النظريات الكبرى الى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات*، دار الفرق، دمشق، ص 338.
- كرومبتون روزماري، 2016، *الطبقات والتراصف الطبقي*، ترجمة محمود عثمان حداد- غسان رملوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ص 26-30-44.
- مجموعة المغرب الممكن، تقرير الخمسينية، 2006، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 36.
- المعهد المغربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019، *مؤشر الثقة وجودة المؤسسات*، ملاحظات أولية، 2019.
- المنذوبية السامية للتخطيط، 2018، *معطيات إحصاء العام للسكان والسكنى*. الرباط.
- موران إدغار، 2012، *هل نسير إلى الهاوية؟ ترجمة عبد الرحيم حزل*، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص 44.
- هابرماسيورغن، 2006، *مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو نسالة ليبرالية*، المكتبة الشرقية، بيروت، ص 61.
- هان كريس وكيث هارث، 2014، *الأنثروبولوجيا الاقتصادية، التاريخ والإثنوغرافيا والنقد*، ترجمة عبد الله فاضل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ص 46.
- هربارت ماركوز، 1988، *الإنسان ذو البعد الواحد*، ترجمة جورج طرابشي، دار الأدب للنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ص ص: 53-54.
- هونيت أكسيل، 2019، *الاجتماعي وعالم الممنق*، ترجمة ياسر الصاروط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ص 15.
- Augé Marc, 2000, *Ordre biologique, ordre sociale, la maladie forme élémentaire de l'événement*, in Augé Marc, Hérzlich Claudine, *Le Sens du mal*, Editions des archives contemporains, Paris, p.35.
- Bouysou Jacques, 1997, *Théorie générale du risque*, Edition Economica, P 3.

- Claudine, Hérzlich, 2000**, Médecine Moderne et Quête de Sens: la maladie signifiant social, in *le sens du mal*, Editions des archives contemporains, P 203.
- Crifo Patricia et Eloi Laurent, 2013**, *Enjeux environnementaux et question sociale, pourquoi et comment lier justice sociale et écologie ?*, Conseil économique pour le développement durable, France, N 23, P 5-6.
- Diop Cheikh et Modo Thioune Ramata, 2014**, *Les déchets électroniques et informatiques en Afrique. Défis et opportunités pour le développement durable au Bénin, au Mali et au Sénégal*, Ed, KARTHALA/ IDRC P : 32-34.
- Elayadi Mohamed, Rachik hassan et Tozy Mohamed, 2007**, *L'Islam au Quotidien, enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc*, Edition Prologues, P 50-109.
- Franklin James, Short, Jr., 1984**, The Social Fabric at Risk: Toward the Social Transformation of Risk Analysis. In : *American Sociological Review*, Vol. 49, No. 6, pp. 711-725.
- Grégoire Vincent, 2009**, *L'Idéologie du risque, l'état et les assurances*, Edition de l'association Paroles, P 59.
- Haut-Commissariat au Plan, 2008**, La femme en chiffres, tendances d'évolution des caractéristiques démographiques et socioprofessionnelles.
- Haut-Commissariat au Plan, 2017**, projections de la population des régions et des provinces 2014-2030, CERED.
- Haut-Commissariat au Plan, 2017**, projections de la population des régions et des provinces 2014-2050, CERED.
- IRIS. 2012**, Rapport de l'enquête nationale sur le lien social, P 12-100.
- Lagadec Patrick, 1991**, *La Gestion des crises, outils de réflexion à l'usage des décideurs*, Mc GRAW-HILL, P 7.
- L.e Breton David. 2017**, *Sociologie du risque*, PUF, 2eme édition, P. 20.101.
- Lise Loumé, 2016**, « 120 battements par minute » : 10 chiffres pour comprendre l'épidémie mondiale de Sida, https://www.sciencesetavenir.fr/sante/10-chiffres-pour-comprendre-l-epidemie-mondiale-de-sida_29654.
- Niget David et Pititclerc Martin, (dir), 2012**, Le risque comme histoire de la temporalité, in, *Pour une histoire du risque*, Press Universitaire de Rennes, P 9.
- Paugam Serge, 2005**, *Les Formes élémentaires de la pauvreté*, PUF, P 78/79.
- Touraine Alain, 2016**, *Le Nouveau siècle politique*, Editions du Seuil, P 141. WORLD VALUES SURVEY, 2011, MOROCCO.

الجوائح والمجتمع: من القلق والخوف إلى التدبير والتجاوز

مبارك الطايبي

جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة

t.moubarek@hotmail.com

ملخص

تحاول هذه المقالة ملامسة أوجه القضايا التي تطرحها الجوائح في علاقتها بالمجتمع، من خلال رصد بعض الوضعيات الاجتماعية التي نعيشها اليوم جراء الظرفية الخاصة التي نمر منها، بعد تفشي جائحة فيروس كورونا "كوفيد-19". كما يرصد هذا العمل ما لهذه الجائحة من وقع اجتماعي على الأفراد والمجتمع، وما ترتب عنها من حالات الهلع والخوف والاضطراب الذي أحدثته هذه الجائحة في الواقع الاجتماعي لعموم المواطنين. وأخيرا تهتم المقالة بما تطرحه علينا هذه الجائحة من أسئلة على مستوى البحث في العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا على الخصوص.

الكلمات المفتاحية: الجائحة، الحجر الصحي، الزمن الاجتماعي، التغير الاجتماعي.

Résumé

Cet article a pour objectif d'aborder les différents aspects des questions soulevés par les pandémies en rapport avec la société. Il traite certaines situations sociales dans lesquelles nous vivons aujourd'hui en raison des circonstances particulières imposées par la pandémie à coronavirus «Covid 19». Ce travail essaie également d'appréhender l'impact de cette pandémie sur les individus et la société. Enfin, l'article s'intéresse aux questions que cette pandémie nous pose en termes de recherche en sciences sociales et particulièrement en sociologie.

Mots-clés : Pandémie, confinement, temps social, changement social.

تقديم

تطرح الجوائح في علاقتها بالمجتمع قضايا واشكالات متعددة، أسئلتها تتنوع بتنوع المقاربات والخلفيات النظرية لكل تخصص علمي. فالباحثون في العلوم الاجتماعية يتناولون هذه القضايا بأسئلة متنوعة تبحث في فهم ما يترتب عن الجوائح من أرباك في السير العادي للمجتمع ومن تعطيل للحياة الاجتماعية والاقتصادية. فالجوائح ما كانت لتترك الباحثين محايدين فالمادة العلمية

التي تقدمها لنا المصنفات التاريخية وتقارير الأنثروبولوجيين وأوصاف الإخباريين والرحالة الذين جابوا الأقطار والمجتمعات، سواء كانوا مكتشفين أو محبرين أو باحثين توثق، على الأقل من الناحية التاريخية، مدى قوة الوقع الشديد للجوائح على المجتمعات وعلى المحيط البيئي. كما تبرز أن فعلها في المجتمعات يفوق بكثير ما فعلته الحروب والغزوات، بل كان وقعها أشد، فالجوائح وما يرتبط بها من أمراض وطواعين وأوبئة.. قد تحكمت في مصائر أقوام وشعوب ومجتمعات وغيرت خريطتها الديموغرافية والاجتماعية بالكامل، وفي ذلك أشار هانس زينسر Hans Zinsser في كتابه " التيفوس والتاريخ " كيف أن فيروس التيفوس " قرر مع أشقائه وشقيقاته الطاعون والكوليرا والتيفويد والدوسنتاريا مصير حملات أكثر من تلك التي قرر مصيرها قواد الجيوش والغزاة في جميع مراحل التاريخ (هانس زينسر. 2013. ص: 311).

لا شك أن المادة العلمية الغنية التي توفرها لنا الدراسات والأبحاث والاطروحات التي أنجزت عن الجوائح والأوبئة في مجال التاريخ، تمكننا من تشكيل أو تكوين نظرة شاملة عن الجوائح والأوبئة، سواء تلك التي عرفها المجتمع المغربي، على الأقل من الفترة الممتدة من القرن 16 إلى النصف الأول من القرن العشرين¹، أو تلك التي أنتجها بعض الرواد من مدرسة الحوليات فيما عاشته المجتمعات الأوروبية. هذه الدراسات تضعنا أمام ملاحظة أولية وهي أن الجوائح عموما هي من الوقائع الملازمة لكل المجتمعات وليست استثناء في وجودها، إلى درجة يمكن القول معها، أن الجوائح مصاحبة لنوع التطورات والانتقالات التي تعرفها المجتمعات، وأنها نقطة فارقة في مسارات تقدم وتطور هذه المجتمعات. لهذا فإن المجتمعات التي استفادت من درس الجوائح هي تلك التي سجلت أكبر درجة في سلم التقدم والتطور.

لذلك يمكن اعتبار الجوائح والأزمات نقطة مرجعية في التاريخ، لمقاربة أشكال التغير الاجتماعي ولنوعية التحولات التي عرفتها المجتمعات بعد اجتياز تداعياتها. بل إن قياس الفوارق التاريخية في النمو والتطور بين مختلف المجتمعات، قد يعزو في بعض أوجهه إلى الفروقات المميزة في التعامل مع الجوائح وفي طرق تجاوز تداعياتها.

لذا فإن اشتغال العلوم الاجتماعية على هذه القضايا، تنطلق من عدة أسئلة منها ما يبحث في استنطاق مجموع التصورات التي يكونها الناس بالجمع حول الجوائح، جراء ما تحدثه من وقع نفسي واجتماعي، وما يترتب عنه من هلع وخوف وقلق جماعي. كل ذلك، نتيجة الحصاد الذي تحدثه في الأرواح، وكأنها طاحونة بشرية تسلب الحياة من كل صغير وكبير في المجتمع بدون تميز في الجنس أو اللون أو المال أو الجاه أو المرتبة الاجتماعية.. وتجعلهم في ذلك سواسية بدون

¹ نشير هنا بالخصوص الى أطروحة محمد الأمين البزاز في القرن 18 وبداية القرن 19 وأطروحة الحسين بولقطيب في عهد الموحدين واطروحة بوجعة رويان خلال الفترة ما بين 1912 - 1945.

تصنيف... وتظهر بذلك وكأنها تدعو المجتمع ليعيد التفكير في ذاته وبذاته ويقوم بترتيب أبنيته الخاصة والعامة.

وهناك أسئلة تتوخى معرفة الطرق التي يشيد من خلالها المجتمع تصوره للجائحة، وفي الكيفية التي يتشكل بها هذا التصور ليصبح " منظورا مجتمعيًا". وأسئلة أخرى تقف عند المستوى الفكري للمجتمع وما ينسج حوله من أنسجة ثقافية وأيديولوجية تؤطر فهم الناس وتهيكل تصوراتهم وتشيد مخيالهم الجمعي... في مقولات تتأطر معها سلوكات واختيارات الأفراد والجماعات.

كما نجد أسئلة تهدف رصد الكيفية التي عاش بها الناس الجوائح وكيف تقبلوها وتعايشوا معها؟ وماهي ردود الأفعال في كل الأقطار والمجتمعات؟ وماهي أنماط التحكم المجتمعي وطرق مقاومتها المجتمعية لهذه الجوائح؟ وأسئلة أخرى تقف عند قياس مستوى الوعي المجتمعي ورصيده في المعرفة بالجوائح والتساؤل حول بنيات العلم وطرق اشتغاله وعن هموم أطره من الباحثين..

إن مجمل هذه الأسئلة وغيرها تجعل من العلوم الاجتماعية ذات أهمية بالغة في تقريب صور العلاقة بين الجوائح عموما والمجتمع، وما يترتب عن هذه العلاقة من وقائع مجتمعية تستوجب استيعاب وفهم حيثياتها وملابساتها للتمكن من تجاوز أزماتها وتخطي تداعياتها.

من هذا المنطلق سنحاول في هذا المقال ملامسة أوجه هذه القضايا التي تطرحها الجوائح في علاقتها بالمجتمع، من خلال رصد بعض الوضعيات الاجتماعية التي نعيشها اليوم جراء الظرفية الخاصة التي نمر منها بعد تفشي جائحة فيروس كورونا "كوفيد-19" وما تطرحه علينا هذه الجائحة من أسئلة على مستوى البحث في العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا على الخصوص. إن هذا العلم مدعو اليوم أكثر من غيره ليقدم إجابات يرصد من خلالها ما لجائحة كورونا من وقع اجتماعي على الأفراد والمجتمع، وما ترتب عنها من حالات الملح والخوف والاضطراب الذي أحدثته هذه الجائحة في الواقع الاجتماعي لعموم المواطنين، ورصد تداعياتها التي مست السير العادي للحياة الاجتماعية جراء اعتماد أسلوب الحجر الصحي. هذا التدبير هو عملية يتوخى منها تطويق المرض والحد من انتشاره بين عموم الناس، عن طريق التقليل من الحركة الاجتماعية للأفراد، والحد من أشكال التفاعل الاجتماعي فيما بينهم.

1. مفهوم الجائحة : الدلالة والاستعمال

بعد الاكتساح السريع والمهول لفيروس كورونا وتفشيهِ في كل دول العالم، أعلنت منظمة الصحة العالمية أن فيروس كورونا كوفيد-19 انتقل من درجة وباء إلى درجة جائحة . ومنذ ذلك الحين أصبحت كل التوصيفات التي تقدم الفيروس تنعته تارة بالجائحة وتارة أخرى بالوباء، ما أضفى على هذين التوصيفين نوعا من الغموض المفاهيمي، سواء على مستوى الدلالة أو

الاستعمال، ما تعذرت معهما طرق فهم خصائص هذا الكائن المرعب، الذي أصبح يتعايش بين الناس ويفسد عليهم وجودهم الاجتماعي.

سنحاول أن نقف عند بعض المعاني التي تحملهما كل من لفظتي جائحة ووباء ورصد الدلالات التي تضيفهما معا على هذا الفيروس، والتفكير فيما يمكن أن تقدمه هذه الدلالات من عناصر للفهم السوسولوجي لهذا الكائن الخفي الذي يرعب العالم، وأربك كل حساباته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأدخلها في اللإيقنيات، وأصبح يقدم نفسه الخطر الجديد المهدد لكل العمليات المجتمعية.

من حيث اللغة، يستنتج ما أورده ابن منظور في كتابه لسان العرب أن كلمة جائحة من "الجوح بمعنى الاستئصال، ومُجْتُ الشيء وأجُوحُهُ أي استأصلته. والجوحة والجائحة: الشدة والنازلة العظيمة. والجائحة هي المصيبة... وقال ابن شميل: أصابتهم جائحة أي سنة شديدة اجتاحت أموالهم، فلم تدع لهم وجاحا، والوجاح بقية الشيء.. والجوح هو الهلاك (ابن منظور. 2008. ص 719).

أما من حيث الاصطلاح، فلفظ جائحة يعرف رواجاً واستعمالاً أكبر في مجال الفقه، وذلك بتعاريف مختلفة يلخصها الفقيه أبو الوليد ابن رشد الحفيد، في كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد، في قوله: "وأما ما أصاب من صنع الآدميين، فبعض أصحاب مالك رآه جائحة، وبعض لم يره جائحة، والذين رأوه جائحة انقسموا قسمين فبعضهم رأى منه جائحة ما كان غالباً كالجيش ولم يره ما كان بمغافصة (أي مفاجأة). (ابن رشد الحفيد أبو الوليد. 1995 ص: 1269- 1270).

أما لفظ الوباء فقد جاء في لسان العرب على أنه هو كل مرض عام. وجمعه أوبئة، ويقال هذه أرض وبلّة أي وبئة وخمة. واستؤبأ الأرض: استوخها ووجدتها وبئة. والقول وبئت الأرض توباً وبأ، أي كثرة الوباء بمعنى كثر مرضها. (ابن منظور. 2008 ص: 4751) ولذلك عرف الوباء بأنه كل مرض معدي، يعرف انتشاراً في عدد من البلدان أو في نقط جغرافية معينة ولو تعددت بؤر تفشيه. ولا يفهم من هذا المعنى أن كل مرض معدي هو وباء إلا إذا توفر فيه شرط الانتشار والتفشي مع وجود القدرة على إمكانية السيطرة والتحكم في المرض. ولهذا نجد أن علم الأوبئة يهتم بالأساس بدراسة الحالات الجماعية للعدوى، أي بالعدوى الجماعية وليس بالحالات الفردية للمرض، فالأمراض الوبائية هي في الأصل أمراض معدية تصيب الأعداد الكبيرة من البشر، ولا يفهم من ذلك أن كل الأمراض المعدية وبائية.

يحدد محمود عبد الجواد، في مقدمة ترجمته لكتاب الأوبئة والتاريخ، الأمراض الوبائية في سبعة أنواع تسببها الكائنات الحية الدقيقة، مثل البكتيريا كما في حالة الطاعون والجذام والكوليرا

والزهري، أو الفيروسات كما هي حالة الجدري والحمى الصفراء، أو الأوليات (برتوزوا) كما في حالة الملاريا. (شلدون واتس. 2010. ص:16).

يظهر من ذلك أن هناك خلط بين الوباء كتوصيف للأمراض بصيغة الجمع، والوباء بصيغة التخصيص. فكثير من الناس يعتبرون أن كل وباء يخلف عددا كثيرا من القتلى طاعونا، وهذا الخلط، كما يقول الحسين بولقطيب قد استمر في الكتابات المغربية الى حدود نهاية القرن 19 على الأقل. كما نجد ذلك عند ابن الخطيب (1313-1379) الذي استخدم مفهوم الوباء نتيجة للعدوى، وهو المفهوم الذي كان غائبا عن الكتابات الطبية الأوروبية في العصور الوسطى. (شلدون واتس. 2010. ص:31)

نستخلص من هذه المعاني أن هناك خلط بين نعت وباء وجائحة وهو خلط ناتج عن الصعوبة في التفريق بينهما، حيث أن المرض يبدأ وباء حينما يكون معديا ويعرف انتشارا موسعا مع وجود قدرة وإمكانية السيطرة عليه، أما حينما يصبح خارجا عن السيطرة ويبلغ شدته في الانتشار والتفشي بدون امتلاك القدرة على حصره وتطويقه، يصبح بذلك جائحة له خاصية تميزه وهي أنه: استثنائي، يأتي على كل شيء.. لا يحده أي شيء. هذه الخصائص تجعلنا نعتقد أن أبلغ لفظ يمكن أن ننتع به فيروس كورونا اليوم هو مفهوم الجائحة، بما يمكننا هذا المفهوم من تحديد سمات الاستئصال والهلاك والشدة وتعطيل كل شيء، ولا يحده أي شيء.. وهي السمات الأولية التي سنعتمدها في تحديد هوية هذا الكائن الخفي الذي لا ندركه الا بخصائص بيولوجية ومخبرية دون تحديدات "فيزيولوجية ملموسة".

وهذه السمات / التحديدات ستقربنا من استيعاب قوة انتشار الفيروس، وكيف أصبح خارجا عن السيطرة؟ ويمتلك القدرة على الاختراق وعبور القارات، ويقدم نفسه على أنه الكائن الفيروسي العالمي (لكن لا نقول المعولم) والذي يدخل العالم، رغمًا عن أنفه اليوم، إلى مجتمع المخاطر العالمي، بلغة أولريش بيك، وإلى الأخطار التي يصعب إدراكها وتطول الجميع ولا يستطيع أحد أن يؤمن نفسه بشكل مناسب ضدها. (أولريش بيك. 2006. ص:30).

2. الجوائح وسؤال العلم

إذا سلمنا أن فيروس كورونا اليوم هو الخطر العالمي على المجتمعات، وأن له نفس القوة المدمرة للحرب بدون عتاد وأسلحة تقليدية، أو أنه الصدمة الكونية، أو ما يصطلح على تسميته علماء النفس الاجتماعي بالصدمة الحضارية، هل يمكن القول أن هذا الفيروس هو نتيجة طبيعية للتطور المهول الذي تعرفه الحياة المعاصرة، وما يرتبط بها من تعقد حضاري؟ أم أنه تعبير عن إخفاقات التقدم الذي يقول عنه ادغار موران أن فكرته كانت تبدو إلى عقود قليلة ماضية وكأنها القانون الجبار الناظم للتاريخ، وقد باتت تترك مكانها للايقين والمخاطر وصنوف

التحديات. (ادغار موران. 2012. ص:5) أم أننا أمام فيروس يضع العلم بمؤسساته وأطقمه وإطاراته في محك السؤال؟ أم أنه فيروس يعري مدى هشاشة العالم وحالة أبنيته ومقت أنانيته واستعلاء أنظمتها الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية التي تعتقد أنها لن تردع بأية قوة مهما عظمت؟ هل يستنكر علينا هذا الفيروس قمة التعالي والاستكبار الذي بات العالم يتبجح بها، ويفرض عليه بالمقابل الانحناء والتواضع؟ ألم يكشف هذا الكائن الفيروسي مدى ضعف حيلة المختبرات الطبية والبيولوجية والهندسة الدقيقة.. وعجزها إلى حدود الساعة عن اكتشاف دواء لعللة هذا الفيروس، وكأنها معطلة وموقوفة عن العمل؟ هل من سبيل لفك طلاسم ولغز هذا المحير العالمي؟ ألا يبدو في اللحظة الحالية ضرورة العودة إلى التاريخ كشرط ابستمولوجي، خاصة بالنسبة للباحثين في العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا على الخصوص، لرصد وقائع هذا الفيروس وتشخيص سماته في الواقع الاجتماعي؟

ألا يضعنا هذا الفيروس، مع العجز الحاصل في تصور ما ستؤول إليه الأوضاع أمام حقيقة غموض المستقبل، الذي لم نعد نملك عنه سوى سيناريوهات وليس تصورات، وأمام وضعية ما أسماه ألفين توفلير "بصدمة المستقبل"، وأنها صدمة علاجية جذيرة بأن تفتح العقول والقلوب إلى حقيقة العصر الذي نعيش فيه، وإلى طبيعة المشكلات التي تنتظر الإنسان في ظل الحركة المذهلة التي يدخل فيها الحاضر دخولا مفاجئا إلى المستقبل. (ألفين توفلير. 1990. ص:8) هذا المستقبل الذي أصبح له اسم آخر، كما يقول ادغار موران، هو اللاتيقين. (ادغار موران. 2012. ص:75) وينضاف معه فيروس كورونا إلى كل أنواع اللاتيقين الناجمة عن السرعة الفائقة، وعن تسارع السيروتات المعقدة والعشوائية التي شهدتها عصرنا الكوكبي، والتي ليس في مقدور الفكر الإنساني، ولا في مقدور حتى أقوى حاسوب، ولا أي مارد، كما قال بذلك لا بلاس، أن يتحكم فيها. (ادغار موران. 2012. ص:74).

ألا يدفعنا هذا الفيروس الضئيل من حيث الحجم والمدوي من حيث الوقع، أن نستشعر حجم المعاناة التي سببتها أصلا به من الجوائح في المجتمعات الماضية، مع وجود الفارق الحضاري والتقدم التكنولوجي؟ ألم تسبب جائحة إنفلونزا التي ضربت العالم سنة 1918،¹ والتي لم يستطع الأطباء والعلماء وقتئذ من تحديد أسبابها أو كيفية التعامل معها، على عكس ما هو عليه اليوم، فلم تكن هناك لقاحات فعالة أو عقاقير مضادة للفيروسات، في خسائر بشرية جسيمة، حيث أبادت عائلات بأكملها وتركت أعدادا لا حصر لها من الأرمال والأيتام في أعقابها، وتراكت

الجثث؟؟

¹ أشار تيرينس رينجر أن جائحة الإنفلونزا 1918 لا تصلح أن تكون موضوعا لأحد الانتصارات في تاريخ الطب، فلم يكن هناك أي علاج فعال متاح وقتها، وما زالت فيروسات الإنفلونزا تتحدى علم الطب حتى الآن. انظر مقالته بعنوان: جائحة الإنفلونزا.. أزمة مفهوم، منشورة ضمن كتاب جماعي من تأليف ديفيد ارنولد: الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، عالم المعرفة، ع 236، الكويت 1998. ص: 249.

انتهت الجائحة في صيف 1919، حيث كان مصير الأشخاص المصابين إما الموت أو تطوير مناعة ضد المرض، وبعد ما يقارب 90 عاماً أعلن الباحثون في عام 2008 عن اكتشافهم للسبب الذي جعل انفلونزا 1918 مميتة جداً. الأمر نفسه الذي حدث مع جائحة انفلونزا التي امتدت من 1957 الى 1958 وأسفرت عن مصرع مليونين من الناس في جميع أنحاء العالم.. وجائحة 1968 - 1969 التي أسفرت عن مصرع حوالي مليون شخص. كما أدت جائحة انفلونزا الخنازير H1N1 في الفترة الممتدة بين 2009 و 2010 إلى قتل 12 ألف من الناس.

هل تقدم الجوائح نفسها بهذه المعطيات على أنها القدر المحتوم على كل المجتمعات، يقوم بحصاد الأرواح ويسلب الحياة من النفوس بالآلاف والملايين، وبعدها يأتي العلم ويتدخل معلناً اكتشافه للدواء؟ وكأن تاريخ الجوائح هو تاريخ حرب وسلم على المجتمعات كما أشار الى ذلك برينو لا تور Bruno Latour في كتابه *Pasteur: guerres et paix des microbes*.

تركز الأبحاث التي تهتم بتاريخ العلل والأمراض خاصة تلك المصنفة في التاريخ البيولوجي ضمن الوبائيات، على أن الجائحة الوحيدة التي عرفت حضوراً قوياً ومكانة متميزة في أدبيات هذه الدراسات، كما في نصوص التاريخ القديم والحديث، هي مرض الطاعون. هذه الجائحة التي لم يسلم منها أي قطر من المجتمعات قديماً، وظلت في نصوص التاريخ العلمي الآفة الجوهريّة التي تقارن بها باقي الأزمات فيما بعد. من أشد الطواعين الذي تقف عندها جل الأدبيات هو الطاعون الذي أصاب أوروبا خلال القرن 14 الميلادي والذي أطلق عليه اسم " الموت الأسود" *Black Death*.

يشير شلدون واتس في كتابه الأوبئة والتاريخ أن بدايته كانت في صيف 1347م حين اعتلت الفئران والبراغيث المصابة بطاعون الدملي (الليمفاوي) متن السفن التجارية الجنوبية في كافا (ميناء - ت) على البحر الأسود... وبدأ ينتشر الطاعون جراء الملاحة البحرية عن طريق السفن ورسوها من ميناء إلى آخر على امتداد البحر الأبيض المتوسط. وبعد انتهاء سنة 1347 كان الوباء قد تفشى في كل المناطق الأوروبية.

بلغ عدد الوفيات في المناطق التي أصابها من أوروبا أكثر من ثلثي السكان، ووصل ثلاثة أرباع في فترة الطاعون. وتشير الإحصاءات (مع ندرة المعلومات بخصوصها) إلى أن ربع سكان أوروبا، أي حوالي 20 مليون نسمة قد ماتوا من الطاعون في ذروة الوباء. (الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني د.ت.ص: 25) وزيادة على ذلك قد يكون أدى إلى وفاة ثلاثة من عشرة من الأوروبيين.. ويظل هذا أسوأ كارثة لمرض وبائي في أوروبا منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية (شلدون واتس. 2010. ص: 65) وبحلول عام 1351 كان الوباء قد قضى على نحو نصف سكان أوروبا. وتذكر بعض المصادر أن عدد ضحايا الموت الأسود يقدر بـ 75 مليوناً إلى

200 مليون. وتسبب في تغيرات كبيرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وفي تغيير التركيبة السكانية في أوروبا.

أما أشد طاعون سجله التاريخ الإسلامي هو طاعون عمواس،¹ الذي حصد ما يقارب 25 ألف من الناس. يشير الحافظ في كتاب بدل الماعون في فضل الطاعون، أن بعد طاعون عمواس أقبل الناس على استقصاء الأحاديث المتعلقة بالطاعون لما يترتب عليها من أحكام شرعية، في جواز الخروج من البلد الذي يقع به الطاعون أو عدمه. (الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني د.ت.ص: 29) كما كان سببا في تصنيف كتب عديدة حوله.

بالنسبة للتاريخ المغربي فإن أهم طاعون حل بالمغرب الأقصى سجل خلال عصر الموحدين وبالضبط في سنة 571 هـ / 1175 م، كما أشار إلى ذلك الحسين بولقطيب في كتابه جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، وقد قال عنه ابن عذاري المراكشي: أن كل من خرج منها (أي مراكش) فارا بنفسه مات في الطريق"، وقد استمر هذا مدة عام. ويشير بعض المؤرخين أن عدد القتلى بلغ في اليوم الواحد 1700 نفس. (الحسين بولقطيب. 2002. ص: 52-53).

من جهة أخرى تحدث البزاز في دراسته القيمة عن الطاعون الذي مس المغرب في سنة 1742م، وكيف دخل إلى ربوع البلاد عن طريق التجار، وعرف انتشارا من طرف وحدات المقاتلين، سواء على طول محاور تنقلاتهم، أو بعد عودة أفرادها الموبوئين إلى مواطنهم. (محمد الأمين البزاز. 1992. ص: 55). وقد ساعد تفشي هذا الوباء الوضعية المزرية التي كان عليها المغرب وقتئذ جراء سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية، والتي أدت إلى أعمال النهب والتخريب وتفشي الخوف واشتداد الغلاء وانتشار الجوع. وبذلك امتد الوباء امتدادا جغرافيا واسعا ضاربا أهم مدن المغرب: فاس ومكناس وزرهورن ووازان.. وأن معظم هذه المدن خلت كلية من سكانها جراء موت الموبوئين وفرار من سلم منه من الناجين. وقد أورد محمد الأمين البزاز رواية محمد الضعيف تصف هذه الوضعية الكارثية في قوله: "كثر الموت وضاعت من الخلائق ما لا يحصى عددها، حتى قيل مات من أهل القصر 14000 بالطاعون". (محمد الأمين البزاز. 1992. ص: 56)

عرف هذا الوباء اختفاء في المغرب لمدة ثلاثة سنوات ثم عاد من جديد في منتصف سنة 1747م وبقي بين مد وجزر إلى غاية 1751م، حيث انطلق من المناطق التي كان خامدا بها في الجنوب، وأخذ تدريجيا في الامتداد إلى أن عم جميع البلاد. (محمد الأمين البزاز. 1992. ص: 57).

¹ سمي بطاعون عمواس نسبة إلى بلدة صغيرة في فلسطين بين الرملة وبيت المقدس. وهو الطاعون الذي مات جراء الإصابة به العديد من الصحابة: أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وسهيل بن عمرو وغيرهم،

تفيد وثيقتان أوردتهما محمد الأمين البزاز في أطروحته، الأولى مؤرخة في 7 يوليو تشير أن بفاس بلغ 160 إلى 170 ضحية في اليوم، ووثيقة أخرى مؤرخة في 9 يوليو تشير بأن العدد ارتفع في كل من مكناس وفاس إلى 300 و400 ضحية في اليوم (محمد الأمين البزاز. 1992. ص: 59). وقد لوحظ على أن هذا الوباء كان يعرف بين الفينة والأخرى فترة انحسار ثم عودة من جديد، لينتشر في باقي المدن مخلفا خسائر كبيرة في الأرواح.¹

يستنتج من هذه الومضات المختصرة من تاريخ الجوائح أن ظهورها لم يكن استثناء في تاريخ الأمم والشعوب، بل كان وجودها المادي موازيا للوجود الاجتماعي، ضمن سيورة من التفاعلات تحكمت فيها عدة عوامل بيئية وثقافية واجتماعية؛ كما أن مستوى الإدراك العلمي والمعرفي بمكونات جسم الجوائح كان متفاوتا بتفاوت مستوى العلم لدى هذه المجتمعات. لذلك فالدول التي ادخرت جهودها من الناحية المادية والعقلانية لامتلاك ناصية العلم خاصة المخبري أو المعلمي منه، حققت قفزة متميزة في تجاوز سلبيات حجم الخسائر التي أحدثتها الجوائح، خاصة على مستوى بنيتها الديموغرافية. فالجوائح ساوت بين الشعوب وسلبت منها على قدر من المساواة الأرواح والأنفس، لكنها بالمقابل ميزت بين من استفاد من درسها ومن ظل يقبع في ظلمات الجهل والتباكي على ما فقده من رصيد بشري.

يشير محمد الأمين البزاز أنه في الحقبة نفسها التي ضرب فيها الطاعون العالم استراحت القارة الأوربية من ويلات هذه الكوارث، وعرفت بالتالي تزايدا ديموغرافيا هاما ساعدها على انجاز ثوراتها الفلاحية والصناعية، كما ساعدها على التوسع الاستعماري، بينما بقي المغرب خاضعا للكواح المالتوسية التي كانت تستهلك رأسماله البشري وتساهم في تأخره. (محمد الأمين البزاز. 1992. ص: 12).

إن الشيء الذي ساعد أوروبا على تخطي كارثة الطاعون هو جعلها من المرض أحد المشاكل الكبرى التي يجب التغلب عليها حتى يؤمنوا سيادتهم على العالم، حيث عملوا على تطور علم الطب خاصة في علم الوبائيات والباتولوجيا (علم الأمراض) وعلم المناعة وعلم الأدوية (أو الصيدلة)، وما نتج عنها من اكتشافات للبكتيريا والميكروبات والفيروسات.. وهي الأسرار المكونة للجسم الجائحي المدمر للمجتمعات. وقد أدى ذلك إلى جعل من أوروبا العالم الأكثر أمانا وصحة من غيره. وهكذا أصبح المرض جزء من الإدانة الأوسع نطاق التي توجه إلى التخلف الافريقي والأسوي، فأصبح الطب، خاصة مع اكتشاف الميكروبات التي لها دور في الأمراض المعدية، يعطى إحساسا بالتفوق ودعم النزعة الامبريالية الاستعمارية لدى الأوروبيين، وفي ذلك ويشير مصطفى إبراهيم فهمي في مقدمة ترجمته لكتاب الطب الامبريالي أن مع هذا

¹ يشير البزاز أن الأرقام مقدمة بخصوص هذه الخسائر مفرطة وتتسم بنوع من المغالاة ولا يمكن القبول بها إلا على أساس أنها تعبر عن حدة الوباء. انظر ص: 59 من المرجع السابق.

التفوق وما تولد عنه من ثقة مفرطة طرحت الإدارة الاستعمارية مقولة : أنه ينبغي لأسباب إنسانية فرض الطب الغربي المتقدم على شعوب المستعمرات المتخلفة التي يرى الغرب أن فقرها وجهلها هما السبب الوحيد الذي جعلها تصبح مرتعا للأمراض وليس استغلالها واستنزاف ثرواتها (ارنولد دفييد .1998.ص:8).

لقد شكل الطب آلية من آليات التفوق التي اعتمدتها الدول الصناعية، وهي تتوجه إلى بسط سيطرتها على العالم غيرالصناعي، فقد احيط الطب الاستعماري باهتمام بالغ من قبل تلك الدول، وانعقدت بشأنه عدة مؤتمرات.. للنظر فيما كان يطفو بينها من نزاعات حول اقتسام العالم (بوجمعة رويان .2013.ص:109). وهكذا استعمل الطب كوسيلة لتسهيل التغلغل الاستعماري، وانصرف الأطباء إلى ملازمة القوات العسكرية؛ وانيطت بالفرق الصحية المتنقلة مهمة جمع المعلومات عن المناطق النائية، إذ تتلبث هذه الفرق بمناوح البوادي وتتقلب في الجهات، فتعود بتقارير تعج بما يفيد من الأخبار عن حالة الناس هناك (بوجمعة رويان .2013.ص:436). وكانوا يستعملون في ذلك آليات تقربهم من السكان ومعاينة مرضاهم تعتمد على توزيع لفائف الدواء وجعاب الأقراص وضادات الجراح وهي عملية كانت تكسبهم ثقة الناس ومحبتهم.

لقد كشف دخول الاستعمار إلى المغرب مدى هشاشة النسق الباتولوجي الذي كان يعيش عليه المجتمع قديما، وكيف كانت الأمراض تحصد أرواح الناس؟ وليس لهم من سبيل سوى ما كانت توفره ثقافتهم من أسباب يجدونها في التداوي بالأعشاب أو استعمال الرقي والتهايم أو ما يتناقله الناس فيما بينهم من الأمور العلاجية، أو اللجوء إلى الأضرحة والاستسلام للمرض. وقد لخص هذه الوضعية فايز جربير في كتابه الشهير: على عتبة المغرب الحديث، في مقولة أوردها بوجمعة رويان في أطروحته (بوجمعة رويان .2013.ص:111) يصف فيها الوضعية الوبائية بالمغرب في قوله: ..كانت أوبئة الطاعون والتيفوس والجذري تتسبب في مجازر دورية.(Weingerber (F). 1947.p :29)

يتساءل محررو كتاب "الطب الإمبريالي" (ارنولد دفييد .1998) وكلهم غربيون: هل كان الطب الغربي في المستعمرات حقا طباً عقلياً وإنسانياً كما يفترض كثيرا، وهل يعد حقا إحدى فوائد الامبريالية التي لا يمكن انكارها؟ ألا يمكن أن يكون هذا الطب في الحقيقة سلاحا آخر من بين ترسانة الأسلحة الأيديولوجية للحكم الأجنبي التي يستخدمها في محاولته للهيمنة؟ لمصلحة من استخدم هذا الطب؟ هل كان أساسا لمصلحة أفراد الإدارة الاستعمارية والجيش، أم لمصلحة شعوب المستعمرات، أم للإثنين معا؟

إن طرح هذه الأسئلة لا نتوخى منها تقديم إجابات حولها، فهي ليست موضوع هذه المقالة، بقدر ما تدعونا إلى توجيه البحث في سوسيولوجية الأطباء الكولونيين الذي أرى أنه مجال نحتاج فيه إلى مزيد من البحث والتنقيب، لاستكمال معرفتنا حول سوسيولوجية المجتمع المغربي.

3. الحجر الصحي والزمن الاجتماعي

تشكل اللحظة التي يعيشها العالم اليوم جراء اعتماد الحجر الصحي، وإعلانه كأحد التدابير الوقائية الأساس لمواجهة جائحة كورونا، فترة نقسم فيها نوعا من الشعور العالمي بالحدث التاريخي وبالوضعية المجتمعية نفسها، حيث يتساوى فيها كل أفراد العالم ويقتسمون معا نفس الشعور. وهي لحظة مجتمعية تجعلنا تساءل حول مدى حقيقة استشعار أفراد العالم بنفس الإحساس للانتماء للمجتمع الإنساني؟ وهل من معنى في هذه اللحظة أن نثير التساؤل حول انتماء الإنسانية الى نفس المجتمع؟ وما هي الدلالات التي تضيفها كلمة مجتمع الذي نعتقد، كما أشار إلى ذلك نوربرت إلياس، أن كل من يسمع هذه الكلمة يعرف معناها. متسائلا في كتابه مجتمع الأفراد عن ماذا تعني هذه الكلمة التي يسلمها كل جيل للجيل الذي يليه كقطعة من النقد يعرف قيمتها، ولكنه لم يعد بحاجة ليختبر مضامينها؟ أي كيان هو هذا المجتمع الذي نشكله كلنا سوية - في هذه اللحظة التاريخية - والذي لا يعرف أحدا منا ولا كلنا كيف يتشكل الآن، ومن أراحه وخطط له، والذي لا وجود له إلا بوجود أفراد كثر يعيشون في بوتقة واحدة؟ هل ما تقدمه اللحظة التاريخية من دلالات نجد معانيها بنفس الإحساسات عند الأفراد في كل المجتمعات؟ هل يعيش الناس حقيقة نفس الوضعية في زمن الحجر الصحي؟ كيف يستشعرون هذا الزمن بلحظاته التاريخية؟ وهل هناك وعي موحد للزمن كمفهوم وكسيرونة يتجلى فيها الوعي بالوجود الاجتماعي؟؟

لا ندعي اننا نملك كل العناصر التي تمكننا من تقديم إجابات عن هذه الأسئلة لكن نأمل أن تكون جسرا لبلوغ بعض الدلالات التي تحتزنها المعاني المشتركة ونحن نعيش سويا لحظات الحجر الصحي، وكيف يبدو عليها زمننا الاجتماعي في إيقاعاته وسيروته العامة والخاصة.

ارتبط ظهور أسلوب الحجر الصحي باكتشاف نظرية العدوى، التي كانت متداولة بين الأطباء قديما، والتي يتم تأكيدها والبرهنة عليها من خلال ملاحظة تفشي الوباء بسبب المخالطة المسببة للعدوى. إلا أن اعتماد أسلوب الحجر الصحي كنظام لم يخل من تفاوت في المجتمعات، ومن ردود فعل جلاء ما يقتضيه من تقييد بإجراءاته. فالعالم الإسلامي، باستثناء بلاد الأندلس، لم يسجل تطبيق هذا النظام، على الرغم من معرفة الطب العربي بالنظرية العامة للعدوى، وبأن

الأمراض تنتقل عن طريق المخالطة من شخص إلى آخر، في حين نجد المجتمعات الأوروبية¹، خاصة المدن الإيطالية، اعتمدت هذا النظام بإجراءاته دون معرفة القائمين عليه بالنظرية العامة للعدوى. يشير شلدون أن اعتماد نظام الحجر الصحي، خاصة في مدن إيطاليا، كان مرتبطا بتصور النخبة الحاكمة للصحة واعتبارها شأنها عاما. لهذا كانت تفرض إجراءات الحجر الصحي على الأكثرية من الطبقات الدنيا، وكانت هذه الإجراءات الصحية الجديدة تتعارض مع الأعراف والتقاليد الشعبية لدى الأغلبية، ونتيجة لهذا أطلق البعض على هذه الإجراءات القهرية مشروع التحكم والتدخل الاجتماعي.

لقد كشف اعتماد أسلوب الحجر الصحي ما تشكله الجوائح من أزمة في التصور الذهني عند عموم الأفراد على مختلف شرائحهم المجتمعية. فبقدر ما كانت تطرحه هذه الأزمة من تضارب في التفسيرات بين ما يتم ترويجه محليا بين عموم الناس والتفسيرات الطبية، فإن تلك التفسيرات كانت تلعب دور التكتيك النفسي الذي يعتمد عليه الناس في التعامل مع صدمة الجوائح. وفي هذا السياق أشار تيرينس رينجر في دراسته حول جائحة الإنفلونزا في روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حاليا)، أن الأفارقة يعتمدون على التكتيكات والتفسيرات المحلية بكامل مداها، في محاولة لأن يتعاملوا بأنفسهم مع الإنفلونزا، وبقدر ما كانت هذه التفسيرات المحلية مقنعة للكثيرين، إلا أن بعض الإفريقيين الذين توصلوا إلى الإحساس بأنه لا أحد منهم ولا من أصحاب الطب الغربي، لديه الكفاءة لأن يتعامل مع الإنفلونزا (تيرينس رينجر، 1998، ص: 249) وهذا الإحساس كان من وراء فرع الناس أمام إجراء العزل في الحجر الصحي، وكان المرضى يفعلون كل ما في استطاعتهم ليتفادوا إرسالهم إلى الحجر الصحي.

لقد شكل الحجر الصحي كأسلوب احترازي يتطلب التقيد بالإجراءات والضوابط الاحترازية المحددة بخصوصه، صدمة خلخلت الروتين الاعتيادي الذي يسير وفقه النظام التقني للحياة الاجتماعية، فالحجر الصحي يكسر هذا الروتين ويربك نظامه ضمن سيورة من العمليات الاجتماعية التي يعيش فيها الأفراد على إيقاع التدبير اليومي للزمن، بهواجس يعتريها الخوف والنفور وعدم الطمأنينة، بنفس المعنى الذي عبر عنه الشاعر والكاتب البرتغالي فرناندو بيسوا في كتابه اللاطمأنينة (فرناندو بيسوا، 2008). ؛ وجعل الحياة الاجتماعية للأفراد على اختلاف الطرق التي يعيشون بها في أزمة يخيم عليها الشعور بفقدان الهوية الاجتماعية والأرض، كما يقول بيرنو لاتور مشيرا أن هذا الشعور يسميه جلين ألبريخت بافتقاد «سولاستالجيا»²، على غرار «النوستالجيا» التي يعرفها الجميع.

¹ ظل الأوروبيون يستعملون أسلوب الحجر الصحي لمدة أكثر من أربعة قرون من عام 1450 إلى وقت اكتشاف ميكروب الطاعون عام 1864م.

² مصطلح اخترعه الفيلسوف الاسترالي غلينت ألبريشت في مقال نُشر له عام 2005، يصف فيه الكمد النفسي والوجودي الذي تسببه التغيرات البيئية.

إن السولاستالجيا Solastalgia التي يخلقها الحجر الصحي هي الشعور الجماعي للأفراد بحنينهم لوطنهم الذي لم يتركوه، إنها حنين للوطن في الوطن، وهذا هو التأثير العنيف للظرف الصحي والبيئي الراهن.. كما أنها سولاستالجيا مليئة بثقل زمني يبدل إيقاع الحياة الاجتماعية إلى سيرورة تثقل على الأفراد وجودهم الاجتماعي، وتغلق حدود علاقاتهم الاجتماعية وتقلص تفاعلهم الاجتماعي، وصاروا يحنون إلى زمن اجتماعي مليء بالانسيابية والامتداد، بحجم ما هي عليه علاقاتهم الاجتماعية من كثافة العمليات الاجتماعية وما يرتبط بها من تفاعل في الأدوار والوظائف. إنها لحظة الدعوة إلى إعادة النظر في واقعنا الاجتماعي وإعادة توقيت زمننا الاجتماعي.

تطرح علينا اللحظات التي نقضيها ونتقاسم فيها جميعا نفس الوضعيات داخل الحجر الصحي، تساؤلات حول دلالات الزمن وعن مفهوم الزمن الاجتماعي، وهل هو مقولة خاضعة لتأثير التصورات المكتسبة من الواقع (عمر علوط. 2017. ص: 197) ؟ أم هو زمن موضوعي منفصل عن وعينا يمكن اختباره وقياسه ماديا؟ أم هما معا؟

يطرح مفهوم الزمن في بعده السانكروني والدياكروني دلالات متعددة بتعدد المقاربات العلمية، فهناك الزمن الميكانيكي النيوتوني الأحادي البعد، وهناك الزمن الستاتيكي والزمن الديناميكي والوقتي والظرفي والزمن المرتبط بالأنشطة والأسواق والمواسم والفصول .. وكل تخصص يتناوله وفق منظور علمي خاص، فالسوسيولوجيا (خاصة الامبريقية) تلاحظ الظواهر الاجتماعية في الحاضر باعتبارها واقعا دون أخذ أثر مرور الزمن في التفاعلات الديناميكية لهذه الظواهر، والاتجاه النظري في السوسيولوجيا (خاصة سوسيولوجيا التغير) تبحث عن الوقائع في الماضي وما يخترنه من أفعال وتجارب، وتبحث عن نقطة مرجعية في التاريخ. مثلا إميل دوركايم (محمد إسماعيل قباري. د.ت. ص: 40-42) اعتبر الزمن جمعيا، وبوصفه الزمان اللانهائي المطلق، أي زمان كل إنسان وحضارة، وهو نفس المعنى الذي أعطاه مالك بن نبي¹ لمفهوم الحضارة باعتبارها حصيلة جمع بين الإنسان + وقت + تراب. وهناك الزمن الذاتي الذي هو انعكاس جزئي للزمن الجمعي، الذي ينتظم فيه جميع الظواهر الاجتماعية.

تبين هذه المعاني بجلاء بأن الزمن بقدر ما هو معاش ومحدد للوجود الاجتماعي، فهو إدراك وتمثل. وإدراكه المجتمعي يتم وفق سياقات اجتماعية ثقافية وعقدية واقتصادية. كما أن قياس الزمن الاجتماعي المعاش في لحظة الحجر الصحي والمقتسم عالميا لا يستقيم الا بالتمييز بين مجتمعين: مجتمع تقليدي (حتى لا نقول متخلف) لا زالت حياة الأفراد فيه تنصهر داخل بوتقة اجتماعية واحدة، يعترىها التشابه والبساطة والرتابة الاجتماعية، والزمن فيها كلا متجانسا. ومجتمع حديث (نقصد صناعي) تقوم فيه الحياة على وثيرة تفرضها سرعة الإيقاع، والزمن فيه يقوم على السرعة

¹ انظر كتبه التي تعالج مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، خاصة: وجهة العالم الإسلامي؛ كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي وكتاب شروط النهضة وكتاب مشكلة الثقافة..

والضبط والإنتاجية. وبالتالي فإن وقع الحجر الصحي سيكون أشد عند الأفراد في المجتمع الثاني، حيث احساس الفرد بأن الزمن الاجتماعي قد توقف يكون أكثر من غيره، بما يحسه من توقف وحرمان مما يمنحه واقعه الاجتماعي من ظروف وإمكانات تدور حولها اختياراته في الحياة، والتي يصعب معها التخلي عليها أو كبج جماع رغباته الذاتية.

4. جائحة كورونا والسؤال السوسولوجي

تسم الظرفية الحالية التي نجتازها جميعا بثقل هموم اللحظة وما يعتريها من أسئلة محيرة، أسئلة في الوجود الاجتماعي، في الاستمرار، في البقاء، في خيبات الأمل، في المصير، في قيمة الإنسان في حصيلته.. في الزمن ومآلاته في الغد والتزاماته.. في كل شيء. إنها أسئلة الحيرة الوجودية تعكس وضعية الارتباك الاجتماعي وما يتخلله من تصدع ولامبالاة..

حينما كتب برينو لا تور كتابه عن باستور (Bruno Latour, 2012)، بخلفية منهجية تقوم على التقييد لسوسولوجية المعرفة والعلم، خلص إلى أن الاكتشاف المبرر لهذا العالم البيولوجي للميكروب (1870م) لم يكن اكتشافا يهتم تخصصا علميا فقط، بقدر ما أنه اكتشاف ادخل كائنات جديدة لا مرئية في مكونات الجسم الاجتماعي. وأصبح لهذه الكائنات وجودا اجتماعيا فاعلا، ومشاركا في الوجود المادي للحياة الاجتماعية، وأن وجودها يخضع لعمليتي مد وجزر، تارة تظهر وتارة أخرى تختفي وفق سياقات خاصة.

ولذلك يمكن القول إن أبلغ نظرية سوسولوجية، تقربنا أكثر من فهم فعل الفيروسات والميكروبات وأصلابها من الجوائح، هي نظرية لاتور المسماة الفاعل والشبكة (Bruno Latour, 2014)، حيث أعطى لاتور للجوائح عموما وللفيروسات والميكروبات نعت الكائنات المدهشة التي تأتي لكسر اليقين المريح للوجود الاجتماعي، وكأنها بهذا الفعل تدعو المجتمع إلى شيء من الاعتراف. وهو اعتراف بوجودها الاجتماعي كفاعل يستمد قوته من درجة التفاعل بين الأفراد داخل المجتمع وقوة احتكاكهم الاجتماعي. لذا فإن اعتماد الحجر الصحي وما يتطلبه من إجراءات واحتراوات هو تأمين اجتماعي للأفراد من فعل الجوائح القائم على الاستئصال، والشدة والهلاك والإتيان على كل شيء... كما حددنا ذلك سابقا.

وبهذه المعاني هل يمكن اعتبار الجوائح وبالتحديد جائحة كورونا، واقعة اجتماعية بالمعنى الذي يعطيه إياها ابن خلدون: الواقعة الاجتماعية المتشخصة بذاتها؟ أم يمكن اعتبارها جزء من الظاهرة الاجتماعية التي جعل دوركايم من خصائصها أنها تمارس القسر والقهر على الأفراد؟ وهل يمكن للسوسولوجيا أن تفكر في الأشياء بدل تناول الظواهر الاجتماعية كأشياء؟ وبأي سؤال سوسولوجي نستطيع تحديد البعد الاجتماعي لجائحة كورونا؟ أليس ما يقدمه الباحث السوسولوجي، في أفضل الأحوال، سوى احتمالات محسوبة لظهور سلوكات وأحداث كما يقول

بيرنار لاير؟ (Lahire, B. 2016.p :58) . ألم يسبق لدوركهايم في كتابه قواعد المنهج أن طرح ما يجب على علم الاجتماع اتباعه ليكون علما ؟ وجعل ذلك مرتبط بمبدأ البحث عن السبب المحدد للواقعة الاجتماعية بين الوقائع السابقة، وليس بين حالات الوعي الفردي. وهو تفسير يضع البحث السوسيولوجي وما يطرحه من أسئلة أمام مطلبين : الأول يجب أن يكتسي التفسير شكل علاقة سببية. والثاني الامتناع عن البحث عن السبب التفسيري في علم النفس. أم أن المنهج الذي يسري على عالم الفيزياء وعالم الكيمياء يسري أيضا على عالم الفيزيولوجيا لأن "هدف العلم هو نفسه في كل مكان : معرفة الشروط المادية للظواهر" (جيرالد برونير و إيتين جيان. 2019.ص:49).

هل بهذا المعنى، على علم الاجتماع أن يستند إلى مبدأ الحتمية؟ كما يقول بذلك كل من برونير وجيان، أي على المسألة القائلة إن الوقائع التي يعالجها ترتبط فيما بينها بروابط ضرورية تمثل علاقات سببية (جيرالد برونير و إيتين جيان. 2019.ص:51). ألا تدفعنا ارهاصات اللحظة الحالية، على الأقل على مستوى التفكير والتنظير السوسيولوجي، أن نعيد النظر في المقولات النظرية لكل من الوظيفية والبنوية والماركسية.. والاتجاه الفردي؟ ألا يمكن أن نصح بأن ما تمت بلورته من مفاهيم داخل هذه الاتجاهات النظرية، يظل عاجزا أمام تفسير الوقع المدوي لهذا الفيروس على الحياة الاجتماعية وما يرتبط بها من عمليات؟ ألا يمكن أن نعترف ونحن تتساءل حول وقع جائحة كورونا على مستوى العالم أن ما نملكه من مقولات نظرية أصبحت عاجزة ومهترئة، وكأننا نرتدي أقمشة بالية خرقاء تعثرها ثقب كثيرة؟

ألا يمكن اعتبار أن نداءات الرجوع والعودة إلى مفهوم المجتمع بصيغة الجمع وإحياء وتقوية كل أشكال التضامن والتآزر، وتعزيز دور المؤسسات وتقوية الثقة بين الأفراد والجماعات.. هو إقرار صريح أو ضمني بمقولات الوظيفيين ومن سار في فلكهم؟ ألا يمكن اعتبار العودة إلى دراسة العلاقات الاجتماعية بوصفها علاقات بين ذوات، تسعى إلى تحقيق الاعتراف المتبادل، من خلال ما يسميه أكسيل هونيث Axel Honneth (أكسيل هونيث. 2012.ص:6) بالتداوت (أو البينذاتية) intersubjectivity والذي تحتجبه حياة الناس اليوم؟ هل يمكن أن نفكر بعد جائحة كورونا في مجتمع جديد قوامه توافق الإنسان مع وسطه ومحيطه الكوني؟ أم أننا في حاجة، كما يقول ألان تورين إلى نظام اجتماعي وأخلاقي كذاك الذي يسميه جان إزار Jean Ehrard " حلم القرن الكبير": حلم بإنسانية متصالحة مع نفسها، ومع العالم وتتوافق تلقائيا مع نظام الكون؟(ألان تورين. 1997.ص:33)

أم أننا في حاجة إلى مجتمع يكون فيه الأفراد رحماء فيما بينهم وصادقين مع بعضهم ويتمتعون بعواطف ووجدان، وليس فقط على كل أنواع المهارات والمعارف كما يدعو إلى ذلك توفلر؟

كيف يمكن أن نبني مجتمعا يمتلك قدرات التعامل مع الأزمات والجوائح وتدير فتراتها؟ ماهي حدود مساهمة الفاعلين في تعزيز المستوى التدييري للجوائح، من خلال رصد مختلف التدخلات المسجلة لأهم الفاعلين المباشرين وغير المباشرين في إدارة أزمة جائحة كورونا؟ ماهي عناصر ثقافة تدير الجوائح التي يجب تكريسها مجتمعيًا؟

ماهي مظاهر التغير الاجتماعي لجائحة كورونا على مستوى الأسرة والمجتمع والعلاقات البينية؟ كيف يمكن أن نرصد مظاهر التحول المجتمعي بعد تجاوز جائحة كورونا؟ هل يمكن أن نتحدث عن مجتمع آخر بعد جائحة كورونا؟ ماهي مظاهره؟ ماهي أوجه التغير الاجتماعية التي سيعرفها؟

هي أسئلة من بين أخرى متعددة تصاغ الآن في المخبر السوسيولوجي (إثارتها هنا ليس بنية الإجابة عنها في هذا المقال) وتحتاج إلى إجابات تأمل أن تكون جائحة كورونا بداية اشتغال السوسيولوجيين واشراكهم في الإجابة عما تطرحه مجتمعاتهم المحلية من أسئلة وقضايا.

على سبيل الختم

تشكل مجمل القضايا التي حاولنا معالجتها في هذا المقال مدخلا تمهيدا لفهم الوقع الاجتماعي للجوائح، ورصد مختلف التداعيات وأشكال التعامل المجتمعي مع ما يهدد الحياة الاجتماعية عامة. ولا ندعي من خلال ما أثراه من أسئلة قد استوفت بالجملة كل الأسئلة السوسيولوجية حول الموضوع، بقدر ما نعتبرها أسئلة أولية في فهم البعد الاجتماعي للجوائح عموما، وجائحة كورونا على الخصوص. وبذلك يتعذر علينا القول بخاتمة الموضوع، فالوضعيات المعاشة لا زالت لم تستقر بعد، وبالتالي فأني تحليل سيكون محدودا بحدود ما يجري الآن من تطورات، كما أن أي تنظير لما آتت هذه الوضعية سيكون سابقا لأوانه.

لكن يمكن أن نقدم أهم الاستنتاجات التي خلصنا إليها بخصوص فهم طبيعة الجوائح ووقعها المجتمعي، نجملها في العناصر الآتية:

- إن الجوائح ليست استثناء في الوجود الاجتماعي للمجتمعات، بل هي من الوقائع الملائمة تاريخيا لكل المجتمعات؛

- إن الجوائح فرصة لإعادة تكريس القيم الاجتماعية بروح جديدة، خاصة تلك التي تتفاعل مع حدة الأوضاع وتضمن التماسك الاجتماعي، وتزيد من منسوب روح الوطنية وتعزز اللحمة الاجتماعية والتضامن والتعاون والعمل الجماعي؛

- أن اعتماد أسلوب الحجر الصحي هو تأمين مجتمعي للأفراد؛ وليس تقييدا، وحدا من حرياتهم في التنقل والخروج؛
- إن الاحتراز الصحي هي " قضية مجتمعية، تقع مسؤوليتها على الجميع دون استثناء؛
- إن الجوائح فرصة لإعادة النظر في أدوار المؤسسات وتعزيز مكانتها وحضورها المجتمعي؛
- إن الجوائح تدعو المجتمع إلى إعادة النظر في بنياته وأجهزته وأنماط علاقاته، وتشكيلها من جديد لتكون قائمة على الاعتراف المتبادل وعلى الإيجابية في الفعل والعمل؛
- أن جائحة كورونا ترسم معالم خريطة الطريق لما يجب أن يكون عليه النموذج التنموي المنشود.

المراجع

- ابن رشد الحفيد أبو الوليد. 1995. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، الطبع الأولى. ج 3.
- ابن منظور. 2008. لسان العرب، الكتاب منشور من طرف مكتبة النور، جزء 54 والجزء 11.
- ارنولد دفييد. 1998. الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، عالم المعرفة، ع 236، الكويت.
- أكسيل هونيت. 2012. التشيؤ دراسة في نظرية الاعتراف، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر.
- أولريش بيك. 2006. مجتمع المخاطر العالمي، بحثا عن الأمان المفقود، ترجمة علا عادل وآخرون، نشر المركز القومي للترجمة، الجزيرة، القاهرة.
- برونير جيرالد وجيان إيتين. 2019. الخطر السوسيولوجي في نقد خطاب الحتمية الاجتماعية، ترجمة حسن احجيج، مؤسسة الملك عبد العزيز، البيضاء.
- بوجعة رويان. 2013. الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب، 1912-1945، مطابع الرباط نت،
- بيسوا فرناندو. 2008. كتاب اللاتمانية، ترجمة المهدي أخريف، نشر المركز القومي للترجمة، القاهرة الطبعة الثانية
- تورين ألان. 1997. نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة،
- توفلير ألفين. 1990. صدمة المستقبل، المتغيرات في عام الغد، ترجمة محمد علي ناصف، نشر الجمعية المصرية لنشر المعرفة، ط2.
- تيرينس رينجز. 1998. جائحة الانفلونزا في روديسيا الجنوبية: أزمة مفهوم، صمن كتب جماعي الطب الامبريالي والمجتمع المحلي.
- جهاد سالم جريد الشرفات. 2013. ضمان جوائح الزروع والتار المبيعة في الفقه الاسلامي، دراسة مقارنة" مقال منشور ضمن المجلة الأردنية في الدراسات الاسلامية، المجلد التاسع، العدد 3.
- الحافظ احمد بن حجر العسقلاني. د. ت. بدل الماعون في فضل الطاعون، دار العاصمة الرياض
- الحسين بولقطيب. 2002. جوائح واوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح البيضاء،
- رحمة بورقية. 1991. الدولة والسلطة والمجتمع... دار الطليعة، بيروت- لبنان.

- شلدون واتس. 2010. الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة الامبريالية، ترجمة أحمد محمود عبد الجواد، مراجعة عماد صبحي، المركز القومي للترجمة، الجزيرة القاهرة.
- عمر علوط. 2017. المستقبل والدراسات المستقبلية في علم الاجتماع، مقال ضمن مجلة استشراف، الكتاب الثاني.
- محمد الأمين البزاز. 1992. تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط.
- موران ادغار. 2009. إلى أين يسير العالم؟ ترجمة أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان.
- موران ادغار. 2002. تربية المستقبل المعارف السبع الضرورية... ترجمة عزيز الأزرق وآخر دار توبقال للنشر، البيضاء.
- موران ادغار. 2012. هل نسير الى الهاوية؟ ترجمة عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق.

Bruno Latour, 2014. Changer de société, refaire de la sociologie, collection : Poches sciences.

Bruno Latour, 2012. Pasteur : guerres et paix des microbes, suivi de « Irréductions », collection : Poches sciences,

Lahire, B., 2016. pour la sociologie, et pour en finir avec prétendue "culture de l'excuse", la Découverte paris

Weingerber F., 1947. Au seuil du Maroc moderne, Rabat.

معيش الأسرة المغربية في فترة جائحة كورونا واثاره المستقبلية، ملاحظات أولية

ابراهيم حداوي

جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة

hamdaoui.brahim@gmail.com

ملخص

تعيش الإنسانية اليوم على وقع الوضع الوبائي الخطير الذي تسبب فيه مرض كوفيد-19 الذي فاجأ الجميع وأدى الى اختلالات طالت المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وحول العالم الى وضعية سجن كبير نتيجة الحجر الصحي. لقد جر الوباء المجتمعات الإنسانية الى حالة شبه شلل وفرض أوضاعا غير مألوفة امتد تأثيرها إلى وظائف المؤسسات الاجتماعية، وعلى رأسها الأسرة. لقد فرض الحجر على افراد الأسرة وضعا فيزيقيا جديدا وروابط وقيم جديدة، فكيف عاشت الأسر المغربية وضعية الحجر الصحي؟ وما هي ردود أفعال السلطات المحلية وباقي مؤسسات المجتمع على الوضع، خصوصا المجتمع المدني والسياسي والنخب؟ وما هو وضع المرأة والأطفال والمراهقين والمسنين داخل الأسرة في هذه الظرفية؟ وأخيرا ما هي الآثار والانعكاسات الاجتماعية للجائحة؟ تلك هي الأسئلة التي يحاول هذا المقال الإجابة عنها من خلال دراسة استطلاعية عن طريق المقابلات مع عيّنت قصدية تستهدف فئات مجتمعية مختلفة، وعن طريق متابعة مجريات الأحداث من خلال الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الوباء، المعيش الأسري، العنف، الحجر الصحي، الجندرية.

Résumé

Aujourd'hui, l'humanité vit sous l'emprise de la pandémie Covid-19 qui a suscité de surprenants bouleversements sur le plan économique, politique et social. Non seulement notre monde s'est plongé dans un état d'immobilité et s'est transformé en grande prison, mais il s'est trouvé, par la force de cette pandémie, dans une vraie paralysie. En effet, à cause de cette crise mondiale de santé, les sociétés humaines ont connu des perturbations de l'équilibre antérieur. Ainsi, des conditions inhabituelles ont été imposées à l'image du confinement qui a impacté les différentes fonctions des institutions sociales en particulier, la famille.

Comment donc vivent les familles marocaines cette situation de confinement ? Quelles sont les réactions et les mesures prises par les autorités et les autres institutions sociales notamment la société civile, politique et élitiste? Quelle est la situation familiale actuelle des femmes, des enfants et des personnes âgées durant cette période pandémique? Et quels en sont les effets au niveau social ? Telles sont les différentes questions auxquelles cet article essaie de répondre à

travers une étude exploratoire qui utilise le résultat des entrevues via les nouvelles technologies de communications et un suivi des événements via le vécu et les médias.

Mots-clés : *Pandémie, le vécu familial, la violence, le genre.*

انطلاقاً من الأزمة الصحية الخطيرة التي تسبب فيها مرض كوفيد-19 وما نتج عنها من خلخلة للأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، نتيجة التدابير الاحترازية التي اتخذتها السلطات وخاصة منها الحجر الصحي، يناقش هذا المقال وقع هذا الإجراء على وظائف المؤسسات الاجتماعية بصفة عامة و الأسرة بصفة خاصة. فكيف عاشت الأسر المغربية حالة الحجر الصحي؟ وما هي ردود أفعال السلطات المحلية وباقي مؤسسات المجتمع في هذه الظروف؛ خصوصاً المجتمع المدني والسياسي والنخب؟ وما هي الآثار والانعكاسات الاجتماعية للجائحة؟

يتعلق الأمر هنا بدراسة استطلاعية عن طريق المقابلات مع عينات قصدية تستهدف فئات مجتمعية مختلفة لمتابعة المعيش المجتمعي في زمن كورونا، وعن طريق متابعة مجريات الأحداث من خلال الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، رغم ظروف الحجر التي لا تسعف الباحث في العلوم الإنسانية للقيام بتحليل دقيق للمعطيات لانعدام الوسائل والإمكانات. سنحاول إذن رصد تأثير واقع التباعد الاجتماعي والسياسات العمومية على الفئات الاجتماعية المختلفة وخاصة المهشة، ومن بينها ذات الدخل المحدود وأصحاب المهن الحرة الذين توقفت نشاطاتهم بسبب الوضع الوبائي؛ خصوصاً المرتبطة أنشطتها بالقطاع الخاص أو المياومون "الطالب معاشو". هذه الفئات هي الأكثر تضرراً بفعل توقف أنشطتها أو تقليصها إلى حدود دنيا عكس ذوا الأنشطة المرتبطة بالقطاع العمومي والذين لم يتضرروا بشكل كبير على الأقل على المستوى المادي، لأن رواتبهم لم يطرأ عليها أي تغيير، اللهم ذلك الاقطاع النسبي للمساهمة في صندوق كورونا. سنقف أيضاً عند سياسات التضامن وأشكاله وفاعليه وطرائق تنظيمه. وسنحاول معرفة تصرفات الأسر إزاء توقف المنظومة التكوينية؛ خاصة المدرسة والجامعة وكيفية تعاملهم مع هذا الوضع الاستثنائي، وكيفية تجاوبهم مع إجراءات التعليم عن بعد من خلال المنصات الإلكترونية أو قنوات يوتيوب أو دروس الفضائيات والإذاعات المحلية. و سنسعى أيضاً إلى معرفة مستويات «استهلاكهم» للمنتج الثقافي الذي تحتويه الشاشات ووسائل التواصل الاجتماعي ومنصات الكتب الإلكترونية، كما لن نفوت فرصة متابعة الخطابات الإعلامية والسياسية للنخب العلمية والسياسية والمجتمع المدني.

1. الوضعية الجندرية أمام الوباء

قبل شهرين من كتابة هذا المقال، أي قبل الحجر الصحي، كان بإمكاننا الحديث عن التباعد الجسدي أو الاجتماعي بين أفراد الأسرة جراء انشغال الرجال والنساء في عملهم والأطفال

في مدارسهم؛ وبالتالي كانت فرص الالتقاء الأسري محدودة في الزمان والمكان. أما اليوم فإن وضع الحجر الصحي قلب الأوضاع وفرض تقاربا فيزيقيا غير معتاد داخل الأسرة وآخر افتراضيا عبر وسائط التواصل الاجتماعي مع بقية أفراد المجتمع. هذه " التغيرات المورفولوجية التي أصابت الأسر لم يكن من الممكن ألا تؤثر على هياكل، وأدوار أعضائها، والتي لم تعد مصالحهم مشتركة دوما.... ما أدى إلى إحداث دينامية جديدة بحيث عرفت العلاقات داخل وخارج الاسرة تعديلات كثيرة" (Addi Lahraoui,1999).

بداية ومن خلال المعطيات الإحصائية نسجل أن نسب الإصابة بالمرض أو الوفاة بسبب الجائحة قليلة ومنخفضة عند النساء مقارنة بالذكور. لكن على مستوى الحجر يلاحظ أن المعطيات حول العنف ضد المرأة في هذه الأيام، رغم انعدام الأرقام لعدم إمكانية التبليغ، تسجل نوعا من الارتفاع خاصة منه العنف الالكتروني.

إن إغلاق محلات التجميل والحلاقة قلل من فرص اهتمام النساء بأجسادهن، كما أن الفتيات اللواتي يدخن أو يتعاطين للمخدرات دون علم أسرهن يجدن صعوبات كبيرة في تلبية حاجياتهن. إلى جانب ذلك نلاحظ، خصوصا على مستوى الطبقة المتوسطة، عودة المرأة إلى الأدوار التقليدية التي تخلصت منها جزئيا وذلك برجعها إلى المطبخ، بعدما كانت تستعين بالمطاعم أو الجاهز خارج البيت، وبالتالي نسجل بأن المطبخ هو المساحة الأكثر نسائية داخل الأسرة في زمن الوباء.

تجرنا الملاحظات السابقة إلى السؤال عن انعكاسات الأزمة الوبائية على الوضعية الاقتصادية للمرأة؟ نسجل بداية أن المرأة مهددة أكثر من الرجل بالبطالة، نظرا لاشتغالها في قطاعات تستقطب النساء أكثر من الرجال، وبذلك فهذه الفئة الأكثر هشاشة خاصة وأن الوضعية الحالية أيقظت النظرة النمطية تجاهها وإرادة حشرها في المطبخ، كما تمت الإشارة إلى ذلك، غير أن هذا لم يمنع بعضهن من إبراز قدراتهن التدبيرية.

تعيش الفتيات معاناة أكبر خصوصا مع ذكورية بعض الأسر، إذ يجدن أنفسهن في مواجهة مع الأب والأخ. وقد عبر عدد من الفتيات خلال الاستماع لمعاناتهن عبر مجموعة الواتساب - أنشأتها رفقة الدكتور عبد العزيز أوروحو أخصائي كلينيكي- عن عدم قدرتهن العيش مع الأسرة لكثرة الضغوطات؛ خصوصا الفتيات اللواتي يتعاطين للسجائر والمخدرات. هذا يحصل في غياب حماية قانونية فعالة سواء قبل أو بعد كورونا، لأن الأسر المغربية نادرا ما تبلغ عن حالات العنف الأسري. "في الوقت الذي تكون فيه الهيمنة والسلطة بيد الذكور والذكور فقط، فإن من تقع على عاتقهم مهمة حماية وضون شرف العائلة أو العشيرة ومنعه من السقوط بيد الأعداء هم ذكور أيضا (Bourdieu P2001)". فالآباء تبعاً لذلك يسمحون للأبناء الذكور

باللعب والتسلية ويتساهلون في مواقيت الاستيقاظ والنوم والاعفاء من المساهمة في الاعمال المنزلية وفي اختيار الأصدقاء والصديقات ... لا يسمحون إلا بهامش صغير جدا للإناث إلا إذا كن تحت أعينهم بمعنى أن الثقة في المرأة غير متوفرة بشكل كبير، وهناك اعتقاد أنها ستأذى إذا أتيحت لها الفرصة لذلك. فالآباء لا يتساهلون مع المرأة، في الوقت الذي يتم فيه التساهل مع الذكور؛ مما يعني تقييد الجسد الأنثوي بكثير من المحرمات والطبوهات. ونلمس أيضا تشددا مبالغا فيه أحيانا مع الإناث مقارنة مع الذكور أي هناك تأرجح بين التعامل العصري والتقليدي بين الذكور والإناث.

2. الأسرة والحجر الصحي

إن حجم البيانات الاجتماعية في مختلف أنحاء العالم تقلص بشكل كبير بسبب إجراءات التباعد والحجر الصحي، وانحصرت الأسرة في مجموعة أفراد تربطهم روابط دموية أو غيرها، ويتفاعلون في إطار علاقات زوجية، ووالدية مكونين وحدة اجتماعية تتميز بخصائص معينة. هذا التغير غير معه الأدوار، والبنيات التي تتجه قطبيا نحو الفردانية بفعل العولمة، وتغيرت مكانة المرأة، وهو ما أفقد التماسك والترابط على مستوى العلاقات داخل المجتمع (هشاشة الروابط، وتسليع القيم). فأصبح إدراك أعضاء الأسرة لبعضهم يتوقف على طريقة التواصل، ونوعية التفاعل بينهم، وهو ما عقد، وصعب تبادل المعلومات، والتواصل داخل الجماعة "تعدد شبكة التخاطب، والاتصال، واختزاله في اتجاه واحد، وفرض قيود تجعل هذا التواصل مصدر تهديد. مما يشوه المعلومات، ويخلق سوء الفهم، والعداء المتبادل بين الأعضاء (شحاتة عيد المنعم، 2002)".

لقد تولد عن هذا الوضع عنف بين الأصول والفروع وبين الإخوة، أو عنفا من الصنف الثاني عندما يتعلق الأمر بالعنف المتبادل بين الأبوين في حضور الأبناء مما يؤثر على التوازن النفسي والاجتماعي للأطفال ويخلق ازِمات نفسية يمكن أن تستمر لمدة طويلة حتى بعد الحجر (Josse E. 2020).

إن فهم، وتفسير العنف داخل الأسرة، وتطبيعها في سلوك الأطفال يمكن أن يتم من خلال تتبع ممارسات العنف، وعدوانية الكبار في مجتمع كان في الماضي رمزا للاستقرار، والتلاحم، والتضامن، والترابط، والتحلي بالقيم الإنسانية النبيلة (من حشمة ووقار، ومكانة، وخولة، ورجولة، وكان الكبار فيه سواء بالعلم أو السن، يعدون مراجع للسلوك التي نفتقدها اليوم...). يمكن إذن إرجاع العنف الذي يعرفه المجتمع، والذي لا تكاد تخلو منه يوميا وسائل الإعلام المكتوبة، والمرئية، والمسموعة، والمنابر الإعلامية الى تراخي الرابط الاجتماعي الذي يربط الفرد

بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية من جهة، وفقدان الثقة والعداء من جهة أخرى، ويتم التعبير عنها في أحيان كثيرة بقيم رمزية.

ولعل هذه الأمور وغيرها، تعتبر من عوامل الخطر التي تفسر الارتفاع المخيف والمدهش لحالات العنف، في المجتمع المغربي من مختلف فئاته ومؤسساته. ويمكن الرجوع إلى الإحصائيات الرسمية، رغم ما يشوبها من اختلالات، للاطلاع على معدلات ارتفاع وتيرة الانتحار، والقتل، والسرقة، والضرب والجرح داخل الأسرة وخارجها، وفي الفضاءات العامة.

على مستوى السكن "نلاحظ ان المساحة المخصصة لسكن الأسرة تقلصت بشكل كبير خصوصا مع ما يعرف بالسكن الاقتصادي وفي الاوساط الشبه حضرية (إبراهيم حمداوي 2017)". إن الطبقات الاجتماعية الهشة والمتوسطة تتقاسم شققاً لا تتجاوز في الغالب غرفتين ومطبخ وصالون وحمام ومساحتها بين 50م² و 70م² في العموم. أمام ضيق السكن وفقر الحركة والطاقة المفرطة التي تميز الأطفال أصبحت الأسر أمام صعوبة التحكم في سلوكات أبنائهم، خصوصا أمام فارق السن و تقلب الوضعيات الأسرية ارتباطا بطبيعة عمل رب الأسرة. لقد تهاوت المكانة المادية لكثير من الأسر مع فقدان الشغل وعدم كفاية التعويضات المخصصة من طرف صندوق كورونا، بالمقابل ظهر أثرياء جدد استفادوا من الأزمة.

3. الطفل بين الاسرة والوضع الوبائي

يمكن القول من الناحية العددية أن نسبة الأطفال داخل الأسرة (Josse E. 2020) ، هي الأكثر ارتفاعا والأكثر تضررا بالحجر الصحي، والسبب في ذلك هو ان الجائحة فاجأت الجميع، مؤسسات وأفراد. إذ لم يكن أحد على جاهزية تامة لمواجهة هذا الوضع مما زاد الحالة تأزما؛ خصوصا أن هذه الفئة كانت تعاني قبل الحجر الصحي و تواجه صعوبات تتعلق بالتعاطي للمخدرات، والعنف المدرسي، والعنف في الملاعب الرياضية، والانتحار وغيرها. هذه المشاكل تضاعفت خلال هذه الفترة على المستوى العلائقي خصوصا عند الأطفال من أسر أحادية الأبوين (من أمهات عازبات أو الذين يعيشون مع أحد الأبوين إثر الانفصال أو الطلاق). إضافة إلى ذلك برزت مشاكل جديدة لم تكن معروفة من قبل كالجولوس في البيت طيلة اليوم وطيلة الشهر أو أكثر بحسب تطورات الوضع الوبائي.

على صعيد آخر، نسجل صعوبات كبيرة تواجه الأطفال ذوو الحاجات الخاصة؛ خصوصا أولئك الذين يتابعون علاجاتهم داخل مؤسسات خاصة، لعدم توفر الإمكانيات والمعرفة الضرورية لدى الأسر للاستجابة لحاجياتهم.

أما بالنسبة للأطفال خارج مؤسسة الزواج فيعانون من تزايد الصعوبات، لأن المجتمع كان يعالج وضعيتهم قبل كورونا في مكوث الأم العازبة إما بإحدى المؤسسات أو عند بعض الأسر لكن الوضع الآن لا يسمح بذلك (Josse E. 2020).

كما أن الأطفال من أسر منفصلة ازدادت وضعيتهم تأزماً كما سبقت الإشارة إلى ذلك، خصوصاً أمام استحالة الزيارات وتطبيق إجراء فصل الطفل عن أحد أبويه أو كلاهما، وتأجيج الخلافات والصراعات بين الأزواج التي لم تكن في وضعية سليمة من ذي قبل. وتنضاف إلى هذه الفئات فئة الأطفال بدون مأوى والذين يتم إيوائهم جماعياً في مؤسسات معينة بدون مراعاة الاختلافات التي تميز بعضهم عن بعض مما يخلق مشاكل عدة للجميع (إبراهيم حمداوي 2017). إن وجود الأطفال في هذا الوضع يطرح مسألة حمايتهم، خصوصاً وأن المؤسسة لا تتوقف عن استقبال الأطفال، ومن المحتمل أن يكون الجدد منهم حاملين للفيروس، مع العلم أن إمكانيات المؤسسات محدودة لا تقوى على القيام بالعزل الصحي للوافدين الجدد ولا بالقيام بتحليلات طبية للتأكد من سلامتهم. أضف إلى ذلك أن بنية هذه المؤسسات لا تستطيع إجبار هؤلاء الأطفال المنحرفين أصلاً على المكوث والالتزام بالقوانين الداخلية للمؤسسة. بالرغم من ذلك نسجل مسألة إيجابية تتمثل في انخفاض استهلاك المخدرات نظراً لعدم توفر الإمكانيات النفسية والاجتماعية والمادية من جهة، وضبط الشوارع أمنياً مما قلل من فرص التوزيع لهذه المواد من جهة أخرى.

على مستوى آخر، يمكن أن نسجل أيضاً، ارتفاع إقبال الأطفال على الجنس الالكتروني، نظراً لكثرة مكوث الطفل لوحده أمام الانترنت وترويج بعض الفيديوهات أو الصور التلقائية لأطفال في وضعيات غير سليمة (الاستغلال الجنسي)، حيث ظهرت موضة تقاسم مقاطع فيديوهات لقاصرين وهم يقومون بسلوكات محفوفة بالمخاطر (جلسات خمرية أو جنسية). و نلاحظ على أرض الواقع، بالرغم من تدخلات المجتمع المدني، أن الاستغلال الجنسي للقاصرين لازال طابوها مسكوتاً عنه خصوصاً الأسري منه، ورغم أن المنظومة الحمائية مبنية على الإشعارات والتبليغ بالجرائم المنزلية فإنه لا يتم التبليغ عنها....

وارتباطاً بهذا الموضوع نسجل عدم تكافؤ التوزيع بين الجهات على مستوى الخدمات الصحية والإرشادية حيث تركز مختلف المؤسسات بالمدن الكبرى، أما الجهات النائية والمدن الصغرى أو القرى فهي تفتقد إلى هذا النوع من المؤسسات مما يعمق من أزمة الطفل والإنسان القروي والبعيد عن المركز بصفة عامة. هذا الوضع لا يسجل فقط بين الجهات، بل أيضاً بين الفئات الاجتماعية وبين القطاعات الخصوصية والعمومية. إذ يبدو القطاع الخصوصي أكثر تضرراً من نظيره العام.

4. الأشخاص المسنون في مهب ريح الجائحة

يتعرض المسنون في زمن الجائحة في المجتمعات المعاصرة للعديد من أشكال التمييز والتمييز من خلال منح الأسبقية في العلاج والحياة للبالغين والشباب والأطفال على حساب

المسنين، ما عرض هؤلاء لموت بأعداد قد تكون كثيرة في غياب الإحصائيات وذلك باعتبارهم عائلة على غيرهم (Josse E. 2020).

ففي مجتمع المخاطر إذن، يتحول الأشخاص المسنون إلى حطب للأزمات والجوائح، ويحكم عليهم بالإلغاء والموت. هذه حقيقة التراتبية العمرية المستوحاة من القيم الاقتصادية النيوليبرالية للمجتمع والتي تنتصر لصغار السن على حساب كبارهم. وهم في الواقع يتواطؤون مع الفئات النشيطة والمنتجة للثروة في مقابل تبخيس المرضى وذوو الحاجات الخاصة وكبار السن، وكل الذين توقف نفعهم في المجتمع.

يطرح الفرز الطبي في زمن الكورونا تساؤلات أخلاقية من قبيل التمييز ضد المسنين على مستوى العالم، والتخلص منهم مقارنة بالعناية بالشباب، وفق مقولة التخلي عن المسنين أولاً ثم عن غيرهم ثانياً. ففي الأزمات تظهر حقيقة النظرة المجتمعية لكبار السن، وضعف جدية الخطابات الدينية والسياسية المتداولة حول المسنين في الزمن العادي، زمن السلم، وعدم تفشي الأمراض والجوائح. وما أن تندلع المشكلات الطبية حتى تنكشف الرهانات الحقيقية للمجتمع إزاء المسنين.

ففي الدول الغربية:

- التخلص من المسنين لصالح حفظ حياة الشرائح النشيطة في المجتمع: الشباب والبالغين.
- التخلص منهم للتخفيف من عبئهم المالي والاجتماعي على الدولة والمجتمع.
- إضفاء الصبغة "الأخلاقية" على موت المسنين بالاحتكام للمعايير الاقتصادية: تبرير اللاأخلاقي بالمادي والطبي التقني: نقص المعدات اللوجيستكية.

وفي المغرب:

- المسن في الأسرة: يعاني المسنون غير المتقاعدين من مشكلة الفقر والهشاشة، وهو ما تضاعفت حدته بسبب احتباس دينامية الحياة الناجمة عن الحجر الصحي.
- المسن في دار المسنين: يعانون من عزلة مضاعفة، العزلة المؤسساتية الاعتيادية، والعزلة الناجمة عن الحجر الصحي.

5. الواقع الاستهلاكي في زمن الوباء

إن وضعية الأزمة طرحت مجموعة من التساؤلات عن حجم الجائحة ومدة الحجر الصحي ما انعكس على سلوك المجتمع المغربي وعلى بعض أفرادها بالخصوص. ففي الأيام الأولى من الحجر الصحي لوحظت مجموعة من السلوكات غير الأخلاقية "كاللهطة" والجشع في الإقبال على التبضع، خصوصاً على مواد التغذية والمنظفات والمناديل، لكن سرعان ما أدرك المجتمع أن السلع مؤمنة وأن أثمانها مضبوطة من طرف السلطات التي تراقب كل حين جودتها وأسعارها.

شهد السلوك الاستهلاكي الأسري تغيرات سريعة تماشيا مع الوضع الجديد، كانت بداياتها مع انطلاق الحجر الصحي. إذ تميزت هذه الفترة بالهلع والتهافت على المحلات لتأمين الغذاء والقوت نظرا لتضارب الأخبار على مستقبل الوضع بالرغم من تأكيد السلطات المعنية على تغطية الحاجيات الاجتماعية والاستهلاكية طيلة فترة الحجر.

إن هذا التهافت ليس خاصا بالمجتمع المغربي بل لوحظ حتى في الدول المتقدمة، في فرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول. إن الإقبال بهذا الشكل على المنتجات الغذائية زاد من نفقات الأسر الغذائية. في المقابل تراجعت النفقات الأخرى الخاصة بالتنقل والترفيه والصحة. على مستوى آخر، تراجع سلوك البذخ واكتفى المواطن بالحاجات الضرورية لأن غالبية استهلاكات التفاخر مرتبطة بالآخر وفي غيابها انتفت الحاجة إليها. كما برزت إلى السطح نفقات جديدة وتغيرت أولويات الاستهلاك والشراء. لقد بدأت ثقافة التحكم في الشراء تبرز إلى السطح أمام تراجع المداخل؛ خصوصا للأسر المرتبطة بقطاع الخدمات والقطاع الخاص.

كانت التجارة الإلكترونية في السابق تقتصر على شراء التذاكر بصفة كبيرة والرحلات والترفيه لكن أمام غياب إمكانيات السفر والتنقل تراجعت هذه التجارة لصالح بروز تجارة المعدات الإعلامية من هواتف وحواسيب نظرا لحاجات الأطفال المتدربين إليها والطلبة لتتبع دراساتهم عن بعد إضافة إلى تجارة مواد التجميل والحلاقة نظرا لعدم إمكانية القيام بذلك خارج البيت. وسجلنا، أيضا، تراجع نفقات الأكل والترفيه خارج البيت لغياب الخدمات والعودة إلى البيت وإلى الصناعات المنزلية وإلى اللمة الأسرية، وتراجع العادات الفردانية في الأكل التي فرضها في السابق تقسيم العمل وتفاوت أوقات العمل والدراسة.

أمام هذا التغير في فيزيونومية الإنفاق، ظهرت نفقات جديدة (المنظفات، المعقمات، أدوات التجميل، الأقنعة الواقية...). وأمام تغير المداخل لكثير من الأسر تأثر الادخار تأثرا كبيرا حيث ظهر الادخار الإجباري؛ خصوصا عند الأسر المرتبطتين بالقطاع العمومي الذين لم تتأثر مداخيلهم بشكل كبير مما أدى إلى الادخار الإجباري أمام تراجع النفقات الخارجية؛ خصوصا منها السفر والتنقل. عكس ذلك نجد أن عددا من الأسر التي تقلصت مداخيلها أو توقفت، تضطر إلى الأخذ من المدخرات السابقة إن وجدت أو الاستدانة من الأبنك أو الزملاء أو الأسرة. أما بخصوص مجال القطاع الموازي (المياومون) "الطالب معاشو" وهي الفئة الأكثر هشاشة فقد طفت وضعيتهم بشكل صارخ فوق السطح، وبالرغم من استفادة البعض منها من بعض الإعانة، خاصة أولئك الذين يتوفرون على بطاقة "راميد"¹، إلا أن الأغلبية لم تستفد، واكتفى البعض منها بما يوجد به المحسنين من قفف المعونات التي تغطي بالكاد أسبوعا واحدا، وهو ما عرى وضعية الهشاشة والفقر لدى فئات اجتماعية عريضة.

¹ نظام تغطية صحية استحدث سنة 2011، يمكن الساكنة المعوزة الغير القادرة على تحمل مصاريف العلاج من الحصول على تغطية صحية أساسية والاستفادة من مجانية العلاجات.

وقد رافق الحجر الصحي إختفاء العديد من العادات والطقوس الاجتماعية المرتبطة بالاستهلاك و التي يتعايش معها المغاربة من قبيل التجارة غير المهيكلية (بائعو العصير والحلويات والملابس التقليدية) و الأسواق الشعبية التي تكون منتعشة ومكتظة.

أما على مستوى استهلاك الوقود، نسجل انخفاضاً مهماً نظراً لتوقف الحركة، والإقبال على الهاتف والانترنت بوصفه جسر التواصل مع الأسرة البعيدة والمدرسة والعمل.

عموماً، يمكن القول إن ضبط الوضع الغذائي من طرف السلطات المحلية والتحكم في المضاربات وفي توزيع السلع والخدمات الغذائية، أدى إلى تراجع تدريجي في المقتنيات لدى أفراد المجتمع في ظل جمود القطاع السياحي والتراجع عن الطلب إلى جانب وفرة العرض نتيجة إغلاق الحدود أمام الصادرات مما حال دون ارتفاع الأثمان. لقد أبان الحجر الصحي على قدرة المنظومة الإنتاجية على الاستجابة للحاجيات بالرغم من سلوكات بعض المواطنين كباقي سكان العالم لعدم إحساسهم بالأمان الغذائي.

7. السلطة والإعلام والوباء

منذ اكتشاف أول إصابة بفيروس كوفيد-19 في الثاني من مارس 2020، وبالرغم من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الغير مواتية، سارعت السلطات المغربية إلى استباق الوضع باتخاذ تدابير مهمة حيث حاولت منذ البداية التمكن من زمام الأمور والتفرد في البروز في الميدان بإصدار مجموعة من القوانين المجرمة لنشر أي خبر زائف من شأنه زعزعة الأمن النفسي للمجتمع وعينت الجهات المخولة بإبلاغ المواطنين بكل المستجدات. بالموازاة مع ذلك قامت السلطات بتقليص الرحلات الدولية، لأن الوباء ليس محلياً، وأغلقت بشكل تدريجي الأماكن والفضاءات العامة من مقاهي وأسواق ومطاعم ومساجد وحمامات والمرافق الترفيهية، كما تم إلغاء المهرجانات والمقتنيات وفرض الحجر الصحي على المواطنين وتجريم كل مخالف لذلك بدون رخصة. ولتأمين هذه الإجراءات تم إنزال السلطات العمومية إلى الشارع من أجل ضبط المجتمع على جميع الأصعدة، والسهر على الاستقرار المادي والنفسي. وأدت السلطات دوراً مهماً في إيصال المعلومة إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، ونتيجة لذلك عادت الثقة إلى مؤسسات الدولة وعادت اللحمة الاجتماعية وتقوت العلاقات بين أفراد المجتمع والمؤسسات العمومية؛ خاصة الصحة والداخلية والتعليم. يظهر ذلك في جملة من المبادرات كإعداد مستشفيات عسكرية وأخرى عمومية وانخراط المؤسسات الخصوصية في العملية إلى جانب خلق صندوق كورونا لتأمين الجانب المادي للفئات المتضررة. بموازاة لذلك نسجل مساهمة بعض المحسنين وجمعيات المجتمع المدني لجمع وتوزيع التبرعات على الفئات الهشة.

لقد ساهمت وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي عن طريق تعويض الدروس الحضورية بالدروس الافتراضية سواء عبر شبكة الانترنت أو عبر بعض القنوات الإعلامية رغم بروز تفاوتات سواء بين الطبقات الاجتماعية أو بين الجهات؛ خصوصاً بين المجال

الحضري و المجال القروي حيث لم تستطع فئات معينة من مسارية الوضع الجديد لاعتبارات عدة (غياب التغطية الشاملة، غياب المعدات واللوجستيك من حواسب وهواتف وغياب الوعي الأسري على التحصيل الدراسي الافتراضي).

يمكن القول أن حالة الاحتقان وعدم الرضى الشبه-عام الذي ميز ما قبيل كورونا تراجعت، عموما، لفائدة ذهنية وتقديرات وسلوكات ومشاعر إيجابية أخرى، في مقدمتها سلوكات التضامن الوطني ومشاعر المشاركة الوجدانية . و ما ساعد على تعزيز هذه السلوكات و المشاعر تلك الإجراءات التي اتخذتها مؤسسات الدولة وتعامل السلطات العمومية مع هذه الكارثة. هذه الإجراءات بالرغم من نقائصها تتم عن الشعور بالمسؤولية و عن حد أدنى من الذكاء واليقظة وإدراك أهمية الاستباق العملي في مواجهة الملمات.

خاتمة

أردنا من خلال هذه المساهمة مساهمة مكانة العلوم الإنسانية ودور النخب في التعامل مع ما يعيشه العالم من تداعيات صحية ونفسية مؤثرة، ومن انعكاسات اجتماعية واقتصادية رهيبة نتيجة جائحة كوفيد-19. فغايتنا الكشف عن معالم تلك المكانة وعن مقومات ذلك الدور بخصوص أساليب التعامل مع تلك الجائحة، استطلاعاً وفهماً وتفسيراً وتدبيراً، من خلال استحضار جملة من الحقائق والوقائع التي تقعد منظومة العلوم. فإذا كان تفشي هذا الوباء قد كشف عن نقاط ضعف كبيرة في الاستجابة العالمية لمواجهته بالعلاج واللقاح اللازمين، فالأكيد أن الأوبئة المختلفة التي عرفها التاريخ البشري مثل الطاعون والموت الأسود والجذري والكوليرا والأنفلونزا الإسبانية وغيرها، قد غيرت مجرى العالم وحصدت أرواح الملايين من ساكنته، وأثرت في حضاراته وثقافته المتعاقبة... وهذا أمر يصدق على الوباء الحالي الذي عوّل العالم من جديد ليحوّله من قرية صغيرة إلى سجن كوني كبير بفعل العزل الصحي، وذلك في انتظار الخلاص بحدوث معجزة قريبة في مجال اكتشاف علاج منتظر أو صناعة لقاح مرتقب.

إن ما هو حاصل ويحصل، يعتبر بحق امتحاناً عسيراً لمنظومة العلم والعلماء، واختباراً صعباً لذكاء الإنسان وكفاءته، وزعزعة قوية لمنظومة القيم والنظام الاجتماعي. فليس من باب المبالغة القول إن الجائحة الحالية تشكل أشد صدمات عصر العولمة الحديث.

بناء على ذلك، يمكن استخلاص النقاط التالية:

- عندما نتابع جميعاً آثار الإجراءات الوقائية من حجر صحي وتباعد اجتماعي وما نتج عنهما من توقف لجل النشاطات الاقتصادية، نجد أن المستفيدين كانوا أولئك الذين يتمتعون بالحماية الاجتماعية وأكثرهم يشتغلون في القطاع العام. رغم كل ما نلاحظه من إجراءات لتعزيز التضامن

المجتمع، إلا أن كثيرا من فئات المجتمع تعيش معاناة استثنائية لم تحسب لها حسابا، ويبدو أننا أمام عنصرين متلازمين في تحليل معيش الاسر المغربية في زمن الكورونا وهما: فعالية المنظومة الصحية ومسألة الإنصاف بين الجهات والتغطية الاجتماعية لفائدي الشغل والعاطلين.

- إن دلالات الكلمات المستخدمة في الخطاب الطبي والإعلامي والسياسي من مثل: الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي، كانت لها آثار وتمثلات مخيفة عند الناس مما انعكس على الممارسات والعلاقات الاجتماعية، رغم ما يبدو من اعتيادها عند بعضهم. لقد أصبحنا مع «الحجر» أمام قواعد جديدة للحياة اليومية، فيها ما هو مصرح به وفيها ما هو مضر، فلا خروج ولا مصافحة ولا زيارات عائلية ولا حضور في الأفراح والأتراح. وظهر شكل جديد للأجساد ينقب فيها الوجه وتخفى اليدان عند الرجال والنساء على حدّ سواء، ناهيك عن انتفاء طقوس وداع ضحايا الكورونا حيث لا جنازة كما هو معهود ولا مواساة للأهل. أما جديد الزمن الإعلامي المحلي على الأقل، فهو رمزية وقداصة الساعة السادسة مساء، من حيث كونها لحظة تجريم المخالفين للحجر، ومن أراد أن يحافظ على إيقاع حياته المعتاد، أصبح في زمن الكورونا «منفلتا»، «مختلفا»، وربما «مجرما لا يحترم العرف والقانون الجديد وحياة الآخرين ، » فلمنفلتون» الذين نلاحظهم اليوم هم «العاديون» بالأمس.

- أفرزت جائحة كورونا فاعلين جدد، كانت لهم مكانتهم في المخيال الاجتماعي وتمثلات الناس لمهنتهم، لكنها تجددت وتعالّت مرتبتها في هرمية التمثلات الاجتماعية. لقد أصبحنا نقرأ ونسمع كلمات من مثل «الجيش الأبيض»، «المجاهدين»، «أصحاب الصفوف الأمامية» وغيرها، وأصبحت تقدم لهم التحايا، وترفع لهم القبعات. وعلى الرغم من تعذر إيجاد لقاح للوباء إلا أنه أصبحت للباحثين في علوم الصحة ومن حام حول حماهم من تقنيين ومهندسين مكانة «النجوم». لقد غزا مهنيو الصحة سوق التمثلات، وتجاوزوا أبطالا ونجوم سابقين سيطروا على السوق ردحا من الزمن (كالسوق الرياضية، والفنية والسياسية والإعلامية ،...). ويلهم أصحاب الوجة البيضاء من رجال التعليم ورجال السلطة واعوان البيئة، وقد غاب عن الساحة بشكل ملفت للنظر المؤسسات السياسية من أحزاب ونقابات ومجتمع مدني الذين كانوا يتسابقون في مناسبات مشابهة كالفيضانات والزلازل وغيرها على الحملات التحسيسية وجمع وتوزيع المساعدات...

- إن المرض والموت يعطي للخطاب الديني شرعية الهيمنة، لكن رغم ما نلاحظه من تزايد حضور الدين في خطابات الناس وبعض ممارساتهم، يبدو أن زمن «كوفيد-19» جعل من المعرفة الطبية اليوم هي المحدّد للمعارف الأخرى سواء كانت تقنية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فالطبيب هو الذي «يقول أولا» ثم تليه «الأقوال الأخرى». بل يتداول في الأوساط الافتراضية تهكم عن الرقاة والمتدينين بخصوصآرائهم حول المرض.

- يبدو أننا نعيش تجربة إنسانية جماعية مختلفة ومشتركة في نفس الوقت، فنحن بواسطة «الحجر» نشعر أننا نحمي أنفسنا ونحمي الآخرين، وأنا «نسجن» أنفسنا بوعي وإرادة أو بغيرهما، في أفق التحرر من سقم مخفي يهددنا، مما جعل الإنسانية تشترك في الإحساس بدرجات متفاوتة، بالمشارك الإنساني.

المراجع

- إبراهيم حداوي، 2015، "العنف في الوسط المدرسي" ضمن كتاب العنف في المدرسة المحيط والفاعلون سلسلة دفاتر البيداغوجي منشورات الاكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة تطوان .
- إبراهيم حداوي، 2017، الجريمة في المجتمع المغربي دراسة سوسيولوجية ، دار القلم ، 2، الرباط 2017
- إبراهيم حداوي، 2017، الأسرة والتغير القيمي دراسة علة ضوء العلاقات الاجتماعية والثقافية، دار القلم الرباط .
- أحمد لمحي و عبد الوهاب بن عجيبة، 2015، العنف في المدرسة والمحيط والفاعلون، منشورات الاكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة طنجة تطوان .
- رشيد بوعبيد، 2019 ، التربية الوالدية مقاربات وطروحات في سياق التحولات المجتمعية، الرباط نيت 2019
- شحاتة عيد المنعم، 2002، أنا، والأم، سيكولوجية العلاقات المتبادلة، القاهرة ايتراك للنشر، والتوزيع،
- كفافي علاء الدين، 2008 ، الارشاد الاسري، القاهرة دار المعرفة الجامعية.
- مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 2020، أزمة كورونا وانعكاساتها على علم الاجتماع والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، قطر
- مصطفى حجازي، 2001، التخلف الاجتماعي: مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ط 8.
- مكي عباس محمود، 2006 ، دينامية الاسرة في عصر العولمة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر
- مكي عباس محمود، 2007 ، دينامية الأسرة في عصر العولمة بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات، والنشر، والتوزيع.
- نوال باشا، 2015، السياسة الصحية في الجزائر: اقتراب سوسيولوجي للخدمة الصحية المقدمة لمريضات القصور الكلوي، تاقصيدج للدراسات والنشر والتوزيع الجزائر 2015

- Addi Lahraoui, 1999, les mutations ,de la société allégorisme famille et lieu social dans l'Algérie contenu porine ,paris ,la découverte
- Bourdieu P., 2001,Masculine domination, staud unevercity press.
- Josse E. 2020. Enfants et adolescents confinés, mode d'emploi. <http://www.resilience-psy.com/spip.php?article417>
- Josse E. 2020. Le deuil chez la personne âgée au temps du coronavirus. <http://www.resilience-psy.com/spip.php?article424>
- Josse E. 2020. Les enfants face au coronavirus. <http://www.resilience-psy.com/spip.php?article411>
- Josse E. 2020. Enfants et adolescents confinés, mode d'emploi , 21 mars 2020
- Ophélie Delarouzée, 2014, Les agressions sexuelles sont trop légèrement punies par la justice .magazine féministe belge Axelle N°167,
- Viviane ISAMBERT, 1970 « crise des sociétés crise de l'enseignement », sociologie de l'enseignement secondaire français, Paris PUF,

الآزمة الصحية والسلوكيات السيكولوجية

الآثار النفسية للحجر الصحي

نبيل عبد الصمد

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

prnabilabdessamad@gmail.com

ملخص

يعالج هذا المقال بعض الصعوبات النفسية المترتبة عن الحجر الصحي. ونستند في مقالنا هذا إلى نتائج بحث ميداني اتبعنا فيه مسلكا وصفيا لعينة تتكون من 53 شخصا طلبوا الاستشارة النفسية، وتتكون هذه العينة، في معظمها من أشخاص ينشطون بالوسط الجمعي، ومن الطلبة، فضلا عن عموم الناس الذين رغبوا في الاستفادة من خلية الاستماع التي أنشأتها كلية الآداب، جامعة ابن طفيل لمساندة ساكنة منطقة الغرب في التصدي لجائحة فيروس "كوفيد-19". وقد امتدت الدراسة لسبعة أسابيع (من 16 مارس إلى غاية 3 مايو 2020).

الكلمات المفتاحية: الحجر الصحي، اللاشعور الجمعي، القلق، الصعوبات النفسية، توتر العلاقات.

Résumé

Cet article traite des difficultés et des effets psychologiques du confinement. C'est une étude de terrain à caractère descriptif, portant un échantillon de 53 personnes. Ce sont principalement des personnes du milieu associatif, en plus d'un certain nombre d'étudiants et du grand public qui voulaient profiter de la cellule d'écoute mise en place par la FLSH de l'Université Ibn Tofail pour accompagner la population de la Région du Gharb face à la pandémie du virus "Covid 19". L'étude a duré sept semaines (du 16 mars au 3 mai 2020).

Mots-clés : Confinement, Inconscient collectif, Anxiété, Difficultés psychologiques, Relations tendues.

تقديم

تدخل جائحة فيروس كورونا المستجد في إطار الكوارث الكبرى، لما أصبحت تشكل من حالة وبائية دولية، يصعب مواجهتها بالإمكانات العادية لأية دولة كانت، بالإضافة إلى كونها أصبحت تشكل تهديدا حقيقيا للاقتصاد وتضرب في الصميم عيش الأفراد، وبالتالي فإن من نتائجها أيضا ظهور حالات من القلق والخوف بل والصدمة عند شريحة واسعة من الناس.

يؤكد طه عبد الحليم أن ضيق الوقت وكثرة وتناقض وغموض المعلومات في حالة الكارثة، غالبا ما يؤدي إلى ظهور ضغوط نفسية أو حالة من الصدمة، الشيء الذي تزداد حدته في ظل نقص الإدراك والوعي، والانزلاق وراء الشائعات والحملات الدعائية (طه 1992).

1. الجائحة واستفزاز الذكريات الكامنة في اللاشعور الجمعي

كيف يمكن تفسير المخاوف الكبيرة من هذه الجائحة؟

إن ما يبرر هذا السؤال، كون هذه المخاوف هي مخاوف مشتركة ومتشابهة بين عدد كبير من الأشخاص في كل المجتمعات. وهو ما يجعلنا نفترض، أن هناك خيطا ناظما بينها، يجعل الأمر يتكرر في كل المجتمعات البشرية بغض النظر عن تمايزها العرقي والثقافي والديني، بل ورغم التمايز بينها على المستوى التعليمي والاقتصادي. الأمر الذي يسمح لنا بالحديث هنا، عن بنية مشتركة سابقة عن أي تمايز حضاري، إذ نجد أنفسنا نغوص بعيدا في الرواسب النفسية للحضارة الإنسانية وصولا إلى ما يسمى بالمراحل البدائية. في هذا الصدد، يرى يونغ Carl Gustav Jung أنه كلما كانت الطبقات النفسية أعمق، فقدت خاصيتها الفردية لتصبح خاصية جماعية ثم خاصية عالمية مشتركة بين البشر جميعا (يونغ، 1953). عبر هذا التاريخ الطويل مرت الإنسانية بتجارب قاسية عديدة، من بينها الجائحات التي كادت تقضي على النوع البشري في عدة محطات. وهذه التجارب المروعة تركت "جروحا" عميقة في الوعي البشري ما فتئت تتعمق، من خلال تكرارها وكثرة المآسي التي كانت تخلفها، حتى صارت محفورة في اللاوعي الجمعي للبشرية جمعاء. يعتبر يونغ اللاشعور الجمعي هو المضامين الغير مكتسبة شخصا والتي تأتي من المعطيات الفطرية للعمل النفسي على العموم، وخاصة من البنية الموروثة للدماغ، إنه مخزن آثار الذكريات الكامنة التي ورثها الإنسان من ماضي أسلافه القدامى، حيث تتراكم تلك المخلفات عبر أجيال عديدة (يونغ، 1964). فيصبح لجميع الناس مثلا استعدادا للخوف من الزلازل والظلام والأفاعي.. وهذه المخاوف الكامنة في النفس البشرية، قد لا تظهر لدى الإنسان الحالي ما لم تثرها خبرات مماثلة.

هكذا، تطورت الحضارات البشرية وتعددت، لكن استمرار الجائحات لم يتوقف عن تدمير وإفناء قرى بل ومجتمعات بأسرها. كانت هذه التجارب في كل مرة تعيد فتح الجروح القديمة وتعمق المآسي، وبالتالي تقوي المخاوف، بل وتخلق نوعا من الحساسية اتجاه موضوع الجائحة لما يثيره من تحريك للمخاوف الدفينة. في هذا الصدد يعتبر يونغ (يونغ، 1995) أن إنكار وراثته هذه الخبرات القديمة البدائية يعني إنكار تطور العقل ووراثته.

2. الآثار النفسية الناتجة عن الحجر الصحي

لقد أحدثت هذه الجائحة وطريقة الإعلان عن الإجراءات المصاحبة لها، خاصة ما تعلق منها بالحجر الصحي، حالة من الصدمة عند كثير من الأشخاص، وأدى ذلك إلى ظهور مجموعة من الضغوط والأعراض النفسية عندهم، الشيء الذي أحدث خلا في التوازن النفسي والاجتماعي لشريحة عريضة من المواطنين.

يمكن أن نحمل الأعراض النفسية التي ظهرت عند أفراد المجموعة التي شملها البحث بعد الإعلان عن انتشار فيروس كورونا، ثم بعد ذلك الإعلان عن الحجر الصحي في المظاهر التالية: الشعور بالذعر، قلق بعد الصدمة، الاكتئاب، الإحساس بالتهديد، واضطراب النوم ومشاعر الذنب. كما ظهرت لدى بعض الأفراد من عينتنا، حالة من الجمود وزيادة اليقظة والحذر، مما جعل عددا من الأفراد المتصلين بخلية الدعم النفسي، يعبرون عن إحساسهم بالقلق والتوتر لأنفهم الأسباب. وتعد معظم هذه الأعراض أعراضا كلاسيكية لحالة الصدمة التي يمكن أن يتعرض لها الأفراد بشكل فردي أو جماعي، وهي أعراض تم تسجيل أغلبها خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من بداية الإعلان عن الحالات الأولى للإصابة بفيروس كوفيد-19 بالمغرب.

هذا وسنعرض فيما يلي إلى توزيع مجموعة البحث إلى ثلاثة أنواع من الأعراض وفقا للأوصاف التي عبروا عنها خلال حصص الاستماع التي أجريناها معهم. وقبل ذلك سنبدأ أولا بعرض لأهم المعطيات الوصفية التي تميز الأشخاص المتصلين لطلب المساعدة والمواكبة النفسية خلال فترة الحجر الصحي.

1.2. معطيات وصفية خاصة بالمجموعة البحثية

2. 1.1. توزيع العينة حسب الجنس

تشكل العينة في أغلبها (58,5%) من الإناث مقابل 41,5% من الذكور، وبالتالي فإن الفارق المحدود هنا بين الجنسين على مستوى الاتصال لطلب الاستشارة النفسية لا يمكن الاستناد إليه لجهة اعتبار أن المرأة هي أكثر حاجة أو طلبا للمساعدة النفسية من الرجل، بالنظر إلى أن الذكور قد عبروا بدورهم وبنسبة قريبة من نسبة الإناث، عن حاجتهم للاستماع والمساندة. الأمر الذي قد يعد عاديا بالنظر إلى تراجع تأثير المعطيات الثقافية الحاكمة لصورة الرجل، باعتباره كتما لأسراره وأحزانه، متعاليا عن إظهار الضعف والحاجة.

2. 1.2. توزيع العينة حسب كل من مكان العيش والمستوى التعليمي

يتشكل هؤلاء المبحوثين كليا من سكان المدن، كما أن أغلبهم (77,3%) هم من ذوي المستوى الجامعي، في الوقت الذي يغيب فيه المتصلون الغير متعلمين. نفترض أن الأمر قد يعود من جهة، إلى كون أن الطلب على الاستشارة النفسية والعلاج النفسي بصفة عامة، يتطلب قدرا معيناً من الانفتاح والوعي والفهم بآليات العمل النفسي والميكانيزمات النفسية. وهذا ما يتماشى أكثر مع طبيعة الحياة المدنية ومع التفكير المنطقي والنقدي للأشخاص من ذوي المستوى الجامعي. في الجهة المقابلة، نجد أن سكان البادية، لا يشعرون كثيرا بتأثير الحجر الصحي، لأنهم يعيشون ويتحركون أصلا في فضاء واسع ومساكن متباعدة عن بعضها البعض. ثم إن منظومة البادية المتميزة بالمحافظة، مازالت منغمسة بشكل كبير في المورث الثقافي الذي يتحكم في مفاصل

العلاقات والتمثلات، وبالتالي فإن المقاربة العلاجية هنا لا يمكن أن تكون منفصلة عن هذا المناخ الثقافي السائد.

2. 2. طبيعة القلق المعبر عنه خلال فترة الحجر الصحي

2. 2. 1. منحى القلق خلال فترة الحجر الصحي

سجلنا أن القلق والأعراض النفسية عموما كانت أكثر حضورا وقوة عند الأشخاص الذين تم الاستماع إليهم في بداية الحجر الصحي منه عند الذين اتصلوا بعد شهر ونصف من ذلك.

ما جعلنا نخرج بهذا الاستنتاج كون أن أغلب الأشخاص الذين طلبوا استشارة نفسية (52,8%) اتصلوا بنا في الأسبوعين الأولين من الحجر الصحي مقابل 30,2% في الأسبوعين المواليين و 13,2% في الأسبوعين اللذان يأتیان بعدهما ثم 3,8% فقط في الأسبوع الأخير. إن التراجع البين لنسب الأشخاص المتصلين لطلب الاستشارة، على امتداد فترة البحث (7 أسابيع)، تبين أن درجة القلق المرتفعة والتي كانت سببا في اتصال العديد من الناس للاستماع إلى حالاتهم وطلب المشورة للتخفيف من التوترات التي يشعرون بها، كانت تخف بشكل تدريجي ومضطرد مع الوقت. وهو ما يعني اتجاه الناس نحو تجاوز حالة الصدمة، وبداية دخولهم في فترة التأقلم مع الوضع والاعتیاد عليه.

يشكل هذا التدرج نحو العودة إلى التوازن صورة كلاسيكية لأي حالة صدمة قد تحدث للأفراد أو الجماعات، فنتحدث في البداية عن حالة من الارتباك والتخبط وفقدان السيطرة نتيجة لفيض الإثارة الناجم عن تدفق كم هائل من العواطف الدفينة. وهي عواطف تشكل انتكاسات طبيعية وميكانيزمات دفاعية تهيئ الفرد لاتخاذ تدابير استثنائية للدفاع عن الذات أو الأهل في وجه الأخطار التي تتهددهم. لكن بعد مرور وقت معين، يتم القيام باستنتاجات وتقييم للوضع، يتم في ضوئه تحديد السلوك المتبع. وقد تبين لنا، أن الاتجاه العام لتقييم المواطنين لوضع هذه الجائحة، بعد تجاوزهم حالة الصدمة، لم يكن كارثيا. أدى هذا إلى الشعور بنوع من الارتياح والقدرة على التحكم في الوضع، وهو الأمر الذي ساهم في تراجع درجة القلق لدى المواطنين وبالتالي تراجع طلبهم على المساعدة النفسية.

2.2.2. مستوى القلق المعبر عنه خلال فترة الحجر الصحي

تفاوت القلق بين الأفراد مسألة طبيعية، بحكم التفاوت الموجود بينهم على مستوى كل من البنية النفسية والمداخلات الحاکمة في تشكيل المواقف، إن على مستوى المعارف والتجارب حول موضوع الإثارة أو على مستوى قراءة الإثارة في حد ذاتها. فالمعارف والتجارب التي نحملها حول موضوع ما، تعطينا فكرة عن مدى أهمية هذا الموضوع وخطورته، وبالتالي تهيئنا لإتباع

طريقة معينة في التعامل معه، على خلفية برجة أولية لا شعورية، تعتمد في حالة الطوارئ، على اعتبار أن أصول القلق بالنسبة للفرد تعود إلى الطفولة الأولى، فحسب كل من رانك و فرونزي Rank, S. O و Ferenczi فإن التجربة النموذجية لأصل تكوين القلق تعود إلى القلق الناشئ عن الولادة (Rank, 1923) وهو تفسير كان فرويد ينتقد تداعياته الإكلينيكية بقوة، قبل أن يعود للاعتراف به في معرض إعادة صياغته لنظرة القلق سنة 1926. أما قراءة الموقف، فهي أكثر تعقيدا، بحيث تتدخل فيها عوامل أكثر تنوعا، تجمع بين الجانب المعرفي والنفسي بالإضافة إلى التجارب السابقة حول الموضوع أو المواضيع المشابهة.

و يميز فرويد بين نوعين من القلق :

- القلق التلقائي: الذي هو عبارة عن رد فعل الشخص في كل مرة يكون فيها في وضع صادم، يخضع فيه لتدفق إثارة، سواء من مصدر خارجي أو داخلي، ويكون غير قادر على التحكم فيها.

- إشارة القلق: الذي هو مصطلح قدمه فرويد للدلالة على وجود جهاز توظفه الأنا في مواجهة حالة الخطر، ولتفادي الانغماس في تدفق الإثارة. فتتكرر إشارة القلق بشكل يسمح بالتخفيف من القلق الذي سبق وأن حدث في البداية في موقف صادم، وهو ما يمكن، حسب فرويد، من إطلاق العمليات الدفاعية (Freud, 1926).

وبالتالي فإن التوظيف اللاشعوري لهذه الميكانيزمات الدفاعية هو ما يسمح بالتححر التدريجي من الضغوط وبالتالي تجاوز حالة الصدمة.

في ما يتعلق بالإجابة عن سؤال، ما هي درجة القلق الذي تشعر به، إذا طلبنا منك تحديد درجة معينة في ترتيب من عشر نقاط؟، أجاب 39,6% من أفراد مجموعة البحث أنهم يشعرون بقلق من مستوى 6 إلى أقل من 8 درجات، فيما عبر 60,4% أن مستوى القلق الذي يشعرون به، يتجاوز ثمانية درجات. تعود هذه النسب المرتفعة إلى أن أفراد العينة هم من بادر بالاتصال طلبا للمساعدة نتيجة لشعورهم بضيق وتوتر، وبالتالي فإن ارتفاع القلق لديهم هو مبرر الاتصال أصلا، لكننا لاحظنا أن كل الأشخاص الذين كانت لديهم سوابق نفسية مرضية تم رصدهم في التصنيف الثاني، أي أن إحساس القلق هو أكثر ارتفاعا عند ذوي السوابق المرضية منه عند غيرهم.

إن ارتفاع القلق بنسب كبيرة عند ذوي السوابق النفسية المرضية يعود إلى أن تصنيف القلق عادة عند هؤلاء الأشخاص لا يتم بشكل متوازن، وبالتالي كثيرا ما يجدون أنفسهم مغموين بكم هائل من الطاقة المتدفقة التي لا يعرفون سبيلا لتصريفها إلا من خلال أعرض مرضية. لذلك يتم دائما تقديم النصح لهم بالابتعاد، ما أمكن، عن مصادر التوتر.

3.2.2. مظاهر القلق المعبر عنها خلال فترة الحجر الصحي

إذا كنا قد سجلنا تفاوتاً في درجة ومنحنى القلق بين أفراد عينة البحث (كما هو مبين الفقرتين السابقتين)، فإن مظاهر هذا القلق هي أيضاً متفاوتة ومختلفة من شخص لآخر. فالقلق هو طاقة سلبية داخلية جامحة، بمعنى غير موجهة بشكل قصدي في اتجاه معين، فهي فيض إثارة خارج عن سياق المسار المعتاد. لكن في حالة الإثارة، نتيجة لخوف أو لغضب، فإن كمية كبيرة من الطاقة تتحرر محدثة وراءها حالة من الارتباك الكبير في النفسية والأفكار، ينعكس ذلك على مستوى السلوك الذي يأتي بدوره مرتبكاً. يخلق هذا الارتباك الخارج عن السيطرة، في حالة انهيار الميكانيزمات الدفاعية، حالات مرضية قد تأخذ أوجهاً مختلفة.

في الحالات التي بين أيدينا هنا، نلاحظ أن مظهرات هذا القلق جاءت موزعة على الشكل التالي:

- في المرتبة الرابعة، نجد حالات الذعر المصحوبة بضيق في التنفس بنسبة 13,2%، تلي هذه الفئة حالات اضطراب النوم بنسبة 15,1%، متبوعة بحالات سرعة الغضب والتوتر الشديد بنسبة 24,5%، أما في الصدارة فنجد حالات الوسواس القهري بنسبة 47,2% من مجموع هؤلاء المستجوبين. هذا ونشير إلى أننا نتحدث هنا عن الاضطرابات التي يتم تصنيفها في صدارة الأولويات عند المستجوبين. الارتفاع الكبير لأعراض الوسواس القهري تعود أساساً إلى أن محاربة فيروس كورونا تتطلب تتبعاً كبيراً على مستوى النظافة، وهو الأمر الذي تلح عليه جميع الجهات المعنية. وبالتالي فإن الأشخاص ذوي السوابق المرضية أو الميول المرضية لجهة الوسواس القهري، يجدون أنفسهم قد تضخمت مستويات الحالة لديهم، وبالتالي أصبحوا في وضع لا يطاق.

أما نسبة الحالات من ذوي سرعة الغضب والتوتر، والتي تأتي في المرتبة الثانية، فتعود في جزء منها إلى التغيرات التي مست قواعد العيش داخل الكثير من الأسر، ما أحدث خلافاً في القواعد المألوفة وأدى بالتالي إلى احتكاكات لا مناص منها. يأتي ذلك على صفيح ساخن من الإحباط والملل والخوف من الحاضر والمستقبل، ما يشعل النزاعات والتوترات لأتفه الأسباب. قد يصل ذلك أحياناً إلى حد لا يطاق. فالبيت الذي كان مكاناً للقاء والاستراحة وإعادة الانطلاق تجاه أماكن وأنشطة أخرى، أصبح مكاناً لا بديل عنه، وهو ما عرى عن هشاشة العلاقات داخل بعض الأسر، خاصة تلك التي حول أفراد منها البيت، مرغبين أو مختارين، إلى فندق رخيص لا يأوون إليه إلا عندما يأخذ النوم منهم مأخذاً ليغادروه في أول الصباح. لكن هذا الوضع لم يعد استثناءً في ضل الانتشار المتزايد للسكن غير اللائق الذي يقدم كبديل عن سكن آخر، هو أيضاً غير لائق، حيث تتواجد العديد من الأسر في مساحات من 60 متر مربع أو أقل من ذلك.

تواجد الأطفال في البيت، عقد بدوره من صعوبة الموقف عند كثير من الأسر، ففي غياب المدرسة، التي تبين أن دورها كبير في تقاسم عبء التربية مع الأسرة، تحول عدد من البيوت والإقامات السكنية إلى ملاعب تغمها الفوضى، لأن ساحة البيت، إن وجد بالبيت أصلا ساحة، أصبحت بديلا عن ساحة المدرسة، عن الحديقة وعن الملعب، وهو ما ساهم في الرفع من درجة التوتر وخلق كم هائلا من الضغوط المتنوعة التي تتراكم، لحد يصعب معه تصريفها بشكل عادي وسليم.

أما نسبة الحالات التي عبرت عن اضطراب في النوم (المرتبة الثالثة)، فتعود إلى أسباب متعددة منها : نقص الحركة مقارنة مع ما كان عليه الوضع سابقا، بالإضافة إلى الحالات التي تعاني من إرهاق نتيجة كثرة التفكير في فقدان العمل أو توقفه، ترقب مآل الحال بعد الحجر الصحي والتخوف من كساد الوضع بعد ذلك، ناهيك عن الحالات التي تفتقد إلى مدخرات وبالتالي تعرف عجزا كبيرا في تلبية المتطلبات اليومية. كل هذا يسبب ارتفاعا لحالات اضطراب النوم.

في المرتبة الرابعة، نجد فئة المستجوبين الذين عبروا عن إحساس بحالة من الذعر المصحوب بضيق في التنفس. والمثير للانتباه هنا، أن عددا من هؤلاء الأشخاص يعرفون أصلا أن حالتهم تعود إلى ضغوط نفسية. نتحدث هنا عن حالات سوماتيكية تعبر عن تحويل للضغوط النفسية إلى مستوى جسدي، فتصبح الآلام مجسدة وماموسة وبالتالي تتمظهر معالمها على المستوى الفيزيولوجي والحسي الحركي. هذا النوع من التعبير عن الانفعال النفسي نجده بكثرة في الحالات العصبية، لكنه يضل نسبيا أقل انتشارا مقارنة مع الاضطرابات التي أشرنا إليها سابقا، بحكم أنه يشكل حالة أكثر تقدما وتعددا مقارنة مع الحالات الأخرى.

التوتر يثير توترا مقابلا، فتتدحرج الأمور ككرة الثلج، حيث يصبح الوضع منفلتا وقدرات التحمل منهارة، فيحتاج الفرد إلى متابعة علاجية تهدف أساسا إلى ترميم الميكانيزمات الدفاعية، لتجعلها من جديد قادرة على صد تدفق الانفعالات القادمة وتصريفها بطريقة أكثر توازنا.

2. 3. الحجر الصحي ودوره في إثارة القلق وزيادة التوتر

قنا هنا برصد للعوامل التي يبدو أنها شكلت أسبابا مباشرة للقلق وزيادة التوتر عند الفئة المستهدفة، فتبين أنه يمكن تجميعها في الأسباب الثلاثة التالية:

- قلق بسبب الخوف من الموت أو فقد لعزير، وهو خوف تغذيه الأخبار المتداولة بشكل مكثف مع بث لصور الضحايا في الإذاعات الدولية ومواقع التواصل الاجتماعي، فيصبح التهديد واقعا مأموسا والخطر داهما. يؤدي هذا إلى تحرر غريزة البقاء، فتثير معها قلقا وارتباكا وذعرا.

مظاهر بسيطة لضل هذا الواقع، رأينا مؤشراتنا في تهافت الناس على إفراغ الأسواق الكبرى في الدول الغربية (الغنية والمتقدمة)، وقرصنة هذه الدول لبعضها البعض فيما تعلق

بالإمدادات الطبية البسيطة. ناهيك عن خروج الناس في كثير من الدول، في مظاهر من العنف للمطالبة بكفالة حق التطبيب وحق البقاء. إذا كنا تصرفنا بهذه الطريقة في هذا الوضع، فماذا يمكن أن نتصور من انحطاط لسلوكنا، إذا صار الأمر عبارة عن نزاع دولي مباشر، وصار مستقبل البشرية على المحك؟

- قلق بسبب الاحتكاك المتواصل بأفراد الأسرة، يحدث هذا خاصة في الأسر التي لا يكون فيها تناغم بين أفرادها أو لا تسيرها قوانين واضحة ومتفق عليها. فبالإضافة إلى التنافس بين الإخوة، وتوتر العلاقة مع الأطفال بسبب الحاجة المستمرة لهؤلاء للحركة واللعب وحاجة الكبار للهدوء والتركيز، هناك تشنج آخر بين الكبار أنفسهم، خاصة بين الأزواج. فكثير من الأزواج كانوا دائماً منشغلين عن بعضهم البعض إلا في بعض الفترات المتقطعة. يأتي هذا الحجر الصحي ليعيد كل منهما اكتشاف الآخر، خاصة بالنسبة للأزواج الجدد. يؤدي ذلك إلى إعادة توضيح القواعد المحدد للعلاقة، من وجهة نظر كل طرف، وتحديد خطوطه الحمراء. وبالتالي، فإن هذا الحجر الصحي يضع كل هذه القواعد والخطوط على المحك وبشكل مستمر، مما يؤدي إلى الاحتكاك والتشنج بين عدد من الأزواج وارتفاع نسب العنف الأسري. لا يقتصر هذا الواقع على المغرب بل هو صورة تتكرر في كثير من المجتمعات، وهذا ما دفع عددا من جمعيات المجتمع المدني التي تشغل على العنف ضد المرأة إلى دق ناقوس الخطر، كما دفع الأمين العام للأمم المتحدة إلى الإشارة إلى ضرورة الانتباه لهذا الموضوع خلال فترة الحجر الصحي.

- قلق بسبب الإحباط من افتقاد بعض العادات والأنشطة، فعلى الرغم من أن الثقافة العصرية قائمة على الإحباط (فرويد، 1908)، إلا أنها ثقافة تخلق دائما بدائل مشوهة للأصل الغريزي وتنجح من خلال الإعلام والإشهار في إقناع الناس بأنها نماذج أفضل. فقد اعتاد الناس مثلا في جميع أنحاء العالم على القيام بعدد من الأنشطة، خارج إطار الأعمال التي يشتغلون فيها، سواء أكانت أنشطة رياضية أو ثقافية أو اجتماعية، وهي أنشطة تكسر رتابة الحياة وتخلق للشخص نوعا من التوازن. يختلف الناس في مستوى الانخراط في هذا النشاط أو ذاك، إلا أن لكل عاداته التي يتشبث بها.

افتقاد هذه الأنشطة يجعل المرء يشعر بنوع من الفراغ والإحباط، لكن هذا الشعور قد يصبح مضحما، بل لا يطاق عند البعض. فالأشخاص العصائين مثلا لا يتحملون الإحباط (فرويد، 1930)، لكون تلك الأنشطة البديلة (الزيارات، التبضع...) تلعب بالنسبة لهم دورا تنفيسيا، ما يجعلهم هنا يفقدون التوازن الداخلي ويصبحوا أكثر قلقا وتوترا.

خاتمة

كانت هذه أهم العناصر التي خرجنا بها من هذه الدراسة الوصفة التحليلية للتداعيات المرتبطة بالحجر الصحي والتي تشكّل مدخلا لزيادة القلق عند الأشخاص والرفع من حدة التوتر بينهم.

أما في ما تعلق بتدخلاتنا خلال هذه الاتصالات الهاتفية، فقد اعتمدت عموما على المزج بين كل من المقاربة السلوكية المعرفية. حيث كنا نقوم بدعوة الشخص المتصل للجلوس في مكان مريح والاسترخاء ثم القيام بسرد ما حدث له من أول يوم دخل فيه الحجر الصحي، وهو ما كان يساعده على إعادة ترتيب المشهد العام للحدث، وبالتالي يسهل تقبله. كما كنا، نعيد مع الشخص المشاهد أو الأفكار التي تثير مخاوفه أكثر، الشيء الذي كان يساعد الأشخاص المتصلين من التخلص من الشحنات الانفعالية والمخاوف التي يشعرون بها، ثم نقوم بمعالجة بعض الأفكار المشوشة، خاصة تلك المتعلقة بنظرتهم إلى أنفسهم وإلى العالم من حولهم.

من هذا كله تتضح أهمية الدور الذي يمكن أن يطلع به علم النفس في تتبع مثل هذه الحالات الطارئة. لهذا يتعين خلق خلايا للتدخل السريع، تكون لديها برامج مهيأة مسبقا للمساعدة في أنواع معينة من الحوادث أو الكوارث، يتم العمل على تعديل وتحسين برامجها بشكل دوري، وبالتالي يمكن اللجوء إليها مباشرة والعمل على تنفيذ خطواتها حالما تعلن حالة طوارئ معينة.

المراجع

- طه عبد الحليم، 1992، كراسات إستراتيجية: دور ومهام الأخصائي النفسي في الكوارث والأزمات. القاهرة: مطبوعات مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية، (عدد الصفحات: 201).
- Freud .S, (1908), « La morale sexuelle "culturelle" et la nervosité moderne», in : Œuvres complètes Psychanalyse, Vol : VIII, (2007) Paris, PUF, p : 197-219, (nombre de page :288).
- Freud. S., (1926), Inhibition, symptôme et angoisse, PUF, 8ème édition 2016, Paris. (nombre de page : 120).
- Freud. S, (1930), Malaise dans la culture, tome : XVIII, traduction de P. Cotet, R.Lainé, J. Stute-Cadiot, Paris, PUF, 245-333.
- Jung. C.G, 1953, Introduction à l'essence de la mythologie , Paris, Payot, p : 13, (nombre de pages : 251).
- Jung .C. G, 1964, L'homme et ses symboles, Paris, Rober Laffont, P : 67, (nombre de pages : 320).
- Jung .C. G, 1995, Psychologie de l'inconscient, traduction : Roland Cahen, Paris, Le livre de poche, pp :161-200, (nombre de pages : 224).
- Rank .O, (1923), Le traumatisme de la naissance : influence de la vie prénatale sur l'évolution de la vie psychique individuelle et collective : étude psychanalytique, (1990) Payot, Paris (nombre de pages : 240).

قراءة سيكولوجية للانعكاسات الايجابية لقلق كورونا على الفرد والمجتمع المغربي

عائشة زباني

جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة
aicha.ziani@uit.ac.ma/zianiaicha02@yahoo.fr

ملخص

يقوم بناء هذا المقال، على أساس قراءة سيكولوجية وصفية، لواقع الوباء الحالي، وذلك اعتمادا على مؤشرات إيجابية ومتفائلة، تفيد أن وباء كورونا قد ألحق تغييرات بتفكير وسلوك الإنسان المغربي، الذي امتلكه قلق إيجابي انعكست فضائله على الفرد والمجتمع. حيث فرضت ظروف الوباء بتبعاتها ومتطلباتها الحمائية والوقائية، إعادة بناء سلوكات جديدة والتفكير وفقا لأسلوب جديد أدى إلى الإبداع والتجديد، وخلق مبادرات شتى، وتضامنا بيفرديا واجتماعيا منقطع النظير.

إن "القلق الإيجابي" في هذه الحالة قد أنجب وضعية ديناميكية جديدة تؤسس لواقع أكثر تطورا وتبشر بمستقبل واعد وغد أفضل.

الكلمات المفتاح: قراءة سيكولوجية، كورونا، القلق، الانعكاسات الإيجابية، الفرد المجتمع.

Résumé

Le présent article analyse l'impact psychologique de la pandémie du coronavirus qui sévit actuellement au Maroc et dans plusieurs pays du monde. Il se base sur une approche théorique et descriptive de la situation actuelle de la pandémie dans notre pays en utilisant des indicateurs positifs et optimistes. Il en ressort que cet événement a conduit, entre autres, à des changements positifs au niveau du raisonnement et du comportement des individus et de la société. Il s'agit d'une anxiété positive qui est à la base d'une dynamique de créativité et de des bonnes initiatives. Les gestes de solidarité et de coopération se sont multipliés ainsi que les initiatives d'innovation.

L'anxiété positive a donc été profitable pour le Maroc qui s'est trouvé intégré dans une dynamique de développement qui promet un avenir bien meilleur.

Mots-clés : Approche psychologique, coronavirus, anxiété, impact positif, l'individu, la société.

مقدمة

يشهد العالم اليوم ظرفية استثنائية جديدة ناتجة عن حالة وبائية خطيرة، امتدت تهديداتها لتشمل كل أركان الكرة الأرضية. فمنذ أواخر 2019 وبداية 2020، شرع فيروس كورونا في غزو العالم. فبعد أن كان الانسان، بفعل التقدم العلمي والتكنولوجي والطبي، يعيش وضعية ثقة وأمان وإحساس بالقوة والفاعلية والتحكم في زمام الأمور، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأمراض عموما والأوبئة على وجه الخصوص، أصبحت وضعيته حرجة أمام التهديد الوبائي، الذي أودى بحياة الآلاف من الأشخاص في غضون أشهر قليلة.

لقد عرف المغرب، باعتباره جزءا لا يتجزأ من المجتمع العالمي، أولى حالات الإصابة بفيروس كورونا مع مطلع شهر مارس من سنة 2020، وكانت كلها وافدة من الدول الأوروبية. لكن المرض طال عبر العدوى حالات أخرى. وتزايدت أعداد المصابين يوما بعد يوم بالرغم من أن المغرب اتخذ بشكل مبكر عدة تدابير احترازية ووقائية، وعيا منه بخطورة الفيروس على الحياة. لذلك فإن الوضعية الوبائية في المغرب ظلت تحت السيطرة نسبيا مقارنة مع كثير من الدول الأخرى.

استطاع فيروس كورونا أن يقض مضجع الإنسانية ونجح في نشر الخوف والرعب والقلق بين الناس فتغيرت بذلك سيورة حياة الافراد والمجتمع على شتى المستويات. وأصبح الاهتمام منصبا أكثر على الصحة الجسدية والنفسية وعلى حفظ الحياة. فنذ ان تربع فيروس كورونا على عرش المنصات الالكترونية والتلفزية والتواصلية البيفرديّة، ساق معه مفاهيم جديدة وسلوكات جديدة، من قبيل الحجر الصحي الذي يقتضي الالتزام بالبيوت بهدف تحقيق الحماية الشخصية والاجتماعية للمواطنين والمواطنات. فضلا عن انتشار أسلوب تربوي صحي يتداوله الصغار والكبار، المتعلمون وغير المتعلمين.

وجه فيروس كورونا تفكير وسلوكات الانسان وخلق تمثلات جديدة وتعلمات جديدة تدعو للتكيف مع هذا الواقع الوبائي المستجد. فن طبيعة الإنسان أنه لا يستسلم أمام المصاعب، بل يواجهها بكل إمكانياته، ويكيف حياته وفقا لأي تغيير بل ويطور موارده الخاصة والعامة للتصدي لأي تهديد.

لعل هذا الوضع الجديد هو الدافع الحقيقي لكتابة وإنجاز هذا المقال السيكلوجي الذي يتوخى القيام بقراءة سيكلوجية وصفية للانعكاسات الإيجابية للوباء، علما ان مطامحه تنحى نحو إبراز الجوانب الإيجابية التي استفاد منها الإنسان المغربي والمجتمع المغربي. فقلما يتم الاهتمام بهذا الجانب الأخير وإن كان هو سبيل التغيير وتحريك العزائم وتحقيق التكيف.

إن ما يحدث للإنسان في هذه الظروف العصيبة والمقلقة يدعو إلى النظر بمنظور سيكولوجي على اعتبار أن القلق والإنسان متلازمان، وتفاعلهما قد يقود نحو البناء والتطور لفائدة الإنسان أو نحو التدمير وكف قدرات هذا الإنسان.

لم يصب وباء كورونا، إذن، جسد الإنسان فحسب بل أصاب أيضا نفسيته بأفكارها وسلوكاتها وانفعالاتها وعلاقاتها. وأحدث، بالتالي، مشاكل نفسية ومعاناة حقيقية لدى المصابين به وغير المصابين وقلقا نفسيا سلبيا أحيانا وإيجابيا في أحيان أخرى.

فما هي أوجه هذا القلق الإيجابي أي "قلق كورونا"، وكيف استطاع أن يؤثر على حياة المغاربة أي على التفكير والسلوكات، وعلى المبادرات التطوعية؟ وما الاستراتيجيات الممكنة لمواجهة الانعكاسات السلبية لقلق الوباء؟

يعد هذان السؤالان الأخيران جوهر موضوع قراءتنا السيكلوجية لواقع تأثير قلق كورونا على الإنسان المغربي؛ لاسيما وأن الإصابة النفسية بهذا الوباء تعد عامة لدى الناس في حين أن الإصابة الجسدية هي قليلة وخاصة.

1. الإصابة النفسية بفيروس كورونا

1.1. على مستوى التفكير

نقصد بالإصابة النفسية بفيروس كورونا انعكاسات عدوى هذا الوباء على نفسية الفرد. فما دامت أفكار الفرد والمجتمع قد أصبحت مهووسة بهذا الفيروس عبر الحوارات العادية والافتراضية، البيفردية والعائلية والمجتمعية، فإن الفيروس قد أصاب لاحتمال تفكير الفرد وانعكس على محتويات اللغة وطغت بذلك مفاهيمه ومعانيه وهويته على قاموسنا العادي الحياتي. فالانغماس في غمار الوباء، عبر تركيز الأفكار على مختلف الأخبار المرتبطة بالموضوع الوبائي واجترارها وتداولها وتقاسمها بشكل كبير، يخلق نوعا من التراكمات الفكرية "السامة" أحيانا والايجابية أحيانا أخرى. ولذلك نجد اليوم، سواء داخل العائلات أو على المنصات الالكترونية، ولوج فئة من الأطفال والمراهقين والشباب والشيخوخة مغلقة، إذ يعيشون حالة من الترقب الفكري الموجه نحو موضوع كورونا، دون إيلاء أي حيز للاهتمامات الحياتية الأخرى. والخطر في الأمر هو عدم القدرة على الارتباط بالحاضر والآن، والعيش في وضعية مقلقة ومنتظرة لخطر وتهديد الوباء. هذا السياق يفتح المجال لتكريس المخاوف وللدخول في حالة الاضطراب. وفي المقابل نجد فئة أخرى تقف وقفة مختلفة في مواجهة خطر الفيروس وذلك باستحضار تفكير إيجابي وعقلاني وفعال في سبيل التصدي لانتشار الفيروس. فمن الناس من أصبح يفكر في سبل الحماية الخاصة والعامة ومنهم من وجه تفكيره نحو البحث أو التجديد أو

الإبداع. فالتفكير الإيجابي قد يقود صاحبه نحو التغيير ونحو تحقيق الأهداف الإيجابية المتوخاة وهو ما سوف نوضحه عبر باقي عناصر هذا المقال.

2.1. على مستوى السلوك

إن تقطيع جوانب النفسية الى أفكار وسلوكات وانفعالات وعلاقات اجتماعية، ما هو إلا تقطيع وفصل منهجي تقتضيه شروط بناء هذا المقال، لأن أبعاد النفسية غير قابلة للفصل بأي حال من الأحوال. فالسلوكات بهذا المعنى هي نتيجة لسيرورة التفكير والانفعال.

لقد فرض فيروس كورونا على الفرد تغيير سلوكاته، ومراقبة تصرفاته بشكل يحتمل لمنطق الحد من العدوى وتجنب الإصابة بهذا الفيروس، الذي ينتقل عبر ملامسة الأسطح وعبر المصافحة وعبر مسافة القرب. وتبني سلوكات جديدة مغايرة، للعادات والأعراف، أي السلوكات الصحية أو التربية الصحية والتي تعرفها منظمة الصحة العالمية كوضعيات تعليمية تسعى لتغيير السلوكات وبلوغ هدف محدد (Piperini, mari - christine, 2016)، وبشكل عام يمكن القول إن المعرفة الطبية، التي يستعملها عادة الأطباء والمرضون والمشتغلون بالقطاع الصحي، لم تعد حكرا على القطاع الصحي بل صارت التربية الصحية اليوم، حاجة ملحة في حياتنا، وسلوكا يطمح إليه عامة الناس. لكن تبني السلوكات الجديدة قد يختلف من شخص لآخر حسب البنية النفسية لكل شخص والقدرة على التكيف والتجديد والتغيير.

3.1. على المستوى الانفعالي والاجتماعي

عندما نتحدث عن الانفعال فإننا نتحدث عن حالة ذاتية غير ثابتة متعددة الأوجه ويحددها klaus scherer في خمسة أبعاد:

- التفكير: أي تلك الأفكار التي تنجها الوضعية الباعثة على الانفعال.
 - التغيرات البيولوجية: التغيرات العصبية (تنشيط اللوزية l'amygdale) والتغيرات الفيزيولوجية (ارتفاع دقات القلب، ارتفاع إيقاع التنفس، ارتفاع حرارة الجسم...).
 - النزوع نحو الفعل: كل انفعال يدعو الى القيام بفعل ما.
 - التغيرات التعبيرية والسلوكية: الانفعال يغير مثلا من تعابير الوجه ومن حركة الجسم.
 - التجربة الذاتية: هي البعد الخامس المعبر عن الإحساس الذاتي.
- (Mikolajczak, M. Quoidbach, j. Nélis, Delphine, 2014)

جاء هذا التوضيح الخاص بالانفعال لإبراز العلاقة الواقعية بين مختلف الأبعاد المكونة لشخصية الانسان. أي ان الانفعال ليس مجرد حالة مؤقتة وعابرة لإحساس ما، أو إثر وضعية ما

بل هو انفعال له قاعدة متعددة الأوجه، تثار جميعها وتتأثر بالوضعيات الباعثة على الانفعال. وما دمنا قد تحدثنا في هذا المقام عن قلق كورونا، فإن هذا القلق يمس البعد العصبي والجسدي والحركي، وكذا الإحساس الذاتي. والبقاء في حالة القلق أو الخوف من جائحة كورونا يُبقي هذه الابعاد في وضعية إثارة مستمرة، مما قد يؤدي الى حالة قلق مرضي.

وتؤكد كثير من الدراسات، أن الانفعالات تغطي مجموعة من الوظائف الضرورية لتكيف الكائن الإنساني مع محيطه. فهي تسهل اكتشاف الخطر أو التهديد وتساعد على مواجهة سلسلة من الوضعيات وتسرع وتوجه سيرورة اتخاذ القرار وتقود التفاعلات الاجتماعية وتطور قدرة الذاكرة على حفظ الأحداث الهامة. كما أنها تعطي معنى ولونا لحياتنا.

(Mikolajczak,M.Desseilles,M.2012).

إن تدبير الانفعالات من شأنه أن يؤثر على طبيعة العلاقات الاجتماعية الضرورية للإنسان، باعتباره كائنا اجتماعيا في حاجة ماسة للآخرين للخروج من دائرة العزلة واللااندماج. فالأشخاص غير القادرين على تدبير انفعالهم، قد يفشلون في بناء علاقات اجتماعية جيدة.

وفي هذه الحالة الوبائية، التي تبعث على القلق، من شأنها أن تؤثر على العلاقات الاجتماعية القريبة أو البعيدة. وهذا ما تعكسه بعض من تساؤلات وشكاوى المواطنين والمواطنات الذين يتصلون بخلية الاستماع والدعم النفسي، التابعة لجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، والذين يتذمرون من علاقات ساءت طبيعتها في ظل ظروف الحجر الصحي. كما أن طبيعة العلاقات تظل متمركزة على الوباء دون غيره لدى كثير من الناس مما يزيد من حدة القلق.

2. قلق كورونا

اقترن القلق اليوم باسم وباء كورونا، وأصبح يغطي الحياة الخاصة والعامة للإنسان. فهاهي إذن طبيعة "قلق كورونا" وماهي خصوصيته ومظاهره وانعكاساته؟

1.2. دلالة القلق l'anxiété

يعد القلق حالة انفعالية إنسانية طبيعية، ترافق الفرد طيلة مسار حياته، لكنها قد تختلف تبعا لطبيعتها وحدتها وانعكاساتها. ويميز Spielberg بين نوعين من القلق، تبعا للنظرية المعرفية: حالة القلق l'anxiété état وهي عبارة عن استجابة سلوكية مشتقة من إدراك تهديد ما عبر تقييم الوضعية الخطيرة والمهددة من الناحية الجسدية أو النفسية. والقلق كسمة l'anxiété trait أي سمة ثابتة ومستمرة تميز شخصية الفرد (Palazzolo,J.Arnaud,J.2013). فحسب هذا التصنيف يعد قلق كورونا قلقا مستحدثا بفعل الوباء أي انه عبارة عن استجابة قلق تدخل

ضمن حالة القلق المرتبطة بكارثة مهددة لحياة الإنسان والمتمثلة في انتشار وباء كورونا. وبشكل عام يمكن تصنيف القلق تبعاً لحدته وانعكاساته على الفرد إلى قلق "إيجابي" و آخر «سلبي».

2.2. القلق الإيجابي

إن النعت اللصيق بكلمة قلق يعرفه ويعطيه دلالاته العميقة. وإن كان القلق حالة انفعالية تثيرها الوضعيات الصعبة والمقلقة والمهددة، كوضعية كورونا مثلاً، فإن الشق الإيجابي منه هو تلك الدينامية النفسية الدافعة والمحفزة للتفكير ورد الفعل واستثمار كل القدرات الحركية والمعرفية والانفعالية في التصدي للتهديد بكل السبل وبفعالية. القلق الإيجابي بهذا المعنى لا يسبب حالة العجز والاستسلام والتشاؤم بل يستثمر بفضله الفرد قدراته على الفعل والفعالية وبكل تفاؤل إنه قلق "صديق" للإنسان. في مواجهة وباء كورونا ومخاطر انتشارها قد يمنح الفرد الذي امتلكه قلق إيجابي نحو تقييم الخطر تقيماً موضوعياً، والتأهب لمواجهة باستنهاض النشاط الفكري والبحث عن الحلول والاعتماد على الموارد الخاصة وكذلك العامة. ومن طبيعة هذا القلق أنه لا يكف السيرة الوظيفية لأنشطة الفرد.

يسمح القلق الإيجابي للفرد بأن يعيش في الحاضر ويتكيف معه ويواجهه، كما يسعفه أيضاً للتفكير بكل عقلانية في المستقبل. ما يعزز القدرة على تحفيز وتحريك المهارات، والدفع بها نحو الخلق والابداع. وهذا ما لاحظناه إبان وضعية هذا الوباء الذي دفع الفرد والمجتمع للقيام بمبادرات رائدة تسعى جميعها نحو المقاومة والدفاع عن الحياة.

ومن الانعكاسات الإيجابية لهذا القلق، في الوضعية الراهنة، الحفاظ على الهدوء والالتزام بشروط الحجر. والاستمرار في القيام بالأنشطة اليومية مع تكييفها مع ظروف الحجر ومتطلبات الحماية دون معاناة.

القلق الإيجابي إذن يحافظ على التوازن النفسي للفرد والمجتمع وفضله يتحول الحدث المقلق من حدث صادم إلى حدث ملهم ومصدر للإبداع والبناء والتغيير.

3.2. القلق السلبي

يعتبر القلق "السلبي" حالة انفعالية لتجربة خوف يعيشها الفرد. هذه التجربة سيئة وسلبية وموجهة في الغالب نحو المستقبل، وقد تصاحب بتوتر جسدي وذاتي ونفسي (Besche-Richard, C. Bungener, C. 2018).

إن ارتفاع حدة القلق يفقده وظيفته التكيفية ويصبح اضطراباً أو حالة باطولوجيا أي قلقاً سلبياً يحرم الفرد من العيش في الحاضر ويلقي به في مخاوف مستقبلية لاعقلانية تكف فعاليته

ونشاطه وتزيد من معاناته وتشاؤمه. وفي سياق هذا الوباء يمكننا ملاحظة أعراض هذا القلق الذي يتمظهر عبر سلوكيات الفرد وسلوكيات المجتمع غير المتحكم فيها.

إذا كان القلق "الإيجابي" يساعد على التكيف ويحفز قدرات الفرد ويحرك روح الإبداع لديه فإن القلق السلبي يخلخل وتيرة حياة الفرد ويبعث نظامها ويستنفذ طاقتها ونشاطها وحيويتها ويقف سدا مانعاً أمام أي تكيف. فما يميز القلق في هذه الحالة الأخيرة هو أن الفرد يصبح سجين "سيناريوهات" الكارثية المرتبطة بالمستقبل والإحساس الدائم بالتهديد، فضلاً عن ظهور علامات سوماتيكية (Servant ,D. Palissolo ,A et al.2013). فالقلق يهدد الفرد في كليته إذ يؤثر على الجانب الفيزيقي والسلوكي والنفسي. وبالتالي، فإن أي علاج لهذا القلق يقتضي بالضرورة أخذ هذه الجوانب الثلاث كاملة بعين الاعتبار (Bourne, E- j. 2011). تتمظهر علامات هذا النوع من القلق "العدو" لدى الفرد المغربي في هذه الأثناء، من خلال المخاوف المتولدة عن تفكير سوداوي ومشوش، وسلوكيات غير سوية في بعض الأحيان وصعوبة التكيف وعدم القدرة على تحمل وضع الحجر الصحي (..). قد تبدو ملامح هذا القلق على بعض المجموعات التي تخرق حدود الحجر، وتمارس سلوكيات التهاوت على المواد الغذائية، وقد تعيش وضعا علائقيا غير سليم يكتنفه التوتر والعصبية والعلاقات غير السليمة مع الذات ومع الآخرين.

3. الانعكاسات الإيجابية لوباء كورونا(خلية الاستماع والدعم النفسي جامعة بن طفيل نموذجاً)

منذ بداية وباء كورونا بالمغرب، لم تتوقف المبادرات الفردية والجماعية الرامية إلى التصدي لفيروس كورونا بشتى الطرق وفي شتى المجالات. وبالنظر إلى الرسالة العلمية والإنسانية وإلى الأدوار الاجتماعية الريادية التي تقوم بها الجامعة المغربية، فقد بادرت جامعة ابن طفيل بالقنيطرة إلى خلق خلية الاستماع والدعم النفسي الموجهة لفائدة المواطنين والمواطنات بجهة الغرب عموماً. وذلك استجابة للحاجة النفسية الملحة للمواطنين والمواطنات الذين يعيشون وضعية مقلقة فرضت عليهم تغييرات طالت أفكارهم وانفعالاتهم وسلوكياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية. لقد وسعت هذه الخلية من نشاطها السيكلوجي واضعة خدماتها رهن إشارة الطاقم الطبي وشبه الطبي والإداري التابع للقطاع الصحي بالقنيطرة. وتجدر الإشارة إلى أن الخلية تتكفل نفسياً ببعض الحالات المصابة التي توجد حالياً في حالة استشفاء بمستشفى مولاي عبد الله بسلا. ويسهر على نشاط هذه الخلية، مجموعة من أستاذات وأساتذة مسلك علم النفس وفي تقنيات التكفل والعلاج النفسي.

تقدم خلية الاستماع والدعم النفسي خدماتها، عن بعد، عبر وسائل التواصل الجماعي أو الفردي (المكالمات الهاتفية والواتساب). ومن أهم الأهداف السيكلوجية لهذه الخلية:

- الاستماع لمعاناة المواطنين والمواطنات ومساعدتهم على تحرير انفعالاتهم السلبية.
- تقديم الدعم النفسي لكل من الأطفال والمراهقين والشباب والشيوخ والفتيات ذات الاحتياجات الخاصة.
- مساعدة المواطنين والمواطنات على تدبير انفعالاتهم في ظروف الحجر.
- تعزيز قدراتهم التكيفية، مع هذه الوضعية الوبائية، بمنحهم بعض التقنيات العلاجات الإيجابية.
- التوعية والتحسيس بأهمية الحفاظ على الصحة النفسية والتعايش بسلام مع الوضعية الحالية...

تم هذه المبادرة التي تقودها جامعة بن طفيل والجامعة المغربية عموماً، عن انفتاح الجامعة على المجتمع وخدمتها للمجتمع بوسائلها العلمية والأكاديمية. فهذه التجربة تؤكد وبالملموس أن الجامعة المغربية منخرطة اليوم وستنخرط غداً في بناء المجتمع المغربي على أسس علمية وأكاديمية.

4. استراتيجيات مواجهة قلق كورونا

كثيرة هي المقاربات العلاجية السيكلوجية والإيجابية الكفيلة بتخفيف حدة القلق وتدبير الازمة الوبائية، فعلم النفس المعرفي السلوكي في موجته الثالثة، والعلاجات المختصرة الموجهة نحو الحل والإيحاء بتنشيط الوعي، كلها وسائل علمية لتدخلات علاجية فعالة. ومادام المقام لا يرتبط بموضوعها فإننا سنكتفي بتسطير بعض التوجيهات المستخلصة من هذه المقاربات الإيجابية المنظور. وما لا شك فيه فإن ملامح ومؤشرات وأعراض القلق تبدو مجسدة على مستوى التفكير والسلوك والانفعالات، وأي تدخل أو توجيه يستدعي بالضرورة استحضار هذا الثلاثي.

وتجنباً لارتفاع حدة القلق يمكن تدبيره بشكل ذاتي من خلال اتخاذ نمط حياتي سليم ومتوازن يحقق التكامل بين المناعة النفسية والمناعة الجسدية ومن جملة الخطوات العملية الكفيلة بتحقيق هذا المبتغى نذكر على سبيل المثال لا الحصر جملة من الخطوات: كالالتزام بالحاضر، وباللحظة، والانشغال بالاهتمامات الخاصة أملاً في التخفيف من درجة الارتباط بالمستقبل وبمخاوفه. وتعزيز القدرات النفسجسدية عبر التفاؤل والتفكير الإيجابي والتغذية السليمة والتمارين التنفسية والاسترخائية والرياضية والنوم لساعات كافية. ومن جهة أخرى ينبغي عدم تضخيم حجم الأحداث وتوجيه التفكير والتمثلات نحو الزوايا الإيجابية ونحو الحلول الممكنة والعملية للمحافظة على التوازن النفسي لاسيما وأن نشاط الدماغ قد يقوده المنظور الإيجابي نحو الابداع والخلق والتعلم والتجديد في حين أن التفكير السلبي والمتشائم يغذي الأفكار السوداء

ويعزز وجودها وتطورها لتصبح سحابة سوداء تميز شخصية الفرد ومزاجه وتعكر صفو حياته. ولذلك ينصح بعدم الانغماس في الأخبار التي تعصف بها عديد من وسائل التواصل والاعلام. واعتبار واقع الوباء مناسبة للقيام بوقفة تأملية تستثمر الحاضر لبناء المستقبل.

تؤمن المقاربات العلاجية الإيجابية بأن الفرد قادر على تدبير قلقه اعتمادا على إمكانياته الذاتية وموارده الخاصة وإرادته واستراتيجياته التكيفية. والإنسان بطبيعته يسعى نحو الرفع من جودة حياته وتطوير قدراته. وإذا تعذر هذا الأمر بفعل طغيان القلق السلبي، يمكن استشارة الاختصاصيين النفسيين المعالجين لمختلف الصعوبات والاضطرابات النفسية والاستعانة بخبراتهم العلاجية.

خاتمة

يستلهم هذا المقال منظوره العام من علم النفس الإيجابي، حيث تم إبراز الجوانب والزوايا الإيجابية، اعتمادا على النظرة التفاؤلية. فالتفكير الإيجابي، قد خلق نوعا من التوازن الذي وجه كثيرا من الناس نحو الإبداع والبحث والانخراط في الأعمال التطوعية والتضامنية.

لا شك أن التركيز على الجوانب الإيجابية، يخفف من حدة القلق ويسير بالفرد نحو مسارات النجاح (A.Muawael et al.2017) أما تركيز الانتباه على كل ما هو سلبي فهو يضر بنفسية الفرد . ويزيد من حدة القلق ويحد من القدرة على القيام بأي نشاط تفكير أو فعل أو مبادرة.

يتيح القلق الإيجابي إذن إمكانيات التكيف مع الواقع مهما كانت خطورته، وما الاستراتيجيات التكيفية التي اختص بها الإنسان، في مثل هذه الوضعيات، سوى سبل نفسية يعقلن بها الشخص الوقائع التي يواجهها فيدمجها ضمن سياقاته الحياتية أو تجاربه الحياتية.

(Constantin -Kuntz,M. 2004) .

نستخلص من هذا المقال أن القلق "الصديق" للإنسان يخلق المبادرة والحرية والتفكير السليم، ويضمن توازن الانسان. يبدو أن الفرد المغربي قد استفاد من بعض الانعكاسات الإيجابية لوباء كورونا على التفكير والسلوكات، وعلى طبيعة العلاقات. مما يعني ان ملامح التفاؤل تشع في أفق مستقبل المغرب، بتعزيز مكتسبات هذه المرحلة، وبالاستفادة من دروسها. فكل المبادرات تؤكد وبالملموس أن الرأسمال البشري المغربي ثروة واعدة لبناء مستقبل المغرب على أسس علمية وتضامنية متينة. فواقع ما بعد كورونا سيكون واقعا جديدا يستفيد من القلق الإيجابي لتحقيق أهداف التنمية.

إن مصلحة الانسان، مستقبلا، لن تقبل منظورا ضيقا وذاتيا، بل تحتم على المجتمع العالمي توسيع آفاق إدراكه وتوحيد استراتيجياته. وخدمة الانسان من زاوية تذيب كل الفروق العرقية او الجغرافية (..). فهل سيستخلص المجتمع العالمي الدروس من وباء كورونا؟ وهل سيغير منظوره ويؤنسن مقارباته؟

المراجع

- Alsaleh,M. Lebreuilly,R. Tostain,M. Lebreuilly J. 2017.** La puissance des répétitions des phrases des pensées positives (RPPP) un outil efficace de traitement contre les troubles psychologiques (dépression, anxiété et stress). Une étude pilote contrôlée et randomisée. Annales Medico-Psychologiques : 0-10
- Besche-Richard,C .Bungener,C.2018.** Psychopathologie de l'adulte,Approche intégrative.France.Dunod.
- Bourne, E- j. 2011.**Manuel du phobique et de l'anxieux .Cedex. EYROLLES .
- Constantin-Kuntz,M . Catherine Zoute , F- S . Moreau,P .2004.** Des traitements psychologiques des impliqués indirects dans les situations d'urgence psychologique Pratiques psychologiques 10 (2004) 335–347 .
- Mikolajczak,M.Desseilles,M.2012.**Traité de régulation des émotions.Paris.Dunod.
- Mikolajczak,M.Quoidbach,j.Nélis,Delphine.2014.**les compétences émotionnelles.France.Dunod.
- Palazzolo,J.Arnaud,J.2013.** Anxiété et performance : de la théorie à la pratique . Annales Medico-Psychologiques 171 : 382–388 .
- Piperini,mari –christine.2016.**l'éducation pour la santé. Bruxelles. De Boeck.
- Servant ,D.Palissolo,A. Chancharme ,L. Le Guern , M-E . Bouleng, J-P, 2013,** Le trouble de l'adaptation avec anxiété. Caractéristiques cliniques et psychométriques chez des patients consultant en médecine générale, L'Encéphale .39 : 347—351

"كورونا" زمن لانكشاف "دافع الموت" مقاربة تحليلية نفسية

خديجة وادي

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة
khadija.ouadi@uit.ac.ma

ملخص

يبحث فيروس كورونا في نفسية الأفراد قلق الموت. فهل نمتلك نحن البشر نفس القدرات النفسية والبيولوجية لمواجهة هذا الوباء؟ يذهب خبراء الصحة الجسمية إلى القول إن هناك من يمتلك رأسالا بيولوجيا مميذا، يجعله أكثر مقاومة للمرض. في حين يذهب خبراء الصحة النفسية إلى القول إن امتلاك الرأسال البيولوجي لمقاومة المرض لا يحميه من المخاوف النفسية والاضطرابات العصبية الباعثة على قلق الموت. فما هي العوامل التي تساهم في جعل الفرد يقاوم وضع القلق المربك للحياة؟

نسعى من خلال هذا المقال إلى فهم الأعراض التي تجعل البعض منا يستسلم "لدافع الموت"، من وجهة نظر التحليل النفسي. هذا يحيلنا على أهمية تأطير هيئات الصحة النفسية لمتابعة ومواكبة الحياة النفسية للأفراد العصبيين في مثل هذه الظروف العصبية.

الكلمات المفتاحية: كورونا، قلق الموت، التوتر، القدرات، الدوافع، العصاب.

Résumé

Coronavirus réveille en nous l'angoisse de la mort. Ce qui pose la question suivante : nous humains, avons-nous les mêmes capacités psychologiques et biologiques pour faire face à cette épidémie? La première réponse est rapportée par les experts de la santé en disant que les individus qui possèdent un capital biologique distinctif les rendent plus résistants aux maladies. Les psychologues, quant à eux, pensent qu'avoir un capital biologique ne protège pas des peurs psychologiques et des troubles nerveux qui causent l'anxiété de la mort. Quels sont donc les facteurs qui contribuent à la résistance de la personne face à la situation d'anxiété, potentiellement mortelle?

Dans cet article, nous cherchons, du point de vue de l'analyse psychologique, à comprendre les symptômes qui font que certains d'entre nous succombent à la « pulsion de la mort ». Ceci établit l'importance de former le personnel médical concerné pour suivre la vie psychologique des personnes anxieuses dans ces circonstances aussi difficiles.

Mots clés : Coronavirus, angoisse de la mort, l'anxiété, capacités, pulsions.

تقديم

من الظواهر التي واكبت جائحة "كورونا"، تردد نوبات القلق الحاد بشكل بادر للعيان ، لذلك فالغرض من هذا المقال هو إبراز الأسباب الكامنة التي تجعل أشخاصا (دون غيرهم) مثل هذه الأزمات النفسية ذات المنحى التدميري للذات. لقد بينت التجربة الواقعية ظهور مقاومة بيولوجية لهذا الوباء المميت، ومن جهة ثانية، أبدى البعض قدرة على مواجهة القلق، الذي يغزو الوعي، و يؤكد إمكانية الانحدار إلى "الموت". لذلك كان من الضروري اختيار أرضية إستراتيجية تحليل - نفسية ، تستوعب هذه المفاهيم المجاورة لبعضها البعض. فلطالما اعتبر دافع الموت موضوعا موعلا في الميتافيزيقا، لمجرد الحديث عن "القلق الأصلي"، الذي هو "قلق الموت" والذي يعتقد أنه يعيش لدى الفرد بشكل طبيعي. بل إنه مفهوم ضروري لفهم الديناميكية النفسية عموما؛ حتى لدى الشخص السوي. فنحن كأحياء نهاب الموت مع أننا لا نعرف عنه شيئا، هذا القلق الدائم يشكل معطى مرضي عندما يستعصي التحكم فيه، مادام يعبر في شكله الخالص عن فقدان موضوع الحب، أما السلوكيون فيعتقدون بأنه يظهر على إثر التعرض لصدمة نفسية مثل الحوادث والصراع الحاد والفشل والوباء أو حتى مع المرض المزمن أو القاتل... (لابلانشر وبونتاليس، 1997)

إن وباء "كورونا" دال يحمل معنى الموت، ما جعله يكشف عن واقعية هذا القلق الأصلي (الثاناثوس Thanatos) كما أكد ضعفنا أمام قوته. فدوافع الموت - بالمعنى "الفرويدى" للكلمة - سبيل لاستعادة لحظة ماضية مفقودة، خلفها وراءه كان يعيش فيها الكائن لذة مطلقة.

لذلك أتساءل - مادام وباء كورونا - قد كشف عن قلق مستفحل اتجاه الموت، يغلف حياتنا الشعورية و اللاشعورية معا، فهل من إمكانية للقبول بواقع المرض، ولما لا "الموت" من داخل هذه الأرضية التحليل النفسية ؟

إنه سؤال غريب ، نوعا ما، لكنه عميق بما يكفي ليفسر رغبتنا الدائمة مثلا في الحياة-Eros الإيروس والمقرونة في الكثير من الأحيان بحبنا اللامبرر لركوب الأهوال -الثاناثوس-Thanatos (حب المغامرة، الإدمان، الحروب...)، وهل يمكن القول كذلك بإمكانية انتصار الحياة (التي توحى بثورة ضد المادة الجامدة، على عدوها الأبدي (الموت) كاشفة عن دافع الحياة " الإيروس (Freud, 1929) ؟"

1. الرغبة في الحياة و التطور في اتجاه الموت: أساس الديناميكية النفسية

لا بد من القول بأن انشغالي طيلة سنوات عديدة بمفهوم الموت، فخر شغفا خاصا تُوّج بتأليف كتابين حول هذا الدافع الأصلي، لكن الأغرب من ذلك الطريقة التي فرض بها نفسه على تفكيري، بل وفرض معه انجذابا خاصا نحو

الرؤية التحليل النفسية التي أسهبت كثيرا في تناول موضوع قلق الموت. هذا القلق الذي وجدته حاضرا بقوة لدى مجموعة من الحالات العصابية (خديجة وادي 2018). وتأكد من خلاله بأن الاضطراب المرضي، قد يشكل تعويضا وجدانيا يجد فيه العصبي توافقا ممكنا بمعية الثقافة السائدة. لكن واقع الخطر الصحي جعل من الذات تواجه ذاتها، بحيث وضعت في عزلة مع أفراد قد يشكلون هم أنفسهم مصدر ألم، فالعلاقات الأسرية - كما أكد التحليل النفسي - تعد المصدر الأول للصراع (أي أن البنية الأسرية هي نفسها أصل الصراع النفسي في الكثير من الأحيان)، لذلك نرى المراهق مثلا يبحث عن أشكال التعويض خارجها، أو قد نجد بعض الأزواج الذين يعيشون انفصالا سيكولوجيا ويجدون تعويضا خارج جدران البيت الواحد، قد أصبحوا في مواجهة مباشرة مع بعضهم البعض. فإما أن يكون الحجز مقاما لرأب الصدع أو شعلة لإحداث الانفجار... والجدير بالذكر أن من لهم تاريخ مرضي أصبحوا يعيشون أزمة أكثر حدة في ظروف الأزمة الوبائية، لشدة تهديد الموت، أذكر على سبيل المثال: حالات الاكتئاب، الوسواس، الفوبيا وعصاب القلق. ثم حالات الإدمان أو حتى من يعيشون أزمة الشيخوخة.

2. الهشاشة النفسية سبب مباشر لظهور أعراض (Symptômes) القلق الحاد

إن "جائحة كورونا" وما صاحبها من تهديد للحياة أدى إلى ظهور بعض الأعراض المرضية لدى كثير من الأشخاص، بل إنها خلقت لدى كل من يحتفظ بقدرة على الوعي إحساسا بالقلق الزائد. ولتحقيق فهم أكثر لما قد يلاحظ من تفاوت واختلاف في ردود الأفعال بين الأشخاص، تجدر العودة إلى ما يميز التاريخ النفسي للفرد.

1.2. سبب الهشاشة النفسية وعلاقتها بقاق الموت

ما مصدر القلق العميق، خصوصا حينما يتحول لكابوس يقض مضجعنا؟

لقد نقلت "ميلاني كلاين" (Kristiva,2000) دائرة الصراع إلى مداه الأقصى، إذ تنهت إلى وجود صراع جد مبكر بين الطفل و أمه، ثم بينه وبين أبيه، صراع يبرز إلى الوجود في مرحلة أقدم من مرحلة الأوديب "الفرويدية". فبعدما لمست - أثناء علاج الأطفال - وجود رغبة لاشعورية تخفي سادية غير متوقعة اتجه الأم (عبرت بعض الحالات عن ذلك بمظاهر خيالية Fantasma). ولتوضيح هذا المنحى المدمر استثمرت الباحثة أسطورة "أورست"،

فاكتسبت نظريتها بذلك قيمة نوعية ، أدت إلى رسم ملامح متناقضة لرغبات الطفل، (الحب /الكراهية)، (الأم السيئة/ الأم الطيبة) ، (الثدي الشحيح / الثدي الكريم) .

يلاحظ أن الأم في هذه المرحلة لا تمثل بالنسبة للطفل إلا مصدرا للطعام، فالحب بمعناه المجرد لازال لم يتحقق. بعد هذه المرحلة التي ساد فيها التواصل اللاكلامي، سيسعى هذا الأخير في سن الثانية إلى امتلاك لغة تمكنه من الانفتاح على أشخاص غيرها (قتل رمزي للأم التي ستصبح عائقا أمام تطوره لأنها في هذه المرحلة لم تعد كافية لتيسير الإشباع أي تلبية كل الرغبات الوجدانية المستجدة) مما يؤدي إلى نموه ، فامتلاكه للرمز ما يجعله حرا و قادرا على نزع الغرابة عن العالم.

هكذا وجدت "ميلاني كلاين" سببا وجيها لظهور الرمز. (تجربة ميلاني كلاين مع الطفل " Dick ديك ") ؛ فالأم تصاحب طفلها ضمن هذا الوضع المزدوج، حيث ستفقد وبعدها ستستعيده من خلال الكلام وبعدها بقوة الفكر. (الأم التي تقبل بالاختفاء ليكبر الأبناء). إن الاكتشاف الأكثر أهمية كذلك عند " كلاين " يتمثل في إظهار البعد النفسي للرموز في إطار علاقتها ب "الفنتازم" (Les fantasmes) ، فقد استطاعت أن تكتشف مجموعة من التخييلات ذات الطبيعة العدوانية السادية. ف"الأوديب" المبكر الذي تم الحديث عنه، ينبثق جنبا إلى جنب مع " أنا أعلى" مبكر كذلك و الذي يظل ظهوره غير واضح المعالم ، في هذه المرحلة بالذات يستطيع الطفل أن يطور مفاهيمه الخاصة باستعمال رمزية أصلية خارجة عن اللغة، فثلاثها مثل "فرنزي (Ferenezi,1931) تعتقد "كلاين" بأن الرموز التي تظهر للوجود هي رموز لصيقة بجسده الخاص، بفضلها يستطيع الطفل أن ينقل اهتمامه من موضوع إلى آخر و ينقل مشاعره وتخيالاته ومخاوفه ثم إحساسه بالذنب كذلك؛ بنفس الطريقة ؛ فيعيش عالما داخليا متخيلا يبينه من معطيات العالم الخارجي و تغذيه دوافع الموت والحياة معا. فينتج، بذلك، تخيلات عدوانية تشبه الأفعال الأكثر شراسة لدى الراشد. تلك، الدوافع الموغلة في "السادية" تخلف الندم والإحساس بالذنب. لذلك سيستولي على الطفل الإحساس بالندم فيجد نفسه داخل مرحلة اكتئابية. هذا و يعتبر النكوص إلى هذه المرحلة أحد أهم أسباب الاكتئاب لدى الراشد. لكن الحب ثم الاعتراف المتبادل بين الطفل وأمه يحققان اكتمال الفرد فيمتلك آلية التفكير وتستعيد الأم مجدها المفقود. وهي نفس المرحلة التي يلج الطفل على إثرها مرحلة الصراع مع الأب (مرحلة الوعي أو الأوديب الفرويدي) وتنتهي بالرغبة من جديد في العودة للأم (بعدما تم الفصل بين الأم بمعناها السيئ والأم المبعدة المؤسسة للأم) فعلى الطفل أن يجد مخرجا لیتاح له تصعيد ألمه بمعية الخيال والفكر والتخلص من رغباته العدوانية بطريقة لاشعورية (الحلم، المحاكاة، الابداع...) لتأسيس قوته النفسية. لكن استمرار عملية الكبت ستؤدي إلى فشل ميكانيزم التصعيد (حضور قوي ومؤلم للأب أو الأم) مما يفرز بنية

- "ذهانية" Psychose أو "عصابية" Névrose. و هذا ما نستخدمه عليه بمفهوم الهشاشة النفسية، أي حضور استعداد قبلي للمرض النفسي.
- المستفاد نظريا من "ميلاني كلاين":
- يعيش الطفل نوازع "أوديبية" مبكرة.
 - هناك لدى الطفل نزوع إلى قتل رمزي للأم (الثدي السيء مصدر للألم).
 - الشعور بالندم ينتج ملامح اكتئابية تعبر عن منحي تدميري للذات.
 - بعد الإحساس بالندم سيتمكن الطفل من أن يقيم فصلا بين قطبين اثنين: (الثدي السيء / الثدي الجيد)
 - امتلاك الرمز يؤسس للبعد عن الأم والانفتاح على الأب. (تأسيس الشعور)
 - الرموز هي وسيلة الطفل لنزع الغربة عن العالم.
 - الرمز يمنحه حرية أكثر مما يمكنه من امتلاك آلية التفكير.
 - بامتلاك آلية التفكير الحب، سيتم اجتياز الاكتئاب المبكر.
 - الأم تمنح الطفل قدرة على التحرر لتستعيده من جديد.
 - فشل المرحلتين الأوليتين؛ العلاقة مع الأب والعلاقة مع الأم؛ يؤدي إلى صراع يبنى بوجود بنيات مرضية ذهانية أو عصابية قد تتحول إلى اضطرابات مرضية نفسية أو عقلية خصوصا بعد أزمة نفسية مرتبطة بواقع مربك (وباء كورونا مثلا).

2.2. الأبعاد النفسية لصدمة "كورونا"

يختلف مفهوم الصدمة عن مفهوم العقدة (Jung, 1993)؛ فالعقدة تعتبر ممرًا ضروريا لأنها معبر يجتازه كل إنسان، بل إنها تميزنا عن الكائنات الحيوانية التي تعيش وفق "قانون الطبيعة". فمن خلال كتاب "الطوطم والطابو" أكد "فرويد" (Freud, 1912) خصوصية مبدأ تحريم الأقارب وتقديس الأب في المجتمعات الإنسانية، الشيء الذي أسهم في ظهور العقد النفسية القائمة على كبت الرغبات الأشد عدوانية. أما الصدمة فهي من دون شك حدث مفاجئ يسبب شرخا قويا عند من يعيشون هشاشة نفسية، فإما أنهم حاملون لبنية عصابية أو ذهانية وستعمل الصدمة على تحويلها إلى اضطراب فعلي، وقد يحدث أن يتعرض الشخص الحامل لاضطراب سابق إلى ظهور أعراض جديدة تزيد من تفاقم وضعه. لذلك يمكن القول بأن ردود أفعالنا تجاه وضعية الوباء والحجز الصحي الذي نتعرض له جميعا ليست متشابهة، فكما أن لدى البعض مناعة جسمية كامنة، يتمتع البعض الآخر بمناعة نفسية تجعل قلقه خفيفا، لأن توازنه النفسي يعتبر صام أمان يقاوم كل اضطراب محتمل. وكلا المؤشرين (المناعة الجسمية و التوازن النفسي) يسجلان حضورا أقوى لدوافع الحياة على حساب نوازع الموت. فيما يشير الحضور القوي لدافع

الموت، إلى سرعة الخضوع للألم، بل وينهزم الشخص مع أول امتحان تفرضه الأزمات الوبائية، فهي إن لم تذهب بالحياة ستودي بتوازنه النفسي.

3. الهشاشة النفسية أمام اختبار "كورونا"

إن العيش مع واقع الوباء لن يكون من دون رد فعل نفسي و انفعالي يتسم بالخطورة أحيانا، بحيث يعد حدثاً مؤلماً سواء كان الشخص مهتماً بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر فهذا الواقع يواجهنا مباشرة بالموت ، أو علم الأقل بالتهديد الكبير . لذلك يمكن أن يؤكّد هذا النوع من الأحداث شحنة عاطفية قوية يصعب التحكم فيها وسيكون لها العديد من التداعيات النفسية؛ كالوهن الجذاني واضطرابات النوم، أو الاهتمام الدائم بالمستقبل، والخوف من الآخرين مع ضعف الحكم واضطرابات المزاج. فالوضع الوبائي يؤثر على الجميع لكن بشكل متباين. فبينما يقوم البعض بردود فعل مدروسة تقوم على احتمالات عديدة مثل نسبة احتمال تعرضه للوباء، أو التعرض له فعلا ، أو بعد تجاربه السابقة الناجمة عن الأحداث المجهدة و الحالات الصحية و الجسدية و حتى متغير العمر... و هي حالة خوف إيجابي من شأنها المساهمة في حفظ الذات. قد يشعر البعض الآخر بالإرهاق ولا يفهم ما يحدث داخله ، بينما سيعاني أشخاص آخرون من الخوف أو القلق الزائد بشكل يؤثر على معاشهم فيجدون أنفسهم متجاوزون من قبل انفعالاتهم الغير مفهومة و الصادرة عن بنيتهم النفسية الهشة، فيظهر عليهم الأرق أو النوم الكثير؛ أو حتى اضطرابات الأكل مثل الشره أو فقدان الشهية. كما تظهر لدى من يعانون من اضطراب الوسواس أفكار متكررة ؛ فتهاجمهم فيروسات (لا تشبه أي فيروسات أخرى...) تضطربهم للانخراط في طقوس متكررة ومرهقة (مثل التصنيف ، العد ، الترتيب ، التنظيف)، ولأن الوسواسي مثلاً يحس باختلال داخلي سيحتاج إلى إعادة ترتيب مكوناته الداخلية بشكل متكرر من خلال عملياته الدقيقة و المتواترة. وبهذا سيصبح الوسواسي جلد ذاته، فهاجس المرض يربك حساباته. إنه يرى "فيروس كورونا" كشبح يتهدد حياته أينما حل و ارتحل بل سيصبح هاجسا مؤلماً يغزو حياته. لذلك قامت إحدى الحالات بعزل قبلي لذاتها و لأسرتها الصغيرة عن الناس، حتى قبل القرار الحكومي، فجعلت من بيتها سجنا رفعت فيه مستوى الرقابة إلى حده الأقصى. أما الفوبيائي فعاناته حاضرة من دون خطر حقيقي لكن عندما يتحول الخوف المتخيل إلى حقيقة تتضاعف المخاوف بشكل مستبد. إن الخطر أثناء الوباء، ليس خيالاً ؛ إنه حقيقي تماماً، لكن هل يجب أن نتركه يغزونا ونسمح له بإفساد حياتنا ؟

من البديهي أن يظهر القلق كمكون من مكونات "الاكتئاب"، لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد لأنه يعتبر مؤشراً دالاً ضمن الاضطرابات الذهانية، كما في حال "العظام"؛ إلى جانب كونه من المؤشرات المرضية الدالة على وجود بعض الأمراض الجسدية (Roussillon, 2018) مثل الذبحة الصدرية، الإصابات في الجهاز التنفسي من قبيل ضيق التنفس والربو، الاستعمال

الكثير لبعض الأدوية، أو استئصال بعض الخلايا السرطانية التي قد تكون متضخمة، اضطرابات الجهاز الهضمي... ولأن القلق عموما هو انفعال كغيره من الانفعالات من قبيل الكآبة أو الفرح، فهو لا يشكل في حد ذاته اضطرابا مرضيا، لكن حينما يكتسح مجال الشعور والاشعور فإنه ينتج حتما عن ضعف نفسي مسبق، يظهر كخوف من دون موضوع واقعي يثير هذا الخوف، ويتفاقم مع وجود حالة وباء مستفحل يؤدي إلى الشعور بانعدام الأمان، خصوصا حينما تكون طرق العدوى متعددة وتستدعي حرصا من نوع خاص. بل هي حالة استدعت حزا صحيا تفاقم معه الوضع وجعل هؤلاء الذي يعيشون واقع الضعف والهشاشة النفسية يعانون بشكل مضاعف فأصبحت حالاتهم حرجة وضعت توازنهم النفسي في مهب الريح. فخبروا إحساسا مزدوجا تراوح بين الخشية المعلنة من الموت والرغبة في الاستسلام لقانون الفناء (حالات الأرق - ضعف الشهية - نوبات الهلع - الهواجس المرضية ...).

خاتمة

إن العصر الحالي يضفي قيمة عليا على الحياة (Charlot, 1976)، لذلك أصبحت تظهر كخير مطلق لا يجب التطاول عليه. مما يكشف كذلك عن مفارقة مريبة، فبقدر ما نسعى إلى مراكمة القيم المرتبطة بالحياة، كالربح الاقتصادي، والتفوق العلمي والتكنولوجي وكذا الخطط التنموية القائمة على الربح المادي، بقدر ما ضعف فينا البعد الإنساني، الشيء الذي يجعلنا كائنات لا تستشعر امتدادها الروحي القادر على جعلنا نتجاوز المعطى الواقعي المحبط. لذلك تساءلت "شارلوت" عن دواعي استفحال قلق الموت لدينا؛ وأضافت؛ لماذا لا نخشى في العادة أن ننام أو أن نغط في سبات عميق؟ فكان جوابها على هذا النحو:

"يبدو بأن حكاية الأميرة النائمة جد مهمة لتأكيد هذه الملاحظة، ولذلك أتساءل: هل سنكون مطمئنين إذا قيل لنا " ستمامون مائة سنة " أو "ألف سنة " أو حتى "مدة غير محددة " ثم بعد ذلك ستستيقظون؟ إن مثل هذه الأفكار تبعث على التأمل والتفكير، فلنفترض فعلا بأننا نهول من قدر الموت، الشيء الذي يجعلنا نبدي قلقا يفقدنا توازننا النفسي، بل وقد يفقدنا الحياة نفسها.

إن القلق الحاد ذاته يعتبر استسلاما لدافع الموت، و لعل التحليل النفسي مجال يستقبل هذا الإشكال الوجودي المنبثق من عمق علاقتنا بهذا الدافع، فهناك ذلك القلق الكبير الذي ينتابنا كلما أحسنا بقرب الموت (الأوبئة- الأمراض المزمنة - السرطان...)، بحيث يفقدنا درجات من إمكانية انتزاع فرص النجاة، بل و سيقربنا أكثر من القبر حتى دون وجود خطر فعلي. لقد شاء القدر أن يضعنا أمام اختبار عسير لا يصمد أمامه إلا من منح نفسه إمكانية

ترميم ذاته، ولأن القلق الزائد لن يبعد الموت فعلا، فإنه من الضروري أن ننتبه في الأوقات العصيبة الراهنة إلى مثل هؤلاء الذين يبدون قلقا غير عادي، وكذلك لمن لديهم تاريخ مرضي يجعلهم غير قادرين على تحمل وضع الحجر الصحي، حتى نجد لهم حلوًا بديلة، كأن تمنح لهم تراخيص خاصة للتجوال، بل وفي جعلهم ممن تكون لهم الأولوية لإجراء اختبار الخلو من المرض، كما يفترض أن يحضوا بمتابعة نفسية لحالتهم، وأن يكونوا مسبقا مسجلين ضمن لائحة تختص بها هيئات تعنى بالسلامة النفسية. الشيء الذي يتطلب خلق هيئة صحية نفسية تابعة للصحة العمومية، تحفظ مثل هذه البيانات.

المراجع

- وادي خديجة (2017)، هل ينهي الموت دورة الحياة، دار النشر أفريقيا الشرق، ص: 129
وادي خديجة (2018)، حين يقلق تمثل الموت الحياة، دار النشر أفريقيا الشرق، ص: 295

Freud Sigmund (2001), Totem et Tabou. Interprétation par la psychanalyse de la vie sociale des peuples primitifs,(Traduit de l'allemand) 1923 par Jankélévitch, Edition payot , p : 121

Jung Carl Gustav (2013), L'Âme et la vie, Traduit par Roland Cahen et Yves le Lay,Librairie Générale Française , p :395

Kristeva Julia (2000), Le génie féminin, Ed Fayard, p :413

Monica Charlot (1976). vivre avec la mort, Ed, Alain Moreau, Paris, p : 229

Roussillon René (2018). Manuel de psychologie et de psychopathologie clinique générale, Edition Elsevier Masson p : 544

اللغة العاملة في زمن "كورونا"

التشكلات اللغياتية في زمن "كورونا"

حنان بندحمان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة ابن طفيل. القنيطرة

Hanane.bendahman@uit.ac.ma

ملخص

تنخرط هذه الدراسة في إطار مقارنة لغياتية -اللغية التقنية- (Messaoudi 1990, Rousseau 2007)، تروم رصد وتوثيق الوحدات اللغياتية التي تشكلت في ظل الوضعية الوبائية التي يعرفها المغرب حاليا، وبالتالي العالم قاطبة والتي أطلق عليها "كورونا- كوفيد-19". من ثمة سنعمل على جمع وترتيب وتصنيف اللغية التقنية العالمية (Messaoudi 2010, 2012) التي أفرزتها هذه الوضعية وتم تداولها على مستوى ميادين مختلفة من النشاط الإنساني. وذلك انطلاقا من متن اعتمدنا في جمعه على الدراسات وقصاصات الأخبار التي تصدر بالجريدة الإلكترونية المغربية المستقلة هسبريس وواكبت مراحل ظهور وانتشار الوباء.

الكلمات المفاتيح: كورونا، وباء، لغية تقنية، لغية تقنية عالمة، لغية تقنية عادية.

Résumé

Cette étude s'inscrit dans le cadre d'une approche technolocale (de « technolocale ») (Messaoudi 1990, Rousseau 2007), en visant à repérer et documenter les unités technolocales formées dans le cadre de la situation épidémiologique, appelée "Corona-Covid 19", que connaît le Maroc actuellement ainsi que le monde tout entier. Ainsi, nous allons collecter, organiser et classer les unités du technolocale savant (Messaoudi 2010, 2012) produit par cette situation et utilisé dans différents domaines de l'activité humaine. Pour ce faire, nous allons constituer un corpus à partir d'articles et de capsules publiés par le journal électronique marocain indépendant Hespresse qui a couvert les différentes phases de la parution et la propagation de l'épidémie.

Mots-clés : coronavirus, épidémie, technolocale, technolocale, savant, technolocale ordinaire.

مقدمة

يعيش العالم اليوم على إيقاع وباء كورونا المستجد الذي اجتاحت العالم بأسره وبدون استثناء. هذا الوباء الذي يعرض حياة الإنسان للخطر دون باقي الكائنات الحية الأخرى. فإذا

كان الإنسان لزمن طويل سيد العالم، فقد أضحي الكائن الأكثر هشاشة والأكثر عُرضة للهلاك. وحرصا على حياة الناس وخوفا من انتشار العدوى خضع العالم لتدابير احترازية. والمغرب كباقي الدول يخضع لهذه التدابير ويعمل على إنجاحها رغبة في تقليص حجم استفحال كورونا وزحفه. وهذا ما ساهم في بلورة لغة خاصة على مستوى ميادين متعددة: الصحة؛ القانون؛ الأمن؛ التعليم؛ الإعلام وغيرها من الميادين التي تعتبر الأكثر ارتباطا وتفاعلا مع هذه الجائحة. وإنصافا لذاكرة التاريخ من الجانب اللغوي، سنعمل على رصد بعض الوحدات اللغائية التي برزت ونشطت في هذا الإطار، وذلك من خلال المقاربة اللغائية لميدان حفظ الصحة والأمن الصحي الذي ارتبط بشكل قوي بزمن كورونا. إذ سنحاول تتبع هذه الوحدات للوقوف على مدى ارتباطها بالبواء من جهة وباللغة العربية من جهة أخرى.

1. في تحديد اللغية التقنية

كشف التواصل عبر مختلف الوسائط التواصلية وخلال الوضعية الصحية الحالية المرتبطة ببواء كورونا عن تشكيلات لغائية متعددة تمتح من ميادين مختلفة باعتبار أن اللغية التقنية، وكما تحددها ليلى المسعودي Leila Messaoudi، هي «معرفة القول، كتابيا أو شفويا، معبر عنها بكل مقول لساني مناسب، إنها معرفة أو معرفة الفعل في ميدان متخصص [...] لها خاصية شمولية، قد تكون موحدة أو غير ذلك، كتابية أو شفوية، عالمة أو شعبية، تقليدية أو حديثة، تقنية أو علمية» (Messaoudi 2010, 134). إذ تركز على دور الخارج اللساني انطلاقا من متغيرات متعددة ترتبط أساسا بالمتكلم والوضعية والميدان لبلورة مفهوم اللغية التقنية الذي يؤدي بعدا وظيفيا وبالتالي هوياتيا. ومن ثمة تميز المسعودي (2012) بين لغية تقنية عالمة تحيل على ميادين علمية ومعرفية مختلفة (طب؛ هندسة؛ فيزياء...)؛ وبين لغية تقنية عادية ترتفع بالنشاط الإنساني المتجذر في المجتمعات ذات الإرث الثقافي التقليدي، حيث يتأسس نقل المعرفة والمهارات على الدربة والمراس، كما نجد في الحرف التقليدية والصناعات الحديثة (إصلاح السيارات، الكهرباء...).

وهكذا تكون اللغية التقنية أشمل من اللغة المتخصصة التي حددها بيير لورا Pierre Lerat (1995)، باعتبار اشتغالها أساسا على لغة العلوم والتقنيات واقتصارها على مدارات الكتابة. في حين أن اللغية التقنية تتعدها لما هو شفوي عندما تخترق حياة البسطاء في تعاملهم مع لغتهم اليومية التي تستقطب مداركهم ومعرفة الفعل لديهم (بندحان 2014، 2017). وفي هذا السياق يؤكد لويس جان روسو Louis Jean Rousseau (1995)، وبناء على ما ورد عند المسعودي Messaoudi «نعني باللغية التقنية نسقا ضميا يستعمل في حقل التجارب المتخصصة والتميزة باصطلاحية خاصة وبوسائل أخرى كالأسلوب والجملة. هذا المفهوم غالبا ما سمي بلغة التخصص ولكن هذا الاستعمال تعرض للانتقاد» (Messaoudi 2003, 155).

هذا وتتجاوز اللغية التقنية مفهوم المصطلح وآليات اشتغاله، حيث تشمل رموزا غير لسانية، كما تستقطب وحدات لغائية لا تخضع لمساري المواضعة والتوحيد. بالإضافة إلى أن اللغية التقنية، باعتبار ارتباطها باللغة العامة، قد تتضمن استعمالات معجمية وخطابية خاصة بميدان من الأنشطة الإنسانية، قد تكون مفردة أو مركبة على خلاف المصطلحية، إنها «مجموعة من الاستعمالات المعجمية والخطابية، الخاصة بمجال من النشاط الإنساني. لذا فإن الإنتاجات الكتابية والشفوية، المتضمنة للمصطلحية العاملة والنصوص الأكثر تخصصا وكذلك للألفاظ المتخصصة المتداولة لدى عامة الناس في المصطلحية الشعبية تندرج جميعها داخل اللغية التقنية» (Messaoudi 2003, 174- 175).

أمام الوضعية الصحية التي يعرفها المغرب كباقي دول العالم بسبب انتشار وباء كورونا، كيف يتحقق التواصل على مستوى اللغة انطلاقا من اللغية التقنية؟

2. متن الدراسة

أفرزت الوضعية الصحية الجديدة التي يعرفها المغرب، ضرورة التواصل بين المسؤولين عن قطاع الصحة وبين عموم المواطنين/نات، كما استنفرت جهات مسؤولة أخرى، بل ميادين أساسية¹ (القانون؛ الأمن...) لتحقيق الأمن الصحي داخل البلاد. هذه الوضعية أثارت لغة خاصة وعلى مستوى ميادين متعددة، نروم من خلال دراستنا توثيق هذه الوحدات اللغائية التي تم تداولها عبر وسائل التواصل المرئية والرقية والوسائط الإلكترونية.

وقد اعتمدنا في ضبط هذا المتن، في ظل الحجر الصحي وصعوبة القيام ببحث ميداني، على المقالات والدراسات وقصاصات الأخبار التي صدرت على موقع جريدة هسبريس Hespress. تعتبر جريدة هسبريس أول جريدة إلكترونية مغربية مستقلة. تأسست سنة 2007. تأخذ الجريدة طابع مدونة جماعية للنشر الإلكتروني على مستوى حوامل متعددة: كتابية (مقالات؛ قصاصات...)؛ صوتية (فيديو؛ يوتوب...)؛ صور... كما تستقبل موادها من المتابعين والمتقنين والباحثين. وتمكن المتصفح من موادها بيسر من خلال مجموعة من النوافذ التي تم توزيعها انطلاقا من عدة بوابات توفر من خلالها المادة الإعلامية: +بوابة الأخبار وتضم: (جميع الأخبار؛ أخبار رئيسية؛ الأكثر تعليقا؛ الأكثر تقييما؛ الأكثر مشاهدة) +بوابة الأقسام وتشمل: (الرياضة؛ منوعات؛ حوادث؛ سياسة؛ مجتمع؛ فن وثقافة...) + بوابة الخدمات (مواقيت الصلاة؛ حالة الطقس) +بوابة الإعدادات وترتبط بكل الوسائط التي تيسر الاتصال بموقع الجريدة من (فيسبوك؛ إنستغرام؛ تويتر؛ يوتوب). كما أضيفت بوابة تم التأشير عليها باللون

¹ مفهوم الميدان le domaine يرتبط بالأنشطة الإنسانية سواء التي ترتبط بوضعية عادية أو تلك التي ترتبط بوضعية متخصصة عالمة، انظر (Messaoudi 2003, 174)

الأحمر خاصة بفيروس كورونا في المغرب وتحمل رمز كورونا. تضم هذه البوابة كل الإحصائيات والمبيانات الخاصة بالوباء.

تابعت هسبريس أحداث كورونا عبر العالم وفي المغرب وعلى كل الواجهات. فنشرت دراسات وأخبار في كل التخصصات (تاريخ؛ اقتصاد؛ طب؛ بيولوجيا...). كما واكبت بيانات ونشرات وزارة الصحة. بالإضافة إلى الكاريكاتير والفيديوهات واليوتوب. وكانت تغطيها للأحداث التي يعرفها العالم والمغرب بشكل خاص تأخذ طابع السبق الصحفي والمصادقية والشمولية بتغطيتها للأحداث وتقديمها للمعلومة وللخبر الصحفي والمعرفي على مستويات متعددة (دراسات؛ حوارات...). وهذا ما يوفر للباحث، في ظل الحجر الصحي، مادة أولية وأساسية يستطيع من خلالها تصنيف وتوثيق مدونة لغياتية عرفت بالرغم من طابعها المتخصص والعلمي "لغية تقنية عامة" ولغتها العربية المعيار (وضعا أو ترجمة أو تعريبا) نوعا من الانتشار والتداول بين شرائح مجتمعية مختلفة.

2. اللغية التقنية وتشكلاتها في ميدان حفظ الصحة والأمن الصحي

انطلاقا من المتن الذي قننا بجمعه من موقع جريدة هسبريس، تمكننا من جرد وتصنيف أولي لهذه الوحدات اللغياتية التي تنتمي للغية التقنية العامة والتي أخذت مسارا تداوليا بين المتخصصين من جهة وبين عامة الناس من جهة أخرى. ومن ثمة كان تمييزنا لمجموعة من الوحدات على مستوى ميادين مختلفة ارتبطت بأهم المرافق الحيوية في البلاد: الصحة؛ الأمن؛ القانون؛ التعليم؛ الإدارة العمومية؛ الإعلام... ونظرا لتداخل بعض الوحدات واستدعائها لبعضها والتفافها حول نفس الهدف، فقد ارتأينا، من الناحية الإجرائية، أن نبورها من خلال عنوان جامع لها وسمنا بميدان حفظ الصحة والأمن الصحي كإطار أساسي يلتف حوله كل ما يتعلق بالصحة وما قد تستدعيه من تخصصات متعددة تضمن أمن وسلامة الإنسان. وبذلك كان تركيزنا على محورين أساسيين في ارتباطهما بالسلامة الصحية وهما: ما يتعلق بالتشخيص وما يرتبط بالإجراءات الوقائية.

1.3. ما يتعلق بالتشخيص

كان ظهور كورونا بمدينة ووهان بالصين نهاية دجنبر من سنة 2019 وحصد معه العديد من الأرواح. ومع بداية سنة 2020 انتقل الفيروس إلى دول أوروبية أعلنت عن ظهوره: إيطاليا؛ فرنسا؛ إسبانيا. ثم هاجر إلى الولايات المتحدة... وهكذا غزا كورونا العالم بأسره، حتى صار وكأنه في حالة حرب؛ يكتب محمود درويش عن حالة الحرب ووضعيته:

والحرب : تثقب ظلنا لتمرّ من باب لباب¹. (درويش 1984، 105)

وهكذا تكون سنة 2020 سنة كورونا بامتياز أو زمن كورونا قياسا على ما عرفه التاريخ الإنساني من أزمنة وبائية متعددة² (عام الكوليرا؛ عام الجذري؛ عام البون...). وباعتبار اللغة حمالة فكر ووسيلة أساسية للتواصل بين العشيرة اللغوية، فقد خلقت جسرا تواصليا بين المتخصصين والمسؤولين وعامة الناس لطمأنتهم وتوعيتهم وتحذيرهم بضرورة أخذ الحيطة والحذر والالتزام بكل التدابير التي يتم اتخاذها وتصير إلزامية للجميع تفاديا لانتقال العدوى.

■ كورونا، أو ما يعرف بفيروس الكورونا، تُرجم إلى اللغة العربية بالفيروس التاجي. ويحمل هذه التسمية لأنه يبدو بأطراف مدببة كالنتاج (موقع BBC Arabic). إنه مجموعة من الفيروسات التي تصيب الجهاز التنفسي سواء كانت خفيفة كنزلات البرد أو شديدة مثل الالتهاب الرئوي، ومنه متلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (SARS) التي انتشرت بالانتقال من الحيوانات إلى الإنسان؛ وكذا متلازمة الشرق الأوسط التنفسية، وهي سلالة أخرى (MERS) انتقلت في البداية من الإبل إلى الإنسان. وهذا ما يؤكد أن فيروسات كورونا حيوانية المنشأ، أي أنها تنتقل بين الحيوانات والبشر (موقع المنظمة العالمية للصحة 2020).

■ كوفيد-19، كلما ظهر فيروس تاجي جديد ناشئ عن سلالة جديدة يأخذ تسمية جديدة. ومن ثمة أطلقت تسمية كوفيد-19 على الوضعية الصحية التي عرفتها مدينة ووهان بالصين نهاية السنة الماضية. هذه الوحدة اللغائية COVID-19 هي اختزال لـ Coronavirus disease 2019 الذي تمت ترجمته للغة العربية باسم مرض الفيروس التاجي 2019، حيث يحيل الرقم (19) على السنة التي ظهر فيها الفيروس بالصين. وقد سبق وأطلق عليه سابقا (nCoV-19) اختزالا لـ novel coronavirus 2019 أو ما يتداول بالعربية بفيروس كورونا المستجد.

■ الفيروس، تعريب لكلمة Virus. وقد ترجمت في بعض القواميس العربية بمعنى حَمّة (المنهل 1986، قاموس المعاني). والحمة في لسان العرب هي «الحُمى والحُمّة: علة يستجر بها الجسم، من الحميم [...] والحُمّة: أرض ذات حمى. وأرض مُحَمّة: كثيرة الحمى» (ابن منظور، م. 12، 155). وبذلك كانت ترجمة الفيروس بما ينتج عنه من أعراض وليست بترجمة للكلمة في ذاتها. وتندر الكلمة من أصل لاتيني بمعنى السم، حيث انتقلت لتدل قديما على مادة عضوية قابلة

¹ جاء في قصيدة "بيروت" عن الحرب (درويش 1984، 105) :

الحرب : تهدم مسرحيتنا لنلعب دون نص أو كتاب.

والحرب : ذاكرة البدائيين والمتحضرين.

والحرب : أولها دماء.

والحرب : آخرها هواء.

والحرب : تثقب ظلنا لتمرّ من باب لباب.

² ينظر البراز (1999) و (2004).

لنقل الأمراض (Robert, 210). والفيروسات كما يرد تعريفها استنادا إلى ما توصل إليه علم الفيروسات هي:

كائنات حية دقيقة تعد بعض أنواعها من أخطر مسببات للأمراض القاتلة.

والفيروسات قادرة على مضاعفة نفسها ملايين المرات عندما تكون داخل الخلايا المصابة بها، وتلك الملايين من الجزيئات الفيروسية قادرة بما تحمله من معلومات وراثية على إصابة خلايا أخرى عندما تكون الظروف مناسبة لذلك.

وتتكون الفيروسات أساسا من حمض نووي، إما "دي أن أي" (DNA)، وإما "آر أن أي" (RNA) محاطة من الخارج بمحفظة من البروتين. (موسوعة الجزيرة)

▪ الوباء، أصل الوحدة من فعل "وَبَأَ". والوباء لغة هو الطاعون أي كل مرض عام، ويشار له بالقصر "وبى" وجمعه "أوبئة" وبالمد "وبا" ويكون جمعه على "أوباء" وبالهمز وباء (ابن منظور 1994، م. 1، 189). وللتعبير على الأرض التي دخلها الوباء واستفحل بها، يذكر صاحب لسان العرب أرض وبيئة ووبئة وموبوءة وموبئة، وقد جاء في الحديث «إن هذا الوباء رجز».

وقد حضرت كلمة "وباء" في كتب التاريخ رسدا للأمراض والطواعين المهلكة التي عرفها المغرب¹ (الناصري 2001). وبهذا المعنى ومع توسيع دائرة الأمراض، يحدد محمد أمين البزاز (1999)، في اشتغاله على تاريخ الأوبئة في المغرب، تعريفا للوحدة اللغائية "وباء"، حيث أطلقها على الطاعون والكوليرا والحمى وغيرها من الأمراض المعدية والقاتلة. وقد أشار إلى الوباء، كذلك، بوحدة "داء". كما يذكر أن "الوباء/ الوبا" في اللهجة المغربية يرتبط بجميع الأمراض المعدية والمؤدية إلى الوفاة². وهنا تكمن، كذلك، أهمية الكتاب، فبالإضافة إلى أهميته بالنسبة للمؤرخ في ضبط وتقديم قراءة في التاريخ الاجتماعي للمغرب الحديث من حيث الأمراض والأوبئة، فإنه عمل على رصد مجموعة من الوحدات اللغائية الصحية التي تداولها المغاربة سواء على مستوى اللغة العربية المعيار، ما يقدم للباحث لغية عالمة أو على مستوى اللهجة المغربية، ما يسمح بتوثيق لغية عادية وسمت ميدان الصحة في المغرب، من جهة، كما جرت على ألسنة عامة الناس، ومن جهة أخرى، تقدم للدرس اللساني مدونة لغائية لهجية.

وما يمكن أن نسجله بالنسبة لوضعية كورونا، أنه لم يتم الإعلان عنها كوباء يحتاج العالم بأسره من لدن المنظمة العالمية للصحة حتى يوم 11 مارس 2020. بمعنى أنه منذ ظهورها في

¹ جاء عند أحمد بن خالد الناصري أن المغرب عرف سنة 1251/ 1835 الوباء «وفي هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالإسهال والقي وغور العينين وبرودة الأطراف» (ج. 8، 55).

² في ضبط هذه الوحدات اللغائية، استعنت بالدراسة التي قدمتها فدوى ابن خيرة حول كتاب محمد أمين البزاز: ينظر (ابن خيرة 2013).

دحنبر 2019، اعتبرت لدى المنظمة ومن قبل دول العالم مجرد فيروس، قد لا يدوم طويلا مثله مثل بعض الفيروسات التي عرفها العالم قبل ذلك. ومن هنا نتساءل متى يتحول الفيروس إلى وباء؟

يرتبط انتقال الفيروس، إلى درجة الوباء بالنظر إلى معدل انتشار العدوى وكذلك بالنظر إلى عدد الوفيات. وفي هذا السياق يقر محمد حبيدة «لكن الأمر الأكيد هو أن وباء اليوم يختلف عن وباء الأمس، لأنه كسّر "الحدود البيولوجية" التي أقامها الغرب في القرن التاسع عشر. كما ذكرنا، وجعّ الدول المتقدمة والأقل تقدما في سلة واحدة، كونه حصد الأرواح من دون تمييز» (حبيدة 2020).

■ الجائحة، وهي من فعل "جوح". والجُوح بمعنى الاستئصال، وهو من الاجتياح. وتقول العرب جاحتهم السنة أي استأصلت أموالهم، فهي سنة جائحة بمعنى سنة جدبة. وبذلك تكون الجائحة «الشدة والنازلة التي تحتاج المال [...]». وكل ما استأصله: فقد جاحه واجتاحه. وجاح الله ماله وأجاحه، بمعنى، أي أهلكه بالجائحة [...]. والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله» (ابن منظور، م. 2، 431). وبمعنى المصيبة ترد في اللهجة المغربية بعد تحويل الهمزة ياء للتخفيف "جايحة"، وغالبا ما تحضر في باب الملائنات. ويذكر ابن منظور أن الجوائح ترتبط عند الفقهاء بكل «ما أذهب الثمر أو بعضها من أمر ساهوي بغير جنابة آدمي».

وانطلاقا من هذه التعريفات التي وردت في المعاجم العربية، نستشف أن الوحدة اللغائية "جائحة" لا ترد كمرادف لوحدة "وباء" لوصف الوضع الصحي للإنسان أو للمجتمع؛ وإنما ترتبط أساسا بالجانب المالي والاقتصادي. وقد يكون بعيدا عما هو صحي أو وبائي. غير أننا نلاحظ أن وحدة جائحة، غالبا ما استعملت في سياق أزمنة الأوبئة والقحوط والمجاعات، ما يعطي انطبعا بأنه يمكن استعمالها كمرادفين. في حين أن هذا الترابط يعود إلى التلازم الحاصل بين الوباء وبين الجائحة، حيث أن الوباء يشل حركة المجتمع على كل المستويات بما فيها الجانب الاقتصادي وما يعانيه من ركود وتراجع أدى في سنوات الأوبئة عبر التاريخ إلى كوارث إنسانية. ومن ثمة تكون الجائحة أكثر عمقا في التعبير عما تعيشه الإنسانية عند تفشي الأوبئة وما تخلفه من آثار على المجتمعات وعلى مستويات متعددة.

في نفس السياق، ربط الفقهاء الجائحة بما يصيب الثمر من آفة طبيعية بعيدا عن كل تدخل للإنسان. فهل استعمال وحدة "الجائحة" في ظل هذه الوضعية الصحية التي يعيشها العالم تحمل استبعادا لكل اتهام أو تفسير أو تأويل من شأنه أن يرجع وباء كورونا إلى تدخل بشري مرده ما قد تقوم به بعض المختبرات العالمية من تحويل mutation للفيروسات؟ وقد نكون، بذلك، أمام حرب ثالثة لها خاصية أخرى وهي الحرب البيولوجية/ حرب الفيروسات؟

■ نظام اليقظة الوبائية، ويتعلق الأمر بخلية صحية تسهر على ضمان الإجابة عن استفسارات المواطنين 24/24 ساعة وطيلة أيام الأسبوع، وهي عبارة عن مركز نداء وظيفته تقديم خدمة تواصلية، حيث تم تفعيله على مستوى المركز الوطني لعمليات طوارئ الصحة العامة. وقد أطلق عليها "ألو اليقظة الوبائية 080 100 47 47". ولتقليص الضغط على هذا المركز تم إنشاء مركز آخر "ألو 141 للمساعدة الطبية الاستعجالية" لتقديم معلومات ونصائح وتوجيهات حول كوفيد-19 لمن تنتابه أعراض المرض (سعال؛ حمى؛ أعراض تنفسية). فيما يسهر المركز الأول على تقديم التوجيهات للعموم ونصائح للمسافرين، بالإضافة إلى إجراءات الإبلاغ عن حالة مشتبه فيها بالنسبة لمهنى الصحة. ويعمل المركزين على توجيه الحالات المحتملة إلى المراكز المختصة لذلك حسب الجهات (موقع وزارة الصحة). وفي الجانب الاقتصادي، فقد تم، كذلك خلق ما أطلق عليه "لجنة اليقظة الاقتصادية (CVE)". وهي خلية تابعة لوزارة الاقتصاد والمالية وإصلاح الإدارة تسهر على تفعيل وتقديم المساعدات المالية للأسر العاملة في القطاع غير المهيكل والمسجلة في "نظام الرصيد" وفقدوا عملهم بسبب الوباء ومخلفاته على الاقتصاد (موقع وزارة الاقتصاد).

■ حالة مؤكدة، ويقصد بها حالة الأشخاص الذين ثبت أنهم مصابون بكورونا بعد إجراء التحليلات الطبية لهم/لهن.

■ حالة مخالطة، بمعنى الحالة المشتبه فيها. ويقصد منها الأشخاص الذين يخالطون حالة مؤكدة ثبت أنها مصابة بكوفيد-19، حيث يتم تتبعهم وإجراء التحاليل للتأكد من إصابتهم بوباء كورونا من عدمه. كما قد يتطلب ذلك عزلهم لمدة 14 يوما ليتم التأكد خلاها من عدم الإصابة.

■ حالة وافدة، وهي الحالة التي ظهرت في المغرب حاملة للفيروس والتي كانت قادمة من الخارج. ذلك أن المغرب لم يسجل أي إصابة محلية قبل ظهور حالات لمغاربة قدموا من دول أجنبية إيطاليا خاصة.

■ حالة محلية، وهي الحالات التي انتقلت إليها العدوى وصارت بدورها حاملة للفيروس وللعدوى. بمعنى أن الوباء لم يعد مقتصرًا على المغاربة أو الأجانب القادمين من دول أجنبية، وإنما صار ينتقل بين المغاربة أنفسهم.

■ حالة مستبعدة، وترتبط بالحالات التي كانت محط شك لاختلاطها بأحد المصابين، لكن التحليل والتشخيص يؤكدان عدم إصابتها وخلوها من الفيروس / الوباء.

■ بؤرة، استعملت هذه الوحدة بصيغتها الإفراد والجمع، وارتبطت بمفردة أخرى "عائلية" أو "مهنية" أو بنعت لها "سوداء". وفي كل التحديدات، هناك إشارة إلى مصدر العدوى. فالبؤر العائلية تفيد أن العدوى تمت على مستوى العائلة. وفما يخص البؤر المهنية، فالمقصود أن العدوى كانت على مستوى العمل وبالتحديد على مستوى مصانع أو شركات أو وحدات

تجارية. هذا وتشير الوحدة "بؤرة سوداء" إلى أن مستوى العدوى كان مرتفعاً وأن عدد الإصابات التي يتم التأكد منها يظل في تزايد.

■ مرحلة الحضانة، من الناحية الطبية تدل مرحلة حضانة الفيروس، علم المدة التي يستغرقها حامل الفيروس، لكي تظهر عليه أعراض المرض، مثل (السعال؛ الحمى؛ صعوبة التنفس...). وقد تستغرق هذه المدة 14 يوماً بدءاً من تاريخ تعرضه للعدوى.

2.3. قضايا وقائية

في غياب لعلاج أو لقاح لفيروس كورونا-كوفيد-19، كان على الدول اتخاذ مجموعة من الإجراءات الوقائية حفاظاً على صحة مواطنيها وتحسباً لوقوع كارثة بشرية. ومن ثمة كان التفاعل مع مدونة لغياتية وسمت هذه المرحلة من حياة الشعوب في محاربتها لعدو غير مرئي.

■ تدابير احترازية، ترتبط لفظة احترازية في اللغة العربية بفعل حرز من الحرز بمعنى الموضع الحصين الذي يُلجأ إليه، وبالتالي لا يُوصل إليه. واحتترزت بمعنى تحرزت أي تَوَقَّيت (ابن منظور، م. 5، 333). ويذكر ابن منظور في سياق هذه اللفظة «وفي حديث يأجوج ومأجوج: فحَرَزَ عبادي إلى الطور أي ضمهم إليه واجعله لهم حرزا. [...] وفي حديث الدعاء: اللهم اجعلنا في حرز حارز أي كهف منبع، [...]؛ ويسمى التعويذ¹ جزءاً» (ابن منظور). ومن هنا، وبالإضافة إلى معنى الوقاية التي تحملها الكلمة، فإنها تقدم حقلاً دلالياً يرتبط بالحصن والملجأ وبالبعد الديني² كذلك.

في ظل هذه الوضعية الصحية التي يعرفها المغرب، وبعد إعلان فيروس كورونا وباء عالمياً، كانت هناك مجموعة من التدابير والإجراءات الاحترازية التي وصفت بكونها استباقية بالنسبة للمغرب. إذ لم تكن تشكل الحالات المعلن عنها وقتها إنذاراً قوياً، مقارنة ببعض الدول (إيطاليا؛ فرنسا؛ إسبانيا...). ومع ذلك تم الإعلان منذ 13 مارس 2020 على مجموعة من التدابير الاحترازية الأولية والأساسية (توقيف جميع أنواع الرحلات من وإلى المغرب؛ توقيف الدراسة، التعليم عن بعد، العمل عن بعد، مسافة الأمان؛ منع التجمعات الكبرى، منع الحفلات...)، مع التأكيد المستمر على الالتزام بـ"قواعد النظافة والسلامة الصحية". هذا وستتلو هذه الإجراءات تدابير أخرى أشد صرامة ابتداء من 20 مارس 2020 كتاريخ للدخول في الحجر الصحي وإعلان حالة الطوارئ الصحية والتي رافقتها، بدورها مجموعة من الإجراءات الاحترازية والضوابط الأمنية. ومن هنا تصطف "التدابير الاحترازية" ضمن الوحدات اللغياتية التي تبلورت

¹ والتعويذ من تعوذ به أي تعوذ بالله وكذلك استعاذ بالله وأعوذ بالله. ومنه المعوذتين وهما سورتي الفلق والناس (المعجم الوسيط، 635).

² ينظر في هذا السياق، وخلال تاريخ الأوبئة بالمغرب، حول مدى ارتباط الناس بالوازع الديني كتاب: (البزاز 1999) و(رويان 2013) و(الناصري 2001).

بشكل قوي في إطار هذه الوضعية وفي ميدان الأمن الصحي بصفة عامة. ونظرا لطبيعة هذه الوحدة، فهي تستدعي مجموعة من الوحدات اللغياتية الأخرى التي قد تستقطب ميادين متعددة ولا تقف عند الميدان الواحد.

■ مسافة الأمان، وكما تدل عليها تسميتها، فهي تحدد المسافة (متر واحد إلى مترين) التي يجب احترامها بين شخصين سواء عند تواصلهما معا أو عند ارتياد أماكن وفضاءات عامة. وذلك تفاديا لما يمكن أن يلتقطه الشخص عند تكلم أو عطس شخص آخر قريب منه، على اعتبار أن الرذاذ ينتقل بسرعة فائقة في الهواء وخاصة في الفضاءات المغلقة وسرعة أقل في الفضاءات المفتوحة. ولهذا ينصح كذلك بتبوية الأماكن.

وتطورا للدونة اللغياتية، فقد تم كذلك تداول وحدة أخرى "التباعد الاجتماعي" لوسم المسافة التي يجب المحافظة عليها بين الأشخاص تفاديا لتفشي العدوى. هذه المسافة لا تقتصر على أشخاص في الفضاءات العامة، وإنما أشخاص قد تربطهم علاقات أسرية أو عائلية أو جوار أو صداقة... على احتمال أن الفيروس هنا... يترص بالجميع. وهذا ما يؤثر على نفسية الناس ويعطي إحساسا بافتقاد عمق العلاقات الاجتماعية. وبذلك لا يصير مجرد تباعد جسدي، وإنما علائقي واجتماعي ونفسي.

■ الحجر الصحي، وهي وحدة مركبة من كلمتين "حجر/صحي". والحجر مصدر من فعل حجر. جاء في المعجم الوسيط (157)، حجر عليه الأمر بمعنى منعه منه وحجر الشيء على نفسه أي خصها به. وفي الشرع هو المنع من التصرف في ماله لفسقه أو جنون أو لصغر السن. وبذلك يكون الحجر بمعنى المنع (المعجم الوسيط، 167). وقد انتقلت الوحدة إلى ميدان الصحة، لتدل على معنى العزل المتضمن لمعنى المنع.

استعملت هذه الوحدة "الحجر الصحي" ترجمة للوحدة اللغياتية *quarantaine*. جاء في معجم *Robert* (1575) وضمن الكلمة المدخل الدالة على العدد *quarantaine* والتي انزاحت عن معناها اللغوي لتدل على فضاء للعزل يفرض لمدة أربعين يوما على المسافرين والبضائع القادمة من بلدان تعرف تفشيا لأمراض معدية أو على أشخاص قد يفترض أنهم حاملين لأمراض معدية.

وردت هذه الوحدة الكرنتينة/ الحجر الصحي¹ عند محمد أمين البزاز، ضمن «الاحتياطات الوقائية» التي تقي من انتشار الوباء والعدوى. وفي هذا الإطار يناقش الباحث محمد العربي مياد قانونية الحجر الصحي ومن هي السلطات المخول لها فرض الحجر الصحي، ليخلص إلى أن:

¹ سده أن معن، الح ج الص ح، وأهمته تعهد في الثقافة العربية الإسلامية إلى حديث نبوي "إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها" (رواه الشيخان).

الإيداع بالحجر الصحي، يتم بطلب من الطبيب الإقليمي، المختص، وهو في معظم الأحوال المندوب الإقليمي للصحة، ولا يعتبر هذا التصرف قرارا إداريا قابلا للطعن، وإنما إجراء احترازيا طبيا، الهدف منه الحفاظ على الأمن والصحة العموميين. ويكون من حق بل، ومن واجب السلطات العمومية إيداع المشكوك في وضعيته الصحية، في الحجر الصحي ولو دون رضاه، فضلا عن إمكانية تحريك المتابعة الجنائية ضده. (مياد 2020)

دائما، وفي إطار الوقاية والحماية من الأمراض المعدية والأوبئة التي عرفها المغرب، يشير بوجمعة رويان (2013) في كتابه حول الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، إلى ما يسمي بالحجر الصحي. كما أنه يشير وحدة لغياتية لم تتداول بكثرة وهي، "المجذومات" نسبة إلى داء الجذام، واستعملت هذه الوحدة بديلا عن الحجر الصحي، من باب الاحتراز من المرض. ونقلنا عن بوجمعة رويان، تُورد فدوى ابن خيرة تعريفا لـ "المجذومات":

غير أن هدفها الأساس، لم يكن التطبيب والعلاج، إنما عزل أولئك المجذومين مخافة انتشار العدوى. ولم تتخذ هذه المحاجر طابعا صحيا، بل كانت مجرد حارات معزولة، حيث انتقلت "الحارة" من معناها الأصلي إلى معنى آخر له بعد صم، ويفيد مكانا خاصا للمرضى والمنبوذين والمهددين بالموت. ولذلك تجدهم في باب الملابس يقولون "الله يديك للحارة" أو "الله يعطيك جذام الحارة" (ابن خيرة 2014، 44).

وفي إطار وباء كورونا، استعملت وحدة الحجر الصحي مقابلا للوحدة الفرنسية confinement التي تعني، في الميدان الصحي، بشكل عام منع المريض من مغادرة غرفته (Robert, 363). كما يدل فعل confiner على إرغام شخص على البقاء في فضاء محدود. في المغرب تم توظيفه على مستويين: مستوى العزل الصحي الذي يمارس كإجراء طبي في حق المصابين أو الحالات غير المؤكدة في انتظار ظهور علامات الفيروس من عدمه. ثم مستوى الحجر الصحي الذي تم الإعلان عنه كإجراء وقائي في مرحلة من تطور الوباء وارتفاع حصيلة المصابين والحالات المشتبه في إصابتها وبعد إجراءات احترازية سابقة كـ "توقيف الدراسة/ تعليق الدراسة" و "منع التجمعات والحفلات" و "منع السفر من وإلى المغرب". وبذلك أعلن عن الحجر الصحي مخافة انتشار العدوى بين المواطنين/نات، بالتزام المنازل وعدم مغادرتها إلا عند الضرورة القصوى وبترخيص من السلطات المحلية باستصدار "وثيقة رسمية" تسمح بذلك، بالإضافة إلى منع حركة التنقل والسفر بين المدن والمناطق. وقد تم تحديد فترة الحجر الصحي لمدة شهر قابلة للتجديد. وهو ما حصل بالفعل، حيث أعلن على تمديد الفترة إلى 20 ماي 2020 بعد المرحلة الأولى التي امتدت من 20 مارس إلى 20 أبريل 2020.

لم يكن المغرب استثناء في اتخاذ مثل هذا الإجراء، وإنما عرفته مجموعة من دول العالم. وبذلك تعيش معظم الدول وضعية الحجر الصحي، مما يخالف ما عُرف في أزمنة وبائية أخرى علم، من التاريخ، وهذا ما يؤكد إدغار موران Edgar Morin في الحوار الذي قامت بنشر ترجمته إلى العربية جريدة هسبريس يوم 19 أبريل 2020:

إطلاقاً. كانت هناك أوبئة عالمية، لكن لم يسبق أبداً أن كان هناك حجر صحي، علم، النطاق العالم. كما كانت هناك اضطرابات وارتجاجات اجتماعية أثارها الأوبئة، لكن لم يسبق أن كان هناك اضطراب عالمي. لقد كنت من بين أولئك الذين ذهبوا إلى أن المجري المجنون الذي انجرفت في خضمه الإنسانية سيحمل معه كوارث، لكن مثل هذه الكارثة لم تكن تخطر لي على بال.

وفي هذا السياق واكب الإعلام المرئي والسمعي هذه الوضعية بنشر وإذاعة وصلات إخبارية تخاطب وعي المواطنين/نات وتحثهم/هن على ضرورة قبول وتطبيق ظروف الحجر الصحي، ومن ذلك "بقا فدارك/ نبقاوا فالدار"، بل نلاحظ أن مثل هذه الصيغ صارت مرافقة للعلامة التجارية للقنوات التلفزية.

كما أن هذا الحجر الصحي العام الذي طال المغاربة بملازمة بيوتاتهم/هن وحوارهم/هن ومدنهم/هن، بعزل المدن ومنع التنقل وما إلى ذلك، رافقه الكثير من النكت والكاريكاتور والمستملحات التي تم تداولها على تطبيقات الواتساب وقنوات التواصل الاجتماعي. وهذا ما يساهم في التخفيف من وطأة الحجر الصحي. كما أبرز القدرة الخلاقة للهِجَة المغربية لمجموعة من هذه المستملحات والنكت والرسائل الساخرة... حيث اعتبر إدغار موران هذه الأشكال الإبداعية التي أثارها الحجر الصحي «[...] أجساماً مضادة أو مضادات للاكتئاب. وعلى وجه الإجمال قد جنبنا التواصل من كل نوع الشعور بالحجر الصحي كما لو كان حبساً واحتجازاً». (حوار مع إدغار موران 2020).

■ الكامات الواقية، ويعود أصلها في اللغة العربية إلى فعل "كَم" ومنها الكُم بمعنى كم القميص والكُمَة «كل ظرف غطيت به شيئاً وألبسته إياه فصار له كالغلاف، ومنها أكام الزرع غُلْفُها التي يخرج منها» (ابن منظور، م. 12، 526). ويذكر ابن منظور كذلك «كَمَمْتُ الشيء إذا سترته» ويورد بناء على ما جاء عند الأصمعي «كَمَمْتُ رأس الدن أي سدته. والمِغَمَة والمِكَمَة: شيء يوضع على أنف الحمار كالكيس، وكذلك العِمَامَة والكَامَة. والكام: ما سد به. [...] والكامَة: شيء يسد به فم البعير والفرس لئلا يعض». (ابن منظور، 527). وقد ميز العرب بين الكامَة واللثام الذي يضعه الإنسان، وخاصة المرأة، على أنفه/ها أو فمها/ها، ومنه شرح ابن منظور

«اللتام: رد المرأة قناعها علم، أنفها ورد الرجل عمامته على أنفه» (533) على أساس أن القناع قد يكون غطاء للرأس أو ما يستر الوجه¹.

وتطلق الكمامة بصفة عامة علم، كل خرقة توضع علم، الأنف والفم بهدف الوقاية. ومن ثمة تطلق، في ميدان الطب، علم، خرقة خاصة تخضع لمواصفات صحية دولية وتتداول أساسا في الميدان الطبي، يضعها الطبيب على أنفه وفه لمزاولة مهامه. وتعرف في الغالب بالكمامة الطبية.

وخلال الوضعية الصحية لوباء كورونا، وبناء علم، نصائح المنظمة العالمية للصحة وضمن التدابير الاحترازية التي فرضها المغرب في ظل الحجر الصحي، صار إجباريا، علم، كل، الذين يسمح لهم بمغادرة بيوتهم/هن، من أجل العمل، أو التسوق بناء علم، "وثيقة رسمية"، وضع "الكمامة الوقائية/الكمامات"² احترازا من تفشي العدوى. وفي هذا الإطار يتم التمييز بين ثلاثة أنواع من الكمامات:

النوع الأول يحمل تعريف FFP2، يصل سعر الوحدة منها إلى ستنين درهما، وهي موجهة إلى مهنيي الصحة في المستشفيات. أما النوع الثاني فهو الذي يباع في الصيدليات بتسعة دراهم للوحدة، وتدخل ضمن "المستلزمات الطبية". أما النوع الثالث فهو الذي يباع في المراكز والمحلات التجارية، ولا تدخل ضمن المستلزمات الطبية، وتتوفر علم، معايير حماية مختلفة عن النوعين الأول والثاني، وفق التوضيحات التي قدمها أمين بوزوع. [رئيس كوندالية نقابات صيادلة المغرب]. (محمد الراحي 2020).

وفي مقابل "الكمامات الطبية" و"الكمامات الوقائية"، ظهر صنف آخر عرف ب"الكمامات القتالة"/"المزيفة" التي تقامر بصحة الأطباء والمرضى مقابل مبالغ مالية، كما علقت علم، ذلك مواقع التواصل الاجتماعي (هسبريس، 15 أبريل 2020). وقد أثبتت الخبرة الأولية أنها «[...] مصنوعة من مواد أولية غير طبية ولا تتوفر فيها المعايير المادية الضرورية للصحة والتنفس، كما تمت إحالة عينات ماثلة على مديرية الأدوية والصيدلة بوزارة الصحة لإخضاعها لدراسات فنية وتحليلية إضافية». (هسبريس). هذا وقد عبرت لوحة كاريكاتيرية نشرت على

¹ يرتبط اللتام في المعاجم العربية (لسان العرب) بالإنسان، في حين أن الكمامة ترتبط بالحيوان. وفي المغرب كان اللتام يعتبر جزءا من لباس المرأة وهو قماش شفاف، قد يأخذ أشكالا متعددة وتطريزات وما إلى ذلك، تضعه المرأة عند خروجها إما علم، فيها أو على أنفها حسب بعض المناطق المغربية. كما أن المرابطين (الرجال منهم) عرفوا في تاريخ المغرب بوضعهم اللتام حتى عرفوا باللمثمين (الناصرى 2001، ج 2، 159).

² وجاء ضمن: بلاغ مشترك لهيئات الداخلية، الصحة، والاقتصاد والمالية وإصلاح الادارة، والصناعة والاستثمار، والتجارة والاقتصاد الأخضر والقدرة، حاد، اجبارية وضع "الكمامة الواقية" ابتداء من يوم الثلاثاء 7 أبريل 2020، «لتفهم هذه الكمامات بالكمامات الكافية، وفي إطار، أحادة التعليقات الملهمة السامية، عانت السلطات محمودة من المصنعين الوطنيين من أجل انتاج كمامات واقية للسوق الوطني»، مشددا على أنه "تم تحديد سعر مناسب للسعر للعموم في 80 سنتا للوحدة بدعم من الصندوق الخاص الذي أنشئ من أجل تدبير جائحة كوفيد-19"، (هسبريس، الاثنين 06 أبريل 2020).

موقع هسبريس (26 أبريل 2020)، تحمل عنوان "تجار الموت" قياساً على "تجار الحرب" الذين عرفوا في تاريخ الإنسانية.

■ حالة الطوارئ الصحية، أصل كلمة طوارئ، وهي جمع لطارئ، من فعل طرأ. وطرأ لغة «طرأ على القوم يطرأ طرأ وطرأ: أتاها من مكان، أو طلع عليهم من بلد آخر، أو خرج عليهم من مكان بعيد فجأة، أم أتاها من غير أن يعلموا، أو خرج عليهم فجوة. وهم الطرأ والطرأء. ويقال للغرباء الطرأء، وهم الذين يأتون من مكان بعيد.» (ابن منظور، م. 1، 114).

وقد انتقلت الكلمة المعجمية إلى القانون الدولي في صيغة مركبة من لفظتين "حالة الطوارئ" باعتبارها:

إحدى الحالات الواردة ضمن نظرية الظروف الاستثنائية، أجازها القانون الدولي لحقوق الإنسان وفق شروط معينة، لمواجهة الأخطار والحالة الحساسة التي تواجهها الدولة، بموجبها يحق للسلطة التنفيذية تجميد الأحكام الدستورية والتشريعية العادية بشكل مؤقت، وتقييد وتعطيل حقوق الأفراد وحرياتهم، باستثناء بعض الحقوق والحريات التي أشرنا إليه. (الشرقاوي السموني، 2020)

وفي ظل الوضعية الصحية التي يعرفها المغرب، كان الإعلان عن "حالة الطوارئ الصحية" في البلاد ابتداء من يوم 20 مارس 2020 على الساعة السادسة إلى أجل غير مسمى وفق بلاغ لوزارة الداخلية:

حفاظاً على صحة وسلامة المجتمع المغربي، وفي سياق التحلي بحس المسؤولية وروح التضامن الوطني، وبعد تسجيل بعض التطورات بشأن إصابة مواطنين غير وافدين من الخارج بفيروس "كورونا المستجد"، تقرر إعلان "حالة الطوارئ الصحية" وتقييد الحركة في البلاد ابتداء من يوم الجمعة 20 مارس 2020 على الساعة السادسة مساءً لأجل غير مسمى، كوسيلة لا محيد عنها لإبقاء هذا الفيروس تحت السيطرة.

حالة الطوارئ الصحية لا تعني وقف عجلة الاقتصاد، ولكن اتخاذ تدابير استثنائية تستوجب الحد من حركة المواطنين، من خلال اشتراط مغادرة مقرات السكن باستصدار وثيقة رسمية لدى رجال وأعوان السلطة، وفق الحالات التي تم تحديدها. (هسبريس، مارس 2020)

وبالنظر إلى الدستور المغربي الجديد (2011)، لا نجد فصلاً ينص على حالة الطوارئ أو حالة الطوارئ الصحية، وإنما ينص الفصل 74 على حالة حصار -مع تنصيب في الهامش على أحكام الطوارئ- «يمكن الإعلان لمدة ثلاثين يوماً عن حالة الحصار، بمقتضى ظهير يوقعه بالعطف رئيس الحكومة، ولا يمكن تمديد هذا الأجل إلا بالقانون». وفي هذا السياق يؤكد خالد

الشرقاوي السمووني واستنادا إلى ما جاء في الدستور المغربي أن ما يعرفه المغرب في ظل وباء كورونا ليس بحالة حصار أو حالة استثناء:

ولذلك، نستنتج أن حالة الطوارئ الصحية، ليست حالة حصار ولا حالة استثناء، وتختلف عن حالة الطوارئ المتعارف عليها في التشريعات الدولية والوطنية. ذلك أن إعلان حالة الطوارئ الصحية غير مرتبط بالخطورة التي تهدد نظام الحكم واستقرار البلاد والسير العادي للمؤسسات الدستورية، لكنها مرتبطة بخطر يهدد الصحة العمومية نتيجة تفشي وباء فيروس كورونا. كما أنها لا تقيد بشكل شامل حقوق وحريات الأفراد. (الشرقاوي السمووني).

وحفظا للصحة العامة للمواطنين/نات وسلامة البلاد، كان لزاما تطبيق جائحة كورونا من خلال مجموعة من "الإجراءات الإجبارية" الموكبة لفرض حالة الطوارئ الصحية. وكل إخلال بها وخرق لتدابير حالة الطوارئ الصحية، يعرض، محتمقها، حسب بلاغ وزارة الداخلية للعقوبات المنصوص عليها في القانون الجنائي. وفي هذا الإطار ومع تمديد حالة الحجر الصحي، إلى 20 ماي 2020، فقد ظهرت وحدة لغياتية جديدة "حظر التنقل الليلي" والمقصود بها منع الخروج ليلا ابتداء من 7 مساء إلى 5 صباحا. ويستثنى من هذا القرار بُعد الأطر الطبية وشبه الطبية والصيدلية، رجال وأعوان السلطة (الأمن، الدرك، الوقاية المدنية...)، وكذا أشخاص في حالات طبية مستعجلة. وأضيف إلى هؤلاء الصحفيون/يات الحاملون لبطاقة الصحافة المسلمة من طرف المجلس الوطني للصحافة (هسبريس 27 أريـل 2020). فما يشترط بالنسبة للعاملين/مات ليلا الحصول على تراخيص تؤكد ذلك وتسمح بتنقلهم/هن بعد الساعة مساء.

3.3. على سبيل التركيب

من خلال هذه الدراسة التي ترصد وتوثق للوحدات اللغياتية المرتبطة بحفظ الصحة وبالأمن الصحي، نقف على ظهور مدونة لغياتية وعلى مجموعة من الملامح التي تطبع هذه الوحدات. ومن ثمة نميز بين وحدات تتضمن مفردات بسيطة وأخرى مركبة، بالإضافة إلى الرموز/ اختزالات مثل كوفيد-19. ومن ثمة نستخلص وجود وحدات تم تعريبها (فيروس/ كوفيد-19) وأخرى تمت ترجمتها جزئيا إلى اللغة العربية (الفيروس التاجي). مع الاحتفاظ على مستوى التداول على وحدة "كورونا" ونادرا ما يستعمل الفيروس التاجي. بالإضافة إلى وجود وحدات تميزت بجذرها اللغوي وحضورها في اللغة العربية (وباء؛ جائحة؛ طوارئ...). ما نسجله كذلك بالنسبة لهذه الوحدات أن مجموعة منها لم تعد تستعمل لغياب سياقها أو خفوت تداوله مثل (الجائحة/ الوباء). كما تضعنا هذه المدونة أمام وحدات انبثقت من ظل الوضعية الوبائية ذاتها وغالبا ما تجد جذورها في معاجم اللغة العربية (حالة وافدة؛ حالة محلية؛ بؤرة؛ تدابير احترازية...). بالإضافة إلى أن مجموعة من الوحدات التي يتم تداولها بين المتخصصين

وتجربى علم، ألسنة المسؤولين، تم تعميمهما، عبر وسائل الإعلام والوسائط الاجتماعية، فصارت تتداول بين عامة الناس.

يبدو أن هذه الوحدات المرتبطة بحفظ الصحة والأمن الصحي، قد انفتحت على ميادين متعددة (ما هو أمني؛ قانوني؛ إداري...). كما أن بعض الوحدات ترتبط ميدانيا وإجراءيا بوحدات أخرى تشكل معها دائرة خاصة لتؤدي الهدف المتوخى مثل ما نلاحظه بالنسبة لوحدة "تدابير احترازية". وهي مجموعة من التدابير التي ترتبط ببعضها إجرائيا -من خلال وحدات لغائية أخرى ترتهن جميعها بما هو وقائي (قواعد النظافة؛ مسافة الأمان...)، وبذلك نكون أمام ما يمكن تسميته بوحدة-محورية. في حين نقف على وحدات أخرى تقدم تسميات متعددة لنفس المفهوم، تلتقي في بعدها المفهومي في إطار شبكة مفهومية Réseau notionnel (المسعودي، 2003) مثل "الحجر الصحي" و"الحجر المنزلي" و"العزل الصحي". بالإضافة إلى "مسافة الأمان" و"التباعد الاجتماعي".

هذه المدونة اللغائية الصحية تولدت في ظل ظرفية خاصة، استطاعت أن تحقق تواصلا وظيفيا بين المتخصصين من جهة والقائمين على الشأن العام من جهة أخرى وبين عامة الناس. ومن ثمة تؤكد أهمية اللغية التقنية في تشكيل وحداتها استجابة لمتطلبات التواصل في سياق معين، بعيدا عن الآلية الاصطلاحية التي تخضع لعملية الضبط المصطلحي ولقواعد التوحيد والمواضعة المتعارف عليهما كآليتين اصطلاحيتين أساسيتين لضبط المصطلح وتداوله. ومن هنا يؤكد لويس جان روسو «في هذه المقاربة، تصبح المصطلحية [مجموع المصطلحات] مكونا ضمن ما نسميه باللغية التقنية» (Rousseau 2007).

خاتمة

تنوحي هذه الدراسة للغية التقنية في ميدان حفظ الصحة والأمن الصحي، خلال مرحلة ساخنة من حياة الشعوب المتقدمة والنامية على حد سواء، توثيق بعض الوحدات اللغائية التي ساهمت في بلورة قدرة اللغة العربية على تحقيق تواصل وظيفي. كما بلورت هذه المدونة ما تكتنزه هذه الوحدات اللغائية من ذاكرة لغوية وتاريخية واجتماعية. بالإضافة إلى أن هذه الوحدات وما تحيل عليه من سياقات سمحت بخلق مساحات للتداول والتبادل على مستوى فكري وأدبي وعلمي. وهذا ما يفتح أفقا للبحث العلمي والسؤال المعرفي حول مرحلة من تاريخ الإنسانية المعاصر انفلتت من عقال الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية وزجت بالإنسان في عزلة قهرية وفي حرب كونية مع عدو غير مرئي تنفتح على أكثر من احتمال.

مراجع

- البزاز، محمد أمين (2004)، "الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى"، *المناهل*، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، ع. 69-70، ص. 285-324.
- البزاز، محمد أمين (1999)، *تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، س. رسائل وأطروحات، رقم 18.
- بندحان، حنان (2017)، «اللغة التقنية، ملتقى العلوم والمعارف»، ضمن علي الرقيقي، حفيظة العمراني، حنان بندحان (إشراف)، *تكملة المعرفة والعلوم الإنسانية*، كندا، سلسلة مونوغرافية للعلوم الإنسانية، جامعة لورنتيان، القنيطرة، مختبر اللغة والمجتمع، جامعة ابن طفيل، ص. 207-220.
- بندحان، حنان (2014)، «الكتابة الإصلاحية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر -دراسة في اللغة التقنية»، ضمن أحمد حافظ، عبد الله بن عتو، مصطفى يعلى (تنسيق)، *الأدب المغربي الحديث والمعاصر -التاريخ والخطاب*، القنيطرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص. 371-380.
- حبيدة، محمد (29 مارس 2020)، «من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم الغد»، *جريدة هسبريس*، <https://www.hespress.com/histoire/465330.html>.
- ابن خيرة، فدوى (2014)، «اللغة التقنية في المجال الصحي بالمغرب خلال فترة الحماية»، ضمن: Leila Messaoudi, Pierre Lerat (dir.), *Les technolectes : Langues spécialisées en contexte* 39- 55. plurilingue, Kénitra, pub. Laboratoire Langage et société, imp. Rabat Net, p.
- ابن خيرة، فدوى (2013)، «اللغة التقنية في مجال الصحة بالمغرب»، ضمن: Leila Messaoudi, Hafida El Amrani, Hanane Bendahmane, Taoufik Afkinich (dir.), *Technolectes, dictionnaires et terminologies*, Kénitra, pub. Laboratoire Langage et société, Faculté des lettres et des Sciences Humaines, Univ Ibn Tofaï, Rabat, imp. Rabat Net, p.47-73.
- تريز فيلورا، ت. يحيى بوافي. 2020. حوار. «موران: الحجر يضاعف الخلافات.. والإنسان ليس "وحيد القرن"» *جريدة هسبريس*، 19 أبريل 2020، <https://www.hespress.com/interviews/468228.html>.
- درويش، محمود (1984)، *حصار لمدايح البحر*، تونس، دار سراس للنشر.
- الراجي، محمد (أريل 2020)، «الكامات تنفذ من السوق بعد ساعات من القرار الإلزامي للسلطات»، *جريدة هسبريس*، <https://www.hespress.com/societe/466661.html>، تاريخ الاطلاع: 26-04-2020.
- رويان، بوجعة (2013)، *الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945*، الرباط، مطابع الرباط، نت.
- الشرقاء، السمع، خالد (29 مارس 2020)، «التأصيل الدستوري والقانوني لحالة الطوارئ الصحية»، *موقع العمق المغربي*، <https://m.al3omk.com/516274.html>.
- عبد النور، جبور & إدريس، سهيل (1986)، *المنهل قاموس فرنسي-عربي*، بيروت، دار العلم للملايين، ط. 9.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (1994) [1990]، *لسان العرب*، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- المسعودي، ليلى (2003)، «اللغة التقنية والتعريب- ميدان السياقة نموذجاً»، *اللسان العربي*، ع. 55-56، ص. 173-182.
- مياد، محمد العربي (مارس 2020)، «الإطار القانوني للحجر الصحي»، *جريدة هسبريس الإلكترونية*، <https://m.hespress.com/writers/464067.html>، تاريخ الاطلاع: 22-04-2020.

الناصري، أحمد بن خالد الناصري (2001)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ت. أحمد الناصري، إشراف محمد جحي، إبراهيم بوطالب، أحمد التوفيق، الرباط، منشورات وزارة الثقافة والاتصال.

Lerat, Pierre (1995), *Les langues spécialisées*, Paris, éd. PUF.

Messaoudi Leila (2012), « Technolectes savants, technolectes ordinaires : quelles différences ? », dans Leila Messaoudi (dir.), *Sur les technolectes*, Kénitra, pub. . Laboratoire Langage et société, Faculté des lettres et des sciences Humaines, Univ Ibn Tofaï, Rabat, imp. Rabat Net, p. 39- 46.

Messaoudi, Leila (2010), « Langue spécialisée et technolecte : quelles relations ? », Dans Salah Mejri, Gaston Gross (dir.), *Méta*, Presse universitaire de Montréal, Vol. 55, n. 1, p. 127- 135.

Messaoudi, Leila (2003), *Etudes sociolinguistiques*, Kénitra, Faculté des lettres et des sciences Humaines, Rabat, imp. Okad.

Messaoudi, Leila (1990), « Des technolectes: présentation, identification. fonctionnement: application linonistique à l'arabe standard ». *Thèse de Doctorat*, Denise François Geiger (dir.), Paris5, René Descartes, La Sorbonne nouvelle.

Petit Robert (1989). Paris. éd. Les dictionnaires Le Robert.

Rousseau, Louis-Jean (2007). « La médiation linonistique : vers l'adantation des principes méthodologiques et des pratiques terminographiques » réunion réseau Realiter Bertinoro Italia 2007. http://www.realiter.net/wp-content/uploads/2013/07/Louis-Jean_Rousseau.pdf

جريدة هسبريس، الاثنين 06 أبريل 2020، « السلطات المغربية تقرر إجبارية وضع الكمامات ابتداء من غد الثلاثاء»، <https://www.hespress.com/societe/466595.html>

موقع هسبريس، 19 مارس 2020 «عاجل .. إعلان حالة الطوارئ الصحية وتقييد الحركة في المملكة»، <https://www.hespress.com/societe/464010.html>

موقع المنظمة العالمية للصحة، «فيروس كورونا»، <https://www.who.int/ar/health-topics/coronavirus>

موقع BBC ARABIC، 5 فبراير 2020، «فيروس كورونا: كيف يختار العلماء اسما لأي فيروس جديد؟»، <https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-51386774>

موسوعة الجزيرة «الفيروسات.. صغيرة جدا لكنها قاتلة»، <https://www.aljazeera.net/encyclopedia/healthmedicine/>

قاموس المعاني عربي/ المجليزي، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-en/virus/>، موقع يونيسيف، «مرض الفيروس التاجي [فيروس كورونا] (كوفيد-19 الي)»، <https://www.unicef.org/ar>

جريدة هسبريس، 15 أبريل 2020، «المغرب ينجو من خطر "الكمامات القاتلة" .. والقضاء يدخل على الخط»، <https://www.hespress.com/faits-divers/467766.html>

موقع وزارة الاقتصاد لجنة اليقظة الاقتصادية (25 أبريل 2020). لجنة اليقظة الاقتصادية، <https://www.finances.gov.ma/ar/> نظام اليقظة البائية، موقع وزارة الصحة المغربية، تاريخ الاطلاع: 24- 04- 2020.

<https://www.sante.gov.ma/sites/Ar/Pages/communiqu%C3%A9s.aspx?communiqu%C3%A9ID=620>

كوفيد-19: الفلسفة والجوائح

جدلية الفلسفة والعلم في الكشف عن معنى الإنسان - تأملات في زمن الكورونا-

أحمد مصلح

جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة

ahmed.moslih@uit.ac.ma

ملخص

إن التساؤل عن معنى وحقيقة الوجود الإنساني هو ما يكشف عنه واقعنا الحاضر وما يستجد فيه من أحداث. وبالضبط إن الأزمة التي تعيشها الإنسانية اليوم، جراء جائحة كوفيد-19، هو ما يمنح لهذا السؤال جدته ومصداقته. إنه يدفع بالإنسانية إلى أن تستيقظ من سباتها العميق ومن أوهام التفوق والقوة، التي لم تستطع أن تقدّم إجابات فعالة عن هذه الجائحة الماسّة بمصير الإنسان والمهددة لوجوده. مما يتطلب ضرورة استرجاع المنسي واللامفكر فيه، والمُلغى من الوجود البشري وإعادة النظر الدائمة فيه قصد الكشف عن معنى الوجود الإنساني وحقيقته المتمثلة في غائية العقل. هذا القصد يكشف عنه تفاعل جدلي بين الفلسفة والعلم في حركية تاريخية لا متناهية، باعتبارهما مجالان لا يقفان عند نقطة ثابتة، بل يعرفان التجديد المستمر بفعل الدينامية الجدلية التي تجمعهما.

الكلمات المفتاح: الإنسان، الوجود، الحقيقة، الأزمة، الفلسفة، العلم.

Résumé

Notre réalité actuelle marquée par la pandémie à Coronavirus (Covid-19) soulève la question du sens et de la vérité de l'existence humaine. La crise en cours, donne à cette question son originalité et sa crédibilité. Elle incite l'humanité à se réveiller de son sommeil profond et de ses illusions de supériorité et de pouvoir, qui n'ont pas pu apporter des réponses adéquates à ce fléau. L'accomplissement de ce réveil nécessite la reconsidération des vérités oubliées, délaissées et effacées de la mémoire humaine afin de donner un sens à l'existence de l'humain et de redécouvrir la finalité de la raison. Ce dernier objectif se réalise par l'interaction dialectique entre la philosophie et la science selon une dynamique historique infini. Ceci, du fait que ces deux domaines cognitifs ont en commun une dynamique de renouvellement continu dû aux rapports dialectiques qui les unit.

Mots-clés : Homme, existence, vérité, crise, philosophie, science.

تعرف الإنسانية اليوم أزمة عميقة تهدد وجودها، وتشكك في كل منجزاتها التي لم تستطع حلّ الصعوبات والإجابة عن المشاكل التي طرحها وباء كوفيد-19، سواء كانت مشاكل اجتماعية، أو نفسية، أو اقتصادية...، وغيرها من الصعوبات التي أصبحت تضع مصير الإنسان وحقيقته في هذا الوجود موضع تساؤل؛ فما معنى هذا التقدم التقني والعلمي الهائل إذا لم يستطع التخفيف من آلام الإنسان، وإبعاده عن الكوارث والجوائح؟ ألا يحمل هذا التقدم والتطور عناصر ضعفه وتلاشيه لأنه نسي المعنى الحقيقي للإنسان، ومن ثمة لوجوده كذات عاقلة؟ وهي تساؤلات تضر، بشكل غير مباشر، نقدا جوهريا لطبيعة البحث العلمي الذي يؤطر الحضارة الإنسانية المعاصرة، وفق منطق نفعي يسحب من الإنسان معناه الحقيقي، ما يضعنا أمام واقع محكوم بقيم نقيضة للطبيعة الإنسانية، حيث صنع ما يهدّد وجودها.

1. صورة الإنسان جرّاء جائحة كوفيد-19 (فيروس كورونا)

يتطلب تفكيك هذه القضايا، للكشف عن معنى الإنسان، ضرورة أخذ مسافة نقدية اتجاه الفكر العلمي السائد، الذي تحكمه نظرة ذاتية أحادية تريد تنميط كل شيء وتحويله إلى مجرد رمز قابل للتداول والتسليع، وهو ما يجد تعبيره الصريح في منطق العولة المتحقق الآن مع جائحة كوفيد-19، والتي شكلت جائحة حقيقية غمرت العالم بأسره إلى درجة أننا أصبحنا نتساءل عن مصير الإنسان وموقعه في الوجود باعتباره جزء منه، ولا يقوم أحدهما دون الآخر.

نفْتَحُ، في هذا السياق، حوارا نقديا مع معيشنا اليومي، بمفاهيم وتصورات فلسفية تعيد النظر في الغاية من العلم، باعتباره آلية تسحب العقل على الواقع المعيش وليس تحويل الإنسان وواقعه إلى سلعة قابلة للتداول؛ لأن العلم وفق التطور التقني والمعلوماتي السائدين، الآن، لم يعد هدفه الحفاظ على كينونة الإنسان وغائيته المتمثلة في العقل، بل إلى تفكيك اختزال الإنسان في الوظائف البيولوجية والعصبية. ويقودهم في ذلك اعتقاد مفاده أن العلم قادر بأدواته على الإمساك بالإنسان في كليته. وهو ما يعلنون عنه في أبحاثهم المتعلقة بإمكانية الخلود والخلق، وغيرها من القضايا التي تنظر إلى الإنسان كمادة قابلة للتعديل تخضع في دراستها لنفس الآليات والمناهج التي تتناول المادة في الطبيعة، الأمر الذي يضعنا أمام تحول مقلق من القيم الكبرى للعلم، والتي كانت تبحث عن سعادة ورفاه الإنسان، إلى قيم التقنية التي تحكمها آلة ذكية.

أصبح العلم المعاصر تقني الهوية واختزالي لواقعه ولتصوراته، لأنه يلغي ويقصي كل الأسئلة الكبرى المرتبطة بموضوعه (Einstein et Infeld Léopold, 1983)¹، باعتبارها قضايا تبعده عن الموضوع وتشكك في هويته التقنية المزيفة. وبذلك غدا العلم، بهذا التحلي، يبتعد عن هويته

¹ - نستحضر، في هذا السياق، تصور إنشتاين الذي يذهب إلى التأكيد على أهمية الأسئلة الكبرى التي تمتد إلى ما وراء موضوعات العلم، وبالضبط يؤكد على أهمية الخلفية الفلسفية للعلم في تطوير نتائجه. بمعنى أن هناك أسئلة رغم أنها تتجاوز حدود العلم، فعلى هذا الأخير أن يستحضرها لأثارها الإيجابية على نتائجه.

الحقيقية، التي كان من الممكن أن تجعل من الأسئلة الكبرى أفقا لبنائه النظري، وموجها لممارسته العملية الممتدة في الزمان. بمعنى أن العلم المعاصر، نتيجة لتنازل التخصصات الجزئية، تخلى عن الأسئلة الكبرى التي تندرج تحتها قضايا الإنسان، والتي تتمثل في مواضيع العقل والحرية، والقيم...، وغيرها من القضايا التي تبدو، حسب التوجه الوضعي، فوق زمانية عابرة للأزمنة وللأمكنة ولا تفيد، حسبهم، العلم في مساره البحثي الذي حوّله إلى مجرد علم بالوقائع وهو ما نعيش على إيقاعه اليوم، فأنتج لنا ذواتا امبيريقية مجالها محدود بحدود الوقائع. الأمر الذي سلب الإنسان كينونة وجوده الذي يحقق من خلالها إنسانيته، فبدونها يتلاشى هذا الوجود ويتحول إلى مادة جامدة دون روح. فينسحب عليها ما ينسحب على المادة في الطبيعة من تكيم وضبط.

يضعنا هذا التصور أمام الإيمان المطلق بالتقنية في المعيش اليومي، مع الابتعاد عن المعنى الحقيقي للوجود الذي يشكل الإنسان أساسه وركيزته، فبدونه لا معنى للوجود لأنه هو الذي يعطيه معنى وشكلا محددا. كما أن الوجود يمنح للإنسان صورته النهائية، فيكون الإنسان والوجود، بهذا المعنى، متلازمين ولا يوجد أحدهما دون الآخر، وهو ما يتطلب ضرورة العودة إلى الذات للكشف عن حقيقتها المهملة في الحياة المعاصرة. وكذلك لتجاوز مآلات التطور التقني الذي وضعنا أمام كوارث طبيعية، يصعب الانفكاك من نتائجها الوخيمة على الوجود الإنساني (الباهي، 2012)¹؛ إنها دعوة إلى تأسيس جديد لصورة الإنسان نتجاوز بها الصورة النمطية الملتصقة به، منذ أن تخلى عن إنسانيته العاقلة وارتقى في أحضان التقنية، التي أصبحت عقيدة الإنسان في حياتنا الراهنة.

يتطلب الفهم الدقيق لتاريخنا المعاصر ضرورة العودة إلى العصر الحديث، بكل إنتاجاته وتناقضاته (Koyré, 1971)²، لفهم ميكانيزمات التقلبات والتحويلات التي عرفتها البشرية في تلك

¹ - ساهمت التقنية في تطوير حياة الإنسان ومساعدته في تجاوز مجموعة من الصعاب والمشاكل الطبيعية (المناخ، صعوبة التضاريس، الفيضانات، البراكين...) والبيولوجية (الأمراض، الغذاء، اللباس...)، وغيرها من القضايا التي تمس الإنسان في وجوده. لكن رغم هذا التطور المائل إلا أنه أدى إلى تلاشي دور الإنسان لصالح التقنية، أو ما يعرف، الآن، بالذكاء الصناعي الذي جعل حياتنا متوقفة عليه ولا نستطيع الانفكاك منه، لأننا لا نتواصل إلا عبر الذكاء الصناعي، ولا ننتج الغذاء إلا عبر برمجياته وتقنياته التي يوفرها، وغيرها من مشاهد الدمار الخفي الذي تمارسه التقنية في المجال البيئي الطبيعي والإنساني، حيث أضحت التقنية تلغي الطبيعة الإنسانية ويتلاشى معناها، وهو ما ينعكس لا محالة على الوجود البشري. إذ نقترح، في هذا السياق، عمل الأستاذ الباحث حسان الباهي، لتدقيق آثار التقنية على الإنسان.

الباهي، حسان (2012). *الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة*، دار النشر أفريقيا الشرق، المغرب، صص 18 - 33.

² - عرف العصر الحديث تحولات مست كل مجالات الحياة البشرية من فن ودين وسياسة، وغيرها من المجالات؛ إذ نقترح، في هذا السياق، لفهم التحول الجذري الذي عرفه العصر الحديث، البعض من أعمال مؤرخ العلوم ألكسندر كوري الذي قدم في دراساته تصورات فلاسفة وعلماء، يبرز من خلالها أن التحول الجذري في هذه المرحلة لم يطل مضامين المعارف والمنتجات فحسب، بل امتد إلى تغيير أطر وأسس تفكيرنا (وهو ما نحتاج إليه اليوم)، أي تغيير نظرتنا إلى ذواتنا وإلى العالم.

المرحلة، وكيف واجهت الأوبئة والجائحات التي كانت تهدد وجودها. وعليه تتساءل عن الجدوى من العودة إلى العصر الحديث؟

تكن جدة هذه الدعوى في أن العصر الحديث عرف تحولا جذريا في شكل الوجود مقارنة بما قبله (العصر الوسيط والقديم)، وثورة معرفية في رؤية الإنسان للعالم ولذاته. وبذلك تتأسس دعوتنا في النظر إلى العصر الحديث باعتباره حسيبة تاريخية للحظات سابقة عليه من جهة، ومن جهة أخرى هو ثورة وتحول جذري مقارنة بالسابق، لأن التاريخ يتوقف في لحظة قد تعرف أزمة ثم تأخذ انطلاقات جديدة؛ فنكون أمام سيورة وحركية تخضع لفعل البناء وإعادة البناء المستمرتين وذات الأفق الممتد. وهو ما يعكسه العصر الحديث في كل تجلياته التي مكنته من تجاوز العوائق التي اعترضته، وخصوصا الحروب الدينية، التي كان لها تأثير سيئ على حياة الناس، والأوبئة (الطاعون)، حيث استطاع تجاوز هذه الصعوبات بالعودة إلى الذات الإنسانية والكشف عن معناها الحقيقي الذي يمثله العقل، باعتباره الملكة الوحيدة التي تسمو بالإنسان مقارنة بباقي الكائنات. وهو ما يجسده التحول الجذري في هذه المرحلة الذي لم يطل مضامين المعارف والمناهج فحسب، بل امتد إلى تغيير أطر وأسس تفكيرنا (وهو ما نحتاج إليه اليوم)، أي تغيير نظرتنا إلى ذاتنا وإلى العالم.

نؤكد أن التحول الذي عرفه العصر الحديث تأسس على تقديم تصور جديد للإنسان ومن ثمة للوجود، فكان ذلك بمثابة ثورة وتحول جذري مقارنة بالسابق؛ إذ كانت الحاجة ماسة، في هذه المرحلة، إلى العقل المحض لتحقيق هذا التحول الذي أخرج الإنسانية من مرحلة سيادة اللاهوت

إلى مرحلة العلم، التي عرفت انعطافا خطيرا منذ القرن التاسع عشر، فأصبحنا أمام فكر تقنوي محض يبعد من مجاله أي حديث عن القيم وعن الطبيعة الإنسانية. لأن همه الوحيد تحويل كل شيء بما فيه الإنسان إلى مجرد رقم ورمز قابل للتعديل مستقبلا.

تدفعنا هذه الدعوة إلى تأسيس فهم جديد للوجود البشري، يحترم الطبيعة الإنسانية ويحافظ على قيمها المتمثلة في الحرية، والتسامح والكونية والتعددية، وغيرها من القيم التي تحقق إنسانية الإنسان وتتجاوز ما غناه الوجود البشري من إكراهات الجوائح (جمع جائحة) والكوارث، منها ما يكون مصدره الطبيعة (الزلازل، البراكين...)، ومنها التي يكون مصدرها وسببها الإنسان، مثل الحروب وبعض الأوبئة الناجمة عن ما ألحقه الإنسان من ضرر بالطبيعة، أو من خلال تطوره التقني الذي جعله يصنع الأمراض والأوبئة لتحقيق غايات اقتصادية وسياسية. وهي الأزمات التي ظل الإنسان يعاني منها إلى يومنا هذا، أزمات بين الجديد الذي لا نعرفه ولا نفهم تركيبته فلا يمكن التحكم فيه، في مقابل القديم الذي سيطرنا عليه، أو تم التخفيف

من أثاره. إنه صراع المعرفة بين ذات تمتلكها وتنتجها، وأخرى تستهلكها فتتظّر مصيرها المتحكم فيه من قبل منتجي المعرفة. وبذلك يتمّ سلب معناها الحقيقي المتمثل في كونها ذات واعية فاعلة، يشكل العقل غاية وجودها وأفقها النظري.

تدفعنا الأزمات والجأحات، مثل كوفيد-19، إلى التساؤل عن حقيقة الوجود البشري للكشف عن معنى الإنسان. وهو ما يتم بالعودة إلى الذات لإبراز إمكانياتها التي تختزل معناها. وبذلك نتمكن من الإجابة عن سؤال: ما الإنسان؟ وما الغاية من وجوده؟ بعيدا عن كل الإجابات الجاهزة والتقليدية التي تلغي معها روح التفكير والتأمل الذاتين، إنها حركة لا متناهية من التفكير تسعى من خلالها الذات إلى أن تضع قواعدا بذاتها ولذاتها، بعيدا عن القواعد الخارجية التي تخضع وتقتل معناها الحقيقي، الكامن في العقل النظري الذي يمتد إلى المجال العملي، باعتباره موجها وبوصلة للعقل العملي.

نتوخّى، في هذا السياق، تأسيس فهم جديد للوجود البشري، يحترم الطبيعة الإنسانية ويحافظ على قيمها المتمثلة في الحرية، والتسامح والكونية والتعددية، وغيرها من القيم التي تحقق إنسانية الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى إنتاج معرفة تهتم بالإنسان ولا تنسى كينونته وغائيته مثما هو الأمر مع التطورات والتحوّلات المعاصرة. إنه درس الفلسفة والعلم في تفاعلها وتكاملها يكشفان عن المنسي واللامرئي في الوجود البشري (المصدق، 2008)¹، وهي العلاقة التي تنبني على مركزية دور الفلسفة والعلم في المجتمع، وامتدادها في صياغة رؤية جديدة للعالم ولذواتنا.

يصبح العلم والفلسفة في تفاعلها اللامتناهي مجالا خصبا لإبراز معنى الإنسان والكشف عن غائيته المطلقة، وهو التفاعل الذي يمكننا من التأكيد أن الكيفية التي تعيش بها الإنسانية اليوم تعدّ سذاجة تسقطنا من مرتبة الكائنات العاقلة، حيث نعيش وفق نمط القطيع القائم على التماثل والتشابه في كل مظاهر الحياة، فلا مجال للاختلاف، أو التمايز بين الناس لأنهم ينتجون سلوكات وممارسات متماثلة بين الأفراد، يميلون من خلالها للارتكان إلى الجاهز عوض البحث

¹ - شكل التساؤل عن طبيعة العلاقة التي تجمع الفلسفة بالعلوم، منذ اليونان إلى يومنا هذا، أحد السبات المميزة للفكر البشري؛ وللتدقيق شكلت إشكالا أفرز العديد من المقاربات المتأرجحة بين قائل بالانفصال التام، لعدم جدوى الخطاب الفلسفي الذي يظل مجرد لغو وقول بلا معنى بتعبير الوضعيّة المنطقية، وهو ما تعلن عنه في رسالتها سنة 1927 المتضمنة لملاحق في: وداد الحاج، حسن (2001). *رودولف كارثاب: نهاية الوضعيّة المنطقية*، دار النشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، صص 261 - 278.

في مقابل قائل بالترابط والتكامل بين هذين النمطين المعرفين مثما هو الأمر مع هوسرل، وهو التصور الذي تنبناه معتبرين أن التكامل بين الفلسفة والعلم، يتم بالنظر إلى الممارسة العلمية باعتبارها ممارسة جهوية تخصصية غير مكتفية بذاتها، لأنها مقيدة بطابعها الجهوي الذي له علاقة بموضوع العلوم، كما أن الفلسفة بمعناها العام (الميتافيزيقا) تتميز بطابعها الشمولي الذي ظل حاضرا منذ أفلاطون، وهو الطابع الذي يغيب في الممارسة العلمية الجهوية التخصصية؛ إذ يمكننا استقصاء المزيد عن هذا التصور في: هوسرل، إدموند (2008). *أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجي /الترنسندنتالية*، ترجمة الدكتور إسماعيل المصدق، مركز دراسات الوحدة العربية للطباعة والنشر، صص 336 - 340.

والاشتغال على المعنى الحقيقي. ومن ثمة البحث عن معنى الإنسان في حركية تاريخية لا متناهية، تكشف عن هذا المعنى الذي يمتد بامتداد الإنسان، وهو البحث الذي نُسَّته الحضارة المعاصرة، فأدخلتنا في أزمة دائمة ومعارف مأزومة لا تستطيع إدراك عمق الأزمة، بل تتناول أعراضها وفق منطق الربح الذي يلغي إنسانية الإنسان، الأمر الذي لن يتم إلا بتجاوز العلم لهذا المنطق، وذلك في ارتباطه بالفلسفة التي تعلو على مبدأ المنفعة وتضعنا أمام حقيقتنا المطلقة في كوننا ذواتا عاقلة.

2. تفاعل الفلسفة والعلم مجالا للكشف عن معنى الإنسان

تعيش الإنسانية اليوم في موقف ساذج يطبع حياة الناس باعتقادهم أن كل ما يوجد معطى سلفا وورثناه عن الأعراف، أو التقاليد، أو الدين، وغيرها من المعارف الجاهزة. الأمر الذي يتطلب للخروج من هذه الوضعية ضرورة وضع المعيش موضع تساؤل، عبر البحث في أسسه ومنطلقاته باعتبارها علة منطقية لكل الأزمات التي نعيشها، سواء كانت بيولوجية، أو سياسية، أو اقتصادية. بمعنى أن الأزمات التي نعيشها نتاج للمنطقات والأسس التي ارتكزت عليها الإنسانية المعاصرة، والتي تعود في جذورها إلى الثورة الصناعية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والقائمة على تسليع الإنسان وتحويله إلى مجرد مادة قابلة للتداول وفق قيمة البيع والشراء، فأصبحنا أمام ذوات مبتذلة لا تحمل قيمة في ذاتها، بل تكمن قيمتها فيما تحققه من منافع مادية. وهو القانون الذي يخرجنا من دائرة الإنسان ويرمي بنا في عالم الابتذال، الذي نصبح فيه في مرتبة أدنى مقارنة بباقي الكائنات (Kant, 2018).¹

لا ندرك الآن كيفية الخروج من واقع الابتذال والتسليع، لكن بالدفاع عن فلسفة حقيقية لا ترتقي في أحضان الدوغمائيات (Piaget, 1970)² والتصورات المغلقة على ذاتها التي لا تضع تاريخها

¹ - نستحضر، في هذا السياق، تصور الفيلسوف الألماني كانط في حديثه عن الإنسان باعتباره عقل عملي أخلاقي، تكمن قيمته ومعناه في أنه يرسم لذاته غاياته وأهدافه، يسمو بها على جميع الكائنات؛ ضدا على واقع الابتذال الذي يقوم فيه بسعر وكأنه بضاعة قابلة للتداول، تنزله من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الأشياء والكائنات غير العاقلة، وهو التصور الذي يتضمنه كتابه "أسس ميتافيزيقا الأخلاق".

يجد التصور الكانطي آثاره في الواقع المعاصر، حينما غيرت التقنية من الطبيعة البشرية، وبالضبط من معنى الإنسان، حيث تحول إلى شيء أو مادة، يقوم وجودها على الاستهلاك، وهو الواقع الذي أصبح الإنسان يعيشه تحت رحمة الكوارث (الحروب، الإثنيات، الكراهية، الحقد، الانتقام...) والأوبئة (كوفيد-19)، ولا يمكنه التخلّص منها إلا بالعودة إلى جوهر الإنسان للكشف عن معناه الذي تلاشى وغُيب مع التقدم التقني.

² - تضعنا التصورات اليقينية الدوغمائية أمام معارف جاهزة ومغلقة غير قابلة للامتداد، باعتبارها معطى فوق زمني لا تتفاعل مع العوامل والتحويلات التاريخية، بخلاف الفلسفة والعلم، رغم اختلاف مسارهما وبحثهما الدؤوب عن اليقين، إلا أنهما يعيدان دائما وبشكل مستمر، تشكيل ذاتهما بشكل يجعلنا نؤكد أن المعرفة (الفلسفة والعلم) عملية تطور ضدا على التصورات التقليدية التي تعتبرها حالة قارة وثابتة، أو هي معطى جاهز. إذ نستحضر في هذا السياق، مقاربة بياجيه لطبيعة المعرفة، رغم اختلافنا معه في تصوره المعرفي الذي يبعد الفلسفة عن هذا المسار التطوري ويعتبرها مجرد معرفة يقينية، وهو بذلك يجانب الصواب لأنه لم ينظر إلى تاريخ الفلسفة، وكيف قدم الفلاسفة تصوراتهم التي تندرج ضمن هذا المسار التطوري من المعرفة الأدنى إلى معرفة أرق، وهكذا

موضع تساؤل؛ الأمر الذي نستشفه من تاريخ الفلسفة على اعتبار أن كل فلسفة هي قراءة نقدية لتاريخها. إنه الدرس الفلسفي الذي يبعدنا عن الانغلاق على الذات لاستشراف المستقبل بفكر نقدي ممتد الأفق من جهة. ومن جهة أخرى نتوخى علما جادا غير مرتبط بالشركات الكبرى والمختبرات العسكرية التي توجهه وتحوله إلى مادة مرتبطة بالربح فقط، ولا يهمها معنى الإنسان في وجوده الحقيقي وغائته. بمعنى أننا نستطيع، من خلال فلسفة حقيقية وعلم جاد، أن نخرج من واقع الابتذال ونكشف عن جوهر الطبيعة الإنسانية ونحقق كرامتها.

يمكن للفلسفة وللعلم، وفقا لهذا الفهم وفي تفاعل لا متناهي بينهما، أن ينيروا للإنسانية الطريق ويخرجانها من وضع الابتذال والدمار الخفي، لأنهما مسلحين بلغة احتمالية قائمة على النقد والتساؤل، ومستشفة أفقا مفتوحا؛ فنكون بهذا الفهم أمام معرفة احتمالية تنير طريق الحقيقة الممتد باستمرار وليست هي الحقيقة ذاتها، باعتبارها أفضل ما يمتلكه الإنسان الآن من معارف، وهذه الأخيرة تكون موضع نقد وتمحيص مستمرين في أفق إنتاج ما هو أفضل وأدق منها.

إن سؤال الإنسان، الذي تتقاطع فيه مباحث متعددة، لا يحظى بالاهتمام الدقيق، نظرا لطغيان الدراسات التقنية والأخلاقية التي تحول الوجود البشري إلى مجرد سيروية زمانية نتاجا لفعل الأفراد. الأمر الذي يبعدنا فعلا عن صور العقل المطلقة، باعتبارها مُثُل مطلقة خارج التاريخ لأنها هي التي تصنع هذا الأخير وليس هو من يصنعها. ما دامت هذه المثل محايثة للوجود البشري منذ بداية تشكل وعيه، إبان تأمله في نظام العالم وما أثارته وضعية السماء المرصعة بالنجوم المضئية ليلا، من قلق معرفي وأنطولوجي، قد جعلت تفكير الإنسان يتجاوز بعده الحسي الغريزي في حركة تاريخية لامتناهية، تتطلع إلى أفقها المتجاوز لوجودها الحسي.

يبقى سؤال الإنسان، وهو الوجود غير الزماني غير مرتبط بوجوده التقني المعيشي، هو المشكل في حد ذاته وليس بعده التاريخي المرتبط بمعيشه اليومي. مادام الإنسان وفق مثله المطلقة هو من يصنع المعيش وليس العكس، مثما يوهنا الفكر التقني في العلم المعاصر الذي أصبح ينتج من ذاته ما يدمر المطلق. إذ أصبحت الغريزة بكل تجلياتها مركز اهتمامه وغاياته، في مقابل تهميش المطلق الذي يمنح للمعيش معنى وأفقاً ممتدا غير محدود وغير مغلق.

جعلنا الابتعاد عن المعنى الذي يمنحه العقل للمعيش، نتخبط ونشك في الغاية من الفلسفة، وبالضبط في الغاية من العيش وفق مُثُل العقل، ما دام الذكاء الصناعي بتقنياته المعاصرة يمكننا من إنتاج ما نريد في كل مجالات الحياة. فيتهاوى مع هذا التصور الاعتقاد

تبقى المعرفة الفلسفية بأفق ممتد ومنفتح لأنها تتأسس على الفكر النقدي؛ ولتدقيق القول في تصور بياجي عن طبيعة المعرفة التطورية.

والعمل على الارتكان في النظر والممارسة إلى المعنى الحقيقي للإنسان من حيث هو حرية فوق زمانية، وبالضبط خارج تحولات التاريخ، الأمر الذي جعلنا لا نتخبط فحسب، بل نعيش في أزمة عميقة تتركنا ندور في حلقة مفرغة، بأزمات دائمة، تدفعنا إلى الاعتقاد وفق ما نمتلكه من معارف جاهزة بأحكامها المسبقة، لأنها جزء من وجودنا البشري الذي يبقى مرهونا بإرادة وأحكام السماء.

يبقى، حسب هذا الاعتقاد، التوسُّل إلى السماء ونيل رضاها هو غاية الوجود البشري، وليس العقل بمُثله هو الغاية والأساس؛ فبقي هذا الفهم يحكم قبضته على الإنسان المعاصر إلى أن أضى معه كائنا بلا ذات ووجودا بلا حرية، وهو ما تعكسه التقنية في أرقى تجلياتها ساحبة من الإنسان الحرية والفاعلية من وجوده إلى درجة تحوُّله إلى مجرد أداة تتحكم فيه التقنية، وتمتلكه في أفق أن يصبح قابلا للتعديل والبرمجة مثل الآلة الذكية.

إن فقدان الإنسان لمعناه هو فقدانه لذاته ولوجوده الحقيقي المميّز، والذي لن يدركه إلا بالعودة إلى حقيقته المطلقة الكامنة في غائية العقل، إنه العمل من أجل فهم ذاته ومن ثمة وجوده، وهي مهمة العقل النظري في مقابل العقل العملي الذي يبقى تابعا للأول ولا وجود له إلا بالأول، لأنه هو الذي يمكنه من التحقق ويمنح له معنى ووجودا. بهذا المعنى لا يكون الإنسان إنسانا إلا بتوجهه نحو العقل باعتباره غاية الوجود ومعناه، وهي الغاية التي تكشف عنها معرفة نظرية مستخلصة من حركية تاريخية يجسدها تفاعل جدلي بين الفلسفة والعلم.

هكذا، يهدف التفاعل الجدلي إلى تقديم بناء نظري متحرِّرا من أوهام الأسطورة والمعارف المتوارثة (التقاليد، الأعراف، الدين...). كما يهدف إلى تقديم معرفة وتصور للعالم ولذواتنا متحررة من قيود الأحكام المسبقة، حيث يشكل العقل معها غاية الوجود وأفق النظري الذي يجسد كمال الإنسان. إنه بالأحرى المبدأ الأعلى الذي يجعل كل من يمتلك تكوينا فلسفيا حرا، يتمتع بالاستقلالية النظرية التي تؤسس لاستقلالية عملية (الممارسة). بمعنى تطمح الفلسفة والعلم في بنائهما النظري إلى بناء ذات متأملة حرة، يحميها العقل النظري من كل الانزلاقات والأوهام، كما يمكنها من الوجود الحر الذي بموجبه يتم تعليق الحكم بخصوص كل البناءات الخارجية، ويمتد وجودها النظري والعملي بحرية كاملة في التشكيل والبناء والممارسة، تتجاوز بمقتضى ذلك الفرد نحو إعادة بناء الوجود البشري على أساس العقل الحرّ.

لا يصبّ التفاعل الجدلي بين الفلسفة والعلم في انصهارهما، بل على النقيض يحافظ كل واحد منهما على استقلاليته وتمييزه، لكنهما لا ينفكان عن الترابط في إطار معرفة تكاملية، تجعل العلم هو الموجّه والإطار العملي الذي يمكن الفلسفة من أن ترى ذاتها أنطولوجيا. كما أن الفلسفة هي البناء النظري الذي يدفع العلم إلى أن يسائل ذاته باستمرار، للكشف عن غايته وحقيقته

التي تمكنه من التخلص من الأفق النفعي القائم على منطق الربح والخسارة. وبذلك ينهار الاعتقاد الوضعي الذي ينظر إلى الفلسفة مجرد معرفة تاريخية غير دقيقة ومبهمة، تتناول، حسب هذا الاعتقاد، الأبعاد المظلمة والأعماق المغلقة التي تعبّر عنها مشكلات زائفة بلا معنى¹.

بيد أن واقع الحال والأزمة الراهنة دفعت إلى البحث في هذه الأعماق والأبعاد التي ظلت مهمة في الفكر العلمي المعاصر. وهو ما نشعر به في تناسل الأسئلة الكبرى التي تؤطر الوجود البشري

وتعطيه معنى، ولا سيما سؤال الحرية، والمصير، والعدالة، وغيرها من القضايا التي تبرز جدوى الفكر الفلسفي وأهميته في تشكيل الوجود البشري من خلال ارتباط موضوعي بالعلم.

يكون العلم، بهذا المعنى، هو مضمون الفلسفة، وهذه الأخيرة هي صورته التي تمنحه شكله النهائي. لا نعني بهذه الثنائية انصهار أحدهما في الآخر، أو استيراد منهج أحدهما للآخر، بل على النقيض، من ذلك، يبقى لكل منهما موضوعه المستقل ومنهجه الخاص؛ على أساس أن التفاعل والتكامل بينهما يبعدهما من السقوط في منطق التبرير الذي يخضع للتشريعات الخارجية (التقاليد، الدين...) ومصالح الأفراد في الجواب عن الأزمات. إنّ تصور التكامل والتفاعل يدفع إلى الكشف عن الحقيقة باعتبارها غاية البناء النظري، من جهة، ومن جهة أخرى يهدف إلى تأسيس الوجود البشري على أساس هذه الغاية، حيث يصبح وجود الفرد لا يتعارض مع الجماعة، بل في تكامل الأفراد تصنع الجماعة التي تضعنا أمام صورة الإنسان الكوني، أو ما يعرف بالمواطنة الكونية.

تقدّم الحضارة المعاصرة نموذجاً وجودياً معمولاً يعمل على إلغاء الاختلاف والتّميّز اللذان يشكلان أساس الوجود البشري، إنه تحول جذري في الطبيعة البشرية التي تغيرت نحو النموذج الواحد في الحياة، حيث يطفئ عليها الجانب الغريزي في الإنسان مع تعطيل قدر الإمكان لكل ما يرتبط بالعقل أو بالفكر النقدي الذي يمكن الفرد من تعليق الأحكام ووضع الوجود موضع تساؤل بشكل مستمر. وهذا ما يمكنه من إعادة البناء المستمرة ولا يركن إلى صيغة نهائية وقطعية في أحكامه، قد تسقطه في عالم من الدوغماتيات واليقينيات التي تجرّد التفكير. إنه عمل الفلسفة والعلم في آن واحد وبطريقتين متكاملتين، حيث يعمل العلم على الإجابة عن المشكلات المادية للوجود الإنساني، في مقابل الفلسفة التي تتناول المشكلات المعنوية المرتبطة

¹ - تقول رسالة حلقة فيينا بتصرف في ترجمتها: "يتميز الفهم العلمي للعلم بموقفه الأساسي الذي يهدف إلى العالم الموحد، ومنهج بحثه في إنتاج معرفة مطهّرة من شوائب اللغات التاريخية الميتافيزيقية، أي البحث عن معرفة تتسم بالدقة والوضوح في العلم، أما الأبعاد المظلمة والأعماق المغلقة مرفوضة، لا وجود لها في العلم لأن كل شيء يطفو إلى السطح..."

بهذا الوجود من قيم العدالة والخير والحرية وغيرها من القضايا والأسئلة الكبرى التي لا يمكن للعلم أن يتناولها.

خلاصة

نخلص إلى التأكيد أن تفاعل العلم والفلسفة، في حركيتهما التاريخية، يمكنهما أن يقدموا دوراً متميّزاً للبشرية في هذه اللحظات المفصلية، المتسمة بالأزمة والمصير المجهول، والتي تتطلب أطر تفكير جديدة تعمل على إعادة بناء الوجود البشري في كل مستوياته؛ خصوصاً في وضع القائم الموضوعي موضع تساؤل وتعليق الحكم بصده، مع تدشين فهم جديد يركز على إعادة النظر في القيم السائدة على أساس المشاركة العادلة في البناء، رغم اختلاف إمكانيات الأفراد في درجة البناء.

إنّ المهم هو تحقيق غاية الأفراد وممارسة تأثيرهم في انسجام تام مع معنى وغاية الإنسان، وليس العمل وفق مصالح المنفعة اللحظية بتجلياتها المادية، والتي تضعنا أمام تفوق ذات على أخرى، فنكون أمام عالم من سادة (المسيطر والمهيمن) وعبيد (المستهلكون)، سواء كانوا أفراداً، أو جماعات وهو مضمون النظام العالمي السائد الذي تركنا نغرق في أزمنة دورية تهدد الوجود البشري. الأمر الذي نعيشه من جزاء جائحة كوفيد-19 التي وضعتنا أمام قلق معرفي وأنطولوجي يثيران سؤال الإنسان، وما الأسباب التي تجعله يعيش دائماً أزمنة دورية؟ وهل الوجود يحتاج إلينا، أم أننا سننتفح على مرحلة يصبح فيها الوجود في غنى عن الكثيرين منا؟ ومن ثمة يمكن تعويضهم بما تنتجه التقنية (الإنسان الآلي)، ما سيجعلنا نعيش في عالم متفاوت بفجوات عميقة بين من ينتج المعرفة ومن ثمة التقنية، ويعمل على حل العوائق التي تعترضه فيكون سيداً يملئ اختياراته وقراراته، وبين من لا ينتجون المعرفة والتقنية، لأنهم مجرد مستهلكين وتابعين لاختيارات وقرارات المنتجين.

هكذا، فالسؤال عن معنى الإنسان هو ما يكشف عنه واقعنا الحاضر وما يستجد فيه من أحداث. وبالضبط إن الأزمة التي تعيشها الإنسانية اليوم، جراء جائحة كوفيد-19، هو ما يمنح لسؤال الإنسان جدته ومصادقته، لأنه يدفع بالإنسانية اليوم إلى أن تستيقظ من سباتها العميق ومن أوهام التفوق والقوة التقنية التي لم تستطع أن تقدّم إجابات فعالة عن هذه الجائحة، التي أصبحت تمس مصير الإنسان وتهدد وجوده. الأمر الذي يتطلب ضرورة استرجاع المنسي واللامفكر فيه والمُلغى من الوجود البشري. وهو ما يفتح المجال للكشف عن معنى الإنسان وحقيقته المتمثلة في غائية العقل، والتي يكشف عنها التفاعل الجدلي بين الفلسفة والعلم في حركيتهما التاريخية اللامتناهية.

المراجع

- الباهي، حسان (2012). *الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة*، دار النشر أفريقيا الشرق، المغرب.
- وداد الحاج، حسن (2001). *رودولف كارثاب: نهاية الوضعية المنطقية*، دار النشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب.
- هوسرل، إدموند (2008). *أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية*، ترجمة الدكتور إسماعيل المصدق، مركز دراسات الوحدة العربية للطباعة والنشر.

- Einstein, Albert et Infeld, Léopold (1983).** *L'évolution des idées en physique*, traduction Solovine Maurice, Champs sciences, Flammarion, Paris
- Kant, Emmanuel (2018).** *Fondements de la métaphysique des mœurs*, traduction de Victor Delbos, édition Biblio Classique.
- Koyré, Alexandre (1971).** *Études d'histoire de la pensée philosophique*, édition Gallimard.
- Koyré, Alexandre (1973).** *Du monde clos à l'univers infini*, traduction de l'anglais par Raissa Tarr, édition Gallimard.
- Piaget, Jean (1970).** *Psychologie et Epistémologie : pour une théorie de la connaissance*, édition Denoël, Paris.

أزمة كورونا فيروس: هل من مخرج؟ ترجمة مقالة للفيلسوف سلافوي جيچيك¹

رشيد ابن السيد

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

bensid71rachid@gmail.com

ملخص

يسعى المقال إلى الكشف عن الوضع الحرج الذي تواجهه الإنسانية جراء انتشار وباء كورونا، والذي خلق أزمة غير مسبوقة، ربما هي أسوأ أزمة يعرفها الجيل الحالي. يوضح المقال المقاربة التي لجأ إليها سلافوي جيچيك Slavoj Zizek لتحليل الجائحة، حيث استند إلى منهج التحليل النفسي بالاعتماد على المصفوفة الخماسية التي ابتدعتها المحللة النفسانية إليزابيث كوبلر روس Elisabeth Kübler-Ross في دراستها للمرضى الميؤوس من شفائهم. عندما تواجهنا كارثة، فإننا أولاً ننكر وجودها ثم نعانى من القلق ثم المساومة، وفي الأخير نتقبل الأمر الواقع ونذعن له. هل ينطبق هذا الأمر على وباء اجتاحت العالم وانتشر فيه انتشار النار في الهشيم، يتساءل سلافوي جيچيك في مقاله الذي خلص فيه إلى أن المخرج من هذه الأزمة يكمن في ابتكار أشكال جديدة من الأنشطة تركز على المشترك الإنساني.

الكلمات المفتاحية: كوفيد-19، الحرج الصحي، التحليل النفسي، المشترك الإنساني.

Résumé

Cet article cherche à mettre en lumière la situation critique de l'humanité face à l'épidémie à Coronavirus. Celle-ci a provoqué une crise sans précédent, peut-être la pire connue par la génération actuelle. L'article porte sur l'approche utilisée par Slavoj Zizek pour examiner la pandémie et qui se base sur la psychanalyse. Il utilise une matrice conçu par la psychologue Elisabeth Kübler-Ross dans son étude sur les patients malades désespérés. Face à un désastre, nous passons par cinq états psychiques, le déni d'abord puis l'inquiétude suivie de la colère, et finalement on accepte et on se pli à la réalité. Ce schéma peut-il être appliqué à une pandémie qui a sévi partout dans le monde, se demande Slavoj Zizek dans son article où il propose, pour sortir de cette crise, d'innover de nouvelles formes d'activités axées le commun humain.

Mots-clés : Covid-19, confinement, la psychanalyse, le commun humain.

¹ - نشرت هذه المقالة بمجلة Philosophie magazine عدد 138 أبريل 2020.

التعريف بسلافوي جيچيك

ولد سلافوي جيچيك عام 1949 في ليوليانا، بدولة سلوفينيا وقد كانت حينها مقاطعة في يوغسلافيا. نال من جامعات بلده الدكتوراه في الفلسفة عام 1981، زار بعدها باريس حيث درس إلى جانب أكاديميين من تلامذة المحلل النفسي الشهير جاك لاكان، فنال الدكتوراه الثانية عام 1985 في التحليل النفسي من جامعة باريس الثامنة، ثم عاد إلى سلوفينيا. وقد كان ناشطا سياسيا في المعارضة الديمقراطية لنظام تيتو¹؛ والمعروف أن سلوفينيا هي أول مقاطعة انفصلت عن يوغسلافيا بعد وفاة تيتو.

منذ ذلك الحين وجه جيچيك جهوده نحو البحث العلمي والفلسفة. نشر أول كتبه بالإنجليزية سنة 1989 بعنوان «موضوع الايديولوجيا الرفيع». و منذ ذلك الوقت وهو ينشر أعماله الغزيرة، وقد جاوز انتاجه الآن العشرين كتابا. إلى جانب شعبيته ككاتب، يعدّ جيچيك محاضرا واسع الجمهور. ولكن الأهم أن كل أفكاره ونشاطاته مشدودة نحو هدف واحد: الأمل في الثورة السياسية. هو مفكر ماركسي يستخدم التحليل النفسي لشحذ أدواته الماركسية النظرية. فالماركسية تهدف إلى تحسين المجتمع، والتحليل النفسي يهدف إلى تحسين أحوال مرضاه. وينظر جيچيك إلى التحليل النفسي على أنه نظرية ترى أن اللاوعي يقع دوما خارج الإنسان، ويتجسد في الطقوس والممارسات. وهكذا يجد أن أهداف التحليل النفسي تلتقي مع أهداف الماركسية لأن كليهما يعين «الحيز الاجتماعي» على أنه الحيز الأكثر فاعلية للتحليل بسبب توسطه بين السياسي والفردى.

المقالة المترجمة

في اللحظات الأخيرة من حياة الأخصائية النفسانية إليزابيث كوبلر روس Elisabeth Kübler-Ross² اقترحت مصفوفة من خمس مراحل تختزل الحالات النفسية التي نمر منها عندما نعلم أننا مصابون بمرض في مراحله النهائية. هذه المصفوفة ستكتسب شهرة كبيرة وهذه هي مراحلها:

¹ - جوزيف ستيفن (7 مايو 1892 - 4 مايو 1980) كان ثوبا عسكريا واجتاد دولة يوغسلافيا، من أصل كروات، شغل العديد من المناصب منذ عام 1943 حتى وفاته. خلال الحرب العالمية الثانية كان رئيس المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال النازي، وكانت المقاومة اليوغسلافية أكثر الفصائل العسكرية نشاطا في أوروبا المحتلة، وبفضله سياسته الاقتصادية والدبلوماسية الناجحة أصبحت له شعبية كبيرة، سواء في يوغسلافيا أو خارجيا، حيث حظي بالاحترام من قبل قادة دولته، وبفضله سياسته الداخلية نجح في الحفاظ على التعايش السلمي بين أقلات يوغسلافيا فاكسب شهرة وسعة دولية لكونه مؤسس حركة عدم الانحياز خلال فترة الحرب الباردة إلى جانب نهرو وجمال عبد الناصر (بتصرف عن ويكيبيديا).

² - إليزابيث كوبلر روس Elisabeth Kübler-Ross (من مواليد 8 يوليو 1926 في زيوريخ بسويسرا وتوفيت في 24 أغسطس 2004)، كانت طبيبة نفسانية، ومن علماء النفس الأمريكيين، وهي كذلك من رواد المقاربة التي تعتمد على "الرعاية التلطيفية" لمن وصلوا إلى أروذل العمر، والذين انقطع أملهم في الحياة.

لقد رافقت آلاف الأشخاص في نهاية حياتهم، ودرست المراحل المختلفة التي يمر بها الشخص عندما يعلم أنه سيموت، كما كان لها اهتمام كبير بظاهرة تجارب الاقتراب من الموت (المعروف أكثر بمصطلح اللغة الإنجليزية NDE: قريب تجربة الموت) و "نفق الضوء".

- الإنكار: (أمر لا يصدق، لا يمكن أن يصيبني هذا، هناك خلل ما).
- القلق: (لماذا أصابني هذا؟ ولماذا أنا بالضبط؟).
- المساومة: (إذا كان بإمكانني العيش / الاستمرار في الحياة مدة أخرى حتى يتمكن أبنائي من إتمام دراستهم والحصول على الدبلومات).
- الاكتئاب: سأموت، وماذا بعد ذلك؟
- القبول والإذعان للأمر الواقع: ما دام ليس بمقدوري فعل أي شيء، فإنني سأسلم وأذعن للأمر الواقع.

وقد طبقت كيبلر روس فيما بعد هذا المصفوفة على كل أشكال مراسيم الحداد التي تلي الكوارث (البطالة، وفاة قريب، طلاق، إدمان...)، وكانت تقوم بهذه العملية مع التأكيد على عدم ضرورة احترام ترتيب الخطوات الخمس المشكلة للمخطط، وكذا تجربتها على جميع المرضى. ماذا يحصل إذا طبقنا هذه المصفوفة على وباء كوفيد-19، يتساءل كاتب المقال؟

في البداية تمت مواجهة الوباء بالإنكار (لا يشكل الأمر خطورة)، والقلق (المصحوب بنزعات عنصرية ضد دول ما: هذا خطأ آخر من أخطاء الصينيين، إجراءات حكومتنا غير فعالة)، فتبدأ المساومة (فعلا هناك ضحايا، لكن يجب أن نعمل على الحد من عدد الضحايا). وإذا لم تنجح هذه الحلول، يحل الاكتئاب (يجب ألا ننخدع، فكلنا مهددون).

وفي هذا السياق كيف سيكون تقبل الأمر الواقع والإذعان له؟ ألا يشكل هذا أقبح شيء يمكن مواجهته؟

وتخليدا لذكراها، تم إحداث جائزة البحث "إليزابيث كوبلر روس"، والتي تمنح كل عامين من قبل وحدة "الأخلاقيات ونهاية الحياة" في معهد تابع لجامعة كوث بوش في سيون Kurth Boesch à Sion en Suisse، بسويسرا من قبل البروفيسور تشارلز هنري رابين Charles-Henri Rapin.

في عام 1942، وحتى تتمكن من دراسة الطب، عملت كوظيفة استقبال لطبيب عيون، ورعت الأطفال الذين أصيبوا بالعمى. ما جعلها تكتشف معهم المراحل الخمس من الحداد. في عام 1945، انخرطت ضمن مجموعة "المتطوعين من أجل السلام"، ذهبت إلى السويد، ثم إلى بولندا، حيث كان ينتشر وباء التيفويد. تكتشف في معسكر الاعتقال النازي في مجدانيك Majdanek الفراشات السوداء التي رسمها السوداء الأطفال قبل أن يتم إعدامهم، لكن إصابتها بالتيفود جعلتها تعود إلى سويسرا. في عام 1949، اجتازت ما يعادل البكالوريا وبدأت في دراسة الطب. رفقة زميلها إيمانويل روس، يهودي من برونكس، الذي كان يدرس علم التشريح. وبعد ذلك تم استقبالها كطبيبة في جامعة زيورخ في عام 1957، ثم ذهبت بعد ذلك إلى الولايات المتحدة. حيث عملت في عدة مستشفيات، وكان آخرها في دنف، الذي كانت تلقى فيها دروسا ومحاضرات حول الموت لفائدة المتدربين. حصلت على شهادة طبيب نفساني عام 1963 في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة، وفي عام 1965، اتبعت التحليل النفسي كمنهج أساسي. كانت تتحدث مع المختصين خلف مرآة ذات اتجاهين. وقد اكتسبت شهرة كبيرة على نشرها لمقال في مجلة الحياة في 21 نوفمبر 1969. كما نشرت كتابها الأول في عام 1969: On Death and Dying (ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان: اللحظات الأخيرة من الحياة). وقد غادرت شيكاغو مع زوجها، بعدما لم يعد مرغوبا فيها بالجامعة، وبسبب اتجاهاتها في الكتابة، سيتزايد عداؤ الجامعات لها. حيث انتقلت إلى إسكونديدو، في جنوب كاليفورنيا. وعملت على تنظيم حلقات دراسية. لتعود إلى فرجينيا، وتركز على الأطفال الذين سيموتون وتكتشف أنهم يعرفون ذلك. بعدما يصابون بالاكتئاب. توفيت عن عمر يناهز 78 عامًا في 24 غشت 2004، في سكوتسديل.

يجب علينا تقبل فكرة أن الجائحة تنتشر على نطاق عالمي ولا يمكن احتواؤها بواسطة الحجر الصحي أو أي إجراء آخر، وهو ما سبب ذعراً كبيراً. ولابد من تقبل الأمر الواقع والإذعان له مع الأخذ بعين الاعتبار بأن معدل الوفيات منخفض نسبياً، وأنه مع القليل من الحكمة قد تكون لدينا فرصة للنجاة. والأهم من ذلك، أن ما يجب أن نقبله ونتفق معه هو أن الحياة كانت دائماً معرضة للهجمات الوبائية والانتشار الغني للفيروسات وبشكل متكرر. وكانت تلقي بظلالها علينا وتهدد بقاءنا وتتكاثر بشكل مهول خلال أوقات وفترات فجائية وغير متوقعة.

إن الأوبئة الفيروسية تذكرنا أساساً باللامتوقع والطارئ، وبتفاهة وجودنا، وحقارة النوع الإنساني ومرتبته الهامشية. وبقدر أهمية الآثار الروحية للحياة الإنسانية، فإن فيروساً ضئيلاً قد يتسبب في دمار شامل، دون أن ننسى الدروس الهامة التي يلقنها لنا فيما يتعلق بالمحافظة على البيئة. البيئة التي خربها الإنسان ودمرها حتى صار يشكل تهديداً حقيقياً لوجوده واستمراره، وإيذاناً بنهايته¹.

إن أول خطوة للقبول بالأمر الواقع والإذعان له، هو إرساء حد أدنى من الثقة بين الدولة والسكان. يعد الدكتور الصيني Li Wenling أول من اكتشف الوباء على إثر تتبعه لبعض حالات المرضى بمستشفيات ووهان، لكن بمجرد أن نبه لخطورة الأمر الذي يتعلق بفيروس شديد العدوى، تعرض للمساءلة والعقاب من طرف السلطات، وأُتهم بنشر أخبار كاذبة. لكنه في حقيقة الأمر يعد بطلاً حقيقياً، يمكن أن نشبهه ب Edward Snowde². لذلك فلا عجب أن

¹ ارتبطت الأوبئة والجوائح على مر التاريخ بانخفاض انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري، حتى في خضم الثورة الصناعية. لقد اكتشفت جوليا يونغرايز، أستاذة الجغرافيا الطبيعية وأنظمة استغلال الأراضي بجامعة ميونيخ بألمانيا، أن وباء الطاعون الذي انتشر في أوروبا في القرن الرابع عشر ووباء الجدري اللذين نقلهما الغزاة الإسبان إلى أمريكا اللاتينية في القرن السادس عشر، خلفا آثاراً طفيفة على مستويات ثاني أكسيد الكربون في الجو، كما يتضح من تحليل الفقاعات الصغيرة المحتجزة في عينات من لب الخلد القديم.

و رغم أن الهدف من إجراءات الحد من انتشار فيروس كورونا المستجد، فقد ترتب على ذلك تبعات أخرى، غممة متوقعة، منها الانخفاض المفاجئ في انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري، تماماً مع إغلاق المصانع وشبكات النقل والشركات. وراجعت مستويات التلوث في نيويورك بنحو 50 في المئة مقارنة بنفس الفترة من العام الماضي.

وانخفضت الانبعاثات في الصين بنسبة 25 في المئة في مطلع العام الحالي، منذ أن لم الناس منازلهم وأغلقت المصانع، وراجع استهلاك الفحم بنسبة 40 في المئة في ست من أكبر محطات الطاقة في الصين منذ أواخر العام الماضي. وتحسنت جودة الهواء في 337 مدينة حول العالم بنسبة 11.4 في المئة مقارنة بنفس الفترة من العام الماضي.

وهناك عدداً من أسباب انخفاض الانبعاثات، على رأسها القصد المفهومة على حركة المواطنين لمنع انتشار الفيروس. واذ تسم هوائيات النفاذ وحدها بما يصل إلى 23 في المئة من الانبعاثات العالمية للكربون، وتسم قيادة السيارات بنسبة 72 في المئة والنقل الجوي بنسبة 11 في المئة من إجمالي الانبعاثات العالمية للغازات المسببة للاحتباس الحراري من قطاع النقل.

² إدوارد جوزيف سنودن Edward Snowden : (ولد في 21 يونيو 1983) مواطن أمريكي يعمل متقاعد تقنيا وعمل لدى وكالة المخابرات المركزية، عمل كمتعاقد مع وكالة الأمن القومي قبل أن يسرب تفاصيل برنامج التجسس "بريسم" إلى الصحافة. في يونيو 2013 سرب سنودن مواد مصنفة على أنها سرية للغاية من وكالة الأمن القومي، منها برنامج بريسم إلى صحيفة الغارديان وصحيفة الواشنطن بوست.

يوم 21 يونيو 2013 وجه له القضاء الأمريكي رسمياً تهمة التجسس وسرقة ممتلكات حكومية ونقل معلومات تتعلق بالدفاع الوطني دون إذن، والنقل المتعمد لمعلومات مخبرات سرية لشخص غير مسموح له بالاطلاع عليها.

وفاته قد أثارت موجة من الاستياء والغضب. خصوصاً أسلوب معاملة الدولة الصينية له، والكيفية التي أدارت بها الدولة الوباء. ويؤكد العديد من المتابعين على غرار الصحفية Verna Yu على أنه "لو كانت الصين تتيح حرية التعبير لتجنبنا وقوع وباء كورونا".

لقد صرح الدكتور الصيني Li وهو على فراش الموت بأن المجتمع السليم لا يرضى بصوت واحد، ومع ذلك، فإن الحاجة الملحة لتعدد الآراء لا يعني بالضرورة تقليد النموذج الغربي للديمقراطية والتعددية الحزبية. والأمر بكل بساطة يتطلب إتاحة فضاء عمومي للحوار والنقاش وسماع كل الآراء المختلفة بكل حرية. والحجة الرئيسة ضد الفرضية القائلة بضرورة تدخل الدولة للسيطرة على الشائعات والأخبار الزائفة، من أجل تفادي انتشار الخوف بين الناس، هي أن هذه السيطرة في حد ذاتها تؤدي إلى تفاقم انعدام الثقة، وبالتالي تولد العديد من الشائعات التآمرية والكيدية. بينما تشكل الثقة المتبادلة بين المواطنين والدولة الضمانة الوحيدة التي تخرجنا من هذا النفق المظلم.

خلال فترة الوباء، نحتاج إلى دولة قوية قادرة على فرض تدابير وقائية واسعة النطاق باتباع انضباط عسكري صارم. وقد تمكنت دولة الصين من عزل عشرات الملايين من الناس، لكن هل ستمكن الولايات المتحدة الأمريكية من القيام بنفس الإجراءات إذا ما تفشى فيها الوباء؟

يمكن أن نراهن على أن الليبراليين سوف لن يرضخوا للحجر الصحي ولن يحترموا الإجراءات ولو اقتضى الأمر استعمال أسلحتهم، ويعتبرون الأمر مؤامرة من طرف الدولة؛ لذا، هل يجب أن نعتبر أن زيادة حرية التعبير يمكن أن تمنع الوباء وتحد منه، وأن الصين تضحي بمقاطعة هوبي لإنقاذ العالم.

إن الرأيين معا صحيحان، بلا شك، لكن ما يجعل الأمور أكثر تعقيدا هو أنه ليس من السهل فصل حرية التعبير عن الشائعات والأخبار الزائفة.

ونذكر أولئك الذين يستنكرون اعتبار السلطات الصينية أن "الحقيقة سيتم التعامل معها على أنها شائعة" بأن وسائل الإعلام الرسمية والرقمية تعج بالفعل بالشائعات والأخبار الزائفة.

يوم 23 يونيو 2013، قالت حكومة هونغ كونغ أن سنودن غادر "دون إكراه لبلد ثالث ملتزمًا بالطرق الشرعية والطبيعية"، وذلك بعد يوم واحد من تقديم الولايات المتحدة طلب إلى حكومة هونغ كونغ لتسليمه بسرعة. في حديث لصحيفة الجارديان البريطانية قال سنودن إنه اختار هونغ كونغ وجهة أولى لأنها توفر "إطاراً ملائماً ثقافياً وقانونياً للسماح لي بالعمل دون الخضوع لاعتقال فوري". وأعلنت أمريكا أنها ألغت جواز سفر سنودن. كما أكد سنودن أنه سلم كل الوثائق التي كانت بحوزته إلى صحفيين عندما كان في هونغ كونغ، قبل أن يتوجه إلى روسيا. وأنه تمكن من حماية الوثائق من المخبرات الصينية بفضل خبرة اكتسبها عنهم أثناء عمله في وكالة الأمن القومي. وحصل سنودن سنة 2013 على جائزة سام آدامز. كما رُشح لنيل جائزة نوبل للسلام. يعتبر سنودن هارباً من العدالة أمام السلطات الأمريكية التي تتهمة بالتجسس وسرقة ممتلكات حكومية. في بداية عام 2014، دعت عدة كيانات إعلامية وسياسية، إلى التسامح مع سنودن في صفة عفو عام، في حين دعا آخرون إلى سجنه أو قتله. يعيش سنودن في مكان غير معلوم، وفقاً للسلطات الألمانية، هانز كريستيان شتروبل، ما زال يحاول الحصول على لجوء سياسي دائم في دولة "ديموقراطية" مثل ألمانيا أو فرنسا (بتصرف عن ويكيبيديا).

في حالة ما إذا تفشى وباء واكتسح العالم، فهل ندرك أن آليات السوق لن تكون كافية لمنع الفوضى والمجاعة؟

يجب الاعتماد على التدابير والإجراءات التي يعتبرها البعض "اشتراكية شيوعية"، على الصعيد العالمي لتنسيق عمليات الانتاج والتوزيع خارج معايير السوق.

هناك مفارقة (مضحكة) ومثيرة في الوقت نفسه، تكمن في كوننا سنحتاج إلى تدابير اشتراكية شيوعية¹ للقضاء على وباء ظهر وأخذ في الانتشار بدولة نظامها السياسي اشتراكي شيوعي! إن المهمة التي تنتظرنا مهمة شاقة وعصية: يجب أن نتخلى عن كل أشكال الحنين إلى الشيوعية القديمة في القرن العشرين، التي كانت أسوأ من الرأسمالية. وأن نبكر أشكالاً جديدة من الأنشطة تركز على المشترك الإنساني. فهل يمكن اعتبار هذا الأمر نوعاً من الطوباوية والثالية الحالية؛ طوباوية المدينة الفاضلة؟

إن ما هو طوباوي خيالي هو الاعتقاد بأننا سنخرج من هذا المأزق الصعب بشكل آخر، خلافاً لما قلنا².

بطبيعة الحال، نحتاج إلى تحليل الظروف والشروط الاجتماعية التي ساعدت على تفشي وباء كوفيد-19. لتوضيح هذا الأمر، نقدم المثال التالي: التقى شخص بريطاني بآخر من سنغافورة في طريق عودته لبلده، ثم ذهب إلى فرنسا لممارسة رياضة التزحلق على الثلج. كم عدد الأشخاص الذين سينقل لهم عدوى كوفيد-19؟ لا نستطيع أن نضبط عدد من ستنقل إليهم عدوى الفيروس الذي من مميزاته الانتقال السريع بين الناس.

لقد بدأ الحديث فعلاً عن المشتبه فيهم الرئيسيين المعتادين: العولمة والرأسمالية اللبرالية وغيرها.

ومع ذلك، فلنقاوم إغراء البحث عن معنى أعمق ثاو خلف هذا الوباء: إنها عقوبة عادلة للإنسان الذي يستغل كل أشكال الحياة على الأرض أبشع استغلال¹. إن البحث عن مثل هذه الرسالة الخفية هو أمر حديث العهد: فنحن نتعامل مع الكون باعتباره مُحاورنا المفضل.

¹ - يتعلق الأمر ببناء أواصر التعاون والتكافل، مع ضرورة التركيز على الفئات التي تعيش أوضاع الفقر والمهاشة، عوض البحث عن ملاذات زائفة والاستئثار أو الانعزال والركون إلى المصالح الضيقة للأفراد والجماعات والدول.

² - يخضع العالم الآن لتغيرات جذرية بسبب الوباء، فالعالم بعد كورونا لن يكون حتماً هو نفسه قبلها، فالخطط والمبادئ والإيديولوجيات كلها ستتغير لا محالة، والناس محتاجون للتعايش مع الفيروس الذي يبدو أنه لن يتم القضاء عليه قريباً. ستتغير طرق العمل الذي لم يعد الناس محتاجين لمكاتب ومقرات للالتحاق بها فكل شيء سيتم عن بعد، وكذا سيقبل الاكتظاظ بالمدن والطرق ونتيجة ذلك سينقص انبعاث دخان السيارات وتلوث البيئة، ولن يحتاج الناس للهجرة إلى مناطق الجذب، بل سيارسون أنشطتهم ويقدمون مشاريعهم من بيوتهم فهم لا يحتاجون سوى لحاسوب وشبكة الانترنت لإبراز مواهبهم وقدراتهم. عموماً يمكن القول أن كوفيد-19 مثل تراجيديا كبيرة في العالم لكنه خلف آثاراً كبيرة ستغير طريقة عيش الناس وعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية.

هناك شيء مطمئن يدعونا إلى التفكير بأن الأمر يتعلق بعقوبة: وهذا يعني أن الكون (أو شخص ما، في مكان ما، في الخارج) ينظر إلينا... والشيء الذي لا نتقبله هو أن الوباء الذي انتشر في العالم حالياً هو نتيجة عدوى طبيعة طارئة وغير متوقعة، وغير معروف بشكل عميق، ودقيق، كما يجب أن نضع في حسابنا أنه في المراتب العليا للموجودات لا يشغل الإنسان إلا مرتبة هامشية.

للحد من انتشار الفيروس التاجي، عرض "رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتانياهو" علم، السلطة الفلسطينية المساعدة والتنسيق، ليس بدافع اللطف والمساعدة الإنسانية، ولكن وبكل بساطة، لأن الفيروس لا يميز بين اليهود والفلسطينيين.

لقد أصبح شعار "أمريكا أولاً" (أو أي دولة أخرى)، متجاوزاً وعفا عنه الزمن، وكما قال مارتين لوث كينغ منذ أكثر من نصف قرن: "ربما أتينا على متن سفن مختلفة، لكننا اليوم مضطرون للركوب في السفينة نفسها".

وإذا لم تترجم هذه الأقوال إلى أفعال، فإننا نخاطر للوصول إلى حالة "الأميرة الماسية" Diamond Princess، وهو اسم سفينة الرحلات التي دمرها الوباء.

¹ - لقد أكد إدغار موران قبل سنوات في كتاب له بعنوان: "هل نسير إلى الهاوية؟" أن التقدم العلمي مكّن من إنتاج الأسلحة النووية وأسلحة أخرى للدمار الشامل، كإيوية وبيولوجية، وأتاح لها الانتشار الواسع. كما تسبب هذا التقدم التقني والصناعي في مسلسل من التدهور في المحيط الحيوي. ويرى موران كذلك أن العولمة لا تزال كذلك سبباً في خلق أزمات لا تفتأ في تناسل متواصل، وتسير في اتساع واستشراء حتى باتت تهدد بانتشار الفوضى والصراعات في العالم.

ظروف الجائحة والاجتهادات القانونية والقضائية

جائحة كورونا وتأثيرها على عقد التعليم الخاص

أحمد أنوار ناجي

كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية. جامعة محمد بن عبد الله. فاس

ahmedanouar.naji@usmba.ac.ma

ملخص

أحدث الظهور المفاجئ والانتشار الواسع لفيروس كورونا المستجد - كوفيد-19 آثار وخيمة على العديد من أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية وتوقيف العديد من القطاعات وتغيير في أنماط الأداء ومنها قطاع التعليم الخصوصي، فعمدت المملكة المغربية وبتوجيهات ملكية سامية إلى اتخاذ مجموعة من التدابير القانونية الإستعجالية لمواجهة تداعيات الأزمة، والتي تصب جميعها في اتجاه تفعيل التضامن الاجتماعي الوطني بمعناه الشامل ولعل من بين الآليات التي تم اعتمادها التدريس عن بعد.

إلا أن هذه التدابير ونظرا لعنصر المباغتة الذي يرافق الأزمة الوبائية لم تستوعب عقد التعليم الخصوصي بل تركت الأمر بيد الأطراف المتعاقدة لإيجاد حلول متوافق عليها لتنفيذ التزاماتهم المتبادلة، وهو ما طرح إشكالا قانونيا بصدد إيجاد أجوبة شافية يمكن الركون إليها من طرف الجميع، لذلك كان حريا البحث عن وسائل تحقق التوازن العقدي بين الفرقاء في الالتزام التعاقدي، وهو ما يقتضي ضرورة البحث عن موقف القانون والقضاء، وإلى أي حد استطاعا التلطيف من القوة الملزمة للعقد في ظل جائحة كورونا.

الكلمات المفتاحية: جائحة كورونا "كوفيد-19"، الحق في التعليم، عقد خاص، التدريس عن بعد، القوة القاهرة، التوازن العقدي، القانون، القضاء.

Résumé

La survenue de la pandémie du covid 19 a bouleversé le quotidien des peuples à travers la planète et a eu de graves conséquences sur les plans sanitaire, économique et social. Le royaume du Maroc, grâce aux hautes instructions de sa majesté le roi Mohamed VI, a été parmi les pays les plus réactifs ayant instauré un grand nombre de dispositifs afin de préserver la santé des marocains en dépit des conséquences économiques très lourdes. Ces mesures tel que l'enseignement à distance soulève des problématiques non résolues dans le secteur privé ; puisque les deux parties du contrat reste dans le flou par rapport à leur obligations mutuelles y compris les modalités de paiement. Ainsi établir un équilibre contractuel entre les différents intervenants du contrat de l'enseignement privé reste un défi pour la jurisprudence qui devra

s'atteler à trouver un compromis entre la force majeure de la pandémie et la force obligatoire du contrat en l'absence d'une législation claire.

Mots-clés :

Pandémie (covid-19), le droit, l'enseignement, contrat, privé, enseignement à distance, force majeure, équilibre contractuel, législation, jurisprudence.

مقدمة

ألقت الأزمة الوبائية العالمية التي تسبب فيها الظهور المفاجئ والانتشار الواسع لفيروس كورونا المستجد - كوفيد-19 آثار وخيمة على الحياة العامة للدول على جميع الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والصحية، وإذا كانت هذه الوضعية تتقاسمها جميع دول المعمور فإن المغرب لا يشكل الاستثناء بل بادر إلى فرض حالة الطوارئ الصحية بمقتضى المرسوم بقانون رقم 2.20.293 الصادر في 28 رجب 1441 (24 مارس 2020) بإعلان حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا - كوفيد-19،¹ ذلك أن المغرب له تجربة رائدة في إدارة الأزمات الوبائية على مر التاريخ (البزاز محمد الأمين، 1992).

وقد أصابت جائحة كورونا العديد من أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية وتوقيف العديد من القطاعات، وتغيير في أنماط الأداء والتواصل ومنها قطاع التعليم بقسميه العمومي² والخصوصي³، ونظرا لطابع عدم التوقع الذي تميزت به هذه الأزمة فإن المملكة المغربية بتوجيهات ملكية سامية عمدت إلى اتخاذ مجموعة من التدابير القانونية الاستعجالية لمواجهة تداعيات الأزمة، والتي تصب جميعها في اتجاه تفعيل التضامن الاجتماعي الوطني بمعناه الشامل.⁴

¹ المنشور في الجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 6867 مكرر الصادر في 29 رجب 1441 (24 مارس 2020) ص 1783. وقد تم تمديد مدة سريان مفعول حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا - كوفيد-19 المنشور في الجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 6874 مكرر الصادر في 25 شعبان 1441 (19 أبريل 2020) ص 2218.

² الذي ينظمه الظهير الشريف رقم 1.00.200 الصادر في 15 صفر 1421 (19 ماي 2000) بتنفيذ القانون رقم 04.00 بتغيير وتتميم الظهير الشريف رقم 1.63.071 الصادر في 25 جمادى الآخرة 1383 (13 نونبر 1963) حول إلزامية التعليم الأساسي المنشور في الجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 4798 الصادر في 21 صفر 1421 (25 ماي 2000) ص 1183.

وتجدر الإشارة إلى أن الفصل 2 من الظهير الشريف رقم 1.63.071 الصادر في 25 جمادى الآخرة 1383 (13 نونبر 1963) حول إلزامية التعليم الأساسي منشور بالجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 2665 الصادر في 5 رجب 1383 (22 نونبر 1963) ص 2620.

والظهير الشريف رقم 1.00.201 الصادر في 15 صفر 1421 (19 ماي 2000) بتنفيذ القانون رقم 05.00 بشأن النظام الأساسي للتعليم الأولي المنشور في الجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 4798 الصادر في 21 صفر 1421 (25 ماي 2000) ص 1184 ينص على أنه "يلقن التعليم في المؤسسات أو المدارس العمومية أو الخصوصية".

³ الذي ينظمه الظهير الشريف رقم 1.00.202 الصادر في 15 صفر 1421 (19 ماي 2000) بتنفيذ القانون رقم 06.00 بمثابة النظام الأساسي للتعليم المدرسي الخصوصي المنشور في الجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 4798 الصادر في 21 صفر 1421 (25 ماي 2000) ص 1187.

⁴ عملا بمقتضيات القانون التنظيمي رقم 130.13 لقانون المالية، والمادة 29 من قانون المالية للسنة المالية 2020، والمادة 25 من المرسوم 2.15.426 المتعلق بإعداد وتنفيذ قوانين المالية، بإحداث حساب مرصد لأموال خصوصية أصدرت الحكومة يوم الثلاثاء

إلا أن هذه التدابير ونظرا لضيق الوقت ولعنصر المباغتة الذي يرافق الأزمة الوبائية لم تستوعب عقد التعليم الخصوصي وتنظمه تنظيمًا قانونيًا محكمًا بل تركت الأمر بيد الأطراف المتعاقدة لإيجاد حلول متوافق عليها لتنفيذ التزاماتهم المتبادلة، وهو ما طرح إشكالا قانونيا بصدد إيجاد أجوبة شافية يمكن الركون إليها من طرف الجميع خصوصا بعدما أصبح التعليم الخاص حقيقة وواقعا ويعرف انتشارا واسعا في المغرب ويهم شريحة عريضة من الأسر المغربية، وآثارها تتعدى أطراف العقد لتلقي بظلالها على المجتمع بأكمله¹.

وقد أثرت الحديث عن موضوع يتعلق تحديدا بجانب على قدر كبير من الأهمية "جائحة كورونا وتجلياتها على عقد التعليم الخاص"، وتتمثل دواعي ومبررات هذا الاختيار في الآتي:

17 مارس 2020 مرسوما يقضي بإنشاء صندوق يحمل اسم: "الصندوق الخاص بتدبير جائحة فيروس كورونا "كوفيد-19"، وقد أحدث هذا الصندوق بموجب المرسوم رقم 2.20.269 الذي تم نشره بالجريدة الرسمية (النشرة العامة) العدد 6865 الصادر يوم الثلاثاء 22 رجب 1441 (17 مارس 2020) ص 1540، بعد المصادقة عليه من لدن مجلس استثنائي للحكومة انعقد بتاريخ 16 مارس 2020.¹ ويرى بعض الباحثين المغاربة (الباحثة بشرى الوهاب في مقال لها حول فيروس كورونا المستجد.. وأثره على الالتزامات التعاقدية) أن فكرة "العقد شريعة المتعاقدين" تنبني على ثلاثة أسس: أولا قانوني قوامه مبدأ سلطان الإرادة؛ وثانيا: أخلاقي يتمثل في احترام العهود والمواثيق؛ وثالثا ذو طابع اجتماعي واقتصادي يترجمه وجوب استقرار المعاملات، وهي فكرة توجب احترام مضمون العقد سواء من طرف المتعاقدين أو من جانب القضاء.

لكن الأوبئة الصحية هي واقعة مادية صرفة، تكون لها آثار سلبية واضحة يمكن رصد ملامحها على العلاقات القانونية بوجه عام والعلاقات التعاقدية على وجه الخصوص، حيث تتصدع هذه الروابط نتيجة ركود يصيب بعض القطاعات الاستثنائية، مما يجعل من المستحيل أو على الأقل من الصعب تنفيذ بعض الالتزامات أو يؤخر تنفيذها.

وهو وضع قد يمس المؤسسات الصناعية والتجارية الخاصة والعامة، الصغيرة والكبيرة والمتوسطة على السواء، بالنظر للارتباط الكبير الوثيق بين أنشطتها، حيث يكفي أن تصاب إحداها بأزمة اقتصادية لكي تهدد الأخريات بدورها، ومن هنا تبني الفكر القانوني والاجتهاد القضائي عبر العالم آليتين تعتبران من الوسائل الحمايية للمدينين، هما نظريتا القوة القاهرة والظروف الطارئة اللتين ترميان إلى علاج الحالات، التي يصير فيها الالتزام التعاقدية مستحيل التنفيذ (القوة القاهرة)، أو صعب التنفيذ (الظروف الطارئة).

وهما في الأصل يعدان تطبيقا لمبدأ أخلاقي عام، مفاده أنه لا تكليف بمستحيل أو لا تكليف بما يتجاوز الطاقة العادية للإنسان، فلكي يسأل المدين عقديا يجب أن يكون قد أدخل بالالتزامه العقدي، ومن صور ذلك الإخلال، عدم التنفيذ في الوقت المتفق عليه وهو ما يتم وصفه بالتأطل.

غير أن هذه المسؤولية العقدية، قد ترتفع عن صاحبها إذا ما تمسك بأحد الأسباب الأجنبية عنه، والتي تمثل في جوهرها كل الظروف والوقائع المادية أو القانونية، التي يمكن للمدعى عليه في دعوى المسؤولية المدنية أن يستند إليها لكي يثبت أن الضرر لا ينسب إليه، ولا دخل له فيه، وإنما هو نتيجة حتمية لذلك السبب، وتمثل القوة القاهرة أهم صور هذا السبب الأجنبي.

وما نلحه اليوم من تأجيل عدد من الرحلات الجوية والأسفار السياحية (العمر)، والأنشطة واللقاءات والتظاهرات ما تضرر معه الشركاء والمؤسسات المعنية بها، فضلا عن المفاوضات التي ترتبط أنشطتها التجارية بشكل كبير بالمقاولات الصينية، التي بدأت تشتكي من ركود معاملاتها، سيثير النقاش مجددا حول نظريتي القوة القاهرة والظروف الطارئة ومدى إمكانية استفادة هذه المقاولات منها للتحلل من التزاماتها العقدية وتعديلها أو التخفيف منها، وفي سياق الحديث على سبيل المثال نشير مثلا إلى مباراة المحققين القضائيين فوج 44 والذي تقرر تأجيل اختباراتها الشفوية في وقت لاحق وذلك في إطار التدابير الاحترازية للوقاية من فيروس كورونا، فهنا يطرح التساؤل حول مصير المتعاقدين مع شركة القطر الفائق السرعة في حالة أدائه ثمن التذكرة في وقت سابق على صدور البلاغ حيث في هذه الحالة الشركة لا محالة ستمسك بالقوة القاهرة كون هذا التأجيل لا يرجع إلى تقصير من طرفها فيما تعفى من التعويض المادي للمتعاقد.

للمزيد راجع:

- بشرى الوهاب: فيروس كورونا المستجد.. وأثره على الالتزامات التعاقدية؛ مقال منشور على الموقع الإلكتروني:

<https://alkanounia.info/2020/03/19/8620>

(تاريخ الدخول يوم الأربعاء 22 أبريل 2020 على الساعة 8 إلا ربعا ليلا)

- التوجه الجديد الذي عرفه العالم والمتجلى في الاهتمام المتزايد بقضايا التعليم في ظل هذا الوباء عن طريق تفعيل التعليم عن بعد.¹

- حادثة الموضوع، فلا يخفى على الجميع أنه في الوقت الذي حظيت فيه العديد من العقود بالاهتمام التشريعي والفقهى وكرست له البحوث والمؤلفات والمصنفات المفصلة والمستفيضة فإن عقد التمدرس الخاص لم يحظ بالعناية نفسها أمام وضعه القانوني في ظل هذه الجائحة جعلت لهذا الموضوع بريقا خاصا بالبحث.

- أن هذه الدراسة تهدف إلى البحث عن التوازن العقدي المطلوب بين المهني والمستهلك عن طريق إيجاد حلول قانونية في ظل هذه الجائحة، وإلى أي حد نجح المشرع المغربي في تحقيق ذلك التوازن المنشود مما سيسمح بتقييم حقيقي للموضوع ككل.

كذلك فطابع اختيار موضوع المقال لم يكن وليد الصدفة وإنما جاء كحالة لربط العلاقة القائمة بين جائحة كورونا وتأثيرها على تنفيذ التزامات أطراف عقد التعليم الخاص.

هذا ولا يخفى على أحد التفاعلات والمفاوضات التي عرفتها قضية التعليم على الساحة الوطنية ومواقف الفرقاء منها، فإن لم نقل بكونها أحد أهم القضايا التي عرفت صراعات حادة لكون الطلب عليها غير قابل للإرجاء أو البحث.

انطلاقا من هذا السياق وبعدما عولت وزارة التعليم على خيار التضامن الاجتماعي والوطني كحل أمثل وكخيار استراتيجي رئيسي لمواجهة الآثار الآنية والمستقبلية لأزمة كورونا فيروس، إلا أن الأمر في النهاية وفي غياب أجوبة شافية ظل رهينا بوجود حلول متوافق عليها.

لكن في غياب القانون القابل للمفاوضة لا بد وأن نبحت عن القانون المفروض، لذلك كان حريا بنا البحث عن وسائل تحقق التوازن العقدي بين الفرقاء في الالتزام التعاقدي ما دام ثبت

¹ - حيث ينص الفصل 18 من الظهير الشريف رقم 1.00.202 الصادر في 15 صفر 1421 (19 ماي 2000) بتنفيذ القانون رقم 06.00 بمثابة النظام الأساسي للتعليم المدرسي الخصوصي على أنه "تسري على مؤسسات التعليم عن بعد وبالمساواة الأحكام الواردة في هذا القانون باستثناء ما هو مقرر في المواد 3 و4 و5 و10 و16 و17، وتخضع هذه المؤسسات بالإضافة إلى ذلك للأحكام المنصوص عليها في هذا الباب.

وتحدد أدوات التدريس عن بعد وبالمراسلة بنص تنظيمي".
ويضيف الفصل 19 من نفس الظهير أنه "يتم الانتساب إلى مؤسسات التعليم عن بعد وبالمراسلة بموجب عقد يبرم بين المؤسسة والتلميذ أو ولي أمره، تحدد فيه حقوق وواجبات المتعاقدين.

ويجب أن يتضمن العقد بوجه خاص شروط تلقي التعليم عن بعد وبالمراسلة، ولا سيما ما يتعلق بخدمات المساعدة التربوية والتعليمية المتعلقة بطرق العمل والأشغال والتأرجح وعملية التصحيح.

ويجب أن يلحق بالعقد تصميم الوحدات الدراسية ومدة كل منها ومستوى المعلومات الواجب توفرها لدى التلميذ للاستفادة من البرنامج المعد له.

ويتم احتساب نفقات الكتب والأدوات والوسائل التعليمية الضرورية لتلقي هذا النوع من التعليم على حدة ويكون ذلك بثمن كلفتها.

ويكون باطلا كل عقد لم يتضمن البيانات الواردة في الفقرتين الثانية والثالثة من هذه المادة."

جليا أن التوازن لن يتحقق تلقائيا، وهو ما يقتضي منا ضرورة البحث عن موقف القانون والقضاء، وإلى أي حد استطاعا التلطيف من القوة الملزمة للعقد في ظل جائحة كورونا؟ وهل تسعفنا النصوص القانونية الحالية في إيجاد حل لذلك النزاع، وكيف سيتعامل القضاء المغربي مع القضايا الممكن عرضها عليه مستقبلا؟

لنخلص في الأخير هل المطلوب من التشريع والقضاء في بلد كالمغرب في ظل جائحة كورونا¹ أن يكون محايدا يكتفي فقط برصد الظواهر الاجتماعية ثم وصفها داخل قوالب تشريعية محددة من دون أن يكون معنيا بصلاحيات هذه القوالب للمجتمع، أم المطلوب منه على العكس من ذلك هو القيام بدور إيجابي بمعنى أن يتدخل لتغيير هذه الظواهر وتوجيهها نحو المسار الذي يخدم الرخاء الاجتماعي؟ ما يقتضي منا في النهاية البحث عن سبل تفعيل مبدأ التضامن الاجتماعي الوطني بمعناه الشامل.

لذلك سنحاول من خلال هذا المقال وللإجابة على الإشكاليات التي يطرحها رصد ومعالجة دور القانون في حماية الفئة المتضررة من الإجراءات الاحترازية وحالة الطوارئ الصحية (1)، ثم ننتقل للحديث عن الدور المحتمل للقضاء في تحقيق التوازن العقدي من خلال تفعيل المقتضيات القانونية للحد من تأثير فيروس كورونا (2)، لنختم المقال بالحديث عن السيناريوهات المحتملة و المقترحات الفعالة لإيجاد حل مناسب للمسألة.

1. دور القانون في حماية الفئات المتضررة من فيروس كورونا

توخى المشرع المغربي اتخاذ حزمة من التدابير والإجراءات الاحترازية الخاصة بقطاع التعليم حيث أصدرت وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي بلاغا بخصوص توقيف الدراسة بجميع الأقسام والفصول انطلاقا من يوم الاثنين 16 مارس 2020 وإلى إشعار آخر، وذلك في إطار التدابير الاحترازية الرامية إلى الحد من العدوى وانتشار "وباء كورونا" (كوفيد-19)، مؤكدة عملها على اتخاذ مجموعة من التدابير لأجل ضمان الاستمرارية البيداغوجية والتحصيل الدراسي لجميع المتعلمين والمتعلمين، وذلك عن طريق إقرار موارد رقمية وسمعية بصرية وحقائب بيداغوجية لازمة لتوفير التعليم والتكوين عن بعد بغية تمكين المتعلمين والمتعلمين من الاستمرار في التحصيل الدراسي.

¹ - حسب التعريف الذي قدمته منظمة الصحة العالمية، فإن فيروس كورونا المعروف بكوفيد-19 هو فيروس ينتمي إلى فصيلة فيروس كورونا الذي ينتمي بدوره إلى نظام الفيروسات التي قد تسبب المرض للحيوان والإنسان، ومن المعروف أن عددا من فيروسات كورونا تسبب لدى البشر حالات عدوى الجهاز التنفسي التي تتراوح حدتها من نزلات البرد الشائعة إلى الأمراض الأشد وخامة، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (ميزر)، والمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة (السارس) وأخيرا كوفيد-19.

يراجع تعريف منظمة الصحة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة المنشور على الموقع الإلكتروني:

<https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public/qa-coronaviruses>

كما جددت الوزارة التأكيد على أن توقيف الدراسة لا يعني مطلقا إقرار عطلة مدرسية استثنائية، وإنما ملازمة التلاميذ منازلهم ومتابعة دراستهم عن بعد عوض الدروس الحضورية، وأن الأمر يشمل المؤسسات والمعاهد التعليمية والتربوية سواء كانت عمومية أو خصوصية.

وإذا كانت دعوة الحكومة للجميع بمزيد من الانخراط الفعال والتعبئة الشاملة من أجل إنجاح عملية "التعليم عن بعد"، ومعاودة تأكيد الوزارة من خلال مذكرتها المؤرخة في 10 أبريل 2020 على ضمان الاستمرارية البيداغوجية بمؤسسات التعليم الخصوصي¹

فإن الإشكال الذي يبقى مطروحا في التعليم الخصوصي هو أن هذه المذكرة وإن كانت قد تحدثت عن المواكبة والاستمرارية إلا أنها لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى مدى استمرارية أولياء التلاميذ في أداء الواجبات المدرسية أو تحللهم من التزامهم بالأداء، مادام التزام المؤسسات التعليمية بالتدريس الحضورى لم يعد قائما، وما يستتبع ذلك من إعفاء من مجموعة من الالتزامات التبعية كضمان النقل والوجبات الغذائية، وأداء مصاريف أجرة العمال والسائقين الذين يشتغلون بالمؤسسة مادام بإمكانهم الاستفادة من حزمة من التدابير المقترحة من قبل لجنة اليقظة الاقتصادية المخصصة لفائدة الأجراء الذين توقفوا عن العمل،² وإسناد عملية الاشراف والسهر على التدريس إلى أولياء التلاميذ بدل الأستاذ، وبذلك أصبحت المؤسسات التعليمية معفاة من مجموعة من الالتزامات منها ما هو منصوص عليه في العقد الذي يربطها بأولياء التلاميذ، ومنها ما يعتبر مقابلا لما يؤديه هؤلاء.

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لا بد وأن نعرف بداية عقد التعليم الخاص، مروراً بتحديد طبيعته القانونية، وانتهاء ببيان موقف القانون المغربي من هذا العقد.

1.1. تعريف عقد التعليم الخاص

عقد التعليم الخاص يدخل في زمرة العقود غير المسماة التي لم يوجد له المشرع المغربي تنظيما قانونيا خاصا وإنما يخضع للأحكام العامة للعقد الواردة في قانون الالتزامات والعقود (ظهير 12 غشت 1913)، ويمكن تعريفه بكونه ذلك "العقد الذي يربط بين المؤسسات التعليمية والمدارس والمعاهد الخاصة من جهة، وبين من يرغبون في التعلم من جهة أخرى، وهي علاقة تعاقدية وليست علاقة تسلطية لأن مؤسسات التعليم الخاص من أشخاص القانون الخاص

8- جواب السيد رئيس الحكومة عن السؤال المحوري: "التداعيات الصحية والاقتصادية والاجتماعية لانتشار وباء فيروس كورونا "كوفيد-19" والإجراءات المتخذة لمواجهة هذه الجائحة، الجلسة الشهرية المتعلقة بالسياسة العامة، مجلس النواب الاثنين 13 أبريل 2020 ص 12.

9- حيث قررت لجنة اليقظة صرف 2000 درهم صافية للعمال المستخدمين المسجلين بالصندوق الوطني للضمان الاجتماعي مدفوعة من الصندوق الخاص بتدبير جائحة كورونا، وكذا دفع كل التعويضات العائلية وتلك المتعلقة بالتأمين الإجباري عن المرض (أمو).

وليست من أشخاص القانون العام"، الأمر الذي يطرح التساؤل حول الطبيعة القانونية للعقد (كاوان إسماعيل كه ردي، 2010).

2.1. الطبيعة القانونية للعقد

من خلال التعريف السابق نستشف بأن عقد التعليم الخاص يجمع بين طرفين الأكيد أن أحدهما طرف مدني وهو المت مدرس، أما الطرف الثاني وهي المؤسسات التعليمية الخاصة¹ فلم ينص المشرع المغربي صراحة على كونها تاجرة من خلال المادة السادسة والسابعة من مدونة التجارة، لكن القضاء التجاري ومن خلال الاجتهادات القضائية الصادرة عنه أضفى عليها الصفة التجارية لأنها تتوفر على جميع مقومات وشروط العمل التجاري من ربح (نظرية المضاربة)، ووساطة (نظرية الوساطة)، ناهيك على أن أغلبها تمارس في إطار مؤسسة (نظرية المقاوله)، حيث جاء في القرار عدد 203 الصادر عن محكمة الاستئناف التجارية بفاس بتاريخ 14/12/1998 في الملف عدد 98/335 أن:

"... نشاط مؤسسة التعليم الخصوصية يقوم على المضاربة من أجل تحقيق الربح بصورة اعتيادية واحترافية، الأمر الذي يكسبها صفة التاجر طبقاً للمادتين 6 و 7 من القانون 15.95 وحيث إن المستأنفة وإن كان عملها يهدف إلى تسيير مؤسسة تعليمية وضعت أساساً للتربية والتعليم إلا أن عملها وخدماتها لا تقدم بالمجان، وإنما مقابل واجبات تؤدي بانتظام من طرف أولياء التلاميذ بغرض تحقيق الربح، وهو عمل مماثل ومجانس للأعمال الواردة في المادتين 6 و 7 من مدونة التجارة" (غير منشور).

وتأسيساً على ما سبق نخلص إلى أن عقد التعليم الخاص من طينة العقود المختلطة les Actes Mixtes وهو العقد الذي يجمع بين طرفين أحدهما تاجر والآخر مدني، الشيء الذي

¹ - وقد جاء في العقد الذي تقترحه مؤسسات التعليم الخاص في دي KHDA وهي هيئة حكومية تُدعى هيئة المعرفة والتنمية البشرية في دي، تتولى مسؤولية الارتقاء بجودة التعليم الخاص في دي، وتوفر الدعم للمدارس والجامعات والطلبة وأولياء الأمور والتربويين والمستثمرين والشركاء الحكوميين لبناء قطاع تعليمي يتميز بالجودة العالية ويهتم بنشر أجواء السعادة والحياة الطيبة أنه "تعد الشفافية والوضوح أساساً لقيام علاقة بناءة بين المدارس وعائلات الطلبة، من شأنها ضمان تقديم خبرات تعليمية فعالة للطلبة تنطلق من توفير التשתئة السليمة لهم. ومن هنا جاء طرحنا لعقد بين ولي الأمر والمدرسة، نضمن من خلاله معرفة الطرفين لمسؤولياتهم وواجباتهم، ويصب في مصلحة المدارس وعائلات الطلبة، لكونه يحكم العلاقة بينهما بأحكام وشروط واضحة في صيغة عقد يلتزم به الطرفان.

وتعد الأحكام والشروط المنصوص عليها في العقد مرجعاً لتسوية المنازعات، وستتقيد هيئة المعرفة بالاتفاق المنصوص عليه في هذا العقد عند النظر في أية مسألة تصلها من أحد الطرفين، وعليه ندعو عائلات الطلبة إلى قراءة هذا العقد بتمعن، وعدم الموافقة والتوقيع عليه إلا بعد حصولها على إجابات وافية من المدرسة على كافة استفساراتها وتساؤلاتها.

وعلاوة على هذا العقد، ينبغي على المدرسة تطبيق إجراءات فاعلة لمعالجة شكاوى أولياء الأمور وتحفظاتهم، كما ينبغي النظر إلى أولياء الأمور بعين التقدير والاستفادة منهم كمصدر مهم للغاية في إثراء التجربة التعليمية لأبنائهم."

راجع الموقع الإلكتروني:

<https://www.khda.gov.ae/ar/Website> (تاريخ الدخول يوم الأربعاء 22 أبريل 2020)

ينعكس على الاختصاص القضائي وتحديد المحكمة المختصة للبحث في المنازعة خصوصا وأن هذا التساؤل يجد مشروعته في المغرب بعد إحداث المحاكم التجارية، مما يجعل الاختصاص مزدوجا بين المحاكم الابتدائية والتجارية في العقود المختلطة بحسب رافع الدعوى، فإذا كان الطرف المدعي هو الطرف التاجر أي المؤسسة التعليمية فهي ملزمة برفع الدعوى أمام المحكمة الابتدائية، أما إذا كان المدعي هو الطرف المدني أي المتدرس فله حق الخيار بين مقاضاة المؤسسة التعليمية إما أمام المحكمة التجارية أو أمام المحكمة الابتدائية بحسب مصلحته وذلك تطبيقا لمقتضيات المادة الرابعة من مدونة التجارة.¹

3.1. موقف القانون المغربي

أمام مستجد كورونا أصبح القانون عاجزا إلى حد ما عن الإجابة عن إشكالية استمرارية بعض العقود مما يطرح التساؤل حول استيعاب القانون الحالي للمستجد الطارئ وتأثيره على تنفيذ عقد التعليم الخاص.

حسب ما تم تبياناه أعلاه فغياب مبدأ الحضورية في التدريس في ظل جائحة كورونا والانتقال إلى البديل أي المستوى الافتراضي عن طريق تعويضه بالتعليم عن بعد، أثر بشكل كبير على تنفيذ المؤسسة التعليمية الخاصة للعقد ذلك أنها أعفيت من مجموعة من الالتزامات التي كانت تثقل كاهلها اتجاه أولياء التلاميذ كما سبق الإشارة إلى ذلك، مما يجعل مطالبتها بإيهم بأداء واجبات المتدرس كاملة في ظل جائحة كورونا طبقا لمبدأ القوة الملزمة للعقد يطرح أكثر

¹ - تنص هذه المادة على أنه "إذا كان العمل تجاريا بالنسبة لأحد المتعاقدين ومدنيا بالنسبة للآخر، طبقت قواعد القانون التجاري في مواجهة الطرف الذي كان العمل بالنسبة إليه تجاريا؛ ولا يمكن أن يواجه بهما الطرف الذي كان العمل بالنسبة إليه مدنيا، ما لم ينص مقتضى خاص على خلاف ذلك".

وتنص المادة 5 من قانون رقم 53.95 يقضي بإحداث محاكم تجارية الصادر بتنفيذه الظهير الشريف رقم 1.97.65 صادر في 4 شوال 1417 (12 فبراير 1997) المنشور في الجريدة الرسمية (النشرة العامة) عدد 4482 بتاريخ 8 محرم 1418 (15 ماي 1997)، ص 1141 التي تم تغيير أحكام الفقرة الرابعة منها بموجب المادة الثالثة من القانون رقم 08.05 القاضي بنسخ وتعويض الباب الثامن والقسم الخامس من قانون المسطرة المدنية، الصادر بتنفيذه الظهير الشريف رقم 1.07.169 بتاريخ 19 من ذي القعدة 1428 (30 نوفمبر 2007)؛ الجريدة الرسمية عدد 5584 بتاريخ 25 ذو القعدة 1428 (6 ديسمبر 2007)، ص 3894 على أنه "تختص المحاكم التجارية بالنظر في :

- 1- الدعاوى المتعلقة بالعقود التجارية؛
- 2- الدعاوى التي تنشأ بين التجار والمتعلقة بأعمالهم التجارية؛
- 3- الدعاوى المتعلقة بالأوراق التجارية؛
- 4- النزاعات الناشئة بين شركاء في شركة تجارية؛
- 5- النزاعات المتعلقة بالأصول التجارية.

وتستثنى من اختصاص المحاكم التجارية قضايا حوادث السير.

يمكن الاتفاق بين التاجر وغير التاجر على إسناد الاختصاص للمحكمة التجارية فيما قد ينشأ بينهما من نزاع بسبب عمل من أعمال التاجر.

يجوز للأطراف الاتفاق على عرض النزاعات المبينة أعلاه على مسطرة التحكيم والوساطة وفق أحكام الفصول من 306 إلى 327-70 من قانون المسطرة المدنية."

من تساؤل أمام وجود هذه الإعفاءات ، أم أن الأمر على العكس من ذلك يتعلق بقوة القاهرة أو ظرف طارئ يعني أولياء التلاميذ من الأداء مادام أن وفاء المؤسسات التعليمية الخاصة بالتزاماتها تأثر بسبب جائحة كورونا ؟

1.3.1 القوة الملزمة للعقد¹ (أمنية ايت حسين، 2017)

يعد مبدأ القوة الملزمة للعقد من أهم نتائج مبدأ سلطان الإرادة والمنصوص عليه في المادة 230 من ق.ل.ع، ومفاده أن الطرفين ملزمان بتنفيذ ما جاء فيه كما لو كان قانونا بالنسبة إليهما، لكن تنفيذ هذه العقود في ظل جائحة كورونا - مع العلم أن التدريس مستمر- سيؤثر لا محالة على التزام أولياء التلاميذ بالأداء وأن مطالبتهم بالأداء الكامل فيه إجحاف بحقوقهم، مما يجعل تطبيق المبدأ على إطلاقه فيه حيف كبير يطال هؤلاء الشيء الذي يجعلنا نتساءل هل الأمر يتعلق بقوة القاهرة وبالتبعية إعفائهم من الأداء؟

2.3.1. كورونا والقوة القاهرة

نظم قانون الالتزامات والعقود القاهرة في الفرع الثاني من القسم الرابع الذي خصص لآثار الالتزامات بوجه عام، فبعدما نص الفصل 268 من ق.ل.ع أنه : " لا محل لأي تعويض ، إذا أثبت المدين أن عدم الوفاء بالالتزام أو التأخير فيه ناشئ بالأساس عن سبب لا يمكن أن يعزى إليه، كالقوة القاهرة، أو الحادث الفجائي أو مطل الدائن "

كما عرف الفصل 269 من ق ل ع القوة القاهرة بأنها: " كل أمر لا يستطيع الإنسان أن يتوقعه، كالظواهر الطبيعية (الفيضانات، والعواصف والحرائق والجراد) وغارات العدو وفعل السلطة ويكون من شأنه أن يجعل تنفيذ الالتزام مستحيلا "... .

وانطلاقا من دراسة الفصلين أعلاه نستشف بأن القوة القاهرة وباعتبارها واقعة مادية تنطبق أحكامها متى تحققت شروط تطبيقها أعلاه والمجسدة في أن يكون الحدث غير ممكن توقعه

¹ - وتعني هذه العبارة أنه "إذا نشأ العقد صحيحا فإنه يكون ملزما لمنشئيه بكل ما تضمنه فهو يتوفر على قوة تلزم العاقدين باحترام ما جاء فيه من بنود، كما أنه يكون لهما بمثابة التشريع وهذا ما نحا إليه الفصل 230 من ق.ل.ع الذي ينص على أن " الالتزامات التعاقدية المنشأة على وجه صحيح تقوم مقام القانون بالنسبة إلى منشئها، ولا يجوز إلغاؤها إلا برضاها معا أو في الحالات المنصوص عليها في القانون."، وهذا ما يمكننا التعبير عنه بالقاعدة المشهورة إن (العقد شريعة المتعاقدين)، وباستقراء هذا الفصل يمكن القول على أن القوة الملزمة للعقد تقضي إلى أن العقد يصبح بمثابة القانون بالنسبة لهما ولا يمكن نقضه إلا تبعا لاجتماع إرادتهما معا أو في حالات خاصة يقرر فيها القانون نقض أو تعديل العقد، وفي نفس الإطار يمكن القول على أن مبدأ القوة الملزمة للعقد يفيد أن ما تم نتيجة إرادتين حرتين يكتسب قوة ملزمة ويستوجب حماية القانون له، فلا يصح تعديله إلا بتوافق هاتين الإرادتين، ذلك أن مساواة الطرفين مفترضة وطالما أن الاتفاق ناتج عن تنازلات متبادلة، فهو إذن متوازن وبالتالي لا ضرورة لأي تدخل خارجي لتصحيح العقود المبرمة بحرية بعلّة عدم عدالتها وضرورة إقامة توازن فيها لأن اعتبار الإرادة أساس الالتزام التعاقدية لا يعني أنها تقيد المتعاقدين بحسب بل إن هذه الإرادة تعتبر قانون التعاقد الذي يلزم الجميع بن فيه القاضي.

أو ترقبه بالشكل العادي ، وأن يكون مستحيلا دفعه أو التغلب عليه ، وأن لا يكون للمدين دخل في التسبب في الحدث .

ويأسقاط شروط القوة القاهرة على جائحة كورونا نجد هذه الأخيرة متحققة وشروطها متوفرة ذلك أن الوباء تفشى بصورة مفاجئة وسريعة ، ناهيك على أن إمكانية درأه مستحيلة ، وأن المدين لم يرتكب أي خطأ يمكن أن يعزى إليه (LANDIVAUX Ludovic, 2020)

ما تكون معه جائحة كورونا كافية لوحدها لجعل المدين الطرف المتمدرس يتحمل من تنفيذ التزامه دون أن يكون هناك محلا لأية مسؤولية .

لكن الأمر ليس بهذه السهولة ما دامت المؤسسات التعليمية الخاصة مستمرة في تنفيذ التزامها بالتدريس عن بعد، مما يجعل مطالبة الطرف المتمدرس بأداء واجبات المتمدرس كاملة فيه إجحاف يمس حقه¹، وبالمقابل فالقول بعدم أحقية المؤسسات الخاصة في استخلاص أي واجبات فيه إضرار بها مادام التدريس عن بعد قائما .

ما يجعلنا أمام تغيير في أنماط تنفيذ العقد وهو ما يقتضي من القضاء المغربي البحث عن حلول تحقق التوازن والتكافؤ بين الطرفين بالشكل الذي يحقق العدل والإنصاف .

2. دور القضاء في حماية الفئات المتضررة من فيروس كورونا (Guimard p., 2020)

من المتفق عليه أن القضاء هو الضامن للحقوق وأن رسالته الرامية إلى حراسة المجتمع وتحقيق العدل والمساواة ليست بالمهمة السهلة ذلك أنها تصبح صعبة حينما تطرأ مستجدات يكون معها القانون عاجزا إلى حد ما عن تقديم إجابات شافية، أو حينما تبقى تساؤلات معلقة أمام بعض الفراغات التشريعية، الأمر الذي يفتح الهامش الواسع لتأويل العقد والاجتهاد لإيجاد حل قانوني للمسألة المطروحة (شيلح محمد ، 2017) .

وحيث إن جائحة كورونا ستفرز لا محالة واقعا تعاقديا سيلقي بضلاله أمام القضاء وسيكون هذا الأخير مدعوا لتأويل عقد المتمدرس الخاص بما يضمن المصلحة الاجتماعية خارج ما يفرضه الرأي العام، مع العلم أن المصلحة الاجتماعية تقتضي عدم الرضوخ لمطالب أحد الأطراف مادام ثبت جليا بأن التوازن العقدي لن يتحقق تلقائيا وهو ما راهنت عليه الحكومة من خلال تفعيل مبدأ التضامن الاجتماعي الوطني بمعناه الشامل، وهي نفس الفكرة التي ينبغي على القضاء الاستناد عليها لكن بناء على مبدئين قانونيين وهما مبدأ حسن النية ومبدأ الإنصاف والذين

¹ - أكد السيد وزير الشغل خلال اجتماع لجنة التعليم والشؤون الثقافية بمجلس المستشارين والذي خصص لمناقشة مشروع قانون رقم 25.20 بسن تدابير استثنائية لفائدة المشغلين المنخرطين بالصندوق الوطني للضمان الاجتماعي والعاملين لديهم المصريح بهم ، المتضررين من تداعيات جائحة كورونا خلال شهر مارس 2020 ، أن عدد المدارس الخاصة صرحت بأكثر من 48 ألف أجير باعتبارهم قدقوا شغلهم في حين أنهم استخلصوا واجبات المتمدرس من الآباء والأولياء .

أصبحتا يشكلان قاعدة عامة تهيمن على جميع العقود والمنصوص عليهما في المادة 231 من ق.ل.ع: " كل تعهد يجب تنفيذه بحسن نية . وهو لا يلزم بما وقع التصريح به فحسب ، بل أيضا بكل ملحقات الالتزام التي يقررها القانون أو العرف أو الإنصاف وفقا لما تقتضيه طبيعته " (TNAGHO samir,1965).

وبذلك فبدأ حسن النية والإنصاف هما مبدآن مكملان للعدل، ويمكن للقضاء الاستعانة بهما لتحقيق المساواة المموسة في النازلة المعروضة عليه عندما لا يجد ما يسعفه في ظل جائحة كورونا، عن طريق الأخذ بالمنهج الحدسي والعقلاني لتقييم التزامات الطرفين والأكد أنه سيصل إلى نتيجة حتمية وهي ضرورة الإنقاص من التزام أولياء التلاميذ بأداء الواجبات الشهرية بالحد الذي يقابل ويعادل التزام المؤسسة التعليمية الخاصة بالتدريس عن بعد، وهذه النتيجة فعلا تم تبنيها واقعا ذلك أن أغلب المؤسسات الخصوصية عمدت من تلقاء نفسها وتفعيلا لمبدأ التضامن الاجتماعي الوطني بمعناه الشامل الذي انخرط فيه كل مكونات المجتمع لتخفيض واجبات التلميذ في حدود 40% أو 50%، وهذا ما سيعطي للقاضي المطروح عليه النزاع مكنة الركون إلى هذه النسبة خصوصا إذا استقر التعامل عليها في المجتمع وأصبحت عرفا لأن العرف مثله مثل القانون سواء بسواء ملزم للقاضي ويفترض فيه العلم به.

خاتمة

إن الظهور المفاجئ والانتشار الواسع لفيروس كورونا المستجد - كوفيد-19 أحدث تحولاً عميقاً في السياسة التشريعية الواجبة الاتباع من طرف الدول ومنها المغرب، نتيجة لذلك كان من الطبيعي أن تشهد الكثير من البلدان موجة تشريعية واسعة استهدفت مراجعة القواعد المعمول بها في مجال التعليم الخصوصي .

ولا شك أن عدم وضوح التشريع في هذا المجال وتركه بيد الأطراف قد يزلزل كيانات قائمة كلفت السياسة العامة للبلاد لإقامتها، وقد يؤدي إلى آثار بالغة الخطورة لأن الحق في التعليم هو حق دستوري (الفصلين 31 و 32 من دستور 2011) (أحمد اليعقوبي، 2003) ، ولذلك فبالرغم من اعتراف المشرع ببعض التقنيات المستعملة في ق.ل.ع إلا أن التنزيل الصحيح لمضامينها على عقود التعليم الخاص وتأويلها تأويلا جيدا يبقى رهينا بتطبيق فعال لأحكامها من طرف القضاء، وسيشكل تقنية مستقلة يمكن التعويل عليها وحدها لإعادة وتحقيق التوازن العقدي بين الطرفين في ظل جائحة كورونا.

الأمر الذي يدعوننا إلى طرح مجموعة من المقترحات

- التنسيق بين الأجهزة المعنية بالتعليم الخصوصي والمجسدة في وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي وممثلي أرباب مؤسسات التعليم الخاص لإيجاد تدابير قانونية استعجالية توطر تنفيذ العقد وتوحد المعايير في ظل جائحة كورونا، بدل تركه بيد الأطراف المتعاقدة ، مما يفسح المجال للتأويل والاختلاف.
 - التحسيس والتوعية وترسيخ ثقافة مبدأ التضامن الاجتماعي الوطني بمعناه الشامل في مجال التعليم الخصوصي عبر:
 - برامج إذاعية و تلفزيونية و مطويات و نشرات إخبارية بالإضافة إلى وصلات إخبارية.
 - مقالات و بيانات و بلاغات عبر وسائل الإعلام المكتوبة و المسموعة و المرئية.
 - تعزيز التواصل عبر عقد دورات تكوينية عن بعد لفائدة الفاعلين في القطاع.
 - التفكير في وضع استراتيجية محكمة عن طريق بلورة سياسة تعليمية واضحة المعالم من شأنها النهوض بقطاع التعليم الخصوصي، بحيث تضمن الحكومة المغربية للمواطن التعليم الخاص بأسعار متوازنة عن طريق خلق جهاز مستقل لدعم الخدمات التعليمية يعنى باستقرار واجبات التمدرس في ظل مظلة قانونية محكمة شاملة تتيح استفادة الجميع من التعليم بقسميه العمومي والخصوصي.
 - تفعيل نظام مراقبة جودة التعليم الخصوصي خلال فترة الوباء.
 - تطوير قطاع التعليم وذلك عن طريق الرفع من الميزانية المخصصة له ومن مستوى الاستثمارات المرصودة له خلال حقبة ما بعد جائحة كورونا.
 - تعريف القضاة بالتأثيرات المحتملة والمستقبلية لجائحة كورونا على عقد التعليم الخاص ، حتى يتم توحيد الحلول القانونية المتوصل إليها بخصوص المنازعات المرتقبة.
 - جعل قطاع التعليم اللبنة الأساس التي ينبغي أن يبنى عليها النموذج التنموي الجديد.
- بهذا ننتهي من إعداد هذا المقال ولعلي أكون قد وصلت إلى ما نتوخاه جميعا، وهو نجاح هذا المؤلف الجماعي، على اعتبار أن التعليم بصفة عامة ، والمدرس بصفة خاصة، هو باث الروح في الأمة وإذا خلا العالم من المدرس تصبح الأرض بلا ثقافة ولا علم ولا نهضة ، فهو مغير الحضارة ومنشئ فكرة التطور.

المراجع

البزاز محمد الأمين، طبعة 1992، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، عدد الصفحات 430.

شيلح محمد ، الطبعة الأولى 2017، تأويل العقود في قانون الالتزامات والعقود المغربي، محاولة دراسة ميتودولوجية للفهم القضائي والفقه للفقهي للقانون التعاقدية ، منشورات مختبر قانون الالتزامات والعقود كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية فاس ، عدد الصفحات 640 .

أمينة ايت حسين، الطبعة الأولى 2017 ، القانون المدني - دراسة حديثة للنظرية العامة للالتزام (الجزء الأول: مصادر الالتزام - العقد)؛ مطبعة فورافنيت بالرباط .
كاوان إسماعيل كه ردي، تاريخ النشر 2010، عقد التعليم الخاص "دراسة مقارنة" ، دار دجلة ناشرون وموزعون ، عدد الصفحات 242 .

أحمد اليعقوبي، السنة الجامعية 2002/2003 ، حق الطفل في التعليم: أية حماية؟ المغرب نموذجا، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في القانون الخاص، كلية الحقوق ظهر المهرز التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

Guionard Pascale , 4 Mars 2020 , La grippe , Les épidémies et la force majeure en dix arrêts , publié sur **Dalloz** Actualité, (<http://www.dalloz-actualite.fr>).p.4

Landivaux Ludovic , 20 Mars 2020, contrats et coronavirus : un cas de force majeure ? ca dépend ... ,publié sur **Dalloz** Actualité, (<http://www.dalloz-actualite.fr>).p.4

Tnagho samir , *De l'obligation judiciaire .Etude morale et technique de la révision du contrat par le juge*, L.G.D.J. ,paris,1965,n° 60,p.783

ملاحق

الملحق رقم 2: تخریج مخطوط "مختصر كتاب الطاعون" للفقیه محمد الرهوني.

[تخریج نص "مختصر كتاب الطاعون" للرهوني] الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

إعلم أن للشيخ العلامة الحافظ سيدي محمد الرهوني تأليفاً في الطاعون نفيساً جداً في نحو كراستين، وحاصله باختصار أن مسألة الخروج فراراً من الطاعون والقدوم اختياراً على البلد الذي هو به مسألة مشهورة وذات أقوال في كتب المالكية وغيرهم، مذكورة لكن بعضهم يُعَبِّرُ بالطاعون وبعضهم بالوباء.

[حقيقة الوباء والطاعون]¹

وقد وقع التعبير بهما في الحديث المتفق على صحته. ففي حديث عبد الرحمن بن عوف التعبير بالوباء. وفي حديث أسامة بن زيد بالطاعون. وقد أخرج في الموطأ حديث الأول مطولاً ومختصراً، ولفظ المختصر: «أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، فلما جاء سُرْعَ² بَلَّغَهُ أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه. وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، فرجع عمر بن الخطاب من سُرْعَ». وأخرج أيضاً حديث الثاني ولفظه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه. وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه». انتهى، وأخرج الحديثين في البخاري.

وظاهر ذلك أن الوباء والطاعون بمعنى واحد، وهو الذي يفيد ابن حجر نقلاً عن الخليل وغيره. ويُقَلَّ عن عياض أن الوباء أعم، وأَيَّدَهُ بأحاديث منها حديث أبي الأسود: «قدمت المدينة في خلافة عمر وهم يموتون موتاً ذريعاً». أخرجه البخاري في الجنائز. فلو كان الوباء هو الطاعون لعارض ذلك حديث أن الطاعون لا يدخل المدينة، وهو في الصحيحين وغيرهما. وقال الشيخ زكرياء³ بعد أن ذكر الخلاف، ما نصه: «والحق ما أفاده شيخنا أن الطاعون أخص من الوباء لأنه طعن الجن والوباء بالمد والقصر؛ المرض العام». انتهى.

وعلى تغيارهما بالعموم والخصوص، فحقيقة الطاعون ما ذكره النووي في تهذيبه ونصه على نقل ابن حجر: «هو بتر وورم مؤلم جداً يخرج منه لُحْبٌ وَيُسَوَّدُ ما حوله أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان وقيء، ويخرج غالباً في المراق والآباط، وقد يخرج في الأيدي والأصابع وسائر الجسد». انتهى.

وحقيقة الوباء ما تقدم في كلام الشيخ زكرياء. وقال الجلال السيوطي في حاشيته المسماة بـ"الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج" ما نصه: «الوباء مهموز بالقصر والمد، والقصر أفصح وأشهر، قيل هو الطاعون،

¹ - العناوين المدرجة بين معقوفتين غير موجودة في النص الأصلي، وقد عمدنا إلى إثباتها اعتباراً لوحدة المواضيع وتسهيلاً على القارئ لاسترجاع المعاني.

² - سُرْعَ: هي أول الحجاز وآخر الشام بين المغيبة وتبوك بينها وبين المدينة ثلاثة عشر مرحلة (حوالي 455 كم). راجع: ياقوت الحموي (1977)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج3، صص 211-212.

³ - هو الشيخ زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، المتوفى سنة 926 هـ. انظر: السخاوي شمس الدين (د.ت)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ج3، ج3، ص 234.

وقيل هو كل مرض عام. قال النووي: "والصحيح الذي قاله المحققون أنه مرضُ الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد من الأمراض الكثيرة وغيرها، ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف سائر الأوقات، فإن أمراضهم مختلفة. قالوا: وكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً". انتهى.

[في القدوم على بلد الطاعون والخروج منه]

ثم نقل الرهوني كلام الأئمة في القدوم والخروج وحصل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الأفضل أن يُقدّم عليه، وأن لا يخرج منه، وهو مذهب من أشار من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقدم عليه ولا يرجع عن وجهته.

والثاني: أن الأفضل أن لا يقدم عليه وأن يخرج عنه، وهو الذي ذهب إليه عمرو بن العاص، لأنه إذا كره المقام فيه فأحرى أن يكره القدوم عليه.

الثالث: أن الأفضل أن لا يقدم عليه وأن لا يخرج عنه، للنهي الوارد في ذلك. وهذا القول أصح الأقوال، لأن السنة حجة على القولين الآخرين. وبالله التوفيق.

وقد قال المدائني: «إنه قلّ ما فرّ أحدٌ من الطاعون فسلم من الموت». وذكره غير واحد.

وقال الأبي¹ نقلاً عن القرطبي: «قال أبو عمر رضي الله عنه لم يبلغني أن أحداً من حملة العلم فر من الطاعون، إلا ما ذكر ابن المدائني عن زيد بن علي² بن جدعان أنه فر من الطاعون إلى السبالة³، وكان يجتمع كلُّ جماعةٍ ويرجع، فكان إذا جمّع صاحبوا به: فرّ من الطاعون! فمات بالسبالة».

وذكر الأصمعي، قال: «هرب بعض المصريين من الطاعون، فركب حماراً ومضى بأهله نحو همدان⁴، فسمع حادياً يحدو:

لَمْ يُسَبِّقْ اللَّهُ عَلَى حِمَارٍ وَلَا عَلَى قَدْ يُصْبِحُ ذِي مَنْعَةٍ طَيَّارٍ
أَوْ يَأْتِي الْحُفْ عَلَى مِقْدَارٍ قَدْ يُصْبِحُ اللَّهُ أَمَامَ السَّارِ⁵

وقد حكى ابن رشد الإجماع على نفي الإنثم في القدوم على الوباء أو الفرار منه، وحمل النهي في الحديث على الأدب، وتَعَقُّبُهُ الحطاب¹ في تأليفه "عمدة الراوين في أحكام الطواعين" بكلام جماعة من الأئمة، قال:

¹ - هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن عمر التونسي الأبي نسبة لقرية أبة، من أعلام المالكية في الحديث والفقه والتفسير، وله شرح مسلم الذي ساه إكمال إكمال المعلم توفي سنة 827 أو 828 هـ. الشوكاني محمد بن عبد الله (د.ت)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج2، ص169.

² - ورد الاسم عند القرطبي معكوساً: علي بن زيد بن جدعان: انظر: القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري (2013)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق سام مصطفى البدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص3، سورة البقرة، الآية 244، ص154.

³ - السبالة: أرض في طريق الحاج، وهي أول مرحلة لأهل المدينة في اتجاه مكة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص292.

⁴ - عند القرطبي سفوان وهي إحدى المدن القريبة من البصرة، وفي حكاية أخرى حلوان وهي إحدى المدن المصرية، وربما تكون هي الأرجح.

⁵ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص154.

«ويتحصل في حكم الخروج من بلد الطاعون والقدوم عليه أقوال: **الأول**: أن ذلك حرام في الوجهين، وهو ظاهر كلام ابن عبد البر والقاضي عياض والبايجي. **الثاني**: أن ذلك مكروه في الوجهين، وهو الذي جزم به ابن رشد وصححه. وقال القلشاني وغيره أنه المشهور من المذهب. **الثالث**: أن ذلك جائز في الوجهين، وهو القول الأول في كلام القلشاني. **الرابع**: جواز القدوم وكراهة الخروج، وهو القول وبه كلامه. **الخامس**: استحباب الخروج عنه وعدم القدوم عليه، وهو القول الثاني في كلام ابن رشد». انتهى من نقل الشيخ جسوس².

قال الرهوني: وعلى كلام عياض اقتصر الأبى في شرح مسلم. وقالت عائشة: «الفرار منه كالفرار من الزحف». ومنهم من أجاز الأمرين. ويحكي عن عمر رضي الله عنه، رُوِيَ أنه ندم على رجوعه من سرغ، وقال: «اللهم اغفر لي رجوعي من سرغ». واعترض الأبى هذه الرواية عن عمر وقال: «إنها لا تصح». وبحث في الاعتراض في "الفتح" بأن سنده إلى عمر قوي جيداً، أخرجه غير واحد. وممن وافق ابن عبد البر والبايجي وعياض خذاق المالكية: القاضي أبو بكر بن العربي والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد والشيخ ابن أبي جمرة. ونص ابن دقيق العيد: «الذي يترجح عندي في الجمع بينهما أن في الإقدام عليه يُعَرِّضُ النفس للبلاء، ولعلها لا تصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل، فمنع ذلك حذراً من اعتزاز النفس ودعواها ما لا تثبت عليه عند الاختبار. وأما الفرار، فقد يكون داخلاً في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة ما قدر عليه، فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين... إلخ».

ثم قال المؤلف: وما قاله هؤلاء الأعلام من المالكية هو مذهب أكثر السلف كما تقدم في كلام عياض، وهو الراجح عند الشافعية وغيرهم من العلماء، قال في "الفتح": «ويؤيده ثبوت الوعيد على ذلك، ففي حديث عائشة مرفوعاً في أثناء حديث: "قلت يا رسول الله، فما الطاعون؟ قال غدة كغدة الإبل المقيم فيه كالشاهد، والفرار منه كالفرار من الزحف"». ثم نقل عبارة الشيخ زكرياء والسبكي مُصَرِّحَةً بأن النهي لِلْخُرْمَةِ كما أجاب بها ابن لب ونقله في المعيار.

قال الرهوني: فتحصل ما سبق أن القول بالحرمة أقوى وأرجح لكثرة قائله وثبوت دليله، والله أعلم. قال: وأما الخروج لغير الفرار فحائز بلا استشكل. وقد تقدم التصريح به في كلام البايجي، ثم تكلم على الجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة». وقوله: «فَرَّ من المَجْدُومِ فَرَارَكَ من الأسد». وقوله: «لا يورد مُمَرَّضٌ على مُصِحٍّ» بنحو الكراسة. وحاصله أن المراد بنفي العدوى أن شيئاً لا يعدي بطبعه؛ نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تُعْدِي بطبعها من غير إضافة إلى الله تعالى، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ذلك، وأكل مع المَجْدُومِ لِيَبَيِّنَ لهم أن الله تعالى هو الذي يُمَرِّضُ ويشفي، ونهاهم عن الدنو منه لِيَبَيِّنَ لهم أن هذا من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها. ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت. وعلى هذا جرى أكثر الشافعية، إلى غير ذلك من الأجوبة عن الأحاديث المذكورة.

¹ - الخطاب، هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الرعيني المالكي مذهباً، ولد بمكة سنة 902هـ وتوفي بطرابلس الغرب سنة 954هـ. من أهم مؤلفاته: "مواهب الجليل في شرح مختصر خليل. انظر: التنبكي أحمد بابا (2000)، نيل الابتهاج بطريرك الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، صص 592، 594.

² - المقصود بذلك الشيخ محمد بن قاسم جسوس، وقد أشار إليه الرهوني في حاشيته على شرح الزرقاني لمختصر خليل المسماة "أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي، ج1، ص5.

ثم قال: بقي ما لم يعرج في السؤال عليه أمران، فذكر الأول، ثم قال: الأمر الثاني إذا قلنا بالنهاي عن القدوم عليه، فهل ذلك خاص بالبلدين؟ كما هو موضوع الحديث الكريم بحيث إذا وقع في جهة من البلد يجوز لمن هو بجهة أخرى منه أن يقدم عليهم، ولمن لم يدخل داره أن يدخل دار من دخلها أو لا يخص بالبلد الواحد بل الحكم سواء، وقع في ذلك خلاف بين المتأخرين، فقال الإمام أبو عبد الله الأبي في "إكمال الإكمال" بعد أن نقل عن القرطبي أنه: «نهى عن القدوم أخذاً بالحزم والبعد عن موضع الضرر ودفعاً للأوهام المشوشة» انتهى ما نصه. وعلى مقتضى تلك العلة ينبغي الكف عن الوصول لدرء تلك العلة¹. وكان الوباء بتونس سنة [ست وتسعين] وسبعمائة وأنا بمدرسة التوفيق، ومدرسها الشيخ شيخنا أبو عبد الله ابن عرفة رضي الله عنه، وكان أول من مات به أحد الطلبة الساكنين بها، وكنا شرعاً في قراءة الصف، فامتنع الشيخ من المحيي، فأرسلني إليه أهلها، وكانوا طلبة خياراً ومتطلبين ومتدينين وكنت أحدثهم سناً، فأثيت الشيخ، فعرضت له بالمحيي، فقال: أليس الوباء قد وقع عندهم؟ وقد ذكر أحاديث الوباء في النهي عن القدوم وحديث: "فر من المجذوم فرارك من الأسد". ثم إنه سخره الله تعالى وأتى وجدّ في الإقراء في ذلك العام. ولا شك فيما علل به القرطبي، قال: "وكذلك البعد لأنه أبعد عن تشويش النفس"². انتهى.

ووقع في المعيار أن أبا سعيد ابن لب سئل عن وقع فيهم الوباء ففروا عن بعض ما يجب عليهم من حقوق إخوانهم، لما عاينوا من شدة الوباء في الأكثر، هل لهم فسحة في ذلك أم لا فقد أشرفوا في بعض المواضع على الهلاك [و] الفناء أجمعون؟ فأجاب: «القيام بحقوق المسلمين من التمرير والغسل والدفن فرض لا يجوز إهماله، وكذلك عيادة المرضى ما رغب الشارع فيه وحض عليه. فلا ينبغي ترك ذلك. وما ورد في الشرع من النهي عن القدوم على موضع الوباء، لا يراد به إلا نهى من كان في غير تلك الأرض عن أن يقدم عليها. وأما أهل الموضع نفسه أن يدخل بعضهم على بعض، والمرضى (كذا)³ بعضهم على بعض، فليس من النهي في شيء، وكيف يترك فرض اقترضه الشارع أو شيء رغب فيه وحض عليه، لما ذكر من العدوى؟! وهو أمر منهي (كذا)⁴ من أمور الغيب التي استأثر الله بعلمها، ولا يلزم من وجود ذلك في حي أن يكون كذلك في حق آخر، وربما يحتاج بعض من يرى مجانية أولئك المرضى بما جاء عن الزهري عن عمر، فذكر نحو ما قدمناه عن ابن رشد. ثم قال: ومع هذا فكلام عمر إنما محله عند العلماء أن يخرج الإنسان عن ذلك البلد

¹ - كتب صاحب المختصر "لدور تلك العلة" وهو معنى لا يستقيم مع السياق، وقد عدنا إلى المصدر من أجل تصحيح المعنى وضبطه وأدرجناه مباشرة في متن النص.

² - الضبط التاريخي الوارد أعلاه تم استقاؤه من مصادر متعددة، انظر مثلاً: الأبي أبو عبد الله محمد بن خليفة الوشتاني (د.ت)، إكمال الإكمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6، كتاب الطاعون، صص33-43. السنوسي الحسيني أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف (2008)، مكمل إكمال الإكمال، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، كتاب السلام، باب32، حديث92، ص411 وقد ورد عندهما هذا الاقتباس بضبط زمن القراءة "كنا شرعاً في قراءة الصف" وذلك عكس ما ذكره الرهوني. وانظر كذلك: الوزاني المهدي (1996)، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بـ "المعيار الجديد الجامع العرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب"، مقابلة وتصحيح عمر بن عباد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج2، نوازل الحج، ص255. ويبدو أن المهدي الوزاني قد نسج على منوال الرهوني ونقل عنه غير قليل من المعطيات حين أورد جواب الشيخ الرهوني في شأن الطاعون (ج2، صص241-257) غير أن معلومات الأبي تظل أوفى. وما يظهر غياب الضبط في هذه المسألة عند الوزاني اكتفاؤه بذكر التاريخ سنة "كذا وسبعمائة"، وقوله "كنا شرعاً في قراءة الصف".

³ - وردت عند الوثنيسي: «وَيُؤْمَرُ بعضهم بعضاً». انظر: الوثنيسي أبو العباس أحمد بن يحيى (1981)، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد ججي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج11، ص358.

⁴ - وردت الرواية في المعيار: «وهو أمر موهوم من أمور الغيب التي استأثر الله لعلمها» وذكرها الوزاني هكذا: «وهو أمر من أمور الغيب التي استأثر الله لعلمها». راجع: الوثنيسي، المعيار، ج11، ص358. المهدي الوزاني، المعيار الجديد، ج2، ص256.

جملة، وأما أن يبقى فيه ويترك القيام بما يجب على المسلمين من الحقوق، فهذا لا يقوله عمر ولا غيره. نعوذ بالله من الفتن ومن جميع البلايا والحن.

[ما ينبغي التحصن به: أدعية وحرور]

ثم قال المؤلف: وأما ما ينبغي التحصن به لدفع ذلك وما يكتب له وما يتداوى به. فالجواب على ذلك متوقف على معرفة حكم الإقدام على ذلك، فتقدم الكلام على ذلك. قال النفراوي في شرح الرسالة عند نصها: «وإذا وقع الوباء بأرض قوم فلا تقدم عليه، وإذا كان بها فلا تخرج فرارا منه». ما نصه. وقد كثر السؤال عن الدعاء برفع الطاعون هل يجوز أم لا يجوز؟ وأفتى بعض علماء العصر من غير المالكية بغير الجواز لأنه شهادة، والشهادة لا يجوز الدعاء برفعها. ولم أقف للمالكية على نص صريح فيه، غير أن سيدي أحمد زروق والقلشاني استعملوا لذلك أدعية للاحتراز منه وذلك يدل على الجواز. وكلام الشيخ زروق رضي الله نَصَّ في الجواز لقوله ما نصه: «ثم هو مرض من الأمراض في حكم المداواة وغيرها». فتأمل، وقد تقدم قول الشيخ أبي حامد الغزالي: «التداوي جائز أو راجح»، وهو وإن كان غير مالكي لكن قد نقل كلامه الإمام الأبي وقيله. وإذا جاز التداوي، فالدعاء أولى.

قال الرهوني: قلت: والفتوى التي ذكرها بعدم الجواز لا يُخْلَدُ (كذا) لما فيها، واحتجاجة بأنها شهادة... إلخ فيه نظر من وجوه: أحدها أن شرط كونه شهادة الصبر والاحتساب وعدم الجزع، وهذا أمر لا يتحققه الداعي من نفسه بل يخاف الإنسان على نفسه عكس ذلك. وقد قال في "الفتح" عند قوله صلى الله عليه وسلم: «صابرا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب له»، الحديث بما نصه. قوله: "صابرا" غير منبج ولا قلق بل مُسَلِّماً لأمر الله تعالى راضيا بقضائه. ثم قال: فلو مكث وهو قلق أو متندم على عدم الخروج، فهذا لا يحصل له أجر الشهيد، ولو مات بالطاعون. هذا الذي يقتضيه مفهوم هذا الحديث كما اقتضى منطوقه أن من اتصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد، ولو لم يمت بالطاعون. ويدخل تحته ثلاث صور:

[أولها]: من اتصف بذلك، فوقع به الطاعون فمات به، أو وقع به ولم يمت به، أو لم يقع به أصلا أو مات بغيره عاجلا أو آجلا.

ثانيها: أن الإنسان لا يتحقق سلامة نفسه من كبيرة، وقد اختلف الأئمة هل هو شهادة في حق العاصي أو لا، فقال القرطبي ما نصه: «يرسله الله نعمة لمن شاء من عصاة عبيده وكفرتهم، ورحمة وشهادة للصالحين من عباده». نقله الأبي مقتصرًا عليه. وقال في "فتح الباري" ما نصه: «وأما العاصي من هذه الأمة، فهل يكون الطاعون له شهادة أو (كذا) يختص بالمؤمن الكامل؟ فيه نظر». والمراد بالعاصي من يكون مرتكب الكبيرة بهجم عليه وهو مُصِرٌّ، فإنه يحتمل أن يقال لا يكرم بدرجة الشهداء لسوء ما كان متلبسا به لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾¹. وأيضا فقد وقع في حديث ابن عمر ما يدل على أن الطاعون ينشأ عن ظهور الفاحشة، فذكر حديثه وأن قوله شاهدا من حديث ابن عباس عند الطبراني. ومن حديث عمرو بن العاص عند الحاكم بسند جيد، ومن حديث عائشة بإسناد حسن. ثم قال: «ففي هذه الأحاديث أن الطاعون قد يقع عقوبة بسبب المعصية، فكيف يكون شهادة؟! ويحتمل أن يقال بل يحصل له درجة الشهادة بعموم الأخبار الواردة، ولا سيما في الحديث الذي قبله عن أنس: "الطاعون شهادة لكل مسلم". ولا يلزم من حصول درجة الشهادة لمن اجترح

¹ لم يسبق لصاحب المختصر أن أورد كلاما للغزالي.

² سورة الجاثية، الآية 20، رواية ورش.

السيئات مساواته للمومن الكامل في المنزل لأن درجة الشهادة متفاوتة، كنظيره من العصاة إذا قُتِل مجاهداً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا مقبلاً غير مدبر». انتهى.

ثالثاً: إنه وإن كان شهادة، فقد يحصل للإنسان برفعه عنه وتأخر موته من الطاعات ما يوازي أجر الشهادة لو مات قبل، أو أكثر منه. وقد قال ابن حجر على حديث النهي عن تمني الموت ما نصه: «فإن الحياة يَسْبَبُ منها العمل، والعمل يُحْصِلُ زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد، فهو أفضل الأعمال»¹. وأيضاً ليس في الدعاء برفع الوباء، في وقت مخصوص، بأس من حصول الشهادة للداعي، فقد تُحْصِلُ له شهادة أخرى كالقتل في سبيل الله الذي هو أفضلها أو غير ذلك، على أنه لا يلزم من كون الشيء له الثواب العظيم أن لا يطلب عدم وقوعه، فقد جاء في الأمراض عموماً من الثواب ما هو معلوم، وجاء في العمى بخصوصه ما في البخاري وغيره من أن عوضه الجنة، وأخرج البزار عن زيد بن أرقم مرفوعاً: «ما ابتلي عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره، ومن ابتلي بذهاب بصره فصبر حتى يلتقي الله تعالى، لقي الله ولا حساب عليه». ومع ذلك، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء بقوله: «ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أبقيتنا، واجعله الوارث منا». كما في الترمذي إلى غير ذلك، مع أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من العمى والصمم، فهو تشريع منه صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: أن القتل في سبيل الله هو أعظم الشهادات، ومع ذلك، فقد شرع ما يدفعه بعد جريان سببه وقبلة. أما بعده، فدواوة من الجراحات الواقعة في الجهاد. وفي صحيح البخاري، من قول عائشة رضي الله عنها: "كنا ندأوي الجرحي". وفيه مداواة النبي صلى الله عليه وسلم من جرحه يوم أحد وحرق الحضير لذلك. وفيه نفثه صلى الله عليه وسلم على جرح سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم خيبر، وغير ذلك مما هو مشهور. وأما ما قبل كلبس المغفر والدرع ونحو ذلك. فكما يتقى طعن العدو الآدمي بالدرقة ونحوها، كذلك يتقى طعن العدو من الجن. وفي كلام الحافظ ابن حجر الآتي على الذكر إشارة إلى هذا جلية. تأمله.

خامساً: أن فتواه مخالفة لكلام غير واحد من الأئمة المقتدى بهم، فقد ترجم الإمام أبو عبد الله النجاري بقوله: "باب الدعاء برفع الوباء"... إلخ. قال في "الفتح": «وقد استشكل بعض الناس الدعاء برفع الوباء لأنه يتضمن الدعاء برفع الموت، والموت حتمٌ مقضي، فيكون ذلك عبثاً، وأجيب بأن ذلك لا ينافي التعبد بالدعاء لأنه قد يكون من جملة الأسباب في طول العمر ورفع المرض، فقد تواردت الأحاديث بالاستعاذة من الجنون والجذام والبرص وسوء الأسقام ومنكرات الأخلاق والأهواء والأدواء، فمن ينكر التداوي بالدعاء يلزمه أن ينكر التداوي بالعقاقير، ولم يقل بذلك إلا شذوذاً، والأحاديث الصحيحة تُردُّ عليهم. وفي الالتجاء إلى الدعاء مزيد فائدة ليست في التداوي بغيره، لما فيه من الخضوع والتذلل للرب سبحانه، بل منع الدعاء من جملة الأعمال (كذا)² الصالحة اتكالا على ما قدر، فيلزمه ترك العمل جملة، وَرَدُّ البلاء بالدعاء كرد السهم بالترس، فليس من شرط الإيمان بالقدر أن لا يتترس من رمي السهم، والله أعلم»³. انتهى منه بلفظه، وهو في غاية الحسن كاف في رد الفتوى المذكورة. وقال في "الفتح" أيضاً ما نصه: «ولا

¹ - النص موجود في كتاب: ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (2017)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ج10، كتاب المرضى، باب 20، ص111.

² - الجملة الواردة أعلاه معاكسة تماماً لمقصود المؤلف، فمنع الدعاء لن يكون حتماً من جملة الأعمال الصالحة. والعودة إلى نص فتح الباري، نجد أن صياغة الجملة تفيد المعنى المطلوب في السياق بما صورته: "منع الدعاء من جنس ترك الأعمال الصالحة". انظر ابن حجر، فتح الباري، ج10، كتاب المرضى، باب 22، ص113.

³ - النص مقتبس من ابن حجر مع بعض التعديلات الطفيفة، انظر: ابن حجر، فتح الباري، كتاب المرضى، باب 20، ج10، ص113.

خلاف في مشروعية الفرع إلى الله تعالى والالتجاء إليه في كل ما وقع وما يتوقع». وقال ابن التين: «الرق بالمعوذات وغيرها من أساء الله هو الطب الروحاني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عز هذا النوع فَرَعَ الناسُ إلى الطب الجبائي»¹، انتهى منه بلفظه. وقال القسطلاني في كتاب التفسير من شرحه للبخاري عند قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾ الآية²، بعد كلام ما نصه: «ومن ثم عُلِمَ أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب»، انتهى منه بلفظه والله سبحانه أعلم.

وإذا تقرر هذا، فالجواب عن قوله في السؤال وما ينبغي التحصن به لدفع ذلك؟ فالذي وقفت عليه من ذلك ما ذكره الشيخ أبو سعيد ابن لب في آخر جوابه المشار إليه قبل. ونصه: «وليكن ما يدعو به الناس هنالك: "ربنا أنت الله الذي لا إله إلا أنت تَقَدَّسَ اسمُك، أَمُرْكَ في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك"³. هذا ما حضرني تقييده ما سألتهم عنه، والله يلفظ بالجميع، والسلام عليكم». انتهى منه بلفظه. وقال في أواخر جوابه الذي قبل هذا متصلاً به ما نصه: «فوضُّوا أهل تلك النواحي بالتوكل على الله وإعمال الجد في توفية حقوق الله، وليقل من سلم منهم أو من خالط مرضاهم، ما جاء في الحديث في شأن الطيرة، فإنها لن تضر بفضل الله: "اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك"». انتهى منه بلفظه.

وفي شرح الرسالة للنفراوي، أن ما يدعى به لذلك: «تحصنت بذی العزة والجبروت واعتصمت برب الملكوت، وتوكلت على الحي الذي لا يموت. اصرف عنا الأذى إنك على كل شيء قدير⁴ ثلاثاً»، انتهى منه بلفظه. إلا أنه نسبة للشيخ زروق، ولم أجد له في نسختين من شرحه للرسالة، فلعلة ذكره في غيره.

وفي كتاب البركات المنسوب للسيوطي ما نصه: «علاج الطاعون: من ذكر: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾⁵ مائتين وثمانين مرة في إبان الطاعون كل يوم كان سالماً من الطاعون وهذا الوباء». انتهى منه.

ونقل شيخنا في شرحه المذكور عن الخطاب: «أن ما ينفع في ذلك كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما جَرَّبَ فَصَحَّ قراءة آية الكرسي ثمان عشرة مرة كل يوم ما دام الوباء، وكذا إدماؤها هذه الأسماء

¹ - نفسه، كتاب الطب، ج11، باب 32، ج10، ص167.

² - سورة النساء، الآية 101، رواية ورش.

³ - في هذا الدعاء إحالة على حديث ضعيف منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم.

⁴ - الغريب أن هذا الحديث المنسوب للشيخ أحمد زروق قد كثر الدعاء به في المنتديات الإلكترونية للوقاية به من أنفلونزا الخنازير. وقد نشرت بتاريخ 05 أكتوبر 2009، الفتوى في شأنه بالمكتبة الشاملة الحديثة، انظر: محمود شعبان، دعاء الوقاية من أنفلونزا الخنازير.

⁵ - (بتاريخ: 2020-04-14) <https://al-maktaba.org/book/31615/32916>

وإثر انتشار فيروس كورونا المستجد، اعتمدت دار الإفتاء المصرية الدعاء نفسه، ونشرته عبر صفحتها الرسمية بموقع التواصل الاجتماعي فيسبوك للتحصن من الوباء، وأعادت نشره مراراً فيما بين فبراير ومارس 2020، ولقي تفاعلاً كبيراً من قبل مرتادي صفحتها ونشرته الصحافة المصرية على صفحاتها. راجع:

<https://www.facebook.com/EgyptDarAlIfta/posts/3383432481686510/>

(بتاريخ: 23 مارس 2020)

<https://www.youm7.com/story/2020/3/15/> دار-الإفتاء-تنشر-صيغة-دعاء-التحصين-من-الوباء-تعرف-عليها

(بتاريخ: 27 فبراير 2020)

⁵ - سورة ياسين، الآية 57، رواية ورش.

في أيامه [...] ¹، قال: وذكر بعض العلماء يُكْثِرُ زَمَنَهُ يا لَطِيفُ لم يَزَلْ، الطُّفُّ بنا فيما نَزَلْ، إنك لم تزل حي صمد باق، ذو كنف واق، يا الله، يا حي يا حلیم، يا حنان يا حكيم، اكفنا شر هذه الريح العقيم وشر ما جاءت به، إنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا [محمد] ²، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. انتهى منه.

وأما ما يكتب، ففي القلشاني عند نص الرسالة السابق ما نصه: «وما يكتب زمن الوباء ويعلقه الإنسان على نفسه: [اللهم] ³ سكن فتنة صدمة، قهرمان الجبروت، بأطافك الخفية الواردة النازلة من باب الملكوت حتى تنشب بطفك، ونعتصم بك عن إزال قدرتك، يا ذا القدرة الكاملة والرحمة الشاملة، يا ذا الجلال والإكرام ⁴. كتبه لي والذي خفا من الله وأدام عافيته. انتهى منه بلفظه. وقوله: "ونعتصم بك عن إزال كذا" وجدته في نسخة منه بلفظ عنه بالعين، وكذا رأيته في نقل بعض من أتق به، وكذا نقله عنه النفراوي، ووجدته في نسخة من شرح شيخنا المتقدم نقلاً عنه من إزال بالميم بدل العين، والله أعلم.

وقال النفراوي عند نص الرسالة ما نصه: **فائدة:** «ما جرى للحفظ من وخز الجن أن يكتب في حرز آيات غير مطموسة الحروف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ⁵ سبع مرات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ⁶ أربع (كذا)، و"لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". و"صلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً". انتهى منه بلفظه.

وقوله: "وخز" هو بفتح الواو وسكون الخاء المعجمة وآخره زاي. قال في فتح الباري: «قال أهل اللغة هو الطاعون إذا كان غير نافذ». ووصف طعن الجن بأنه وخز لأنه يقع من الباطن إلى الظاهر، فيؤثر في الباطن أولاً ثم يؤثر في الظاهر، وقد لا ينفذ. ووقع في الحديث التعبير بذلك، أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي موسى. ولفظ المحتاج إليه كما الطاعون، قال: «وخز أعدائكم من الجن»، وأخرجه أيضا البزار والطبراني، وصححه ابن خزيمة والحاكم. قال في "الفتح": «وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها». أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف، وآخر من حديث ابن عمر أضعف منه. والعمدة في هذا الباب حديث أبي موسى، فإنه يحكم له بالصحة لتعدد طرقه، انتهى منه.

وقال قبل هذا ما نصه: ولا يخالف ذلك ما قاله الأطباء من كون الطاعون ينشأ عن هيجان الدم أو انصبابه لأنه يجوز أن يكون ذلك يحدث عن الطعنة الباطنة، فتحدث منها اللذة [كذا والصواب المادة] السَّيِّئَةِ ويهيج الدم بسببها أو ينصب وإنما لم يتعرض الأطباء لكونه من طعن الجن لأنه أمر لا يدرك بالعقل وإنما عرف من الشارع فتكلموا في ذلك على ما اقتضته قواعدهم. انتهى منه بلفظه. ولم يتعرض للجمع بين هذا وبين ما قدمه في الحديث الآخر من أنه غدة كغدة البعير.

¹ - بياض في الأصل.

² - بياض في الأصل.

³ - بياض في الأصل.

⁴ - هذا الدعاء ما كثر اللجوء به للوقاية من أنفلونزا الخنازير، راجع: فتوى المكتبة الشاملة الحديثة بعنوان: "دعاء الوقاية من أنفلونزا الخنازير" الصادرة بتاريخ 05 أكتوبر 2009؛

⁵ - سورة البقرة، الآية 254، رواية ورش. ⁶ - سورة إبراهيم، الآية 49، رواية ورش.

وقال الشيخ زروق في شرح الرسالة مانصه: «قلتُ وقد يجمع بين ذلك بأن يقال هو فساد في الهوى تأخذه الجن فتخز به الأجسام أي تطعنها به فيحدث بذلك غليان في الدم فتنشأ منه غدة كغدة البعير». والله أعلم. انتهى منه بلفظه.

وفي القاموس: «الغدة بالضم كل عقدة في الجسد طاف بها شحم، وكل قطعة صلبة بين العصب. والجمع غد، انتهى. وفي المصباح: الغدة تحدث عن داء بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك».

وفي كتاب البركات المشار إليه قبل ما نصه: «ما يُكْتَبُ للطاعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَشْرَقَ نَوْرُ اللَّهِ ظَهَرَ كَلَامُ اللَّهِ، نَفَذَ حَكْمُ اللَّهِ، اسْتَعْنَتْ بِاللَّهِ، تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ، التَّجَأْتُ إِلَى اللَّهِ، فَوَضَّضْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، تَحَصَّنْتَ بِخَفِيِّ لُطْفِ اللَّهِ، وَبَلَطْتَ صَنْعَ اللَّهِ، وَبَجَمِلَ سِتْرَ اللَّهِ، وَبِعَظِمَ ذِكْرَ اللَّهِ، وَبَعَزَ سُلْطَانَ اللَّهِ، وَدَخَلْتَ فِي كِنْفِ اللَّهِ. اللَّهُمَّ اسْتَرْنِي بِسِتْرِكَ الْحَصِينِ الَّذِي سَتَرْتَ بِهِ ذَاتَكَ وَلَا عَيْنَ تَرَكَ وَلَا تَصِلْ إِلَيْكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ يَا اللَّهُ» ثلاثا. «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ وَعَظِيمِ الْبَلَاءِ فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ، فَأَمَلْنَا وَنَجَّزْنَا مَنَازِلَنَا، وَكُنْ لَنَا فِي غَرْبَتِنَا وَلَا تُهْلِكْنَا بِذُنُوبِنَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ». انتهى منه بلفظه.

وفي شرح شيخنا الإمام ابن سودة بَرَدَ اللَّهُ ضَرِيحَهُ الَّذِي تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ مَا نصه: «وما أُلْهِمْتُهُ زَمَنَ الْوَبَاءِ رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ رَجُلًا عَظِيمَ الْذَاتِ أَمْسَكَ يَدَيَّ الْيَمْنَى عَلَى طَرَفِ السَّاعِدِ وَهَذَبَ بِهِ، فَأُلْهِمْتُ أَنْ عَقَدْتُ بِأَصَابِعِي الْخُمْسَ، تَحَصَّنْتُ بِاللَّهِ، وَاعْتَصَمْتُ بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، ثُمَّ فَتَحْتُهَا فِي وَجْهِهِ قَائِلًا: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا [مُحَمَّدٍ] وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ، فَأُطْلِقْنِي. فَكُنْتُ إِذَا كَتَبْتُهَا لِأَحَدٍ عَاقَاهُ اللَّهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ سَنَةٌ خَمْسٌ وَخَمْسِينَ وَمِائَةً وَأَلْفٌ". انتهى منه بلفظه. وفي هذا القدر كفاية إن شاء الله.

فائدة: قال الإمام العلامة أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن مسعود التمجروقي في كتابه "تنبيه الغافل" آخر فصل في ذكر مسائل الطهارات ما نصه: «واعلم رحمك الله أن أهل الفن يشترطون شروطا في كتب الحرز قد ضَيَّعَهَا النَّاسُ، وَلِذَاكَ تَجَدُّهُمْ قَلٌّ مَا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْخِلَافِ، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ عَلَى طَهَارَةٍ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعٍ نَظِيفٍ، وَلَا يَتَرَدَّدُ فِي صَحَّةٍ مَا يَكْتُبُ وَلَا مَجْرِبًا، بَلْ يَعْتَقِدُ صِحَّةَ وَيَحْسَنُ ظَنَّهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَصْرِفُ هِمَّتَهُ فِي وَقْتِ الْكُتُبِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ غَيْرَ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَأَنْ يَتَلَفَظَ حِينَ الْكِتَابَةِ بِمَجْمِيعِ مَا يَكْتُبُهُ وَلَا يَقْرَأُ فِي نَفْسِهِ، وَيَكُونُ عَمَلُهُ مِثْلَ مِصَانَا عَنْ أَبْصَارِ النَّاسِ الْعَالَمِ (كَذَا)، وَلَا تَكُونُ الشَّمْسُ مُسَلِّطَةً عَلَيْهِ، بَلْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ نَوْزُهَا، وَلَا يَدْخُلُ إِلَيْهِ شُعَاعُهَا، وَيَتْرَكُ الْغِيَّةَ وَالنَّمِيمَةَ وَالْكَذِبَ. قَالُوا: وَلَا يَكْتُبُ بِالْقَلَمِ مَقْلُوبًا، وَيَتَجَنَّبُ الرِّوَاخَ الْخَبِيثَةَ إِذَا ذَاكَ كَالْتِوَمِ وَالْبَصْلَ وَشَبِيهِ ذَلِكَ، وَهَلْ يَنْقُطُ الْكِتَابَةُ؟ لَمْ أَرِ فِيهِ شَيْئًا، إِلَّا أَنْ بَعْضَ مَنْ أَتَقَّ بِهِ أَخْبَرَنَا أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ مَنْ جَاوَرَهُ وَجَرَّبَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، كَانَ لَا يَنْقُطُ الْكِتَابَةُ وَيَنْهَى عَنْ ذَلِكَ، وَهَلْ يَتَرَبُّبُ؟ لَمْ أَرِ فِيهِ شَيْئًا أَيْضًا، وَالظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَنَّ التَّرْيِيبَ إِنَّمَا وَرَدَ فِي الرِّسَالِ، بَلْ نَصَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْحَرْزَ إِذَا وَقَعَ فِي التَّرَابِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ يَعْنِي قَبْلَ التَّحْرِيزِ، وَعِنْدَ التَّحْرِيزِ يَجْدُرُ أَنْ لَا يَمْسَهُ مِنْ جَدِيدٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ». انتهى منه بلفظه.

[ما يداوى به]

وأما ما يداوى، ففي شرح الشيخ زروق آخر كلامه الذي قدمناه عقد ما نصه: «فما يدفع به تَحَكُّمُهُ فِي الْأَجْسَادِ مَرْكَبٌ يُقَالُ لَهُ رُوفُشٌ؛ اخْتِلَاطُهُ جُزْءٌ مِنْ صَبَرٍ وَجُزْءٌ مِنْ مُرٍّ وَنِصْفٌ جُزْءٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ يَسْحَقُ كُلَّ

¹ - بياض في الأصل مقدار كلمة.

ناعماً، ويُضافُ بِشْرَابِ رِيحَانِي، ويشرب على الريق منه قدرٌ يسير. فإن كل جسم خالطه لا يتمكن منه الطاعون بقدره الله تعالى، كذا رأيته بخط من يُعتمد من الأطباء وصحت تجربته في مُتَعَدِّدين. ذكر بعض الأطباء أن شرب الماء بالقوة يدفعه لأنه يطفئ الحرارة الغريزية، وقد جرّبناه، إلا أنه يحرك عللاً أُخر. أما شرب الخل عند الإحساس به، فله أثرٌ كبير في حله. وهذه أسباب والقدر من وراء ذلك، وقد ينفع الله بالخاصية رجلاً ويضر آخر، وبالله التوفيق». انتهى منه بلفظه¹. ومراد قوله شراب ريحاني، والله أعلم، شراب الورد ونحوه من الرياحين. وأجمل في الغدد اليسير.

وقد ورد في كتاب سيدي خضر بن خطاب الشهير بابن حاجي باشا²، المسمى "شفاء الأسقام ودواء الآلام" في الباب الثاني منه ما نصه: «ويتناول في بعض الأوقات هذا الدواء وصنّعه صبر سقوطري، جزآن زعفران وجزآن³ مرّ صاف، جزء يؤخذ منه نصف مثقال بماء ورد». انتهى منه بلفظه. فقد بين ماء الورد، وبين مقدار ما يُتناول منه لكن خالف ما للشيخ زروق، فجعل هذا المر مساويا للزعفران وجعله الشيخ زروق مساويا للصبر، كذا في نسختين منه، وكذا نقله شيخنا عنه، والنفس إلى ما قاله أميل والله أعلم⁴.

وفي شرح شيخنا المذكور ما نصه: قال ابن حجر: «والمعروف عن الشافعي ما ذكره ابن أبي حاتم وغيره: لم أر للوباء أنفع من البنفسج يُدهنُ به ويُشرب». انتهى منه بلفظه.

وبهذا تم الجواب عن جميع فصول السؤال و[...] المسؤول أن يكفيني وإياكم ما أمهنا وما لم يهمننا في الحال والمآل، رسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الأخلاق، آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كَتَبْتُ وَفَدْتُ أَقْبَنْتُ لَا شَكَّ أَنَّي
وَزَنْتُ [وَلَا شَكَّ] أَنَّ اللَّهَ سَائِلُهَا غَدًا
إِمَّا نَعِيمٌ فِي الْجَنَانِ وَرَاحَةً
سَتَفَنِي يَدِي يَوْمًا وَيَبْقَى كِتَابُهَا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَكُونُ جَوَابُهَا
وَأَمَّا بِحَيْمٍ لَا يُطَاقُ عَذَابُهَا⁵

اللهم اغفر لكاتبه ونظيره (كذا) وجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات بجاه سيد الوجود صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته الطاهرين الأبرار كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونا⁶. انتهى.

¹ - انظر: زروق أحمد بن محمد البرنسي الفاسي (2020)، شرح على متن الرسالة، اعتنى به وكتب هوامشه أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص1094.

² - هو حسام الدين خضر بن علي بن الخطاب، ويعرف بحاجي باشا الأيديني المتوفى سنة 820هـ / 1417م، له مؤلفات منها: الفريدة في ذكر الأغذية. انظر: حاجي أمير زاده (2016)، رسائل فقهية، دراسة وتحقيق صهيب محمود الجميلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص9.

³ - في رواية أخرى: جزء واحد مر صاف. انظر: الزبيدي محمد بن محمد الحسيني (2016)، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، كتاب آداب الأكل، الباب الرابع، ص691.

⁴ - بصر هنا الرهوني على أن حاجي باشا قد أوعز بوضع جزأين من المر صافي، ولكن كما اتضح في الهامش أعلاه، فإن هناك رواية أخرى تشير إلى أن حاجي باشا نفسه قد وضع مقدار مر صاف واحد.

⁵ - بياض في الأصل مقدار كلمة.

⁶ - شطب كاتبها المختصر على الأبيات المنتخبة من هذه القصيدة ربما لعدم التثبت من أبياتها خصوصا الشطر الاول من البيت الثاني حيث كتب ظننت عوض ولا شك، وسألتهما عوض سائلها. وقد ارتأينا إدراج هذه الأبيات بعد التحقق منها وتقومها وتعديلها.

[في القدوم على بلد الطاعون والخروج منه]

ثم نقل الرهوني كلام الأئمة في القدوم والخروج وحصل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الأفضل أن يُقدّم عليه، وأن لا يخرج منه، وهو مذهب من أشار من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقدم عليه ولا يرجع عن وجهته.

والثاني: أن الأفضل أن لا يقدم عليه وأن يخرج عنه، وهو الذي ذهب إليه عمرو بن العاص، لأنه إذا كره المقام فيه فأحرى أن يكره القدوم عليه.

الثالث: أن الأفضل أن لا يقدم عليه وأن لا يخرج عنه، للنهي الوارد في ذلك. وهذا القول أصح الأقوال، لأن السنة حجة على القولين الآخرين. وبالله التوفيق.

وقد قال المدائني: «إنه قلّ ما فرّ أحد من الطاعون فسلم من الموت». وذكره غير واحد.

وقال الأبي¹ نقلا عن القرطبي: «قال أبو عمر رضي الله عنه لم يبلغني أن أحدا من حملة العلم فر من الطاعون، إلا ما ذكر ابن المدائني عن زيد بن علي² بن جدعان أنه فر من الطاعون إلى السبالة³، وكان يجتمع كل جماعة ويرجع، فكان إذا جمّع صاحبوا به: فر من الطاعون! فمات بالسبالة».

وذكر الأصمعي، قال: «هرب بعض المصريين من الطاعون، فركب حمارا ومضى بأهله نحو همدان⁴، فسمع حاديا يحدو:

لَمْ يُسَبِّقِ اللَّهُ عَلَى حِمَارٍ وَلَا عَلَى قَدْ يُصْبِحُ ذِي مَنْعَةٍ طَيَّارٍ
أَوْ يَأْتِي الْحُفُّ عَلَى مِقْدَارٍ أَمَامَ السَّارِ⁵

وقد حكى ابن رشد الإجماع على نفي الإثم في القدوم على الوباء أو الفرار منه، وحمل النهي في الحديث على الأدب، وتعبّنه الخطاب⁶ في تأليفه "عمدة الراوين في أحكام الطواعين" بكلام جماعة من الأئمة، قال: «ويتحصل في حكم الخروج من بلد الطاعون والقدوم عليه أقوال: الأول: أن ذلك حرام في الوجهين، وهو ظاهر كلام ابن عبد البر والقاضي عياض والباقي. والثاني: أن ذلك مكروه في الوجهين، وهو الذي جزم به ابن رشد وصححه. وقال القلشاني وغيره أنه المشهور من المذهب. الثالث: أن ذلك جائز في الوجهين، وهو القول الأول في كلام القلشاني. الرابع: جواز القدوم وكراهة الخروج، وهو القول وبه كلامه. الخامس:

¹ - هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن عمر التونسي الأبي نسبة لقرية أبة، من أعلام المالكية في الحديث والفقه والتفسير، وله شرح مسلم الذي ساه إكمال إكمال المعلم توفي سنة 827 أو 828 هـ. الشوكاني محمد بن عبد الله (د.ت)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج2، ص169.

² - ورد الاسم عند القرطبي معكوسا: علي بن زيد بن جدعان: انظر: القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري (2013)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق سام مصطفى البدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص3، سورة البقرة، الآية 244، ص154.

³ - السبالة: أرض في طريق الحاج، وهي أول مرحلة لأهل المدينة في اتجاه مكة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص292.

⁴ - عند القرطبي سفوان وهي إحدى المدن القريبة من البصرة. وفي حكاية أخرى حلوان وهي إحدى المدن المصرية، وربما تكون هي الأرجح.

⁵ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص154.

⁶ - الخطاب، هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الرعيني المالكي مذهباً، ولد بمكة سنة 902 هـ وتوفي بطرابلس الغرب سنة 954 هـ. من أهم مؤلفاته: "مواهب الجليل في شرح مختصر خليل. انظر: التنكيحي أحمد بابا (2000)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، صص592، 594.

استحباب الخروج عنه وعدم القدوم عليه، وهو القول الثاني في كلام ابن رشد». انتهى من نقل الشيخ جسوس¹.

قال الرهوني: وعلى كلام عياض اقتصر الأبى في شرح مسلم. وقالت عائشة: «الفرار منه كالفرار من الزحف». ومنهم من أجاز الأمرين. ويحكي عن عمر رضي الله عنه، رُوِيَ أنه ندم على رجوعه من سرغ، وقال: «اللهم اغفر لي رجوعي من سرغ». واعتراض الأبى هذه الرواية عن عمر وقال: «إنها لا تصح». وبحث في الاعتراض في "الفتح" بأن سنده إلى عمر قوي جيداً، أخرجه غير واحد. وممن وافق ابن عبد البر والباجي وعياض خذاق المالكية: القاضي أبو بكر بن العربي والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد والشيخ ابن أبي حمزة. ونص ابن دقيق العيد: «الذي يترجح عندي في الجمع بينهما أن في الإقدام عليه يُعْرِضُ النفس للبلاء، ولعلها لا تصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل، فنع ذلك حذراً من اعتزاز النفس ودعواها ما لا تثبت عليه عند الاختبار. وأما الفرار، فقد يكون داخلاً في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة ما قدر عليه، فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين... إلخ».

ثم قال المؤلف: وما قاله هؤلاء الأعلام من المالكية هو مذهب أكثر السلف كما تقدم في كلام عياض، وهو الراجح عند الشافعية وغيرهم من العلماء، قال في "الفتح": «ويؤيده ثبوت الوعيد على ذلك، ففي حديث عائشة مرفوعاً في أثناء حديث: "قلت يا رسول الله، فما الطاعون؟ قال غدة كغدة الإبل المقيم فيه كالشاهد، والفرار منه كالفرار من الزحف"». ثم نقل عبارة الشيخ زكرياء والسبكي مُصَرِّحَةً بأن النهي لِلْخُرْمَةِ كما أجاب بها ابن لب ونقله في المعيار.

قال الرهوني: فتحصل ما سبق أن القول بالحرمة أقوى وأرجح لكثرة قائله وثبوت دليله، والله أعلم. قال: وأما الخروج لغير الفرار فجائز بلا استشكل. وقد تقدم التصريح به في كلام البايجي، ثم تكلم على الجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة». وقوله: «فَرَّ من المَجْذُومِ فَرَارَكَ من الأسد». وقوله: «لا يورد مُرَضٌّ على مُصْبَحٍ» بنحو الكراسة. وحاصله أن المراد بنفي العدوى أن شيئاً لا يعدي بطبعه؛ نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تُعْدِي بطبعها من غير إضافة إلى الله تعالى، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ذلك، وأكل مع المَجْذُومِ لِيَبَيِّنَ لهم أن الله تعالى هو الذي يُرَضُّ ويشفي، ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها. ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت. وعلى هذا جرى أكثر الشافعية، إلى غير ذلك من الأجوبة عن الأحاديث المذكورة.

ثم قال: بقي ما لم يعرج في السؤال عليه أمران، فذكر الأول، ثم قال: الأمر الثاني إذا قلنا بالنهي عن القدوم عليه، فهل ذلك خاص بالبلدين؟ كما هو موضوع الحديث الكريم بحيث إذا وقع في جهة من البلد يجوز لمن هو بجهة أخرى منه أن يقدم عليهم، ولمن لم يدخل داره أن يدخل دار من دخلها أو لا يخص بالبلد الواحد بل الحكم سواء، وقع في ذلك خلاف بين المتأخرين، فقال الإمام أبو عبد الله الأبي في "إكمال الإكمال" بعد أن نقل عن القرطبي أنه: «نهى عن القدوم أخذاً بالحزم والبعد عن موضع الضرر ودفعاً للأوهام المشوشة» انتهى ما نصه. وعلى مقتضى تلك العلة ينبغي الكف عن الوصول لدرء تلك العلة². وكان

¹ المقصود بذلك الشيخ محمد بن قاسم جسوس، وقد أشار إليه الرهوني في حاشيته على شرح الزرقاني لمختصر خليل المسماة "أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي، ج1، ص5.

² كتب صاحب المختصر "لدور تلك العلة" وهو معنى لا يستقيم مع السياق، وقد عدنا إلى المصدر من أجل تصحيح المعنى وضبطه وأدرجناه مباشرة في متن النص.

الوباء بتونس سنة [ست وتسعين] وسبعمئة وأنا بمدرسة التوفيق، ومدرسها الشيخ شيخنا أبو عبد الله ابن عرفة رضي الله عنه، وكان أول من مات به أحد الطلبة الساكنين بها، وكنا شرعنا في قراءة الصف، فامتنع الشيخ من المحيي، فأرسلني إليه أهلها، وكانوا طلبة خيارا متطلبين ومتدينين وكنت أحدثهم سنا، فأتيت الشيخ، فعرضت له بالمحيي، فقال: أليس الوباء قد وقع عندهم؟ وقد ذكر أحاديث الوباء في النهي عن القدوم وحديث: "فر من المجذوم فرارك من الأسد". ثم إنه سخره الله تعالى وأتى وجد في الإقراء في ذلك العام. ولا شك فيما علل به القرطبي، قال: "وكذلك البعد لأنه أبعد عن تشويش النفس"¹. انتهى.

ووقع في المعيار أن أبا سعيد ابن لب سئل عن وقع فيه الوباء ففروا عن بعض ما يجب عليهم من حقوق إخوانهم، لما عاينوا من شدة الوباء في الأكثر، هل لهم فسحة في ذلك أم لا فقد أشرفوا في بعض المواضع على الهلاك [و] الفناء أجمعون؟ فأجاب: «القيام بحقوق المسلمين من التمريض والغسل والدفن فرض لا يجوز إهماله، وكذلك عيادة المرضى ما رغب الشارع فيه وحض عليه. فلا ينبغي ترك ذلك. وما ورد في الشرع من النهي عن القدوم على موضع الوباء، لا يراد به إلا نهى من كان في غير تلك الأرض عن أن يقدم عليها. وأما أهل الموضع نفسه أن يدخل بعضهم على بعض، والمرضى (كذا)² بعضهم على بعض، فليس من النهي في شيء، وكيف يترك فرض افترضه الشارع أو شيء رغب فيه وحض عليه، لما ذكر من العدوى؟! وهو أمر منهي (كذا)³ من أمور الغيب التي استأثر الله بعلمها، ولا يلزم من وجود ذلك في حي أن يكون كذلك في حق آخر، وربما يحتاج بعض من يرى مجانية أولئك المرضى بما جاء عن الزهري عن عمر، فذكر نحو ما قدمناه عن ابن رشد. ثم قال: ومع هذا فكلام عمر إنما محله عند العلماء أن يخرج الإنسان عن ذلك البلد جملة، وأما أن يبقى فيه ويترك القيام بما يجب على المسلمين من الحقوق، فهذا لا يقوله عمر ولا غيره. نعوذ بالله من الفتن ومن جميع البلايا والمحن».

[ما ينبغي التحصن به: أدعية وحروز]

ثم قال المؤلف: وأما ما ينبغي التحصن به لدفع ذلك وما يكتب له وما يتداوى به. فالجواب على ذلك متوقف على معرفة حكم الإقدام على ذلك، فتقدم الكلام على ذلك. قال النفراوي في شرح الرسالة عند نصها: «وإذا وقع الوباء بأرض قوم فلا تقدم عليه، وإذا كان بها فلا تخرج فرارا منه». ما نصه. وقد كثر السؤال عن الدعاء برفع الطاعون هل يجوز أم لا يجوز؟ وأفتى بعض علماء العصر من غير المالكية بغير الجواز لأنه شهادة، والشهادة لا يجوز الدعاء برفعها. ولم أقف للمالكية على نص صريح فيه، غير أن سيدي

¹ - الضبط التاريخي الوارد أعلاه تم استقاؤه من مصادر متعددة، انظر مثلا: الأبي أبو عبد الله محمد بن خليفة الوشتاني (د.ت)، إكمال الإكمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6، كتاب الطاعون، صص33-43. السنوسي الحسيني أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف (2008)، مكمل إكمال الإكمال، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، كتاب السلام، باب32، حديث92، ص411 وقد ورد عندهما هذا الاقتباس بضبط زمن القراءة "كنا شرعنا في قراءة الصف" وذلك عكس ما ذكر الرهوني. وانظر كذلك: الوزاني المهدي (1996)، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المساءة بـ "المعيار الجديد للجامع العرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب"، مقابلة وتصحيح عمر بن عباد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج2، نوازل الحج، ص255. ويبدو أن المهدي الوزاني قد نسج على منوال الرهوني ونقل عنه غير قليل من المعطيات حين أورد جواب الشيخ الرهوني في شأن الطاعون (ج2، صص241-257) غير أن معلومات الأبي تظل أوفى. وما يظهر غياب الضبط في هذه المسألة عند الوزاني اكتفاؤه بذكر التاريخ سنة "كذا وسبعمئة"، وقوله "كنا شرعنا في قراءة الصف".

² - وردت عند الوثنريسي: «وَيُحْمَضُّ بعضهم بعضا». انظر: الوثنريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (1981)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، تحقيق محمد ججي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج11، ص358.

³ - وردت الرواية في المعيار: «وهو أمر موهوم من أمور الغيب التي استأثر الله لعلمها» وذكرها الوزاني هكذا: «وهو أمر من أمور الغيب التي استأثر الله لعلمها». راجع: الوثنريسي، المعيار، ج11، ص358. المهدي الوزاني، المعيار الجديد، ج2، ص256.

أحمد زروق والقلشاني استعملوا لذلك أدعية للاحتراز منه وذلك يدل على الجواز. وكلام الشيخ زروق رضي الله نَصَّ في الجواز لقوله ما نصه: «ثم هو مرض من الأمراض في حكم المداواة وغيرها». فتأمل، وقد تقدم قول الشيخ أبي حامد الغزالي¹: «التداوي جائز أو راجح»، وهو وإن كان غير مالكي لكن قد نقل كلامه الإمام الأبي وقيله. وإذا جاز التداوي، فالدعاء أولى.

قال الرهوني: قلت: والفتوى التي ذكرها بعدم الجواز لا يُحْلَدُ (كذا) لما فيها، واحتججه بأنها شهادة... إلخ فيه نظر من وجوه: أحدها أن شرط كونه شهادة الصبر والاحتساب وعدم الجزع، وهذا أمر لا يتحققه الداعي من نفسه بل يخاف الإنسان على نفسه عكس ذلك. وقد قال في "الفتح" عند قوله صلى الله عليه وسلم: «صابراً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب له»، الحديث بما نصه. قوله: "صابراً" غير منبج ولا قلق بل مُسَلِّماً لأمر الله تعالى راضياً بقضائه. ثم قال: فلو مكث وهو قلق أو متندم على عدم الخروج، فهذا لا يحصل له أجر الشهيد، ولو مات بالطاعون. هذا الذي يقتضيه مفهوم هذا الحديث كما اقتضى منطوقه أن من اتصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد، ولو لم يمت بالطاعون. ويدخل تحته ثلاث صور:

[أولها]: من اتصف بذلك، فوقع به الطاعون فمات به، أو وقع به ولم يمت به، أو لم يقع به أصلاً أو مات بغيره عاجلاً أو أجلاً.

ثانيها: أن الإنسان لا يتحقق سلامة نفسه من كبيرة، وقد اختلف الأئمة هل هو شهادة في حق العاصي أو لا، فقال القرطبي ما نصه: «يرسله الله نعمة لمن شاء من عصاة عبده وكفرتهم، ورحمة وشهادة للصالحين من عباده». نقله الأبي مقتصرًا عليه. وقال في "فتح الباري" ما نصه: «وأما العاصي من هذه الأمة، فهل يكون الطاعون له شهادة أو (كذا) يختص بالمومن الكامل؟ فيه نظر». والمراد بالعاصي من يكون مرتكب الكبيرة هـجم عليه وهو مُصِرٌّ، فإنه يحتمل أن يقال لا يكرم بدرجة الشهداء لسوء ما كان متلبساً به لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾². وأيضاً فقد وقع في حديث ابن عمر ما يدل على أن الطاعون ينشأ عن ظهور الفاحشة، فذكر حديثه وأن قوله شاهداً من حديث ابن عباس عند الطبراني. ومن حديث عمرو بن العاص عند الحاكم بسند جيد، ومن حديث عائشة بإسناد حسن. ثم قال: «ففي هذه الأحاديث أن الطاعون قد يقع عقوبة بسبب المعصية، فكيف يكون شهادة؟! ويحتمل أن يقال بل يحصل له درجة الشهادة بعموم الأخبار الواردة، ولا سيما في الحديث الذي قبله عن أنس: "الطاعون شهادة لكل مسلم". ولا يلزم من حصول درجة الشهادة لمن اجترح السيئات مساواته للمومن الكامل في المنزلة لأن درجة الشهادة متفاوتة، كنظيره من العصاة إذا قُتِلَ مجاهداً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا مقبلاً غير مدبر». انتهى.

ثالثها: إنه وإن كان شهادة، فقد يحصل للإنسان برفعه عنه وتأخر موته من الطاعات ما يوازي أجر الشهادة لو مات قبل، أو أكثر منه. وقد قال ابن حجر على حديث النهي عن تمني الموت ما نصه: «فإن الحياة يَتَسَبَّبُ منها العمل، والعمل يُحْصَلُ زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد، فهو أفضل الأعمال»³. وأيضاً ليس في الدعاء برفع الوباء، في وقت مخصوص، بأس من حصول الشهادة للداعي، فقد تَحْصُلُ له شهادة أخرى كالقتل في سبيل الله الذي هو أفضلها أو غير ذلك، على أنه لا يلزم من كون الشيء

¹ لم يسبق لصاحب المختصر أن أورد كلاماً للغزالي.

² سورة الحاشية، الآية 20، رواية ورش.

³ النص موجود في كتاب: ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (2017)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ج10، كتاب المرضى، باب 20، ص111.

له الثواب العظيم أن لا يطلب عدم وقوعه، فقد جاء في الأمراض عموماً من الثواب ما هو معلوم، وجاء في العمى بخصوصه ما في البخاري وغيره من أن عوضه الجنة، وأخرج البزار عن زيد بن أرقم مرفوعاً: «ما ابتلي عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره، ومن ابتلي بذهاب بصره فصبر حتى يلقى الله تعالى، لقي الله ولا حساب عليه». ومع ذلك، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء بقوله: «ومتعنا بأسهنا وأبصارنا وقوتنا ما أبقيتنا، واجعله الوارث منا». كما في الترمذي إلى غير ذلك، مع أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من العمى والصمم، فهو تشريع منه صلى الله عليه وسلم.

رابعها: أن القتل في سبيل الله هو أعظم الشهادات، ومع ذلك، فقد شرع ما يدفعه بعد جريان سببه وقبلة. أما بعده، فمداواة من الجراحات الواقعة في الجهاد. وفي صحيح البخاري، من قول عائشة رضي الله عنها: «كنا ندأوي الجرحى». وفيه مداواة النبي صلى الله عليه وسلم من جرحه يوم أحد وحرق الحصار لذلك. وفيه نفثه صلى الله عليه وسلم على جرح سلمة رضي الله عنه يوم خيبر، وغير ذلك ما هو مشهور. وأما ما قبل كلبس المغفر والدرع ونحو ذلك. فكما يتقى طعن العدو الآدمي بالدرة ونحوها، كذلك يتقى طعن العدو من الجن. وفي كلام الحافظ ابن حجر الآتي على الذكر إشارة إلى هذا جلية. تأمله.

خامسها: أن فتواه مخالفة للكلام غير واحد من الأئمة المقتدى بهم، فقد ترجم الإمام أبو عبد الله النجاري بقوله: "باب الدعاء برفع الوباء"... إلخ. قال في "الفتح": «وقد استشكل بعض الناس الدعاء برفع الوباء لأنه يتضمن الدعاء برفع الموت، والموت حُثمٌ مقضي، فيكون ذلك عبثاً، وأجيب بأن ذلك لا ينافي التعبد بالدعاء لأنه قد يكون من جملة الأسباب في طول العمر ورفع المرض، فقد تواردت الأحاديث بالاستعاذة من الجنون والجذام والبرص وسوء الأسقام ومنكرات الأخلاق والأهواء والأدواء، فمن ينكر التداوي بالدعاء يلزمه أن ينكر التداوي بالعقاقير، ولم يقل بذلك إلا شذوذ، والأحاديث الصحيحة تُردُّ عليهم. وفي الالتجاء إلى الدعاء مزيد فائدة ليست في التداوي بغيره، لما فيه من الخضوع والتذلل للرب سبحانه، بل منع الدعاء من جملة الأعمال (كذا) ¹ الصالحة اتكالاً على ما قدر، فيلزمه ترك العمل جملة، ووزد البلاء بالدعاء كرد السهم بالترس، فليس من شرط الإيمان بالقدر أن لا يتترس من رمي السهم، والله أعلم» ². انتهى منه بلفظه، وهو في غاية الحسن كاف في رد الفتوى المذكورة. وقال في "الفتح" أيضاً ما نصه: «ولا خلاف في مشروعية الفرع إلى الله تعالى والالتجاء إليه في كل ما وقع وما يتوقع». وقال ابن التين: «الرق بالمعوذات وغيرها من أساء الله هو الطب الروحاني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عز هذا النوع فَرَعَ الناس إلى الطب الجفائي» ³، انتهى منه بلفظه. وقال القسطلاني في كتاب التفسير من شرحه للبخاري عند قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ﴾ الآية، بعد كلام ما نصه: «ومن علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والترحز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب»، انتهى منه بلفظه والله سبحانه أعلم.

¹ - الجملة الواردة أعلاه معاكسة تماماً لمقصود المؤلف، فمنع الدعاء لن يكون حتماً من جملة الأعمال الصالحة. والعودة إلى نص فتح الباري، نجد أن صياغة الجملة تفيد المعنى المطلوب في السياق بما صورته: "مَنْعُ الدُّعَاءِ مِنْ جَنْسِ تَرْكِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ". انظر ابن حجر، فتح الباري، ج10، كتاب المرضى، باب22، ص113.

² - النص مقتبس من ابن حجر مع بعض التعديلات الطفيفة، انظر: ابن حجر، فتح الباري، كتاب المرضى، باب 20، ج10، ص113.

³ - نفسه، كتاب الطب، ج11، باب 32، ج10، ص167.

⁴ - سورة النساء، الآية 101، رواية ورش.

وإذا تقرر هذا، فالجواب عن قوله في السؤال وما ينبغي التحصن به لدفع ذلك؟ فالذي وقفت عليه من ذلك ما ذكره الشيخ أبو سعيد ابن لب في آخر جوابه المشار إليه قبل. ونصه: «وليكن ما يدعو به الناس هنالك: "ربنا أنت الله الذي لا إله إلا أنت تَقَدَّسَ اسمُك، أَمُرْكَ في السماء والأرض، كما رحمتُك في السماء اجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك"¹. هذا ما حضرني تقييده ما سألتهم عنه، والله يلفظ بالجميع، والسلام عليكم». انتهى منه بلفظه. وقال في أواخر جوابه الذي قبل هذا متصلاً به ما نصه: «فوضوا أهل تلك النواحي بالتوكل على الله وإعمال الجد في توفية حقوق الله، وليقل من سلم منهم أو من خالط مرضاهم، ما جاء في الحديث في شأن الطيرة، فإنها لن تضر بفضل الله: "اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك"». انتهى منه بلفظه.

وفي شرح الرسالة للنفراوي، أن ما يدعى به لذلك: «تحصنت بذى العزة والجبروت واعتصمت برب الملكوت، وتوكلت على الحي الذي لا يموت. اصرف عنا الأذى إنك على كل شيء قدير² ثلاثاً»، انتهى منه بلفظه. إلا أنه نسب للشيخ زروق، ولم أجد له في نسختين من شرحه للرسالة، فلعله ذكره في غيره.

وفي كتاب البركات المنسوب للسيوطي ما نصه: «علاج الطاعون: من ذكر: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾³ مائتين وثمانين مرة في إبان الطاعون كل يوم كان سالماً من الطاعون وهذا الوباء». انتهى منه.

ونقل شيخنا في شرحه المذكور عن الخطاب: «أن ما ينفع في ذلك كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما تجرّب فصّح قراءة آية الكرسي ثمان عشرة مرة كل يوم ما دام الوباء، وكذا إدّمان هذه الأسماء في أيامه [...]»⁴، قال: وذكر بعض العلماء يَكْثُرُ زَمَنُهُ يا لطيفُ لم يزل، الطُفُ بنا فيما نزل، إنك لم تزل حي صمد باق، ذو كنف واق، يا الله، يا حي يا حلیم، يا حنان يا حكيم، اكفنا شر هذه الريح العقيم وشر ما جاءت به، إنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا [محمد]⁵، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً». انتهى منه.

وأما ما يكتب، ففي القلشاني عند نص الرسالة السابق ما نصه: «وما يكتب زمن الوباء ويعلقه الإنسان على نفسه: [اللهم]⁶ سكن فتنة صدمة، قهرمان الجبروت، بأطافك الخفية الواردة النازلة من باب الملكوت

¹ - في هذا الدعاء إحالة على حديث ضعيف منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم.

² - الغريب أن هذا الحديث المنسوب للشيخ أحمد زروق قد كثر الدعاء به في المنتديات الإلكترونية للوقاية به من أنفلونزا الخنازير. وقد نشرت بتاريخ 05 أكتوبر 2009، الفتوى في شأنه بالمكتبة الشاملة الحديثة، انظر: محمود شعبان، دعاء الوقاية من أنفلونزا الخنازير:

(بتاريخ: 2020-04-14) <https://al-maktaba.org/book/31615/32916>

وإثر انتشار فيروس كورونا المستجد، اعتمدت دار الإفتاء المصرية الدعاء نفسه، ونشرته عبر صفحتها الرسمية بموقع التواصل الاجتماعي فيسبوك للتحصن من الوباء، وأعادت نشره مراراً فيما بين فبراير ومارس 2020، ولقي تفاعلاً كبيراً من قبل مرتادي صفحتها ونشرته الصحافة المصرية على صفحاتها. راجع:

<https://www.facebook.com/EgyptDarAlIfta/posts/3383432481686510/>

(بتاريخ: 23 مارس 2020)

دار-الإفتاء-تنشر-صيغة-دعاء-التحصين-من-الوباء-تعرف-عليها/2020/3/15

(بتاريخ: 27 فبراير 2020)

³ - سورة ياسين، الآية 57، رواية ورش.

⁴ - بياض في الأصل.

⁵ - بياض في الأصل.

⁶ - بياض في الأصل.

حتى تثبت بلطفك، ونعتم بك عن إزال قدرتك، يا ذا القدرة الكاملة والرحمة الشاملة، يا ذا الجلال والإكرام¹. كتبه لي والذي خفا من الله وأدام عافيته. انتهى منه بلفظه. وقوله: "ونعتم بك عن إزال كذا" وجدته في نسخة منه بلفظ عنه بالعين، وكذا رأيته في نقل بعض من أثق به، وكذا نقله عنه النفراوي، ووجدته في نسخة من شرح شيخنا المتقدم نقلا عنه من إزال بالميم بدل العين، والله أعلم.

وقال النفراوي عند نص الرسالة ما نصه: **فائدة:** «ما جرى للحفظ من وخز الجن أن يكتب في حرز آيات غير مطموسة الحروف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾² سبع مرات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾³ أربع (كذا)، و"لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". و"صلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما". انتهى منه بلفظه.

وقوله: "وخز" هو بفتح الواو وسكون الخاء المعجمة وآخره زاي. قال في فتح الباري: «قال أهل اللغة هو الطاعون إذا كان غير نافذ». ووصف طعن الجن بأنه وخز لأنه يقع من الباطن إلى الظاهر، فيؤثر في الباطن أولاً ثم يؤثر في الظاهر، وقد لا ينفذ. ووقع في الحديث التعبير بذلك، أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي موسى. ولفظ المحتاج إليه كما الطاعون، قال: «وخز أعدائكم من الجن»، وأخرجه أيضا البزار والطبراني، وصححه ابن خزيمة والحاكم. قال في "الفتح": «وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها». أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف، وآخر من حديث ابن عمر أضعف منه. والعمدة في هذا الباب حديث أبي موسى، فإنه يحكم له بالصحة لتعدد طرقه، انتهى منه.

وقال قبل هذا ما نصه: ولا يخالف ذلك ما قاله الأطباء من كون الطاعون ينشأ عن هيجان الدم أو انصبابه لأنه يجوز أن يكون ذلك يحدث عن الطعنة الباطنة، فتحدث منها اللذة [كذا والصواب المادة] السَّيِّئة ويهيج الدم بسببها أو ينصب وإنما لم يتعرض الأطباء لكونه من طعن الجن لأنه أمر لا يدرك بالعقل وإنما عرف من الشارع فتكلموا في ذلك على ما اقتضته قواعدهم. انتهى منه بلفظه. ولم يتعرض للجمع بين هذا وبين ما قدمه في الحديث الآخر من أنه غدة كغدة البعير.

وقال الشيخ زروق في شرح الرسالة مانصه: «قلت وقد يجمع بين ذلك بأن يقال هو فساد في الهوى تأخذه الجن فتخز به الأجسام أي تطعنها به فيحدث بذلك غليان في الدم فتنشأ منه غدة كغدة البعير». والله أعلم. انتهى منه بلفظه.

وفي القاموس: «الغدة بالضم كل عقدة في الجسد طاف بها شحم، وكل قطعة صلبة بين العصب. والجمع غدد، انتهى. وفي المصباح: الغدة تحدث عن داء بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك».

وفي كتاب البركات المشار إليه قبل ما نصه: «ما يُكْتَبُ للطاعون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَشْرَقَ نَوْرُ اللَّهِ ظَهَرَ كَلَامُ اللَّهِ، نَفَذَ حَكْمُ اللَّهِ، اسْتَعْنَتْ بِاللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، التَّجَأْتُ إِلَى اللَّهِ، فَوَضَعْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، تَحَصَّنْتُ بِحِفْظِ لُطْفِ اللَّهِ، وَبَلَطِيفِ صَنِعِ اللَّهِ، وَبِجَمِيلِ سِتْرِ اللَّهِ، وَبِعَظِيمِ ذِكْرِ اللَّهِ، وَبِعِزِّ سُلْطَانِ اللَّهِ، وَدَخَلْتُ فِي كَنْفِ اللَّهِ. اللَّهُمَّ اسْتَرْنِي بِسِتْرِكَ الْحَصِينِ الَّذِي سَتَرْتَ بِهِ ذَاتَكَ وَلَا عَيْنَ تَرَكَ وَلَا تَصِلْ إِلَيْكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ يَا اللَّهُ» ثلاثا. «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ وَعَظِيمِ

¹ - هذا الدعاء ما كثر اللجوء به للوقاية من أنفلونزا الخنازير، راجع: فتوى المكتبة الشاملة الحديثة بعنوان: "دعاء الوقاية من أنفلونزا الخنازير" الصادرة بتاريخ 05 أكتوبر 2009؛

² - سورة البقرة، الآية 254، رواية ورش.

³ - سورة إبراهيم، الآية 49، رواية ورش.

البلاء في المال والنفس والأهل والأولاد. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، فأمهلنا وعَظِّزْ بِنَا مَنَازِلَنَا، وكن لنا في غربتنا ولا تهلكننا بذنوبنا يا أرحم الراحمين». انتهى منه بلفظه.

وفي شرح شيخنا الإمام ابن سودة برَّء الله ضريحه الذي تقدمت الإشارة إليه ما نصه: «وما أُلْهِمْتُهُ زمن الوباء رأيت في النوم رجلاً عظيم الذات أمسك يدي اليمنى على طرف الساعد وذهب به، فَأُلْهِمْتُ أَنْ عقدت بأصابعي الخمس، تحصنت بالله، واعتصمت بالله، وتوكلت على الله، وحسبي الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم فتحها في وجهه قائلاً: "اللهم صل على سيدنا [محمد]¹ وعلى آله وصحبه وسلم، فأطلقتني. فكنت إذا كتبتها لأحد عافاه الله منه، وذلك سنة خمس وخمسين ومائة وألف". انتهى منه بلفظه. وفي هذا القدر كفاية إن شاء الله.

فائدة: قال الإمام العلامة أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن مسعود التمجروتي في كتابه "تنبيه الغافل" آخر فصل في ذكر مسائل الطهارات ما نصه: «واعلم رحمك الله أن أهل الفن يشترطون شروطاً في كتب الحرز قد ضيعها الناس، ولذا كُتِبَ قَلٌّ ما ينتفعون بذلك أعاذنا الله من الجهل والخذلان، منها أن يكون الكاتب على طهارة، وأن يكون في موضع نظيف، ولا يتردد في صحة ما يكتب ولا مجرباً، بل يعتقد صحته ويحسن ظنه بالله تعالى، ولا يصرف همته في وقت الكُتُبِ إلى شيء آخر غير ما هو بصدد، وأن يتلفظ حين الكتابة بجميع ما يكتبه ولا يقرأ في نفسه، ويكون عمله مصاناً عن أبصار الناس العالم (كذا)، ولا تكون الشمس مسلطة عليه، بل يدخل عليه نورها، ولا يدخل إليه شعاعها، ويترك الغيبة والتميمة والكذب. قالوا: ولا يكتب بالقلم مقلوباً، ويتجنب الروائح الخبيثة إذ ذاك كالثوم والبصل وشبيه ذلك، وهل ينقط الكتابة؟ لم أر فيه شيئاً، إلا أن بعض من أتق به أخبرنا أن بعض الصالحين ممن جاوره وجرب نفسه بذلك، كان لا ينقط الكتابة وينهى عن ذلك، وهل يترَّبُّ؟ لم أر فيه شيئاً أيضاً، والظاهر عندي أنه لا يجوز لأن الترتيب إنما ورد في الرسائل، بل نص بعض العلماء أن الحرز إذا وقع في التراب فإنه يفسد يعني قبل التحريز، وعند التحريز يجدر أن لا يمسه من جديد والله أعلم، وبه التوفيق». انتهى منه بلفظه.

[ما يداوى به]

وأما ما يداوى، ففي شرح الشيخ زروق آخر كلامه الذي قدمناه عقد ما نصه: «فما يدفع به تحكُّمه في الأجساد مركب يقال له روفش؛ اختلاطه جزء من صبر وجزء من مُرّ ونصف جزء من زعفران يسحق كل ناعماً، ويضاف بشراب ريحاني، ويشرب على الريق منه قدر يسير. فإن كل جسم خالطه لا يتمكن منه الطاعون بقدرة الله تعالى، كذا رأيتُه بخط من يعتمد من الأطباء وصحت تجربته في مُتَعَدِّدين. ذكر بعض الأطباء أن شرب الماء بالقوة يدفعه لأنه يطفئ الحرارة الغريزية، وقد جرَّبناه، إلا أنه يحرك عللاً أخرى. أما شرب الخل عند الإحساس به، فله أثر كبير في حله. وهذه أسباب والقدر من وراء ذلك، وقد ينفع الله بالخاصية رجلاً ويضر آخر، وبالله التوفيق». انتهى منه بلفظه². ومراد قوله شراب ريحاني، والله أعلم، شراب الورد ونحوه من الرياحين. وأجل في الغدد اليسير.

¹ - بياض في الأصل مقدار كلمة.

² - انظر: زروق أحمد بن محمد البرنسي الفاسي (2020)، شرح على متن الرسالة، اعتنى به وكتب هوامشه أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص1094.

وقد ورد في كتاب سيدي خضر بن خطاب الشهير بابن حاجي باشا¹، المسمى "شفاء الأسقام ودواء الآلام" في الباب الثاني منه ما نصه: «ويتناول في بعض الأوقات هذا الدواء وصنَّعُهُ صبر سقطري، جزآن زعفران وجزآن² مر صاف، جزء يؤخذ منه نصف مثقال بماء ورد». انتهى منه بلفظه. فقد بين ماء الورد، وبين مقدار ما يتناول منه لكن خالف ما للشيخ زروق، فجعل هذا المر مساويا للزعفران وجعله الشيخ زروق مساويا للصبر، كذا في نسختين منه، وكذا نقله شيخنا عنه، والنفس إلى ما قاله أميل والله أعلم³.

وفي شرح شيخنا المذكور ما نصه: قال ابن حجر: «والمعروف عن الشافعي ما ذكره ابن أبي حاتم وغيره: لم أر للوباء أنفع من البنفسج يُدْهَنُ بِهِ وَيُشْرَبُ». انتهى منه بلفظه.

وبهذا تم الجواب عن جميع فصول السؤال و[...]⁴ المسؤول أن يكفيني وإياكم ما أمنا وما لم يهمننا في الحال والمآل، رسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الأخلاق، آمين. وأجر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كَتَبْتُ وَفَدْتُ أَقْبَنْتُ لَا شَكَّ أَنْتِي
وَزَنْتُ [وَلَا شَكَّ] أَنَّ اللَّهَ سَائِلُهَا غَدًا
إِمَّا نَعِيمٌ فِي الْجَنَانِ وَرَاحَةٌ
سَتَفُنِي يَدِي يَوْمًا وَيَبْقَى كِتَابُهَا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَكُونُ جَوَابُهَا
وَأَمَّا بَحِيمٌ لَا يُطَاقُ عَذَابُهَا⁵

اللهم اغفر لكاتبه ونظيره (كذا) وجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات بجاه سيد الوجود صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته الطاهرين الأبرار.

¹ - هو حسام الدين خضر بن علي بن الخطاب، ويعرف بحاجي باشا الأيدي المتوفى سنة 820هـ / 1417م، له مؤلفات منها: الفريدة في ذكر الأغذية. انظر: حاجي أمير زاده (2016)، رسائل فقهية، دراسة وتحقيق صهيب محمود الجميلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص9.

² - في رواية أخرى: جزء واحد مر صاف. انظر: الزبيدي محمد بن محمد الحسيني (2016)، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، كتاب آداب الأكل، الباب الرابع، ص691.

³ - يصر هنا الرهوني على أن حاجي باشا قد أوعز بوضع جزآن من المر صافي، ولكن كما اتضح في الهامش أعلاه، فإن هناك رواية أخرى تشير إلى أن حاجي باشا نفسه قد وضع مقدار مر صاف واحد.

⁴ - بياض في الأصل مقدار كلمة.

⁵ - شطب كاتبها المختصر على الأبيات المنتخبة من هذه القصيدة ربما لعدم التثبت من أبياتها خصوصا الشطر الاول من البيت الثاني حيث كتب ظننت عوض ولا شك، وسائلهما عوض سائلها. وقد ارتأينا إدراج هذه الأبيات بعد التحقق منها وتقومها وتعديلها.

- Bédard D. et Raucent B. (2015).** Les innovations pédagogiques en enseignement supérieur : pédagogies actives en présentiel et à distance », *Revue internationale de pédagogie de l'enseignement supérieur*. URL : <http://ripes.revues.org/898>
- Cros F. (1997).** L'innovation en éducation et en formation. In: *Revue française de pédagogie*, volume 118,. L'école élémentaire. pp. 127-156.
www.persee.fr/doc/rfp_0556-7807_1997_num_118_1_1181
- Habibu, T. Md. Abdullah-Al-Mamun CheKum Clement (2012).** Difficulties Faced by Teachers in Using ICT in Teaching-Learning at Technical and Higher Educational Institutions of Uganda. *International Journal of Engineering Research & Technology (IJERT)*. Vol. 1 Issue 7, 1-9.
- Herrington, J., & Oliver, R. (2000).** An instructional design framework for authentic learning environments. *Educational Technology Research and Development*, 48(3), 23-48.
- Ellis, A. (2001).** Student-centred collaborative learning via face-to-face and asynchronous online communication: What's the difference? Paper presented at the Meeting at the Crossroads. Proceedings of the 18th Annual Conference of the Australasian society for Computers in Learning in Tertiary Education (ASCILITE), Melbourne, Australia.
- Merton, R.k (1968).** *Social Theory and Social Structure*. New York : The Free Press.
- Pelgrum, W. J. (2001).** Obstacles to the integration of ICT in education: results from a worldwide educational assessment. *Computers & Education*, 37, 163-178.
- Potter, J (2015).** Applying a hybrid model: Can it enhance student learning outcomes? *Journal of Instructional Pedagogies*. 17, 1-11.
- Shahabul, H. (2018).** The cause of low implementation of ICT in education sector considering higher education: A study of Bangladesh. *Canadian Social Science*. V 14 N 12, 67-73.
- Syed Noor Ul-Amin - (2013)** An Effective Use of ICT for Education and Learning by Drawing on Worldwide Knowledge, Research, and Experience. *ICT as a Change Agent for Education* 1-13.
- Taleb N.N.(2010).** *Le Cygne noir, la puissance de l'imprévisible* . Paris : Les Belles Lettres.
- UNESCO (2020).** COVID-19 Educational Disruption and Response.
<https://en.unesco.org/covid19/educationresponse>.
- Université Ibn Tofail.** Projets internationaux : Projet EXPRES.
(<https://iro.uit.ac.ma/expres/>).
- Université Ibn Tofail.** Projets internationaux : Projet MARMOOC.
<https://iro.uit.ac.ma/marmooc/>.
- Université Ibn Tofail.** Projets internationaux : Projet PACES. <https://iro.uit.ac.ma/paces/>.
- USAID (2020).** Distance education activities prepare Morocco's Ministry of Education for virtual learning during Coronavirus disruptions. <https://www.usaid.gov/morocco/program-updates/>

l'enseignement à distance et de se familiariser avec les différents outils technologiques à vocation pédagogique. Toutefois, l'université doit envisager des cycles de formation pour développer le savoir-faire technique des enseignants. En plus, l'université doit promouvoir l'infrastructure (ex. connexion internet) et la disponibilité de l'équipement informatique pour l'enseignant et l'étudiant (ex. ordinateurs, tablettes).

L'enseignant doit passer beaucoup de temps avant le début du cours pour s'assurer que le site de gestion du cours est bien organisé pour les spécificités du cours. Dans ce contexte, Potter (2015, p6) propose que les composantes du cours en ligne comprennent:

1. Le chargement de documents spécifiques au cours (tels que les conférences, les solutions de devoirs, les devoirs, les programmes) sur le compte de gestion du cours.
2. Fournir des liens vers des articles, des podcasts et des webcasts qui sont nécessaires pour le cours.
3. Générer des examens en ligne qui résident sur le système de gestion des cours.
4. Soutenir des débats thématiques sur des sujets spécifiques avec de telles discussions évaluées via une rubrique.
5. Obliger les étudiants à soumettre des travaux écrits via le système de gestion des cours.
6. Utiliser un guide pratique en ligne lié au manuel qui fournit une réponse immédiate aux élèves.

Il est clair que L'utilisation d'une composante en ligne dans un cours nécessite un engagement important de la part de l'enseignant.

Conclusion

Comme carte de route pour l'après COVID 19, il faut offrir des formations à large échelle pour assurer un enseignement moderne et de qualité. En plus, il faudrait renforcer l'infrastructure existante. Enfin, on peut annoncer avec confiance que ces mesures aideront les écoles et surtout les universités à passer à un enseignement hybride où les enseignants dispensent des contenus qui conduisent à développer des compétences douces. Toutefois, la mutualisation des ressources en place et le changement des attitudes des enseignantes et des enseignants vis-à-vis les TIC sont sans doute la clef vers la numérisation de l'enseignement.

References

- Albirini, A. (2006).** Teachers' attitudes toward information and communication technologies: The case of Syrian EFL teachers. *Computers & Education*, 47, 373-398.
- Béchar, J.P. (2001).** « L'enseignement supérieur et les innovations pédagogiques : une recension des écrits », in. *Revue des sciences de l'éducation*. 27, 2, , 257-281. <https://doi.org/10.7202/009933ar>.

suit, nous énumérons un ensemble de handicaps relatifs à la numérisation de l'enseignement.

3.1. La fracture numérique

La réussite de l'apprentissage dépend fortement du niveau et de la qualité de l'accès numérique. Dans les pays en voie de développement, Tam et El Aazr (2020) prétendent que *« plus les familles sont pauvres et mal informées, plus leurs enfants sont dépassés. Lorsque les cours transitent en ligne, ces enfants sont perdants en raison du coût des appareils numériques et des plans de données »*.

Ils réclament aussi que si le prix d'accès ne diminue pas, « l'écart dans la qualité de l'éducation, et donc l'égalité socioéconomique, sera encore aggravé. La fracture numérique pourrait devenir plus extrême si l'accès à l'éducation est dicté par l'accès aux dernières technologies ».

Si les TIC servent au mieux ceux qui sont déjà des natifs digitaux, argumente Merton (1968), « l'effet Matthew » ne cessera jamais d'augmenter. Un « effet Matthew » dans un contexte éducatif désigne une situation où des étudiants avec un léger avantage en fonction de leur milieu d'origine progressent rapidement et dépassent leurs pairs issus de milieux défavorisés.

L'université marocaine doit développer des programmes de formation pour assurer l'accès à la technologie pour tous. Les centres de carrière et les centres des langues des universités peuvent offrir des cours de soutien dans ce domaine. Toutefois, il faut faire face à des conditions matérielles qu'on peut résumer en l'insuffisance du nombre des ordinateurs et le nombre de copies de logiciels (Habibu et al. 2012).

3.2. Attitudes des enseignants

Habibu et al. (2012) et Albirini, (2006) prétendent que les facteurs intrinsèques comme l'attitude, la motivation, la résistance et les pratiques peuvent limiter l'usage des TIC en classe. En effet, plusieurs études montrent que le manque de connaissances relatives à l'usage des technologies pédagogiques augmente le sentiment de résistance et la démotivation. Ce sentiment est exacerbé par un manque d'outils et de ressources d'équipement d'apprentissage. (Voir Pelgrum, (2001).

4. Remodelage de l'apprentissage : une carte de route

L'introduction des TIC dans le système éducatif marocain en ce temps de pandémie a démontré que le passage d'un enseignement en présentiel à un enseignement hybride doit faire partie de la politique éducationnelle des écoles et surtout des universités. Dans ce cadre, la réforme pédagogique proposée par le Ministère prévoit une année de base qui s'articule sur le développement des *soft skills*. Par conséquent, il faut prévoir un module par semestre pour familiariser les étudiants avec les TIC et avec leur utilisation dans l'acquisition du savoir et la réalisation de la recherche.

Pour l'enseignant, une livraison en ligne réussie nécessite que celui-ci ait accès à un type de système de gestion de cours comme Microsoft Teams. La pandémie a prouvé qu'il est temps pour les enseignants de s'engager d'avantage dans

ligne une fois que le coronavirus a perturbé le système éducatif marocain. Les deux projets ont été menés en collaboration avec le Centre national pour l'innovation et l'expérimentation pédagogiques (CNIPE) du Ministère de l'Éducation nationale (MEN) pour concevoir des cours d'apprentissage numérique, créer une plateforme d'apprentissage en ligne Collab.ma et adapter le contenu du programme national à l'enseignement multimédia.

2.2. L'importance des partenariats public-privé dans le domaine de l'éducation

Dès le début du confinement et la fermeture des établissements scolaires et universitaires, nous avons vu se former des consortiums et des coalitions d'apprentissage, avec diverses parties prenantes - y compris les gouvernements, les éditeurs, les professionnels de l'éducation, les fournisseurs de technologie et les opérateurs de réseaux de télécommunications - se réunissant pour utiliser les plateformes numériques comme solution temporaire à la crise. Dans les pays émergents où l'éducation est principalement dispensée par le gouvernement, cela pourrait devenir une tendance courante et conséquente pour l'éducation future.

2.3. Les TIC : amélioration du processus d'apprentissage et d'enseignement

L'enseignement traditionnel est centré sur le contenu. Pendant longtemps, des cours ont été rédigés autour des manuels. Les enseignants ont enseigné à travers des conférences et des présentations entrecoupées de tutoriels et d'activités d'apprentissage conçues pour consolider et renforcer le contenu. Les milieux contemporains mettent l'accent sur les programmes qui favorisent la compétence et la performance. Les programmes commencent à privilégier les capacités et à se préoccuper davantage de la façon dont les informations seront utilisées que de ce qu'elles sont.

Les TIC contemporaines sont en mesure de fournir un soutien solide pour toutes ces exigences et il existe maintenant de nombreux exemples remarquables de modèle de classe internationale pour des programmes d'études basés sur les compétences et les performances qui font un bon usage des possibilités de ces technologies (Herrington & Oliver, 2000).

Selon Syed Noor-Ul-Amin (2013) « l'intégration des technologies de l'information et de la communication peut aider à revitaliser les enseignants et les élèves. Cela peut aider à améliorer et à développer la qualité de l'éducation en fournissant un soutien scolaire dans des matières difficiles. Pour atteindre ces objectifs, les enseignants doivent être impliqués dans des projets collaboratifs et l'élaboration de stratégies de changement d'intervention qui comprendraient l'enseignement des partenariats avec les TIC comme outil ». En conclusion, on peut annoncer qu'il est souhaitable de concevoir un milieu d'apprentissage avec l'intervention des TIC.

3. Défis de l'après COVID-19

Comme toute situation nouvelle, il faut toujours s'attendre à des obstacles qui peuvent freiner l'intégration des TIC dans le système éducatif national. Dans ce qui

- Accompagner les universités marocaines publiques et privées dans le processus de conception et de développement de supports pédagogiques riches et innovants.
- Doter les universités marocaines publiques et privées d'une plateforme mutualisée et fédératrice de cours SPOC et MOOC.
- Contribuer à l'ouverture des universités marocaines publiques et privées sur le monde socio-économique en évoluant vers un modèle de formation en ligne ouvert à tous et «on-demand». (cf. : <https://iro.uit.ac.ma/marmoooc/>)

C- PACES

Consciente de la nécessité de répondre aux besoins des étudiants en situation de handicap, l'Université Ibn Tofail est l'une des premières universités marocaines à établir un centre d'accessibilité pour cette catégorie des étudiants. Dans ce cadre, le projet ERASMUS PLUS PACES (2017-2020) cherche à offrir un enseignement basé sur la technologie d'assistance. En effet, les objectifs de ce projet sont cités ci-dessous. (Voir le site web de l'Université Ibn Tofail, Rubrique Projets internationaux : <https://iro.uit.ac.ma/paces/>)

-Le PACES mettra en place des centres d'accessibilité pour les étudiants handicapés, fournissant du matériel et du soutien. Les besoins seront analysés, les bonnes pratiques internationales partagées et une assistance pratique fournie. La coopération entre les régions et la création du réseau des employeurs accroîtra la pertinence pour le marché du travail.

-Transférer les bonnes pratiques pour l'égalité d'accès à travers l'UE et l'Afrique du Nord.

-Construire des centres d'accessibilité dans 5 autres universités. Pour amplifier la portée des centres, créer des centres d'accessibilité virtuels et mobiles / pop-up pour aider les étudiants / enseignants, diffuser les politiques et les informations dans toutes les régions.

-Établir un réseau pour les établissements d'enseignement supérieur et les employeurs dans les pays pair.

-Développer de nouveaux «programmes de soutien aux étudiants» pour que les étudiants puissent travailler avec les assistants volontaires.

En somme, on peut noter que l'enseignement à distance a toujours été une vocation pour l'université marocaine. Le développement de plusieurs partenariats nous informe de la visibilité des trajectoires à suivre pour le futur. Il faut aussi noter que d'autres programmes de collaboration entre le Ministère de l'Education Nationale et des organismes internationaux comme l'USAID ont beaucoup contribué à la numérisation de l'enseignement. Les projets financés par l'USAID Advancing Learning and Employability for a Better Future (ALEF), 2004-2009, et Improving Training for Quality Advancement in National Education (ITQANE), 2009-2014, ont formé des experts nationaux de l'éducation sur des outils d'apprentissage innovants et de qualité. Ces professionnels étaient plus tard prêts à répondre à l'appel urgent du pays à se lancer dans une production à grande échelle de cours en

A- EXPERES

Dans sa présentation du projet, l'Université Ibn Tofail présente ce programme comme une « réponse au programme national « Maroc numérique » lancé en 2009 par le gouvernement marocain ». En plus, pour faire partie des campus numériques à l'instar des universités internationales, l'Université Ibn Tofail, comme c'est mentionné sur le site de l'Université, dans la rubrique « projets internationaux :

« a misé sur le développement d'un contenu numérique et sur la mobilisation des acteurs autour d'offres d'accès aux TIC relatives au développement des soft skills nécessaires pour l'insertion des catégories socioprofessionnelles dans le marché de l'emploi. L'objectif principal est de créer un Campus Virtuel. Les objectifs de ce projet ERASMUS PLUS figurent sur le site de l'Université (voir site web de l'université Ibn Tofail, Rubrique Projets internationaux » (<https://iro.uit.ac.ma/experes/>)

Les objectifs de ce projet sont:

- Possibilité d'accès à des installations uniques, coûteuses et/ou lourdes;
- Possibilité de s'affranchir des contraintes spatiales et temporelles et d'ouvrir un accès illimité à l'expérimentation;
- Réalisation d'économies d'échelles dans le cadre d'un réseau de partenaires;
- Allègement des contraintes liées à l'encadrement et/ou à la sécurité;
- Possibilité de reprise par l'étudiant d'un essai, de revoir sa démarche, de constater ses défauts et de se corriger ;
- Remplacement d'expériences délicates voire impossibles à réaliser en classe pour des raisons techniques ou budgétaires;
- Possibilité d'apprendre à se servir d'un logiciel ou d'un code de calcul massivement utilisé dans l'industrie.

(Voir site web de l'Université Ibn Tofail, Rubrique Projets internationaux » (<https://iro.uit.ac.ma/experes/>).

B- MARMOOC

L'objectif principal de ce programme est bien décrit dans la présentation du projet. « Ce projet vise à RENFORCER les capacités d'enseignement supérieur en mettant en place une plateforme mutualisée et fédératrice de cours SPOC et MOOC. Les parties prenantes de ce projet s'attelleront à s'inspirer des expériences réussies et à capitaliser sur les bonnes pratiques qui permettront de tirer bénéfice des plateformes de diffusion de cours en ligne tels qu'ils sont conduits avec succès au niveau national et international en Europe. » (Voir le site web de l'Université Ibn Tofail, Rubrique Projets internationaux :<https://iro.uit.ac.ma/marmoooc/>)

Les objectifs généraux de ce projet sont formulés comme suit :

- Appuyer l'adoption d'une approche d'apprentissage hybride à travers l'exploitation de nouvelles pratiques pédagogiques: cours en lignes ouverts et massifs (MOOC) et cours en ligne privés à petits groupes (SPOC).

2. Innovations pédagogiques

Selon Béchard et Raucant (2015), l'innovation pédagogique correspond à un changement qu'ils définissent comme «une intentionnelle action qui vise à introduire quelque chose d'original dans un contexte, et il est pédagogique car il cherche à améliorer l'apprentissage des élèves dans une situation d'interaction et l'interactivité ». (p. 3). Dans un autre travail, Béchard (2001, p. 133) prétend que: «Dans un contexte universitaire, les innovations pédagogiques sont décrites comme tout ce qui n'est pas une conférence, la méthode encore utilisée par la grande majorité des professeurs ». D'autre part, Cros (1997, 2) définit l'innovation comme « la créativité, l'inventivité et initiative par le renouvellement d'un cadre institutionnel, une mesure, une méthode ou un processus ».

Au-dessous nous pourrions nommer trois volets qui pourraient nous informer sur les transformations futures.

2.1. L'éducation : un vecteur des innovations extraordinaires

Shahabul (2018) et Pelgrum. (2001) affirment que l'adoption des TIC est très lente. La raison avancée par les deux auteurs concerne les attitudes des enseignants vis-à-vis les technologies d'apprentissage et leur niveau de maîtrise. Ceci dit, la lenteur du changement dans les écoles et les universités à l'échelle mondiale est regrettable, avec des approches séculaires de l'enseignement, des clichés formels enracinés et des salles de classe déphasées. Cependant, le COVID-19 est devenu un catalyseur pour les établissements d'enseignement du monde entier à la recherche de solutions innovantes dans un laps de temps relativement court. Pour aider à ralentir, voire arrêter la propagation du virus, les étudiants du Maroc ont commencé à apprendre chez eux via des applications interactives. Les étudiants ont eu accès à du matériel d'apprentissage grâce à des applications comme Google Classroom, Google Meet, Zoom et Microsoft Teams, à la plateforme Moodle ou à des émissions télévisées en direct (Arrabia et Athaqafiya et Aryyadiya).

La mobilisation des universités marocaines pour répondre aux exigences imposées par la pandémie est très louable. Prenons l'exemple de l'Université Ibn Tofail de Kénitra. Dès le début du confinement, toutes les autorités administratives et académiques ont jugé judicieux de passer à l'enseignement virtuel pour assurer la continuité des cours. Les équipes techniques ont fourni des efforts immenses pour initier les professeurs à l'utilisation des applications mentionnées ci-dessus. En effet, cet enseignement à distance est devenu possible grâce à l'engagement de l'université quant à la mise en place d'un dispositif technique et des formations avant même la propagation de la pandémie.

A titre d'exemple, l'Université Ibn Tofail, considérant sa collaboration avec ses partenaires européens et marocains, a depuis longtemps misé sur les vertus de la numérisation de l'enseignement. Nous citons ci-dessous des exemples de partenariat avec l'Union Européenne dans le cadre du programme ERASMUS PLUS.

pédagogique par l'adoption d'un enseignement hybride qui dispense un apprentissage planifié qui se déroule normalement dans un lieu autre que la salle de cours, nécessitant des techniques spéciales de conception et d'enseignement des cours, une communication par le biais de diverses technologies et des dispositions organisationnelles et administratives spéciales.

Mots-clés : *Système éducatif, TIC, enseignement hybride, pandémie, opportunités et défis.*

Introduction

La pandémie du Coronavirus a induit la nécessité d'un remodelage du système éducatif marocain. L'environnement d'apprentissage hybride donne aux étudiants le privilège de comprendre et d'explorer les problèmes du monde réel grâce à des expériences d'apprentissage authentiques, facilitées dans un environnement d'apprentissage en ligne (Ellis, 2001). L'objectif de cet article est d'analyser et de montrer comment l'enseignement hybride peut être une alternative intéressante au système éducatif basé sur le présentiel. Pour ce faire

le texte est organisé comme suit. La section 1 donne un aperçu sur la relation entre la pandémie et l'éducation. La section 2 présente les innovations pédagogiques auxquelles conduit l'usage des TIC. La section 3 met l'accent sur les défis qui peuvent entraver le succès de l'enseignement à distance. Et enfin la section 4 propose une carte de route pour mieux intégrer l'enseignement hybride dans la réforme pédagogique proposée par le Ministère de l'Enseignement supérieur.

1. La pandémie et l'éducation : Etat des lieux

En quelques semaines, le coronavirus (COVID-19) a altéré la façon dont les élèves et les étudiants sont éduqués dans le monde. Ces changements nous donnent une idée de la façon dont l'éducation pourrait changer-positivement ou négativement- à long terme. Depuis le début du mois de Mars, plusieurs gouvernements ont suspendu la fréquentation des écoles et des universités. Des écoles ont annoncé des fermetures partielles "localisées" ou nationales, tandis que quelques pays ont maintenu leurs établissements ouverts.

Les décisions prises par les gouvernements pour freiner les risques ont placé 1.5 milliard d'étudiants dans des situations temporaires d'enseignement à domicile. La même décision a été prise au Maroc, dans les pays Arabes de l'Afrique du Nord et du Moyen Orient. Ces changements ont sûrement causé un certain malaise, mais ils ont également donné naissance à de nouveaux exemples *d'innovation pédagogique*.

Il est peut-être prématuré de voir comment le COVID-19 affectera les systèmes éducatifs nationaux, cependant, certains signes nous laissent penser « qu'il pourrait avoir un impact durable sur la trajectoire de l'innovation d'apprentissage et de la numérisation » (UNESCO, 2020).

REMODELER LE SYSTEME EDUCATIF DANS UN TEMPS DE PANDEMIE

Youcef HDOUCH

Université Ibn Tofail. FLSH. Kentia
youcef.hdouch@uit.ac.ma

ملخص

يتمثل الغرض من هذه المقالة في استكشاف الفرص التعليمية والتحديات في زمن وباء فيروس كورونا. لقد أثر الوباء في الحياة اليومية على عدة مستويات منها الاقتصادية والصحية والاجتماعية والنفسية والتعليمية. على المستوى التعليمي كان لزاما التأقلم مع الوباء وإدخال التعديلات والتحسينات على طرق التدريس للإبقاء على نشاط التمدرس ل 1.6 مليار تلميذ وطالب (اليونسكو ، 2020). وقد أدى الوباء إلى فقدان عدة فرص للتعليم ومن المحتمل أن نسبة الهدر المدرسي قد ارتفعت.

إن الوباء العالمي الذي يُنظر إليه على أنه بجمعة سوداء - استعارة نيكولاس طالب (2010) التي تصف حدثاً نادراً لا يتوقعه الناس ولكن له عواقب وخيمة- قد خلخل أنظمة التعليم في جميع أنحاء العالم ، لذلك من الضروري طرح الأسئلة التالية: كيف نضمن استمرارية تعليم طلابنا؟ وهل التعلم عن بعد هو الحل؟ يقترح المقال إعادة تشكيل العملية التربوية من خلال اعتماد التدريس المختلط الذي يوفر التعلم المخطط الذي يحدث عادة في مكان مختلف عن قاعات الدرس ، مما يتطلب تقنيات خاصة لتصوير وإعطاء الدروس والتواصل من خلال مختلف التقنيات المختلفة وترتيبات تنظيمية وإدارية خاصة.

الكلمات المفتاحية: نظام التعليم، تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، التعليم المهجين، الجائحة، الفرص والتحديات.

Résumé

L'objectif de cet article est d'explorer les opportunités et les défis éducationnels qui accompagnent la pandémie du coronavirus. Cette pandémie a affecté la vie quotidienne à plusieurs niveaux : économique, sanitaire, social, psychologique et éducatif. Le dernier a dû faire face à des adaptations et à des améliorations pour maintenir 1.6 milliard d'élèves et étudiants en activité (UNESCO, 2020). La pandémie a conduit à des pertes d'apprentissage et probablement à l'augmentation des taux d'abandon.

Comme la pandémie mondiale est considérée comme un cygne noir- la métaphore de Nicholas Taleb (2010) qui décrit un évènement rare que les gens n'anticipent pas mais qui a des conséquences profondes-, elle a pris au dépourvu les systèmes éducatifs du monde entier. D'où l'importance de poser les questions suivantes: comment assurer la continuité de la scolarité de nos étudiants? L'apprentissage à distance en est-il la solution? L'article propose de remodeler l'opération

- Jacquinet G., (1999) « Le tutorat dans la FAD » In Nouvelles Technologies pour la formation. Cours sur internet. (EN LIGNE) <http://www.edusud.org/ressources/ntic/tut/>.
- Kerbrat-Orecchioni C., (1990)** Les Interactions verbales. Approche interactionnelle et structure des conversations, Tome 1, Paris, Armand Colin, 318 p.
- Kern, R., (1995)** « Restructuring Classroom Interaction with Network Computers: Effets on Quantity and Characteristics of Language Production », *The modern Language Journal*, vol. 79. pp 457-476.
- Marchand L., (2001)** L'apprentissage en ligne au Canada : frein ou innovation pédagogique ?, . (EN LIGNE) <https://id.erudit.org/> (consulté le 21/04/2020).
- Negretti R., (1999)** « Web-based activities and SLA: a conversation analysis research approach », *Language Learning and Technology* .
- Paquette G., (2002)** *L'ingénierie pédagogique*. Pour construire l'apprentissage en réseau, PUQ.
- Pelletieri J., (2000)** "Negotiation in Cyberspace - the Role of Chatting in the Development of Grammatical Competence". In Warschauer, M. & Kern R. (dir.). *Network-based LT: Concepts and Practice*. Cambridge : CUP.
- Soughati N., (2007)** Mise en ligne et expérimentation du cours WEST .Mémoire présenté en vue de l'obtention du Diplôme de MASTER international en E-learning MIEL. Université de Genève, Suisse
- Soughati N., et Bouarich H., (2018)** (sous/direction) Méthode de recherche et d'élaboration des travaux universitaires, Publication du laboratoire DITRANTIC (2^{ème} édition).
- Soughati N., (sous-direction) (2018)** Pratiques pédagogiques innovantes à l'ère numérique à l'université marocaine. Publication du laboratoire DILILARTICE
- Soughati N., (2013)** « compte rendu d'expérience : scénarisation, mise en ligne et évaluation du cours variation lexicale sur la plateforme de l'EAD à l'université Ibn Tofail. In L'environnement Informatique / Apprentissage des Langues. Actes du colloque international- 16-17 Novembre 2011.
- Soughati N., (2013)** » Evaluation d'un cours sur la plateforme d'EAD in site Congrès International de Claroline Connect. (En Ligne) <http://www.claroline.net/>
- Soughati N., & El Maamri O., (2018)** *L'e-formation par les pairs ou l'accompagnement des adultes par les jeunes pairs : retour d'expérience* in Actes du colloque international e-formation 2018. Pp 300-312. (EN LIGNE) <http://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01982615/document>

sentiment d'insécurité liée à une mauvaise prononciation, aux erreurs orthographiques et grammaticales qu'ils redoutent généralement en classe. Il a ainsi, pour effet, de favoriser la communication et de libérer la parole dans la mesure où les étudiants se sentent protégés par la présence virtuelle.

Nous avons également observé que les traces écrites sur le chat permettent à l'enseignant médiateur d'évaluer les connaissances encyclopédiques et linguistiques des étudiants et de réguler par la suite son action pédagogique.

Au terme de cet article, nous soulignons l'importance du clavardage dans le développement des interactions entre les étudiants et les enseignants. Enfin, pour approfondir la recherche sur ce domaine, *nous pensons que le chat pourrait être exploré* selon une approche interdisciplinaire qui permettrait d'examiner ses différents aspects : le langage électronique, les genres de discussions, la psychologie de la communication, le profil des utilisateurs et les pratiques sociales, culturelles et communicationnelles.

Bibliographie & Webographie

- Abrioux D., (1985)** « Les formules d'encadrement », in F. HENRI, Le savoir à domicile, PUQ.
- Anis J., (2000)** « L'écrit des conversations électroniques de l'internet », *Le français aujourd'hui* 129, « Ordinateurs et textes : une nouvelle culture ? », Plane, S. and Huyn, J.-A. (éd.), Paris AFEF, p. 59-69.
- Anis, J., (2003)** « Communication électronique scripturale et formes langagières : chat et SMS », Réseaux humains/Réseaux technologiques 4, S'écrire avec les outils d'aujourd'hui, Université de Poitiers, CRDP Poitou-Charentes, p. 57-70.
- Benigno V., et chifari, A., (2007)** Stratégies pour promouvoir la présence sociale dans les groupes d'apprentissage en ligne. *Revue italienne de technologie éducative* .Vol 15.
- Charlier, Deschryver et Peraya (2006)** Apprendre en présence et à distance : une définition des dispositifs hybrides. Dans *Distances et savoirs*, vol 4.
- Chun D., (1994)** 'Using Computer Networking to Facilitate the Acquisition of Interactive Competence' System.
- Deschenes et al. (2004)** Le tutorat à distance : qu'en pensent les étudiants, les tuteurs et les concepteurs? *Distances et savoirs*.
- Foucault, Metzger, Pignorel et Vaylet (2002)** Les réseaux d'entraide entre apprenants dans la e-formation : nécessité et efficacité ? (EN LIGNE) <http://www.education-permanente.fr/public/articles/> .
- Galisson, Lemarchand et Choplin (2004)** L'université et les TIC : chronique d'une innovation annoncée, consulté sur <https://books.google.co.ma/>
- Germain M., (2003)** « Messageries professionnelles », Réseaux humains/Réseaux technologiques 4, S'écrire avec les outils d'aujourd'hui, Université de Poitiers, CRDP Poitou-Charentes, p. 37-54.
- Henri, F., Lundgren-Cayrol K., (2001)** Apprentissage collaboratif à distance : Pour comprendre et concevoir les environnements d'apprentissage virtuels. Presse de l'université du Québec. Ste-Foy, QC.
- Houssay J., (1988)** *Le triangle pédagogique*. Berne : Peter Lang.

< Fatima< *il faut aborder un contrat social qui contient tous les liens sociaux dans une société ?*

< L'enseignante< *que vous inspire le titre ?*

< Fatima- Zahra< *les droits de l'homme.*

< L'enseignante< *Oui*

< Latifa< *recherche de liberté*

< Latifa< *Révolution.*

< Tayeb< *lutter contre l'inégalité.*

< L'enseignante< *Oui, voilà très bien.*

Conclusion

Dans cette recherche, nous avons pu étudier le clavardage/Tchat dans le cadre de l'enseignement à distance : cas de l'Université Ibn Tofail. Nous avons trouvé que les recherches inhérentes à ce mode de communication synchrone sont peu explorées. En ce sens, la réalisation de cette recherche grâce à et/ou à cause de la crise du coronavirus, présente une importance, tant pour l'exploitation de ses résultats pour favoriser l'apprentissage autonome des étudiants que pour l'adoption de ses conclusions par les enseignants. A l'ère du numérique et en réponse aux exigences sociétales et « pandémiques » qui peuvent intervenir et entraver l'acte pédagogique en présentiel ; l'acte d'enseignement doit revoir ses méthodes d'apprentissage et de repenser sa relation pédagogique avec les étudiants ou les apprenants en général. En nous appuyant sur l'analyse des contenus des sessions de clavardage, nous avons constaté qu'il peut constituer un support d'apprentissage multidimensionnel ; autant il a facilité la communication et les échanges entre les étudiants et leur enseignante. Il a permis aussi à tous les étudiants de communiquer avec facilité. Les séances de cours sont devenues un lieu d'apprentissage tellement attractif que les protagonistes ont dépassé le créneau horaire planifié par l'institution. Nous considérons, donc, qu'il est temps de poursuivre la recherche sur ce mode de bavardage fructueux car en présentiel, les étudiants ont du mal à s'exprimer, à interagir et à développer leur compétence écrite. L'intérêt aussi de telles séances de clavardage est le fait qu'étant enregistrées, elles peuvent être visionnées autant de fois par l'étudiant. Cela, leur permet de revoir et de comprendre mieux les notions abordées et expliquées ce qu'un cours en classe ne permet pas souvent. L'étudiant est dans l'obligation de suivre le cours avec une grande vigilance nonobstant : la situation en classe, sa situation physique, sa situation mentale, etc. Bref, étant donné le quotient intellectuel qui diffère d'un étudiant à un autre, le cours en présentiel est loin de faciliter l'apprentissage et le développement des compétences diverses indispensables au 21 siècle.

Les sessions de clavardage ont montré également que les étudiants sont plus participatifs et capables d'échanger avec facilité leurs idées. Ils ont vaincu le

09 :12 < **L'enseignante**< et puis, il a été placé en apprentissage chez un maître graveur.

L'extrait ci-dessus démontre la supériorité des interventions de l'enseignante par rapport à ses étudiants. Cette prédominance a une valeur didactique du fait qu'elle entraîne tout le groupe dans une situation de découverte pour la co-construction d'une nouvelle information. Les résultats obtenus démontrent que le choix des thèmes et des supports didactiques sont convenables à la construction des compétences disciplinaires orales et écrites. Cela a été possible par le recours des étudiants, lors du débat autour du thème, aux multiples documents et dictionnaires en ligne pour pouvoir effectuer leurs recherches au fur et à mesure des discussions.

L'extrait suivant illustre nos propos :

< *L'enseignante* < : *Oui, vous voulez nous chercher d'autres synonymes sur le web.*

< *Mahdi* < *je viens de trouver que l'immanence désigne en philosophie le caractère de ce qui a son principe en soi-même, par opposition à la transcendance qui indique une cause extérieure et supérieure.*

Formules de politesse et de salutations :

L'usage des formules de salutations, de politesses et de clôtures de la discussion est l'une des conditions principales pour la réussite de la communication. Dans notre corpus, ces formules sont utilisées de manière appropriée pour lancer et clore les conversations :

Séance 1 :

< *L'enseignante* < *Chers étudiants, j'espère que vous allez bien.*

< *Lamia* < *Bonjour Madame, merci.*

< *Imane* < *Bonjour Madame.*

Séance 3 :

< *Fadoua* < *Bonjour.*

< *Hicham* < *Bonjour Mme, bonjour chers collègues.*

< *L'enseignante* < *bonjour.*

Pour clore les clavardages, nous soulignons le recours de l'enseignante à rappeler les tâches à réaliser :

< *l'enseignante* < *je vous ai laissé un lien sur le forum.*

< *L'enseignante* < *je vous invite à lire le texte*

Demande d'informations :

Les questions de demande d'informations et de clarifications sont un signe fort d'interactivité et d'échange fructueux entre les étudiants avec leurs pairs et avec l'enseignante. Toutefois, le caractère synchrone du clavardage laisse voir des modalités d'écriture réduite ; en voici quelques exemples :

Cette analyse nous a permis aussi d'observer l'approche interactionnelle de l'enseignante dans sa méthode d'enseigner le module HIA en ligne ; d'une part au niveau de sa capacité à gérer sa prise de parole pour ne pas dominer la communication et d'autre part au niveau de l'engagement des étudiants à communiquer leurs idées et leurs connaissances par le procédé de l'écriture. Nous nous sommes appuyés sur les travaux de l'approche interactionniste, tout en se référant aux recherches de (KERN, 1995) qui l'ont conduit à penser que les conversations sur le chat génèrent plus d'échanges entre étudiants qu'en classe, une plus grande quantité et une meilleure qualité de discours, mais aux dépens de la complexité des phrases et de la correction grammaticale car l'accent est mis davantage sur ce qui est dit que sur la manière dont cela est dit en d'autre termes, la thématique l'emporte sur la rhématique .

Le choix des thèmes :

Tableau 2 : Thèmes des sessions de clavardage

	Séance 1 Lundi 23 mars 2020	Séance2 Lundi 30 mars 2020	Séance 3 Lundi6 avril2020	Séance 4 Lundi 13 avril 2020	Séance 5 Lundi 20 avril 2020
Thème	Les philosophes et la religion	La politique au siècle des Lumières à travers (Montesquieu)	Le contrat social de jean jacques Rousseau	Denis Diderot et son encyclopédie	Les femmes au XVIII siècle : Figure emblématique de Germaine de Stael.
Supports /activités	Vidéo - recherche sur web	Site web Doc PDF	Vidéo – Fichiers PDF	Dictionnaire en ligne-	Vidéo - recherche sur web

Le choix thématique joue un rôle fondamental dans le cadre de la relation sociale et cognitive entre l'enseignante et ses étudiants ; nous avons constaté que dans l'ensemble des sessions de clavardage, l'enseignante apparaît significativement dominante comme l'initiatrice d'un nouveau thème. Cette domination semble être due à son intention d'entraîner les apprenants à l'interaction car ses propositions thématiques croisent les moments de silence des apprenants.

Extrait exemplaire tiré de la séance 3 des sessions de clavardage :

09 : 09 <**L'enseignante**> : Durant toute sa vie, Rousseau sera obsédé par la notion de liberté.

09 : 09 <**L'enseignante**> : Pourquoi ?

09 :10 < **L'enseignante** < Rappelez-vous que Montesquieu était un homme riche

09 :11 < **L'enseignante**> Rousseau par contre est pauvre.

09 : 11 < **L'enseignante** < il est orphelin puisqu'il a perdu sa mère très tôt.

Tableau 1 : Durée des discussions synchrones via le clavardage

Clavardage	Séance 1 Lundi 23 mars 2020	Séance2 Lundi 30 mars 2020	Séance 3 Lundi 6 avril 2020	Séance 4 Lundi 13 avril 2020	Séance 5 Lundi 20 avril 2020
Durée de ...à	13h15 à 17 h 33	8h 59 à 12h34	8h56 à 12h37	9h 10 à 12h37	8h27 à 12h52
Temps consacré	4 heures	3h 35mn	3 h 41mn	3 h 27mn	4h25mn

Les résultats obtenus permettront d'observer que le temps réservé à chaque séance des cinq sessions du clavardage pour l'enseignement à distance du module (histoire des idées au siècle des Lumières) est beaucoup plus important que celui programmé en cours présentiel. Le cours est censé se dérouler, sur un laps de temps de 2H, programmé par le service de programmation des cours du décanat. Nous soulevons ici l'intérêt des séances de clavardage en synchrone avec l'enseignant. Cela permet une certaine distanciation qui permet à l'étudiant d'être réactif et poser toutes les questions relatives au cours. Les étudiants et l'enseignant sont tellement obnubilés par les explications qu'ils sont amenés à dépasser le temps qui y est consacré. Ceci peut être interprété par l'intérêt accordé à ce type d'échange qui permet d'inverser les rôles des protagonistes de l'institution éducative.

Les étudiants reçoivent des cours, sous forme de ressources en ligne (des vidéos- des fichiers PDF), qu'ils vont pouvoir regarder et lire chez eux et par la suite échanger et interagir avec leurs pairs et leur enseignante pour pouvoir valider leurs hypothèses. Selon (KERBRAT-ORECCHIONI, 1990) « les inter-actants exercent les uns sur les autres un réseau d'influences mutuelles -parler, c'est échanger, et c'est changer en échangeant.» Dans ce type d'échange, beaucoup de variantes sont possibles, mais la finalité est de passer d'un modèle centré sur le professeur à un modèle centré sur l'élève afin de répondre aux besoins individuels de chacun. Encore faut-il ajouter que l'implication et la motivation des étudiants lors des différentes sessions est due à la façon dont l'enseignante gère son cours ; des extraits de ces sessions reflètent la satisfaction de la majorité des participants. En voici quelques exemples : < Merci beaucoup Madame pour vos retours< Merci pour votre générosité< la séance était vraiment intéressante <maintenant je comprends, merci bcp prof pour vos efforts < <.

En effet, Dans les espaces virtuels comme le clavardage où la présence physique n'existe pas, la relation sociale et cognitive se crée par l'écrit, principalement par la diffusion ou la formulation des questions, les demandes de clarification, les connaissances partagées, la durée des discussions et le choix des thèmes.

16 : 36 < l'enseignante < : et des textes à lire.

Séance 3 : Groupes visibles: Tous les participants

Lundi 30 mars 2020, 08:59 --> lundi 30 mars 2020, 12:34

09 : 15 < L'enseignante< *Aujourd'hui, on aborde la question de la politique au siècle des Lumières à travers la figure de Charles de Montesquieu.*

9 : 16< L'enseignante< *Avez- vous lu le cours que j'ai posté le lundi 23mars ?*

9 :17< Taleb< *Oui*

9 : 17< Rajaa < : *L'esprit des Lois ?*

9 :17< Khadija< *Bien sûr.*

9 :17< l'enseignante < *La politique dans l'Esprit des lois de Montesquieu.*

9 :17< Abdelkader< *Oui.*

S'agissant des modalités d'évaluation, elles n'ont été évoquées que plus tard au cours de la troisième séance du clavardage suite à une question d'une étudiante :

12 : 08 < Soumaya< *Une question est ce qu'on peut avoir une idée sur les questions qui seront le jour de l'examen.*

12 :08 < l'enseignante < *je vous ai mis le cours sur la plateforme.*

12 :08 < Ikram < *D'accord.*

12 :10 < L'enseignante< *si vous êtes à jour avec vos révisions et si vous faites les exercices que je mets en ligne, vous n'aurez pas de problème le jour de l'examen.*

A ce travail important de la médiation de l'enseignante, s'ajoute le rôle du clavardage en tant qu'outil médiatique qui a permis de libérer certains étudiants, d'habitude non communicatifs en classe de crainte de paraître ridicules devant leurs pairs. Nous avons constaté, lors de l'analyse des différentes sessions du clavardage, des étudiants plus participatifs et capables d'échanger avec facilité leurs idées. Aussi, ils ont pu discuter et échanger autour des questions relatives à la séance et par voie de conséquence comprendre le contenu du cours.

5.1. Clavardage, lieu social d'interactivité et d'apprentissage

A partir de l'analyse des séances du clavardage étudiées, il est possible d'examiner en quoi le clavardage peut être considéré comme un support favorisant le travail coopératif. Il s'agit de voir si l'enseignement à distance synchrone via le clavardage favorise les interactions et la coopération entre les étudiants et avec l'enseignant (SOUGHATI & ELMAAMRI 2018).

Les données à disposition permettent d'établir, dans les différentes séances, la durée de l'échange, le nombre de messages réalisées par chacun défini par une entrée, la quantité des informations échangées. Cela nous permettra de voir les statuts à la fois des étudiants et de l'enseignante tutrice. Le tableau suivant donne une indication de la durée des cinq séances de clavardage :

15 : 08< L'enseignante< Oui, alors justement on va voir **ensemble** une vidéo parle du déisme au siècle des Lumières.

A cela s'ajoute, un travail d'ingénierie pédagogique qui doit être prévu et planifié à l'avance. Lors de cette phase, l'enseignante analyse le contexte pédagogique dans lequel elle va intervenir, elle conçoit les tâches à réaliser et les ressources adéquates aux conditions de formation. Ainsi, elle a mis en place les supports didactiques convenables conçus en fonction des activités planifiées et des compétences visées. Enfin, tout en communiquant avec ses étudiants, elle a essayé de les guider vers l'objectif principal du cours. C'est ce qui apparaît à travers l'échange suivant avec les étudiants, toujours au niveau de la première séance.

Séance 1 :

13 :42< L'enseignante < : Avez-vous lu le cours que j'ai posté le lundi 16 mars portant sur les croyances religieuses ?

13 :44 < L'enseignante< : Vous allez le trouver dans la section 'Forum'

13 :45 < Lamia< : Oui, Madame les philosophes et la religion.

14 :05 < L'enseignante< : Bien je vais vous demander de lire l'extrait du livre IV de Rousseau que je vous ai mis en guise d'exercices d'application.

14 :23 < L'enseignante< : Bien, je vous invite maintenant à regarder cette vidéo sur le panthéisme : <https://youtu.be/tPEEGMtmK9Q>

L'intérêt de recourir aux activités d'apprentissage, dispensées par la plateforme, ont permis à l'enseignante d'intégrer une ressource vidéo d'une pièce théâtrale postée sur le forum. Cela a permis aux étudiants de voir la pièce théâtrale et s'en imprégner, ce qui a facilité la compréhension du cours par opposition au cours présentiel.

Ainsi, l'enseignante réalise les actions suivantes :

- Présentation des contenus ;
- gestion d'une discussion ;
- accompagnement des étudiants dans la réalisation d'une activité ;
- soutien à leur engagement.

Son rôle de médiateur l'a poussée donc à tout planifier et à concevoir et à prévoir toutes les activités que réalisera l'étudiant pour développer ses compétences et atteindre les objectifs du cours. Toujours dans le même ordre d'idées, nous évoquerons quelques exemples des autres séances concernant l'explicitation des tâches à réaliser et les interactions des étudiants :

Séance 2 : Groupes visibles : Tous les participants

Lundi 23 mars 2020, 16:25 --> lundi 23 mars 2020, 17:16

16 : 33< Soumia < : Est-ce qu'il y a d'autre supports sur lesquels on peut travailler

16 : 33< houda < : vient d'entrer

16 : 35<L'enseignante < Il y aura des exercices sur la plateforme sur la semaine.

qu'elle s'engage à leur présenter et ce qu'ils doivent réaliser pour construire leur savoir.

En voici des extraits de cette session ¹:

Séance 1 du clavardage : Groupes visibles: Tous les participants lundi 23 mars 202

13:37 <L'enseignante²<: *Compte tenu des circonstances actuelles, nous nous trouvons dans l'obligation de poursuivre nos cours via internet. Chaque lundi, je vous poste un nouveau cours au format PDF que nous discuterons le lundi d'après. Vous aurez aussi quelques exercices à faire durant la semaine.*

13:38: <FATIMA< : *Merci professeur*

13:38 <MALAK<: *Merci beaucoup madame*

13:38: <NOURA< : *d'accord Madame*

13:40 <FATIMA<:

Bonjour tout lt

13:40 L'enseignante: *Durant ce clavardage, vous pouvez me poser des questions sur le cours des lundis précédents.*

Nous observons que l'enseignante marque sa présence virtuelle, elle communique les objectifs du cours à distance et fait savoir que d'autres supports seront à la disposition des étudiants. Plus tard, dans la même session, elle rappelle le but de ces échanges synchrones :

14 : 36 <L'enseignante <: *je rappelle à ceux qui viennent d'entrer que nous révisons le cours du lundi 16.*

14 :36 <Soumia <: *Merci Madame.*

Cette présence ou médiation est fondamentale dans la relation pédagogique (HOUSSAYE, 2000), elle vient compléter les autres présences : sociale et cognitive. En effet, dans le clavardage comme dans tous les dispositifs hybrides, l'étudiant ne gère pas convenablement cette distanciation, il peut ressentir des frustrations et, en conséquence, une perte de motivation s'installe. D'ailleurs, le sentiment d'isolement représente, encore aujourd'hui, un des facteurs majeurs d'abandon en formation à distance (FOUCAULT, METZGER, PIGNOREL et VAYLET 2002). L'enseignant doit être conscient de ses aspects, il doit non seulement marquer sa présence, mais il doit également soutenir la présence des étudiants ; c'est le cas de l'enseignante qui a eu recours plusieurs fois à des structures langagières qui implique tous les participants comme « nous- ensemble-... ». En voici un exemple extrait de la première séance :

14 :48 < L'enseignante < : *Oui Hayat, tu veux nous chercher d'autre synonymes sur le web*

¹ Extrait du cours Histoire des idées au siècle des lumières : Pr Hanane RAOUI session printemps 2020, in <http://ead-fl.uit.ac.ma/course/index.php?categoryid=64>

² Pour les besoins de confidentialité nous avons opté pour l' anonymisation des participants suivante : enseignante au lieu du NOM de l'enseignante et prénom des étudiant(e)s au lieu des NOMS

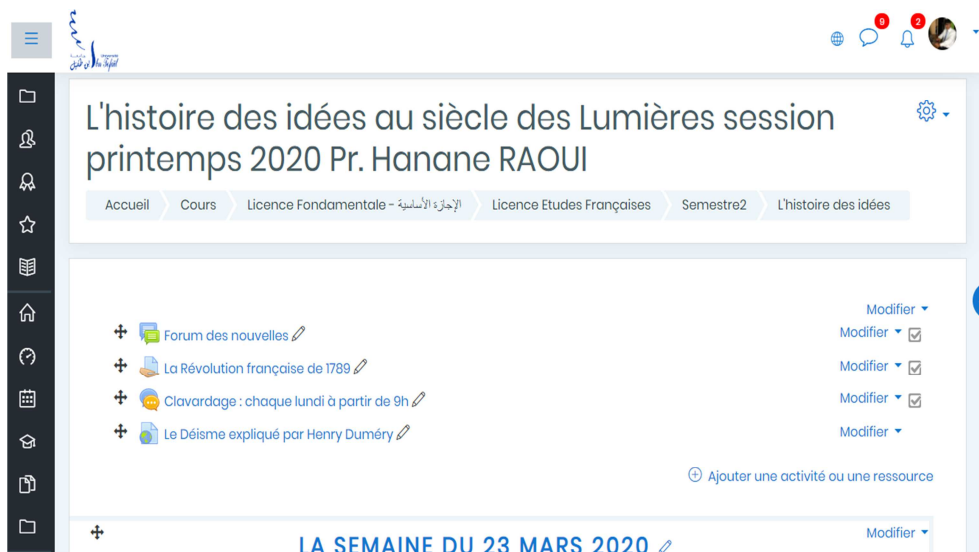


Figure n°2 : L'interface du module et ses activités

5.1. Analyse des sessions du clavardage et discussion des résultats

Les sessions de clavardage, analysées dans cette étude, sont réalisées dans un cadre institutionnalisé – universitaire – en réponse aux besoins de l'enseignement à distance d'un cours littéraire à visé didactique. Sachant que la réussite d'une formation à distance est assurée par la médiatisation de l'enseignant dans le maintien du contact entre les participants éloignés dans l'espace, dans la conception de scénarios pédagogiques et leur mise en œuvre, ainsi que dans le choix des supports (séquences vidéos, images, liens hypertextes...). Dans cette perspective, (CHARLIER et al, 2006) considèrent que la médiatisation de l'enseignant est fondamentale dans l'acte d'apprendre « C'est un processus dans lequel le choix des médias les plus adaptés ainsi que la scénarisation occupent une place importante ».

5.2. Le clavardage, un dispositif de communication et de formation médiatisée.

Le passage d'un dispositif présentiel (la classe, par exemple) à un dispositif hybride ou à distance, rend la gestion de l'acte pédagogique difficile ; pour (BENIGRO et CHIFARI, 2007) « l'enseignant peine à récolter des informations ponctuelles sur la motivation et la participation de chaque apprenant ».

Pourtant, lors de l'analyse des contenus des sessions du clavardage objet de notre étude, nous soulignons le rôle vital de l'enseignante dans l'enchaînement des discussions. Dès le premier contact virtuel qui s'est tenu le lundi 23 mars 2020, de 13:15 à 16:13, elle négocie avec ses étudiants les modalités d'atteintes des objectifs d'apprentissages. Le but alors est de leur rappeler le contrat pédagogique : ce

Des recherches publiées récemment en matière d'acquisition des langues et en Communication assistée par Ordinateur, témoignent des similitudes entre les interactions textuelles des étudiants sur le clavardage et celles en présentiel. Elles ont montré que ces séances peuvent aussi favoriser l'amélioration de leurs compétences d'écriture et de production orale. Dans ce cadre, l'étude de (CHUN, 1994) a montré que les discussions en classe assistées par ordinateur semblaient faciliter l'acquisition de la compétence d'interaction dans la mesure où les étudiants tentaient de développer de nombreuses formes de prise de parole. Elle souligne, ainsi, le rôle central des étudiants dans l'acquisition des langues car, en contribuant aux discussions, ils construisent leurs compétences langagières et écrites. Dans le même sillage (NEGRETTI, 1999) ajoute qu'il y a des différences entre les interactions sur le chat et la conversation en présentiel. Par le biais d'une analyse de discours, elle décrit des structures et des modèles particuliers à l'interlangue en usage sur le chat. Bien que le degré de compétence à l'oral ne soit pas son objectif, elle affirme néanmoins avoir observé des progrès à l'oral chez les participants après deux mois d'activités sur le chat. S'agissant toujours des études sur l'acquisition des compétences de langue, nous retenons celle de (PELLETTIERI, 2000) qui en se basant sur un modèle, établi par (VARONIS et GASS 1985), à l'usage des apprenants en langue seconde, traite la question de la compétence grammaticale à travers une étude du chat comme outil de négociation du sens. Elle conclut que le feedback implicite et le feedback explicite, sur le chat, conduisent à un bon usage des expressions de la langue-cible. Le chat se révèle, donc, être un bon outil de négociation du sens à la condition de privilégier les tâches qui favorisent l'apprentissage collaboratif et qui reposent sur un usage correct de la langue-cible.

5. Expérimentation du clavardage dans un module de littérature française

En ce qui concerne notre étude, elle est de type qualitatif, elle décrit et interprète les résultats des séances de clavardage que nous lui avons planifiées sur moodle; ces sessions font partie des quatre composantes du cours « Histoire des Idées au Siècle des Lumières ». La figure 2 illustre l'interface de ce module sur la plateforme de la FLSH :

Les cinq séances de clavardage enregistrées, objet de notre analyse, se divisent en deux catégories, d'une part, des débats thématiques se rapportant au thème « la philosophie au siècle des Lumières » et d'autre part, des sessions d'encadrement des travaux. Les débats ont été précédés par la publication sur le *forum des nouvelles* de l'ordre du jour de la séance de cours et de la diffusion de références documentaires en lien avec les sujets abordés. Les étudiants étaient ainsi encouragés à contribuer à la fois à l'élaboration du cours et à réagir aux contributions des autres intervenants. L'objectif majeur du clavardage a été souligné par l'enseignante dès la première séance. *Dans ce cadre*, L'émergence d'une communauté et d'un sentiment d'appartenance au groupe, consolidé par le trombinoscope, a amplement encouragé l'adhésion et la participation active des étudiants.

- espace : devoirs, QCM;
- espace de clavardage.

Afin d'assurer le suivi pédagogique de tous les étudiants du DLLF, nous avons privilégié l'espace clavardage, objet de cet article, qui permet la communication en synchrone avec l'enseignant. Ainsi, nous avons créé un espace clavardage chaque semaine, correspondant au créneau horaire du cours habituel affiché par le service de programmation de la faculté avant la période de la pandémie. Cette programmation et structuration des cours a été communiquée aux étudiants par le biais du site web officiel de la FLSH.

3. Le clavardage / Tchat via moodle

Les termes clavardage, bavardage-clavier et cyber bavardage ont été proposés par l'Office québécois de la langue française en octobre 1997 pour désigner le concept « Clavardage » ; c'est un mot qui dérive des mots Clavier et bavardage. Dans Le dictionnaire de langue française Larousse, il a pour synonyme le mot « Tchat » qui provient du verbe anglais «To chat» signifiant «bavarder». Il se veut également l'acronyme de "Conversationnal Hypertext Access Technology".

En France, depuis 2006, le terme « dialogue en ligne » est recommandé officiellement par la Commission d'enrichissement de la langue française. Il désigne « *l'activité par laquelle un internaute tient une conversation écrite, interactive et en temps réel avec d'autres internautes par clavier interposé*¹. » Il permet à un utilisateur de communiquer, en temps réel, avec une ou plusieurs autres personnes branchées en même temps sur le même canal. La communication est basée sur la publication de textes écrits à partir des claviers des ordinateurs, tablettes ou Smartphones des participants. Les interfaces des nombreuses solutions de clavardage, comportent habituellement la liste des personnes connectées, avec la photo de chaque étudiant et un espace de saisie du texte où les messages apparaissent dans un ordre progressif.

D'après une étude récente, effectuée auprès de 158 élèves québécois âgés entre 12 et 16 ans, 85 % des élèves du premier cycle du secondaire ont recours au clavardage pour communiquer entre eux. Ce mode de discussion, largement utilisé par les jeunes, est malheureusement peu exploité dans l'enseignement /apprentissage des langues.

Nous pensons qu'il peut être un choix pédagogique pertinent et instructif qui facilitera les interactions par ses aspects de rapidité et d'instantanéité et qui répondra à un besoin sociétal urgent de garantir l'enseignement à distance en l'absence des cours présentiels.

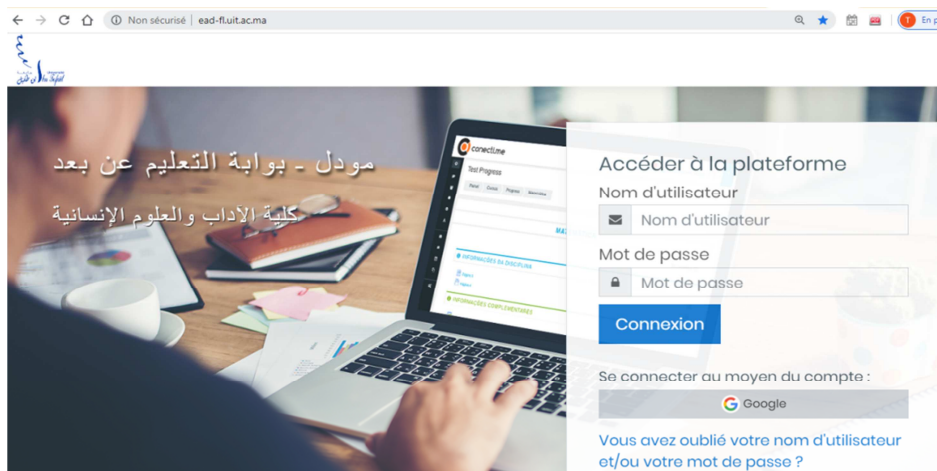
4. Élément du cadre conceptuel

Clavardage, média favorisant l'apprentissage

¹ http://gdt.oqlf.gouv.qc.ca/ficheOqlf.aspx?Id_Fiche=8392463, (consulté le 26/04/2020).

n'exige pas de logiciels prérequis. Elle est modulable et elle propose de nombreuses fonctionnalités facilitant l'apprentissage (SOUGHATI, 2013).

Elle est utilisée par les différents établissements de l'université et elle héberge plus de 170 cours et plus de 66000 comptes d'étudiants de l'université toutes filières confondues. En tant qu'outil communautaire multidimensionnel dirigé, Moodle propose des espaces d'activités d'apprentissages développant des compétences diverses d'obédience socioconstructiviste. Pour se connecter, il suffit d'utiliser son compte institutionnel et d'accéder aux cours en ligne et aux différentes ressources présentées. Nous avons œuvré, depuis l'installation de ladite plateforme, à l'accompagnement des enseignants de la FLSH pour la scénarisation et la mise en ligne de leurs cours. Une dizaine d'enseignants donc, assurent de manière hybride des cours sur la plateforme. Sauf qu'avec la crise de la pandémie du coronavirus, nous avons généralisé cet enseignement à distance au profit de tous les enseignants du DLLF. Ainsi, nous avons créé un espace de cours pour chaque enseignant aussi bien au niveau de la fondamentale¹ (semestre 2, semestre 4, semestre 6) qu'au niveau du master (semestre 2 et semestre 4). Les étudiants ont la possibilité d'intégrer tous les espaces de cours, accessibles et sans clés d'utilisation, par le biais de leur compte institutionnel. Nous avons privilégié, durant cette période de la pandémie, les activités développant le plus de compétences. Ainsi, nous avons créé les activités suivantes dans tous les espaces de cours créés pour les enseignants :



<http://ead-fl.uit.ac.ma/login/index.php>

Figure n°1 : page d'accueil de la plateforme de la FSH

- espace de dépôt de cours sous différents formats : PDF, ppt, document audio, capsules vidéo...
- forum conceptuel;
- forum de nouvelles;

¹ Nous avons créé les cours selon la norme suivante : Intitulé du module, NOM de l'enseignant, le créneau horaire du cours en synchrone.

regroupé 235 étudiants et s'est déroulée sur une période de 3 mois durant le second semestre de l'année universitaire 2019-2020. Elle vient combler et répondre aux exigences du ministère de tutelle de mettre, à disposition des étudiants en confinement, des cours à distance durant la période de crise relative à la pandémie du coronavirus. Le Module concerné est intitulé **Histoire des Idées et des Arts**¹ et il a débuté le 23 mars 2020, date de début de tous les cours à distance au DLLF (période coronavirus). Rappelons, dans ce contexte, que tous les étudiants inscrits au second semestre ont déjà été initiés aux outils de l'enseignement à distance et principalement aux fonctionnalités de la plateforme en ayant suivi des cours lors du premier semestre. Ainsi, il est question d'interroger ce cours HIA, afin d'expérimenter le clavardage dans un contexte d'apprentissage littéraire. Aussi, notre choix émane d'une volonté de conjuguer deux domaines de recherches qui s'imposent à l'ère du numérique; les TICE et la didactique de la littérature et surtout explorer un outil de communication pratiqué par les jeunes dans leur vie quotidienne mais qui reste malheureusement peu exploité et inexploré par la sphère universitaire. Il est question d'interroger ce mode de communication et comment il favorise les compétences orales et écrites des étudiants et leur permet de réagir dans une situation de présence virtuelle. C'est l'occasion, de voir aussi comment cette activité peut pallier la non présence aussi bien des étudiants que de l'enseignant en salle de cours habituel. Ajoutons à cela l'intérêt pédagogique que représente l'activité clavardage pour les étudiants quant au développement de leur réactivité voire du développement de leur autonomie.

2. Dispositif du projet

Plate-forme (Moodle) :

L'université Ibn Tofail met à la disposition des enseignants et des étudiants la plate-forme d'enseignement à distance, MOODLE. Elle est le résultat de la création du Centre des Ressources Universitaires (CRU) au sein de notre université (UIT) en 2005. Cela a permis, d'une part la mise en place des formations destinées aux enseignants : formation TRANSFERT, Formation COSELEARN², Formation UTICEF, etc. D'autre part, l'installation des équipements informatiques dans les différentes institutions rattachées à l'université. Les premiers cours mis en ligne datent de l'année universitaire 2006-2007³ sur Moodle version 1.5. Le choix de Moodle n'est pas arbitraire, c'est une plateforme open sources dont l'installation

¹ Le module Histoire des Idées et des Arts est programmé durant le semestre 2. Il est assuré par la professeure Hanane RAOUI enseignante au DLLF au sein de la faculté des Lettres et des Sciences Humaines

² Nous avons obtenu un master en E-learning dans le cadre de ce projet . Titre du PFE : SOUGHATI N (2007) Mise en ligne et expérimentation du cours WEST. Mémoire présenté en vue de l'obtention du Diplôme de MASTER international en E-learning MIEL. Université de Genève Suisse.

³ Les premiers cours créés sur la plateforme sont :cours « variation lexicale » du Pr.SOUGHATI Najemeddin de la faculté des lettres et sciences humaines et cours du Pr. OUMAIRA Ilham « informatique de gestion » à l'INSA.

contact apprenants et formateurs qui peuvent communiquer selon leur disponibilité soit de façon asynchrone (en temps différé) grâce au courriel, aux forums de discussion, aux babillards électroniques ou encore de façon synchrone (en temps réel) en utilisant la visioconférence, les bavardoirs ou clavardages (chats) ».

Dans ce cadre, l'Université Ibn Tofail, disposant depuis 2007 d'un environnement numérique de travail proposé en réponse aux demandes sociales plus grandes pour le perfectionnement et la formation continue ainsi qu'aux exigences du marché du travail. Elle s'est adaptée à cette situation et proposait déjà des cours en ligne à travers la plateforme Moodle (Modular Object-Oriented Dynamic Learning Environment) disposant de diverses activités d'apprentissage comme le courrier électronique, les tchats, les forums de discussion, les visioconférences....

Dans cet article, nous accorderons une réflexion plus particulière au Clavardage en tant que mode de communication et de discussion écrite à distance en mode synchrone dans un module de Littérature Française. Le clavardage étant utilisé à des fins d'encadrement collectif pour l'acquisition des notions du cours, une attention plus particulière sera accordée à l'évolution du contenu, à sa pertinence pour les étudiants au niveau du développement de leurs compétences écrites et orales lors des échanges entre les étudiants eux-mêmes et entre les étudiants et les enseignants. Le choix du clavardage se justifie par : **(i)** l'objet même du cours axé sur l'acquisition et la construction de connaissances à distance via la plateforme Moodle. **(ii)** le caractère collectif des échanges, à travers lequel chaque étudiant peut découvrir des réponses à ses questionnements et incertitudes développant ainsi ses compétences dans le module étudié. **(iii)** le fait qu'il est le moyen propice qui rassemble l'enseignant avec ses étudiants, durant une période temporelle correspondant au créneau horaire du cours habituel en classe. Ce sont autant d'hypothèses que nous allons vérifier, à travers l'étude d'un module dispensé entièrement à distance. Ainsi, en nous appuyant sur les travaux de recherches se rapportant à l'analyse du discours et sur les études publiées sur le Clavardage/TChat qui ont conclu que les séances de chat pouvaient également aider les apprenants à améliorer leurs compétences dans certains aspects. Nous allons voir quels sont les enjeux éducatifs de ce mode de communication en tant que support d'apprentissage collaboratif. Le but est de permettre aux responsables pédagogiques et aux enseignants de langue, d'envisager, dans le futur, l'intégration des tâches basées sur le clavardage dans les modules voire les formations d'acquisition des langues.

1. Contexte du projet

Cet article aborde les usages du Tchat / le clavardage en tant que support à l'apprentissage dans une formation à distance (FAD) à l'université Ibn Tofail de Kénitra (dorénavant UIT). Il se veut surtout une analyse des corpus de sessions de chat lors d'un cours destiné à des étudiants du Département de Langue et de Littérature Françaises (DLLF) de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines (FLSH) pour l'obtention de la Licence en Etudes Françaises. Cette formation a

enseignants. En faisant appel aux travaux de recherche inhérents au courant interactionniste, principalement les théories d'analyse du discours, nous avons mis l'accent sur les activités que la plateforme offre et en particulier le clavardage.

Sur la base des observations et de l'analyse des corpus des sessions enregistrées, il s'est avéré que ce type d'échange développe et encourage l'implication des étudiants et la prise de parole des plus réservés en présentiel. Il est aussi à l'origine de l'amélioration de leurs compétences disciplinaires au cours et des interactions avec les enseignants.

Mots-clés : DLLF, Clavardage/Tchat, enseignement à distance, Interactions, Compétence. Socioconstructivisme, Synchronisme.

Introduction

Au printemps 2020, la crise sanitaire liée à la propagation du covid19 a paralysé tous les secteurs de la vie à travers la planète. Le Maroc, également touché par cette pandémie a été contraint de fermer toutes ses institutions scolaires et universitaires, toutefois les responsables institutionnels convaincus que l'enseignement et l'apprentissage ne devrait pas être interrompus et qu'ils peuvent se poursuivre par le biais des programmes utilisant des approches innovantes. Dans cette perspective, une liste des plateformes et des programmes d'apprentissage en ligne ont été sollicités. Le but est d'assurer non seulement la continuité pédagogique des étudiants mais de les mettre au centre de leur apprentissage, de favoriser leur autonomie et surtout de les aider à développer leurs connaissances et compétences orales et écrites. L'enseignant est ainsi appelé à s'adapter à ce changement de paradigme d'apprentissage, en proposant des activités et des ressources pédagogiques adéquates à chaque type de cours et de formation. Encore faut-il préciser que la réalisation de ce type d'activités implique la maîtrise d'habiletés technologiques de base : *utilisation de l'ordinateur, gestion des fichiers informatiques, utilisation du traitement de texte, du courrier électronique et de différentes formes de communication.* Pour l'enseignant, il s'agit de changer de rôle, de devenir un organisateur de situations – d'opportunités d'apprendre – plus qu'un transmetteur de connaissances. Autrement dit, posséder les compétences nouvelles repérées par (GALISSON, LEMARCHAND et CHOPLIN, 2004) et qui consistent à « collaborer tout au long de la vie d'un module, réguler l'apprentissage de l'apprenant et du groupe et enfin penser-agir dispositif, l'idée de dispositif incluant « la prise en charge du contexte de la formation ouverte et à distance. »

Pour (DESCHENES et al. 2004) « *L'encadrement constitue une dimension qui apparaît fondamentale dans l'apprentissage à distance, en particulier dans les formules n'utilisant pas l'enseignement direct (par audio ou vidéoconférence). Il peut permettre, en effet, de mieux prendre en compte les dimensions motivationnelles, sociales et affectives de l'apprentissage en offrant, par exemple, des interactions avec les pairs, la personne qui encadre ou les ressources d'un programme.* » Pour sa part (MARCHAND, 2001) avance qu'il existe un grand avantage à « *utiliser de nouveaux moyens de communication pour mettre en*

L'ENSEIGNEMENT A DISTANCE AU DEPARTEMENT DE LANGUE ET DE LITTERATURE FRANCAISES

Le clavardage, un outil d'apprentissage synchrone médiatisé et multidimensionnel

Najemeddin SOUGHATI & Rabha KISSANI

Université Ibn Tofail. FLSH. Kénitra, Maroc

ملخص

أجبرت الظروف الاستثنائية التي يمر بها العالم والمتمثلة في الجائحة التي تسبب فيها انتشار فيروس (كوفيد-19) مختلف الجامعات المغربية ومنها على الخصوص جامعة ابن طفيل على تعميم نمط التعليم عن بُعد. بالرغم من أن هذا النمط من التعليم ليس جديدا عن جامعتنا حيث تم العمل به منذ تبنيه سنة 2007 وإن كان محدودية، إلا أن قرار تعميمه لكي يصبح النمط الوحيد المعتمد من طرف الجامعة يعتبر سابقة بحيث أصبح التعليم الحضوري شبه منعدم وفقاً لسيناريو "COMPETICE". في هذا السياق الجديد، لجأت شعبة الدراسات الفرنسية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة إلى نشر جميع دروس الأسدس الثاني والرابع والسادس وكذلك دورات الماستر على منصة الجامعة.

يهدف هذا المقال إلى تحليل هاته التجربة، التي مكنت من الانتقال إلى التعليم عن بعد كخيار وحيد خلال حالة الطوارئ و"تعميمه بشكل إجباري" على جميع الطلاب والأساتذة. من خلال استثمار الدراسات المرتبطة بالتأثير الفكري التفاعلي، ولا سيما نظريات تحليل الخطاب قمنا بالتركيز على الخدمات التي تقدمها المنصة وبشكل خاص على الرسائل الفورية.

اعتمادا على ملاحظات وتحليل محتوى مجموع الدورات الدراسية المنجزة والمسجلة، اتضح أن هذا النوع من التواصل يطور ويشجع الطالب على الانخراط والتعبير بحرية خصوصا بالنسبة للطلبة الأكثر تحفظا خلال التدريس الحضوري. كما أن المراسلة الفورية تساهم في تحسين الكفايات المرتبطة بالمواد المُدرّسة وكذلك تجويد تفاعل الطلاب مع أساتذتهم.

الكلمات المفتاحية : المحادثة النصية، التعلم عن بعد، السوسيوبنائية، التزامن، التفاعلات، الكفاءة.

Résumé

La période si particulière liée à la crise sanitaire suite à la propagation du covid19 que le monde traverse, a amené l'Université Ibn Tofail à généraliser le mode d'enseignement à distance déjà intégré depuis l'année 2007, mais cette fois-ci en adoptant un enseignement totalement à distance autrement dit un présentiel quasi inexistant selon le scénario COMPETICE. Dans ce sens, le Département de Langue et de Littérature Françaises de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kénitra a opté pour une mise en ligne de tous les cours des semestres S2, S4 et S6 ainsi que les cours de master sur la plateforme de l'IUT.

L'objectif, de cet article, est d'analyser cette expérience qui a permis le passage forcé à l'enseignement à distance dans une situation d'urgence et de sa « généralisation imposée » aussi bien à tous les étudiants qu'à tous les

CRISE A CORONAVIRUS ET ENSEIGNEMENT A DISTANCE AU MAROC

- Godet, M., Durance, Ph. et Mousli, M. 2010.** Créativité et innovation dans les territoires. *Conseil d'analyse économique*.
- Maveyraud, S. et Parent, A. 2015.** L'étalon de change-or a-t-il été à l'origine de la Grande dépression ? *Revue française d'économie* 2015/3 (Volume XXX), pp. 53-93.
- Morris, A. L., Guégan, J.-F., Andreou, D., Marsollier, L., Carolan, K., Le Croller, M., Sanhueza, D., and Gozlan, R. E. 2016.** Deforestation-driven food-web collapse linked to emerging tropical infectious disease, *Mycobacterium ulcerans*. *Science Advances* 07 December 2016, Vol. 2, n° 12.
- Oregon State University. 2010.** Extinction of woolly mammoth, saber-toothed cat may have been caused by human predators. *Science Daily*, July 1, 2010.
- Patou-Mathis, M. 2012-2013.** Nos ancêtres, eux savaient maîtriser les crises. *Mariane*. N°818-819, 22 décembre 2012-4 janvier 2013. pp. 82-85.
- Péan, P. 1974. La Troisième guerre mondiale. *Calmann-Lévy, Paris*, 1974.
- Rasmussen, A. 2012-2013. Les leçons de la plus grande pandémie. *Mariane*. n°818-819, 22 décembre 2012-4 janvier 2013. pp. 140-141.
- Ramonet, I. 2005.** Espoirs écologiques : Ecologie, le grand défi. *Manière de voir- Le Monde Diplomatique* n°81, Juin-juillet 2005, pp. 6-7.
- Raynal, M. 2015.** Bill Gates met en garde contre la «superintelligence» artificielle. *Le Figaro*, 30 janvier 2015.
- Rosemarin, A., De Bruijne, G., Caldwell, I. 2009.** Peak phosphorus. The next inconvenient truth. *The Broker Onlin*, 04 August 2009.
- Sarkis, N. 2000.** Pétrole, le troisième choc ? *Le Monde Diplomatique*, mars 2000, pp. 1, 24-25.
- Stiel, N. 2020.** Pourquoi les compagnies pétrolières américaines sont victimes du Covid-19. *Challenge*, 27 avril 2020.
- Strengers, I. 1994.** D'un cycle parfait à la mort de l'Univers. *Les cahiers des Sciences et Vie*. N° Hors-Série, avril 1994, pp. 70-82.
- Strozier, Ch. B. et Berkell, K. A. 2015.** Changement climatique et violence politique. *Diplomatie*, n° 30, décembre 2015-Janvier 2016, pp. 91-94.
- Taleb, N., N. .2007** Le cygne noir. La puissance de l'imprévisible. *Les Belles Lettre*, 2007.
- Zeqli, D., Barradi, T. 2014.** Rapport du Forum « La compensation Industrielle et les Start-Up dans le Domaine des Energies Renouvelables au Maghreb » *organisé par la Société Marocaine de Développement des Energies Renouvelables*, Casablanca, 15 - 16 octobre 2014.
- Zeqli, D. 2020 :** <https://www.linkedin.com/pulse/la-visite-mena%C3%A7ante-mais-plus-f%C3%A9conde-de-mr-corona-virus-driss-zeqli/>

La mise en place d'une coopération régionale en matière d'énergie, de ressources minières et de développement de l'agriculture est incontournable pour un avenir prospère aussi bien pour le Maroc que pour le continent africain.

Bibliographie

- Abescat, B. et Masse-Stamberger, B. 2011.** Banques : Le grand chambardement. *L'Express Hors-Série, novembre- décembre 2011, pp. 28-29.*
- Agence France Presse. Australie. 2020.** : la plupart des incendies qui sévissent depuis des mois ont été maîtrisés. *Le Monde* 13 février 2020.
- Aghion, P. et Cohen, E. 2004.** Education et Croissance. *Rapport du CAE, Paris, La Documentation Française.*
- Arnaud, B. 2020.** Coronavirus : Chronologie de l'épidémie en Chine et émergence de théories complotistes. *Sciences et Avenir, 19 mars 2020.*
- Azizar, A., Belalia, A., Ibenrissoul, A. Bellamine, A. Driouchi, A., Zejli, D. 2014.** Comment faire du Maroc un hub régional dans le domaine de la recherche et de l'innovation. *Institut Royal des Etudes Stratégiques, 2014.*
- Bailly, O. 2005.** Bhopal, l'infini catastrophe. *Manière de Voir-Le Monde Diplomatique, n°81, pp. 10-14.*
- Baverez, N. 2013.** Le Krach dont on n'a pas tiré les leçons. *Mariane. N°818-819, 22 décembre 2012-4 janvier 2013, pp. 86-89.*
- Berrod, N. 2020.** Bill Gates, la CIA, Jacques Attali... Ils avaient alerté sur une épidémie mondiale. *Le Parisien, 23 mars 2020.*
- Biraben, J. -N. 1976.** Alimentation et démographie historique. *Annales de Démographie Historique, 1976, pp. 23-40.*
- Bove, B. 2012-2013.** La peste noire, la prière et la quarantaine. *Mariane. N°818-819, 22 décembre 2012-4 janvier 2013, pp. 138-139.*
- Brassart, Ph. 2008.** Et si c'était le troisième choc pétrolier. *La Dépêche, 01/06/2008.*
- Chaigne-Oudin, A.-L. 2010.** Guerre du Kippour (6 octobre - 16 octobre 1973). *Les Cahiers du Moyen Orient, 2010.*
- Chevassus-au-Louis, N. 2013.** Le microbiote, un élément protecteur essentiel. *Le Monde, 18 novembre 2013.*
- Chol, E. 2011.** Croissance : Le coup de froid. *L'Express Hors-Série, novembre - décembre 2011, pp.18-19.*
- Clairmont, F. F. 2008.** Bretton Woods, histoire d'une faillite. *Manière de Voir-Le Monde Diplomatique, n°102, décembre 2008-janvier 2009, pp. 10-15.*
- Cohen, D. 2011.** Les politiques ont fait trop d'erreurs, in *L'Express Hors-Série, novembre-décembre 2011, pp. 6-9.*
- Cooper, J., Lombardi, R., Boardman, D., Carliell-Marquet, C. 2011.** The future distribution and production of global phosphate rock reserves. *Resources, Conservation and Recycling. 2011, Vol. 57, pp. 78-86.*
- Coste, Ph. 2011.** Dans l'enfer des "Subprimes". *L'Express Hors-Série, novembre- décembre 2011, pp. 12-13.*
- Cyran, O. 2008.** La tourmente financière vue d'un paradis fiscal. *Le Monde Diplomatique n°657, décembre 2008, pp.1 et 6.*
- Etwareea, R. 2020.** « Le Covid-19 menace les producteurs américains de pétrole de schiste »
<https://www.letemps.ch/economie/covid19-menace-producteurs-americains-petrole-schiste>.
- Fressoz, J. B. 2017.** La révolution de l'anthropocène. Les apprentis sorciers du climat. *Le Monde Histoire, n°29, juin 2017, pp. 44-51.*

L'établissement des priorités de recherche sera ainsi réalisé par une confrontation entre celles provenant de la base avec celles définies au sommet, en accordant plus de crédit à celles qui réclament une approche multidisciplinaire et en respectant un équilibre entre les besoins en R&D pour la production du savoir et les besoins exprimés par la société civile et l'industrie.

- Inciter les développeurs des grands projets marocains et les grands groupes et sociétés nationales à s'impliquer dans le développement de la R&DI dans les universités et dans la croissance des entreprises en aidant ces structures à monter en gamme :

Si le nouveau modèle de développement a besoin d'un nouveau souffle, de nouveaux talents et de créativité, il a besoin d'autant plus d'un changement de paradigme de la part des développeurs des grands projets et des grands groupes. Ces derniers sont appelés à faire de plus en plus de confiance à l'intelligence marocaine en l'impliquant de plus en plus dans l'élaboration des plans de développement et les grands projets. En continuant à sous-traiter la compétence étrangère, ces structures ne feront que perdurer l'ancien modèle. Celui-ci deviendra une pathologie qui empêchera le Maroc de passer à un autre stade de développement.

-Impulser la commande publique à générer un effet d'entraînement sur l'université et sur les petits et moyens opérateurs locaux et à devenir le levier privilégié de l'innovation :

Considérée comme la deuxième mesure du Plan National d'Accélération Industrielle 2014-2020 annoncé par le Ministère de l'Industrie, du Commerce, de l'Investissement et de l'Economie Numérique lors des Assises Nationales de l'Industrie tenues le 2 avril 2014, la notion de la compensation industrielle mérite d'être activée.

Elle consiste à exiger, pour la vente de biens ou de services à travers des marchés publics, qu'une contrepartie économique soit transférée du vendeur à l'Etat acheteur.

L'objectif étant de s'assurer de l'effet d'entraînement que génère la commande publique sur les petits opérateurs locaux. Cette mesure peut booster l'innovation dans les entreprises marocaines par l'effet du transfert des expertises qu'elle permet. Elle lie la commande publique à un effet levier qui s'avère utile pour développer les capacités internes des entreprises locales (D. Zejli et T. Barradi,2014).

Conclusion: « Make Morocco Great Again »

La pandémie que subit le pays mériterait d'être l'occasion rêvée pour nos décideurs de bâtir, avec toutefois une approche participative, un nouveau plan d'actions après le départ de Covid-19. Ce plan doit être basé sur l'éducation, la R&D, l'innovation, la compétitivité économique, le rattrapage technologique, l'industrialisation de notre économie, l'intelligence artificielle sans oublier la préservation et la valorisation des ressources naturelles du pays et en premier l'eau, la ressource précieuse dont la raréfaction sans cesse croissante risque de mettre en péril notre agriculture et par ricochet l'économie nationale.

quelques idées résumées dans les points ci-dessous. Une réflexion plus exhaustive sur ce sujet peut être consultée dans le rapport de l'étude à laquelle l'auteur de ce papier a participé et qui a été menée par l'Institut Royal des Etudes Stratégiques, "Comment faire du Maroc un hub régional dans le domaine de la recherche et de l'innovation" (A. Azirar et al., 2014) :

-En fonction de la distance à la frontière technologique, bien faire le choix entre l'innovation par imitation et l'innovation par R&D :

Dans un pays comme le Maroc, la conception d'un nouveau modèle de R&D et Innovation tourné vers l'avenir nécessite au préalable de poser surtout deux questions majeures qui doivent conditionner l'ensemble de ce nouveau paysage :

S'agirait-il de lier le nouveau modèle de développement à l'innovation directement par la recherche, ou conviendrait-il mieux de lier ce modèle à l'innovation par l'imitation dans un premier temps pour se développer, et pour dégager dans un deuxième temps les moyens pour investir dans la recherche, pour ensuite impulser davantage le développement.

Si on se limite aux seuls exemples du Japon, de la Chine et de la Corée du Sud, on peut se rendre compte aisément que ces pays ont pu avoir accès à une économie compétitive sans pour autant investir dans la recherche scientifique. Ce n'est qu'une fois la croissance et les réussites économiques réalisées, qu'ils ont pu s'engager et financer la recherche scientifique pour concevoir de nouvelles phases de croissance (M. Godet et al., 2010).

Selon P. Aghion et E. Cohen (P. Aghion, et E. Cohen, 2004), le choix entre l'imitation et la R&D doit être conditionné par la distance du pays à la frontière technologique :

"L'intuition suggère que pour un pays qui est loin de la frontière technologique, les gains de productivité passent plutôt par l'imitation des technologies existantes, alors que pour un pays proche de la frontière technologique, c'est l'innovation qui tend à devenir le principal moteur de croissance."

A l'instar de plusieurs pays, le Maroc gagnerait plus à s'engager d'abord dans l'apprentissage par la pratique que par la recherche surtout dans les domaines où le pays manque de compétitivité, et ne financer la R&D que dans les secteurs d'abord stratégiques et ensuite les secteurs où le pays est considéré proche de la frontière technologique.

- Mener une consultation nationale sur les besoins en R&D, les potentialités et les opportunités :

Tant que la réflexion sur le nouveau modèle d'éducation, de R&D et d'innovation n'implique pas la globalité, elle ne peut forger un Maroc de l'innovation et de la compétitivité, gages de croissance et de « soutenabilité ».

En effet, dans un Maroc pluriel, riche de ses diversités culturelle, linguistique, géographique et climatique, un tel modèle par région s'impose plus que jamais, au risque de voir se creuser davantage les fractures sociales et territoriales.

Une consultation nationale au niveau de tous les territoires mériterait d'être menée. Elle peut s'étendre sur une ou deux années. Elle s'appuierait sur la démarche de focus groupes dont une bonne mise en œuvre fera certainement émerger des pôles de développement régionaux.

du photovoltaïque est 100 fois celle du thermosolaire à concentration (REN21, 2019) dont le Maroc a fait sa priorité dans son plan solaire.

4.2.1.2. Renforcer la coopération Sud-Sud dans le domaine de l'industrie des phosphates et dérivés

Le Maroc qui détient les trois quarts des réserves mondiales des phosphates se verrait, selon certains experts, contraint d'augmenter sa production d'environ 700% d'ici 2075 afin de pouvoir répondre à la demande mondiale sans cesse croissante. La part du Maroc dans la production mondiale, devrait passer d'environ 15% il y a quelques années à environ 80% en l'an 2100 (J. COOPER et al., 2011), ce qui lui conférerait le pouvoir de contrôler le prix du marché avec tous les impacts géopolitiques qui peuvent en découler.

Le phosphate, insubstituable dans l'agriculture, est en passe de devenir une ressource stratégique dans un contexte de démographie et de besoins alimentaires en forte croissance. Plusieurs analyses laissent présager qu'il deviendrait un produit de plus en plus précieux.

La disparité géographique des réserves de phosphate qui va en s'aggravant, couplée au spectre de hausse des prix des phosphates, qui suivrait la baisse future des réserves de ce minerai, auraient inévitablement des impacts géopolitiques majeurs (A. Rosemarin et al., 2009) auxquels le Maroc est appelé à se préparer pour y faire face.

Le pays importe du soufre, de l'ammoniac et de la potasse pour la production d'engrais, et les combustibles fossiles pour faire tourner la chaîne de production de l'acide phosphorique et de ces engrais. Tous ces produits importés ou leurs sources de production font la richesse de la plupart des pays africains ayant fait l'objet des tournées de S.M. le Roi Mohammed VI dans le continent africain pour promouvoir la coopération entre le Maroc et ces pays.

La construction du Gazoduc Nigéria - Maroc qui est un des projets phares, conclus dans ces tournées, profiterait doublement à l'industrie marocaine du phosphate, en alimentant cette dernière en gaz naturel servant à la fois de combustible et de matière première à la production de l'ammoniac, un intrant majeur dans la production des engrais.

4.2.2. Quel modèle de la R&D et de l'Innovation pour quel modèle de développement du pays?

Il est bien admis depuis longtemps que l'innovation et les réussites éducatives ont toujours été derrière toutes les trajectoires de croissance et de réussites économiques des pays développés et émergents.

La pleine inscription du pays dans l'économie du savoir n'est plus un choix, mais une nécessité incontournable au risque de voir l'avenir de nos jeunes, pleins d'espoir et de vitalité, prendre le destin de celui d'une feuille d'automne. Ce chantier est désormais seul gage de développement, de progrès et de sécurité nationale et la solution idoine à la construction d'une nouvelle économie vigoureuse et prospère.

Ce modeste papier n'ambitionne pas d'apporter en quelques lignes une réponse aussi simpliste à une question tellement complexe, mais tente seulement d'apporter

accession à l'indépendance et qui s'est affirmé davantage sous le règne de S.M. le Roi Mohammed VI.

La stratégie économique impulsée par le Maroc en direction du continent africain, aspire à ériger notre pays dans un premier temps en hub régional, avec dans le viseur un co-développement dans les différents domaines clés pour notre avenir commun et dans un deuxième temps, en pôle de rattrapage technologique et économique avec la mission de disséminer les innovations technologiques et économiques avant le clonage de ce pôle dans les différentes régions du continent.

En effet, avec les ressources minérales et énergétiques aussi bien fossiles que renouvelables dont elle jouit en abondance, l'Afrique a tous les atouts pour émerger et pour inaugurer à son tour son âge de lumières à condition d'emprunter le train de la mutation industrielle qui vient d'allumer les moteurs et ne pas rater le coche du couplage des réseaux intelligents avec les énergies renouvelables. L'électrification du continent étant le préalable incontournable à toute opération ultérieure de développement économique et social.

Si l'Europe de la seconde moitié du 20ème siècle s'est construite autour du charbon et de l'acier. L'Afrique de 21ème siècle a toutes les chances de se construire autour des énergies renouvelables et des ressources minérales dont ce continent jouit en abondance.

4.2.1.1. Contribuer à mettre l'Afrique à l'heure du deuxième âge de l'énergie solaire

Depuis un certain temps, le monde vit au rythme d'une nouvelle mutation industrielle, mue par la révolution du numérique, l'intelligence artificielle et les énergies renouvelables. A plusieurs égards, ces nouvelles technologies semblent être des secteurs où l'Afrique peut faire de sa faiblesse une opportunité à travers le leapfrog (saut de grenouille) technologique. A l'appui et non des moindres, son passage avec succès de "pas de téléphone" au téléphone portable. Devant cet exploit que personne n'aurait pu voir venir ou imaginer, le continent peut passer sans problème et avec des coûts moindres de "pas de réseau électrique" que je peux qualifier de docile et qui date de plus d'un siècle, aux nouveaux réseaux qui sont de plus en plus intelligents et qui répondent parfaitement aux caractères à la fois distribué des sources d'énergies renouvelables et dispersé de l'habitat en Afrique.

Ces sources d'énergie du passé qui domineront certainement le bouquet énergétique futur, ont tellement de nos jours le vent en poupe qu'on n'a cessé de leur porter des qualificatifs multiples : énergies renouvelables, énergies alternatives, énergies durables, énergies vertes, énergies propres...

L'Afrique, dans sa globalité, dispose d'une capacité électrique installée de près de 150 GW, inférieure à celle de l'Allemagne seule (plus de 180 GW)¹ pour une population quinze fois supérieure. Avec le faible taux d'électrification de l'Afrique, nombre d'opportunités sont à saisir dans l'électrification solaire et éolienne de ce continent. Cependant, le modèle des grands projets thermosolaires dont le Maroc a fait le choix ne semble malheureusement pas transposable à la majorité des pays africains. A ce titre, il convient de signaler que la puissance installée mondialement

¹ <http://www.tsp-data-portal.org/TOP-20-Capacity#tspQvChart>

L'image du pétrole en flot, à laquelle le monde a assisté à la fin du mois d'avril, n'est qu'illusoire. L'agence Internationale de l'énergie a annoncé dans son rapport de 2018 que la production mondiale de pétrole conventionnel qui représente les 3/4 de la production mondiale en ce combustible a déjà franchi un pic en 2008 à 69 millions de barils par jour, et que sa production a commencé à baisser depuis, d'un peu plus de 2,5 millions barils par jour (IEA, 2018). Il est vrai, que les combustibles non conventionnels de schistes et de sables pourront compenser ce déclin dans un premier temps, mais en plus de leurs coûts de production élevé et leurs impacts négatifs sur l'environnement, ils sont eux aussi épuisables et leur pic de production ne va pas tarder à faire surface.

Pour revenir au titre de ce paragraphe, il convient d'apporter une dose d'espoir dans ce paysage triste. L'Afrique se présente comme un véritable oasis de croissance au milieu d'un vaste désert de récession économique qui frappe de plein fouet plusieurs pays développés et à leur tête les Etats-Unis d'Amérique. En plus de sa richesse en matières premières, ce continent recèle d'énormes opportunités de croissance en matière d'investissements. Le Maroc l'a bien compris et une politique clairvoyante en direction de ce continent dont le pays fait partie a bien été lancée depuis des années.

4.2. Les choix nécessaires et inéluctables pour le Maroc

La période de confinement est une occasion pour réveiller notre inventivité, stimuler notre créativité et raviver notre esprit de fraternité, de solidarité et de patriotisme.

Covid-19 est venu à point nommé pour nous éclairer sur nos forces et nos faiblesses, pour nous aviser sur nos projets utiles et nous alerter sur nos projets futiles. On dirait qu'il avait un œil sur nous et guettait la phase limite de nos modèles économiques, politiques et sociaux pour tirer la sonnette d'alarme, dans l'espoir de nous voir enfin déterminés sans faille à moraliser nos systèmes de gouvernance.

Un non-retour au paléolithique marocain est inéluctable. Toutes les forces vives que Covid-19 a mises en exergue devraient être gratifiées, glorifiées et mises en valeur. Les grands groupes marocains et les grands projets structurants du pays devront dorénavant faire appel de plus en plus à l'expertise et à l'Université marocaines, pour les aider à la fois à monter en gamme et à se hisser au niveau des standards internationaux.

La dynamique qui s'est enclenchée pour venir à bout de la pandémie ne peut s'essouffler. Avec l'initiative lancée le 14 avril 2020 par S.M. le Roi Mohammed VI en collaboration avec les présidents sénégalais et ivoirien, visant à établir un cadre opérationnel pour accompagner les pays africains dans leurs différentes phases de gestion de la pandémie, le Maroc entend donner une impulsion nouvelle à la coopération Sud-Sud qu'il n'a cessé de proclamer.

4.2.1. Quand le Maroc ambitionne de fonder les germes d'une Afrique prospère de demain

Construire une Afrique indivise dans un continent fragmenté par les guerres et les conflits politiques, tel était l'engagement sincère du Royaume du Maroc depuis son

destination en sécurité et à temps, avec la condition bien sûr que la mécanique de l'avion et les conditions extérieures qui sont dans notre cas respectivement la gouvernance et les différentes politiques publiques, le permettent.

En effet, qui aurait pu imaginer un jour un tel foisonnement technique, scientifique et culturel que vit le Maroc pendant que séjourne Covid-19 au Maroc?

Ça ressemble en miniature au passage du Paléolithique au Néolithique ; un moment vraiment très singulier de l'histoire du Maroc. Il est vrai que cette visite s'accompagne par un certain nombre de pertes humaines, mais il faut le reconnaître, ces pertes restent selon les statistiques officielles, largement inférieures à celles que nous provoquons nous-mêmes par notre manque de civisme lorsque nous prenons le volant de nos voitures ; ces voitures que nous immobilisons en respect à Covid-19!

Tout ce qui était impossible avant cette visite, est devenu possible, paradoxalement mais aussi fabuleusement avec même un isolement total du monde extérieur! Les services publics qui manquaient de souplesse et qui souffraient de moult d'autres maux, se sont métamorphosés d'un seul coup en opérant avec une performance et une transparence jamais vues auparavant au Maroc et en se mettant réellement au service du citoyen. Nos jeunes que certains qualifiaient d'incompétents, d'individualistes, d'assistés..., nous ont fait découvrir en eux les fibres de la citoyenneté, de l'innovation et de l'humour pour ne citer que ceux-là. L'expertise qu'on importait de l'occident, commence à devenir "Made in Morocco". Les moyens financiers qui commençaient à se faire rares, Covid-19 a pu les lever, par sa baguette magique, de la part d'un certain nombre de personnes physiques et morales marocaines, et avec une somme représentant près de 10% de la dette extérieure du Maroc (D. Zejli, 2020).

4. Perspectives de l'après Covid-19 :

4.1. Au niveau mondial : Il n'y a d'opportunités que dans les crises

La mondialisation semble avoir atteint ses limites. Ceux qui l'ont chanté et voyaient en elle, le moyen de pérennisation de leur mainmise sur l'économie mondiale commencent à se rétracter pour prendre désormais le virage d'une forme agressive de protectionnisme craignant leur dépassement par des économies émergentes et tentant d'échapper au piège de Thucydide, l'affrontement entre la puissance montante et celle dominante. Une des principales raisons de ce repli est la croissance qui n'est plus au rendez-vous dans plusieurs de ces pays. Ce que semble bien prédire la loi bien connue de l'entropie et ce que décrit correctement le proverbe allemand : "*La nature fait en sorte que les arbres ne poussent pas jusqu'au ciel*".

Avec la crise de Covid-19, le monde assiste à la fois aux failles du modèle néolibéral et aux prémices de la pire récession depuis la grande dépression de 1929.

Parmi les conséquences de cette récession, il convient de s'attendre à une baisse des investissements dans le pétrole non conventionnel aux Etats-Unis d'Amérique et au Canada, ce qui pourrait se traduire par une augmentation du prix de ce combustible, et par voie de ricochet à une relance difficile sinon lente de l'économie.

Le 15 septembre 2008, l'Etat américain laisse son fleuron de Wall Street, en grande difficulté, déposer la clé sous la porte. Quelques heures après, le système financier menaçait de s'effondrer. C'est grâce ensuite à l'intervention coordonnée des états et des banques centrales, que le pire a été finalement évité (B. Abescat et B. Masse-Stamberger, 2011).

Les Etats-Unis d'Amérique ont mobilisé près de 8500 milliards de dollars, soit plus de la moitié de son PIB pour sauver son économie (O. Cyran. 2008).

3. Le monde à l'épreuve face à la nouvelle pandémie Covid-19

3.1. Quand la géopolitique du fossile a été infectée par le Covid

En l'espace de quelques semaines, Covid-19 a fait écrouler nombre de dogmes, notamment certains construits autour du pétrole. En effet, depuis les débuts de sa production en 1855 en Pennsylvanie, jamais celui-ci n'a atteint des cours négatifs. L'inexorable est arrivé. La journée du lundi 20 avril 2020 restera marquée dans les esprits et dans les livres d'histoire après avoir été le théâtre de l'effondrement des cours du pétrole à un prix défiant tout sens de -37\$ le baril.

La flamme de ce produit qui n'a cessé d'allumer les crises, les conflits et les guerres depuis le début du 20^{ème} siècle, n'a pu résister à la puissance de cet intrus invisible, qu'il faut dire, n'a fait que précipiter une crise déjà en gestation. Le bras de fer engagé entre la Russie et l'Arabie Saoudite, et qui a attisé la tension lors d'un sommet tenu le 6 mars 2020, s'est soldé par une inondation du marché mondial par le pétrole, pendant que la demande quotidienne a reculé de façon inédite d'environ 30%

Impuissantes, les grandes puissances craignent un effet domino sur l'ensemble de l'économie mondiale.

En effet, si les américains se sont rétablis de la crise de 2008 en partie grâce au pétrole de schiste non conventionnel, en devenant après près de 60 ans, les premiers producteurs mondiaux de brut en 2017, devant l'Arabie Saoudite et la Russie (R. Etwareea, 2020), il est paradoxal de voir l'inverse qui est désormais en train de se produire. Avec un baril à moins de 50 dollars, l'industrie américaine de pétrole déjà très endettée et dont dépend plus de 10 millions d'emplois aux Etats-Unis d'Amérique, devient inéluctablement insoutenable (N. Stiel, 2020).

L'Arabie Saoudite et la plupart des pays producteurs de pétrole dont notre voisin algérien vont en pâtir certainement pendant longtemps au risque de voir leur endettement s'aggraver, en attendant une reprise à la hausse qui tardera certainement à voir le jour.

3.2. La visite menaçante au Maroc mais combien féconde du Covid-19

Avant l'arrivée de ce virus, le Maroc se trouvait dans une situation où l'économie pouvait se comparer à un avion en vol, devenu instable par la perte d'un moteur, l'empêchant ainsi de créer plus de portance, et qui rencontre une tempête turbulente de l'éducation qui le menace de décrochage. Pendant ce temps, la politique économique semblait comme si elle naviguait à son tour dans un avion avec un cockpit devenu délétère au point qu'il a perdu même la bonne direction pour atteindre son aéroport de destination. Or le Maroc jouit de toutes les potentialités nécessaires, à même d'imaginer le meilleur cockpit en mesure de lui tracer le plan de vol le plus optimal, permettant à l'avion d'atteindre l'aéroport de

progressive des pays de l'étalon d'or, le "Gold Standard" (S.Maveyraud et A. Parent. 2015). Les conséquences ont pris une ampleur sans précédent dans l'histoire encore jeune du capitalisme se résumant dans des usines abandonnées, mines fermées, des dizaines de millions de chômeurs, nourrissant des troubles (F. F.Clairmont, 2009) et nouveaux mouvements politiques qui vont faire apparaître le nazisme et plus tard allumer l'étincelle de la seconde guerre mondiale.

2.5. Les deux chocs pétroliers des années 1970

Le 17 octobre 1973, en pleine guerre du Kippour, qui oppose Israël à l'Égypte et à la Syrie, les représentants des pays arabes producteurs de pétrole à l'exception de l'Iran, se sont réunis au Koweït et ont décidé de baisser la production de ce produit stratégique, de 5 % jusqu'à l'évacuation des Territoires occupés (A.-L.Chaigne-Oudin, 2010). Trois jours après, le roi Fayçal d'Arabie décrète un embargo total sur les livraisons de brut destinées aux Etats-Unis d'Amérique et aux Pays-Bas. L'embargo sera levé en mars 1974 (Ph. Brassart, 2008).

Les prix du pétrole ont quasiment quadruplé au lendemain de la guerre d'octobre 1973, de 2,67 dollars par baril en 1972 à 9,82 en 1974 (N. Sarkis, 2000), marquant ainsi la fin des 30 glorieuses pour l'occident.

Cependant, il faut le souligner, les Etats-Unis d'Amérique ne voulaient pas non plus d'un prix trop bas déjà à cette époque! (P. Péan, 1974). Un tel niveau de prix, qui prévalait avant la crise, aurait empêché de rendre rentable la production de pétroles non conventionnels dans ce pays.

Les prix ont grimpé plus tard à leur record historique de 17,13 dollars en 1982, comme conséquence de la révolution islamique en Iran (N. Sarkis, 2000).

Malgré l'histoire sombre du pétrole à la couleur de son produit, il conviendrait de lui reconnaître sa face lumineuse dans la mesure où il était à la fois à l'origine du développement sans précédent qu'a connu l'humanité et aussi le moteur de l'ouverture des pays les uns vers les autres.

2.6. La catastrophe de Bhopal (Inde)

Le 3 décembre 1984, un gaz hautement toxique, l'isocyanate de Méthyle (le MIC, à base de phosgène, composant du fameux gaz moutarde), s'est échappé du réservoir E610 de l'usine d'Union Carbide India Limited - UCIL où sont produits 2 pesticides, le Temik et le Sevin. C'est de l'eau ayant pénétré dans la cuve qui a entraîné une réaction chimique, origine du désastre. Aucun des systèmes de sécurité supposés prévenir tout problème n'a fonctionné cette nuit. 42 tonnes de MIC se répandaient alors sur la cité, une quantité supérieure à deux fois le stock maximum autorisé. Le décompte officiel fait en octobre 1995 a fait état de 7575 morts (O. Bailly, 2005).

2.8. Crise économique de 2008

C'est une crise de l'endettement qui s'est transformée en crise économique généralisée puis financière (D. Cohen, 2011). A l'origine, une grippe frappe au printemps 2007 les organismes de prêt au logement, puis les banques, qui ont transformé ces crédits en produits financiers (Ph. Coste, 2011). Comme l'économie américaine représentait à l'époque près de 20% du PIB mondial, son ralentissement touchait presque toute la planète (E. Chol, 2011).

Avant et après le physicien et ingénieur Nicolas Léonard Sadi Carnot par exemple, les savants portaient des regards différents sur la chaleur : jusqu'aux débuts des années 1820, la chaleur était encore considérée en tant que fluide comme la concevait le chimiste et philosophe Antoine Laurent Lavoisier. Plus de vingt ans plus tard, en 1843 et dans un article passé dans un premier temps inaperçu, le physicien James Prescott Joules avance que la chaleur est un état de vibration (I. Strengers, 1994).

Les crises ne dérogent pas à cette règle. Celle qui sévit actuellement, traduit la faillite de tous les dogmes économiques et technologiques qui ont prévalu depuis près de deux siècles. Hallucinante à la fois par sa brutalité et par son ampleur inédite, cette crise sanitaire qui a paralysé l'ensemble de l'économie mondiale rappelle à bon entendeur, les crises de différentes natures dont l'humanité a fait l'expérience au cours de sa longue histoire. Si certaines étaient fécondes, plusieurs étaient par contre destructives. Si certaines demeurent à jamais ignorées, d'autres restent maintenues dans les mémoires.

2.1. La crise alimentaire de la fin du paléolithique

Il y a environ 10.000 ans, la quasi-totalité du gibier dont se nourrissait l'Homme du paléolithique disparaissait en raison d'un bouleversement du climat qui commençait à se réchauffer, ne laissant que de maigres populations dans la plupart des régions (Oregon State University, 2010). Une crise alimentaire s'est progressivement installée et contraignait l'Homme à trouver d'autres solutions (J. -N.Biraben, 1976). C'est à ce moment que celui-ci est passé progressivement du nomade, chasseur cueilleur, au sédentaire, développant l'agriculture (M. Patou-Mathis, 2012). Il devient producteur qui renouvelle ce qu'il consomme par la transformation de l'énergie solaire en produits agricoles. Il inaugure ainsi le premier âge de l'énergie solaire, marquant la deuxième transition énergétique succédant à celle de la découverte du feu, datant d'il y a près de 500.000 ans.

2.2. La peste du 14^{ème} siècle

En 1347, la peste réapparaît en Occident après 8 siècles d'absence, alors qu'elle était presque effacée des mémoires. Portée par des rongeurs sauvages, la maladie provenait d'Asie centrale et se transmettait via les puces aux rats commensaux, puis à l'homme lui-même. Cette peste s'est poursuivie jusqu'en 1352 et aurait entraîné la disparition brutale de 35 à 60% de la population (M. Bove, 2013).

2.3. La grippe espagnole

La pandémie grippale de 1918, communément qualifiée de grippe espagnole constitue la crise sanitaire majeure du 20^{ème} siècle. Elle avait causé près de 50 millions de morts de par le monde (A. Rasmussen, 2013).

2.4. La crise économique de 1929

La grande déflation des années 30 demeure dans les esprits comme étant l'une des plus graves crises du capitalisme. Elle a mis en chômage plus de 22 millions de personnes dans les pays développés et créé une misère de masse (N.Baverez, 2013). Amorcée par une crise boursière, elle a commencé aux Etats-Unis d'Amérique avant de traverser l'Atlantique. Se propageant de l'Angleterre à l'Allemagne, elle entraîne la faillite d'une banque autrichienne et la sortie

la planète, provoquant le réchauffement climatique et la perte graduelle de la biodiversité.

Le changement climatique est certainement le marqueur le plus puissant de l'anthropocène, cette nouvelle ère géologique où l'Homme est devenu le facteur déterminant de l'évolution de la Planète. C'est le prix Nobel de chimie Paul Crutzen qui a introduit le terme en l'an 2000. Cette ère succède selon le chimiste à l'holocène qui a débuté il y a près de 12.000 ans. Crutzen fait coïncider le commencement de l'anthropocène avec les débuts de l'utilisation de la machine à vapeur de James Watt (J. B. Frescoz, 2017) ; cette machine qui a en fait servi comme un ressort à la révolution industrielle, qui à son tour a créé un besoin concentré en combustibles fossiles.

Ce réchauffement climatique n'affecte pas seulement les écosystèmes, mais aussi la santé et la sécurité (migrations). Il attise les violences politiques en exacerbant les vulnérabilités régionales.

Si on prend le seul cas de la guerre civile en Syrie, il est une conséquence de la pire sécheresse de l'histoire moderne de ce pays, affectant 60% de ses terres. Plus de 800.000 Syriens avaient perdu leurs moyens de subsistance en 2009 et 85% des cheptels sont morts (Ch. B. Strozier et K. A. Berkell, 2016).

Le temps qu'on se remette d'une crise, une autre se rabat sur nous. On se rappelle les feux alimentés par un temps chaud et sec qui ont ravagé en septembre dernier l'Australie. Ces feux ont brûlé plus de 10 millions ha et tué près d'un milliard d'animaux (AFP, 2020).

Aveuglé par ses progrès et succès technologiques, l'Homme ne se soucie plus de la chaîne alimentaire qu'il a brisée après l'avoir ignorée par insouciance. Le résultat ne s'étant pas fait attendre ; le réservoir des agents infectieux que la biodiversité seule détient le secret de son confinement, n'a pu résister à la destruction implacable de l'écosystème qui l'abritait, rendant poreuse la frontière qui le sépare de l'Homme (I. Ramonet, 2005). Des pathologies infectieuses nouvelles commencent alors à émerger dans les pays tropicaux comme l'affirme une étude publiée en décembre 2016 dans le journal "Science Advances" (A. L. Morris et al, 2016). Les crises sanitaires récentes d'Ebola et H1N1 en sont à l'appui.

Covid-19 semblerait avoir à son tour profité de cette défaillance humaine pour sortir de son habitat naturel à la découverte de notre monde et à l'ébranlement de ses structures.

L'actuelle crise sanitaire nous fait redécouvrir le règne microbien. Ce microcosme invisible à l'œil nu, le premier à avoir colonisé notre planète et à avoir survécu aux 5 extinctions majeures que notre planète a vécues est le principal régulateur des échanges les plus indispensables à la survie de la biosphère, à l'image de celui qui prospère dans nos intestins et se charge d'assurer les fonctions essentielles de la digestion et de la protection contre les infections (N. Chevassus-au-Louis, 2013).

2. Une brève histoire des crises environnementales, énergétiques, économiques et sanitaires

La lecture du passé est toujours là pour nous apprendre une leçon de relativité. Le savoir ne progresse pas toujours par empilement des connaissances, mais aussi par la transformation de l'idée que l'on se fait sur certains concepts.

Si l'invasion de Covid-19 a été tristement dévastatrice dans certains pays, notamment les plus avancés technologiquement, l'impact de son ampleur a beaucoup varié d'une région géographique à une autre.

En appliquant le principe de précaution maximale et en montrant sa capacité à réorienter dans un temps record une partie de son industrie pour produire des millions de masques, du gel hydro-alcoolique et des respirateurs, le Maroc semble pouvoir sortir parmi les grands vainqueurs de cette crise. Plusieurs observateurs de par le monde n'ont pu s'empêcher d'ovationner la stratégie marocaine, entreprise et réussie dans le cadre d'une symbiose entre les pouvoirs publics, l'industrie et la population.

Dans l'euphorie de ce succès avec l'espoir qu'il se pérennise, ce papier se propose d'apporter une contribution modeste au débat engagé sur cet événement inédit de l'histoire humaine qui a mis tout le monde à l'arrêt.

Après une analyse succincte des conditions éventuelles ayant servi de moteur à la propagation de Covid-19, une rétrospective de quelques crises que l'humanité a connues le long de son histoire sera présentée.

Deux cas d'impacts de la pandémie respectivement aux niveaux mondial et national seront traités. Ils seront suivis d'une analyse de quelques perspectives de l'après Covid-19 aussi bien au niveau mondial qu'au Maroc.

1. Quand l'arsenal de la "Guerre des Etoiles" a lui-même failli contre l'envahisseur invisible et microscopique nommé COVID-19

Sorti de son réservoir naturel en novembre 2019 à Wuhan en Chine (B. Arnaud, 2020), le virus Covid-19 a embarqué à bord de sa couronne. Invisible aussi bien à l'œil nu qu'aux radars les plus puissants, il se sert du corps de l'Homme pour se multiplier et se propulser à la conquête de notre monde. Il traverse les frontières et les mers en se moquant des barrières et des murs.

Covid-19 a mis d'un seul coup et sans aucun préavis tous les pays dans la même enceinte, une sorte de piscine qui se vide avec un tourbillon face auquel toutes les nations se trouvent égalées pour la première fois de l'histoire humaine mais surtout désarmées et impuissantes devant la force imparable qui, à la puissance d'un trou noir, les aspire vers un futur qu'aucun des plus puissants modèles de prospective n'a pu prédire.

Même Stephen Hawking qui est allé jusqu'à nous mettre en garde contre l'intelligence artificielle et prétendait que cette dernière pourrait dépasser un jour les humains, limités par leur évolution biologique lente (M. Raynal, 2015), n'a pas imaginé un tel scénario.

Bill Gates, fondateur de Microsoft et Co-Président de la Fondation Bill and Melinda Gates serait avec la CIA, parmi les rares qui ont pu évoquer un tel événement : Bill Gates lors d'une conférence "Ted Talk" en 2015 sur les leçons à tirer d'Ebola, et la CIA dans un rapport rédigé, plus de 7 ans après le 11 septembre 2001 (N. Berrod, 2020).

La crise à laquelle nous assistons ne doit pas nous surprendre. L'homme a affecté de façon irréversible nombreux équilibres chimiques, thermiques et biologiques de

COVID-19 : QUAND LE CYGNE NOIR MUE EN CYGNE BLANC AU MAROC

Driss ZEJLI

Université Ibn Tofail. ENSA. Kénitra
driss.zejli@uit.ac.ma

ملخص

عاجزة امام غزو "كوفيد-19"، أصبحت الدول مدعوة إلى إعادة التفكير في نماذجها الاقتصادية التي وصلت إلى أقصى إمكاناتها. لقد أعمى التقدم التكنولوجي الغير مسبوق، ربان مركبتنا الفضائية، الأرض، الذين يسعون دائما لإنتاج المزيد، فنسوا عواقب تغير المناخ وتراجع التنوع البيولوجي بسبب الأنشطة البشرية. بالرغم من أن هاتان الظاهرتان المرتبطتان تضعفان الحدود التي تفصل الخزانات الطبيعية عن مسببات الأمراض، مما يجعلها أكثر عرضة للاختراق. يبدو أن "كوفيد-19" قد استفاد من هذا الهفوة البشرية لمغادرة موطنه الطبيعي لاكتشاف عالمنا والتضييق على بنياته. والأمر متروك لنا لجعل هذا الغزو فرصة لتعلم أفضل الدروس.

الكلمات المفاتيح: كوفيد-19، أزمة، المغرب، إفريقيا، وقع، آفاق.

Résumé

Impuissantes devant l'invasion de Covid-19, les nations sont appelées à repenser et à remettre en cause leurs modèles économiques qui ont atteint leurs limites. Aveuglés par les progrès technologiques jamais atteints auparavant, et cherchant sans cesse à produire plus, à aller plus vite, à offrir moins, les pilotes de notre vaisseau spatial, la Terre, tantôt ignorent, tantôt croient pouvoir vaincre les conséquences des changements climatiques et de l'érosion de la biodiversité dont l'Homme est responsable. Or, ce sont ces deux phénomènes associés qui fragilisent la frontière qui sépare les réservoirs naturels des agents infectieux, la rendant de plus en plus poreuse. Covid-19 semble avoir profité de cette défaillance humaine pour sortir de son habitat naturel à la découverte de notre monde et à l'ébranlement de ses structures. A nous de faire de cette invasion, l'occasion de tirer les meilleurs leçons et enseignements.

Mots-clés : Covid-19, Crise, Maroc, Afrique, Impacts, Perspectives.

Introduction

Par ce titre : "Quand le cygne noir mue en cygne blanc au Maroc", le papier tente autant que possible de brosser un tableau descriptif à la fois de la nature de Covid-19, et de l'événement planétaire qu'il a provoqué et la maîtrise exceptionnelle de la pandémie au Maroc. En effet, selon le philosophe Nassim Nicholas Taleb (N. N. Taleb, 2007), auteur du livre "le cygne noir..", un cygne noir se rapporte à un évènement qui possède trois caractéristiques principales : il survient rarement, il est doté d'un impact ravageur et il est imprévisible. Ce qui semble bien caractériser ce virus qui demeure tout de même une énigme à l'heure de la rédaction de ce papier.

développement : il s'agit de la problématique des difficultés de financement des entreprises et du manque de protection sociale de la population.

Des difficultés qui se trouvent accentuées par la persistance d'un important secteur informel au Maroc dont la résorption ne peut se faire qu'à travers la mise en place d'un système d'incitations fiscales et sociales en même temps qu'un contrôle plus accru.

Enfin, si la conception d'un modèle de développement est d'abord une affaire de l'Administration Centrale, sa mise en œuvre ne peut se faire qu'avec l'activation de leviers de déploiement opérationnels des stratégies centrales, à savoir : un partenariat public-privé efficace (qui suppose une organisation des métiers/branches dans des structures professionnelles performantes) et une démarche de proximité de l'Administration dans sa relation avec ses administrés (ce qui suppose une mise en œuvre plus complète de la régionalisation avancée).

Références Bibliographiques

Afrique Advisors (2020), Estimation des Ressources et des Dépenses du Fonds Spécial dédié à la gestion et à la lutte contre la pandémie du Coronavirus, disponible depuis http://www.afriqueadvisors.com/fr/dotations_au-fonds_special_covid19/

Confédération Générale des Entreprises du Maroc (2020), Enquête sur l'impact de la crise du COVID 19 sur l'activité économique, disponible depuis <https://mailchi.mp/cgem/rsultats-prliminaires-enquete-cgem-impacts-covid-19?e=78b3b42966>

Confédération Générale des Entreprises du Maroc (2018), l'Economie Informelle : impacts sur la compétitivité des entreprises et propositions de mesures d'intégration, disponible depuis <https://www.cgem.ma/upload/687807921.pdf>

Fayol H. (1916), General and Industrial Management, Irwin Gray, pp.230

Haut Commissariat au Plan (2020), Enquête de conjoncture sur les effets du COVID 19 sur l'activité des entreprises, disponible depuis https://www.hcp.ma/Principaux-resultats-de-l-enquete-de-conjoncture-sur-les-effets-du-Covid-19-sur-l-activite-des-entreprises_a2499.html

Lahjouji et El Menzhi (2018), Le nouveau Management Public au Maroc, quels apports ? , disponible depuis <https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01801445>

Taylor F. (1911), the principles of scientific Management, Harper and Brothers publishers, New York and London, 144 pp.

modèle de développement. Plus particulièrement, il s'agit d'inscrire ces principes séculaires dans les cinq processus clefs de toute activité administrative, à savoir : « prévoir, organiser, commander, coordonner, contrôler » (Fayol, 1916).

Tableau 1- les 14 principes de l'Administration Efficace selon Fayol

Principe 1	La division du travail conduit à plus d'efficacité,
Principe 2	Le lien autorité – responsabilité doit être respecté,
Principe 3	La discipline est un facteur clef,
Principe 4	L'unité de commandement: un homme ne reçoit idéalement des ordres que d'un seul chef (Fayol est ici en opposition à Taylor),
Principe 5	L'unité de direction: un seul but doit être envisagé,
Principe 6	Subordination de l'intérêt individuel à l'intérêt général,
Principe 7	Rémunération : il doit être trouvé un juste rapport entre rétribution et contribution,
Principe 8	Degré de centralisation: la centralisation est un fait naturel ; le degré de centralisation dépend de l'activité,
Principe 9	Hiérarchie : essentielle mais les communications latérales sont nécessaires également,
Principe 10	Ordre : une place pour chaque homme et un homme à chaque place,
Principe 11	Equité : la justice dans le travail doit être prévue par des liens conventionnels,
Principe 12	Stabilité du personnel : c'est un facteur de succès pour les entreprises,
Principe 13	Initiative : l'acte entrepreneurial et de réussite selon le plan est le plus puissant moteur de l'entreprise
Principe 14	Union du personnel : l'union fait la force et chercher à diviser le personnel est selon Fayol une faute.

Le fait de s'inscrire dans le courant théorique dominant en matière de gestion des affaires publiques, à savoir le New Public Management¹ ne doit pas faire oublier les fondements sur lesquels se sont construites ces avancées conceptuelles au risque de voir des comportements qui respectent la lettre et non l'esprit des mesures et réglementations.

Par ailleurs, l'analyse des difficultés révélées par la gestion de la crise nous permet d'entrevoir deux limites qu'il faut corriger dans le cadre du prochain modèle de

¹ Il s'agit d'une théorie née dans les années 1980 et portée par l'OCDE et qui plaide par l'introduction des méthodes de gestion privées dans l'administration publique pour plus de performance et moins de lourdeur

et de rigidité. Pour une revue détaillée de cette théorie et de son adoption au Maroc, se rapporter à l'article de Lahjouji et El Menzhi (2018).

aussi la suppression des subventions de l'Etat aux produits de base ; des subventions qui alourdissent le budget de l'Etat et qui peuvent profiter à des catégories sociales aisées.

Ainsi, l'une des leçons importantes de cette crise sanitaire est l'urgence de l'intégration de l'économie informelle dans l'économie nationale. En effet, une bonne partie de la population vulnérable opère dans l'économie informelle -2,4 millions de personnes- selon les estimations du Haut Commissariat au Plan (HCP, 2020). Elle est répartie essentiellement entre le textile et l'habillement, le transport, le secteur du bâtiment et travaux publics, et le tourisme ; des secteurs impactés au plus haut degré par la crise, ce qui laisse présager d'importantes difficultés économiques au vu de l'absence de tout filet de protection sociale. De plus, ces salariés opèrent dans des structures qui échappent à toute réglementation et ne génèrent aucun revenu pour l'Etat sous forme de recettes fiscales ou parafiscales.

Selon un rapport de la CGEM sur l'économie informelle (CGEM, 2018), les activités de ces entreprises contribueraient à l'économie nationale à hauteur de 20% du PIB hors secteur primaire et 10% des importations formelles, soit autour de 170 Mds de DH.

Ces entreprises, pour la plupart des TPME, devraient se trouver en grande vulnérabilité en période de crise du fait de leur incapacité à obtenir toute forme d'aide publique ou de financement bancaire.

Conclusion

L'objectif de cet article est de montrer comment la gestion de la récente pandémie du COVID 19 peut servir dans le processus d'élaboration d'un modèle de développement pour le Maroc en mettant en évidence, d'une part, les leviers qui ont permis au Maroc d'atteindre un niveau de maîtrise de la crise suffisant et, d'autre part, les freins qui ont pénalisé la qualité de la réponse apportée par l'Administration aux problématiques imminentes liées à la crise.

Les résultats de cette analyse révèlent l'existence de deux leviers importants sur lesquels le Maroc peut compter pour construire son modèle de développement. Il s'agit de l'unité du commandement et de direction et de la poursuite de l'objectif d'intérêt général dans la prise de décision de l'administration publique marocaine.

Deux principes qui forment avec douze autres l'ossature de l'administration efficace selon Fayol (1916), première théorie en matière de gestion et une école de pensée qui a contribué, avec d'autres facteurs bien sûr, la 2ème révolution industrielle de l'occident avec tous ses effets bénéfiques sur la productivité et le niveau de vie des populations.

Aussi, l'une des conclusions fortes de cet article est la nécessité de parfaire l'atteinte de tous les principes de l'Administration Efficace aussi bien au niveau central que décentralisé si l'on veut arriver à une performance de gestion globale des structures publiques de l'Etat et privés, et lancer une révolution dans notre

leur emploi de manière involontaire et ayant travaillé au moins 780 jours pendant les 36 derniers mois précédant la perte d'emploi¹.

Une indemnité, qui bien qu'elle couvre 70% du salaire de référence, est cependant plafonnée au montant du salaire minimum légal² et s'étend sur une période maximale de 6 mois alors que le délai de réinsertion professionnelle des salariés aussi bien en tant normal qu'en temps de crise pourrait être beaucoup plus long.

Ainsi, non seulement l'absence d'une protection contre le chômage partiel fera supporter à l'Etat environ 5,6 milliards de Dhs (Afrique Advisors, 2020)³ mais exposera aussi environ 808 000 salariés à une fragilité économique en raison de la baisse substantielle de leurs revenus : l'indemnité forfaitaire fixée à 2 000 net étant fixée à un niveau inférieur au salaire minimum.

Sans parler d'une grande majorité des entreprises qui n'ont pas pu mettre en arrêt partiel ou total leurs salariés qui comptabilisent les jours d'arrêts comme des congés payés ou non, ce qui n'est pas non plus une situation optimale.

Autre volet social compliqué, la question des aides financières allouées aux ménages à revenus limités. C'est ainsi que près de 12,9 milliards de Dhs vont être servis aux ménages les plus vulnérables –environ 4,3 millions de bénéficiaires– encore faut-il que ces indemnités puissent couvrir l'intégralité des personnes en précarité et être acheminées vers les personnes concernées. En effet, le seul registre disponible sur lequel l'Etat a pu construire son système d'attribution des aides est celui du RAMED⁴ – un dispositif de soutien pour l'accès gratuit aux soins de santé– pour lesquels l'Etat dispose d'ores et déjà de données digitalisées. Or, il est connu que ce registre ne couvre qu'une partie de la population des familles vulnérables, généralement des travailleurs du secteur informel ou du secteur formel et non déclarés⁵.

L'autre partie des familles vulnérables (principalement des personnes âgées et des femmes sans activités) est donc non prise en charge par aucune disposition à caractère social, ce qui expose cette catégorie à davantage de pauvreté et de violence. Le financement d'un mécanisme permanent de protection sociale des tranches les plus défavorisées de la population n'est pas seulement bénéfique pour les populations concernées. Il permettra en outre une meilleure équité sociale – grâce notamment à la mise à contribution des personnes les plus favorisées – mais

¹ Pendant la période de 6 mois, le chômeur continue de recevoir les allocations familiales et la couverture d'assurance maladie obligatoire.

² Le salaire minimum interprofessionnel garanti est fixé à 2 698,83 Dhs nets au 1^{er} janvier 2020 environ 240 euros.

³ D'après l'enquête d'Afrique Advisors (2020), ce montant est calculé en multipliant le nombre de salariés déclarés à la CNSS en arrêt temporaire de travail–environ 808 000– par le montant de l'indemnité net de 2000 Dhs puis multipliés par une durée de 3,5 mois (depuis le 15 mars jusqu'au 30 juin).

⁴ Le Régime d'Assurance médical (RAMED) est un dispositif qui a été mis en place en 2002 destiné à assurer une couverture médicale pour les démunis.

⁵ En raison d'une part des conditions d'éligibilité fixées par le RAMED mais aussi des difficultés pratiques des procédures liées à l'obtention de la carte RAMED et son renouvellement.

C'est ainsi que la Confédération Générale des entreprises du Maroc (CGEM) a fait état, dans une lettre officielle adressée au Groupement professionnel des Banques du Maroc, d'une rigidité des banques en matière d'octroi de lignes de financement alors même que ces lignes sont couvertes pour 95% par la CCG (CGEM, 2020). Cette rigidité a surtout affecté les entreprises de services ne disposant pas de garanties physiques et les entreprises exportatrices confrontées à une chute drastique de leurs chiffres d'affaires à l'export. En plus de la lourdeur administrative, la tarification employée par les banques a été également critiquée par la CGEM soulignant que certaines banques ont même augmenté leurs taux d'intérêts alors que d'autres annonçaient des pénalités ou des intérêts supplémentaires à leurs clients lors du report des échéances de paiement. Ceci est valable aussi pour le financement des importations où le taux de refinancement des importations est parfois passé de 1,5% à 3,5% en dépit de l'action de la Banque Centrale de réduire son taux de base.

En matière de cours de change, la situation est aussi inquiétante avec des taux de change qui sont parfois sans rapport avec les cours pivots dans un contexte où certaines salles de marché sont fermées. Cette situation de difficulté de financement des entreprises marocaines contraste avec ce qu'elles peuvent attendre de la qualité de l'accompagnement bancaire dont peuvent bénéficier leurs semblables de pays européens. A titre d'exemple, certains crédits exceptionnels de trésorerie mis en place en Europe sont remboursables sur 5 ans à taux zéro et construits sur la base d'un plan de trésorerie avec zéro recettes pendant 3 mois.

L'offre bancaire d'accompagnement financier en période de crise s'avère également bien en deçà des besoins de liquidités des secteurs les plus affectés par la crise du COVID 19.

C'est ainsi que les professionnels du tourisme, confrontés à un arrêt d'activité pour au moins une année, appellent à reporter les échéances bancaires d'au moins 12 mois, à maintenir les lignes de crédit et à ouvrir des lignes supplémentaires avec réduction du taux d'intérêt.

Un autre problème de taille révélé par la crise du COVID 19 est celui du manque des mécanismes de protection sociale des salariés contre le chômage partiel ou total et de manière plus générale de protection sociale contre la précarité de la population. L'existence d'un mécanisme de chômage partiel dans lequel l'Etat apporterait son soutien financier en plus des employeurs et des salariés sous formes de cotisations est un dispositif indispensable à l'évolution du tissu économique et surtout à l'accroissement de la masse salariale qui lui est liée ; les grandes entreprises pouvant se trouver pour plusieurs raisons confrontées à une baisse d'activité qui peut justifier la mise en chômage partiel de leurs salariés.

Or, ce n'est que depuis 2014 qu'un dispositif de protection sociale des salariés des effets de l'arrêt d'activité des entreprises sous forme d'une indemnité de perte d'emploi (IPE) a été mis en place au profit des salariés ayant définitivement perdu

bénéficier d'un crédit à taux zéro plafonné à 15 000 Dhs remboursable sur une période maximale de 3 ans avec différé d'1 an.

D'autres mesures ont été prises pour éviter aux entreprises titulaires de marchés publics de supporter des pénalités pour les retards d'exécution et accélérer les paiements de l'Etat aux entreprises partenaires.

La continuité des secteurs stratégiques : santé, agroalimentaire, distribution, banques dans les meilleures conditions, a fait l'objet d'une attention particulière du Ministère de l'Industrie et des services. Ce ministère s'est montré également particulièrement réactif en activant un système de subventions en faveur des entreprises qui veulent s'engager dans des projets liés à la gestion du COVID19.

Résultat de ces efforts, le Maroc arrive actuellement à produire suffisamment de masques de protection pour sa population et à en exporter et se dirige vers la même performance en ce qui concerne un produit hautement technologique : les respirateurs artificiels.

Enfin, il convient de souligner l'engagement du Ministère de l'Education nationale et de l'Enseignement supérieur aussi bien dans la mise en œuvre de solutions de remplacement à la dispense de cours en présentiel (cours diffusées en TV et par internet, plateformes pédagogiques,) que son appui en faveur de projets de recherche-développement en lien avec le COVID19.

2. Les limites révélées par la Crise du COVID 19 : Difficultés du financement des entreprises et faiblesse des mécanismes de protection sociale

Si nul ne peut contester la rapidité et la justesse des décisions qui ont été prises au niveau central pour atténuer les effets négatifs de la crise sanitaire du COVID 19 sur les entreprises et les citoyens, la mise en œuvre de ces dispositions a révélé l'existence de limites à leur déploiement pratique.

Au premier rang de ces limites, la question du financement. En effet, on ne peut parler de croissance économique des entreprises sans parler de conditions favorables de financement de leurs investissements et, le cas échéant, de leurs dépenses de fonctionnement.

Des besoins en liquidités en temps normal qui se trouvent fortement accrus en temps de crise par l'effet négatif sur la trésorerie du rallongement des délais de recouvrement des créances et de la baisse du chiffre d'affaires. Une situation qui pousse les entreprises à solliciter le soutien des banques en vue d'une part de reporter les échéances des crédits en cours et d'autre part de proposer des lignes de financement exceptionnelles.

Or, si l'administration centrale marocaine, à travers ses différentes structures, a pris d'importantes mesures en vue d'assouplir le financement des entreprises en difficultés financières, le vécu de ces dernières semble faire état d'obstacles importants qui s'accroissent très mal avec la conjoncture.

prélèvements, 100.000 kits testeurs, équipement de radiologie et imagerie, etc.). La plus grande partie des dépenses (près de 18,5 milliards de dirhams) sont liées à l'activation des mécanismes d'aides sociales au profit des personnes en situation de perte définitive ou temporaire d'emplois, qu'ils appartiennent au secteur formel (affilié à la caisse nationale de sécurité sociale) ou au secteur informel. En plus de ces mesures, le CVE a également pris un ensemble de décisions pour soulager les entreprises de certaines obligations sociales, fiscales mais aussi les doter d'une plus grande souplesse financière.

C'est ainsi que les salariés déclarés par leurs employeurs en difficulté, en arrêt d'activité

et affiliés à la Caisse Nationale de Sécurité Sociale (CNSS), devraient bénéficier d'une indemnité forfaitaire mensuelle de 2000 dirhams nets en plus des prestations relatives à l'assurance maladie obligatoire et aux allocations familiales du 15 mars au 30 juin.

Le paiement des charges sociales (CNSS) a été également suspendu pour les entreprises du 1er mars à juin 2020, sans frais ni pénalités.

En matière fiscale, les entreprises dont le chiffre d'affaires annuel de 2019 est inférieur à

20 millions de dirhams, peuvent, si elles le souhaitent, bénéficier d'un report de dépôt des déclarations fiscales jusqu'à fin juin avec une suspension des contrôles fiscaux et des avis à tiers détenteur (ATD) jusqu'au 30 juin 2020.

En matière de financement, les entreprises peuvent également bénéficier d'un moratoire pour le remboursement des échéances des crédits bancaires et de leasing jusqu'au 30 juin 2020.

Aussi, les TPME (Très petite, petites et moyennes entreprises) et activités professionnelles en difficulté peuvent demander une ligne supplémentaire de crédit de fonctionnement octroyée par les banques et garantie par la Caisse centrale de garantie (CCG). Ces financements bancaires, qui s'ajoutent aux lignes déjà existantes, devraient couvrir jusqu'à 3 mois de charges courantes liées à l'exploitation (notamment les salaires, les loyers et le règlement des achats nécessaires, etc.) et peuvent aller jusqu'à 20 millions de dirhams. Pour les cas des entreprises ne disposant pas de lignes de financement à court terme, ce découvert exceptionnel peut atteindre 5 millions de DH.

Par ailleurs, et en raison du caractère exceptionnel de cette crise, les entreprises de taille intermédiaire, dont le chiffre d'affaires est situé entre 200 et 500 millions de dirhams, peuvent bénéficier également de cette facilité.

Afin de permettre aux banques d'accélérer le traitement des demandes de financement des entreprises, la CCG a accordé une délégation aux établissements de crédit pour engager sa garantie pour tout crédit dont le montant est moins de 2 millions de dirhams. Les auto-entrepreneurs impactés par la crise peuvent aussi

pour deux principales raisons : premièrement isoler pour traiter les foyers de contagion et en deuxième lieu réduire le temps nécessaire à la guérison.

En parallèle, le personnel médical a pu bénéficier très rapidement des équipements de protection nécessaires et de l'appui des médecins du système militaire, ce qui les a placés dans des conditions de travail adéquates.

L'offre en lits d'hospitalisation et de réanimation a été complétée par la mobilisation d'hôpitaux militaires, d'établissements de santé privés et d'hôpitaux de campagne établis pour la circonstance.

Egalement, une offre de près de 10 000 chambres d'hôtels a été mise à la disposition du Ministère de la santé à travers les différentes régions du Maroc pour accueillir les cas suspects et ceux en période de convalescence post-COVID, mais aussi pour permettre au personnel soignant de rester proches de leurs lieux de travail et isolés de leurs familles.

Au fur et à mesure, la possibilité du dépistage des cas de COVID 19 a été également élargie au niveau de tous les centres hospitaliers universitaires ce qui a eu comme effet l'augmentation du nombre de personnes dépistées.

Le Ministère a également déployée une campagne de sensibilisation très efficace dans les médias expliquant les moyens de transmission de ce virus et les gestes barrières à adopter. Aussi, un point de presse est donné chaque jour par le directeur du département d'Epidémiologie et de lutte contre les maladies au Ministère de la Santé où ce dernier dresse un bilan actualisé de la progression du COVID 19 au Maroc de manière globale, puis par région et de conclure par quelques éléments explicatifs et des recommandations.

En matière économique, le gouvernement a annoncé, le 11 mars 2020, la mise en place d'un Comité de Veille Economique(CVE), pour anticiper les répercussions économiques de la crise sanitaire sur l'économie nationale.

Dans le sillage de la création du CVE, un Compte d'Affectation Spécial intitulé « Fonds spécial pour la gestion de la Pandémie du Coronavirus Covid-19 » a été mis en place avec comme objectif le financement des propositions du Comité de veille économique et la réhabilitation du système de santé pour faire face à la propagation de la pandémie.

Doté de 10 milliards de dirhams du budget de l'Etat et de 5 milliards de dirhams de l'Union Européenne, il s'élève à fin avril à près de 35 milliards de dirhams grâce à l'élan volontaire de donateurs particuliers, de sociétés privées et d'institutionnels. Selon les données couplées par la Direction des études et des prévisions financières(DEPF) dépendant du Ministère des Finances avec celles élaborées par Goldman Sachs, le Maroc se situerait au 4ème rang mondial en termes de ressources mobilisées en pourcentage du PIB.

A fin avril, près de 2 milliards de dirhams ont été orientés en partie vers l'équipement du secteur de la santé (1000 lits de réanimation, 550 respirateurs, 100.000 kits de

Un tel travail d'analyse nous semble déterminant aussi bien pour se préparer à d'éventuelles crises futures que pour mettre le Maroc de manière définitive sur une trajectoire de développement durable et inclusif.

La méthodologie adoptée dans cet article est de nature exploratoire dans la mesure où l'on a essayé d'identifier les atouts et limites de la gestion publique révélés par la crise sanitaire. Elle est également explicative dans la mesure où nous avons cherché à éclairer ses atouts et faiblesses par rapport à une théorie structurante dans le domaine de la gestion à savoir la théorie de l'Administration efficace selon Fayol (1916).

1. Les Atouts de la Gestion de la Crise du Covid 19 : Unité de Commandement et de direction et maintien de l'objectif de l'intérêt général dans la prise de décision Centrale

Il est certes prématuré de juger de l'efficacité de la stratégie du Maroc en matière de la gestion de la crise liée au COVID dans la mesure où l'on continue de compter de manière journalière de nouveaux cas de contamination à travers le pays.

Cependant, une rapide comparaison avec ce qui se passe au niveau mondial permet de se rendre compte que le Maroc connaît tout de même des effets assez modérés de cette pandémie sur sa population, ce qui soulève la question des atouts sur lesquels ce « succès relatif » a pu reposer.

Tout d'abord, une décision assez rapide de fermer les frontières du pays et de déclarer l'Etat d'urgence sanitaire¹, signe d'une part, d'un travail de veille au plus haut niveau de l'Etat par rapport à ce qui se passe à l'échelle internationale, mais aussi d'une unité de commandement et de direction vers la poursuite de l'intérêt général des citoyens.

L'existence de cette unité de commandement et de direction a permis également le déploiement d'une stratégie de communication sur la crise extrêmement unifiée et une implication de toutes les parties prenantes (forces de l'ordre, armée, médias..) dans la mise en œuvre des premières décisions prises au niveau central en matière de règles de confinement et de contrôle de son respect.

En ce qui concerne le volet sanitaire de la gestion de la crise, le Ministère de la Santé a déployé un plan opérationnel qui place la vie des citoyens en première position quelque soit le coût de cette prise en charge.

C'est ainsi que des hôpitaux de référence ont été désignés au niveau des principales régions touchées par l'épidémie pour accueillir les personnes atteintes du COVID 19 tout au long de la durée nécessaire pour leur hospitalisation.

De plus, la décision a été également prise d'administrer très vite un traitement aux personnes atteintes du COVID 19 et de les placer tous en milieu d'hospitalisation

¹ L'état d'urgence sanitaire est entré en vigueur le 20 mars 2020, à 18H. Il devait prendre fin le 20 avril. Avec l'adoption du projet de décret n° 2.20.330, l'état d'urgence est prolongé jusqu'au 20 mai à 18H.

Introduction

Le développement économique et social d'un pays exige une vision stratégique clairement définie. Or, jusqu'à présent, le modèle de développement adopté par le Maroc a été construit autour de grands chantiers administratifs et sociaux transversaux sans mise en harmonie d'ensemble dans le cadre d'une vision stratégique communément partagée¹.

Si ce modèle de développement a réalisé des résultats positifs incontestables ces dix dernières années (croissance positive du PIB, inflation maîtrisée), il s'avère assez fragile et peine à déboucher sur des améliorations notables dans la réduction du chômage parmi les jeunes et le niveau de revenu des familles.

Pourtant, les atouts du Maroc ne manquent pas. Des ressources naturelles, certes non pétrolières mais abondantes (cotes maritimes, phosphates, terres agricoles, etc.), des ressources humaines qui restent opérationnelles et à bas coût, des infrastructures inégales sur le continent africain et un capital immatériel conséquent ; sans parler du climat de stabilité politique et sécuritaire précieux dans cette zone tension et qui a permis au Maroc de sortir avec les moindres dégâts de la montée du terrorisme pendant les années 2000 et, par la suite, la gestion des revendications populaires du « printemps arabe ».

C'est au vu de cette sous efficience dans l'utilisation des ressources disponibles et du sentiment d'insatisfaction populaire grandissant que s'est inscrite la critique royale formulée de l'actuel modèle de développement et qui constitue en même temps une invitation lancée aux élites pour réfléchir à son renouveau. Une invitation qui s'est matérialisée par la mise en place en décembre 2019 d'une commission spéciale chargée de proposer un nouveau modèle de développement pour le Maroc².

« Le destin mêle les cartes et nous jouons ! » disait l'éminent philosophe allemand Schopenhauer ; c'est exactement ce qui s'est passé avec la pandémie du COVID 19 qui s'est invité au Maroc début mars de cette année 2020 pour venir mêler les cartes de la réflexion engagée sur le modèle de développement et inciter à dégager avec beaucoup plus de visibilité les atouts et les limites de la gestion des affaires publiques au Maroc et leurs implications pour la mise en œuvre d'un nouveau modèle de développement.

Une gestion des affaires publiques que nous allons étudier dans cet article principalement sous l'angle de la qualité des décisions prises par l'Administration Centrale et leur déploiement opérationnel.

¹ Certes, SM le Roi Med VI énonçait de manière régulière dans ses discours à la nation les priorités de développement du Maroc mais sans pour autant que le tout soit formaliser dans un cadre stratégique de référence qui pourrait constituer une feuille de route pour la construction du Maroc de Demain.

² Dans son discours à l'occasion de la fête du trône, le 29 juillet 2019, Sa Majesté le Roi Mohammed VI a décidé de mettre en place la Commission spéciale chargée du modèle de développement.

LA GESTION DE LA CRISE SANITAIRE DU COVID 19 : UNE OPPORTUNITÉ DE PRÉCISER LE MODÈLE DE DÉVELOPPEMENT DU MAROC

Mariam CHERQAOU

Université Ibn Tofail. ENCG. Kénitra.

Mariam.cherqaoui@gmail.com

ملخص

تشكل الأزمة الصحية الأخيرة التي عرفها المغرب على غرار أكثر من 200 دولة حول العالم فرصة لتحليل نجاعة تدبير الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية. هذا التحليل ضروري في القت الراهن لإغناء النقاش الحالي في المغرب حول تطوير نموذج التنمية في المغرب. إن الهدف من هذا المقال هو تحليل نقاط القوة والضعف في تدبير هذه الأزمة الوبائية في المغرب من أجل التعرف على رافعات ومحددات نموذج التنمية الجديد للمغرب. تكشف نتائج هذا التحليل أن للمغرب مقومين أساسيين يمكن أن يعتمد عليهما: وحدة القيادة / الإدارة على المستوى المركزي والسعي لتحقيق هدف المصلحة العامة. هذا التحليل نفسه، يسلط الضوء على أهمية تجاوز محددتين رئيسيتين لتنمية المغرب: مشكلة الصعوبات في تمويل الشركات و معضلة الحماية الاجتماعية للمواطنين. **كلمات مفتاحية:** COVID 19، تدبير الأزمة الصحية، النموذج التنموي الجديد، المغرب.

Résumé

La crise sanitaire liée au COVID 19 que le Maroc traverse depuis mars 2020 et qui touche plus de 200 pays de par le monde représente une opportunité d'analyser la qualité de la gestion des affaires publiques. C'est un aspect incontournable dans la réflexion en cours au Maroc sur l'élaboration d'un nouveau modèle de développement.

L'objectif du présent article est d'analyser les atouts et les limites de la gestion de la crise du COVID 19 au Maroc en vue de mieux préciser les leviers et freins du nouveau modèle de développement.

Les résultats de cette analyse révèlent que le Maroc dispose de deux atouts considérables: l'Unité de commandement et de direction et le maintien de l'objectif de l'intérêt général.

Cette analyse met toutefois en évidence l'importance de dépasser deux principales limites au développement du Maroc : le problème des difficultés de financement des entreprises et le manque de protection sociale de la population.

Mots-clés : COVID 19, Gestion de la crise sanitaire, Modèle de développement du Maroc.

- <https://www.npr.org/sections/goatsandsoda/2020/02/24/808957041/h1n1-was-the-last-pandemic-heres-why-covid-19-isn-t-yet-in-that-category>
- Jean- Francois Salluzzo et al., 2004.** Les virus émergents, IRD Editions 2004, Paris.
- Journal des femmes, 2020.** C'est quoi le corona-virus ?
<https://sante.journaldesfemmes.fr/fiches-maladies/2607859-definition-famille-coronavirus-origine-nom-virus-symptome-incubation-traitement-transmission/>
- Laure Bonnaud et Nicolas Fortané, 2017.** Emergence de maladies infectieuses Risques et enjeux de société, édition Quae RD 10.
- Le Figaro. 2020.** La nature est-elle vraiment la grande gagnante de la pandémie de Covid-19 ? <https://www.lefigaro.fr/sciences/la-nature-est-elle-vraiment-la-grande-gagnante-de-la-pandemie-de-covid-19-20200325>
- Météo media, 2020.** Covid-19: des impacts positifs sur l'environnement.
<https://www.meteomedia.com/ca/nouvelles/article/covid-19-les-impacts-positifs-sur-lenvironnement-les-voici>
- Notre -planète info .2020 .**Un nouveau coronavirus, le Covid-19, apparu en Chine, entraîne une pandémie qui paralyse le monde. <https://www.notre-planete.info/actualites/4135-coronavirus-epidemie-Chine-Europe-monde>
- Notre Planète-info. 2020.** Le coronavirus Covid-19 fait diminuer la pollution de l'air en Europe, <https://www.notre-planete.info/actualites/4651-pollution-air-coronavirus-Europe>
- OCDE. 2002.** Science, technologie et industrie Perspectives de l'OCDE.
<http://www.oecd.org/fr/innovation/inno/sciencetechnologieetindustrieperspectivesdelo>
[cde2002.htm](http://www.oecd.org/fr/innovation/inno/sciencetechnologieetindustrieperspectivesdelo)
- Proquest Doc. 2017.** De la Cop21 à la Cop22 : bilan et perspective pour le Maroc,
<https://search.proquest.com/pq1academic/docview/1266437967/2434D827D4254D77PQ/1?accountid=203051>
- Proquest Doc. 2017.** Renewable rule at Cop23 Energy Day, Environment New service, Lincoln city, USA.
<https://search.proquest.com/pq1academic/docview/1962690569/83B6204A0EF44ED7PQ/1?accountid=203051>
- Proquest Doc.1995.** Climate change 1995: the science of climate change- impacts, Adaptation au Mitigation : Scientific Technical Analyses/ climate change 1995, Economic and social Dimensions of climate change, Research Triangle. Park. Vol. 85, N°6 (NN/D, 1997) : 566-569) .
- Selectra. Info. 2020.** COP21 de Paris : le résumé des enjeux et des engagements pris par les Etats. <https://selectra.info/energie/guides/environnement/cop21>
- The Washington Post. 2011.** Preventive-care fund seniors' wellness fund final 2011 budget planned parenthood greenhouse gases, climate change climate-change science children's, seniors' asthma final 2011 budget greenhouse gases, climate change Anonymous.
<https://search.proquest.com/pq1academic/docview/1962690569/83B6204A0EF44ED7PQ/1?accountid=203051>
- WikiHow 2020.** Comment prendre des mesures pour réduire la pollution atmosphérique.
<https://fr.wikihow.com/prendre-des-mesures-pour-r%C3%A9duire-la-pollution-atmosph%C3%A9rique>
- Yahoo News coronavirus. 2020.** Coronavirus: le confinement fait chuter la pollution.
<https://fr.news.yahoo.com/coronavirus-confinement-fait-chuter-pollution-143802513.html>

sans doute cette pause en absence de leur « seigneur- Homme » ; ils sont chez eux et leur planète mère est entrain de retrouver sa santé perdue.

Parmi les bonnes nouvelles qu'on peut entendre avec cette crise sanitaire est que la Chine a pris une première mesure pour préserver la biodiversité de l'environnement. Elle a interdit «*complètement*» le commerce et la consommation d'animaux sauvages.

Conclusion

Depuis le début de la rédaction de cet article jusqu' aujourd'hui (20 avril 2020), le nombre de personnes confinées croissait avec la propagation rapide de la pandémie Covid-19. Il est passé de 2 milliard de personnes à plus de 4 milliard. Cet effectif colossal met sans doute en répit notre planète, mais ne peut pas être une réponse au réchauffement climatique. En fait, le changement climatique se résoudra par une transformation de nos économies et non par un arrêt pur et simple des activités économiques.

Les dommages des changements climatiques restent relativement abstraits par rapport aux victimes quotidiennes causées par la pandémie du Covid-19, mais le réchauffement climatique est la nouvelle réalité à laquelle nous allons devoir nous adapter à très long terme. Nous aurons à apprendre à vivre dans une société durable et agréable sur le long terme que de vivre dans une société exposée à des vagues répétées d'épidémie.

La crise sanitaire du Covid-19 vient nous offrir un espace de réflexion pour repenser nos relations avec l'environnement et les générations futures. Elle nous a mis devant la réalité de nos comportements, de nos gestes vis-à-vis de nos modèles de consommation et de production. Elle est surtout là pour nous montrer la vulnérabilité de notre monde mondialisé actuel.

Actuellement, tous les environnementalistes sont convaincus que la crise du coronavirus est porteuse de risques et de difficultés, mais aussi une opportunité qu'il ne faut pas louper pour gagner un pas au profit de l'environnement. C'est également une occasion unique pour que les connaisseurs scientifiques prennent leur place dans les décisions politiques et les orientations des acteurs financiers et économiques vers la planification d'une économie bas-carbone.

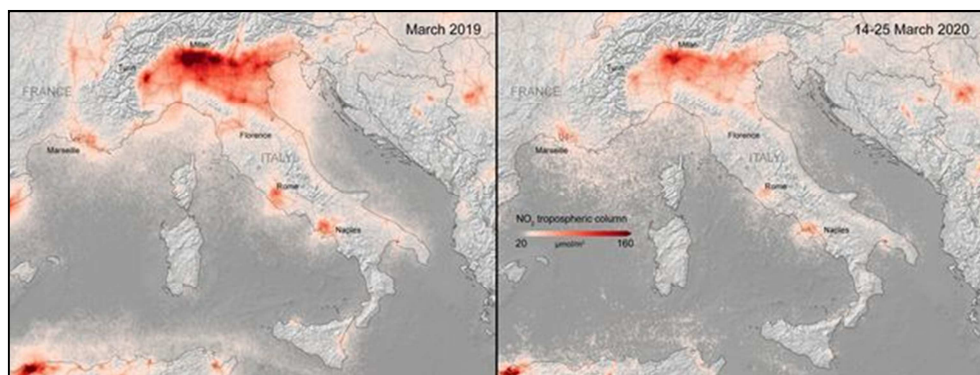
Webographie

Augustin Fragniere, 2020. « Non, le COVID-19 n'est pas bon pour le climat » ... mais il devrait nous faire réfléchir. <http://wp.unil.ch/viral/non-le-covid-19-nest-pas-bon-pour-le-climat-mais-il-devrait-nous-faire-reflechir/>

Earthobservatory.nasa.gov. 2020. NASA: china's Airborne Nitrogen Dioxide Plummets As Coronavirus pandemic Crushes Economy. <https://earthobservatory.nasa.gov/blogs/earthmatters/2020/03/>

Futura Science .2020. Les grandes pandémies qui ont marqué l'histoire. <https://www.futura-sciences.com/sciences/questions-reponses/histoire-grandes-pandemies-ont-marque-histoire-13440/>

Goats and Soda News letter .2010. H1N1 Was The Last Pandemic. Here's Why COVID-19 Isn't Yet In That Category, Stories of life in a changing world.



Source : images. Search. yahoo. Com/yhs/search , 2020

Figure 2 : La chute importante des émissions de dioxyde d'azote dans le nord de l'Italie pendant le confinement de mois de mars

Mêmes conséquences en Espagne : le confinement et la baisse très nette de l'activité économique font chuter les niveaux de NO_2 dans l'atmosphère notamment au-dessus des grandes villes comme Madrid.

En plus de l'air, les eaux des fleuves et les eaux marines, elles aussi ont bénéficié de ce « repos anthropique ».

En Italie à Venise, en absence des touristes et en raison de l'arrêt du commerce des bateliers, les eaux sont devenues claires et limpides dans le grand canal à tel point que cette observation peut être faite depuis l'espace.

Dans les grandes villes mondiales, on entend de nouveau les oiseaux alors que le bruit incessant de la circulation routière a quasiment disparu. Les citoyens confinés chez eux se réjouissent de pouvoir entendre le chant de ces belles créatures après l'avoir perdu depuis bien longtemps.

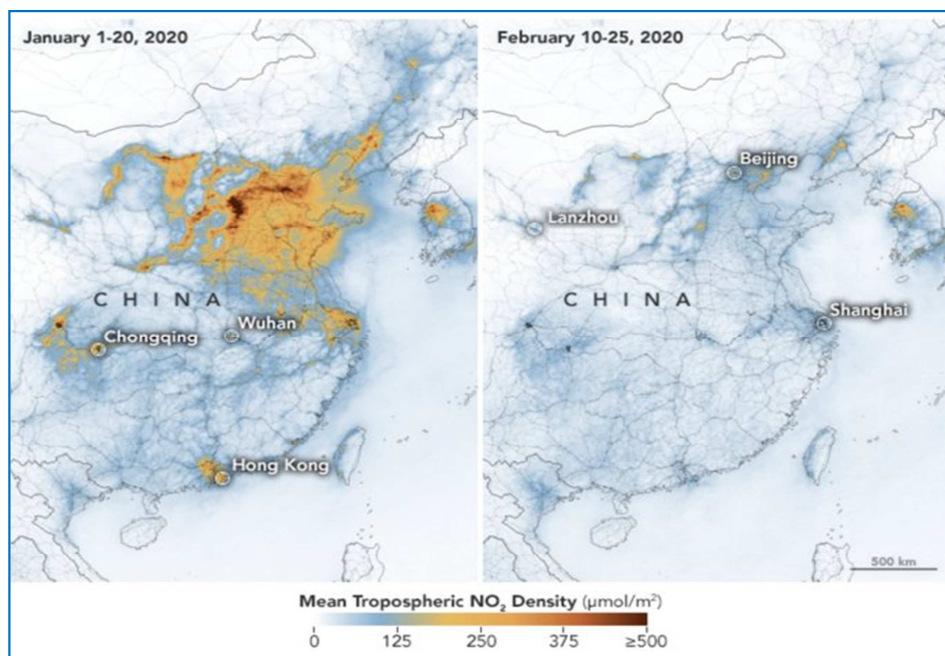
En Italie, les eaux salées et douces de vénus ont retrouvé leurs habitants disparus depuis plusieurs années. Il s'agit des dauphins qui ont été filmé dans le port de Cagliari en Sardaigne.

En France, outre les oiseaux qui profitent allègrement des rues parisiennes désertes, le parc national de Marseille, a vu une fréquence d'animaux quasi inédite pendant la période de confinement. Des puffins, des fous de Bassan, un héron cendré de passage, des dauphins et des thons ont été aperçus par les agents du parc.

Au Maroc dans la ville d'Ifrane (Moyen Atlas), des habitants confinés dans leurs maisons ont filmé un troupeau de sanglier, guidé par un chef très méfiant, traversant une route pour gagner l'autre côté de la forêt.

De l'autre côté de l'Atlantique, dans la capitale chilienne, un puma qui avait abandonné les montagnes de Santiago a été photographié dans les rues désertes de cette ville.

Et à l'heure d'écrire ces mots, tous les êtres vivants de la biosphère profitent grandement de ce confinement sanitaire contre la pandémie Covid-19. Ils fêtent,



Source: earthobservatory.nasa.gov.720.595, 29 février2020.

Figure 1 : une large chute des émissions de dioxyde d'azote enregistrée pendant le confinement de la population chinoise entre les mois de janvier et février

Les émissions chinoises de CO_2 ont baissé de 25% suite à un effondrement quasi-total de la consommation du charbon et du pétrole. La paralysie totale du secteur entier du transport aérien contribue à réduire ses importantes émissions des gaz à effet de serre. Selon le Centre de Recherche sur l'Energie et l'Air pur (CREA), cette baisse, comparée à la même période en 2019, est équivalente aux émissions annuelles de CO_2 de l'Argentine, de l'Égypte ou du Vietnam.

En France dans l'agglomération parisienne, l'évaluation de l'air entre le 16 et le 20 mars montre une amélioration de la qualité de l'air de l'ordre de 20 à 30 %, consécutive à une baisse des émissions de plus de 60 % pour les oxydes d'azote. Cette baisse des polluants de l'air s'accompagne d'une baisse du gaz à effet de serre(CO_2). Donc, la baisse des proportions de NO_2 et de CO_2 est responsable de toute amélioration de la qualité de l'air.

Les images satellites montrent une baisse significative du taux de dioxygène d'azote au-dessus de l'Italie, en particulier sur le nord du pays. En effet, les villes du Nord enregistrent une baisse des polluants au-dessus de la moyenne quotidienne du NO_2 depuis la semaine 6 du confinement (Fig. 2).

la création du Fonds vert pour le climat, qui prévoit le transfert de fonds des pays les plus avancés vers les plus vulnérables pour endiguer les conséquences du changement climatique. L'objectif général fixé par les participants de la COP15 était de limiter le réchauffement climatique à +2°C par rapport à l'ère préindustrielle de 1850.

Suite aux différents succès et échecs dans ces négociations internationales, une nouvelle approche a été choisie en vue de la COP 21 de Paris en 2015. Elle postule que chaque pays devait présenter ses engagements nationaux (NDC) déposés par les pays avant même le déroulement du sommet et que ces pays se sont engagés à respecter en ratifiant l'accord de Paris. Parmi les grandes décisions de la COP 21, les pays développés débloqueront chaque année 100 milliards de dollars à destination de leurs homologues en développement dès 2020 pour les aider à réussir la transition de l'utilisation d'énergies fossiles aux énergies renouvelables. Les mesures prises par les parties suite à la COP 21 stipulent que Chaque pays était libre de fixer ses propres objectifs et pouvait également mentionner ses besoins pour y parvenir. A titre d'exemple, la COP 22 tenu à Marrakech en 2016 était une occasion pour le Maroc à montrer son engagement présenté lors de la COP21 par l'adoption des énergies renouvelables. Le grand projet « NOUR » de l'énergie solaire installé dans la région d'Ouarzazate est l'un des grands chantiers africains témoignant de cette transition.

Personne ne peut nier la chute spectaculaire des émissions gazeuses industrielles à effet de serre depuis le lancement des mesures sévères de confinement contre le Covid-19. Mais, cette variation minime enregistrée durant quelques semaines ne peut pas atteindre les objectifs de la COP 21 que sont : la baisse permanente des émissions mondiales de 45% d'ici 2030, par rapport à leur niveau en 2010, pour ensuite atteindre zéro émission nette en 2050.

3.4. Retombées positives du confinement sanitaire sur l'environnement

Les mesures de confinement partiel ou total qui touchent plus de 4 milliard de personnes dans le monde et qui engendrent des conséquences dramatiques économiques, sociales et politiques, sont par contre bénéfiques pour l'environnement. En effet, une baisse significative de la pollution est visible. Elle est le résultat de l'arrêt brusque de la plupart d'industries, mais elle est principalement la conséquence de la diminution rapide des transports terrestres, maritimes et aériens.

L'atmosphère respire enfin : la pollution atmosphérique a fortement chuté en Chine et en Europe. Les satellites de la NASA et de Copernicus (programme européen de surveillance de la Terre) ont pu constater les effets des mises en quarantaine de la Chine, de l'Italie, de la France et de l'Espagne. Les résultats de leurs observations sont frappants (fig. 1 et2).

Sur le mois de février, la Chine, pays pollueur par excellence avec ses très nombreuses industries avait vu ses concentrations en NO₂ chuter drastiquement lors de sa mise en confinement. Le phénomène était si impressionnant dans le ciel de la ville de Wuhan, foyer épidémique du Covid-19, placé en confinement total (fig. 1).

avaient deux fois plus de risques de mourir du Sars par rapport à ceux vivant dans les régions peu polluées.

D'un autre côté un débat est soulevé sur l'impact de la pollution atmosphérique et la propagation du Covid-19. Des spécialistes italiens et allemands ont précisé que l'exposition à la pollution atmosphérique augmente le risque de complications sur la santé mais ne participe pas à la dissémination de ce coronavirus.

3.2. L'effet de serre et changement climatique

Les émissions cumulées de CO₂ produites par les activités humaines industrielles depuis la première révolution industrielle de 1750 ont atteint à ce jour plus de 2000 milliard de tonnes. Elles sont jugées par les climatologues de l'organisation des nations unies comme les vrais responsables de la déstabilisation du processus naturel de l'effet de serre qui a fait augmenter la température de notre planète d'environ 0,85 C° depuis 130 ans. Le niveau actuel des émissions conduit la planète vers une hausse de 4C° d'ici 2100. Ces changements climatiques sont déjà visibles sur tous les continents et les systèmes humain et naturel avec une multiplication des phénomènes extrêmes, tels que l'aggravation des sécheresses, les inondations, l'élévation du niveau de la mer due à la fonte des glaces et à l'expansion thermique de l'eau, l'acidification des océans et la disparition de certaines espèces animales et végétale. Les conséquences de réchauffement climatique seront dévastatrices et irréversibles s'ils n'étaient pas rapidement contrôlés.

3.3. L'environnement et les COP des Nations Unies

Devant ce diagnostic annoncé par les climatologues et l'état déplorable de la planète, l'ONU a appelé au premier sommet de la Terre en 1972 à Stockholm pour prendre en main la problématique de l'environnement. Ce sommet a créé le Programme des Nations Unies pour l'Environnement et a adopté le plan de lutte contre la pollution et a mis en place la conférence internationale des parties (COP) pour faire le point sur l'état de la Terre. Après 20 ans s'est tenu le troisième sommet de la Terre à Rio de Janeiro. Il a instauré la convention-cadre des Nations Unies sur les changements climatiques (CCNUCC) et reconnaît les principes de précaution, des responsabilités communes et différenciées et le droit au développement.

La première COP a eu lieu en Allemagne en 1995 et depuis organisée chaque année. Chaque édition rassemble tous les pays ayant ratifié cette convention cadre sur laquelle elle est fondée. Pendant la COP3 du Japon (1997), la signature du Protocole de Kyoto venait renforcer l'engagement des parties envers l'environnement en se mettant d'accord à réduire les émissions de gaz à effet de serre d'au moins 5% par rapport au niveau de 1990 pour des résultats attendus de 2008 à 2012. Or cet accord a été conditionné par un taux d'émission mondiale des pays le ratifiant d'au moins 55%. Après, se sont succédées les autres COP, en incitant les pays grand pollueurs du monde à s'impliquer, notamment les Etats Unis qui n'ont pas participé à la COP13 de 2007. Pendant la COP15 de Copenhague (2009) tous les pays développés, en développement et les moins avancés se sont mis d'accord pour la première fois sur la nécessité de réduire leurs émissions de gaz à effet de serre. De plus, les pays développés ont accepté

L'organisation mondiale du tourisme (OMT) s'attend à une baisse de 20% à 30% du tourisme dans le monde en 2020 par rapport à 2019. Cette chute pourrait faire diminuer les recettes du tourisme international d'un tiers des recettes générées en 2019. D'après l'évaluation de l'OMT, le Covid-19 ferait perdre de cinq à sept ans de croissance en tourisme international.

Enfin, les experts économiques jugent cette crise sanitaire comme la pire crise économique qui pourrait exister depuis la grande dépression de 1929.

3. Le confinement sanitaire mondial contre la pandémie Covid-19 et l'environnement

3.1. Activités industrielles, pollution et santé

Avec la première révolution industrielle déclenchée en 1750 et qui continue à évoluer à nos jours, toutes les couches composant notre planète que sont : l'atmosphère, la biosphère (faune, flore et Homme), l'hydrosphère (océans, mers, fleuves ...) et la lithosphère (couches rocheuse moins de 70km de profondeur) ont fait l'objet d'exploration, d'investigation et d'exploitation par l'Homme à la recherche de la matière première et des énergies fossiles. En effet, depuis la découverte des gisements du pétrole et l'utilisation des énergies fossiles pour faire marcher les moteurs des machines, dont les véhicules, l'Homme n'a pas cessé de chercher de nouveaux gisements d'hydrocarbures. L'industrie des voitures s'est développée et la demande sur ces énergies fossiles augmentait avec le temps, alors que ce combustible brûlé continue de polluer l'environnement.

L'industrie lourde est estimée responsable de la pollution de l'environnement par la fabrication des voitures et des routes, la production de pétrole et les émissions de gaz à effet de serre qui en résultent. Sans oublier la modernisation qui a favorisé l'apparition des villes agencées l'une à côté de l'autre et rendant ainsi l'utilisation des véhicules quasiment nécessaire.

La pollution obscurcit le ciel dans les villes du monde entier et l'air que nous respirons est de plus en plus contaminé par des particules en suspension et du monoxyde de carbone et du dioxyde d'azote. Ces polluants caractéristiques du trafic automobile et marin se concentrent le long des voies de circulation. Ils sont dangereux pour la santé humaine avant de l'être pour l'environnement. En effet, le NO₂ est un gaz oxydant puissant, qui pénètre facilement dans les poumons et à des concentrations dépassant 200µg/m³ sur de courtes périodes. Il provoque des irritations inflammatoires de l'appareil respiratoire et une augmentation de l'hyperréactivité bronchique chez les asthmatiques. Ce polluant réagit dans l'air des villes et contribue à la formation d'autres polluants, ozone et particules secondaires.

Il existe sans doute des liens entre la dégradation de l'environnement et l'apparition de nouveaux agents pathogènes, en particulier ceux détruisant la biodiversité.

En 2003, une étude a analysé le lien entre la pollution de l'air et les cas létaux de syndrome respiratoire aigu sévère causés par tous les Sras-Cov en la Chine. Il a été constaté que les patients contaminés vivants dans des régions modérément polluées avaient 84% plus de risques de mourir que les patients de régions peu polluées. De même, les patients vivants dans les régions avec des niveaux de pollution élevés

confinés et voient leurs déplacements restreints. Le 25 mars 2020, le confinement total de la population indienne est instauré pour 21 jours.

Dans notre pays, les mesures de confinement ont été bien entamées juste après quelques jours de l'apparition du premier cas contaminé du Covid-19. En date du 20 Mars 2020, les frontières se sont fermées, tout le pays est en quarantaine pendant un mois. Les déplacements de 36 millions de marocains sont limités, toutes les établissements scolaires sont fermés et tous les rassemblements sont interdits y compris les sportifs. Malgré, cette mise en quarantaine prévue d'être levé le 20 Avril en cours, le nombre des cas contaminés par ce coronavirus est en perpétuelle croissance (3046 cas confirmés et 143 décès cumulés), les autorités ont prolongé encore les mesures de confinement sanitaires jusqu'au 20 mai prochain.

2.2. Le confinement sanitaire et répercussions sur l'économie

A la date du 20 Avril, plus de 4 milliard de personnes sont privées de tous déplacements mais aussi de toute activité économique. Seuls les biens de grande consommation continuent d'être produits (produits sanitaires et d'hygiène, produits d'alimentation, ...)

Aux quatre coins du globe, les mêmes scènes se répètent : les usines fermées, les rues vides et les aéroports à l'arrêt. Une situation dramatique qui conduit à une baisse drastique des activités humaines.

A la même date, l'industrie pétrolière mondiale est confrontée à une baisse sans précédente de la demande en raison de ces mesures mondiales de confinement sanitaire. Les indications suggèrent une baisse de 20% de la demande, un taux trop élevé que celui enregistré durant la récession du second choc pétrolier (5%).

Après la Chine, l'Europe voit ses moyens de production s'arrêter les uns après les autres. Les bourses européennes se sont effondrées, les compagnies aériennes qui n'ont plus des clients-voyageurs annoncent déjà des milliers de licenciements. De ce fait, la Banque centrale européenne a annoncé, le 18 mars, un plan d'urgence de 750 milliard d'euros pour racheter des dettes publiques et tenter de contenir les répercussions de la pandémie Covid-19.

Selon une estimation économique, l'activité du secteur privé dans la zone euro a chuté en mars à son plus bas niveau historique. Les travailleurs journaliers n'ont pas droit de bouger, ni travailler mais ils n'ont pas de quoi à manger.

Aux Etats-Unis, le confinement d'une partie de la population et des activités entraîne une explosion des demandes de chômage : plus 10 millions entre le 15 mars et le premier Avril alors que le taux de chômage était au plus bas depuis 50 ans.

Selon un communiqué de l'organisation non gouvernementale Oxfam : les conséquences économiques du Covid-19 pourraient faire basculer 500 millions de personnes supplémentaires dans la pauvreté, notamment dans les pays en développement.

2. le confinement sanitaire mondial contre le Covid-19 et répercussion économique

2.1. Le confinement sanitaire contre le Covid-19

Pour éviter d'atteindre le pic de la propagation du coronavirus et altérer la capacité du système de santé des pays pauvres et aussi des pays avancés, l'organisation mondiale de la santé (OMS) à encourager les mesures préventives qui pourraient ralentir au moins d'un mois ou de six semaines cette pandémie en cette saison de la grippe.

Au départ, les principales priorités de l'OMS étaient de protéger les travailleurs de la santé, de protéger les personnes vulnérables telles que les personnes malades et âgées et de protéger les pays vulnérables. Après, les pays procédaient par identifier immédiatement chaque nouveau cas et isoler les patients.

Entre les 23 et 25 janvier 2020, la Chine pays d'origine du coronavirus a pris une mesure inédite dans l'histoire de l'humanité en confinant les 59 millions d'habitants de la province du Hubei, après avoir confiné Wuhan (11 millions d'habitants), Huang gang (7,5 millions) et Ezhou (1 million).

Cette mesure qui vise à "contenir efficacement le rythme de la propagation de l'épidémie" s'est traduit par la fermeture des aéroports, gares ferroviaires et routières, voies fluviales, autoroutes... Toutes les voies de communication vers l'extérieur sont filtrées par l'armée chinoise. Cette dernière a renforcé cette quarantaine en limitant strictement la circulation des transports et des personnes pour endiguer la propagation du virus.

Cela s'est traduit par le confinement et le contrôle total de la population : tous les transports, hors services d'urgence et transports en commun, étaient suspendus ; la température de tous les clients des commerces et personnes qui quittaient leur domicile était vérifié. Et lorsqu'un cas de contamination était diagnostiqué, une quarantaine obligatoire de 14 jours était imposée à celui-ci et tous les habitants environnants. Dans les autres grandes agglomérations de la Chine, les autorités annonçaient la mise en place de mesures de dépistage du virus et de désinfection.

Profitant de la mondialisation des échanges et des déplacements, la pandémie Covid-19 s'est répandue hors la Chine. En effet et au 2 février, les Philippines ont confirmé leur premier cas de décès par ce virus. En fin mars, près de 200 pays étaient touchés par la pandémie et dont la plupart fermaient leurs frontières et limitaient drastiquement tous les déplacements.

Globalement, la période de confinement sanitaire mondial s'est étendue depuis le mois de janvier jusqu'à nos jours. Pendant environ trois mois à plus les déplacements, les rassemblements des populations et les activités économiques se limitaient. En effet, le 22 mars, l'Italie a stoppé toutes ses activités de production non indispensables pour garantir son approvisionnement en biens essentiels et a fermé tous les espaces verts. Depuis le 17 mars, l'ensemble des français vivent

Nom pandémie	Date apparition	Pathologie	Pays d'origine	Nombre de décès	Evénement historique associé
Peste d'Athènes	-430 à -426 avant J – C	fièvre thyph	Athènes	200 000 d'habitants la ville de Sparte	Déclin d'Athènes
Peste d'Antonine	165 à 166 après J – C	Variole	Mésopotame	10 million	Guerre entre Geneve et Parthes. Affaiblissement de la population romaine
Peste noire ou « la grande peste »	1347 – 1352	maladie se manifestant par des Bubons	Troupe de Mongoles dans le port de Caffa sur la mer noire et navires génois venant à Marseille	20 à 40 million	Guerre menée entre les Chinois et les Mongols
La grippe espagnole	1918 – 1919	Virus type A très virulent	Asiatique	20 à 30 million Soit le 1/3 et 1/2 de la population mondiale en cette date	fin de la première guerre mondiale
La grippe asiatique	1956 – 1957	Virus influenza H2N2	Chine, Hong-kong, Singapour, Birmé, Australie, Amérique du Nord	2 millions de personnes	Extension mondiale du réseau de laboratoires de virologie par l'organisation mondiale de la santé (OMS)
« La grippe de Hong Kong »	1968 – 1969	Virus H2N2 muté en H3N2	Chine	1 million de personnes	pandémie marquée par l'invention des premiers vaccins antigrippaux efficaces
Le Sida	1981 – aujourd'hui	VIH, identifié en 1983 cause une pneumocytose	Kinshasa (république démocratique du Congo) Apparue pour la première fois en USA Atlanta	2 million meurent chaque année et 36,9 Million vivent Encore avec le VIH	Les traitements antirétroviraux ont permis de réduire considérablement la mortalité
Sras-Cov Coronavirus	2002-2004	Syndrome respiratoire	Chine	Taux létalité : 9,6% (774 de morts/8096)	Adoption du concept de maladies virales émergentes par les partenaires de l'OMS et mise en place de politique scientifique mondiale de lutte contre ces maladies. La figure hiérarchique de l'OMS est remplacée par celui d'un réseau plus souple et plus mobile.
Mers-Cov Coronavirus	2019	Même origine animal que Sras (Mers) infection pulmonaire	Arabie saoudite	Taux de létalité : 35%	
Sars-Cov2 ou Covid19	Décembre 2019	virus muté	Chine	Plus de 250 000 en trois mois	

pandémies ont tué, au fil des temps, des millions de personnes et même décimé des populations entières en quelques mois voire en quelques jours.

Les pandémies connues et documentées depuis le début de l'Histoire sont en nombre de vingt-trois. Elles diffèrent par leur cause pathogène, pays de provenance, taux de létalité et circonstances historiques politique et socio-économique régnant lors de leur propagation. Le tableau ci-dessous résume les pandémies qui ont marqué l'histoire de l'humanité depuis la peste d'Athènes jusqu'à la pandémie Covid-19.

1.2. La Pandémie Covid-19

Les pandémies du début du troisième millénaire sont causées par des virus appartenant à la famille des coronavirus. Ces virus d'origine animale ont été identifiés pour la première fois chez l'humain dans les années soixante. Ils causent principalement des infections respiratoires, allant du rhume sans gravité à des pneumopathies sévères parfois létales. Ces symptômes peuvent aussi s'accompagner de troubles digestifs tels que des gastro-entérites.

Les virus les plus graves de la famille Coronavirus sont:

- Sras-Cov : Beta-coronavirus qui a causé le syndrome respiratoire sévère identifiée en Chine en 2002;
- Mers-Cov : corona virus-beta qui a provoqué le syndrome respiratoire du Moyen- Orient, ou Mers découvert en 2012 en Arabie Saoudite.
- Sars-cov-2 ou le Covid-19 identifié en Chine en décembre 2019, il est responsable de la pandémie actuelle. Il a beaucoup de similitudes avec le coronavirus du Sras-Cov 2002 quant 'à son origine animale, mais il présente aussi des différences notables quant' à sa contagion. En effet, il est contagieux dès le début des symptômes voire parfois en l'absence de symptômes alors que le Sras-Cov l'était quelques jours après les premiers symptômes. Ce qui fait des personnes infectées et asymptomatiques les plus contagieuses que les personnes infectées et malades. Selon les spécialistes de la biologie moléculaire ce coronavirus muté est responsable des infections nouvelles ou maladies émergentes.

Le Covid-19 a un taux de mortalité (environ 5 %) plus faible par rapport aux deux autres coronavirus (Sras et Mers), mais il est 10 fois supérieur à celui de la grippe (influenzae virus) saisonnière (0,3 %), ce qui correspond au chiffre de la Grippe Espagnole (H1N1) et qui a fait bien plus de décès que la Grande Guerre en six mois. De par ces caractéristiques, les chercheurs de Hong Kong craignent que le Covid-19 contamine de 60 à 80 % de la population mondiale si la pandémie n'est pas contrôlée. Ils annoncent aussi qu'avec un taux de mortalité bas, ce coronavirus pourrait potentiellement tuer entre 30 et 53 millions de personnes dont la plupart étant déjà atteintes de problèmes de santé chroniques ou vieillissantes.

La crise sanitaire de coronavirus, que nous subissons aujourd'hui, constitue une opportunité unique qu'il faut saisir par la communauté mondiale économique, financière, politique et scientifique dans l'objectif de réaliser un pas au profits de l'Environnement et des générations futures. Ceux-ci ne seront réalisés qu'en instaurant un nouveau modèle de vie durable basé sur la politique de l'économie verte.

Mots-clés : Covid-19, environnement, les gaz polluants, l'économie verte.

Introduction

Aujourd'hui, nous traitons le sujet d'une crise inédite, celui du confinement sanitaire que nous sommes en train de subir pour lutter contre la pandémie Covid-19. Au mois du décembre dernier et en partant de la ville chinoise de Wuhan, le Coronavirus ou encore le Sars-cov2 envahissait les différents coins de la planète et continue de se propager sans arrêt. A l'heure d'écrire ces mots, il a tué plus de 250 000 personnes et a contaminé 3 500 000 cas, sans oublier les millions des cas qu'ils l'ont contracté, mais qui ne sont pas dépistés, donc non recensés.

A cause de cette pandémie, plus de 4 milliards de personnes sont privées de leur liberté. Une fois l'apparition d'un cas est confirmée, une quarantaine de 14 jours est imposée à cette personne et à tous les habitants l'avoisinants. Des villes, des régions et même des pays ont fermé leurs frontières pour lutter contre cette pandémie mortelle.

Le choix de discuter l'impact de confinement sanitaire mondial du Covid-19 sur l'environnement est basé sur le fait que cette crise pandémique a vraiment un aspect prolifique pour toutes les composantes de l'environnement et que nous allons révéler dans cet article.

Le confinement sanitaire ou comme nous préférons l'appeler « le repos anthropique » est une occasion très pertinente pour que les êtres vivants de la Terre profitent pleinement de leur droit de vivre en paix, en absence de l'Homme, l'être vivant le plus « dévastateur » qui puisse exister sur la planète.

Le présent travail, se compose de trois chapitres. Le premier, est consacré à un aperçu historique sur les pandémies et la définition de la pandémie Covid-19. Le deuxième chapitre s'attaque à la définition du confinement sanitaire et ses retombées négatives sur l'économie mondiale. Le dernier chapitre développe l'idée générale de la thématique qui est le confinement sanitaire et son impact positif sur l'environnement en passant par montrer l'influence des activités industrielles sur le climat général du globe et les mesures prises par la communauté mondiale pour faire face à la pollution et se termine par l'exposition de certains exemples positifs de ce confinement sur l'Environnement. Ce document se termine par une conclusion sur la vision que nous avons formulée pour la période post-confinement.

1. Pandémies au fil des temps et pandémie Covid-19

1.1. L'histoire des pandémies

La pandémie, version globalisée de l'épidémie, se caractérise par une propagation rapide et un taux de mortalité élevé. Transmise par des virus ou des bactéries, les

LE CONFINEMENT SANITAIRE MONDIAL CONTRE LA PANDEMIE COVID-19 ET SON IMPACT SUR L'ENVIRONNEMENT

Hafida NAIM

Université Ibn Tofail, FS, Kénitra

naim.hafida@uit.ac.ma

ملخص

مع نهاية سنة 2019 و انطلاقا من مدينة ووهان الصينية انتشرت جائحة كوفيد-19. ومازالت تحتاج وبدون هوادة كل أنحاء العالم. و من اجل الحد من انتشار هذا الوباء اتخذت حكومات جميع الدول إجراءات قاسية فأقفلت حدود جهات ومدن كبيرة وحتى أحياء. كما حدثت من حركة التنقل والسير وتحركات الأشخاص.

سببت هذه الإجراءات الصحية المتشددة لمكافحة جائحة كورونا أزمات اقتصادية واجتماعية و سياسية لا مثيل لها لكن و بالمقابل عادت بالنفع الكبير على الحالة المتدهورة للبيئة. فبالفعل ساهم التوقف المفاجئ للأنشطة الصناعية وحركة النقل القارية و البحرية وكذلك الجوية في انحسار مهم للانبعاث الغازات الملوثة ولا سيما غاز ثاني اوكسيد الكربون و ثاني اوكسيد الازوت. صار الغلافان الجوي و المائي للأرض في تحسن ملموس كما حققت الكائنات الحية توازنا طبيعيا مع محيطها.

إن الأزمة الصحية العالمية كوفيد-19، والتي نمر بها حاليا، تمثل مناسبة مهمة وجب على المنتظم الدولي الاقتصادي والمالي والسياسي وكذلك العلمي استغلالها جيدا من اجل تحقيق خطوة إلى الأمام لحساب البيئة والأجيال القادمة. ولن يتأتى هذا إلا بتبني أسلوب حياة جديد ومستدام يعتمد على سياسة الاقتصاد الأخضر.

الكلمات المفتاحية: كوفيد-19، البيئة، الغازات الملوثة، الاقتصاد الأخضر.

Résumé

En fin d'année 2019 et partant de son foyer épidémique « Wuhan », la pandémie mortelle Covid-19 a envahi la planète terre et continue de se propager sans répit. Pour endiguer sa dissémination les gouvernements de tous les pays ont pris des mesures préventives sévères. Des frontières sont fermées, des régions, des villes et même des quartiers sont confinés. La circulation des transports et le déplacement des personnes sont devenus très limités.

Ces mesures préventives drastiques prises pour lutter contre la pandémie Covid-19 ont provoqué des crises économiques, sociales et politiques inédites, mais en l'occurrence ont un effet très bénéfique sur l'Environnement. En effet, l'arrêt brusque des activités industrielles et des transports terrestres, maritimes et aériens a entraîné l'arrêt considérable de l'émission des gaz polluants, notamment le CO₂ et le NO₂. Par conséquent, la Terre voit la qualité de son atmosphère et son hydrosphère en amélioration et l'équilibre naturel de sa biosphère est atteint.

- Eurald François, Gollier Christian et De Sadeleer Nicolas**, 2008, Le principe de précaution, Collection Que sais-je ? Presses Universitaires de France.
- Georgieva Kristalina**, 2020, Affronter la crise : priorités pour l'économie mondiale, communication du 9 avril 2020, <https://www.imf.org/fr/News/Articles/2020/04/07/sp040920-SMs2020-Curtain-Raiser>
- OIT**, 2020, Le COVID-19 entraîne des pertes dévastatrices en termes d'heures travaillées et d'emplois, communiqué du 7/4/2020, https://www.ilo.org/global/about-the-ilo/newsroom/news/WCMS_740997/lang--fr/index.htm
- Mouhanna, Christian**, 2017, État d'urgence, état des lieux : abus de police et usure démocratique, *Sociologie*, N° 4, vol. 8, <http://journals.openedition.org/sociologie/3389>.
- ONU Info**, 2020, Covid-19 : les restrictions ne doivent pas empêcher la liberté de réunion et d'association, N° 14/4/2020. https://news.un.org/fr/story/2020/04/1066512?utm_source=UN+News++French&utm_campaign=f33c3aac57-EMAIL_CAMPAIGN_2020_04_15_12_00&utm_medium=email&utm_term=0_0264da9d8f-f33c3aac57-107347646
- Organisation Mondiale de la Santé**, Règlement Sanitaire International (2005), **Domaines de travail pour la mise en œuvre du Règlement**, Juin 2007, p. 23, WHO/CDS/EPR/IHR/2007.1
- Pech Thierry**, 2020, Crise sanitaire et crise écologique, Terra nova, le 23 mars 2020. <http://tnova.fr/notes/crise-ecologique-et-crise-sanitaire>
- Pinner Dickon, Rogers Matt et Samandari Hamid**, 2020, Addressing climate change in a post-pandemic world, Mackinsey Quarterly, avril 2020, <https://www.mckinsey.com/business-functions/sustainability/our-insights/addressing-climate-change-in-a-post-pandemic-world#>
- Ramachandran Sohini**, 2014, Global rise in human infectious disease outbreaks, *Journal of the Royal Society Interface*, vol. 11, issue 101, <https://royalsocietypublishing.org/doi/full/10.1098/rsif.2014.0950>
- Rasse Paul et Rasse Gabrièle**, 2014, Approche anthropologique et juridique de la politique de prévention des risques, *Communication et organisation*, N° 45, <http://journals.openedition.org/communicationorganisation/4554>
- Relevé des Maladies Transmissibles au Canada**, 2019, Changement climatique et maladies infectieuses- Les défis, Numéro 45-4.
- Rob Jordan**, 2019, How does climate change affect disease ?, Stanford Earth, School of Earth, Energy & Environment, <https://earth.stanford.edu/news/how-does-climate-change-affect-disease#gs.4t2xd9>
- Smith Katherine, Goldberg Michael, Rosenthal Samantha, Carlson Lynn, Chen Jane, Chen Cici, UNISDR**, 2009, Terminologie pour la Prévention des risques de catastrophe, Genève, Stratégie internationale de prévention des catastrophes des Nations unies, http://www.unisdr.org/files/7817_UNISDRTerminologyFrench.pdf

solidarité sociales, en retenant les frais des personnes prises à charge, telles que les ascendants, descendants ou personnes à besoin spécifiques. Enfin, il serait inéquitable de ne pas tenir compte des charges liées à un emprunt immobilier contracté ou aux loyers supportés dans le cadre du domicile principal lorsque le traitement fiscal met sur le même pied d'égalité le propriétaire et le non propriétaire du domicile principal. Le Maroc doit dépasser cette vision court-termiste de recettes immédiates.

Enfin, sur le plan du bien-être humain, il ne saurait tarder de prévoir en droit le traitement du surendettement des marocains. Il est prévu dans le livre V du code de commerce le traitement des entreprises en difficulté. Cependant, le cas des personnes physiques non commerçantes n'a pas eu d'égard suffisant à ce sujet par le droit marocain.

Ces quelques propositions, tendent à appréhender la crise du Covid-19 comme une opportunité pour renforcer la résilience du Maroc face au changement climatique dans une perspective de développement durable.

En guise de conclusion, le Covid-19 malgré tous ses impacts négatifs, pourrait être perçu comme une opportunité à saisir. Les catastrophes et les grandes crises sont les moments de reconstruire. Il est évident à présent que l'investissement dans la résilience, même s'il paraissait coûteux, est certainement moins important que les dommages occasionnés en cas de non résilience. Il faut, dès lors, tirer toutes les leçons pour éviter que l'humanité soit de nouveau en état de choc et subisse lourdement les effets du risque climatique. Elle doit être pleinement consciente, qu'il ne s'agit plus d'un simple scénario extrême, mais bel et bien d'un risque totalement prévisible et pour lequel le Covid-19 nous a donné une illustration de l'occurrence d'un risque global. L'humanité doit désormais, surmonter toutes les différences qui la déchirent (frontières, rivalité économiques, enjeux stratégiques, etc.) et faire tout son possible pour éviter que le pire ne se réalise. Le Maroc pour sa part, doit faire en sorte que la reconstruction se fasse sur la base d'un nouveau modèle de développement durable. Celui-ci doit consacrer un développement humain durable, où l'économique, le social et l'environnemental sont au service du bien-être humain. C'est la seule manière de garantir une cohésion et une implication de toutes et de tous pour un Maroc où il serait bien d'y vivre sur tous les plans.

Références bibliographiques

- Bigo Didier, Bonelli Laurent**, 2018, Ni État de droit, ni État d'exception. L'état d'urgence comme dispositif spécifique ? Introduction, Cultures & Conflits, n° 112, p. 7-14. <https://www.cairn.info.ressources.imist.ma/revue-cultures-et-conflits-2018-4-page-7.htm>
- Boidin, Bruno**, 2005, La santé : approche par les biens publics mondiaux ou par les droits humains ? in Mondes en développement, n° 131, pages 29 à 44. <https://doi.org/10.3917/med.131.0029>
- David, Charles-Philippe**, 2013, La Guerre et la paix. Approches et enjeux de la sécurité et de la stratégie, Paris, Presses de Sciences Po, 3e édition.

sur les sûretés réelles mobilières¹, qui permettra aux entreprises de valoriser leurs richesses pour obtenir le crédit nécessaire à leur développement. Cependant, le financement créateur de dettes largement pratiqué au Maroc n'est pas, à notre sens, le plus adapté à la réalité économique marocaine essentiellement composée de petites et moyennes entreprises voire de très petites entreprises. Le capital-risque, bien qu'existant juridiquement, ses performances en matière de création et de développement des entreprises demeure très timide. Il serait alors opportun pour le Maroc de développer le financement participatif pour en tirer profit. Juridiquement, le Maroc est outillé puisqu'il dispose de la loi n° 41-05 relative aux organismes de placement en capital-risque. Il a adopté, par ailleurs, dans la loi bancaire², le statut des banques participatives³. Un projet de loi est en cours également pour consacrer le financement collaboratif⁴ ou crowdfunding. La prise de risque est donc capitale pour le Maroc en encourageant les initiatives de création d'entreprises, et la croissance des entreprises existantes en misant sur l'innovation et l'encadrement des entrepreneurs. L'expertise et la responsabilité des établissements en financement participatif en ce sens sont fondamentales.

Par ailleurs, le droit applicable aux entreprises de manière générale devrait être revu en considérant la composition du tissu économique marocain faite principalement de petites et moyennes structures. Donc le secrétariat juridique exigé des sociétés et les obligations déclaratives sont lourds à gérer en termes de temps et d'argent. C'est ce qui explique l'engouement pour le statut d'auto-entrepreneur récemment adopté au Maroc⁵. Pour les grandes structures, il est important de reconsidérer les réserves des sociétés. Ce qui est constaté de manière générale à travers le monde, c'est une tendance de privatisation des bénéfices et une mutualisation des pertes, en période de crise financière, par les Etats et donc par les contribuables au motif de sauvegarde des emplois. Or, cette façon de faire est totalement injuste et devrait pousser à réfléchir à des solutions juridiques au service de l'économico-social. Parmi les solutions, on propose d'une part que les réserves de sociétés soient revues à la hausse et d'autre part, il serait opportun d'encourager le réinvestissement dans les capitaux des sociétés existantes ou nouvellement créées.

Sur le plan fiscal, il existe une iniquité fiscale au Maroc pour les personnes physiques et particulièrement pour la classe moyenne. Pour cela, nous préconisons, l'adoption de la notion de foyer fiscal pour distinguer entre personne seule ou ménage supportant diverses charges telles que les charges de scolarité dans la mesure où le service public d'enseignement n'est pas compétitif. En outre, le foyer fiscal est intéressant à retenir dans la mesure où il tient compte des charges de

¹ Dahir n° 1.19.76 du 17 avril 2019, portant promulgation de la loi 21-18 relative aux sûretés mobilières, Bulletin officiel n° 6771 du 22 avril 2019, p. 2058.

² Dahir n° 1-14-193 du 24 décembre 2014, portant promulgation de la loi n° 103-12 relative aux établissements de crédit et organismes assimilés, Bulletin officiel n° 6340 du 5 mars 2015.

³ Les banques participatives sont régies par le titre III de la loi 103-12 précitée.

⁴ Projet de loi n°15-18 relatif au financement collaboratif.

⁵ Dahir n°1-15-06 du 19 février 2015 portant promulgation de la loi n° 114-13 relative au statut de l'auto-entrepreneur, Bulletin officiel n° 6344 du 19 mars 2015, p. 1036.

Le combat contre le Covid-19 est semblable à celui de la résilience face au changement climatique. L'humain, seul ou en groupe, relevant de la génération présente ou celles à venir, doit être au centre du développement durable. Réussir le combat, c'est assurer le bien-être humain. Celui-ci ne peut découler que de la prise en considération des réalités d'abord locales. En ce sens, le nouveau modèle de développement du Maroc pour être durable, devra considérer tout marocain dans ses stratégies tant sur le plan économique, social qu'environnemental. La prise en compte des réalités culturelles est un facteur déterminant pour la réussite du pari. Il est évident que les solutions importées de l'étranger parce qu'ayant fait leurs preuves dans d'autres contrées ne sont pas sûres d'aboutir au Maroc, si elles ne correspondent pas aux besoins et attentes des marocains. La participation populaire dans l'élaboration des solutions est, donc, capitale. Toutefois, au-delà du principe de participation populaire consacré déjà dans les textes du Maroc, il est essentiel de tirer profit d'une participation populaire effective et de qualité. Celle-ci ne peut être atteinte en l'absence d'une bonne éducation¹. Le temps est donc venu d'investir dans l'école publique et l'enseignement ainsi que la recherche scientifique. Les bénéfices ne seront certainement pas, immédiats, mais permettront des réalisations certaines en termes de résilience et d'innovation. Cette dernière est capitale pour trouver des solutions adaptées et créer de la richesse tant sur le plan du développement interne du Maroc que dans son développement à l'international.

Sur un autre plan, il est nécessaire de se rappeler que le Maroc est également dans l'urgence de trouver des solutions plus ou moins concrètes par ailleurs. Nous en proposons plusieurs pour le moyen terme.

Les crises et les catastrophes ont toujours été appréhendées comme une opportunité de relance économique. Pour cela, le Maroc devra inciter aux investissements responsables en vue d'un développement durable. Orienter les investissements dans le cadre d'une transition écologique permettra, dans le court et moyen terme, la création d'emplois et de richesses dans le cadre des métiers verts notamment. Ce choix, en plus de la création d'emplois et de la satisfaction de besoins du pays en infrastructures et la réalisation de la croissance économique, renforcera la résilience du Maroc face à la grande menace du changement climatique. Par ailleurs, la fermeture en ce moment des frontières peut être aussi une occasion pour évaluer la dépendance du Maroc vis-à-vis de l'étranger pour ses besoins. Cette évaluation devra servir à inciter, dans un souci de sécurité voire de souveraineté lorsqu'il s'agit de besoins essentiels, aux investissements au Maroc. Ces investissements devront s'insérer dans le cadre du développement durable. En ce sens, le Maroc, devra prendre les devants pour inciter le secteur privé à investir en ce sens. Pour cela, la technique juridique des partenariats public/privé semble la solution à privilégier dans l'immédiat, pour orienter les investissements vers le durable et créer au plus vite des opportunités intéressantes en matière d'emploi.

La deuxième proposition de ce travail rentre dans le cadre du financement de l'économie marocaine. Il est à saluer, au passage, l'adoption, récemment, de la loi

¹ Dans le classement PISA (Programme for International Student Assessment) de 2018, le Maroc est classé 75ème sur les 79 pays classés dans l'étude de l'OCDE. Pour information, la première place est occupée par la Chine.

Dans ce sens, il serait utile de contribuer à l'effort national de développement durable en donnant une lecture du modèle actuel et des propositions pour le projet du nouveau modèle de développement du Maroc.

2.2.1. Les limites du modèle actuel de développement du Maroc

Il faut avouer et rappeler que le Maroc a entrepris des stratégies de développement intéressantes dans différents secteurs : énergie (énergies renouvelables et efficacité énergétique), tourisme, agriculture par le plan Maroc vert, en matière d'industrie (plans émergence, plan accélération industrielle), etc. Ces stratégies ont donné certes des résultats très notables. Cependant, la question demeurerait de savoir pourquoi le Maroc bien que cité en exemple à l'international, n'arrivait pas à réaliser le développement espéré vu tous les efforts déployés. La réponse à cette question peut s'expliquer à plusieurs raisons. La plus importante, à notre sens, est celle de ne pas avoir intégré l'humain au cœur du développement marocain. Le Maroc a certes lancé une initiative nationale de développement humain qui a permis des réalisations intéressantes, entrepris plusieurs actions en matière de genre, etc. Cependant, le constat est que le Maroc a surtout travaillé dans le cadre de populations très ciblées (femmes, personnes en situation d'handicap, très pauvres, etc.)¹.

De même, le Maroc dans son parcours de développement, a surtout raisonné en termes économiques, omettant le facteur humain national sauf quand il s'agissait de créations d'emplois. Or, la croissance devrait être inclusive et pour cela elle devrait être essentiellement tournée vers le Maroc et les marocains. Le Maroc a surtout été, selon notre appréciation, dans la séduction des étrangers qu'il s'agisse d'investisseurs, de touristes ou d'institutions et organisations internationales. Ce qui a eu pour résultat de créer un décalage entre un Maroc bon élève à l'international et perçu comme faible par les marocains. Il est alors constaté un écart flagrant entre les classes sociales, un sentiment de mal-être des marocains dans leurs lieux de travail, dans les bénéfices des services publics d'enseignement, de santé, etc. Les flux de migration des marocains à la conquête de nouveaux horizons où ceux-ci estiment qu'ils seront reconnus et respectés sont une illustration qui explique bien la situation. En d'autres termes, le Maroc a investi dans plusieurs domaines, mais a raté les investissements dans son capital humain, en termes de formation et d'épanouissement dans tous les domaines.

La crise du Covid-19 va certainement révéler la vulnérabilité du Maroc en ce sens, puisqu'il devra assister les marocains préalablement fragiles et davantage fragilisés par la crise. En effet, la crise du Covid-19 risque d'être très lourde en conséquences tant sur le court que le moyen et long terme. Néanmoins, il ne faudrait pas céder au pessimisme, car le Covid-19 peut en effet être perçu comme une réelle opportunité pour le Maroc en quête d'un nouveau modèle de développement, en vue d'un développement durable.

2.2.2. Propositions pour un lendemain meilleur en développement durable²

¹ La classe moyenne par exemple au Maroc a toujours été le grand oublié, alors qu'elle est la locomotive dans le développement du Maroc.

² Il s'agit de quelques propositions de l'auteure dans le cadre du droit du développement.

développement économique n'est pas incompatible avec l'épanouissement social et la préservation de l'environnement. Il y est au contraire étroitement lié¹. En conséquence, une bonne gouvernance interne pro et post active des Etats doublée d'une action coordonnée dans le cadre d'une coopération mondiale sont les maîtres mots pour réussir son action face aux enjeux globaux. L'adage « Penser globalement et agir localement », prend, à ce niveau, tout son sens.

2.2. Le Maroc en quête d'un nouveau modèle de développement, un cas d'étude intéressant

Dès l'apparition des premiers cas d'infections au Covid-19 en Italie, le Maroc a décidé la fermeture de ses frontières, la fermeture des écoles et des commerces non essentiels en période de crise ainsi que le confinement à domicile. Lucide de ses capacités limitées, il a anticipé les risques sur la base du principe de précaution. En plus, il a décidé la constitution d'un fonds spécial de lutte contre le Covid-19. Une gouvernance proactive qui a donné ses fruits, puisque les nombres de contamination au virus sont « relativement » bas par rapport à d'autres pays voisins très impactés avec lesquels le Maroc entretient généralement des mouvements de personnes et de biens très importants².

Avec le Covid-19, le temps est au questionnement sur la résilience du Maroc. Pour répondre à cette question, l'approche dans ce travail consacrera l'état de la durabilité de son développement. Pour cela, il est utile de rappeler que le Maroc a adopté une loi cadre portant charte nationale de l'environnement et du développement durable en 2014³. Cette dernière témoigne d'une volonté du Maroc de choisir un développement durable pour le pays. Cette volonté s'est traduite également par des stratégies très fortes en matière de l'eau, du développement des énergies renouvelables, d'une stratégie nationale de développement durable, notamment. Bien que des réalisations très importantes aient été enregistrées en ce sens, le Maroc n'a pas pu pourtant réaliser des taux de croissance importants et ceux du chômage n'en étaient pas mieux. Dans ce cadre, le roi Mohammed VI a donné ses instructions à une commission spéciale pour redéfinir un nouveau modèle de développement pour le Maroc puisque l'actuel a prouvé ses limites. Le Covid-19, malgré ses lourdes répercussions sur le Maroc, peut être appréhendé comme un test de résilience du Maroc face aux risques majeurs. Il permettra sans nul doute de déterminer les vraies limites du Maroc et permettra d'évaluer ses capacités. Le temps est donc au bilan.

¹ D'ailleurs, les Objectifs de développement durable consacrent cette vision et prévoient, dans le cadre de leur objectif 17, la réalisation de partenariats en vue de parvenir à réaliser les autres objectifs de développement durable.

² Le Portugal, l'Espagne, la France et l'Italie notamment.

³ Dahir n° 1-14-09 portant promulgation de la loi- cadre portant charte nationale de l'environnement et du développement durable portant le numéro 99-12, Bulletin officiel n°6240 du 20 mars 2014, p. 2496.

l'économie mondiale, fin de vie d'entreprises pour difficultés financières, explosion du chômage, etc.), et d'autre part, celles concernant à terme, les migrations exportées de pays fortement impactés par le Covid-19 vers ceux l'ayant bien géré. Facteur de développement, la sécurité soulève des problématiques à connotation systémique dont les répercussions sont tant d'ordre interne, régional, qu'international. Pour cela, le risque pandémique lié au Covid-19, s'identifie à la nature du risque climatique en ce sens, qu'il doit être appréhendé comme un risque global à raison de l'espace et du temps. Ici, le risque Covid-19 concerne tant les générations présentes sur l'espace ignorant les frontières humaines et « souveraines » que les générations futures héritant du rapport actif / passif déterminant leurs conditions de bien-être de demain. La question de la responsabilité est alors primordiale dans la gouvernance de ces risques globaux. Une mauvaise gouvernance entrainera des répercussions graves pour l'humanité. Donc, la gouvernance devant s'entendre ici en termes d'actions tant préventives que curatives. Une gouvernance devant combiner les actions des Etats sur leurs territoires souverains mais également dans une perspective plus large consacrant l'interdépendance et l'interconnectivité mondiale. Donc, les Etats, en plus de rendre compte de leur gestion de la crise à leurs peuples, ils devront également répondre de leur défaillance dans l'action pour l'humanité conjuguée au pluriel tant au présent qu'au futur. Cependant, la responsabilité juridique des Etats n'a pas pu être, à ce jour, retenue face à la menace globale, existentielle même du changement climatique, sa mise en œuvre dans le cadre du covid -19 n'est pas sûre d'être retenue non plus malheureusement. Rappelons à cet égard que si une responsabilité commune mais différenciée a pu encore être consacrée dans l'Accord de Paris, son effectivité est illusoire en raison d'une part d'un Accord bien que contraignant, comporte en fait des engagements volontaires « mou » de contributions déterminées au niveau national (NDCs) et d'autre part en raison de l'absence de sanctions pour violation de l'Accord. Cela dit, le Covid-19 peut être un déclencheur d'une nouvelle dynamique dans l'action climatique. En effet, l'échec de la mise en place d'une responsabilité juridique efficace pour protéger la planète et ses habitants a toujours été paralysé par les intérêts étatiques internes et plus particulièrement les considérations économiques. Il faudrait bien intégrer qu'à menace globale, il faudrait une réponse globale. Il est à espérer donc un changement dans les mentalités récalcitrantes par la constatation que le coût de la reconstruction après une catastrophe majeure est beaucoup plus élevé que celui tendant à l'éviter au moyen d'une transition vers un modèle de développement durable. En tout cas, la crise pandémique aura certainement pour effet de « prouver, par les pressions accumulées, que les frontières entre une nation et une autre, sont beaucoup moins importantes que les frontières entre les problèmes et les solutions » (Pinner D., Rogers M., Samandari H, 2020). Le Covid-19 serait alors une illustration que le développement est soit durable ou ne n'est pas. Le

les Etats se renfermaient sur eux-mêmes et raisonnaient en logique d'intérêts purement internes.

Rappelons qu'au vu des développements internationaux en certaines matières de coopération internationale, et plus particulièrement en matière sécuritaire notamment¹, on aurait pu légitimement s'attendre à une réponse globale de la part de la société internationale face au Covid-19 se présentant comme une menace globale. Or, l'humanité a plutôt assisté à une scène désolante où certains Etats, comptant parmi les plus développés voire figurant parmi les puissances mondiales rivalisaient entre elles dans l'acquisition des équipements de soin nécessaires pour affronter la pandémie.

Sur un autre registre, les unions d'Etats semblaient effacées. On pourrait citer à titre d'illustration d'une part, le cas de l'Union européenne qui ne semblait pas au début venir au secours de ses pays membres impactés par le Covid-19 de manière critique. Certains de ses membres fondateurs² se trouvaient seuls à affronter la pandémie³. D'autre part, on pourrait citer le cas de la Ligue des pays arabes qui ne semblait pas concernée dans l'action visant à unir les forces et affronter le risque global. Pourtant, la coopération et la solidarité internationales auraient pu prendre tous leurs sens face au risque sanitaire, d'autant plus que ce dernier soulève une problématique grave de sécurité. En effet au-delà du sens classique du risque sécuritaire ayant trait au conflit armé, la sécurité s'entend au sens large comme « l'absence de menaces militaires et non militaires qui peuvent remettre en question les valeurs centrales que veut promouvoir ou préserver une personne ou une communauté, et qui entraînent un risque d'utilisation de la force » (David, C-P., 2013). A cet égard, il est utile de rappeler que l'action contre les effets considérables du Covid-19 a même été qualifiée par action en temps de guerre⁴. Il est intéressant dans ce cadre de relever que le Covid-19 a entraîné un changement de nature de la notion de guerre dans son rapport avec l'ennemi classique au sens d'une menace armée. En effet, les Etats ont mobilisé leurs forces militaires face à la pandémie, ennemi invisible mais menaçant la sécurité et la paix.

En termes de sécurité en effet, le Covid-19 peut entrainer des réactions en chaîne dont l'humanité est actuellement incapable d'en mesurer l'ampleur. Parmi les conséquences se rapportant aux insécurités auxquelles on pourrait s'attendre, on peut citer celles liées d'une part aux impacts socio-économiques (régression de

¹ La lutte contre le terrorisme notamment a fait l'objet d'une coopération multilatérale remarquable.

² Le cas de l'Italie lourdement impactée par le Covid-19 a soulevé des interrogations multiples allant jusqu'à l'avenir de l'Union européenne au lendemain de la crise sanitaire.

³ L'Union européenne s'est rattrapée en présentant ses excuses à l'Italie et agit pour faire sortir ses membres de la crise.

⁴ Dans le bulletin d'information de l'ONU du 27 mars 2020, on peut lire : « Dans la guerre contre le Covid-19, l'ONU plaide pour une réponse multilatérale ». De même, le Président français Emmanuel Macron dans une allocution télévisée du 16 mars 2020, dans le cadre de la lutte contre la pandémie, a déclaré « Nous sommes en guerre, en guerre sanitaire certes ; Nous ne luttons ni contre une armée, ni contre une autre nation, mais l'ennemi est là, invisible, insaisissable qui progresse ».

principe de prévention¹ devant gouverner les politiques de sécurité sanitaire notamment. Ce principe implique « la mise en œuvre de règles et d'actions pour anticiper toute atteinte à l'environnement qui doivent tenir compte des derniers progrès techniques »². Il devient donc un outil indispensable pour le renforcement de la résilience, conformément à l'adage « Gouverner c'est prévoir ». Ainsi présentée, la prévention gagne évidemment du terrain face à la précaution en raison de la gravité et surtout de l'augmentation du risque sanitaire d'origine infectieuse.

2. Le Covid-19, des leçons à retenir pour améliorer la résilience face aux risques majeurs

Cette étude du Covid-19 en relation avec le changement climatique n'aurait d'intérêt si des leçons ne sont pas retenues en vue de renforcer la résilience face aux risques majeurs, notamment celui du changement climatique. Dans ce cadre, il est proposé d'explorer les expériences vécues dans le cadre de la pandémie du Covid-19 et de proposer des recommandations pour éviter la reproduction des échecs constatés, tant sur le plan international que sur le plan interne. Pour cela, il est proposé d'évaluer l'efficacité de la coopération internationale lors de la crise du Covid-19 dans un premier moment et de s'intéresser, dans un second moment, au cas du Maroc en quête d'un nouveau modèle de développement. Un modèle qui devrait voir le jour, en capitalisant sur la connaissance des limites de son modèle actuel.

2.1. La solidarité internationale, le parent pauvre de la crise du Covid-19

Alors que le Covid-19 frappe de plein fouet le monde sans distinction aucune entre pays riches et pays pauvres, rappelant par la même occasion sa nature de risque global ignorant les frontières et les capacités des Etats, il a été surprenant de voir combien la dispersion de la communauté internationale était grande. Il est certes classique, qu'en période de crise, la tendance en général est au repli sur soi. Pourtant, la coopération internationale avait, jusque-là, enregistré des avancées majeures, que son option était valablement envisageable. Toutefois, le Covid-19 a malheureusement confirmé la tendance de repli ; Au fur et à mesure que les frontières des pays se fermaient dans l'objectif de stopper la propagation du virus,

¹ Le principe de prévention consiste « en la mise en place des outils d'évaluation et d'appréciation régulière des impacts des activités susceptibles de porter atteinte à l'environnement, de recommander et de mettre en œuvre des mesures concrètes pour supprimer ces impacts ou du moins réduire leurs effets négatifs » article 2-e de la loi-cadre n° 99-12 portant charte nationale de l'environnement et du développement durable, promulguée par le dahir 6 mars 2014, Royaume du Maroc, Bulletin officiel n° 6240 du 20 mars 2014, p. 2496.

² Dictionnaire Environnement,

https://www.dictionnaire-environnement.com/principe_de_prevention_ID5237.html , consulté le 14 avril 2020.

On en déduit que l'action préventive est un pilier majeur dans le cadre du Règlement Sanitaire international de l'OMS, particulièrement au niveau des Etats, et ce dans le cadre de sa vision « d'un monde plus sûr, en état d'alerte et prêt à répondre collectivement à la menace d'épidémies et autres urgences de santé publique »¹.

Par ailleurs, la mise en œuvre du principe de prévention est également prévue dans le cadre d'action de Sendai pour la réduction des risques de catastrophes pour la période 2015/2030. Il est utile de rappeler les quatre priorités de ce cadre d'action tendent clairement à l'amélioration de l'action préventive et au renforcement de la résilience. Ses priorités sont les suivantes : En premier lieu, il vise à comprendre les risques de catastrophes, en second lieu il prévoit pour mieux gérer les risques de catastrophes de renforcer la gouvernance ; en troisième lieu, il appelle, en vue de renforcer la résilience, à investir dans la réduction des risques de catastrophes et en quatrième lieu enfin, il appelle à améliorer la préparation en vue d'une intervention efficace et pour « faire et reconstruire mieux »².

Ce cadre vise donc, selon ses termes, à réduire substantiellement, entre autres risques « les pertes et risques liés aux catastrophes en termes de vies humaines, d'atteinte aux moyens de subsistance et à la santé des personnes », et exige d'emblée, de prendre des mesures « intégrées et globales dans les domaines économique, structurel, juridique, social, culturel, environnemental, technologique, politique et institutionnel et dans les secteurs de la santé et de l'éducation qui permettent d'éviter l'exposition aux aléas ou de réduire la vulnérabilité ». En ce sens, il y ait prévu spécifiquement dans le cadre de la priorité 4 de renforcer l'état de préparation aux catastrophes pour intervenir de manière efficace et pour « mieux reconstruire » durant la phase de relèvement, de remise en état et de reconstruction. Pour cela, le cadre d'action de Sendai exige, afin d'assurer les services vitaux et essentiels, d'investir dans la résilience des infrastructures nécessaires, existantes ou nouvelles. Il s'agit particulièrement de celles en rapport avec l'eau, le transport, les écoles, les hôpitaux ou autres installations sanitaires, de manière qu'ils demeurent efficaces et opérationnelles pendant et après la catastrophe.

Il est enfin intéressant de préciser que le cadre d'action de Sendai, bien qu'il ne soit pas contraignant, appelle néanmoins, à la reddition des comptes dans le cadre de la responsabilité des personnes ayant créé les risques de catastrophes. La reddition des comptes pourrait être entendue non seulement en termes de création des risques de catastrophes mais également en sens d'aggravation des conséquences des risques par le non renforcement de la résilience face à ces risques.

De ce qui précède, il en découle alors que le risque d'occurrence d'un risque épidémique, voire pandémique n'était pas exclu, ce qui remet à l'ordre du jour le

¹ Ibid., p. 17.

² Cadre d'action de Sendai pour la réduction des risques de Catastrophes, op. cit, p. 7

Déclaration de Rio sur l'environnement et le développement de 1992, en ces termes : « Pour protéger l'environnement, des mesures de précaution doivent être largement appliquées par les Etats selon leurs capacités. En cas de risque de dommages graves ou irréversibles, l'absence de certitude scientifique absolue ne doit pas servir de prétexte pour remettre à plus tard l'adoption de mesures effectives visant à prévenir la dégradation de l'environnement. »¹. Ce principe devenant au cœur des politiques publiques en matière environnementale, tend à devenir selon certains auteurs « synonyme de politique de sécurité quel qu'en soit l'objet » (Eurald F., Gollier C., De Sadeleer N., 2008, p. 3). Dans ce cadre, le manque d'informations sûres et fiables au début de la pandémie, ainsi que la lenteur dans le déclenchement de l'alerte ont été présentés par certains chefs d'Etats comme justifiant leur mauvaise appréciation du risque lié au Covid-19². En évitant toute spéculation³ à ce sujet, le principe de précaution a été, de manière générale, le fondement de la déclaration de l'état d'urgence sanitaire, ainsi que toutes les mesures prises dans l'objectif de lutter contre les risques liés à la pandémie.

Toutefois, la question revient encore de savoir quelle était la probabilité qu'un événement d'une telle ampleur survienne. A cet égard, le nombre de maladies zoonotiques ayant entraîné des épidémies inquiétantes ces dernières années est très élevé et continue d'augmenter (Pech, T. 2020, p.2). Il peut être avancé que récemment, il a été enregistré une montée notable des épidémies infectieuses, notamment le SRAS, le MERS, le virus Zika, l'Ebola, la fièvre hémorragique de Crimée-Congo, la fièvre de la vallée du Rift, etc. Sur un autre plan, il est à préciser que dans le cadre de l'OMS, un nouveau programme de gestion des situations d'urgence sanitaire a été adopté par les Etats membres dans le cadre du Règlement Sanitaire International. Ce nouveau programme vise entre autres, en collaboration avec les pays et les partenaires, à « la préparation, la prévention, l'action et le relèvement face à toutes les situations d'urgence, quel que soit le risque à l'origine de celles-ci : catastrophe, flambée de maladie ou conflit, notamment »⁴.

Au niveau des Etats, l'objectif de l'OMS visant à atteindre un système mondial d'alerte et d'action, repose d'une part sur un système international efficace à l'appui de programmes de lutte contre la maladie, et d'autre part, sur des systèmes nationaux de santé publique « solides, capables de maintenir une surveillance active des maladies et des événements de santé publique, de mener des investigations rapides des événements, d'évaluer les risques pour la santé publique, de partager les informations et de mettre en œuvre des mesures de lutte » (OMS, 2007 RSI 2005, Domaines de travail pour la mise en œuvre du Règlement, p. 13).

¹ Principe 15 de la Déclaration de Rio sur l'environnement et le développement, Nations-Unies, 1992.

² Notamment la tension entre les Etats-Unis et l'OMS, op, cit.

³ Toutes les réserves sont émises dans ce cadre, pour manque d'informations et dans un souci d'objectivité scientifique. C'est le cas notamment de la tension entre le Président des Etats-Unis à l'OMS qui pourrait également être expliqué par certains comme une politisation de l'affaire à visée électorale.

⁴ <https://www.who.int/features/qa/health-emergencies-programme/fr/>

1.2. Le Covid-19, de la précaution à la prévention du changement climatique

La vulnérabilité face à la catastrophe du Covid-19 renouvelle la discussion sur les probabilités de réalisation des risques. A cet égard, le risque peut être défini comme « la conjonction de deux composantes : l'aléa et la vulnérabilité » (Rasse P et Rasse, G, 2014). L'aléa serait caractérisé par la probabilité d'occurrence et l'intensité d'un événement menaçant, la vulnérabilité correspond aux conséquences prévisibles ou attendues d'un événement¹. Les variations dans les composantes du risque, à savoir l'aléa et la vulnérabilité déterminent selon les cas, le niveau de gravité du risque qui varie généralement entre le niveau de risque mineur ou faible voire parfois zéro et le niveau de risque majeur ou très élevé. De manière générale, le risque majeur renvoie à l'éventualité d'un événement d'origine naturelle ou anthropique dépassant les capacités de réaction de la communauté et causant des dommages très importants aux personnes et aux biens. Cette définition du risque nous conduit à nous interroger sur les probabilités de la survenance de l'événement et donc de la prévisibilité du Covid-19 ainsi que sur l'état de résilience de l'humanité. En d'autres termes, dans quelle mesure celle-ci était préparée à faire face à une catastrophe d'une ampleur telle, que celle du Covid-19.

La vitesse de la propagation mondiale du Covid-19 est certes remarquable. Toutefois, il ne faut pas omettre de constater que la réactivité, de certains Etats, s'est fait attendre. La lenteur de réactivité a certainement retardé la prise de mesures urgentes et nécessaires pour protéger la santé et la sécurité des personnes. Loin de spéculer sur les causes de cette lenteur de réactivité de certains Etats², celle-ci est certainement constitutive d'une faute de gouvernance dans le cadre d'une crise brutale et pouvant même justifier la mise en œuvre de la responsabilité. A cet égard, la responsabilité pourrait être retenue pour négligence et non-respect du principe de précaution. Par ailleurs, l'incapacité des systèmes sanitaires de certains pays considérés, a fortiori, comme disposant des meilleurs systèmes de santé au monde, à faire face aux afflux massifs de personnes contaminées en besoin de soins, a également révélé un manque de prévoyance de leurs dirigeants en matière de gestion des risques sanitaires majeurs. Ce manque de prévoyance traduit le défaut de mise en œuvre du principe de prévention.

En aucun cas, la catastrophe de la pandémie ne devra être considérée comme une fatalité pour justifier l'ampleur des impacts. Dans ce cadre, l'humanité a, en effet, développé tant en matière environnementale que sanitaire des principes d'anticipation. Il s'agit du principe de précaution et du principe de prévention. Ces deux principes de prudence prônent l'action proactive et fondent une responsabilité orientée vers le futur. Rappelons que le principe de précaution est énoncé dans la

¹ Ibid.

² L'exemple illustre la tension entre le Président des États-Unis et l'OMS sur base de reproches de de la « mauvaise gestion de la pandémie » par l'OMS, ayant conduit à la suspension de la contribution des États-Unis au financement de l'OMS. Cf. **ONU info**, 2020, *Coronavirus : le Dr. Tedros regrette la décision des Etats-Unis de suspendre leur financement de l'OMS*, Bulletin du 15 avril 2020.

particulièrement. Or, ce dernier est justement nécessaire à l'équilibre tant physique que mental des humains, par nature sociables d'une part, et au bien-être de la société en général d'autre part. En effet, le confinement peut être avec les craintes liées à ses conséquences socio-économiques, source de stress, de tensions familiales liées à la proximité dans des espaces de vie parfois très réduits, etc. et peut même conduire, dans certains cas, à la violence conjugale ou familiale, aux dépressions voire même à des suicides. Bref, le traumatisme social peut être très grave. Par ailleurs, la fermeture de certaines entreprises peut conduire à des pertes d'emplois et des pertes économiques considérables. Dans le cas de la pandémie du Covid-19, les pertes économiques enregistrées et celles à venir ne sont pas simplement hypothétiques mais bien réelles. En dépit du fait que les prévisions économiques à l'heure actuelle demeurent incertaines dans la mesure où elles dépendent notamment de facteurs non maîtrisés telle que la durée de la crise et sa gouvernance par pays notamment, il semble pourtant évident que les perspectives économiques sont déjà sombres puisqu'il est déjà prévu une croissance mondiale négative. La Directrice générale du FMI, Kristalina Georgieva, a déclaré dans un point de presse relatif à l'état actuel de l'économie, qu'il faudrait s'attendre au « pire ralentissement économique depuis la Grande dépression ». Elle a ajouté en ces termes « Il y a à peine trois mois, nous projetions une croissance positive du revenu par habitant dans plus de 160 de nos pays membres en 2020. Aujourd'hui, c'est bien le contraire : nous projetons désormais que plus de 170 pays enregistreront une croissance *négative* du revenu par habitant cette année »¹.

En matière d'impact du Covid-19 sur les emplois, l'Organisation internationale du travail a révélé que plus de quatre personnes sur cinq, soit 81% de la population mondiale active s'élevant à 3.3 milliards de personnes, subissent les conséquences de la fermeture totale ou partielle des lieux de travail. En ce sens, *Guy Ryder, Directeur général de l'OIT, a déclaré que* « Les travailleurs et les entreprises traversent une catastrophe, aussi bien dans les économies développées que dans les économies en développement ». Il a ainsi appelé à agir vite, ensemble et avec détermination, en estimant que « de bonnes mesures d'urgence peuvent faire la différence entre survie et effondrement » (OIT, 2020).

Au vu de tout ce qui précède, le Covid-19 a prouvé que les effets d'un risque majeur global peuvent être considérables. Ceci pousse à s'interroger sur l'action proactive des Etats à faire face à ce genre de risques, dans la mesure où celle-ci est d'abord et avant tout une prise de conscience de l'état de vulnérabilité et ensuite une action tendant à renforcer la résilience par des actes d'atténuation des impacts.

¹ Georgieva Kristalina, 2020, *Affronter la crise : priorités pour l'économie mondiale*, communication du 9 avril 2020, <https://www.imf.org/fr/News/Articles/2020/04/07/sp040920-SMs2020-Curtain-Raiser> , consulté le 13 avril 2020.

efficace et résilient. En ce sens, il est à rappeler que le Règlement Sanitaire International, dans le cadre de sa vision relative à la sécurité sanitaire internationale, prévoit plusieurs domaines d'activités parmi lesquels, on peut citer le renforcement des systèmes mondiaux d'alerte et d'action de l'OMS dans l'objectif de réagir avec efficacité, en temps voulu et de manière coordonnée, face aux risques et aux urgences de santé publique de portée internationale. L'OMS estime que « tous les pays doivent détenir un système d'alerte, de préparation et d'action afin de pouvoir rapidement identifier et contenir les risques de santé publique auxquels ils peuvent avoir à faire face »(WHO/CDS/EPR/IHR/2007.1, p.23).

De ce qui précède, on peut dire, que l'impact sanitaire du Covid-19 s'est traduit, dans certains cas, par le manque de bénéfice du droit humain à la santé et dans une certaine mesure à la vie par l'arrêt ou le refus des soins fondés sur des arbitrages liés au manque de moyens, ce qui soulève, au passage, la question liée à la continuité du service public de santé.

1.1.2. Le Covid-19 et ses impacts sur libertés publiques et les droits économiques

Entre autres conséquences à court terme et face aux craintes de propagation plus poussée du Covid-19, plusieurs Etats ont dû fermer leurs frontières et fermer, sur leurs sols, les écoles, les commerces non utiles en temps de crise et instaurer l'obligation de confinement à domicile à leurs peuples. Le confinement est une mesure visant à interdire les rassemblements sur la voie publique notamment. Elle a eu pour résultat de mettre en confinement plus de la moitié de la population mondiale avec tous les effets que cela comporte. Cette restriction trouve son fondement dans un autre droit humain à la charge des Etats, celui de la sécurité. Cela dit, le confinement est, en réalité, une restriction à d'autres droits humains à savoir la libre circulation des personnes et des biens, la liberté d'entreprendre et la liberté de réunion. Bien entendu, les restrictions par les Etats aux droits humains par le confinement justifiées par le motif de sécurité, ne doivent pas être abusives et conduisant à des dérives (Mouhanna, C, 2017 et Bigo D., Bonelli L., 2018). En ce sens, le Rapporteur spécial des Nations Unies sur les droits à la liberté de réunion pacifique et d'association, Clément Nyaletsossi Voule, a publié à l'intention des Etats des directives spéciales dans l'objectif d'éviter, au motif d'état d'urgence sanitaire, des violations des droits de l'Homme (ONU Info, 2020). Ces directives imposent aux Etats le respect des principes de légalité, de nécessité et de proportionnalité dans toute nouvelle législation ou réglementation adoptées en cette période.

De manière générale, la mesure de confinement, bien qu'elle soit reconnue comme pouvant être efficace afin de stopper la propagation pandémique en cas d'absence de remède ou de vaccin, elle constitue pourtant une mesure lourde de conséquences pour les individus et les entreprises économiques. En réalité, le confinement tend à limiter voire à réduire au maximum le contact humain dans les espaces publics

Ces chiffres alarmants ont entraîné pour les personnes infectées des hospitalisations massives ayant très vite révélé les limites des systèmes sanitaires à travers le monde. En effet, il a été frappant de voir les services hospitaliers de pays riches, submergés et révélant un manque grave de ressources humaines et matérielles. Il a été encore plus choquant de voir certains témoignages portant les cris de détresse des personnels soignants en raison de manque de matériel de protection contre les contaminations et les arbitrages qu'ils devaient, dans certains cas, faire entre patients en raison de manque de ressources, notamment.

L'impact sanitaire nous interpelle, sur le plan juridique (Boidin, B, 2005)¹, sur le respect du droit universellement reconnu par les Etats, à la santé. Il n'est nul besoin de rappeler que celui-ci, en plus d'être proclamé dans des instruments internationaux des droits humains, auxquels a adhéré la communauté internationale, il est également adopté dans les textes de Constitution de différents pays. Rappelons à cet égard que la Déclaration Universelle des Droits de l'Homme l'a proclamé en son article 25-1 en ces termes : « Toute personne a droit à un niveau de vie suffisant pour assurer sa santé, son bien-être et ceux de sa famille, notamment pour l'alimentation, l'habillement, le logement, les soins médicaux ainsi que pour les services sociaux nécessaires ». D'ailleurs, ce droit fondamental doit s'entendre, pour tout être humain, comme « la possession du meilleur état de santé qu'il est capable d'atteindre »². La reconnaissance d'un droit humain fondamental se manifeste également par le biais du principe de non-discrimination. En ce sens, l'article 2-1 de la Déclaration Universelle des Droits de l'Homme le proclame en ces termes : « Chacun peut se prévaloir de tous les droits et de toutes les libertés proclamés dans la présente Déclaration, sans distinction aucune, notamment de race, de couleur, de sexe, de langue, de religion, d'opinion politique ou de toute autre opinion, d'origine nationale ou sociale, de fortune, de naissance ou de toute autre situation ». A cet égard, si certains témoignages³ du personnel soignant relatifs aux arbitrages pour le bénéfice de soins, s'avèreraient réels, on serait alors, clairement, en présence d'un cas de rupture du service public de santé⁴ fondée sur des arbitrages de soins favorisant des personnes plus jeunes ou présentant des symptômes moins catégoriques. Ces arbitrages seraient alors fondés sur une discrimination liée à l'âge ou l'état de santé par l'existence de maladies chroniques par exemple. Il n'est pas question ici de porter des jugements de valeur sur le travail du personnel soignant qui a fait preuve et continue de le faire durant cette crise sanitaire mondiale de dévouement et de courage. En fait, cette situation nous interpelle sur le respect des Etats de leurs engagements vis-à-vis de leurs citoyens, pour la continuité du service public, par la mise en place d'un système de santé

¹ L'approche juridique des droits humains peut se combiner avec l'approche économique de ces valeurs fondamentales en termes de biens publics mondiaux.

² Déclaration du Docteur Tedros Adhanom Ghebreyesus, Directeur Général de l'OMS, à l'occasion de la Journée des droits de l'Homme, en date du 10 décembre 2017.

³ Toutes réserves sont émises quant à la véracité et l'authenticité desdits témoignages.

⁴ La préservation de la santé publique est un motif de préservation de la sécurité nationale des Etats.

mais d'attirer l'attention en ce que celui-là est appréhendé comme une illustration des impacts en cas de réalisation d'un risque majeur global, en l'occurrence le changement climatique.

1. Le Covid-19 a révélé une extrême vulnérabilité mondiale

La propagation très rapide du Covid-19 à travers le monde a eu, très tôt, des conséquences déplorables sur plusieurs plans entraînant des pertes considérables. Ceci dit, les conséquences sur le moyen et long termes se suivront et menacent, d'ores et déjà, de changer la face du monde. Nous nous limiterons dans cette étude aux effets sanitaires et socio-économiques qui seront approchés du point de vue des droits fondamentaux universellement reconnus aux humains (1.1). Par ailleurs, nous saisissons l'occasion pour réfléchir dans quelle mesure, les Etats étaient conscients de leur vulnérabilité et pouvaient agir en amont des risques (1.2).

1.1. L'approche des impacts du Covid-19 par les droits humains

Nous nous intéresserons aux impacts du Covid-19 sur le droit à la santé (1.1.1) et les restrictions aux libertés publiques et les droits économiques (1.1.2). Ce sera l'occasion pour tirer les enseignements nécessaires pour les risques majeurs globaux tels que le risque climatique.

1.1.1. Le Covid-19 et ses impacts sur le droit à la santé

Sur le court terme, la pandémie du Covid-19 a touché presque toute la population mondiale. La vague pandémique avait commencé en Chine dans la province de Wuhan avant de s'abattre sur le reste du monde dans le sens inverse des aiguilles d'une montre, impactant massivement, gravement et plus spécifiquement l'Iran, l'Italie, l'Espagne, la France, la Grande-Bretagne et les Etats-Unis. Les autres pays et particulièrement les pays arabes¹ ont également été frappés mais en nombres relativement plus réduits². Les premières conséquences fâcheuses sur le court terme de cette vague pandémique se sont manifestées à travers d'importantes pertes en vies humaines et des hospitalisations en masse ayant conduit dans la majorité des cas à des saturations des services sanitaires relevant des pays touchés.

Selon les dernières statistiques recensées en temps réel au 23 avril 2020³, il est dénombré, à travers le monde, plus de deux millions six soixante-dix mille cas d'infections par le Covid-19 et plus de cent quatre-vingt-six mille pertes en vie humaine.

¹ On dénombre en personnes infectées et en personnes décédées respectivement : Egypte plus de 3600 et 276 décédées ; l'Algérie plus de 1.900 infectées et 293 décédées ; Maroc plus de 3.500 et 151 morts ; et la Tunisie plus de 900 cas d'infections et 38 morts. Statistiques du www.worldometers.info, consulté le 23 avril 2020.

² Ces chiffres sont à prendre avec beaucoup de réserves pour certains pays arabes, car les chiffres relativement bas peuvent également s'expliquer par le manque de moyens à effectuer, de manière généralisée, les tests précoces du Covid-19.

³ Selon les données du www.worldometers.info

Le Covid-19 nous rappelle les menaces que renferment les risques liés au changement climatique à plusieurs niveaux. En premier lieu, le risque climatique se rejoint avec le risque pandémique en ce qu'ils constituent tous les deux des risques globaux ignorant les frontières étatiques et appelant à des solutions globales. En second lieu, Ils sont similaires en ce qu'ils sont des risques systémiques¹. En troisième lieu, le risque lié au changement climatique et le risque du Covid-19, peuvent être perçus comme des facteurs d'accélération et d'exacerbation des effets. Ils ressemblent, en quelque sorte, à des « crashes tests » extrêmes des systèmes de résilience des Etats. Par ailleurs, il pourrait être relevé un certain « lien de parenté » entre le changement climatique et le risque pandémique. Le changement climatique peut agir, en effet, sur les conditions de propagation des maladies infectieuses par la modification du génome et la transmissibilité sans compter les modifications climatiques qui peuvent être un vecteur favorable à la propagation (RMTC, 2014 et Rob J, 2019). Dans tous les cas, en se réservant de spéculer sur l'origine du Covid-19, qu'elle soit naturelle ou anthropique et qui convoquera certainement la mise en œuvre du mécanisme de responsabilité, le Covid-19 se présente surtout comme un cas d'étude très sérieux offrant à l'humanité l'occasion de tirer des leçons, certes douloureuses, mais très instructives dans le cadre de la riposte dans le cadre du changement climatique. Le changement climatique tend à augmenter les probabilités d'occurrence d'aléas climatiques plus intenses sur l'ensemble du globe avec toutes les conséquences que ceux-là peuvent entraîner. C'est pourquoi, il devrait également être appréhendé dans le sens d'une urgence.

Cependant, une question mérite d'être soulevée, c'est celle de savoir s'il était possible d'éviter ce scénario, ou du moins dans quelle mesure ses effets auraient pu être atténués dans une perspective de résilience. Si au regard de la lenteur dans la réactivité de certains Etats², une lenteur ayant favorisé la propagation du Covid-19, on peut être tenté de répondre par la négative, le risque pandémique n'était, pourtant, pas exclu³. En plus, il existe déjà des cadres juridiques favorisant l'action préventive en cas d'événements extrêmes telles que les catastrophes. On pourrait citer, à cet égard, le Règlement Sanitaire International de 2005 de l'OMS ainsi que le cadre d'action de Sendai pour la réduction des risques de catastrophes pour la période 2015/2030. Ces instruments prévoient également l'action pendant et post événements extrêmes. En tout état de cause, il est certain que le Covid-19 a révélé la vulnérabilité de l'humanité face aux risques majeurs (1) et nous pousse à retenir les leçons en matière de résilience (2). Il est utile de préciser d'emblée qu'il ne s'agit pas de faire une étude comparative entre le covid-19 et le risque climatique,

¹ Le risque systémique s'entend du « risque qu'un événement particulier entraîne par réactions en chaîne des effets négatifs considérables sur l'ensemble du système pouvant occasionner une crise générale de son fonctionnement ».

<https://www.lafinancepourtous.com/decryptages/crise-financiere/mecanique-des-crises/risque-systemique/> consulté le 23/4/2020.

² Particulièrement certains Etats européens et les États-Unis.

³ Cf. supra.

Le coronavirus ou Covid-19 semble avoir pris l'humanité au dépourvu et mis à nu les vulnérabilités de tous les Etats touchés y compris ceux se comptant parmi les plus développés. Pour rappel, il s'est déclaré en Chine fin décembre 2019 et s'est propagé par la suite dans le reste du monde à une vitesse d'une poudrière en feu, emportant avec lui, sur le court terme des hospitalisations en masse, des morts, sans compter les répercussions socio-économiques très considérables. A cet égard, l'Organisation mondiale de la santé (OMS)¹ a qualifié, le 28 février 2020, la menace du Covid-19 comme une menace très élevée², avant de la déclarer, le 11 mars 2020, comme une pandémie³. Une pandémie que plusieurs n'ont pas hésité à comparer à une guerre vu l'ampleur des effets à court terme constatés, sans compter ceux qui suivront à moyen et long termes. Une pandémie qui serait tout simplement une catastrophe⁴, puisqu'elle correspond à la définition donnée par la Stratégie internationale de prévention des catastrophes des Nations-Unies, au sens d'une « rupture grave du fonctionnement d'une communauté ou d'une société impliquant d'importants impacts et pertes humaines, matérielles, économiques ou environnementales que la communauté ou la société affectée ne peut surmonter avec ses seules ressources » (UNISDR, 2009). En ce sens, plusieurs pays ont déclaré l'état d'urgence ou l'urgence sanitaire⁵. Le Président des Etats-Unis a même qualifié le Covid-19 de « Major disaster »⁶ ou « catastrophe majeure », qui renvoie en droit américain, à toute catastrophe naturelle ou indépendamment de la cause, toute incendie, inondation ou explosion qui cause des dommages, perturbation écologique, pertes de vies et détérioration de la santé et des services sanitaires sur une grande échelle. Il est évident, de toute manière, au vu du désordre et le dépassement des systèmes étatiques dans la gestion du Covid-19, que le coronavirus n'était pas envisagé parmi les scénarios d'évènements extrêmes ou du moins que les Etats du monde n'y étaient, vraisemblablement, pas préparés. Pourtant, l'éventualité d'un risque pandémique n'était pas exclue (Smith K., Goldberg M., Rosenthal S., Carlson L., Chen J., Chen C., Ramachandran S., 2014).

¹ Le Dr. Tedros Adhanom Ghebreyesus, Directeur général de l'OMS, avait déclaré en conférence de presse : « Nos épidémiologistes ont suivi ces développements en permanence et nous avons maintenant augmenté notre évaluation du risque de propagation et du risque d'impact du Covid-19 à un niveau très élevé au niveau mondial ».

² Le niveau le plus élevée de risques par l'OMS. Il correspond au risque très élevé de propagation au niveau mondial.

³ Selon la terminologie de l'OMS, la pandémie correspond à une propagation mondiale d'une nouvelle maladie.

⁴ Selon Larousse, la catastrophe est « un événement subit qui cause un bouleversement, pouvant entraîner des destructions, des morts, un désastre ».

⁵ C'est le cas aussi du Maroc, Décret-loi n°2-20-293, déclarant l'état d'urgence sanitaire, du 24 mars 2020. Bulletin officiel n°6867 du 24 mars 2020, p. 1783.

⁶ Major disaster means any natural catastrophe including any hurricane, tornado, storm, high water, wind driven water, tidal wave, tsunami, earthquake, volcanic eruption, landslide, mudslide, snowstorm, drought, or regardless of cause, any fire, flood, or explosion, in any part of the U.S., that causes damage, ecological disruption, loss of human life, and deterioration of health and health services on a large scale. <https://definitions.uslegal.com/m/major-disaster/>, consulté le 14 avril 2020.

COVID-19 & CHANGEMENT CLIMATIQUE LE TEMPS DE CESSER DE NEGLIGER LE PREVISIBLE

Hind MAJDOUBI

Université Ibn Tofail, FSJES, Kénitra

hind.majdoubi@uit.ac.ma

ملخص:

بالرغم من أن أخطار التغير المناخي يتم التذكير بها في مناسبات عديدة ومن طرف العديد من الخبراء، كأخطار ذات وقع شامل، إلا أن أصحاب القرار ظلوا يفكرون غالبا بمنظور السيادة والمصالح الوطنية الضيقة. عكس هذا المنحى، يبدو أن جائحة فيروس كورونا دفعت بهم إلى اتخاذ الإجراءات بسرعة في ظل تهديد آني. من هنا تأتي أهمية دراسة هذه العدوى ككارثة قامت بتعرية هشاشة كل الدول بما فيها التي تعتبر جد متقدمة. إن الغاية من هذا العمل هي استخلاص الدروس لأجل تجنب تجدد حدوث سيناريوهات بحجم جائحة فيروس كورونا وذلك بالعمل على اتخاذ إجراءات استباقية كالتقليل من مسببات الأخطار والتأقلم معها في حالة حدوثها، كما هو الحال بالنسبة للتغيرات المناخية.

الكلمات المفتاحية: خطر، وقاية، كوفيد19، التير المناخي، الهشاشة، نموذج تنموي جديد مستدام.

Résumé

Bien que les menaces du changement climatique furent relevées à maintes reprises et par différents experts, comme des risques de grandes ampleurs, les décideurs ont généralement continué à raisonner selon une logique d'intérêts internes. Le coronavirus semble avoir plié les décideurs pour les obliger à agir vite et bien face à une menace globale. Il serait utile de s'intéresser au coronavirus comme une catastrophe globale, ayant mis à nu la vulnérabilité de tous les pays y compris ceux comptant parmi les plus développés. Le but est d'en tirer les enseignements nécessaires pour éviter qu'un tel scénario ne se reproduise, en agissant en amont sur les actions de limitation et d'adaptation face aux risques majeurs, notamment le changement climatique.

Mots-clés : Risque, prévention, Covid-19, changement climatique, vulnérabilité, résilience, nouveau modèle de développement durable.

« Celui qui néglige de se défendre contre la maladie, la douleur et la mort est un imbécile et sa folie ne rencontre pas la moindre pitié dans la grande Nature. Les roues énormes de la Fatalité passent sur lui sans même entendre le cri de sa torture ».

Henri-Frédéric Amiel, Journal intime, 1872.

- Journal Officiel de la République Française. 2012.** Avis et communications, Avis divers. Commission Générale de Terminologie et de Néologie, Vocabulaire de l'environnement. Texte 104 sur 112 (13 juillet 2012).
- Kissinger, Henry Alfred. 2020.** The Coronavirus Pandemic will forever alter the World Order. www.wsj.com (Consulté le 05 avril 2020)
- Lagier, Joëlle et Montargot, Nathalie. 2019.** Quelle est la vision des acteurs publics, institutionnels et privés sur l'intégration du tourisme dans la smart city ?. *Revue Management et avenir*, N°107, pp:13-35.
- Meijer, Albert et Pedro Rodríguez Bolívar, Manuel. 2016.** La gouvernance des villes intelligentes: Analyse de la littérature sur la gouvernance urbaine intelligente. *Revue Internationale des Sciences Administratives*. Vol 82, pp:417-435.
- Métropole Dijon. France. 2020.** OnDijon, métropole intelligente et connectée. www.metropole-dijon.fr (consulté le 10 mai 2020)
- Ministère de l'Economie, des Finances et de la Réforme de l'Administration. Maroc. 2020.** Loi de Finances 2020. www.finances.gov.ma (consulté le 23 avril 2020)
- Nations Unies. Conseil économique et social. Commission de la science et de la technique au service du développement. 2016.** Infrastructures et villes intelligentes. www.unctad.org (consulté le 10 avril 2020).
- Organisation Mondiale de la Santé:** <https://www.who.int> (consulté le 11 avril 2020).
- Portail de l'Emploi au Maroc Rekrute. 2020.** Enquête sur "Les conditions de travail des marocains pendant le confinement". www.rekrute.com (consulté le 15 avril 2020)
- Portail du Ministre de l'Economie, des Finances et de la Réforme de l'Administration. Maroc. 2020.** www.mmmp.gov.ma (consulté le 17 avril 2020)
- Portail National des collectivités Territoriales. Maroc. 2020.** <http://www.pncl.gov.ma> (consulté le 10 mai 2020).
- Secrétariat Général de la Défense et de la Sécurité Nationale. France. 2020.** www.sgdsn.gouv.fr (consulté le 10 mai 2020)
- Secrétariat Général du Gouvernement. Maroc. 2020.** www.sgg.gov.ma/Portals/0/constitution/constitution_2011_Fr.pdf ((consulté le 28 avril 2020)
- Tang, Zhiwei, Jayakar, Krishna, dong Feng, Xiao, Zhang, Huiping et Xiaoyue Peng, Rachel. 2019.** Identifying smart city archetypes from the bottom up: A content analysis of municipal plans. *Telecommunications Policy*. Elsevier. Vol. 43, Issue 10 [https://doi.org/10.1016/j.telpol.2019.101834].
- The European Network of Living Labs. 2015.** www.openlivinglabs.eu (consulté le 17 avril 2020)
- The Guardian. 2014. World Cup 2014:** Inside Rio's Bond-villain mission control. www.theguardian.com/cities/2014/may/23/world-cup-inside-rio-bond-villain-mission-control (consulté le 23 mai 2020):
- The International Disasters Database. 2015.** Centre for research on the epidemiology of Disasters, Munich RE. www.emdat.be (consulté le 21 mai 2020)
- The World University Ranking Time Higher Education. 2020.** www.timeshighereducation.com (consulté le 13 mai 2020)

- Centraliser l'action publique sur l'espace urbain (gérer toutes les fonctions urbaines et territoire urbain depuis un seul point) pour une Kénitra ville intelligente efficace souple et ouverte, et pour en augmenter la résilience
- Gestion publique de Kénitra ville intelligente (sous forme d'une agence ou fondation)
- L'université Ibn Tofail pourra occuper une place centrale et jouer un rôle décisif dans la mise en œuvre de ce projet:
 - Création d'une cellule universitaire de veille stratégique
 - Etude pluridisciplinaire détaillée et complète des différents thématiques liées à Kénitra ville intelligente, à travers des projets de recherche et développement ou des projets de fin d'études, portant sur l'ensemble des aspects de la ville intelligente: sciences et techniques, santé, sociologie, aménagement des territoires, environnement, économie, management, culture
 - Création de nouvelles filières de formation sur la science de la ville, et la gestion des crises
 - Création des centres d'innovation urbaine (en collaboration avec les autorités et partenaires locaux)
 - Encadrement des sessions de formation pour accompagner, et les décideurs locaux (formations spécifiques ciblées), et les citoyens (usages numériques et alphabétisation numérique)
 - Mettre ses réalisations d'université verte ouverte et intelligente au profit de Kénitra ville intelligente (expérience à développer et à généraliser).

Bibliographie

- Banque Mondiale. 2020.** www.banquemondiale.org (consulté le 19 mars 2020)
- Breux, Sandra et Diaz, Jérémy. 2017.** La ville Intelligente: Origine, définitions, forces et limites d'une expression polysémique. Institut national de la recherche scientifique, Centre -Urbanisation Culture Société. <http://espace.inrs.ca> (consulté 29 mars 2020)
- Cerqui Daniela. 2002.** La société de l'information entre technologies de la communication et technologies du vivant : l'immortalité par la maîtrise du code", Revue européenne des sciences sociales. pp: 169-180. [doi.org/10.4000/ress.624]. <https://journals.openedition.org/ress> (consulté le 15 mai 2020)
- China News Agency xinhuanet. 2020.** <http://www.xinhuanet.com/english> (consulté le 11 mai 2020)
- Climate Group. 2013.** Faster, Smarter, Greener: The State of City Innovation on Climate Change and other Urban Challenges. [www.theclimategroup.org/sites/default/files/archive/files/Agile-Cities-Report-Full-FINAL\(1\).pdf](http://www.theclimategroup.org/sites/default/files/archive/files/Agile-Cities-Report-Full-FINAL(1).pdf) (consulté le 09 mai 2020)
- Haut-commissariat au plan. Maroc. 2014.** Recensement de la Population et de l'Habitat.
- Haut-Commissariat au Plan. Maroc. 2017.** www.hcp.ma (consulté le 11 mai 2020)

s'articuler avec les enjeux locaux pour susciter plus d'adhésion des citoyens, par et pour eux la ville intelligente est créée. Si l'infrastructure technologique se démarque première au niveau des moyens, ce sont les citoyens qui sont premiers dans l'ordre des finalités.

Si l'État et/ou les collectivités locales se trouvent, en période de crises, dans l'obligation de prendre des décisions et mesures sensibles dans un temps contraint, Il a été montré que, grâce à ces technologies avancées, les décideurs peuvent rapidement agir et prendre les décisions et mesures nécessaires, mobiliser horizontalement l'ensemble des acteurs urbains, hiérarchiser les urgences et priorités, garantir les besoins de première nécessité aux citoyens, assurer la sécurité des citoyens, préserver la stabilité sociale, et bien préparer la période post-crise.

Il reste à signaler que, derrière ces avantages énormes de la ville intelligente , se cache des limites et risques auxquels les autorités locales et le comité de pilotage du projet Kénitra ville intelligente, doivent accorder une attention particulière: protection des données personnelles, vulnérabilité des systèmes informatiques et numériques, accessibilité des services urbains numériques, et le contexte culturel, social, historique, politique, et territorial de la ville.

Notre travail s'est contenté de montrer l'importance d'une gouvernance urbaine intelligente pour une meilleure gestion des crises imprévues et d'apporter quelques éléments de réflexion sur la mise en place de Kénitra ville intelligente, et ne prétend pas avoir reflété l'ensemble des aspects liées à la gestion des crises dans la cadre des villes intelligentes, qui reste un sujet si vaste et compliqué qu'il ne peut être traité en un chapitre.

À cet effet, les atouts de la ville intelligente concernant la gestion des crises imprévues et leurs impacts sur la santé publique ont été présentés. D'autre part, la stratégie de développement des villes intelligentes a été suffisamment détaillée et projetée sur la ville de Kénitra avec son écosystème favorable pour ce modèle de gouvernance urbaine, pour mieux se préparer à affronter d'éventuelles crises imprévues.

Faire de Kénitra une ville intelligente et durable est certainement un atout pour la région et pour tout notre pays. Les autorités locales, responsables de la politique urbaine, auront l'appui d'un écosystème local favorisant cette transition vers l'intelligence urbaine: université et centre de recherches et d'innovation, zones industrielles internationales, potentialités économiques, population jeunes, et une société civile active.

Aussi, des recommandations peuvent être proposées pour assurer le succès de la mise en place de Kénitra ville intelligente:

- Etablir le projet dans le cadre d'une optique de gouvernance collaborative,
- Mettre en place un comité de pilotage (instance de coordination) de Kénitra ville intelligente (autorités locales, université et plateformes d'innovation,, zones industrielles internationales, services urbains, acteurs économiques et sociaux, et société civile)

Au niveau du financement, plusieurs pistes peuvent alimenter le processus de conception, d'innovation et de mise en place des solutions intelligentes pour « Kénitra ville intelligente »: fonds de recherche publique, soutien financier des collectivités locales et régionales, fonds de recherches internationaux, partenariats public-privé, autofinancement (provenant des gains d'efficacité, préservation de ressources, fiabilité de décisions, rapidité de l'action publique, exploitation intelligente des espaces publics urbains, réduction de charges de la gestion publique, réduction de l'évasion fiscale, économies réalisées sur les consommations d'eau et d'énergie, exploitation des données massives comme bien public, tout en respectant les données personnelles des citoyens et les mesures de sécurité, innovation et brevetage des solutions intelligentes...).

De ce qui précède, faire de Kénitra une ville intelligente passe par:

- Mettre en place d'un comité de pilotage regroupant tous les acteurs de la ville, notamment, les autorités locales, l'université ibn Tofail, services urbains, et tissu socio-économique ;
- Etablir la stratégie du développement du projet, et le plan d'action ;
- Financement et partenaires ;
- Etudes, modélisation et conception: bilan de l'existant, environnement culturel économique et sociale, modèle de la ville intelligente, gouvernance intelligente collaborative et transparente; infrastructure et outils de la technologie, le partage et la diffusion des données, volet économique et environnemental, favorise la biodiversité et la préservation des ressources naturelles, assurer pérennité et durabilité: énergies renouvelables, bâtiments intelligents, territoire intelligent, gestion de l'eau et de l'énergie, mobilité....) ;
- Identification des services urbains à améliorer ;
- Création des centres d'innovation urbaine, voire des laboratoires vivants¹ (expérimentation en conditions réelles) pour la promotion d'innovations en rapport avec les villes intelligentes et leurs mises à l'essai ;
- Renforcer l'aptitude de la ville à définir un plan de développement stratégique ;
- Développer des programmes de formation sur la science de la ville ;
- Centraliser la gestion de Kénitra ville intelligente pour mieux coordonner l'ensemble des services publics, et améliorer le processus de prise de décisions et de mise en œuvre des mesures et instructions, pour réagir efficacement face aux difficultés des crises sanitaires ou autres, comme celle du Covid-19.

Conclusion

En synthèse, le modèle de la ville intelligente est d'un intérêt capital pour aider les villes à se préparer, à gérer et à redresser les situations engendrées par des crises imprévues. Les nouvelles technologies telles que les télécommunications, l'intelligence artificielle, objets connectés, Big Data, et internet des objets, doivent

¹ - European Network of Living Labs, 2015: www.openlivinglabs.eu (consulté le 17 avril 2020)

intelligente et ouverte, qui contribue activement et continuellement au développement de la région. Elle pourra jouer un rôle clé dans la conception, la mise en place et l'accompagnement de « Kénitra ville intelligente».

L'université ibn Tofail a déjà fait preuve de la démarche de "l'intelligence" comme vecteur du développement durable. Plusieurs projets intelligents faisant d'elle une "université intelligente" ont été réalisés: énergies renouvelables, traitement d'eau, électro-mobilité, véhicules électriques, irrigation intelligente... Toutes ces réalisations ont permis à l'université de siéger parmi les meilleures universités internationales en ce qui concerne les objectifs du développement durable des Nations Unies selon le prestigieux classement international " Times Higher Education Impact Ranking 2020". L'université ibn Tofail est classée première au Maroc, première en Afrique et 37^{ème} au niveau mondial pour le critère " Clean Water and Sanitation". Elle est classée première à l'échelle nationale, première en Afrique et 42^{ème} mondialement pour le critère " Affordable and Clean Energy", et pour le classement global, l'UIT est la première université à l'échelle nationale, quatrième à l'échelle de l'Afrique et parmi la catégorie 200-300 à l'échelle mondiale¹.

D'autre part, nous avons vu que les personnes intelligentes constituent un volet important pour la mise en place des villes intelligentes, Il est donc essentiel de s'investir aux programmes de qualification des ressources humaines, et d'accélérer les programmes d'enseignement de l'ingénierie et des sciences et technologies. Ainsi, Kénitra ville intelligente, et grâce à la diversité des formations et de spécialités qu'offre l'université Ibn Tofail, pourra faire des économies énormes liées au budget alloué aux ressources humaines, en bénéficiant des milliers d'étudiants que compte l'université UIT (Doctorants, élèves ingénieurs, master et licence), et qui peuvent contribuer chaque année au développement de cet édifice intelligent, à travers leurs travaux de recherche et projets de fin d'études, et ce dans les différents disciplines que requiert un projet de ville intelligente (science, technologie, ingénierie, mathématique, biologie, chimie, management, économie, droit, sociologie, aménagement territorial...).. Aussi, et vu l'importance de la formation tout au long de la vie, des cours en ligne et des formations continues liées aux compétences des villes intelligentes peuvent être assurées au profit des différents acteurs urbains, décideurs locaux et des citoyens.

Par ailleurs, Kénitra dispose d'une nouvelle zone industrielle intégrée à 12 km de la ville, abritant de grandes entreprises internationales de différentes nationalités, ce qui érige Kénitra en pôle industriel. Cette tendance industrielle vient renforcer la diversification des potentialités économiques de la ville de Kénitra et sa région: agroalimentaire, biodiversité, potentiel minier, ressources hydrique... Tout cela fait de Kénitra un pôle économique attractif et compétitif.

¹ - Portail de l'Université ibn Tofail, Maroc: www.uit.ac.ma (consulté le 13 mai 2020)

- Le modèle (Spectre large: *Broad Spectrum Model*) : l'utilisation des technologies pour limiter la pollution, et gestion des services urbains: distribution de l'eau, gestion des déchets, et traitement des eaux usées.
- Le modèle (Ecosystème d'affaires: *Business Ecosystem Model*) : l'utilisation des TICs pour accélérer et booster l'activité économique dans l'espace urbain.

La ville intelligente repose sur l'usage complémentaire de plusieurs aspects, tous indispensables: politique, économique, social, juridique, managérial, culturel, environnemental et technique. L'aspect technique (i.e, infrastructures techniques) semble être prédominant et représente le socle sur lequel reposent les projets de villes intelligentes: réseaux de télécommunications, applications mobiles, mobilité intelligente, santé intelligente, Big Data, Cloud computing, systèmes embarqués, super-calculateurs, caméras, applications Machine to Machine, sécurité des réseaux, capteurs (mouvement, température, lumière, consommation d'eau et d'électricité, qualité d'air, bruit, vibration, humidité, pression, pluviométrie, température des sols...), sites web et services en ligne, réseaux sociaux, logiciels de traitement, d'analyse et d'exploitation de données massives, support d'affichages, Internet public, services de géolocalisation, bâtiments intelligents...

2.2. Ecosystème favorable pour un modèle réussi de Kénitra ville intelligente

Qu'il s'agisse ou non d'une situation de crise, Kénitra ville intelligente constitue une solution prometteuse pour l'amélioration de la qualité de vie et l'accélération du développement économique et social de la ville et de toute la région.

Comme nous l'avons déjà expliqué, un modèle de ville intelligente ne peut être transplanté d'une région à une autre, il va falloir l'adapter parfaitement aux particularités de son espace, et répondre à ses propres besoins de développement, son environnement, ses potentialités et sa culture.

Et pour mieux s'adapter au contexte local, il est essentiel de tirer profit du système local d'innovation¹ dont dispose la ville de Kénitra (l'université et sa plateforme de recherche et innovation, entreprises)

Une collaboration étroite dans ce sens entre les autorités locales et l'université ibn Tofail servira de levier indispensable pour ce projet de Kénitra ville intelligente. Dans notre contexte, il convient de mutualiser les infrastructures d'innovation et de recherches scientifiques dont dispose l'université et les mettre à disposition de ce chantier de modernisation de l'espace urbain. Ces infrastructures sont: Laboratoires de recherches, centres de recherches, centres universitaires, incubateurs, et future cité d'innovation.

Outre son engagement déterminé en faveur du développement local régional et national, et consciente de l'importance des nouvelles technologies et des objectifs du développement durable, l'université ibn Tofail se veut être une université verte,

¹ - Nations Unies, Conseil économique et social, Commission de la science et de la technique au service du développement, "Infrastructures et villes intelligentes", 2016: www.unctad.org (consulté le 10 avril 2020).

- Développement de l'infrastructure de communication et réseautage: supports et technologies de communications (Télécommunications) ;
- Déploiement des points d'accès (WiFi) public dans tous les coins de la ville ;
- Association de la planification urbaine aux nouvelles technologies ;
- Mise en ligne de tous les services publics sur le territoire urbain ;
- Développement d'une architecture technologique modulaire et interconnectée ;
- Garantie de l'accès aux informations publiques et valorisation des données massives ;
- Digitalisation et mise en réseaux connectés des services urbains ;
- Mise en place des espaces d'innovation et de formation à vie ;
- Accompagnement des citoyens (alphabétisation numérique, fossé numérique et technologique) ;
- Renforcement de la vie économique par l'innovation, l'attractivité de l'espace urbain, et l'essor de nouveaux secteurs de technologies de pointe ;
- Mise en place d'un dispositif de normes et qualité (indicateurs de performances)
- Anticipation et prévention des crises.

La gestion centralisée¹ de l'espace public et de l'ensemble des équipements urbains connectés, très adaptée aux situations de crises, pourra être assurée depuis une seule cellule de commandement qui permet de prendre les décisions plus vite. Le concept est d'interconnecter tous les services et acteurs urbains et en faire un seul système centré, pour éliminer les redondances, mieux exploiter les données massives collectées, réduire le temps d'agir, et rendre ainsi l'action urbaine plus intelligente et plus efficace, et la ville plus protectrice, compétitive, participative, innovante et économe.

Le développement d'une ville intelligente repose sur trois critères complémentaires:

- Performance de planification, et de modélisation du contexte urbain et son écosystème ;
- Développement d'une architecture optimale du système nerveux de la ville (structure de conduite, pilotage, processus, réseaux, capteurs, nœuds de contrôle, sécurité et prévention de risques) ;
- Large participation des citoyens et acteurs urbains.

D'après une étude² comparative de plus de 60 villes intelligentes à travers le monde, on peut distinguer quatre modèles de référence des villes intelligentes:

- Le modèle (Services essentiels: *Essential Services Model*) : l'utilisation des réseaux mobiles pour la gestion des urgences et services de soins de santé ;
- Le modèle (Transport intelligent: *Smart Transportation Model*) : l'utilisation des TICs pour l'amélioration des services de transports urbains (fluidité) ;

¹ - Expérience "OnDijon, métropole intelligente et connectée", La métropole et la ville de Dijon, France: www.metropole-dijon.fr (consulté le 10 mai 2020)

² - Zhiwei Tang, Krishna Jayakar, Xiao dong Feng, Huiping Zhang, et Rachel X. Peng, "identifying smart city archetypes from the bottom up: A content analysis of municipal plans", Telecommunications Policy, Vol. 43, Issue 10, November 2019.

provenant de multiples sources, une seule et unique salle de contrôle. "Gérer depuis un seul point, tous les points de la ville et dans les différentes dimensions", cette structure très efficace sera d'un intérêt capital dans la gestion des affaires urbaines, surtout en cas de crise.

Dans cette partie, nous allons présenter les démarches et les stratégies de mise en place des villes intelligentes, avant d'initier la réflexion sur la transformation de Kénitra en une ville intelligente, capable d'améliorer la qualité de vie des citoyens, et de leur offrir un espace de sécurité et de confiance, et de mieux se préparer à un avenir incertain et d'être en mesure de prévenir et gérer les situations de crises.

2.1. Stratégie de développement d'une ville intelligente

Une ville intelligente n'est pas une solution purement technique basée sur l'usage des nouvelles technologies, mais elle requiert une approche globale d'intérêt général, fondée sur des choix politiques, tenant compte des spécificités culturelles et sociales de la ville, et répondant aux besoins réels des citoyens et de développement de l'espace urbain. Les expériences des villes intelligentes sont uniques, et on ne peut en aucun cas adopter une solution prête d'une ville intelligente qui a déjà vu le jour, même si on peut s'en inspirer.

Les citoyens sont le noyau de toutes les démarches de conception et de mise en œuvre de la ville intelligente, c'est une ville faite pour et par les citoyens. Leur participation est un facteur de succès: de la conception à la réalisation de ce type de projet.

Les autorités locales doivent, dans un premier temps, identifier tous les acteurs territoriaux, pour se lancer dans une phase d'analyse et de diagnostic, en vue d'identifier les besoins et priorités des citoyens (culture, éducation, emploi, santé, économie, sécurité, gouvernance...), définir les problématiques propres à la ville, hiérarchiser les services urbains mis (ou à mettre) en réseau, définir les potentialités et risques dans leur territoire, et proposer une structure organisationnelle de pilotage (regroupant toutes les composantes de la ville).

Suite à cette phase, d'analyse et de diagnostic, légitimisée par une forte participation des citoyens et des acteurs locaux, les autorités de la ville sont menées à mettre en place une stratégie d'action pour développer et coordonner des systèmes, collaborer et accompagner les acteurs, communiquer et être à l'écoute des citoyens.

Les orientations principales de cette stratégie sont, en général, comme suit:

- Centralisation de l'action publique urbaine et coordination étroite entre tous les acteurs ;
- locaux: organismes publics et privés, société civile et citoyens ;
- Création d'un espace urbain de débat public (démocratie participative, transparence, imputabilité, accessibilité à toutes les administrations) ;

Dans l'esprit (Wei ji)¹, chaque crise possède deux composantes indissociables: le risque (wei) et l'opportunité (ji). On perçoit la crise comme un instrument du renouvellement en saisissant l'opportunité pour avancer.

Au Maroc, il sera très utile de profiter des leçons déduites de cette crise de Covid-19, pour revoir les choix politiques et rénover le rôle de l'Etat vers un Etat de protection sociale, garant de la justice sociale, et faisant des secteurs sociaux vitaux; la santé publique, l'enseignement public et la recherche scientifique; les véritables leviers du développement.

Egalement, il serait envisageable de saisir les opportunités que présente cette crise pour i) accorder plus d'importance au facteur humain (citoyens, ressources humaines), ii) améliorer l'action et la gouvernance publique, y compris la gouvernance territoriale (gouvernance collaborative), et iii) s'investir davantage dans les nouvelles technologies (innovation, transfert technologique, recherche scientifique...). Et ce pour faire du territoire national un territoire intelligent.

2. Pour mieux se préparer à l'avenir, comment faire de Kénitra une ville intelligente?

La dynamique démographique de la ville de Kénitra a connu une très forte croissance durant les 20 dernières années (+ 47,7%) en passant de 293.000 habitants en 1994 à 432.000 en 2014², alors que la province de Kénitra (5 cercles, 3 communes urbaines et 20 communes rurales) compte 1.061.435 habitants³.

Kénitra dispose de potentialités diversifiées qui peuvent être mobilisées pour un développement durable: i) exceptionnelle position géographique, ii) richesses naturelles très diversifiées, iii) tissu économique et industriel diversifié, population jeune, les jeunes de moins de 25 ans constituent presque la moitié, iv) caractéristiques touristiques & écologiques.

Si, à toutes ces potentialités, on associe un mode de gouvernance trans-sectoriel intelligent, la ville de Kénitra sera l'un des espaces urbains les plus attractifs au Maroc.

Kénitra ville intelligente facilite les interactions entre les différents nœuds de fonctionnement de la ville par le biais des réseaux multidimensionnels. Pour mieux utiliser les données collectées par l'infrastructure des villes intelligentes, plusieurs expériences⁴ utilisent un centre d'exploitation qui reçoit directement les données

¹ - En chinois mandarin, le mot "Crise" est composé de deux symboles (危机 : Wēi - jī), dont la signification est, successivement: Danger - Opportunité. Dictionnaire Classique de la Langue Chinoise: <http://www.hierotext.com/couvreur> (consulté le 25 avril 2020)

² - Haut-commissariat au plan: Recensement de la Population et de l'Habitat, 2014.

³ - Haut-Commissariat au Plan, Maroc, 2017: www.hcp.ma (consulté le 11 mai 2020)

⁴ - C. Frey, 2014, World Cup 2014: Inside Rio's Bond-villain mission control, The Guardian, 23mai: www.theguardian.com/cities/2014/may/23/world-cup-inside-rio-bond-villain-mission-control

de rendre intelligible la complexité des comportements, et nous permet de reproduire des tâches répétitives automatisées et de s'adapter aux changements des environnementales, et d'assurer la synergie et l'interopérabilité des sous-systèmes constituant la fonction urbaine.

Plusieurs applications intelligentes ont été développées pour limiter la propagation de la pandémie dans le cadre d'un système de santé connecté¹:

- Des robots intelligents ont été utilisés pour transporter des fournitures médicales et des marchandises nécessaires
- Des robots mobiles intelligents dotés de plusieurs fonctions, la reconnaissance faciale et le prélèvement de la température, circulent dans les voies publiques pour contrôler la propagation du covid-19 ;
- Des technologies de reconnaissance faciale ont été développées, à l'aide de l'intelligence artificielle et de caméras thermiques, pour détecter les passagers qui présentent une température anormale ;
- Des systèmes de QR code basés sur différentes couleurs pour suivre l'état de santé des citoyens ;
- Des systèmes de Tracking pour tracer les déplacements des citoyens dans les espaces publics ;
- Drones sans pilote équipés de haut-parleur pour informer et conseiller les citoyens ;
- Applications mobiles, et une variété de services en ligne ;
- Outils d'analyse de données et de prise de décisions...

L'ensemble des avantages que présentent les nouvelles technologies, la gouvernance intelligente et le système de santé connecté, font des villes intelligentes les espaces les plus armés pour lutter contre les crises, y compris celles d'origines sanitaires, et satisfaire les attentes des citoyens grâce à une meilleure coordination, connaissance du territoire, anticipation, rapidité de prise de décisions et efficacité des interventions.

Une cellule de pilotage central regroupant plusieurs points de contrôles, et connectée en temps réel à toutes les infrastructures et services urbains peut booster la capacité des villes intelligentes à mieux gérer les crises et limiter leurs effets.

Outre l'efficacité décisionnelle, la démocratie participative, l'attractivité économique et la réduction des charges publiques (énergie verte, services en ligne, régulation de trafic...), la ville intelligente permettra aux autorités locales; en situation de crise; d'avoir une cartographie claire de la crise sur le territoire urbain, d'agir en temps réel, d'optimiser les interventions, de communiquer facilement, de véhiculer les aides en temps record, et ainsi de mieux gérer la crise et préparer les scénarios adéquats pour la période post-crise.

¹ - Site d'information chinois: <http://www.xinhuanet.com/english> (consulté le 11 mai 2020)

décisions optimales; est une ville capable, avec les mêmes ressources, de répondre rapidement et en temps réel aux besoins des collectivités et des habitants: c'est exactement dont on a besoin en situation de crise.

Les données massives, capteurs, mise en réseau, mobilité, outils de prise de décisions, digitalisation des procédures sont des éléments phares des villes intelligentes pour sensibiliser, anticiper, diagnostiquer, protéger, surveiller, échanger, coordonner, et maîtriser toute situation imprévue.

1.2. La santé publique dans une ville intelligente

Dans une ville intelligente, le territoire est connecté à base des technologies avancées: capteurs, connectivité des réseaux, capacité d'analyse et de traitement de données, ce qui fait d'elle un espace favorable à la santé publique, et à la mise en place des systèmes de santé connectés (canne intelligente pour les malvoyants, bracelets connectés, fréquence cardiaque, tests, taux de glycémie, images médicales, conseils et informations, détection des sources de contamination et des comportements...).

Ces systèmes de santé connectés permettront de¹:

- Améliorer les fonctions de recueil, d'analyse, de gestion et de conseil: vigilance sanitaire, surveillance épidémiologique..etc ;
- Favoriser la prise en charge médicale (consultation ou suivi, soins auto-administrés, suivi à distance ;
- Faciliter les parcours de soins des patients (gain en termes de temps, charges et accessibilité) ;
- Prévoir et suivre les poussées épidémiques et prendre les précautions nécessaires
- Apporter des solutions innovantes dédiées aux personnes privées de déplacements (confinées, âgées, handicapées, prise au piège,...) ;
- Réduire les inégalités entre les citoyens en terme d'accès aux soins ;
- Faciliter la sensibilisation aux risques et aux bonnes pratiques.

D'autre part, les avancées technologiques révolutionnent le secteur de la santé: systèmes implantés, dossiers médicaux numériques, télé médecine, suivi sanitaire de la population, Big-Data, applications mobiles, e-santé, intelligence artificielle... Durant cette période de crise sanitaire, l'innovation technologique et les solutions intelligentes ont montré une nette efficacité dans la protection de la santé publique et la lutte contre le coronavirus.

La chine, leader mondial de l'industrie de la technologie qui compte plus de 1.4 milliard d'habitants, a mobilisé tout son arsenal technologique pour maîtriser la situation en quelques mois grâce à une plateforme complète de gouvernance intelligente, ressources humaines hautement qualifiées et d'infrastructures avancées: réseaux et télécommunications, applications mobiles, Big-Data, géolocalisation, électronique et l'intelligence artificielle. Cette dernière est capable

¹ - Portail de l'Organisation Mondiale de la Santé: <https://www.who.int> (consulté le 11 avril 2020).

intelligente¹ est une ville qui utilise les technologies intelligentes avancées (angle technologique), celle qui utilise du personnel intelligent (angle ressources humaines), ou celle dotée de collaborations intelligentes (angle gouvernance). Si la ville intelligente vise à améliorer la gestion des affaires urbaines; assurées précédemment par des ressources humaines attachées au services urbains dans le cadre d'une gouvernance territoriale locale; par l'utilisation des nouvelles technologies, nous optons alors pour une définition composite de ces trois éléments: une ville intelligente ne pourra être conçue, sans l'utilisation des technologies avancées, sans ressources humaines qualifiées et sans un cadre de coordination et de collaboration entre les différents acteurs de la ville.

Ainsi, les trois piliers de la ville intelligente sont: l'infrastructure et moyens technologiques, les ressources humaines qualifiées, et la gouvernance intelligente (collaborative). Cette dernière² repose sur des dimensions faisant d'elle un outil efficace pour la gestion des crises : l'interopérabilité entre les différents services de la ville, la transparence dans la collecte et l'exploitation des données, le contrôle et sécurité, émergence d'espaces de participation, de réflexions et d'actions, ouverts aux différents acteurs urbains et aux citoyens. Par la suite, la gouvernance intelligente dans le contexte des villes intelligentes est capable de:

- Rendre la ville plus réactive, plus efficace, et plus contrôlable ;
- Favoriser la coordination de l'action publique et la communication, et de permettre le contrôle, en un seul point, de l'ensemble des fonctions urbaines ;
- Rendre le mode de fonctionnement local plus préventif, plus efficient et plus efficace ;
- Rendre la gouvernance territoriale efficace, transparente et responsable;
- Apporter en temps utile des décisions appropriées pour protéger les citoyens ;
- Favoriser l'innovation sociale et l'engagement civique ;
- Faciliter la planification urbaine et la gestion de crise ;
- Consolider la gestion transversale ;
- Rendre possible la prévention et l'anticipation des événements imprévus ;
- Réduire les inégalités au sein du territoire ;
- Permettre aux habitants d'adopter des comportements favorables à la situation.

En temps de crise, la fluidité des données, et la communication exhaustive, active et réactive, aident les décideurs locaux à rester continuellement à l'écoute de leur écosystème.

La ville intelligente, par ses services et composantes connectés, ses moyens d'automatisation, de surveillance, d'analyse et de programmation, et de prise de

¹ - Albert Meijer, et Manuel Pedro Rodríguez Bolívar, "La gouvernance des villes intelligentes: Analyse de la littérature sur la gouvernance urbaine intelligente", Revue Internationale des Sciences Administratives, Vol 82, pp:417-435, 2016.

² - Sandra Breux, et Jérémy Diaz, "La ville Intelligente: Origine, définitions, forces et limites d'une expression polysémique", Institut national de la recherche scientifique, Centre -Urbanisation Culture Société, Janvier 2017: <http://espace.inrs.ca> (consulté 29 mars 2020)

engendrée par une discontinuité brutale de l'état normal. Le recours aux nouvelles technologies avancées, et ses diverses applications, semble très efficace pour offrir aux décideurs des outils performants de gestion des crises.

La section ci-après, décrit brièvement les atouts de la ville intelligente face aux crises, et les énormes bénéfices qu'apporte ce modèle de ville pour la santé publique.

1.1. Les points forts de la ville intelligente dans une situation de crise?

Une ville peut être considérée comme un système complexe, constitué de plusieurs composantes en synergie permanente, et dont l'objectif est l'amélioration de la qualité de vie des citoyens et la mise en place d'une politique efficace. Ceci, pour rendre les services publics meilleurs et plus accessibles, que ce soit les services relevant de ses propres compétences, des compétences partagées avec l'état ou celles transférées par l'état¹: mobilité et transports, eau, énergie, réseaux de communication, santé, éducation et enseignement, sport, environnement, vie économique, assainissement, déchets,... La ville peut être modélisée donc par un système complexe constitué de plusieurs sous-systèmes, services, infrastructures, et fonctions, et dont le modèle reflète le cadre sociétale dans lequel elle se développe.

A l'ère de la société du savoir caractérisée par cinq aspects principaux², à savoir: i) le passage des systèmes de production de biens matériels à l'économie de service, notamment dans les domaines de l'enseignement, santé, et recherche; ii) employabilité des profils hautement qualifiés; iii) le savoir est générateur d'innovation et moteur de croissance économique; iiiv) l'émergence de nouvelles technologies; et iiivv) la maîtrise des développements techniques et sociaux. A cette ère, le rôle croissant des technologies avancées et la complexité du contexte urbain interpelle les gouvernements à repenser leur rôle et réorganiser leurs modes de gouvernance territoriale. Ainsi la ville du 21ème, en s'appuyant sur le réseautage des acteurs et organismes publics et privés et de la société civile³, devra être capable de fournir toute une gamme de services innovants, en tenant compte des spécificités du territoire et du temps, par l'intégration à grande échelle des technologies de l'information et de communications en vue d'améliorer sa compétitivité et l'efficacité de ses services, et d'assurer un avenir agréable et plus durable aux citoyens.

La définition qu'on peut donner à une ville intelligente dépend de l'angle de vision sous lequel on envisage le concept de l'intelligence de la ville. Ainsi, une ville

¹ - Portail national des collectivités territoriales au Maroc: <http://www.pncl.gov.ma> (consulté le 10 mai 2020).

² - Daniela Cerqui, "La société de l'information entre technologies de la communication et technologies du vivant : l'immortalité par la maîtrise du code", *Revue européenne des sciences sociales*: <https://journals.openedition.org/ress>, (consulté le 15 mai 2020) [doi.org/10.4000/ress.624]

³ - Joëlle Lagier, et Nathalie Montargot, " Quelle est la vision des acteurs publics, institutionnels et privés sur l'intégration du tourisme dans la smart city ? ", pp:13-35, *Revue Management et avenir*, N°107, Février 2019.

Ce travail se propose de présenter une forme efficace de la gouvernance territoriale dans les espaces urbains : celle de la gouvernance intelligente dans le cadre des villes intelligentes. Un intérêt particulier relève de ce dispositif de gouvernance, surtout en cas de crise imprévue. La collecte et le traitement des flux de données par des outils de l'intelligence artificielle et technologiques avancées permettra aux autorités publiques la prévention et l'anticipation et la prise des bonnes décisions en temps raisonnable, et de garantir la sécurité des citoyens face à toutes les menaces.

Dans une première partie, nous aborderons de manière succincte la gestion des crises dans les villes intelligentes, leurs points forts et la place de la santé publique dans ce mode de ville. Les pistes à suivre pour mieux se préparer à l'avenir dans un monde incertain à travers le développement du modèle « Kénitra ville intelligente » propre à son écosystème, sera décrit brièvement dans une deuxième partie.

1. La gestion de crises dans l'ère des villes intelligentes

La crise sanitaire du Coronavirus est exceptionnelle. C'est la première fois dans l'histoire que les marocains, à l'instar d'autres peuples, vivent un confinement strict de deux mois et plus. Durant cette période de confinement, l'ordre usuel est ébranlé, et la vie quotidienne des personnes et des organisations publiques et privées est paralysée. Les décideurs politiques et économiques se sont trouvés au cœur d'une situation impensable, opaque et incertaine.

Plusieurs problématiques et questions de taille liées à cette crise se sont imposées: limiter la propagation de la pandémie, sécurité de la santé publique, la qualité des soins, continuité de services publics, prise en charge sociale, santé mentale, fourniture et distribution des produits de première nécessité alimentaires et d'autres matières vitales, situation économique et sociale... Sans doute, cette crise mènera les états à repenser et adapter leurs stratégies et choix politiques, et réinventer leurs modes de gouvernance.

Dans les périodes de crises, qui peuvent s'accompagner des mesures de confinement des citoyens et des décisions plus restrictives, l'état et les autorités locales doivent garantir la continuité du service public basé sur l'égal accès des citoyens, la couverture équitable du territoire national et de la continuité des prestations, comme le stipule l'article 154 de la constitution du royaume du Maroc¹.

Une bonne gestion de crise renforce la confiance des citoyens à l'égard des autorités publiques. Elle comprend l'alerte, l'intervention coordonnée et l'analyse rétrospective de son déroulement et ses effets². La gestion des crises requiert une forte capacité d'agir en urgence et de prendre des décisions efficaces et rapides, dans un contexte marqué par l'incertitude quant à l'évolution de la situation

¹ - Portail du Secrétariat général du gouvernement (consulté le 28 avril 2020): http://www.sgg.gov.ma/Portals/0/constitution/constitution_2011_Fr.pdf

² - Journal officiel de la république française 13 juillet 2012, Avis et communications, Avis divers. Commission Générale de Terminologie et de Néologie, Vocabulaire de l'environnement. Texte 104 sur 112.

administratives, parapheur électronique, signature électronique... Une enquête¹ a relevé que la moitié des entreprises ont mis plus de 80% de leurs collaborateurs en mode de travail à distance, et 25% de ces entreprises ont adopté le télétravail à 100%. Au total, 56% des cadres du secteur privé au Maroc sont en télétravail, dont 48.61% sont des jeunes entre 25 et 34 ans. Les jeunes cadres (de 25 et 44 ans) sont les plus satisfaits de ce mode de travail.

Les nouvelles technologies d'information et de communication constituent un levier indispensable pour la modernisation de l'action publique et l'amélioration des performances et de l'efficacité du système de gouvernance publique². Plusieurs initiatives ont été lancées pour développer l'administration électronique au Maroc durant ces deux dernières décennies, mais les accomplissements restent loin des résultats escomptés.

La crise du Covid-19 vient éprouver l'efficacité de la gouvernance publique et la capacité des gouvernements et collectivités locales à répondre aux interrogations légitime des citoyens et assurer leur sécurité face à la propagation de cette pandémie. Les autorités locales, placées en première ligne de la gouvernance locale, se trouvent dépassées par l'ampleur et la rapidité de propagation du virus et de la situation de crise qui en découle. Dans le cadre de leurs compétences et en conformité avec les orientations stratégiques nationales, les collectivités locales sont appelées à réinventer et transformer les processus de la gouvernance territoriale, à travailler en réseau pour renforcer les synergies et à assurer une meilleure cohérence et coordination des actions et activités centrées et efforts concentrés de l'ensemble des acteurs locaux et régionaux, pour faire de la gouvernance urbaine une gouvernance intelligente et collaborative.

Dans un monde incertain, aux trois grands défis des villes du 21ème siècle³: la mobilité, l'environnement et l'économie; s'ajoute un quatrième défi, celui de la gestion de crises imprévues.

Pour faire face aux éventuelles crises futures, les villes doivent changer pour garantir la sécurité de leurs habitants. Ainsi, le modèle de la ville intelligente comme ville connectée, mieux gérée, et dotée de capacités suffisantes en termes de collecte et d'analyse des données massives peut jouer un rôle décisif en cas de crise. Il permet, en outre, la circulation de l'information, la prise de décisions, la mise en réseau de l'action publique et la télé-intervention. Il gère, également, l'ensemble des moyens et modalités d'organisation, de prise de décisions et d'intervention mise en place pour faire face à une crise et endiguer ses conséquences.

¹ - www.rekrute.com "Les conditions de travail des marocains pendant le confinement" (consulté le 15 avril 2020)

² - Portail du Ministre de l'Economie, des Finances et de la Réforme de l'Administration: <https://www.mmmp.gov.ma> (consulté le 17 avril 2020)

³ - [https://www.theclimategroup.org/sites/default/files/archive/files/Agile-Cities-Report-Full-FINAL\(1\).pdf](https://www.theclimategroup.org/sites/default/files/archive/files/Agile-Cities-Report-Full-FINAL(1).pdf)

de l'état et de la société (gouvernement, autorités publiques, collectivités locales, parties politiques et syndicats, société civile, Média, solidarité nationale..) pour réussir la mise en œuvre des mesures préventives et restrictives: l'interdiction des manifestations et des rassemblements; verrouillage des frontières; fermeture des universités et établissements scolaires, cafés, restaurants et mosquées; mise en place d'un fond spécial de lutte contre le covid-19, l'instauration du confinement sanitaire obligatoire, et l'obligation de port de masque de protection.

L'ensemble de ces mesures proactives, sanitaires économiques et sociales, couronnées par un formidable élan de solidarité nationale, et une bonne collaboration et engagement collectif des citoyens, ont permis à notre pays de mieux contrôler la situation sanitaire et de freiner la progression exponentielle de cette pandémie.

Dans un monde de plus en plus complexe, la cohésion et la prospérité des nations reposent sur la conviction de la capacité de l'état et ses institutions de prévoir les catastrophes et crises, d'estimer leurs effets et de rétablir la situation de stabilité¹. Dans ce sens, gouverner l'imprévisible s'impose comme un choix stratégique pour agir contre les crises et menaces futures multiples et polyformes, qu'elles soient sanitaires, naturelles ou technologiques. Et ce par l'association de la veille technologique et l'analyse capacitaire pour identifier les moyens et mesures d'action et évaluer les vulnérabilités². Il est temps alors de mettre en place une stratégie nationale rationnelle, transformationnelle et inclusive pour la gestion et prévention d'éventuelles crises de différentes natures (sanitaire, biologique, chimique, alimentaire, pénurie d'eau, économique, technologique, catastrophes naturelles...), c'est l'une des leçons que l'on peut tirer d'ores et déjà de l'état de choc actuel.

D'autre part, cette crise sanitaire a montré l'importance des nouvelles technologies, et d'une large digitalisation des secteurs publics et privés. Certes, les administrations marocaines se sont tournées vers la dématérialisation des procédures et la numérisation des transactions comme alternative des échanges de documents en papier, et ce à travers un développement rapide de services en ligne. Mais, la crise du Covid-19, et en un peu du temps, a accéléré la transformation digital au Maroc (travail en ligne, téléenseignement, télémedecine, e-commerce, e-conférences,...). Il est tôt pour dresser un bilan de cette transformation, mais c'est sûr que ce qui a été produit durant ces deux mois dépasse de loin les réalisations des dix dernières années. Il suffit de citer: les services en ligne des départements gouvernementaux et organismes publiques, les cours et contenus pédagogiques en ligne, bureau d'ordre digital, service électronique de correspondances

1 - Henry A. Kissinger, "The Coronavirus Pandemic will forever alter the World Order", <https://www.wsj.com>, April 03, 2020.

² - Portail du secrétariat général de la Défense et de la Sécurité nationale, France: <http://www.sgdsn.gouv.fr> (consulté le 10 mai 2020)

suivies de l'évolution de la crise, endiguement de ses effets et accompagnement des citoyens en période de crises. C'est parfaitement ce que le modèle de ville intelligente est en mesure d'assurer, en se reposant sur trois composantes: la gouvernance intelligente, ressources humaines hautement qualifiées et infrastructure technologique. En plus, la ville intelligente contribue nettement à l'amélioration du développement économique, de l'attractivité territoriale, la transparence et de l'égalité d'accès aux services publics. La ville de Kénitra dispose d'un véritable potentiel pour se transformer en ville intelligente, compte tenu de sa situation stratégique, ses différentes potentialités économique, mais aussi de son université prestigieuse, l'université Ibn Tofail. Celle-ci peut constituer un bassin fertile pour le développement de ce nouveau modèle de ville à l'image de son identité : université verte, ouverte et intelligente, et offrir un environnement propice à l'innovation, et enfin, garantir une offre de formation diversifiée et de pointe.

Mots-clés : Technologie avancée, gestion de crise, gouvernance territoriale, Pandémie, ville intelligente, prise de décision.

Introduction

Dans la situation exceptionnelle et sans précédent que traverse le monde entier à cause de la crise sanitaire due au Covid-19, les états font face à des dilemmes et risques multiples (protection de la population, arrêt de l'économie, mesures de confinement, immunité collective, crise sociale, sécurité...). Cette crise a dévoilé l'inefficacité et le dysfonctionnement des organes chargés de la gouvernance mondiale, ce qui provoquera certainement des bouleversements stratégiques politiques et économiques, et des séismes au niveau des relations internationales après Covid-19. Même si le monde est confronté à un problème commun, les états se sont repliés sur eux-mêmes, et les stratégies et mesures de lutte contre cette pandémie sont en général de nature nationale.

Conscient de ses moyens sanitaires limités, le Maroc n'a pas tardé à réagir face à cette pandémie. Des décisions, difficiles mais indispensables, ont été prises dès le début du mois de mars 2020. Le système de santé Marocain n'est pas en mesure de faire face à une large propagation de cette pandémie, surtout que le budget alloué au secteur de la santé reste inférieur à 6% du budget général de l'état (18.6MMDH en 2020)¹ alors que l'organisation mondiale de la santé recommande de consacrer 12% des budgets des états au secteur de santé. D'autre part, et pour 100.000 habitants, le Maroc ne compte que 62 médecins et 90 infirmiers contre plus de 330 et 800 en France².

Ainsi, et dans l'objectif de garantir la sécurité nationale et d'éviter les risques de saturation des structures de santé, le Maroc a mobilisé l'ensemble des composantes

¹ - Loi de Finances 2020, Ministère de l'Economie, des Finances et de la Réforme de l'Administration, Maroc: www.finances.gov.ma (consulté le 23 avril 2020)

² - La Banque mondiale: www.banquemondiale.org (consulté le 19 mars 2020)

UNE GOUVERNANCE URBAINE INTELLIGENTE POUR FAIRE FACE AU CRISES IMPREVUES: KÉNITRA VILLE INTELLIGENTE

Mohamed Nabil SRIFI

Université ibn Tofail. ENSA. Kénitra

srifimn@uit.ac.ma

ملخص:

في ظل الأزمة الخطيرة التي خلقها فيروس كوفيد-19، تأثرت الحياة العادية للبشرية بشكل كبير، واتضحَت الأهمية الكبيرة لعمليات تخطيط وتدير الأزمات غير المتوقعة في حياة المجتمعات. في هذا الإطار يمكن للدول والحكومات والجماعات المحلية الاستعانة في تدير الأزمات بالتكنولوجيات المتقدمة وتكنولوجيا المعلومات والاتصال، من خلال تجميع البيانات الضخمة ومعالجتها لاتخاذ القرارات السليمة. هذا التدير يمكن من تتبع آثار الأزمة وتوفير شروط التخفيف منها، ومصاحبة المتأثرين بها خلال مرحلة الحجر الصحي، وحماية المواطنين من مخاطر الأزمات. في هذا العالم المتغير أصبحت الحكومات المركزية والمحلية مطالبة بالإعداد الجيد لاستراتيجيات مواجهة الأزمات غير المتوقعة وهذا ما يضمه نموذج المدينة الذكية الذي يركز على ثلاثة عناصر أساسية، هي: الحكامة الذكية، كفاءة العنصر البشري والبنيات التحتية للتكنولوجيا المتقدمة. هذا النموذج يمكن أن يساهم بشكل كبير في تحقيق التنمية الاقتصادية والرفع من جاذبية وذكاء المجال الترابي، وتحقيق الشفافية والمساواة بين المواطنين في الولوج للخدمات الأساسية. وفي هذا الإطار، تتوفر مدينة القنيطرة على كل مقومات وشروط إنجاح تجربة المدينة الذكية، اعتبارا لموقعها الاستراتيجي ومؤهلاتها الاقتصادية المتنوعة، وكذا توفرها على واحدة من الجامعات المتميزة على الصعيد الوطني، جامعة ابن طفيل. هذه الأخيرة يمكن أن تضمن الإمداد الكافي والمستديم "لمشروع القنيطرة، مدينة ذكية" من خلال توفير بيئة الابتكار والتطوير والحكامة الذكية، والمساهمة في إعداد وتأطير المشروع، وتأمين كفاءة العنصر البشري في مختلف التخصصات العلمية.

الكلمات المفتاحية: التكنولوجيا المتقدمة، تدير الأزمات، الحكامة الترابية، المدينة الذكية، إتخاذ القرار.

Résumé

En raison de la pandémie du COVID-19, crise sans précédent et d'envergure planétaire, l'Humanité est confronté à des défis majeurs. Dans un monde incertain, les États, les gouvernements et les collectivités locales, sont appelés à réinventer leur modes de gouvernance et de rendre plus performants leurs stratégies de gestion de crises. Les technologies avancées et celles de l'information et de communication, peuvent apporter des solutions innovantes et efficaces. La collecte, l'analyse et l'exploitation des données massives en temps réel permettent de prendre des décisions judicieuses en termes de prévention et d'anticipations,

**GOUVERNANCE, DEVELOPPEMENT ET
ENVIRONNEMENT EN TEMPS DE PANDEMIE**

investissements soient suspendus et paralysés dans les territoires d'accueil et perdent leur profitabilité, ce qui les pousse à cesser d'injecter des capitaux jusqu'à ce que ladite pandémie soit endiguée.

Ce que nous avons pu retenir de cette analyse c'est que les effets de la pandémie pèsent lourdement sur l'économie mondiale et sur notre économie et son degré d'attractivité des IDE.

Bibliographie

Bank Al Maghrib, avril 2020 « Revue de la conjoncture économique », pages 5 à 15.

Centre marocain de conjoncture, mars 2020, « Maroc conjoncture », n° 322, page 3 et pages 14 à 18.

Centre marocain de conjoncture, avril 2020, « Maroc conjoncture », n°323, page 3, pages 6 à 9 et pages 10 et 16.

Comité de veille économique, mars et avril 2020, « Notes du comité de veille économique ».

Fonds monétaire international (FMI), avril 2020, « Perspectives de l'économie mondiale », pages 1 à 6.

Ministère des finances, 2020, « Rapport économique et financier du ministère des finances », pages 15 à 24, pages 25 à 35, page 39 et page 135.

Office des changes « Notes de l'office des changes sur les statistiques des investissements étrangers depuis 2014 à 2020 » 2014, 2015, 2016, 2017, 2018, 2019, 2020.

Wald Statistic	7.808946	Prob. Chi-Square(1)	0.0052

En choisissant l'année 2020 comme point de rupture structurelle de l'évolution des recettes des IDE entrants au Maroc en raison de l'apparition de la pandémie covid-19, le test de Chow rejette l'hypothèse nulle d'absence de rupture et accepte l'hypothèse alternative selon laquelle la pandémie a un impact négatif sur l'entrée des flux des IDE puisque le F calculé (F-statistic=7.808946) est supérieur au F-lu 6.61 avec un degré de liberté (1, 5)¹.

Alors, les deux tests empiriques nous montrent que l'apparition de la pandémie coronavirus covid-19 a un impact négatif sur les flux entrants des IDE au Maroc. Cela peut être expliqué par le fait que les investisseurs et les multinationales, dès que la pandémie a commencé de se propager dans la Chine, craignent que leurs investissements soient suspendus et paralysés dans les territoires d'accueil et perdent leur profitabilité, ce qui leur impose de cesser d'injecter de capitaux jusqu'à ce que ladite pandémie soit contrôlée.

Conclusion

Dans un contexte mondial marqué par l'incertitude, suite à l'avènement de la pandémie covid-19 balayant l'économie et la société mondiales, cette crise sanitaire n'a pas épargné la société et l'économie marocaines. Elle a exercé et continue d'exercer des effets négatifs sur les secteurs moteurs de l'économie.

Afin de juguler ces effets dévastateurs, le Maroc a adopté une approche proactive qui s'est matérialisée par l'adoption des mesures à caractère social et économique sans précédent.

En dépit des efforts consentis par le Maroc, les activités économiques de plusieurs secteurs ont connu un ralentissement ou encore un arrêt ce qui influencera les balances commerciales et des paiements.

Les IDE est l'une des rubriques de la balance des paiements la plus dynamique, en ce sens, le Maroc est l'un des pays les plus attractifs des IDE en Afrique, sa force d'attractivité a été influencée par ce contexte de crise sanitaire mondiale et de grandes mutations.

Dans ce cadre, l'analyse économétrique de l'impact de ladite pandémie sur l'entrée des IDE au Maroc a montré que la corrélation entre les deux variables est forte.

Les deux tests empiriques nous révèlent que l'apparition de la pandémie coronavirus covid-19 a un impact négatif sur les flux entrants des IDE au Maroc. Par conséquent, les deux variables sont fortement corrélées.

Cela peut être expliqué par le fait que les investisseurs et les multinationales, dès que la pandémie a commencé à se propager dans la Chine, craignent que leurs

¹ Avec n=7 et k=1, Le degré de liberté (DLL) est (n=7, n-2k=5)

3. 6. Résultats empiriques et discussion

Les deux tableaux ci-dessous présentent l'output des tests empiriques élaborés par nous-même en utilisant le logiciel Eviews version 10. Nous commençons tout d'abord par l'estimation du coefficient de la variable Covid-19 dans le cadre de la première méthode d'identification de l'impact sur les flux des IDE au Maroc.

Dependent Variable: IDE

Method: Fully Modified Least Squares (FMOLS)

Date: 04/10/20 Time: 13:28

Sample (adjusted): 2015 2020

Included observations: 6 after adjustments

Cointegrating equation deterministics: C

Long-run covariance estimate (Bartlett kernel, Newey-West fixed bandwidth = 3.0000)

Variable	Coefficient	Std. Error	t-Statistic	Prob.
COVID	-2678.933	500.7617	-5.349717	0.0059
C	5457.933	204.4351	26.69763	0.0000
R-squared	0.781478	Meandependent var		5118.167
Adjusted R-squared	0.726847	S.D. dependent var		1288.188
S.E. of regression	673.2591	Sumsquaredresid		1813111.
Long-run variance	208968.6			

Les résultats indiquent que Beta selon l'estimation FMOLS est significativement négatif puisque la p-value est inférieure à 1% (0.0059) et puisque la valeur absolue de t-statistic (T calculé= -5.349717) est supérieure à 1,96 au risque de 5%. En outre, le résultat montre que la pandémie a causé une baisse des flux entrants des IDE de 2678.933 millions de Dirhams entre janvier et février 2020. En outre, la constante est éventuellement significative au seuil de 1% avec une valeur positive de 5457.933 millions de Dirhams, qui représente la valeur moyenne des IDE entrants de janvier-février entre 2014-2020.

Il est à signaler que le modèle estimé est globalement significatif puisque l'utilisation de la méthode FMOLS prend en compte les éventuelles violations des hypothèses telles que l'autocorrélation, l'hétéro-scédasticité, l'anormalité de la distribution, etc.

Chow Breakpoint Test: 2020

Null Hypothesis: No breaks at specified breakpoints

Varying regressors: All equation variables

Equation Sample: 2014 2020

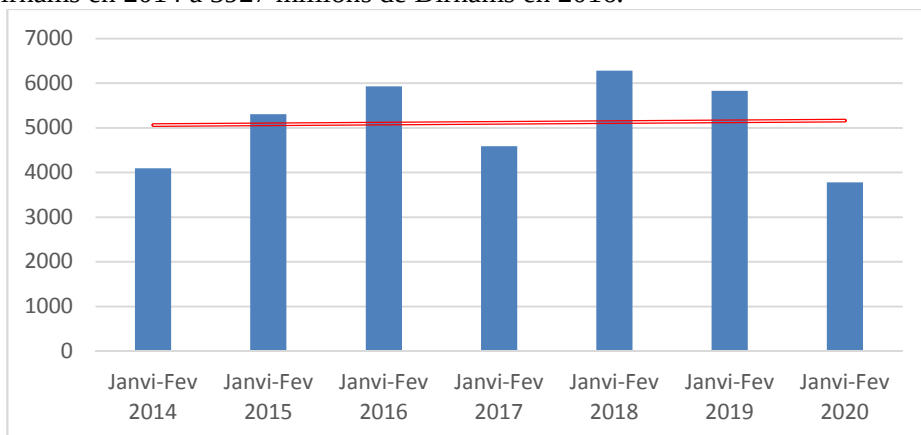
F-statistic	7.808946	Prob. F(1,5)	0.0382
Log likelihood ratio	6.584942	Prob. Chi-Square(1)	0.0103

de 2014 à 2020. Il s'agit des données sur les recettes des IDE pour les mois de Janvier-Février pour chaque année. Le choix de ces deux mois réside dans la période qui constitue le début de la propagation de la pandémie qui n'avait eu lieu que depuis janvier 2020, et que l'étude concernée ne doit pas comparer les données de flux total d'une année avec une fraction de l'année 2020. Afin de neutraliser ce problème de manque de données et de l'effet saisonnier, nous suggérons d'utiliser seulement les données de flux des IDE pour les mois de janvier-février de chaque année.

La source officielle des données sur l'IDE est l'Office des Changes qui se charge de produire les statistiques extérieures sur les recettes des IDE entrants sous forme de rapports mensuels sur « les indicateurs des échanges extérieurs »¹.

3.5. Analyse des flux entrants des IDE au Maroc

Il s'avère que les flux entrants des IDE se caractérisent généralement par des fluctuations entre 2014 et 2019. Les recettes ont augmenté de 4092 millions de Dirhams en 2014 à 5927 millions de Dirhams en 2016.



Source : Office des Changes

**Figure 1. Flux entrants des recettes des IDE
au Maroc en millions de dirhams**

Cette hausse a été suivie par une baisse de 22,5% en 2017, le montant drainé a été de 4590 millions de dirhams. Cependant, la courbe a regagné son allure avec une augmentation de 37% en 2018 avec 6284 millions de Dirhams. Par conséquent, nous pourrions dire que les recettes des flux entrants des IDE ont été marquées par des hausses et des baisses tout au long de la période 2014 - 2020. Mais, elles ont diminué significativement en janvier-février 2020 de 35%. Cette chute drastique pourrait être expliquée par l'effet de la propagation de la pandémie Covid-19, notre analyse empirique sert à démontrer ce constat.

¹ : <https://www.oc.gov.ma/fr/publications#wow-book/>

- H1 : Beta est significative= la pandémie covid-19 impacte l'entrée de flux des IDE au Maroc

Sur la base de ces deux hypothèses mutuellement exclusives, nous présentons les deux modèles de prise de décision :

a. Le modèle de prise de décision pour le test de Student :

- H0 (hypothèse nulle) : T calculé est inférieur au T lu¹ = Beta n'est pas significatif
- H 1 (Hypothèse alternative : T calculé est supérieur au T lu = Beta est significatif

b. Le modèle de prise de décision pour le test de P-value :

- H0 (hypothèse nulle) : P-value est supérieur à 10% (0.10) = Beta n'est pas significatif
- H 1 (Hypothèse alternative : P-value est inférieur à 1% (0.01), ou à 5% (0,05) ou à 10% (0.10) = Beta est significatif

3.3.2. La deuxième méthode : Test de stabilité ou rupture structurelle de Chow

Le test de Chow, proposé par l'économétricien Gregory Chow en 1960, est un test économétrique pour savoir si les coefficients réels dans deux régressions linéaires sur différents ensembles de données sont égaux. En économétrie, il est le plus souvent utilisé dans l'analyse des séries temporelles pour tester la présence d'une rupture structurelle à une période qui peut être supposée connue a priori, par exemple, un événement historique majeur comme la propagation de la pandémie Covid-19 dans le monde en 2020.

Les hypothèses de test de Chow se présentent comme suit :

- H0 : Aucune rupture structurelle à la période spécifiée = l'apparition de la pandémie Covid-19 en janvier 2020 n'impacte pas les flux entrants des IDE au Maroc
- H1 : il existe une rupture structurelle à la période spécifiée = l'apparition de la pandémie Covid-19 en janvier 2020 impacte les flux entrants des IDE au Maroc

Sur la base de ces deux hypothèses mutuellement exclusives, le modèle de prise de décision de test Chow se présente comme suit:

- H0 (hypothèse nulle) : F calculé est inférieur au F lu² = Aucune rupture structurelle à la période spécifiée
- H 1 (Hypothèse alternative : F calculé est supérieur au F lu = il existe une rupture structurelle à la période spécifiée

3.4. Sources de données

Pour identifier l'effet du Coronavirus sur l'attractivité des IDE au Maroc, la présente analyse empirique est fondée sur des temporelles des flux de l'IDE entrant

¹ : Au risque de 5%, le T lu est toujours égal à 1,96

² : Le F lu au tableau de Fisher se base sur le calcul de degré de liberté DLL (k, n-2k), avec n la taille de l'échantillon et k le nombre de régresseurs y compris l'intercepte.

$$IDE_t = \alpha + \beta(Covid - 19)_t + \mu_t$$

Avec :

IDE_t : Les flux entrants des IDE au Maroc dans la période t ;

$Covid - 19_t$: La propagation de la pandémie dans la période t ;

μ_t : Le terme d'erreur distribué aléatoirement (Bruit blanc) ;

Le tableau ci-dessous représente l'ensemble des variables utilisées dans notre étude:

Tableau 2 : Récapitulatif des variables du modèle à estimer

Variables	Désignation
IDE	Une variable quantitative qui mesure, en millions de Dhs courant, les recettes entrantes des IDE au Maroc.
Covid-19	Une variable nominale muette qui prend une valeur binaire, 0 pour la période ne se caractérise pas par l'existence de la pandémie et 1 pour la période où ladite pandémie s'est propagée dans le monde.

3.2. Hypothèses de la recherche

Pour étudier l'impact de la propagation de la pandémie dans le monde sur les IDE entrants au Maroc, nous examinons empiriquement l'hypothèse de recherche suivante :

- H1 : La pandémie Covid-19 impacte négativement les flux entrants des IDE au Maroc.

Les deux tests empiriques, expliqués ci-dessus, feront l'objet d'une confirmation ou infirmation de l'hypothèse de recherche susmentionnée.

3.3. La méthodologie économétrique

Afin de tester empiriquement notre hypothèse de la recherche, il convient d'utiliser deux méthodes économétriques largement utilisées par les praticiens pour détecter la contribution de la pandémie à la baisse des IDE entrants au Maroc en 2020.

3.3.1. La première méthode : L'utilisation de variable binaire

La première façon pour confirmer l'hypothèse de l'impact négatif de la pandémie Covid-19 sur les IDE entrants est de considérer la variable explicative comme une variable dummy ou binaire dont la valeur prend le nombre 0 de 2014 à 2019, et 1 pour l'année 2020, qui est l'année de la propagation de ladite pandémie. De ce fait, l'enjeu est de tester la significativité du coefficient beta de la variable Covid-19 indiqué dans le modèle empirique présenté ci-dessus.

Techniquement, les hypothèses de l'estimation du coefficient Beta se présente comme suit :

- H0 : Beta n'est pas significative = la pandémie Covid-19 n'impacte pas l'entrée de flux des IDE au Maroc

2.2. Analyse de l'entrée des IDE avant et durant l'avènement du Covid-19

La mauvaise performance de l'économie marocaine, conséquence de la crise sanitaire sévissant l'économie mondiale, a influencé l'attrait des IDE. La baisse de l'attractivité du Maroc est corollaire au contexte économique international incertain¹.

Ainsi, le rythme de drainage des IDE, avant la propagation de la pandémie, s'est caractérisé par des fluctuations d'une année à l'autre et même d'un mois à l'autre. A fin novembre 2019, le flux des IDE a connu un repli de 16 milliards de DHs à 18,2 milliards de DHs suite au recul des recettes de l'ordre de 13,9 et d'une augmentation de 2,1 milliards des cessions².

Comme notre étude porte sur l'impact de l'avènement du Covid-19 sur l'entrée des IDE, nous avons opté pour l'analyse de ces entrées depuis 2014 à 2020 en nous focalisant sur les deux premiers mois de chaque année. Comme le montre le tableau ci-après :

Tableau 1 : Entrées des IDE durant la période janvier-février depuis 2014 à 2020

Période Janvier- février/année	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020
Recettes des IDE entrants en millions DHs	4092	5305	5927	4590	6284	5827	3779

Source : élaboré par nous-même sur la base des données de l'office des changes.

Les données de ce tableau montrent des fluctuations des flux entrants des IDE. Pour certaines périodes, ils sont marqués par une tendance haussière, c'est le cas des années 2014, 2015, 2016 et 2018. Alors que les années 2017, 2019 et 2020 ont enregistré des chutes remarquables.

Ce qui nous importe, à ce niveau, c'est de faire ressortir la corrélation entre la baisse des recettes des IDE et l'avènement du Covid19. Cette corrélation sera mise en valeur à travers une analyse économétrique que nous allons mener dans le troisième point de notre contribution.

3. Analyse empirique de l'impact du virus Covid-19 sur l'entrée des IDE au Maroc

Pour élaborer notre modèle, nous allons procéder par étapes, la première porte sur sa spécification, puis, les hypothèses de la recherche, ensuite, la méthodologie économétrique, et enfin, les résultats empiriques et discussion.

3.1. Spécification du modèle empirique

Dans le but d'identifier l'impact de la propagation du virus Covid-19 sur les flux entrants des IDE au Maroc, nous employons un modèle linéaire dont la variable indiquant la propagation dudit virus est binaire, celle-ci est une variable explicative de l'entrée des IDE. Ce modèle se présente comme suit:

¹ : Perspectives de l'économie mondiale Avril 2020, rapport du Fonds Monétaire International (FMI)

² : Revue de la conjoncture économique de Bank Al Maghrib.

2. Analyse de l'entrée des IDE durant l'avènement du Covid-19

Deux points à étudier à ce niveau : le premier nous permettra de ressortir les effets induits par la pandémie sur l'économie marocaine et le second analysera les fluctuations de l'entrée des IDE avant et durant cette crise sanitaire.

2-1. Effets induits par la pandémie sur l'économie marocaine

L'entrée des IDE au Maroc, et dans n'importe quel pays, est fortement liée à la disponibilité d'un climat des affaires favorable où règne une confiance et une certitude par rapport à l'avenir, ce qui n'est le cas ni pour le Maroc ni même pour les autres pays, et ce, suite à l'avènement du Covid-19.

En ce sens, l'économie marocaine a subi un impact notable au niveau non seulement de l'entrée des IDE mais aussi au niveau de certains secteurs considérés comme source de sa richesse notamment le tourisme, le commerce, l'industrie, le transport...

Ce climat incertain a agi sur les prévisions quant au taux de croissance de l'économie. Ledit taux a été revu à la baisse¹. Ce taux ne dépasse pas 0,8% en 2020 selon le Centre marocain de conjoncture².

Au niveau sectoriel, une contreperformance a marqué la majorité des secteurs, mais à des degrés divers allant de la baisse à l'arrêt de l'activité.

Dans le secteur touristique, la valeur ajoutée de l'hébergement et la restauration devrait baissée d'environ 25% et même plus étant donné que la reprise serait difficile et lente.

Pour les services de transport routier, ferroviaire, aérien et maritime, un fléchissement et même une stagnation de leur valeur ajoutée a été enregistré.

L'industrie a subi, également, un impact notable. Son rythme de croissance a connu un changement. Ce fût le cas de la contribution des industries manufacturières qui demeure faible, elle ne dépassera pas 2%.

Il est à signaler que suite aux ruptures des chaînes de valeurs mondiales, certaines activités n'arrivent pas à trouver des marchés ou sont bloquées par le manque d'approvisionnement en matières premières et produits intermédiaires. D'autres ont arrêté leurs activités, telle l'industrie automobile³.

Le commerce extérieur n'est pas à l'abri des effets négatifs de la crise sanitaire, un creusement du déficit commercial⁴ a été enregistré à fin février soit 31 milliards de DHs. Comparativement à la même période en 2019, ce déficit n'était que de 611 millions de DHs.

Les fléchissements constatés au niveau des secteurs dominants de l'économie marocaine vont s'alourdir d'avantage et vont peser lourdement sur la balance des paiements. Celle-ci sera encore plus impactée par le recul de l'entrée des IDE.

¹ : Selon Bank Al-Maghrib, ce taux de croissance devrait stagner à 2,3% en 2020. Quant au Haut commissariat au plan, il table sur un taux proche de 2%.

² : Prévisions du Centre marocain de conjoncture en avril 2020.

³ : Après une période d'arrêt, l'industrie automobile a repris l'activité, dernièrement, mais à un rythme faible.

⁴ : Rapport économique et financier du ministère des finances 2020.

bénéficiaires ont pu jouir des mesures bancaires urgentes sous forme de facilités de paiement des traites de crédit logement.

Il est certain que la création du Fonds de gestion de la pandémie de Covid-19 a constitué et continue de le faire un appui financier pour renforcer le dispositif médical et contenir les effets sociaux de la crise sanitaire, mais qu'en est-il des mesures prises pour soutenir l'économie nationale et amortir les chocs induits par cette pandémie ?

1.2. Mesures prises pour soutenir l'économie nationale

Comme le tissu économique est dominé par les petites et moyennes entreprises (PME), le comité de veille économique (CVE)¹ a pris des décisions en faveur desdites entreprises pour les protéger des répercussions de la pandémie du Covid-19. Cette initiative a été appréciée par les PME confrontées à des contraintes ayant généré leur incapacité à assumer leurs obligations déclaratives et de paiement spontané des droits prévus par le code général des impôts. Il a été décidé le report de l'échéance de la déclaration annuelle du revenu global visée à l'article 82 du code général des impôts et du paiement des impôts dus y afférents, du 30 avril au 30 juin 2020.

Afin de prémunir les entreprises marocaines, un nouveau mécanisme de garantie appelé « Damane Oxygène »² a été mis en place par le ministère des finances et de la réforme de l'administration auprès de la Caisse Centrale de Garantie. Ce nouveau mécanisme garantit la mobilisation des ressources de financement au profit des entreprises dont la trésorerie s'est dégradée suite à la baisse de leur activité³.

En plus des facilités offertes aux très petites, petites et moyennes entreprises, les auto-entrepreneurs impactés par la crise sanitaire ont bénéficié des crédits à un taux de zéro%⁴.

Il est certain que la création du fonds de gestion de la pandémie et l'adoption des mesures sensées soutenir l'économie marocaine témoignent que le Maroc a fait un effort particulier comparativement aux autres pays du monde. Toutefois, il est à noter que l'avènement de la crise sanitaire et la soumission au confinement ont induit des effets négatifs sur plusieurs secteurs moteurs de l'économie. Ce fût le cas de l'industrie, du commerce, du transport, du tourisme, mais aussi l'entrée des IDE.

Ainsi, l'analyse de l'entrée des IDE durant l'avènement du Covid-19 fera l'objet du second point de notre contribution, mais, avant de le mettre en exergue, nous allons présenter succinctement les effets induits par la pandémie sur l'économie.

¹ : Note de conjoncture du ministère des finances

² : « Damane oxygène » s'adresse aux très petites, petites et moyennes entreprises dont le chiffre d'affaires ne dépasse pas 200 millions de DHs. Il est à noter que même les entreprises dont le chiffre d'affaires est situé entre 200 et 5000 millions de DHs ont pu bénéficier de cette facilité

³ : « Damane oxygène » couvre 95% du montant du crédit et permet aux banques de mettre en place des découverts exceptionnels pour financer le besoin en fonds de roulement des entreprises cibles.

⁴ : Le montant de ces crédits est de l'ordre de 15 000.

- La création du fonds spécial pour la gestion de la pandémie de Covid19
- Le soutien de l'économie via des mesures urgentes

1.1. La création du fonds spécial pour la gestion de la pandémie de Covid-19

Face à la crise sanitaire, qui a fait plier les grandes économies mondiales, sa majesté le Roi que Dieu l'assiste, a réagi vite pour endiguer ses effets sur la société et l'économie. Il a pris les devants en créant un fonds spécial pour la gestion de la pandémie du coronavirus, Covid-19. Ledit fonds a été créé pour :

- prendre en charge les dépenses de mise à niveau du dispositif médical et son renforcement, avec l'allocation de 2 milliards de dirhams. Ce montant a servi essentiellement à:

- l'achat d'équipement médical et hospitalier (1000 lits de réanimation, 550 respirateurs, 100.000 kits de prélèvements, 100.000 kits testeurs, équipement de radiologie et imagerie...);
- l'achat de médicaments (produits pharmaceutiques et consommables médicaux, réactifs, gaz médicaux...);
- le renforcement des moyens de fonctionnement du ministère de la Santé (indemnités au personnel soignant, désinfection et nettoyage, carburant...);

A côté de ces actions, sa majesté le Roi a donné ses instructions aux services des forces de l'armée royale afin qu'elles puissent apporter leurs soutiens à leurs confrères civiles via la mise en place et l'équipement des hôpitaux dans toutes les régions du Maroc.

L'appel à la mutualisation des efforts, pour endiguer le Covid-19, est une caractéristique de la société marocaine. La mobilisation des opérateurs et acteurs économiques, publics et privés, et tout le peuple marocain témoigne de leur forte solidarité. Celle-ci s'est matérialisée par un appui financier via des dons versés audit fonds.

Ces dons continuent de l'alimenter pour faire face, non seulement, aux dépenses médicales mais aussi pour donner des subventions aux plus démunis ou encore atténuer les répercussions sociales de la pandémie objet du sous point ci-après.

- préserver les emplois et atténuer les effets sociaux de la pandémie. Conscient des répercussions sociales de la pandémie, un comité de veille économique, piloté par le ministère des finances a été créé pour soutenir aussi bien les salariés déclarés à la CNSS que les ménages opérant dans le secteur informel ramedistes ou non, impactés par les mesures prises dans le cadre de l'état d'urgence.

Le soutien proposé a pris la forme d'aides financières servies par le fonds de gestion de la pandémie du Coronavirus.

A côté de l'octroi des indemnités au profit des salariés déclarés à la CNSS et le soutien financier destiné aux ménages opérant dans le secteur informel, ces

Introduction

Dans un contexte mondial, particulièrement instable, marqué par la propagation de la pandémie du nouveau coronavirus, Covid-19, le Maroc n'a pas échappé à ladite pandémie. Cette crise sanitaire est unique, elle ne ressemble à aucune autre. Elle a remis en cause des certitudes ancrées dans les esprits depuis des décennies notamment celles se rapportant à la conduite des politiques économiques fondée sur le libéralisme. Celui-ci se retrouve en défaut par rapport à ladite crise qui a affecté les fondements de l'économie et les ressorts de la société. Elle a plongé l'économie mondiale dans un océan d'incertitudes.

Ainsi, la rapidité de la propagation du virus, le recours au confinement des populations et l'adoption des mesures draconiennes prises par les autorités publiques à travers le monde, ont bouleversé l'économie mondiale. La violence du choc économique provoquée par cette pandémie est forte. En ce sens, les comportements des agents, des opérateurs économiques et ceux des gouvernements ont connu des changements notables.

La modification des comportements des pouvoirs publics de l'ensemble des pays touchés s'explique surtout par les craintes du prolongement de la durée de la crise sanitaire et son extension à d'autres espaces. Face à cette situation, les dits pouvoirs ont adopté des stratégies et des plans d'urgence afin de freiner la pandémie, soutenir les secteurs d'activité les plus impactés et essayer de redresser leur économie.

Dans cette conjoncture internationale déprimée, l'économie marocaine se trouve prise en tenaille par les effets dévastateurs du Covid 19. Afin de contenir ces effets, le Maroc a pris une panoplie de mesures anticipatives et ce pour freiner la propagation du virus sur son territoire et soutenir son économie nationale impactée. Ce fût le cas du tourisme, du commerce, de l'industrie, des transports... et surtout l'entrée des investissements directs étrangers (IDE).

Notre contribution a pour finalité d'analyser trois points :

- l'approche proactive marocaine face à la propagation du Covid-19 ;
- l'analyse de l'entrée des IDE durant l'avènement du Covid-19 ;
- l'analyse économétrique de l'impact du Covid-19 sur l'entrée des IDE.

1. L'approche proactive marocaine face à la propagation du Covid-19

A l'instar des autres pays, le Maroc n'a pas épargné d'efforts pour faire face à une crise sanitaire sans précédent. Pour cela, il a adopté une approche proactive destinée à contenir la propagation du virus sur son territoire et soutenir son économie dont des secteurs ont dû baisser brusquement le rythme d'activité ou l'arrêter. Afin de mettre en exergue les principales mesures adoptées, nous allons nous focaliser sur deux mesures importantes¹ :

¹ Comité de veille économique piloté par le ministère des finances sur instruction de sa Majesté le Roi Mohammed VI.

Analyse econometrique de l'impact du covid-19 sur l'entree des investissements directs etrangers au maroc

Zahra MANSOURI

Université Ibn Tofail, FSJES, Kénitra

zahra.mansour@uit.ac.ma

ملخص

في بيئة دولية اهتزت من انتشار جائحة كوفيد 19 ، لم ينج المغرب من تبعات هذه الأزمة الصحية. من أجل احتواء الآثار المدمرة للوباء المذكور، اتخذ المغرب مجموعة كبيرة من التدابير الاستباقية للحد من انتشار الفيروس على أراضيه ودعم اقتصاده الوطني.

في مواجهة التغييرات التي تليها ظروف ظهور هذه الأزمة الصحية غير المسبوقة ، يبدو أن عدة قطاعات من الاقتصاد المغربي قد تأثرت مثال على ذلك: السياحة والتجارة والصناعة والنقل ... ولا سيما دخول الاستثمار الأجنبي المباشر.

إن الغرض من مساهمتنا هذه هو تحليل ثلاث نقاط :

- المقاربة المغربية الاستباقية لاحتواء انتشار جائحة كوفيد-19؛

- تحليل دخول الاستثمار الأجنبي المباشر، أثناء و قبل ظهور جائحة كوفيد-19؛

- استعمال الاقتصاد القياسي لتحليل تأثير جائحة كوفيد-19، على دخول الاستثمار الأجنبي المباشر.

الكلمات المفتاحية: كوفيد-19 ، جائحة ، مقارنة استباقية ، الاستثمار الأجنبي المباشر ، المغرب ، تأثير ، اقتصاد ،

Résumé

Dans un environnement international secoué par la propagation de la pandémie du Covid-19, le Maroc n'a pas échappé à cette crise sanitaire.

Afin de contenir les effets dévastateurs de ladite pandémie, le Maroc a pris une panoplie de mesures anticipatives et ce, pour freiner la propagation du virus sur son territoire et soutenir son économie nationale.

Face à des mutations dictées par l'avènement de cette crise sanitaire sans précédent, il apparait que l'économie marocaine a été impactée. Ce fut, le cas du tourisme, commerce, industrie, transports... et surtout l'entrée des investissements directs étrangers (IDE).

Notre contribution a pour finalité d'analyser trois points :

- l'approche proactive marocaine face à la propagation du Covid-19 ;
- l'analyse de l'entrée des IDE avant et durant l'avènement du Covid-19 ;
- l'analyse économétrique de l'impact du Covid-19 sur l'entrée des IDE.

Mots-clés : Covid-19, pandémie, approche proactive, Maroc, IDE, impact, économie.

- Keogh-Brown, M.R.** (2014). Macroeconomic Effect of infectious Disease Outbreaks. Encyclopedia of Health Economics, Vol.2. doi: 10.1016/B978-0-12-375678-7.00608-8.
- Lee, J. W., & McKibben, W. J.** (2004). Globalization and disease: The case of SARS. Asian Economic Papers. Cambridge MA: MIT Press.
- Markel, H., Stern, A. M., Navarro, J. A., Michalsen, J. R., Monto, A. S., & DiGiovanni, C.** (2006). Nonpharmaceutical Influenza Mitigation Strategies, US Communities, 1918–1920 Pandemic. *Emerging Infectious Diseases*, (12), 1961–1964. <https://dx.doi.org/10.3201/eid1212.060506>.
- Markel H, Lipman HB, Navarro JA, et al.** (2007). Nonpharmaceutical interventions implemented by US cities during the 1918–1919 influenza pandemic. *JAMA*; 298(6):644–654.
- Mikolajchyk R, Akmatov M, Rastin S, Kretzschmar M.** (2008). Social contacts of school children and the transmission of respiratory-spread pathogens. *Epidemiol Infect*; 136(6): pp 813–822.
- Patrick R. Saunders-Hastings and Daniel Krewski** (2016). Reviewing the History of Pandemic Influenza: Understanding Patterns of Emergence and Transmission. *Pathogens*, 5, 66; doi: 10.3390/pathogens5040066.
- Potter, C.** (2001). A history of influenza. *J. Appl. Microbiol.* 91, 572–579.
- Pyle, G.F. (1986).** The Diffusion of Influenza: Patterns and Paradigms; Rowan & Littlefield: Totowa, NJ, USA.
- Rogers, K.** flu pandemic. 1957, Disponible en ligne : <http://www.britannica.com/event/Asian-flu-of-1957> (Consulté le 13 Avril 2020).
- Rebekah H. Borse, et al.** (2011). Closing Schools in Response to the 2009 Pandemic Influenza A H1N1 Virus in New York City: Economic Impact on Households, *Clinical Infectious Diseases*, Volume 52, Issue suppl_1, January, Pages S168–S172, <https://doi.org/10.1093/cid/ciq033>.
- Simonsen, L. et al.** (2013). Global mortality estimates for the 2009 influenza pandemic from the glamor project: A modeling study. *PLoS Med.* 10, e1001558.
- Smith, R. D., Keogh-Brown, M. R., Barnett, T., & Tait, J.** (2009). The economy-wide impact of pandemic influenza on the UK: a computable general equilibrium modeling experiment. *BMJ*; 339: b4571. Doi: 10.1136/bmj.b4571.
- Smith, R. D., Keogh-Brown, M. R., Barnett, T.** (2011). Estimating the economic impact of pandemic influenza: An application of the computable general equilibrium model to the UK. *Social Science & Medicine* 73, pp 235–244.
- Stéphane Krebs, Sébastien Picault, Pauline Ezanno** (2018). Modélisation multi-agents pour la gestion individuelle et collective d’une maladie infectieuse. 26e Journées Francophones sur les Systèmes Multi- Agents (JFSMA), Christophe Lang, Nicolas Marilleau, Métabief, France. pp.191–200.
- Taubenberger, J.K.; Morens, D.M** (2010). Influenza: The Once and Future Pandemic. *Public Health Reports*, vol. 125.

pays en développement, y compris le nôtre, ont souvent des difficultés de ce genre. Généralement ils ont peu de ressources, mais ils sont obligés de consacrer une partie non négligeable au service de la dette, ce qui, bien entendu, fait pression sur le budget de l'état, ce qui va se percuter pertinemment sur d'autres secteurs sociaux notamment celui de la santé et de l'éducation qui seront privés d'une bonne partie de ressources.

Références

- Andradóttir, S., Chiu, W., Goldsman, D. et al** (2011). Reactive strategies for containing developing outbreaks of pandemic influenza. *BMC Public Health* 11, S1. <https://doi.org/10.1186/1471-2458-11-S1-S1>.
- Aubenberg, J.K.; Morens, D.M.** (2010). Influenza: The once and future pandemic. *Public Health Rep*, 125, 16–26.
- Bijl, D.; Schellekens, H.** (2011). The sponsored pandemic of the Mexican flu. *Int. J. Risk Saf. Med*, 23, 73–79.
- Borse, R.H., et al.** (2011). Closing schools in response to the 2009 pandemic influenza A H1N1 virus in New York City: Economic impact on households. *Clin. Infect. Dis*, 52 (Suppl. 1), S168–S172.
- Bruce Y. Lee et al.** (2010). Simulating School Closure Strategies to Mitigate an Influenza Epidemic. *J Public Health Manag Pract. NIH*; 16(3): pp 252-261. doi: 10.1097/PHH.0b013e3181ce594e.
- Centers for Disease Control and Prevention (CDC).** <https://www.cdc.gov/flu/pandemic-resources/1918-commemoration/1918-pandemic-history.htm> (Consulté le 17 Avril 2020).
- Cockburn, W.C.; Delon, P.J.; Ferreira, W.** (1969). Origin and progress of the 1968–69 Hong Kong influenza epidemic. *Bull. World Health Organ.* 41, 345–348.
- Dalton CB, Durrheim DN, Conroy MA.** (2008). Likely impact of school and childcare closures on public health workforce during an influenza pandemic: a survey. *Commun Dis Intell*;32(2): pp 261–262.
- Dawood FS, Iuliano AD, Reed C, et al.** (2012). Estimated global mortality associated with the first 12 months of 2009 pandemic influenza A H1N1 virus circulation: a modelling study. *Lancet Infect Dis*; 12(9): pp 687–695.
- Gersovitz, M.**(2014). Infectious disease externalities. *Encyclopedia of Health Economics*, Vol. 2; doi:10.1016/B978-0-12-375678-7.00404-1.
- Glass L, Glass R.** (2008). Social contact networks for the spread of pandemic influenza in children and teenagers. *BMC Public Health*;14(8):61.
- Glezen. W.P.** (1996). Emerging Infections: Pandemic Influenza. *Epidemiologic Reviews*; 18(1): pp 64-76.
- Guan, Y., Vijaykrishna, D., Bahl, J. et al.** (2010). The emergence of pandemic influenza viruses. *Protein Cell* 1, 9–13. <https://doi.org/10.1007/s13238-010-0008-z>
- Haymann, DL; Reinhardt, K.** (2014). Emerging Infections, the International Health Regulations, and Macro-Economy.
- Henderson, D. et al** (2009). Public health and medical responses to the 1957–58 influenza pandemic. *Biosecur. Bioterror.* 7, 265–273.
- Keogh-Brown, M. R., & Smith, R. D.** (2008). The economic impact of SARS: how does the reality match the predictions. *Health Policy*, 88, pp 110-120.

nécessaires....Ce comportement a des effets d'entraînement négatifs importants sur d'autres individus et sur l'économie en général.

Ces changements de comportement de consommation on fait l'objet de plusieurs études, dont l'une sur la modélisation macroéconomique qui a démontré que l'annulation ou le report des achats, concerne plus de 50% des achats de vêtements (Textiles), 80% des biens et services, 50% de moins pour l'utilisation des voitures (Déplacements limités) et 30% des achats de loisirs et de culture. Ces effets sur la consommation ont contribué à une perte de 2% du PIB, soit 10% de l'impact de la maladie bénigne (Smith, R.D., Koegh-Brown, M.R., Barnett, T. and Tail, J., 2009).

A cet égard, l'analyse des effets de la pandémie nécessite l'élargissement au-delà des effets directs sur la santé, les malades ou les décès sur l'économie, à une approche macroéconomique afin de pouvoir analyser les coûts casher (Coût « sociétal ») entraînés par les différentes politiques adoptées, et leur durée à l'échelle de la population et de l'économie en général.

Conclusion

Pour conclure, il faut noter que l'efficacité des politiques de santé publique est jugée par les résultats obtenus et par leurs orientations vers le bien-être de la population. Les résultats négatifs sont pertinemment des obstacles majeurs au développement économique, politique et humain de la société, car et ça va de soi, que peut-on réaliser avec une population malade ou avoir constamment la sensation de peur et d'insécurité.

Dans la situation actuelle de Covid-19, la santé publique est confrontée d'une part, au dilemme de la santé de la population et le contrôle de la maladie et à la liberté des individus (Non seulement à l'échelle nationale mais aussi internationale) et la restriction des activités des personnes qui pour la plupart d'entre eux, sont les uniques ressources pour subvenir à leurs besoins vitaux d'autre part. Ajouter à cela les externalités négatives (économiques ou sociales) des stratégies adoptées pour stopper la pandémie.

Au-delà du corps médical, la santé publique implique la réglementation des déterminants de la santé à l'échelle de toute la population, tout en mettant l'accent sur la prévention.

Le gouvernement, par son pouvoir de réglementation, de taxation et d'organisation, est le seul capable d'accomplir toutes les actions susceptibles d'instaurer une santé publique équitable et veiller au bien être public, et ce, afin de réduire les inégalités en matière d'accès aux soins, alignant la santé des plus vulnérables sur celle des couches bien portantes de la population.

Par ailleurs, nous devons revoir et renforcer notre autonomie et notre autosuffisance, tout en diminuant notre dépendance aux grandes structures et aux organismes internationaux. Ce qui nous oblige à remettre en question le problème de notre dette publique et son affectation dans des secteurs non productifs. Les

collègues du travail, ou ceux qui font leurs marchés dans les mêmes lieux ou qui empruntent les mêmes trajets ... (Gersovitz, M. 2014).

La question qu'on se pose est celle qui relève de l'altruisme car si les gens sont entièrement altruistes, soucieux du bien-être des autres, c'est dans quelle mesure peuvent-ils agir pour éviter d'infecter les autres ?

Faut-il souligner que lorsque le choix du comportement des individus est libre, cela les conduit inévitablement à ne voir que leur propre intérêt, ce qui va bien évidemment entraîner des comportements non appréciés à l'échelle de la communauté¹.

Les superviseurs dans ce cas, doivent s'assurer que les personnes infectées ou suspectées de l'être, doivent se conformer aux règles imposées par la politique adoptée. Deux cas de figure, peuvent être mis en place : Soit un suivi par un corps médical dans une structure appropriée, ce qui va coûter cher (Déplacements, local isolé, visite médicale, risque pour le corps médical...) ; L'autre cas de figure, c'est qu'il reste à la maison et être suivi par la famille de plus prêt et/ou par un corps médical à distance. Il faut souligner que dans ce cas, les coûts sont relativement bas, mais que le comportement du malade change par son inquiétude et sa peur de transmettre la maladie à un autre membre de sa famille.

La mise en quarantaine est une pratique qui suscite des débats et des questionnements : Faut-il ne mettre en quarantaine que les malades ou toute la population ? Day et *al* en 2006, ont clairement montré que si la maladie peut être transmise de manière asymptomatique et lorsque les conséquences de l'exposition à d'autres sont porteuses de risque grave et/ou irréversible, le confinement de toute la population est justifié.

Pour être accepter, les raisons du confinement doivent être communiquées afin que la population puisse évaluer par elle-même les avantages et les risques individuels et sociaux.

Le souci du gouvernement est la gestion des externalités, en termes des coûts, ce qui revient à englober les personnes qui génèrent et subissent les coûts externes. (Gersovitz, M. 2014).

Parmi ses externalités on peut trouver des achats d'automédication (Contre la grippe, contre la fièvre, contre l'asthme, contre les maux de tête...), achats de gel antiseptique et des masques, ...), achats de produits de nettoyage (Liquide, papier...) pour domicile et linge....D'autres comportements avec des effets contraires et des externalités négatifs, notamment les annulations ou le report des réservations pour voyages (Affaires, tourisme, visite familiale,...), la limitation au maximum des déplacements, annulations des achats programmés mais pas

¹ Stéphane Krebs, Sébastien Picault, Pauline Ezanno. Modélisation multi-agents pour la gestion individuelle et collective d'une maladie infectieuse. 26e Journées Francophones sur les Systèmes Multi-Agents (JFSMA), Christophe Lang, Nicolas Marilleau, Oct 2018, Métabief, France. pp.191-200. hal-01979509

scénarios et c'est l'équivalent de 5,8 bn£, 7,3 bn£ et 9,5 bn£ de perte respectivement selon les trois scénarios.

Sachant que la structure du PIB du Royaume Uni est essentiellement dominée par le secteur financier, l'impact est très important. Pour les PIB dont lesquels les secteurs alimentaire, l'agriculture ou l'exploitation minière sont essentiels, ils seront moins touchés. Les secteurs les plus touchés seront les secteurs des services, ceux des produits de luxe, de l'immobilier, ceux du tourisme, de l'hôtellerie et de la restauration ...) (Keoght-Brown et Smith, 2008 ; Lee et McKibben, 2004).

Les effets économiques de ces politiques sont moins importants que les effets directs de la pandémie sur la santé, notamment sur l'offre de travail qui impacte toute l'activité, suivie d'un effet d'entraînement sur toutes les économies à l'échelle nationale et internationale.

3. Les externalités de la pandémie

Dans le cas d'une pandémie et dans la mesure où les individus sont égoïstes, ils ignorent les conséquences qu'ils peuvent générer par leurs comportements sur d'autres individus, ne tenant pas compte des effets que cela peut avoir sur le bien-être des autres. Non seulement une personne met une autre personne en danger car il est infecté, mais aussi parce que les gens peuvent mettre d'autres personnes en danger sans être eux même infectés. Pour préserver le bien-être collectif dans la gestion des maladies infectieuses, l'État doit élaborer des politiques et stratégies coordonnées.

La nature transmissible des agents peut induire à des phénomènes *d'externalité*. Est défini comme externalité la différence entre le comportement de l'agent et les stratégies ou les choix prisent par les politiques gouvernementales (Gersovitz, M. 2014).

Toute maladie infectieuse provoque des changements de comportement et la plupart de ces changements sont motivés par la peur qui peut générer des externalités tantôt positives et tantôt négatives. A cet égard, le gouvernement a intérêt à réduire les externalités négatives qui nuisent à la réussite de la stratégie adoptée, mais aussi réguler les externalités positives. C'est pourquoi il faut justifier et communiquer davantage sur le choix de la stratégie mais pas uniquement, il faut aussi leur fournir les moyens pour mettre en œuvre et réussir la politique gouvernementale.

Pour cela, il faut mettre en place des mesures d'aides incitatives et encourageantes, au respect et à l'adhésion à la politique, comme des aides aux familles défavorisées ainsi que des aides aux secteurs très touchés et des subventions aux produits de première nécessité...

Dans le cas des pandémies, les individus n'ont pas les mêmes niveaux d'externalité. Les personnes qui sont exposés au risque sont ceux qui sont socialement proches d'individus infectés, telles que la famille, les amis, les

Un débat émerge sur les seuils des cas infectés et pour lesquels il faut prendre la décision de fermer les écoles : Est-ce qu'après un nombre de cas qui apparaissent dans les écoles, à l'échelle régionale et/ou à l'échelle nationale ? Ou sur un seuil des cas de décès ou des cas graves observés ? La controverse a été posée lors de la pandémie de 2009, de savoir comment et quand on doit fermer les écoles et c'est pour quand leur réouverture.

2.2. Les conséquences sur l'offre d'emploi

La production de biens et de services nécessite en plus du capital et les ressources naturelles une force de travail. Avec un confinement total ou partiel sur une durée importante à cause de l'épidémie, ce facteur de production sera impacté négativement, impactant de ce fait la fourniture de biens intermédiaires d'une autre production, que ce soit au niveau national ou à l'échelle internationale.

L'impact économique des pandémies et celui des politiques pour y faire face, ont fait l'objet de plusieurs études (Keoght-Brown et Smith, 2008 ; Mekibbin et Sidorenko, 2006). Une étude de Smith R.D, et *al* en 2011 a montré que l'impact de la maladie sur le PIB, dans trois scénarios de sévérités¹ (Légère, modérée et grave), est d'environ 0,26%, pour le scénario de sévérité légère à 0,56% pour le scénario de sévérité grave de perte en PIB.

Selon la même étude, les pertes en PIB dues à la seule pandémie pour les 3 scénarios de sévérités sont respectivement 3,5 bn£ pour le premier scénario, 5 bn£ pour le second scénario et 7,5 bn£ pour le scénario de sévérité grave (sur la base du PIB du Royaume Uni global de 1,3 trn£ en 2007).

Tableau 2 : Simulation d'impact économique d'une pandémie selon 3 scénarios de sévérités

Scénarios de sévérités	Impact de la maladie uniquement sur le PIB (1)	La perte estimée pour 4 semaines de fermeture d'écoles (2)	(1)+(2) plus l'absentéisme professionnel	
			Sans sensibilité*	Avec sensibilité*
Légère	0,26%	0,45%	1,1%	2,9%
Modérée	0,4%	0,56%	1,3%	3,2%
Grave	0,56%	0,73%	1,4%	3,7%

* La sensibilité prend en considération le stock et la généralisation des antiviraux.

Source : Smith R.D, et *al*, 2011 (retraité par les auteurs)

Si on introduit quatre semaines de fermeture des écoles, la perte du PIB augmenterait de 0,45%, 0,56% et 0,73% (Tableau 2), respectivement pour les trois

¹ La construction des scénarios des sévérités ont été basé sur les pandémies de grippe de 1918, 1957 et 1968 (Kramer, 2007)

2.1. La fermeture des écoles : Première mesure justifiée et nécessaire

L'école est un lieu de rassemblement des élèves permettant une interaction très étroite, ce qui favorise la transmission et la propagation du virus entre élèves. Gelzen en 1996 a dit « *Les incendies de l'épidémie sont alimentés par les enfants d'âge scolaire, en bonne santé, des collégiens et des employés qui ont de nombreux contacts quotidiens et qui sont plus mobiles* », chose qui a été justifiée par l'expérience passée des pandémies de 1918, 1957 et 1968 (Glezen WP, 1996), des élèves et par la suite aux familles des élèves (Dalton CB, Durrheim DN, Conroy MA, 2008) et la propagation continue à l'extérieur de l'école. Ce mobile de santé public pousse les autorités à prendre la décision de la fermeture des écoles.

Pour que cette stratégie soit efficace, la fermeture des écoles doit être maintenue au moins 8 semaines, jusqu'à ce que la courbe épidémique dépasse le pic, surtout dans le cas des pandémies qui émergent d'une façon brusque et il faut du temps pour trouver un médicament efficace (Bruce y, Lee et *al* 2014). Une réouverture des écoles précoce et avant le dépassement du pic, ne fait que libérer une population d'enfants susceptibles d'être infectés ce qui ne fera qu'alimenter l'épidémie et retarder le pic entraînant de ce fait des dégâts plus graves.

Cependant, les fermetures d'écoles pendant au moins 8 semaines, associées à d'autres stratégies, citées précédemment, auront un impact très important sur la réduction des incidences négatives sur la santé publique, et de ce fait, faire diminuer les besoins en services médicaux durant l'épidémie (Bruce y, Lee et *al* 2014).

La fermeture des écoles a un impact positif indéniable sur le contrôle de la pandémie, certes, mais elle peut causer aussi, des perturbations sociales et économiques très importantes générant des coûts supplémentaires aux familles (Dalton CB, Durrheim DN, Conroy MA, 2008). Cette décision obligera les parents à rester à la maison pour garder leurs enfants. Des études ont souligné que l'impact de la fermeture des écoles, à lui seul, est susceptible de générer une perte économique supplémentaire équivalente ou même supérieure à celle de la maladie elle-même (Keogh. B, 2014). Borse, R.H et *al* en 2011 ont réalisé une étude sur l'impact de la fermeture des écoles sur les ménages à New York, qui a révélé que 17% des ménages au moins, ont un parent qui a dû s'absenter du travail à cause des fermetures.

L'école n'est pas uniquement un lieu de la formation, elle est aussi un lieu social de préférence, Elle fournit des services communautaires comme les rencontres pour les goûts, les déjeuners et les programmes parascolaires. Selon des analyses élaborées sur la base des réseaux sociaux aux États-Unis (Glass L, Glass R, 2008) (Mikolajchuk R, Akmatov M, Rastin S, Kretzschmar M. 2008), les conséquences d'une telle décision doivent être accompagnés par des politiques spéciales.

Les estimations ne prennent pas en considération ou sous-estiment les efforts liés à la prévention telles que les fermetures d'écoles, la perte de productivité, les changements des habitudes de consommation et la perte liée au secteur du tourisme. (Smith, R.D. et *al*, 2009).

Bien que les estimations de pertes et de coûts varient en fonction de la taille de la population affectée, la durée de la fermeture avec la combinaison des différentes mesures prises et la fermeture des écoles, peut varier entre une dizaine et une centaine de millions de dollars (Andradóttir, S., Chiu, W., Goldsman, D. et *al*, 2011).

La gestion et la réponse à la grippe pandémique deviennent de plus en plus meilleures¹. La coopération internationale dans le domaine de la recherche scientifique et le partage des données ont permis de réduire les effets négatifs de la pandémie. La particularité de cette pandémie, c'est qu'elle a démontré un niveau de préparation considérablement meilleur que celles de 1957 et de 1968.

2. Les mesures préventives et effets économiques

Les effets économiques d'une pandémie sont difficiles à évaluer, cela est dû à la spécificité et l'unicité de chaque pandémie et de l'interconnexion des branches de production à l'international. Ce qui implique que les effets de la pandémie sur la santé ne sont pas les seules variables qui impactent l'économie, mais d'autres déterminants comme les politiques gouvernementales visant à limiter sa propagation, (Bruce Y. lee et *al*, 2010). Les mesures les plus importantes entreprises dans ces politiques, sont au nombre de six :

- La fermeture des écoles ;
- L'annulation des rassemblements publics ;
- Les politiques libérales du congé de travail ;
- La Stratégie de télétravail ;
- L'isolement volontaire des cas infectés, et
- La mise en quarantaine volontaire des contacts familiaux.

Ces politiques ont été développées sur la base des principes de santé publique et validées par des études, dont notamment celle de Markel et *al*. sur l'utilisation des produits non pharmaceutiques dans 43 grandes villes américaines pendant la pandémie de 1918. Markel et *al*. ont montré que la fermeture des écoles est la plus importante (Markel H, Lipman HB, Navarro JA, et al, 2007), mais elle n'est pas efficace à elle seule. Elle doit être accompagnée par d'autres stratégies, confirmées aussi dans l'étude de Bruce Y. Lee et *al*. en 2010.

¹ L'ensemble d'expériences passées des pandémies exigent que les pays développent les capacités nécessaires en laboratoire afin de détecter et de répondre aux maladies où et quand il se produit, et avant qu'il ne se propage à l'international.

millions de décès dans le monde¹. L'impact économique a été faible, la pandémie a réduit la production industrielle d'environ 1,2% au Canada et une réduction du PIB au États Unis, d'environ 1% (Henderson, D.A. 2009).

La grippe de 1957 est la première à être dotée d'un système de surveillance mondiale avec une importante implantation de laboratoires d'analyses un peu partout dans le monde.

Une dizaine d'années après, en 1968, une nouvelle pandémie mondiale, d'origine aviaire de Hong Kong celle-ci, qui a coïncidé avec le développement des transports aériens, ce qui a provoqué une accélération de la propagation à l'échelle mondiale (Cockburn, W.C. ; Delon, P.J. ; Ferreira, W, 1969), provoquant la mort de (entre 500 mille à 2 millions de personnes) (Guan, Y. D., Vijaykrishna, D., Bahl, J. et *al.* 2010), avec un taux de mortalité plus bas que la précédente et un faible impact social et économique, due essentiellement à quelque absentéisme dans les écoles et les lieux du travail. Le faible taux de mortalité et de gravité montraient la non-adéquation des mesures comme la fermeture des écoles ou le confinement qui sont plus coûteux économiquement et socialement, donc ne sont pas obligatoirement nécessaires (Taubenberger, J.K.; Morens, D.M. 2010).

La dernière et la plus récente est celle de 2009, du virus H1N1, connu sous le nom de la grippe porcine, d'origine Mexicaine (Bijl, D ; Schellekens, H. 2011), et avant même la fermeture des frontières (voyages et commerces), ni par le Mexique ni par l'Organisation Mondiale de Santé, le déficit commercial du porc été estimé à 27 Millions \$ et une perte de plus d'1 million de touristes, engendrant une perte économique d'environ 2,8 Milliards d\$ (Heymann, DL; Reinhardt, K, 2014). La mondialisation a accéléré la propagation à l'échelle mondiale et les pays du monde entier ont été touchés par la propagation de la pandémie. En six semaines, l'épidémie a été signalée dans 122 pays, avec 134 mille cas confirmés et 800 décès (Avec plus de 43 mille cas et 300 décès seulement aux États-Unis) (Henderson, D.A. 2009).

Des études estimaient que la mortalité était plus importante que celle déclarée par les laboratoires (18500 décès), alors qu'elle s'élevait à 575 mille décès résultant de ceux liés aux problèmes respiratoires et ceux liés aux problèmes cardiovasculaires causés par l'infection. (Dawood FS, Iuliano AD, Reed C, et *al.* 2012).

Les économies de plusieurs pays du monde ont souffert notamment en Espagne qui, à l'instar de ces pays, où l'impact économique direct de la pandémie H1N1 sur l'utilisation des services de santé et les coûts indirects de l'absentéisme au travail, ont été estimés à 6236,00 h par patient hospitalisé. Globalement les estimations des pertes économiques varient de 0,5% à 1,5% du PIB dans les pays touchés (Smith, R.D. et *al.* 2009).

¹ Rogers, K. 1957 flu pandemic. Disponible en ligne : <http://www.britannica.com/event/Asian-flu-of-1957>

1ère guerre mondiale, constituait l'autre problème. Suite à cela, les malades se tournaient vers la médecine traditionnelle et l'automédication comme par exemple, un mélange d'eau et du sel ou l'huile de charbon¹.

Tableau 1. Principales caractéristiques des pandémies durant les cent dernières années

Nom de la pandémie	Année	Souche	Origine suspectée du foyer	Nombre approximatif de décès
Grippe Espagnole	1918-1920	H1N1	Chine	40–50 millions
Grippe asiatique	1957-1958	H2N2	Chine	1-2 million
Grippe de Honk Kong	1968-1970	H3N2	Chine	500000- 2 millions
Grippe porcine	2009-2010	H1N1	Mexique	Up to 575000

Source: (Patrick R. Saunders-Hastings And Daniel Hrewski, 2016)

Dans le but de contrôler la pandémie, les autorités ont pris la décision de fermer les écoles, d'interdire les rassemblements publics, d'instaurer la quarantaine² et le port des masques devient obligatoire. Dans un premier temps, ces mesures ont montré leur efficacité, surtout la fermeture des écoles et l'interdiction des rassemblements (Markel, H et *al*, 2006). D'autres mesures l'étaient moins, comme le port des masques, car ils n'étaient pas destinés à la protection contre les infections virales mais plutôt contre les infections bactériennes.

Cependant, ces mesures seules n'ont pas été à même de contenir la pandémie, car ils n'ont pas affecté la sensibilité et l'infectiosité de l'infection virale. Cette grippe a causé plus de 40 millions de morts, c'était la pire de l'histoire. C'était aussi la sonnette d'alarme qui a enclenché une révision de la politique et des priorités de la santé publique, mettant l'accent d'avantage sur la recherche et la coopération internationale en la matière.

Quarante ans après, en février 1957, une nouvelle grippe apparue en Chine et elle s'est vite propagée à l'échelle mondiale, par voie terrestre et maritime (Pyle, G,F, 1986), avec un taux de mortalité d'environ 0,67%, causant ainsi entre un et deux

¹ *Idem*

² La quarantaine a été largement utilisée au cours du X^{IV}e siècle pour limiter la propagation internationale des maladies infectieuses, lorsqu'elle a été utilisée pour maintenir les navires et les individus aux postes frontaliers terrestres en isolement pendant 40 jours afin de stopper la propagation de la peste.

aides aux entreprises, report d'échéances...). De ce fait, les implications plus larges des pandémies et des politiques connexes doivent être évaluées au-delà du secteur de la santé mais à l'échelle de la population et de l'économie en générale.

Mots-clés : Pandémies, santé publiques, effets économiques, prévention.

Introduction

Au cours du siècle dernier, le monde a connu quatre importantes grippez pandémiques. Celle de 1918 est la plus importante en nombre de morts, avec un taux moyen mondiale de mortalité de 2 à 2,5% (Simonsen, L et *al*, 2013). Elle a été suivie de celle de 1957, avec plus d'hospitalisations, mais moins de morts et un taux de mortalité plus bas. La dernière du XXème siècle, celle de 1968, elle a été semblable à celle de 1957, avec un taux d'attaques cliniques plus important et un taux de mortalité plus bas, d'environ 0,04%. Celle de 2009, la dernière, appelée la pandémie de la grippe porcine, avec moins de cas de décès, environ 575 mille (Keogh-Brown, 2014).

La mondialisation a entraîné, certes, des changements sociaux et économiques qui ont accrus l'accélération et la propagation de nouveaux virus, d'un côté, mais de l'autre elle a permis de favoriser la coopération internationale, en favorisant la recherche et la surveillance des maladies.

Nous vivons aujourd'hui, en 2020, une pandémie d'un autre genre, ayant comme chaque pandémie, ses propres caractéristiques, singulières et uniques. C'est la raison pour laquelle, dans ce papier, nous allons traiter dans sa première partie, l'historique enrichie par une revue de littérature consacrées aux pandémies, leurs gestions et leurs impacts sur l'environnement, sur l'économie et sur le social. Les changements de comportement résultant de cette situation, leurs effets économiques et leurs externalités seront relatés et analysés dans une seconde partie.

1. Un siècle de pandémies

Les épidémies et les pandémies existent depuis des siècles, mais n'ont été identifiés et cernés qu'à partir du XXème siècle (Tableau 1). La première du siècle dernier était en 1968, où le virus a infecté plus de la moitié de la population mondiale de l'époque (Potter, C, 2001). Le défi majeur cependant c'était de mener une analyse globale et fiable, mais l'absence des notifications de la maladie par pays et par région de façon ordonnée et systématique empêchait de procéder à sa réalisation.

Le système de santé publique n'était pas en mesure de faire face à ce flux de malades. Les médecins n'ont pas pu détecter l'origine de la transmission qu'après plusieurs tentatives qui leur ont permis de démontrer que la transmission se faisait par les gouttelettes respiratoires infectieuses provenant du nez et de la bouche¹. Le manque de médecins et du personnel médical soignant, réquisitionnés durant la

¹ Centers for Disease Control and Prevention (CDC). <https://www.cdc.gov/flu/pandemic-resources/1918-commemoration/1918-pandemic-history.htm> (Consulté le 17 Avril 2020)

LES PANDEMIES ENTRE EXIGENCES DE SANTE PUBLIQUE ET CONTRAINTES ECONOMIQUES

OUAKIL Hicham et LECHHEB Houda

Université Ibn Tofail. FSJES. Kénitra

hicham.ouakil@uit.ac.ma / houda.lechheb@uit.ac.ma

ملخص

لقد اتسمت المائة سنة الماضية بظهور أربعة أوبئة معدية خطيرة تسببت في أضرار جسيمة للصحة العامة والاقتصاد بشكل عام. سنحاول في هذا العمل، الذي يستند على بحوث و دراسات حالات أخرى أجريت على نطاق دولي، تسليط الضوء على خصائص الأوبئة لسنوات 1918 و 1957 و 1968 و 2009. وسنركز على مسألة تدبيرها، و الإجراءات التي تم اتخاذها، وكذلك الوسائل التي يتعين اتخاذها للوقاية، من جهة، وكيفية تخفيف أثر الوباء العالمي المعدي، على الصحة العامة والاقتصاد واثرا الاجتماعي من جهة أخرى.

تواجه جميع دول العالم تحديات السيطرة على جائحة كورونا الحالية وإدارتها. تشير الأدلة المشار إليها في هذا العمل، مستوحاة من التجارب القديمة، إلى أن التكلفة الاقتصادية للأمراض المعدية تكون دائما أكبر من الآثار المباشرة على الصحة وذلك نتيجة التدابير المتخذة (إغلاق المدارس، التباعد الاجتماعي، الحجر الصحي، ارتداء الكمامات...) بالإضافة إلى التدابير المصاحبة (مساعدة الفئات الضعيفة، ومساعدة المقاولات المتضررة، وتأجيل الاقتطاعات الشهرية، وما إلى ذلك). ولهذا، يجب تقييم الآثار العامة للأوبئة والسياسات ذات الصلة ليس على القطاع الصحي فقط ولكن على مستوى السكان والاقتصاد بشكل عام.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة، العوامل الخارجية، الصحة العامة، الآثار الاقتصادية، الوقاية.

Résumé

Les cent dernières années ont été marquées par l'avènement de quatre pandémies infectieuses graves, qui ont causé des dégâts très importants en termes de santé public et d'économie en général. Dans ce travail, en s'appuyant sur d'autres travaux et études de cas faites à l'échelle internationale, nous allons essayer de mettre en lumière les particularités des pandémies des années 1918, 1957, 1968 et de 2009, quant à leur gestion, aux mesures entreprises, ainsi que les moyens à mettre en œuvre pour prévenir d'une part, et comment assouplir l'impact d'une pandémie mondiale infectieuses, aussi bien sur la santé publique que sur l'économie et le social d'autre part.

Tous les pays du monde sont confrontés aux défis de maîtrise et de gestion de l'actuelle pandémie de Covid-19. S'inspirant des anciennes expériences, les preuves relatives dans ce travail suggèrent que le coût économiques des maladies infectieuses est plus importante que les effets directs sur la santé, ceci à cause des mesures prises (Fermeture des écoles, distanciation sociale, confinement, port de masques) ainsi que les mesures d'accompagnement (Aides aux plus vulnérables,

19. Comme la résilience ne s'improvise pas, nous pensons que les entreprises doivent dès aujourd'hui se projeter dans l'après-crise et être prêtes à affronter les défis du nouveau contexte.

Bibliographie

- El Haraoui I., Qmichchou M. et Azouaoui H. (2018)**, « *Réticence du consommateur marocain à acheter en ligne - revisitée : une culture d'achat sous-estimée* », (RePeMCo, 2018), « Marketing durable : entre stratégies responsables et création de valeur », École Nationale de Commerce et de Gestion (ENCGK), Université Ibn Tofail, Kénitra, Les 23 et 24 Mars 2018.
- Kim et al. (2020)**, The anatomy of panic buying related to the current COVID-19 pandemic, Psychiatry research, Vol. 288, June.
- Lagadec, P. (1988)**. *États d'urgence : défaillances technologiques et déstabilisation sociale*. Éd. du Seuil.
- Lagadec, P. (1991)**. La gestion des crises. *Outils de réflexion à l'usage des décideurs*, Ediscience International, Paris.
- Lehu, J. M. (2012)**. *L'encyclopédie du marketing : Commentée et illustrée*. Editions Eyrolles.
- Popcorn, F. (1992)**. *The Popcorn report: Faith Popcorn on the future of your company, your world, your life*. Harper Collins.
- Provitolo, D., Dubos-Paillard, E., Verdière, N., Lanza, V., Charrier, R., Bertelle, C., & Aziz-Alaoui, M. A. (2015)**. Les comportements humains en situation de catastrophe : de l'observation à la modélisation conceptuelle et mathématique. *Cybergeog : Revue européenne de géographie/European journal of geography*.
- Zalega, T. (2018), Consumption cocooning in consumer behaviour of Polish seniors, *Handel Wewnętrzny*, (4 (375) tom I), 410-422.
- Rui Zhenga , Biying Shoub, Jun Yanga (2020)**, *Supply disruption management under consumer panic buying and social learning effects*, The international journal of management science, March 2020.

profondément modifié les comportements d'achat et de consommation des individus. L'impact se ressent au niveau de leurs réactions au moment du déclenchement de la crise sanitaire ainsi que pendant leur confinement contraint.

L'incidence du covid-19 sur les comportements des consommateurs marocains pourrait être analysée à travers l'apparition de nouveaux besoins, un nouveau quotidien et de nouveaux comportements qui pourraient s'expliquer dans certains cas par l'instinct de survie et dans d'autres par les mécanismes d'adaptation à cette situation aussi inédite qu'inhabituelle.

S'inscrivant dans une approche essentiellement exploratoire, cette investigation ne prétend pas produire des résultats extrapolables à l'ensemble des marocains. Son objectif est surtout de dégager les grandes tendances qui se dessinent au niveau des comportements d'achat et de consommation en cette période de crise.

Ainsi, nous avons constaté une priorisation des achats des consommateurs qui se sont, dans un premier temps, concentrés sur les besoins liés à la survie avant de connaître une légère diversification par la suite pour répondre aux besoins de leurs nouveaux quotidiens. Lors du déclenchement de la crise sanitaire, des comportements de panique et des achats impulsifs ont été observés. Ces achats ont porté sur les moyens de protection et sur les denrées alimentaires essentielles et de longue durée de conservation. L'objectif de plusieurs consommateurs était de constituer une réserve à domicile de ces denrées, ce qui a provoqué des ruptures de stock dans les magasins.

Le comportement d'achat de panique observé au début de la crise s'est estompé progressivement pour céder la place à des comportements plus réfléchis et raisonnés visant à répondre à des besoins découlant de nouveaux quotidiens. Quotidiens qui rassemblent des activités professionnelles, familiales, ménagères et de loisir. Ces nouveaux besoins et comportement pourraient ne pas avoir un caractère ponctuel, mais plutôt tracer les jalons de l'après covid-19. C'est l'idée que conforte Brahim Allali¹ qui, sonnant la fin du « *Business as usual*² », affirme que « ... les entreprises auront à faire dans l'après-Covid-19 à de nouveaux consommateurs ou, pour être plus précis, à des consommateurs avec de nouveaux besoins, de nouvelles exigences et de nouvelles habitudes d'achat et de consommation³ ».

Les changements drastiques des habitudes d'achat et de consommation, le chamboulement des priorités des consommateurs, l'évolution des exigences des consommateurs et l'inévitable baisse du pouvoir d'achat⁴ sont les principaux trends que les entreprises devraient prendre en compte pour se préparer à l'après covid-

¹ Strategy and International Business Consultant.

² Dans une publication sur son compte LinkedIn en date du 06/05/2020.

³ <https://www.linkedin.com/pulse/quelle-entreprise-pour-lapr%C3%A8s-covid-19-partie-1-la-fin-allali-phd/>

⁴ Les analystes s'accordent à dire que l'onde de choc économique du covid-19 sera encore plus brutale. Les pertes d'emplois s'annoncent déjà et le pire n'est peut-être pas derrière nous.

En raison des nombreux avantages qu'il présente, nous pensons que le télétravail va séduire de plus en plus d'employeurs et d'employés. Flexibilité, gain de temps, économies d'argent, équilibre vie privée – vie professionnelle, sont autant d'avantages qui encourageront à l'adoption du télétravail comme l'une des possibilités de la collaboration professionnelle. Nous soulignons un pourcentage considérable de 34.25% de nos répondants qui ont acheté des outils de visioconférence et de travail à distance.

Notons aussi que l'enseignement à distance, qui n'est pas nouveau comme pratique pédagogique, fera désormais partie intégrante des stratégies des acteurs de l'écosystème de l'enseignement. En plus des avantages de coût, d'accessibilité, de visibilité, il sera surtout mis en avant comme solution aux problèmes d'encombrement des classes et des amphithéâtres de cours dans les universités. Si certains établissements d'enseignement et de formation étaient déjà engagés dans la digitalisation et ont adopté des technologies éducatives, il n'en était pas le cas pour l'ensemble. Maintenant, c'est une généralisation, sous contrainte, de ces technologies¹ qui est en train d'avoir lieu. Nous pouvons souligner que 29% de nos répondants ont acheté des outils d'enseignement à distance, sachant que ce pourcentage serait certainement très bas si cette crise sanitaire n'avait pas eu lieu.

Notons que de nombreux acteurs sont en train de se positionner sur ces marchés dynamiques et se mettent à leur assaut avec des solutions de visioconférence, de collaboration à distance et de partage de ressources. Il s'agit aussi bien d'acteurs internationaux que de startups locales.

Cette analyse ne doit pas sous-entendre que le post covid-19 sera totalement numérique. La digitalisation ne répond pas à tous les besoins ou n'y répond que partiellement. Nous pensons que le monde de demain sera un « monde phygital » où le physique et le digital cesseront d'être perçus comme antinomiques.

Pour les achats, le travail et l'apprentissage, nous pensons que les comportements seront essentiellement hybrides et vont chercher à créer et/ou explorer les synergies entre ces deux formes. Les lieux du commerce, du travail et de la formation se situeront dans un continuum entre le physique et le virtuel pour co-crée des expériences d'achat, de travail et d'apprentissage irréfutables et enchantées.

Conclusion

En sévissant de manière redoutable la planète entière, covid-19 a brutalement secoué les équilibres et le fonctionnement des écosystèmes locaux, régionaux et internationaux. En plus de la mise à l'épreuve des plus robustes des systèmes de santé et des chaînes logistiques de plusieurs commerces, cette pandémie a

¹ Le recours à l'enseignement à distance a mis en avant le problème de l'inclusion numérique des étudiants. Pour des raisons économiques, de compétences ou d'infrastructures, un grand nombre d'étudiants et élèves sont actuellement exclus du digital. Des solutions structurelles devront être pensées, par l'ensemble des acteurs de l'écosystème digital, pour assurer cette inclusion numérique.

auprès des personnes interrogées dans notre enquête. Cet intérêt se manifeste aussi dans la consultation des sites et des chaînes Youtube présentant des contenus en rapport avec les recettes, astuces et conseils de cuisine¹.

Etant donné que le confinement sanitaire impose une certaine sédentarité des individus et la diminution de leur activité physique, de nombreuses personnes ont senti la nécessité d'entretenir leurs corps. Cette dimension du nouveau quotidien des individus interrogés est évidente vu l'intérêt qu'ils ont montré pour les achats d'équipements de sport et des contenus sur internet relatifs à l'exercice d'activités physiques à domicile. Dans notre enquête, les achats de matériels de sport viennent en deuxième position dans cette catégorie juste après ceux des équipements de cuisine.

Le divertissement et la culture trouveront indubitablement leur place dans ce nouveau quotidien des marocains confinés. La lecture se trouve à la tête des préoccupations relevant du divertissement des personnes interrogées, suivie de la VOD² et du streaming et des jeux vidéo, en lignes et de société. L'accès plus facile aux contenus de lecture en ligne ou en téléchargement gratuit pourrait expliquer cet engouement pour la lecture. Notons que la plupart de nos répondants ont un niveau supérieur d'éducation qui ne reflète pas le niveau d'éducation de la population, ceci dit, ces résultats ne peuvent dans aucun cas être généralisés.

6.3. Nouveaux comportements

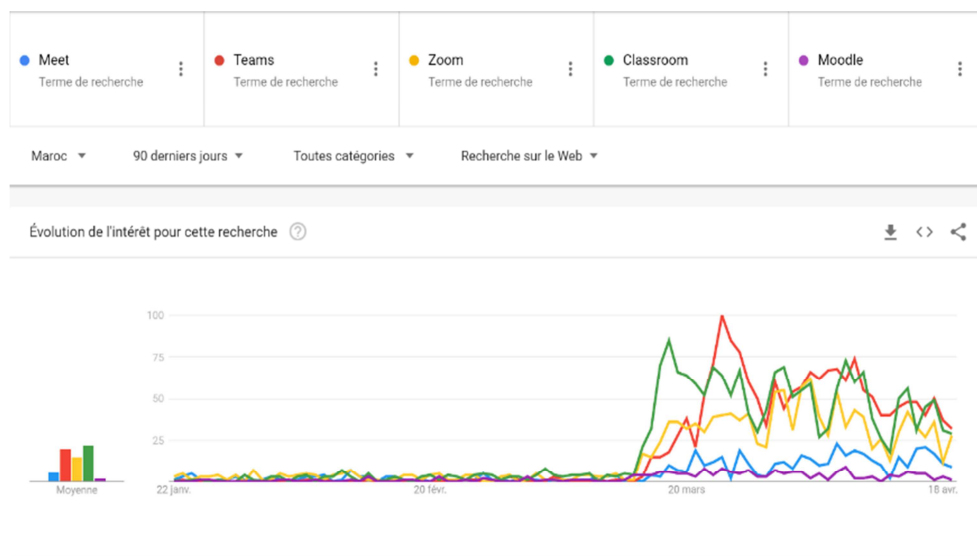
Les changements cités ci-haut n'auront certainement pas un caractère passager et ponctuel. Certains de ces comportements vont se cristalliser et revêtir un caractère pérenne. L'après covid-19 sera très probablement différent. Parmi les nouveaux comportements susceptibles de créer des habitués ou qui seront décrétés, nous pourrions citer le e-commerce, le télétravail et l'enseignement à distance. Il s'agit de comportements liés à l'usage du digital. Ainsi covid-19 peut être considéré comme un catalyseur de la transformation digitale dans les secteurs privé et public.

Pour le cas du e-commerce, le principal frein, en contexte marocain, était la culture d'achat (El Haraoui, Qmichchou, et Azouaoui, 2018). Les marocains y étaient réticents car ils n'avaient pas l'habitude d'acheter dans un environnement virtuel et se sentaient plus à l'aise dans le marché traditionnel. Ceux qui découvriront ses avantages, pendant leur confinement, vont probablement s'y attacher et en faire un moyen d'achat habituel. Des bénéfices en termes de praticité, de disponibilité, de prix, ne laisseront pas indifférent plus d'un³. Ainsi cette crise sanitaire va fort probablement contribuer à la familiarisation des marocains avec le digital et les services en ligne.

¹ Une caractéristique supplémentaire est probablement la réconciliation de la gente masculine avec la cuisine et les travaux ménagers.

² Netflix, le géant américain du la Video On Demand (VOD) a enregistré environ 16 millions de nouveaux abonnés depuis le déclenchement de la crise, soit deux fois son objectif initial.

³ Dans le cadre du programme e-Gov, piloté actuellement par l'Agence de Développement du Digital (ADD) visant, entre autres, la mise en place de l'administration digitale.



Source : Google Trends, Avril 2020.

Figure 6: Evolution de la recherche Internet sur les outils de travail et d'apprentissage en ligne au Maroc

Notons que le confinement a également rendu urgente la continuité du travail et des apprentissages¹. La ruée vers les solutions et outils de télétravail, d'enseignement et d'apprentissage en ligne s'est vite faite remarquée. Les plateformes et applications de visioconférence, de partage et de collaboration vont monter au créneau et faire partie du quotidien d'un grand nombre de marocains. A ce propos, les données des recherches portant sur ces outils à partir du Maroc tels qu'elles ressortent de Google Trends corroborent les réponses collectées dans le cadre de notre enquête.

6.2. Nouveau quotidien

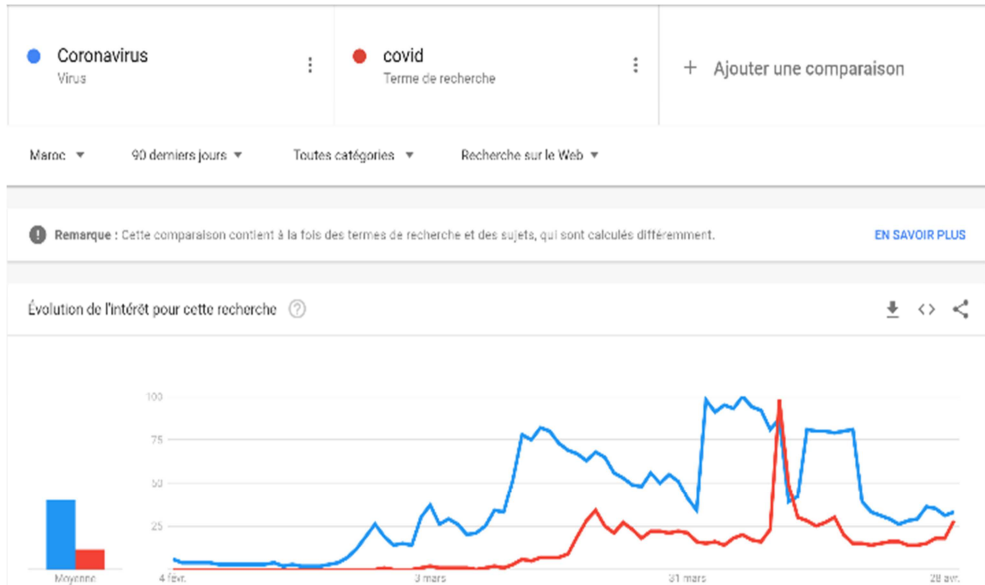
À la suite du confinement contraint qui a touché une large proportion des marocains, le quotidien de ces derniers a connu des changements profonds et inattendus. Ils doivent gérer au quotidien des responsabilités familiales, professionnelles ainsi que des préoccupations personnelles. Le temps d'adaptation est différent d'une personne à l'autre et un équilibre dynamique entre ces différentes activités sera atteint au fur et à mesure que la période de confinement se prolonge.

En plus des engagements professionnels relevant du télétravail ou de la continuité numérique de l'éducation mentionnés ci-haut, certaines activités vont prendre plus d'importance dans le quotidien des marocains. Il s'agit de la cuisine, du sport et du divertissement.

L'intérêt pour la cuisine se manifeste à travers les achats du petit électroménager et des ustensiles de cuisine. Ces achats viennent en tête des besoins de cette catégorie

¹ Dite aussi « continuité pédagogique » ou « continuité numérique de l'éducation ».

en premier lieu, suivis des stérilisants, désinfectants et solutions hydroalcooliques et enfin, des médicaments et compléments alimentaires.



Source : Google Trends, Avril 2020.

Figure 5: Evolution de la recherche Internet sur le coronavirus (covid-19) au Maroc

Ces produits ont constitué l'essentiel des paniers des marocains pendant cette période de crise et sont aussi ceux qui ont été touchés par une pénurie passagère. En rapport avec ces produits liés à la survie, les consommateurs marocains ont montré un intérêt sans précédent aux services de livraison à domicile et au e-commerce¹. Ainsi, de nombreuses entreprises ont été créées dans le domaine de la livraison à domicile, tandis que d'autres qui étaient principalement dans des modes de distribution physique traditionnelle ont été réactives en digitalisant l'accès à leurs offres et en les rendant accessibles via Internet². Cet aspect constitue le résultat le plus surprenant de notre enquête. Paradoxalement à une réalité toute autre où les marocains étaient en majorité assez frileux face à l'achat en ligne et ce pour des raisons culturelles (El Haraoui, Qmichchou, et Azouaoui, 2018), le e-commerce et la livraison en ligne viennent aujourd'hui en tête de liste des besoins classés par ordre d'urgence selon des personnes interrogées dans notre enquête.

¹ Ce recours inhabituel au e-commerce pourrait lever l'un des freins les plus structurels à son développement au Maroc, il s'agit d'un changement dans les habitudes des acheteurs (El Haraoui, Qmichchou et Azouaoui, 2018). Ainsi, nous pourrions prédire un décollage du e-commerce au Maroc même après la crise.

² Via sites web, applications mobiles ou encore d'offres publiées sur les réseaux sociaux.

négatif, neutre ou positif de l'impact de la crise, le classement s'en trouve modifié. La crise a plus pénalisé la mobilité, la sociabilité, le travail, le revenu, la santé et dans un moindre degré la consommation.

Selon les résultats de notre enquête, nous pouvons mettre en exergue que l'aspect de la vie des individus a été le moins pénalisé par l'effet de la crise. Un peu moins de 5% des répondants ont affirmé que leur consommation a été affectée de manière « très négative », 29% de manière « négative », 27% de manière « neutre », 34% de manière « positive » et 5% de manière « très positive ». Ainsi, les deux tiers des répondants ont affirmé que leurs comportements de consommation ont été affectés.

Pour comprendre les changements survenus ou en cours de façonnement du comportement cocooning des individus, à la suite du confinement, il est possible de procéder à une analyse en terme¹ :

- Des besoins immédiats
- Du « nouveau quotidien » des personnes en cette période de crise sanitaire
- Des comportements émergents

6.1. Nouveaux besoins

Peut-être que l'un des premiers besoins qui s'est déclenché est celui de s'informer. Depuis l'apparition des premiers cas en chine, les médias ont relayé l'information à grande échelle et la maladie a suscité un intérêt croissant de la part de l'opinion mondiale. L'intérêt a encore monté lorsque l'OMS a classé la crise sanitaire au rang de pandémie mondiale. Dans cette recherche d'informations sur le covid-19, en plus des médias classiques, Internet occupe une place de plus en plus importante.

Ce besoin va de pair avec celui de la connectivité qui figure dans le top cinq des besoins jugés les plus prioritaires dès le début du confinement². Pour notre part nous avons trouvé que presque 65% de nos répondants ont opté pour une connexion d'Internet.³ [09] qui suscitent plus d'intérêt et sur lesquelles les interactions façonnent des tendances assez significatives des changements qui sont en cours de réalisation.

Cependant, les besoins de « survie » ont été les plus cités par les répondants à notre enquête, il s'agit d'abord des besoins liés à l'hygiène et aux médicaments puis aux produits de l'alimentation et plus particulièrement de longue durée de conservation. Dans cette catégorie, ce sont les achats de masques bavettes et gants qui viennent

¹ www.thinkwithgoogle.com

² Ceci est confirmé par les trois opérateurs Télécom au Maroc qui ont rencontré de sérieux problèmes pour le maintien de la connectivité en raison d'une bande passante inhabituelle disproportionnée avec leurs infrastructures. Une étude détaillée du GlobalWebIndex révèle que, partout dans le monde, les gens passent beaucoup plus de temps sur leurs écrans depuis la mise en place du confinement.

³ Plateformes (sites et/ou applications) de diffusion de contenus et d'interactions entre individus ou avec des organisations comme Facebook, WhatsApp, LinkedIn, YouTube, Instagram, TikTok, ...

Au sujet du e-commerce et services à domicile, nous avons remarqué que les services bancaires en ligne étaient les plus utilisés suivi de la livraison à domicile (40.43%), et par la suite avec presque le même pourcentage de 32.09% le transfert d'argent et les achats en ligne.

Enfin, pour les produits alimentaires à longue durée de conservation, nous avons remarqué que plus que la moitié, soit 68.82% des répondants, ont choisi des aliments longue conservation (pattes, céréales, légumineuses, conserves, lait UHT, ...), suivi des produits pour grignotage (salé, sucré, fruits secs, ...) avec un pourcentage de 47.22%.

Equipements et solutions d'apprentissage et de travail à distance	•Matériel bureautique (ordinateurs, tablettes, imprimantes, ...) •Fournitures de bureau (manuels, papier, ...) •Plateformes de e-learning •Outils d'enseignement à distance •Outils de visioconférence, de télétravail et de collaboration en ligne
Equipements électroniques, électroménager et ustensiles de cuisine	•Electronique (téléviseurs, smartphones, ...) •Grand électroménager •Petit électroménager et ustensiles de cuisine •Outils de bricolages •Equipements de sport
Produits d'hygiène corporel, médicaments et compléments alimentaires	•Tendeuse a cheveux / Epilateur •Médicaments et compléments alimentaires (paracétamol, vitamine C, vitamine D, ...) •Stérilisants, désinfectants et solutions hydroalcooliques •Masques bavettes, gants, ...
Divertissement, spectacle, jeux et produits culturels	•Consoles de jeux, jeux de société et jeux en ligne •VOD et streaming •Jouets pour enfants •Lecture (livres, revues, magazines, journaux, ...)
Internet et connectivité	•Connexion Internet (abonnement Wifi, abonnement mobile, 4G, Recharges, Pass Internet, ...) •Plateformes sociales (Facebook, LinkedIn, Instagram, WhatsApp, YouTube, ...) •Télémédecine •Sites, chaînes vidéo des recettes de cuisine •Tutoriaux divers
E-Commerce et services à domicile	•Achats en ligne •Livraison à domicile •Transfert d'argent •Services bancaires en ligne
Produits alimentaires	•Aliments longue conservation (pattes, céréales, légumineuses, conserves, lait UHT, ...) •Produits congelés •Grignotage (salé, sucré, fruits secs, ...)

Figure 4: Catégories des besoins liés au confinement découlant de l'observation et interaction via les réseaux sociaux

6. Discussion

De manière générale, une grande majorité de nos répondants ont affirmé que la crise a affecté négativement plusieurs aspects de leur vie. Parmi ces aspects, la mobilité, le travail et la sociabilité qui ont été les plus touchés suivis par la consommation, la santé et le revenu. En prenant en considération le caractère,

Bien évidemment ce profil ne correspond dans aucun cas au profil de la population marocaine et nous n'avons pas pour objectif de tirer des conclusions sur l'ensemble de la population.

3.2. Impact de la crise du Covid-19 sur le comportement d'achat

La crise sanitaire du Covid-19 a eu un impact sur plusieurs aspects de la vie des individus. Nous avons remarqué que 73.4% de nos répondants ont souligné que cette crise sanitaire a eu un impact négatif ou très négatif sur leur mobilité, contre 57.4% sur leur sociabilité, 56% sur leur travail et 41.7% sur leur revenu. L'impact négatif le moindre a été déclaré concernant leur consommation.

Nous avons aussi noté un pourcentage considérable de 80% de nos répondants qui ont souligné que cette crise sanitaire a affecté leur comportement d'achat. En effet, 64.8% ont déclaré avoir réalisé des achats pour des produits d'hygiène, des médicaments et des compléments alimentaires spécifiquement en raison du confinement. En deuxième lieu nous avons remarqué les produits alimentaires de longue durée de conservation (51.23%) suivie de 33.02% pour l'Internet et la connectivité.

3.3. Analyse des achats ou des besoins d'achat par catégorie

Nous avons adressé nos questions pour les catégories de produits que les répondants avaient utilisés, achetés ou envisagés d'acheter depuis le début du confinement en prenant en considération 7 catégories¹ à la suite d'une analyse de contenu.

Pour la première catégorie, des équipements et solutions d'apprentissage et de travail à distance, 38.27% des répondants ont déclaré avoir acheté des "ordinateurs, tablettes et imprimantes", 34.25% des outils de visioconférence et du travail à distance et 28.09% des outils d'enseignement à distance.

En ce qui concerne les équipements électroniques, électroménagers et ustensiles de cuisine, nous pouvons noter que 31.48% ont opté pour des équipements de sport, 33.64% pour des petits électroménager et ustensiles de cuisine et 22.84% pour l'électronique, des téléviseurs, des Smartphones.

S'agissant des produits d'hygiène corporelle, médicaments et compléments alimentaires, 71.60% des répondants ont sélectionné les masques, bavettes et gants, un pourcentage qui n'est pas du tout surprenant. 66.04% des répondants ont choisi des stérilisants, désinfectants et solutions hydro alcooliques et 50.61% des médicaments et compléments alimentaires (paracétamol, vitamine C, vitamine D, ...).

Concernant le divertissement, spectacle, jeux et produits culturels, 45.37% des répondants ont sélectionné la lecture (livres, revues, magazines, journaux, ...), 23.79% des VOD et streaming et 20.37% des consoles de jeux, des jeux de société et des jeux en ligne. À propos d'Internet et la connectivité, 64.81% des répondants ont opté pour la connexion d'Internet (abonnement Wifi, abonnement mobile, 4G, Recharges, Pass Internet, ...) et 47.22% ont choisi les plateformes sociales (Facebook, LinkedIn, Instagram, WhatsApp, YouTube, ...).

¹ Ces catégories ont été élaborées lors de la phase exploratoire sur le réseau Facebook.

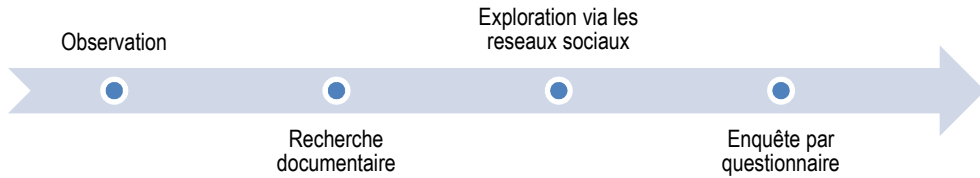


Figure 2: Processus de déroulement de la recherche

5. Analyse des résultats

Après les phases d'observation et d'exploration, nous avons soumis nos premiers résultats, sous forme de catégories des achats caractéristiques du cocooning en période de confinement, à la confirmation à l'aide d'un questionnaire.

Dans le questionnaire, une première question filtre nous a permis de distinguer ceux qui pensent que cette crise a affecté leurs comportements d'achat et de consommation de ceux qui pensent le contraire.

Le questionnaire a été diffusé auprès d'un échantillon de convenance⁴ composé de 340 personnes. Il a été auto-administré via Internet (réseaux sociaux et e-mailing). Les données ont été collectées sur la période allant du 23 au 07 MAI 2020.

Le questionnaire a contenu 17 questions dont 6 portent sur le profil du répondant. Nous allons en premier lieu résumer le profil démographique des répondants, par la suite nous analyserons les questions concernant l'impact de cette crise sanitaire sur le comportement d'achat des consommateurs, plus particulièrement les catégories de produits achetées en raison du confinement, utilisées ou que les répondants ont une intention d'acquérir ultérieurement.

3.1. Caractéristiques démographiques de l'échantillon

Nous avons noté que notre échantillon de 340 personnes est constitué de 43% de femmes et 57% d'hommes dont 41% ont un âge entre 25 et 35 ans et 39% ont un âge entre 35 et 55 ans. La plupart soit 90%, résident dans les grandes villes ou les villes de taille moyenne.

Nous avons aussi noté que 47% des répondants sont des fonctionnaires et 24 % sont des salariés dans le secteur privé et 17% sont des étudiants. Concernant le revenu nous pouvons souligner que plus de la moitié, soit 57% ont un salaire du foyer compris entre 5000 et 15000 Dhs et 18.20% ont un salaire inférieur à 5000 Dhs.

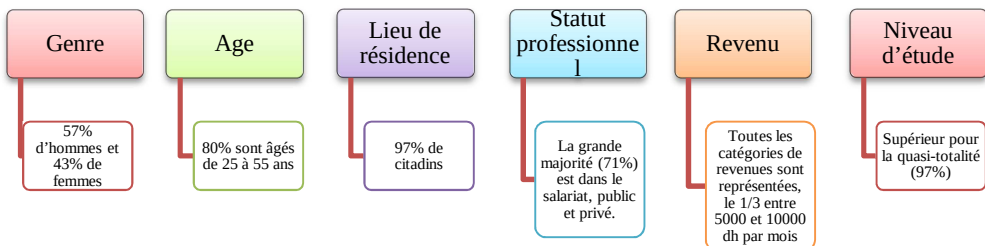


Figure 3: Profil démographique des répondants

leur offre. Ainsi, cette crise sanitaire a été mentionnée par de nombreux observateurs comme un facteur de l'accélération de la digitalisation de nombreux domaines de la vie et des activités économiques. Cette transformation digitale n'aura certainement pas un effet ponctuel, mais installera des pratiques qui vont certainement se pérenniser.

Nous pouvons ainsi mettre en exergue que le concept du cocooning est lié au comportement du consommateur, puisque ce dernier s'intéresse à aménager son environnement pour se protéger et pour son bien-être. Plusieurs achats peuvent être effectués, notamment pour des produits à faible implication ou à forte implication.

4. Méthodologie

Une approche qualitative exploratoire a été mise en œuvre pour construire une liste de thèmes relatifs aux besoins et aux produits dont la consommation est devenue prioritaire et ainsi pouvoir comprendre les nouveaux comportements d'achat qui ont surgi à cause de la crise sanitaire du covid-19 et du confinement obligatoire, qui a été décrété par les autorités à une large partie de la population en vue d'en endiguer la propagation.

Après une brève revue de la littérature sur le comportement du consommateur en période de « panique » et de « confinement », une approche empirique, en quatre temps, nous a permis de combiner l'observation, la recherche documentaire et l'exploration par interaction via Internet.

Certaines idées de départ ont émergé à la suite de l'observation des comportements réels des individus tels qu'ils ont été reportés par les médias ainsi que des publicités (display) des entreprises (annonceurs) sur Internet.

Une recherche documentaire nous a par la suite permis de mieux cerner, de manière générale et extensive, les principaux changements des comportements et des priorités des consommateurs aux moments de la déclaration de la crise sanitaire et pendant la période de confinement.

Une troisième phase d'exploration a été réalisée via les réseaux sociaux. Elle a consisté en une démarche itérative afin d'ajouter des nouveaux items à la liste initiale dans un post publié sur un réseau social qui a donné lieu à une quarantaine d'interactions. Les interactions étaient sous forme d'un ajout d'un nouvel élément ou la confirmation d'un élément déjà figurant dans la liste.

Cette démarche qualitative a pour principal objectif de réunir le maximum d'items qui seront par la suite regroupés dans une liste de thèmes avant de les soumettre sous forme de questionnaire auto-administré en ligne auprès d'un public hétérogène. La représentativité n'étant pas un enjeu à ce stade, la diversité et la complémentarité des contributions sont jugées essentielles.

Enfin, un questionnaire auto-administré a été conçu et diffusé en vue de faire une première évaluation quantitative des comportements d'achats et des besoins déjà recensés. Le questionnaire a été administré via Internet auprès d'un échantillon de convenance et nous a permis de collecter 340 réponses qui ont fait l'objet d'une analyse statistique descriptive.

Pour Lehu (2012), le cocooning est le “*comportement du consommateur caractérisé par la volonté de transformer le foyer en une sorte de cocon, un abri parfaitement protégé, par peur du danger représenté par l'extérieur*”. Cette définition couvre parfaitement la situation actuelle que vit une grande partie des humains à travers le monde à cause de la crise sanitaire du covid-19.

Popcorn (1992) a distingué trois formes différentes de cocooning. Il s'agit du :

- Cocooning socialisé³ (*socialised cocooning*) qui se manifeste à travers une concentration sur le domicile et les rituels liés à la célébration de la vie familiale,
- Cocooning errant (*wandering cocooning*) impliquant un isolement physique du monde extérieur au travers de l'utilisation d'équipements et technologies appropriés comme la connectivité,
- Cocooning blindé (*armoured cocooning*) marqué par un excès de prudence dans l'utilisation d'Internet et le recours aux systèmes de sécurité et la sécurisation du domicile.

Les deux premières formes de cocooning correspondent mieux à la réalité du confinement sanitaire que vivent ces jours-ci les consommateurs. Bien évidemment leur comportement de consommation change vers une “consommation cocooning”.

En fait, la “consommation cocooning” engendre des comportements de consommation marqués par son caractère privé et personnalisé (Zalega, 2018). La dimension privée correspond au passage d'une consommation en lieu public à la consommation à domicile. L'aspect personnalisation correspond à une individualisation des modes de vie et la régression du conformisme.

Ainsi, le cocooning a pour objectif la recherche du confort et de la sécurité à la maison, afin de se protéger contre les risques perçus dans l'environnement extérieur. L'aménagement du chez-soi en cherchant le bien-être, en se procurant des produits et des services est ainsi primordial.

Notons, que le confinement, obligatoire² ou facultatif, est une forme de « cocooning » qui impacte le comportement des consommateurs. Selon Popcorn, le cocooning est un « *phénomène commercial important qui favorise le développement des nouvelles technologies et augmente la popularité des achats en ligne, du travail à distance, et répond essentiellement aux exigences de l'existence contemporaine* » (Zalega, 2018). Ses conséquences sont multiples sur le plan des modes et des styles de vie qui impactent les comportements de consommation.

Avec moins de déplacements et le raccourcissement du temps de travail, les consommateurs ont plus de temps libre à se consacrer à des activités variées qui seront effectuées à domicile. De nombreux équipements peuvent devenir indispensables pour se faire. Des achats d'équipements de cuisine, de sport, de télétravail, de distraction ... peuvent être observés. Ainsi, une utilisation accrue des TIC peut se manifester à travers, essentiellement des activités d'infotainment⁴, de télétravail, d'apprentissage en ligne, du e-commerce et d'accès en ligne aux services publics.

Notons que plusieurs entreprises ont été réactives en mettant sur le marché des offres rencontrant ces besoins en vue de saisir les opportunités que cette situation

Dans ce sens, deux catégories de comportements d'achat seront examinées, les achats de panique en premier lieu, puis les achats raisonnés pour cocooning pendant le confinement.

2. Covid-19 et les comportements d'achats de panique

La crise sanitaire du covid-19 s'est reflétée dans le comportement d'achat des consommateurs marocains, qui ont été déjà mis en alerte vu la propagation du virus dans le monde et surtout dans les pays voisins où des achats de panique de denrées non périssables, d'hygiène, de protection et de première nécessité ont été constatés. Bien évidemment leur comportement a été contraint de changer vers un comportement de panique en raison de leur inquiétude concernant la disponibilité des marchandises et la fermeture des magasins.

Plusieurs raisons peuvent expliquer ce comportement, notamment d'un point de vue psychologique, car le consommateur peut sentir un conflit entre le désir de maintenir sa routine régulière et l'incertitude vis-à-vis de la durée de cette crise, qui limiterait son accès aux produits de première nécessité, ce qui entraînerait une anxiété et un achat de panique pour apaiser ce conflit (Kim et al. 2020).

D'autres raisons que nous pouvons citer, la peur de sortir dans les lieux publics pour s'approvisionner, l'anxiété concernant une pénurie¹ des produits, ou l'augmentation de leurs prix. Une peur et une anxiété qui ont un impact sur le sentiment de confiance et qui déclenchent un besoin de sécurité et de contrôle de la situation qui se manifeste à travers un comportement d'achat de panique.

En d'autres termes, le comportement d'achat de panique se produit lorsque les consommateurs achètent des produits en grandes quantités afin de satisfaire leurs besoins, notamment le besoin de sécurité avant, pendant ou suite à une crise, et pour essayer psychologiquement de contrôler la situation.

Il peut être classé comme un comportement grégaire puisque les consommateurs adoptent un comportement d'achat non réfléchi en fonction du comportement des individus dans son environnement. En effet, dans une situation d'achat de panique, les décisions d'achat des consommateurs sont souvent influencées par les choix de leurs pairs (Zheng et al., 2020). Notons que les décisions d'achat sont prises rapidement, relèvent plus du subconscient et peuvent entraîner par la suite une dissonance cognitive.

3. Cocooning et les comportements d'achats raisonnés

Le terme de « cocooning » a été inventé par la futurologue Faith Popcorn¹ et il le définit comme un « *syndrome de rester à la maison* » ou « *l'impulsion de rester à l'intérieur quand l'extérieur devient trop dur et effrayant, comme transformer une maison en nid* » (Popcorn, 1992).

¹ L'accroissement des achats au moment de l'apparition des premiers cas au Maroc a mis en difficulté les systèmes logistiques de nombreuses enseignes de grande distribution, ce qui a été interprété comme étant une pénurie et a nourri l'affolement des citoyens qui ont pris d'assaut les rayons des magasins. La communication de crise du gouvernement et de certaines enseignes de distribution consistant à diffuser des messages assureurs ont permis d'apaiser les craintes des consommateurs quant à leur capacité à les approvisionner en denrées essentielles.

aux comportements d'achat raisonnés pour cocooning à la suite du confinement sanitaire obligatoire quasi généralisé.

En effet, dans une situation de stress, liée à une crise, les comportements des individus se distinguent en trois catégories selon Provitolo et al. (2015) :

- Les **comportements réflexes** (ou instinctifs) régis par le cerveau reptilien et permettant de réagir vite. Ces comportements se traduisent concrètement par la fuite ou par la lutte.

- Les **comportements de panique** se déclarant lors d'événements catastrophiques et se caractérisant par un effet de contagion sociale. Cette panique est difficile à stopper et son arrêt dépend plus de la dynamique interne du groupe qu'à l'éloignement du danger.

- Les **comportements contrôlés ou raisonnés**. Ils ont pour objectif de nous préparer au danger, d'y faire face (évacuation organisée, confinement, entraide). Ces comportements "intelligents" sont gérés par notre cortex préfrontal.

Selon les auteurs, ces trois types de comportements se déclenchent de manière séquentielle. Les comportements réflexes apparaissent en premier temps et sont de courte durée, suivis des comportements raisonnés et/ou de panique.

Les réactions peuvent également se manifester de manière plus complexe à travers des mécanismes en boucle. Une approche dynamique des réactions en chaîne est donc plus pertinente pour comprendre l'attitude des individus face une la crise.

Les réactions à une crise dépendent selon Provitolo et al. (2015) de plusieurs paramètres. Certains sont propres à la nature et aux phases de la crise alors que d'autres relèvent plus des caractéristiques personnelles des individus et des interactions qu'elles entretiennent avec les autres. En fait, une dimension exogène liée à la crise doit être distinguée des aspects personnels et des dynamiques de groupe.

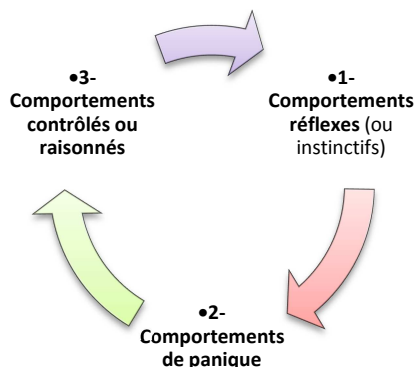


Figure 1: Séquence des comportements de crise d'après Provitolo et al. (2015)

divertissement, des équipements électroniques ou électroménagers...tous des produits qui peuvent satisfaire les trois besoins cités plus haut.

Afin de comprendre ce changement du comportement d'achat et plus spécifiquement les produits ciblés, nous avons soulevé la problématique suivante : ***quelles sont les catégories de produits que les consommateurs ont utilisées, achetées ou qu'ils envisagent d'acheter en cette période de confinement sanitaire ?***

Notre analyse portera ainsi sur les produits utilisés, achetés ou programmés dans les achats. L'objectif étant d'étudier l'impact du confinement sur le choix des produits, en mettant en avant de nouveaux besoins, un style de vie différent et de nouveaux comportements qui en découlent et qui peuvent être une source de réflexion pour les marketers.

Il est important de souligner que le comportement d'achat explicité plus haut n'est pas adopté par tous les consommateurs marocains, en prenant en considération leur pouvoir d'achat et de nombreuses familles qui n'ont pas les moyens d'acheter des produits en stock. Certes, le revenu et la profession sont des facteurs personnels déterminants de ce comportement.

1. Revue de littérature

L'humanité a traversé de nombreuses crises d'intensité et de natures différentes. Guerres, crises sanitaires, crises économiques et financières, etc. Le concept de crise a fait l'objet d'un intérêt particulier de la part de chercheurs issus de nombreux champs disciplinaires et de recherche. Lagadec (1988, 1991) définit le phénomène de crise comme *« une situation où de multiples organisations, aux prises avec des problèmes critiques, soumises à de fortes pressions externes, d'après tensions internes, se trouvent brutalement et pour une longue durée sur le devant de la scène, projetées aussi les unes contre les autres...le tout dans une société de consommation de masse, c'est à dire en direct, avec l'assurance de faire la « une » des informations radiodiffusées, télévisées, écrites sur une longue période »*.

Cette définition semble bien décrire la crise sanitaire du Covid-19 qui s'est déclenchée en chine en décembre 2019 et qui s'est par la suite propagée pour toucher la quasi-totalité des régions et pays du monde. Sa propagation rapide et son impact virulent ont poussé l'OMS¹ à la qualifier de pandémie et a recommandé la mise en place d'un certain nombre de mesures, autres que médicales, pour en endiguer la propagation. Il s'agit des mesures d'hygiène, de distanciation sociale, mais surtout de confinement. Ces mesures ne sont pas sans incidences sur les comportements d'achat et de consommation des individus et des collectivités.

D'un point de vue marketing, l'étude des effets de la crise sanitaire du Covid-19 sur les comportements des consommateurs pourrait être envisagée selon deux perspectives. Celle des comportements d'achat en situation de panique et celle liée

¹ Organisation Mondiale de la Santé.

En résumé, une frénésie d'achat pour satisfaire les besoins physiologiques et les besoins de sécurité a été remarquée. Changement radical dans le comportement des consommateurs, les produits de luxe ou les produits secondaires ne sont plus convoités même par les consommateurs qui avaient l'habitude de les acheter. Les produits visés sont principalement des produits à faible implication que les consommateurs ont achetés dans une situation de panique et parfois sans même faire attention à la marque, ce qui peut se justifier aussi par la théorie de l'implication minimale d'Hebert Krugman.

La question qui peut être soulevée est la suivante : comment ces consommateurs ont pris leurs décisions d'achat ? Bien évidemment, en cette situation de crise, le processus habituel n'est plus applicable ! Des facteurs psychologiques à savoir la peur et l'anxiété, l'effet de foule, l'influence de la famille, des amis, des médias¹ et de l'entourage ont eu un impact considérable sur la décision d'achat des consommateurs pour certains produits plutôt que d'autres.

Ainsi, de ce processus de décision d'achat on peut supprimer certaines étapes. Dans un premier cas, les consommateurs ont pris leurs décisions d'achat avant la reconnaissance du problème ou du besoin et sans passer par la recherche d'informations ou l'évaluation des alternatives. Dans le deuxième cas, d'autres ont eu cette reconnaissance du besoin et sans passer par les deux étapes qui suivent ont acheté leurs produits. Notons que pour les deux cas ils peuvent passer par la suite à l'évaluation post-achat². La différence entre les deux dépend de plusieurs facteurs, entre autres les facteurs psychologiques en prenant en considération l'impact des croyances sur les attitudes par exemple.

Nous pouvons aussi souligner que les consommateurs appartiennent à une espèce imitatrice, ils ont ainsi adopté un comportement d'achat inhabituel laissant derrière eux des rayons totalement vides pour certains produits avant et durant les premiers jours du confinement. Par la suite, leur comportement d'achat été plus raisonné et d'autres besoins se sont manifestés pour le cocooning. La demande pour certains produits pour satisfaire les trois autres types de besoins dans la pyramide de Maslow, à savoir les besoins d'appartenance, d'estime et d'accomplissement est apparue.

En d'autres termes, juste avant le confinement, nous avons remarqué un comportement d'achat de panique et les choix des produits ont été souvent irrationnels, mais après le confinement ces choix sont devenus plus raisonnés et réfléchis. Ces derniers concernent principalement la connexion d'Internet, des équipements et des solutions d'apprentissage à distance, des produits de

¹ Le déclenchement différé de la crise dans certains pays par rapports à d'autres a permis d'observer et suivre les événements à l'étranger via les médias ce qui a été un facteur de propagation des comportements de panique et la frénésie des achats.

² Comme par exemple le fait d'avoir des remords et de faire le constat d'achats non raisonnés et disproportionnés par rapports aux besoins réels surtout qu'aucune pénurie réelle n'a eu lieu par la suite et que les marchés ont continués à être normalement approvisionnés.

Nous avons noté un comportement d'achat de panique avant et au début du confinement, qui s'est estompé progressivement pour céder la place à un comportement d'achat plus réfléchi visant à satisfaire les besoins du cocooning. Les résultats de notre recherche montrent l'apparition de nouveaux besoins qui relèvent de l'instinct de survie et d'autres qui caractérisent la période de confinement et qui reflètent des comportements raisonnés et d'adaptation. Ces nouveaux besoins pourraient ne pas avoir un caractère ponctuel, mais plutôt tracer les jalons de l'après covid-19 et constituer le point de départ d'autres travaux de recherche et de réflexion des marketers concernant les stratégies marketing à entreprendre.

Mots-clés : Covid-19, comportement d'achat de panique, comportement d'achat raisonné, cocooning.

Introduction

Avec la crise sanitaire du Covid-19 et avant le confinement, le besoin de sécurité peut expliquer les motivations derrière un comportement d'achat de panique que les consommateurs ont manifesté dans plusieurs pays touchés par ce virus, à l'exception de certains comme la Corée du Sud.

En effet, dans la pyramide de Maslow ce besoin est classé après les besoins physiologiques. C'est ainsi qu'avant le confinement nous avons remarqué une peur et une anxiété des consommateurs, contagieuses comme le virus lui-même. Sachant que les individus vivant en société interprètent le danger, le risque ou la crise en fonction des autres, les consommateurs ont ainsi adopté des achats impulsifs ou des achats de panique, en se procurant des produits en grande quantité en vue de constituer des réserves.

Les premiers produits visés étaient les produits alimentaires. Bien évidemment, ces denrées satisferont les besoins qui sont classés dans le niveau le plus bas de la pyramide de Maslow et pour un cocooning ce sont des produits essentiels, le cas du confinement.

Un confinement qui a été anticipé par les consommateurs marocains qui ont stocké des produits alimentaires durables, par peur de pénurie, de fermeture des magasins, de l'incertain¹. Des achats pour se sentir en sécurité et ainsi satisfaire le deuxième niveau des besoins dans cette pyramide.

Ce besoin de sécurité a aussi poussé les consommateurs à s'approvisionner de produits hygiéniques comme les stérilisants, et les solutions hydroalcooliques pour essayer psychologiquement d'avoir un contrôle de la situation et de se protéger du danger, le virus.

¹ "Nous essayons de nous entourer d'un maximum de certitudes, mais vivre, c'est naviguer dans une mer d'incertitudes, à travers des îlots et des archipels de certitudes sur lesquels on se ravitaille...", Edgar Morin.

Cocooning et comportement de consommation des menages au Maroc, cas du confinement a cause du coronavirus (Covid-19)

Ilham EL HARAOUÏ & Mohammed QMICHCHOU

Université Ibn Tofail. FSJES. Kénitra.

ilham@univ-ibntofail.ac.ma / qmichchou.mohammed@uit.ac.ma

ملخص

تحدث جائحة كوفيد-19 حاليا تغييرات هامة في الحياة اليومية للأشخاص وفي نمط اشتغال العديد من الأنظمة، فقد بدأت تبرز أنماط غير معتادة في سلوك التبضع عند المستهلكين. هذه السلوكيات الجديدة، التي تعكس سيرورة دينامية ومعقدة لأجل التأقلم، تمثل تحديا مثيرا للاهتمام يسائل المحترفين والباحثين في مجال علم التسويق. إن الغاية من هذه الدراسة الاستطلاعية هي كشف التوجهات الأساسية التي تلوح في الأفق على مستوى السلوكيات الشرائية للمستهلكين المغاربة في فترة الأزمة الصحية. وسنعمد لبلوغ ذلك على تحليل فئات البضائع التي يتم اقتناؤها أو تمت برمجتها في مشتريات مقبلة.

لقد ساد مع بداية تدابير الحجر سلوك تبضع متسارع أملت ظروف الخوف والفرع، ثم تحول تدريجيا إلى سلوك أكثر عقلانية يستهدف تلبية الحاجات اللازمة للكوكوث في المنازل. وتكشف نتائج دراستنا ظهور احتياجات جديدة، منها ما يرتبط بغريزة البقاء، ومنها ما هو مرتبط بظروف الحجر ويعكس سلوكا عقلانيا بغرض التأقلم مع الوضعية المستجدة. هذه الاحتياجات الجديدة قد لا تكون ذات طبيعة مرحلية وقد تضع الأسس لمرحلة ما بعد كوفيد-19، بحيث تصبح نقطة انطلاق لمزيد من البحث والتفكير في استراتيجيات التسويق التي ينبغي اعتمادها.

الكلمات المفتاحية: الفرع، التبضع، السلوك، سلوك شراء معقلن، الحجر الصحي.

Résumé

La pandémie du covid-19 est en train de changer la vie quotidienne des personnes et le fonctionnement de plusieurs organisations. On observe de nouveaux comportements d'achat des consommateurs qui sont le résultat d'un processus dynamique et complexe d'adaptation et qui interpellent les professionnels et les chercheurs en marketing. L'objectif de cette recherche exploratoire est de dégager les grandes tendances qui se dessinent au niveau des comportements d'achats des consommateurs marocains, en cette période de crise sanitaire, en analysant les catégories de produits achetés ou programmés dans des achats futurs.

L'ECONOMIE FACE A L'EPREUVE DU COVID-19

l'avantage d'une certaine relation entre ces paramètres géographiques et la diffusion de la maladie du Covid-19.

Bibliographie

- Bukhari Q. et Jameel Y., 2020.** Will Coronavirus Pandemic Diminish by Summer? <https://ssrn.com/abstract=3556998> or <http://dx.doi.org/10.2139/ssrn.3556998>
- Center for Systems Science and Engineering. Johns Hopkins University.2020.** [Johns Hopkins University Center for Systems Science and Engineering COVID-19 Global Cases.](#)
- Centre d'études stratégiques de l'Afrique. 2020.** Cartographie des facteurs de risque de propagation du COVID-19 en Afrique.
- Chin A., Chu J., Perera M., Hui K., Yen H.L., Chan M., Peiris M., Poon L. 2020.** Stability of SARS-CoV-2 in different environmental conditions. The Lancet Microbe [https://doi.org/10.1016/S2666-5247\(20\)30003-3](https://doi.org/10.1016/S2666-5247(20)30003-3)
- Hobday R.A. and Cason J.W. 2009.** The open-air treatment of pandemic influenza. Am J Public Health. 2:S236–42.
<https://doi.org/10.2105/AJPH.2008.134627>.<https://africacenter.org/fr/spotlight/cartographie-des-facteurs-de-risque-de-propagation-du-covid-19-en-afrique/>
- Leonardo S., Fabrizio P. et al. 2020.** Position Paper: Relazione circa l'effetto dell'inquinamento da particolato atmosferico e la diffusione di virus nella popolazione. SIMA. <https://www.actu environnement.com/media/pdf/news-35178-covid-19.pdf>
- Miguel B. Araújo and Babak N. 2020.** Coronavirus likely constrained by climate. <https://doi.org/10.1101/2020.03.12.20034728>. Spread of SARS-CoV-2.
- Torre A., 2009.** Retour sur la notion de Proximité Géographique. Revue Géographie, économie, société, 1 (Vol. 11), 63 -75.
- Wang J., Tang K., Feng K., Lv W. 2020.** High Temperature and High Humidity Reduce the Transmission of COVID-19 (March 9, 2020). SSRN: <https://ssrn.com/abstract=3551767> or <http://dx.doi.org/10.2139/ssrn.3551767>.
- Wang M., Jiang A and al. 2020.** Temperature significant change COVID-19 Transmission in 429 cities. <https://doi.org/10.1101/2020.02.22.20025791>.

Wuhan (entre 19 janvier 2020 au 23 janvier 2020), l'air de la ville était à un stade de pollution élevée.

En Italie, la Lombardie, deuxième grand foyer du coronavirus après Wuhan, est un gros pôle économique. C'est une région fortement industrialisée et la concentration en particules fines y est particulièrement élevée.

Une étude¹ menée par des chercheurs et des médecins de la Société italienne de médecine environnementale ont mis en relation les pollutions de l'air enregistrées par les agences régionales de la protection environnementale fin février et le nombre de contaminations. Ils ont abouti à la conclusion suivante : « Ces analyses semblent donc démontrer que, pour la période 10 - 29 février, des concentrations élevées dépassant la limite de PM10 (particules fines moins de 10 µ) dans certaines provinces du Nord de l'Italie, peuvent avoir boosté la propagation virulente de l'épidémie dans la Plaine du Pô, qui n'a pas été observée dans d'autres zones d'Italie présentant des cas de contagion dans la même période.»

Ainsi, il semble exister un lien entre la pollution particulaire et la propagation du Covid-19. Cependant, la pollution de l'air ne peut être à elle seule responsable. D'autres paramètres le sont autant la démographie, l'activité et bien d'autres facteurs peuvent être mis en cause.

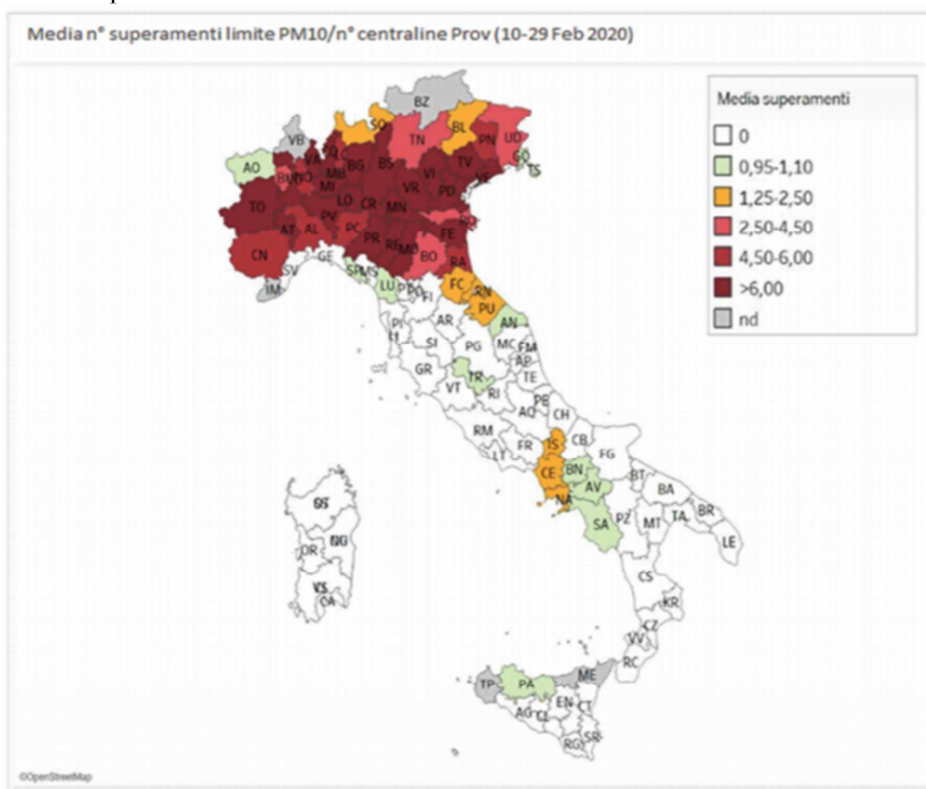
Conclusion

Sans prétendre avoir brossé les principaux facteurs géographiques pouvant avoir une interrelation avec la propagation du Covid-19, il importe de signaler que le mécanisme de diffusion est très complexe et donc du ressort d'études pluridisciplinaires. La géographie a toujours plaider pour une approche globale dans l'analyse des problématiques à composantes spatiales et dans le cas du Covid-19, des analyses spatiales des différents paramètres mis en cause et le croisement spatialisé de ces paramètres peut aboutir à de meilleurs résultats. En fait les facteurs géographiques n'agissent pas individuellement, tous les éléments interagissent dans le même système. L'exercice de croisement des 4 paramètres retenus dans cette étude montre qu'ils ont à bien des égards une influence sur la propagation de la pandémie. Les pays les plus touchés jusqu'à nos jours (Etats-Unis, Chine, Italie, France, Espagne, Allemagne, Royaume Unis.....) sont des pays hyperconnectés au monde, ils se situent sur l'hémisphère nord de la terre où les conditions météorologiques sont plutôt fraîches et aident la diffusion du coronavirus. Ces pays abritent les agglomérations les plus polluées du monde et en plus comptent un taux élevé de populations âgées de plus de 65 ans, supposées fragiles au virus SARS-Cov-2. Au contraire, les pays où ces paramètres ne pèsent pas beaucoup semblent être moins exposés à la grande diffusion de la pandémie. Est-ce une coïncidence ? Certes, ce n'est pas là un résultat définitif, des exceptions par rapport aux deux situations existent, mais tous les éléments de l'analyse sont à

¹ <https://www.actu-environnement.com/media/pdf/news-35178-covid-19.pdf>

6. La part probable de la pollution ?

Les questionnements sur les interactions possibles entre la pollution et la propagation de la maladie du Covid-19 se réfèrent au constat qu'au départ les zones les plus touchées par le fléau correspondaient à des territoires à haut niveau de pollution de l'air. L'Italian Aerosol Society¹ souligne d'un point de vue général ce qui suit : « On sait que l'exposition, plus ou moins prolongée, à des concentrations élevées de particules atmosphériques augmente la sensibilité aux maladies respiratoires chroniques et cardiovasculaires. Ces concentrations élevées sont fréquemment observées au nord de l'Italie, en particulier dans la plaine du Pô, pendant la période hivernale ».



(source : <https://www.actu-environnement.com/media/pdf/news-35178-covid-19.pdf>)

Figure7. Concentration en particules fines (moins de $10\ \mu$) sur le territoire italien (entre le 10 et 29 février)

Si on considère les deux premiers foyers du Covid-19, on remarque que les deux régions sont connues par des taux de pollution élevés notamment en ville. En Chine, Hubei est une province du centre-est de la Chine, elle est peuplée de 59 millions de personnes, sa capitale Wuhan est une métropole de 8,5 millions d'habitants. Selon les données publiées par le Bureau de l'écologie et de l'environnement de Wuhan, au moment de l'éclosion de la maladie du Covid-19 à

tropiques ». Sur la base de ce constat, ces scientifiques ont mené une étude qui a concerné un nombre (100) important de villes chinoises pour évaluer l'intensité de la transmission sous différentes conditions météorologiques. Les résultats obtenus ont été rendu publics le 3 avril dernier sous forme d'une prépublication ; ils montrent que les villes humides et chaudes des côtes Sud-est connaissent une propagation plus rapide de Covid-19 que les villes du Nord sèches et froides (pendant la période considérée par l'étude).

Bukhari Qasim et Jameel Yusuf ¹ ont pré-publié un article (avril 2020) dans lequel ils estiment que le taux de propagation le plus élevé a été enregistré dans des régions et pendant des périodes où la température se situait entre 3 et 17°C, Dans les pays à température moyenne plus élevée (dès 18°) le taux de propagation est plus faible (Bukhari Q. et al., 2020). Les auteurs ont essayé de valider leurs résultats à travers le cas des États unis : en effet, ils ont constaté qu'entre les États du Sud, les moins touchés, et les États du Nord (y compris New York) les plus touchés, se place la Californie, comme zone intermédiaire, avec un taux d'infection intermédiaire.

Dans le même sens, en utilisant des données sur les propagations locales de la maladie Covid-19, jusqu'au 23 mars 2020, Miguel B. Araújo et Babak Naimi ont développé un ensemble de 200 modèles de niche écologique pour projeter la variation mensuelle de la propagation du SRAS-Cov-2 en fonction du climat. Dans leur étude préliminaire, ces chercheurs ont relevé que 95 % des cas d'infection sont situés dans des zones aux températures comprises entre -3° et 10°.

En Italie, un document de l'Italian Aerosol² Society souligne ce qui suit : «Il est possible que certaines conditions météorologiques, typiquement présentes dans le nord de l'Italie pendant cette période, tels que la basse température et l'humidité atmosphérique élevée, peuvent créer un environnement qui favorise la survie du virus».

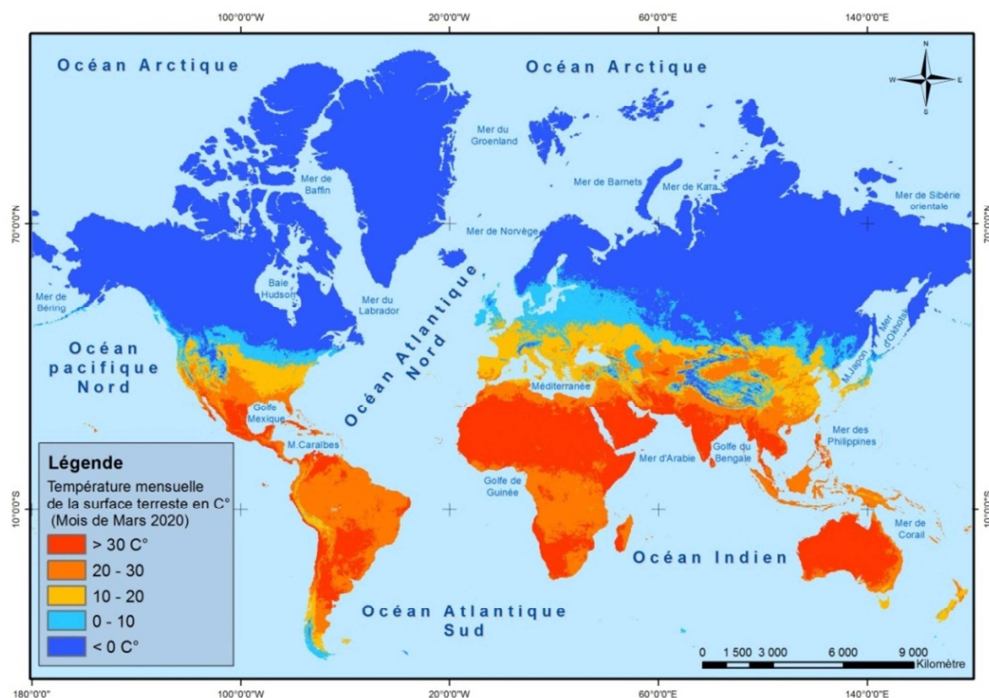
En attendant des études plus poussées sur les rapports entre les facteurs météorologiques et la diffusion de la maladie du Covid-19, on peut dire qu'il y a des éléments tangibles mais pas tout à fait sûr concernant ce qui suit :

- De manière générale, le virus semble se propager plus facilement en conditions d'hiver.
- Une humidité ambiante abondante peut favoriser la transmission du virus,
- Le temps sec et chaud peut constituer des conditions moins favorables à la propagation du virus.

Ceci est attesté partiellement par les cartes de diffusion de la pandémie, reste à mieux asseoir ces hypothèses par des études pluridisciplinaires.

¹ <http://dx.doi.org/10.2139/ssrn.3556998>

² http://www.iasaerosol.it/attachments/article/96/Nota_Informativa_IAS.pdf



Source : <https://search.earthdata.nasa.gov>

Figure 6. Répartition de la température moyenne mensuelle du mois de mars 2020 à l'échelle mondiale

5.2. Éléments d'explication

Comme éléments d'explication, plusieurs études préliminaires (B. et al.2020, Wang M. et al.2020 Wang M. et al 2020. Chin A. et al. 2020) ont établi un lien probable entre la chaleur, l'humidité et la capacité de survie du coronavirus. En fait, tous ces travaux sont des « preprint », non-révisés par les pairs, dont les preuves sont basées sur des résultats préliminaires. Donc, on ne peut prétendre à un lien de causalité bien établi car d'autres facteurs rentrent en ligne.

Des études en laboratoire ont mis SARS-CoV-2 sous différentes conditions de températures ce qui leur a permis de mesurer sa stabilité. Ainsi, dans leurs travaux publiés dans « The Lancet Microbe » le 2 avril 2020, Alex W. Hchin et ses collaborateurs¹ montrent que ce virus est relativement sensible à la chaleur et qu'il est plus stable autour de 4 degrés.

Dans les conditions réelles, les scientifiques des universités de Beijing² en Chine, ont remarqué que «Des preuves indirectes, montrent que jusqu'au 22 mars 2020, 90 % des cas de COVID-19 ont été enregistrés dans des pays non tropicaux à basse température et à faible humidité; beaucoup moins de cas sont enregistrés dans les

¹ [https://doi.org/10.1016/S2666-5247\(20\)30003-3](https://doi.org/10.1016/S2666-5247(20)30003-3)

² <http://dx.doi.org/10.2139/ssrn.3551767>

5. La météorologie : des effets contradictoires sur la Covid-19?

Certes les pandémies relèvent du ressort de la médecine. Mais, il n'est pas interdit dans le domaine de la recherche de réfléchir, de poser des questions et même de formuler des hypothèses. Depuis l'avènement de la crise sanitaire générée par la maladie du Covid-19, bien des chercheurs (B. et al.2020, Wang M. et al.2020 Wang M. et al 2020. Chin A. et al. 2020) citent les facteurs environnementaux et météorologiques comme vecteurs significatifs de la propagation du virus. Cependant, même si le climat a sûrement son rôle à jouer, celui-ci ne peut être déterminé de façon précise, la vigilance doit donc être de mise. Au niveau de cet article, l'objectif est de présenter les fondements de cette hypothèse et de regrouper les éléments factuels qui la sous-tendent ou au contraire la compromettent.

5.1. Le constat

Géographiquement, le lien entre les conditions météorologiques et la propagation du virus se voit à travers la comparaison de la vitesse de propagation de la maladie dans différentes régions du monde et sous différents types de climats. De manière générale, en Asie du sud-est, en Europe et aux états unis, la propagation était plus rapide par des températures froides comprises entre 3°C et 17°C (Bukhari Q. et al., 2020). Les températures plus chaudes n'ont pas empêché la contamination dans l'hémisphère sud (Australie, Afrique), mais la diffusion s'y opère avec une moindre rapidité. Ceci dit, le virus peut donc évoluer sous différentes conditions météorologiques mais sa contagiosité peut être différente suivant ces mêmes conditions.

La carte de la figure 6 montre bien la différence des températures entre les deux hémisphères Sud et Nord, ce qui laisse supposer cette corrélation entre la météorologie et la diffusion du virus SARS-Cov-2.

Miguel B. Araújo et Babak Naimi rapportent¹ dans une prépublication du début avril 2020 ce qui suit : «Bien que des cas de COVID-19 soient signalés dans le monde entier, la plupart des éclosions montrent une tendance de regroupement dans les régions relativement fraîches et sèches. Le SRAS-Cov-1 précédent était lié à des conditions climatiques semblables. Si la propagation du Cov-2 du SRAS continue de suivre les tendances actuelles, on pourrait s'attendre à des éclosions mondiales saisonnières asynchrones. Selon les modèles, les climats tempérés chauds et froids sont plus favorables à la propagation du virus, tandis que les climats arides et tropicaux sont moins favorables. Toutefois, les incertitudes liées au modèle sont encore élevées dans une grande partie de l'Afrique subsaharienne, de l'Amérique latine et de l'Asie du Sud-Est.»

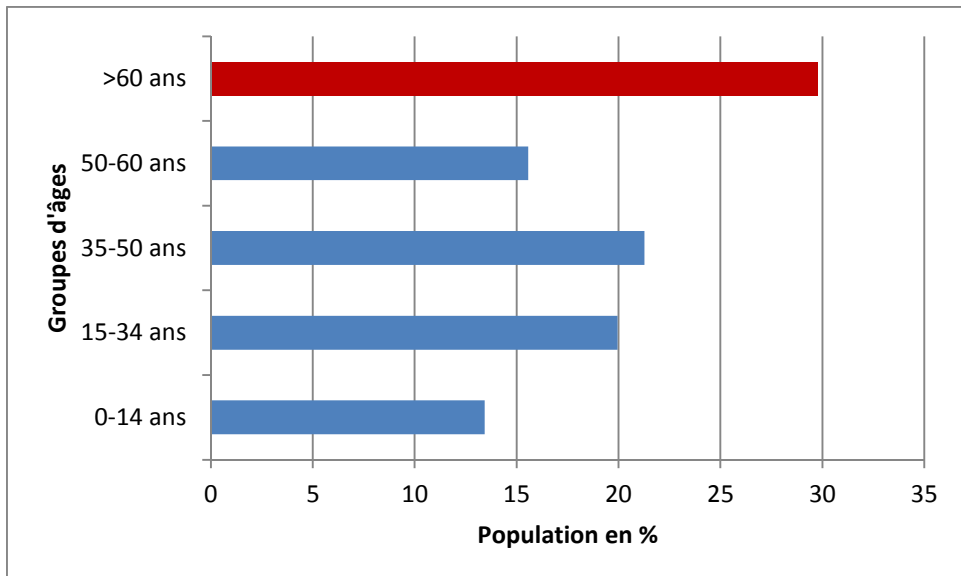
Il importe de noter qu'au moment où le premier cas a été reconnu, Wuhan vivait sa saison d'hiver, où les températures moyennes peuvent varier de 1 à 11 degrés Celsius.

¹ <https://doi.org/10.1101/2020.03.12.20034728>



Source des données : <https://www.worldometers.info/fr/>

Figure5. Répartition à l'échelle mondiale des populations selon les groupes d'âges



Source des données : <https://www.worldometers.info/fr/>

Figure6. Répartition de la population selon des groupes d'âges en Italie

La mobilité, comme facteur de diffusion du Covid-19, est manifestement attestée par le processus de contamination de l'Europe. En effet la phase européenne de la propagation du virus a débuté au Nord de l'Italie, dans la Lombardie. Celle-ci est à la fois un grand pôle économique et une région de forte connexion avec la Chine. En plus, une importante diaspora chinoise a choisi ce territoire pour s'installer en Italie. A contrario, l'Italie du Sud, qui n'entretient pas de relation étroite avec la Chine, s'est trouvée relativement bien à l'abri du fléau.

Sur le continent américain, le coronavirus a commencé à se diffuser dans la région de New York à la mi-février, quelques semaines avant le premier cas confirmé. Il a été introduit par les voyageurs en provenance principalement d'Europe, et non d'Asie. L'hyper-mobilité entre l'Europe et les Etats Unis n'est pas à démontrer. A partir du 11 mars, les Etats Unis ont bloqué les voyageurs de la plupart des pays européens. A Cette date, plusieurs New-Yorkais avaient déjà ramené le virus chez eux.

En Afrique, si on prend le cas du Maroc, la quasi-totalité des cas recensés au début de la crise sont, soit des européens, soit des ressortissants marocains revenant d'Europe ; c'est le cas de tous le Grand Maghreb. Le virus s'est répandu rapidement à travers le monde, entre autres, par le transport aérien.

La géographie de la mobilité est un élément explicatif manifeste de la diffusion du covid-19, notamment au début de son apparition. Le rôle de la mobilité s'est consolidé au fur et à mesure que la contamination avance à l'échelle mondiale. Les politiques de confinement se trouvent donc justifiées.

4. Pyramide des âges : Quel rôle ?

Parmi les facteurs invoqués pour expliquer la diffusion du Covid-19, la pyramide des âges a souvent été citée. Il est admis que ce virus a un taux de contagiosité plus élevé dans la population âgée en raison de sa fragilité. Ainsi, certains continents se trouvent plus concernés que d'autres.

Le paramètre « jeunesse de la population » peut avoir un effet sur la lenteur de la propagation du coronavirus en Afrique : globalement, 45 % de la population a moins de 15 ans. Les «vieux» âgés de plus de 65 ans, et qui constituent un groupe particulièrement à risque vis-à-vis du Covid-19, représentent près de 5 % de la population. A contrario, ce même paramètre est souvent avancé pour expliquer la forte diffusion de la maladie en Italie.

En effet la répartition de la population en Italie montre un important pourcentage des personnes âgées de plus de 60ans (Figure 6). Pourtant ce facteur ne peut pas à lui seul expliquer la fulgurante diffusion du « Covid-19 » au nord de l'Italie, des facteurs locaux sont à mettre en ligne, notamment des rassemblements sportifs. Il est donc important de rester très prudent et nous considérons, comme il a été déjà souligné, que c'est la combinaison de plusieurs paramètres qui explique les différences entre diverses situations.

Dans le cas du Maroc, la proximité du pays par rapport à l'Europe, en plus de la grande mobilité qui caractérise les relations entre ces deux destinations, est un facteur clé de la diffusion de la maladie dans le Pays. La contamination a évolué de la façon suivante :

Date	Nombre de cas	Nationalité	Provenance
02 mars 2020	1	Marocaine	Italie
05 mars 2020	1	marocaine	Italie
10 mars 2020	1	Française	France (touriste)
11 mars 2020	3	Française	France (touristes)
13 mars 2020	2	1 marocaine	Espagne
		1 française	France (touriste)
14 mars 2020	10	8 Marocaines	Espagne, France, Italie
		2 Marocaines	Maroc

Source : communiqués du Ministère Marocain de la Santé

Tableau 1. Evolution des cas de contamination en fonction de leur provenance

Pendant les deux premières semaines de la diffusion de la maladie au Maroc, 18 cas de personnes contaminées par la Covid-19 ont été recensés. La plupart des cas (88%) sont soit des européens, soit des ressortissants marocains provenant de l'Europe (France, Espagne et Italie), c'est dire combien le facteur de proximité mais aussi de la mobilité étaient décisifs dans la contamination du Maroc.

3. L'Hyper-mobilité, un facteur relayeur

A notre sens, la mobilité est un des facteurs clé de la diffusion du coronavirus. Elle a souvent été invoquée pour expliquer les pandémies que l'humanité a connues à travers l'histoire. C'est le cas de la grande peste du XIVe siècle et plus récemment de la prolifération du Sida en Afrique. La diffusion à travers la mobilité a commencé au niveau de la province de Hubei à partir de la ville de Wuhan. En effet, celle-ci est très bien connectée dans sa province et au sein de la Chine et au monde. Elle est dotée d'un aéroport qui a vu voyager 25 millions de passagers en 2018. La ville dispose également d'une gare TGV dotée de 20 voies pour les trains à grande vitesse qui relient les grandes villes du pays et les pays les plus proches (il est à noter que le virus a bénéficié de plusieurs semaines pour se diffuser en Chine alors que le début du confinement à Wuhan et en province de Hubei n'a été effectif que le 23 janvier 2020).

La phase asiatique de la prolifération du Virus a commencé par la déclaration d'un premier cas en Thaïlande le 13 janvier. Les autres pays ont suivi le 20 janvier 2020, la Corée du Sud déclare son premier cas, le 21 janvier Taïwan détecte un premier cas, d'autres pays d'Asie ont été rapidement affectés comme le Japon, Hong Kong, Singapour, etc.

2. La proximité géographique «inaugure» la diffusion

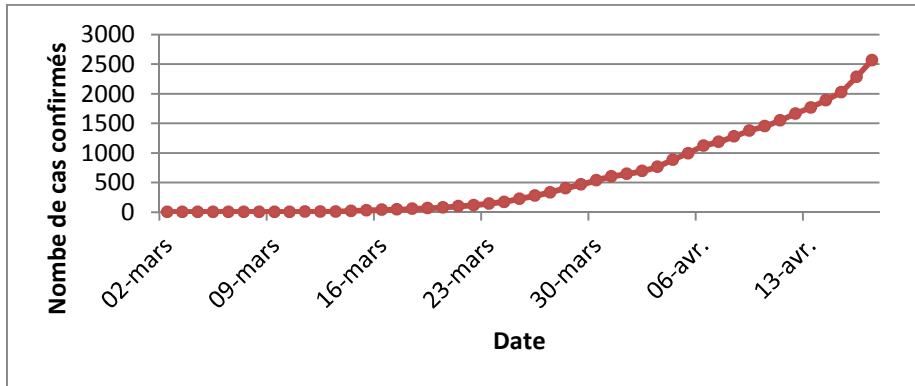
La notion de proximité géographique est considérée ici dans son sens le plus simple qui se réfère au nombre de mètres ou de kilomètres qui séparent deux entités. Mais il importe de signaler qu'elle est impactée par la disponibilité et le type d'infrastructures de transport disponible. L'existence d'une liaison aérienne va permettre un temps d'accès moins long que celui d'une route ou d'une ligne de train.



Source : Gouvernement chinois d'après « New York Times » (carte modifiée).

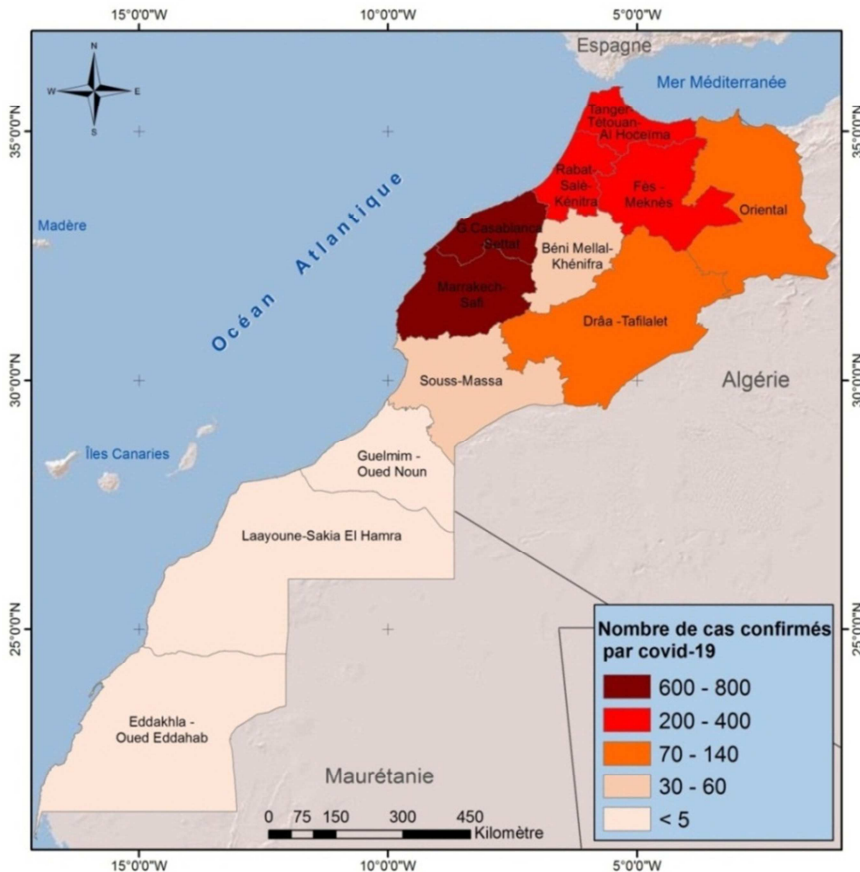
Figure4. La proximité géographique comme facteur de dissémination de Covid-19

Le premier cas de Coronavirus au monde a été détecté le 17 novembre 2019 chez des personnes travaillant au marché de gros de fruits de mer de Huanan à Wuhan (province de Hubei) en Chine Centrale. Le 13 janvier, La Thaïlande, pays proche de la Chine, déclare le premier cas enregistré hors le pays d'origine. Durant tout le mois de janvier, plusieurs pays proche de la chine déclarent leur premier cas (figure 4). Il s'agit du Japon, de la Corée du Sud, de Taïwan, de Singapour, et du Viet Nam. Ce sont des pays voisins de la Chine ; la proximité est ainsi confirmée comme facteur de diffusion du virus, notamment, dans ses débuts.



Source des données : Ministère de la Santé, Maroc.

Figure 2. Progression des contaminations au Maroc à la date du 17/04/2020



Source des données : Ministère de la Santé, Maroc.

Figure 3. Géographie des cas de contamination par la Covid-19 au Maroc (à la date du 17avril 2020)

Ceci dit, ce qui nous intéresse au niveau de cet article c'est la part des paramètres géographiques dans l'explication de la particularité africaine, à savoir, les trois derniers facteurs (en plus du facteur pollution atmosphérique) sur lesquels nous reviendrons dans les pages qui suivent.

1.3. A l'échelle du Maroc

Le Maroc, comme la plupart des pays du monde, est mis à l'épreuve par la pandémie du Covid-19. A la date du 17 avril 2020, le Maroc compte 2564 cas confirmés, c'est-à-dire près de 70 cas par 1 million de population.

Comme partout ailleurs, le Maroc a pris des décisions très importantes, à tous les niveaux (médical, social, économique...) pour contrecarrer ce fléau.

Mais, plusieurs faits caractérisent la propagation de la maladie au Maroc, dont les suivants :

- Le premier cas confirmé détecté au Maroc date du 2 mars 2020, c'est à dire plus de 4 mois après que la maladie ait été détectée en Chine, le 17 novembre 2020. Ceci peut être en relation avec des relations encore limitées entre la Chine et le Maroc.

- Le premier cas confirmé est un homme de nationalité marocaine revenant d'Italie. Ceci atteste que la contamination au Maroc a été opérée via l'Europe et non directement via la Chine.

- la progression de la Pandémie au moins à ses débuts se caractérise par une certaine lenteur comme le montre la figure 2. Au Maroc entre le premier cas confirmé détecté et le cas 2000, il a fallu 44 jours alors qu'en Italie, par exemple, entre les premiers cas détectés le 28 janvier et le cas 2000, la propagation n'a nécessité que 32 jours. Peut-on en comprendre que les conditions locales (au sens général du terme) n'offrent pas un support propice à la diffusion du virus SARS-Cov-2. Pourtant, on croyait que l'Afrique, en général, serait un terrain de prédilection pour le virus eu égard aux innombrables défaillances de ce continent.

A la date du 17 avril 2020, la distribution géographique des cas de contamination par la Covid-19 (figure 3) montre ce qui suit :

- la quasi-totalité des contaminations se concentre dans la moitié Nord du pays, notamment la façade atlantique ;

- les provinces sahariennes sont curieusement très faiblement touchées, peut-on présager un effet de la météorologie ;

- une concentration dans les deux régions les plus connectées au monde, la région de Casablanca Settat et la région de Marrakech-Safi. Elles sont suivies par les trois pôles dynamiques du Royaume qui sont les régions de Rabat-Salé-Kénitra, Fès Meknès et Tanger-Tétouan-Al Hoceima ;

- les régions les plus touchées sont les plus peuplées du Maroc, avec des densités qui oscillent entre 350hab/km² dans la région de Casablanca-Settat et 105hab/km² dans la région de Fès-Meknès.

- A l'échelle des continents, la carte montre trois grands foyers du coronavirus, l'Asie, l'Europe et l'Amérique du Nord. Curieusement, l'Afrique, le continent supposé le plus vulnérable à bien des égards est le moins touché, au moins, à la date du 17/04/2020.

- La diffusion du coronavirus dans l'espace n'est pas homogène, la carte montre que c'est une maladie qui est plus ou moins concentrée spatialement, tant à l'échelle des continents que des pays. L'hétérogénéité spatiale se relève même à l'intérieur de chaque pays.

- A l'échelle des pays, on énumère plusieurs foyers, le premier est celui de la chine, qui a connu le déclenchement de la maladie. Cependant tous le territoire chinois n'a pas été affecté avec le même degré de sévérité. Wuhan, située dans la province d'Hubei, a été la plus investie par la maladie. En Italie, c'est la Lombardie, située au Nord du pays, qui a enregistré le plus de cas. En France, le Nord-Est a été le plus affecté. Au Maroc, La frange atlantique est la plus concernée. Aux Etats unis, la ville de New York est le cluster de la maladie.

1.2. Le cas de l'Afrique

Même pour un non-spécialiste des cartes, une simple lecture de la carte de la figure 1, permet de relever le cas particulier de l'Afrique. Après 5 mois du déclenchement de la maladie du Covid-19 (la maladie a été détectée le 17 novembre 2020), l'Afrique avec l'Océanie semblent beaucoup moins affectées par le virus que les autres coins du monde. A la date du 17 avril 2020, les chiffres disponibles font état d'un millier de décès pour 19 334 cas détectés en Afrique. Le monde déplore au moins 150 147 de décès à cette même date. L'Afrique est le continent le moins touché par la pandémie. Parmi les pays les plus concernés, il importe de citer l'Algérie qui a enregistré le plus grand nombre de décès (364), l'Egypte (205), le Maroc (135) et l'Afrique du Sud (50). Les chiffres ne sont pas significatifs dans les autres pays.

Cette situation a interpellé bien des chercheurs. Que doit-on retenir comme enseignement de ce constat. Certes, il est très difficile d'avancer des hypothèses probantes en l'absence d'études poussées, mais ces chiffres nous sollicitent à poser la question d'une possible résistance meilleure des pays de l'Afrique par rapport à ce fléau. En fait, Les raisons (sans preuves scientifiques) avancées dans la littérature sur la «particularité» africaine sont multiples, nous citons les suivantes:

- l'immunité, grâce aux grand nombre de vaccins que les populations ont dû subir pour se protéger des nombreuses maladies qui ont investi le continent, notamment, la tuberculose, l'Ebola, le Sida ;
- la faible connexion de l'Afrique avec la Chine et le reste du monde ;
- la jeunesse des populations;
- le rôle de la météorologie.

populations. A l'échelle nationale nous utiliserons les informations émanant du Ministère marocain de la santé. A partir donc d'une spatialisation des données, l'étude tente d'aller au-delà de l'utilisation de la carte comme moyen d'illustration et de la concevoir plutôt comme un outil d'investigation.

1. Etat des lieux de la Pandémie

1.1. A l'échelle mondiale

Les dernières statistiques (17 avril 2020) du Centre pour la science et l'ingénierie des systèmes (CSSE) de l'Université Johns Hopkins de Baltimore relatives à la pandémie de Covid-19 font état d'un nombre de contaminations au coronavirus de l'ordre de 2.159.450 personnes. La quasi-totalité du globe est affectée, soit 185 pays, 145.568 personnes sont décédées, tandis que 549.592 autres ont guéri. Les pays les plus touchés sont: les Etats-Unis (671.425 cas), l'Espagne (184.498 cas), l'Italie (168.941 cas), la France (147.091 cas), l'Allemagne (137.698 cas), le Royaume-Uni (104.148) et l'Iran (77.995). Ces chiffres vont évoluer dans les prochaines semaines.

Pour visualiser ces différenciations spatiales, la cartographie s'impose comme moyen incontournable. La carte de la figure 1, permet de lire les niveaux de contamination des différents pays. Quelle lecture peut-on donc faire de cette carte ?

- D'abord à l'échelle du globe, l'hémisphère nord apparaît bien plus affecté que le sud par cette pandémie. Ce n'est pas une conclusion définitive car l'évolution de la pandémie n'est pas encore terminée.



Figure1. Etat des lieux de la Pandémie Covid-19 à la date du 17/04/2020

grande vitesse à laquelle se propage le virus SARS-Cov-2 (SARS: syndrome respiratoire aigu sévère). Les experts épidémiologiques s'accordent à expliquer ce fait par :

- le taux de contagion de ce coronavirus qui est particulièrement élevé. Le nombre moyen de personnes pouvant être infectée par une personne porteuse du virus est nettement plus élevé que pour d'autres infections virales comme la grippe ;
- le fait que Covid-19 est un nouveau virus. Par conséquent, il se propage dans une population non immunisée, sans aucune protection.

Ceci dit, une telle expansion mondiale ne peut être expliquée uniquement par ces deux éléments, d'autres facteurs rentrent en ligne, en l'occurrence les facteurs géographiques dont il sera question dans cet article.

A l'occasion de cette pandémie de Covid-19 et parallèlement à sa propagation, un nombre important de sites internet a vu le jour et essaie de suivre, en temps réel, la prolifération de la maladie aux quatre coins du monde. En plus des données numériques qu'ils proposent, ces sites produisent et affichent des cartes interactives, particulièrement populaires ces dernières semaines. Les utilisateurs sont de plus en plus nombreux à suivre la propagation du virus pour s'informer. Ces cartes sont, également, reprises par les différents médias qui, eux aussi, s'activent à illustrer les nouvelles informations qu'ils diffusent.

En fait, derrière ces sites, il y a un grand travail réalisé par des équipes d'experts qui sont, soit affiliées à des établissements, soit indépendantes. Mais, les différentes restitutions proposées sont plutôt des illustrations qui expriment les données par les cartes. Il manque donc tout un travail de lecture, d'analyse et de synthèse à faire. Je crois que c'est du ressort des géographes, entre autres, d'exploiter cette énorme masse d'information disponible sur ces sites. L'analyse des données, la lecture des cartes mais aussi la réalisation de différents croisements d'informations spatialisées doit, en principe, conduire à des remarques et à des pistes de réflexions sur différents aspects de ce fléau qui frappe l'humanité toute entière.

Dans ce travail, il est question, de présenter la géographie de la pandémie et d'analyser sa propagation et son état actuel et avancer des remarques préliminaires via des croisements de la situation actuelle avec d'autres paramètres tels que l'hypermobilité, la démographie, les conditions météorologiques et le taux de pollution. L'étude, bascule entre plusieurs échelles mondiale, continentale et nationale. Il s'agit de caractériser l'état actuel de la maladie et de chercher des éléments géographiques, à même d'expliquer, en partie, sa propagation.

Pour ce faire, l'étude utilise les données du site «[Worldometers.info](https://www.worldometers.info/)» qui met à disposition du grand public des statistiques à l'échelle mondiale. Ces données, selon le site lui-même, proviennent «des organisations et bureaux de statistiques les plus réputés au monde». Concernant la Covid-19 ([Worldometers.info/coronavirus/](https://www.worldometers.info/coronavirus/)), le site actualise ses données chaque jour et présente en plus du nombre de nouveaux cas confirmés, le nombre de décès, le nombre de tests effectués, le nombre de personnes guéris et bien d'autres informations dont nous soulignons le nombre de décès par rapport à 1 million de

LA PROPAGATION DU COVID-19 ECLAIRÉE PAR LA GEOGRAPHIE : REMARQUES PRELIMINAIRES

Jamal AL KARKOURI & Said EL HOUYR

Université Ibn Tofail, FLSH, Kénitra
alkarkouri.jamal@uit.ac.ma / said.elhouyr@uit.ac.ma

ملخص

يعيش العالم على وقع تفشي مرض كوفيد-19 الذي يسببه أحد أنواع الفيروسات التاجية المعروفة بـ كورونا. وقد انطلق هذا المرض، نهاية سنة 2019، من هوباي إحدى مقاطعات الصين. منذ هذا التاريخ، انتشر الوباء بسرعة أذهلت العالم وفرضت على المنظمة العالمية للصحة أن تعلن هذه العدوى جائحة عالمية وقد تعددت استراتيجيات مواجهتها بتعدد الدول. على مستوى آخر، شكلت الآفة تحدياً للبحث العلمي الذي يحاول جاهداً أن يفهم هذا الوباء بشكل أفضل سواء من أجل محاربته أو من أجل استخلاص العبر لمواجهة مثل هذه الجوائح في المستقبل. في هذا المقال نحاول أن نقدم ونحلل بعض العناصر الجغرافية التي قد تساهم في تفسير الانتشار السريع لهذا الوباء من جهة وفهم اختلاف حدته المحلية من جهة أخرى. لهذا الغرض اعتمدنا على مجموعة من المعطيات التي تتيحها بعض المواقع الإلكترونية التي تتبع فوراً تطور المرض عبر أرجاء العالم، بالإضافة إلى معطيات وزارة الصحة المغربية.

الكلمات المفتاحية: كوفيد-19، التوزيع المجالي، الخرائطية، العوامل، المغرب، العالم.

Résumé

Le monde vit au rythme de la propagation de la maladie de Covid-19 causée par un type de coronavirus. Cette maladie, qui est apparue fin 2019, a été détectée pour la première fois à Hubei, une province de la Chine. Depuis, l'épidémie s'est propagée rapidement et a surpris le monde entier au point de contraindre l'organisation mondiale de la santé à qualifier cette maladie de pandémie. Pour y faire face, les stratégies se sont multipliées selon les pays. D'un autre côté, ce fléau a mis en défi la recherche scientifique, celle-ci s'efforce à mieux comprendre l'épidémie tant pour la combattre que pour en tirer des leçons pour faire face à de telles fléaux à l'avenir. Dans cet article, nous essayons de présenter et d'analyser certains éléments géographiques qui peuvent contribuer à expliquer, d'une part, la propagation rapide de l'épidémie et, d'autre part, comprendre la variation spatiale de son intensité. À cette fin, nous nous sommes appuyés sur une série de données fournies par certains sites Web qui suivent l'évolution de la maladie dans le monde, ainsi que sur les données du Ministère marocain de la Santé.

Mots-clés : Covid-19, spatialisation, Cartographie, facteurs, Maroc, Monde.

Introduction

Le 11 mars 2020, l'OMS (Organisation Mondiale de la Santé) a qualifié la Covid-19 de «pandémie», trois mois après l'apparition de la maladie. Ceci atteste de la

- 8- Désinfecter les moyens de transport lors de déplacement à l'intérieur d'une région et limiter les déplacements d'une région à l'autre.
- 9- Mettre à la disposition de la population du matériel de désinfection (Gel, alcool, savon, désinfectant) et de protection (masques et gants) partout (administration, grandes surfaces, usines, sociétés ...) et pour tous.

Références Bibliographiques

- Chan JF-W, Yuan S, Kok K-H, To KK-W, Chu H, Yang J, et al.** 2020. A familial cluster of pneumonia associated with the 2019 novel coronavirus indicating person-to-person transmission: a study of a family cluster. *The Lancet*;395(10223):514/23.
- Chen N, Zhou M, Dong X, Qu J, Gong F, Han Y, Qiu Y, Wang J, Liu Y, Wei Y, Xia J, Yu T, Zhang X, Zhang L.**2019. Epidemiological and clinical characteristics of 99 cases of 2019 novel coronavirus pneumonia in Wuhan, China: a descriptive study. *Lancet* 2020; 140-6736(20)30211-7.
- Eco-Actu - COVID-19 AU Maroc. 2020 (b).** Le bon choix du confinement précoce.<https://www.ecoactu.ma/covid-19-au-maroc-le-bon-choix-du-confinement-precoce/>
- Hui, D. S. et al.** 2020.The continuing 2019-nCoV epidemic threat of novel coronaviruses to global health—the latest 2019 novel coronavirus outbreak in Wuhan, China. *Int. J. Infect.* 91, 264–266.
- Huijun Chen, Juanjuan Guo, Chen Wang et al.** 2020.Clinical characteristics and intrauterine vertical transmission potential of COVID-19 infection in nine pregnant women: a retrospective review of medical records. *The Lancet - VOLUME 395, ISSUE 10226, P809-815, MARCH 07, 2020. Published:February 12, 2020 DOI: https://doi.org/10.1016/S0140-6736(20)30360-3*
- Le Monde.** 2020. L'OMS met en garde contre les « passeports immunitaires », faute de données suffisantes sur les risques de réinfection. [Le Monde avec AFP Publié samedi 25 avril à 18h20] - https://www.lemonde.fr/planete/article/2020/04/25/l-oms-met-en-garde-contre-les-passeports-immunitaires-faute-de-donnees-suffisantes-sur-les-risques-de-reinfection_6037775_3244.html
- Ministry of Health of Morocco (c).** 2020. <https://www.sante.gov.ma/Pages/Communiqués.aspx?IDCom=0>
- Rhote C., Schunk Kh., Sothman p., et al.** 2020. Transmission of 2019-nCoV Infection from an Asymptomatic Contact in Germany (2020). *Transmission of 2019-nCoV Infection from an Asymptomatic Contact in Germany. N Engl J Med*; 382:970-971.
- World Health Organization (a). Pneumonia of unknown cause – China.** 2020. <http://www.who.int/csr/don/05-january-2020-pneumonia-of-unkown-cause-china/en/>
- World Health Organization (b).** 2020. Coronavirus Disease 2019 (COVID-19): Questions and Answers. <https://www.who.int/fr/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public/q-a-coronaviruses#:~:text=symptomes>.

Un déconfinement hâtif et sans précautions nécessaires risque d'entraîner un retour en force et donc plus sévère de l'épidémie. Une telle action consiste à accepter d'en payer le coût en vies humaines, avant d'atteindre rapidement l'immunité naturelle de la population. Mais, le Maroc a choisi de préserver l'aspect humain face à celui de l'économique. D'ailleurs, pratiquement tous les pays qui avaient fait le choix de l'économique se sont vite ravisés d'un choix politiquement insoutenable (Eco-Actu - COVID-19 au Maroc (a). 2020).

L'épidémie de coronavirus a tué plus de 200 000 personnes dans le monde et n'est pas encore éteinte faute de vaccin et de traitement efficace confirmé. De plus, l'organisation mondiale de la santé a souligné, vendredi 24 avril, qu'il n'existait aucune preuve qu'un patient guéri du Covid-19 soit immunisé et a alerté sur le manque de fiabilité de certains tests (Le Monde avec AFP Publié samedi 25 Avril 2020). « La plupart des études montrent que les personnes qui sont guéries [du Covid-19] ont développé des anticorps », écrit l'OMS. « Mais certaines de ces personnes ont des niveaux très faible d'anticorps dans le sang. Aucune étude n'a permis d'établir si la présence d'anticorps est suffisante pour empêcher une nouvelle infection. ». L'OMS alerte également sur les fortes incertitudes quant à la précision des tests utilisés pour déterminer si une personne a été infectée par le coronavirus.

Le Maroc sera tôt ou tard amené à se confronter à l'épidémie si le virus ne se dissipe pas naturellement au cours des mois chauds de l'année. Par conséquent, une bonne préparation du déconfinement sera nécessaire pour limiter les dégâts causés par le virus dans l'attente d'un traitement efficace ou un vaccin. Nous suggérons certains points importants dans l'accompagnement du déconfinement :

- 1- Tester systématiquement tout individu suspecté d'être contaminé et son entourage, et mise en quarantaine de ces cas.
- 2- Développer les moyens de traçabilité des personnes ayant été en contact de personnes contaminées.
- 3- Prévoir des projections régulières de l'incidence, de la létalité et de la mortalité tenant compte des diverses mesures appliquées lors du déconfinement.
- 4- Instaurer la distanciation sociale dans toutes les activités administratives, économiques ou toutes activités pouvant regrouper plusieurs personnes. (La distance de plus de 2 mètres est conseillée).
- 5- Légiférer le port des masques (pour tous et partout) qui doit être obligatoire dans toutes les activités de la population, moyen supplémentaire pour freiner la vitesse de propagation du virus.
- 6- Renforcer les actions de sensibilisation IEC (Information – Education – Communication) par tous les moyens de communication possibles en insistant sur les gestes à éviter pour limiter l'infection virale.
- 7- Désinfecter les lieux publics quotidiennement avant l'ouverture et après la fermeture.

négatifs du dépistage effectué. Un solide dispositif de lutte contre la propagation du virus a été instauré dès l'apparition de la maladie.

Le Maroc a été touché par l'épidémie liée au Covid-19, le 02 Mars 2020, soit deux mois après l'apparition des premiers cas groupés de pneumonie sévère à Wuhan en Chine (31 décembre 2019) et l'identification en cause du nouveau type de coronavirus, Covid-19 (7 janvier 2020). Un plan national COVID-19 a été immédiatement instauré et se base sur 4 axes principaux :

- La veille et la surveillance de l'épidémie
- La prise en charge des cas contaminés et la lutte contre la propagation du virus
- La gouvernance et la coordination des actions
- L'information et la communication

Les premiers cas importés ont été détectés à partir du 02 mars 2020 et le premier cas d'infection secondaire au Maroc a été signalé le 13 mars 2020, soit 11 jours après l'introduction du virus au Maroc. Diverses actions ont été ainsi entreprises dans le cadre du plan national Covid-19. C'est ainsi, qu'il a été décidé de fermer toutes les frontières aériennes, maritimes et terrestres du pays le 15 mars 2020, d'arrêter les études pour tous les niveaux scolaires et universitaires le 16 mars 2020; d'installer une distanciation sociale progressive de la population par interdiction des réunions dépassant 50 personnes, fermeture des cafés, restaurants, port de masques obligatoire.... Le 20 mars 2020, le Maroc a déclaré l'état d'alerte sanitaire et le confinement total de la population exception faite pour certaines conditions particulières (approvisionnement, travail, médication). Ces différentes mesures ont permis un ralentissement de la vitesse d'apparition des nouveaux cas. En effet, il est important de noter que jusqu'à présent, la situation au Maroc reste contrôlable. Le bilan reste très rassurant en comparaison à l'évolution des situations dans divers pays du monde d'autant plus qu'il est aussi question de dépistage massif avec l'objectif de 10.000 tests par jour incessamment.

Cependant, il faut signaler que notre pays est le 3^{ème} pays le plus touché en Afrique après l'Egypte et l'Algérie.

Plusieurs études estiment que le modèle de confinement permet uniquement un aplatissement de la courbe de l'épidémie et le ralentissement de la vitesse de propagation du virus. L'objectif est d'assurer l'efficacité du contrôle du système sanitaire et d'éviter que les capacités hospitalières du pays pour l'accueil des patients ne soient atteintes.

Le déconfinement est une nécessité afin de permettre à la population d'acquérir progressivement une immunité collective. Ceci, dans l'attente d'un traitement efficace, mais surtout la mise au point d'un vaccin contre le Covid-19. Ce processus peut prendre plusieurs mois, voire même, plusieurs années, la distanciation sociale reste une approche efficace pour limiter la propagation du virus.

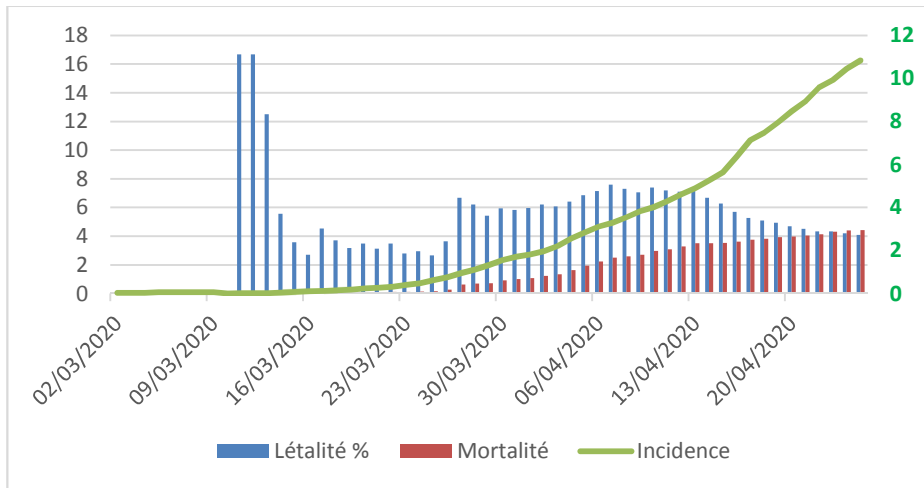


Figure 5 : Évolution de l'incidence et de la mortalité (pour 100.000 habitants) et de la létalité générale (pour 100 cas d'infection) au cours du temps exprimé en jours au cours de la période du 02 mars 2020 au 25 avril 2020.

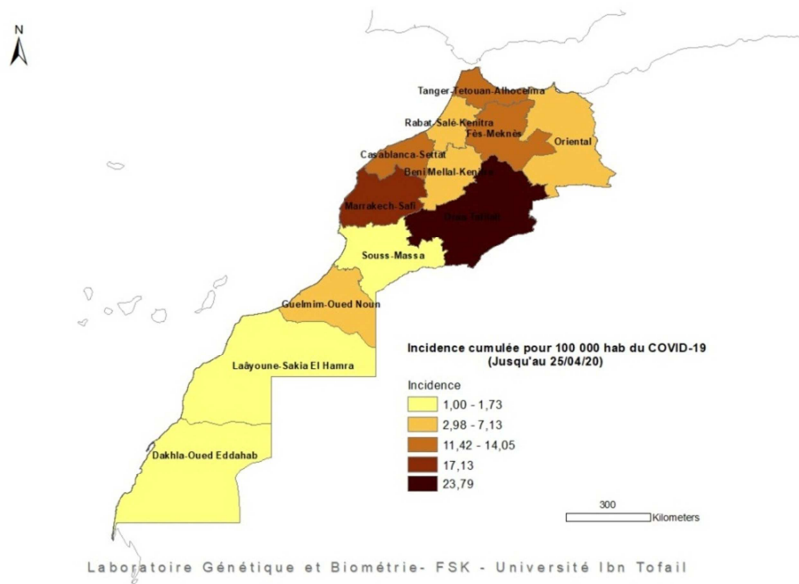


Figure 6. Incidence cumulée pour 100.000 habitants des cas du Covid-19 à la date du 25 avril 2020.

sanitaire a été décrétée le 20 mars 2020 et le confinement généralisé est entré en vigueur depuis le 25 mars 2020.

Les statistiques du Ministère de la santé comptent actuellement (25 avril 2020) 3897 cas confirmés, 537 guéris, 159 décès et 21546 cas exclus suite à des résultats

En ce qui concerne le nombre de cas de décès, la moyenne étant de 5,68 cas et le plus grand nombre de décès a été observé le 27 mars 2020 avec 13 cas. Notons que ce nombre observe une diminution significative au cours de ces derniers jours.

Contrairement au nombre de décès, le nombre de guérison connaît une augmentation de jour en jour. La moyenne du nombre de guéris est de 9,76 cas par jour, avec un mode de 51 guérisons observées le dernier jour de la période d'étude considérée.

La répartition des cas confirmés de l'infection covid-19 en fonction des 12 régions administratives du Maroc est représentée sur la figure 4 ci-dessous.

A la lumière de cette distribution régionale des cas cumulés, on note que ce sont les régions de Casa-Settat et Marrakech-Safi qui enregistrent le plus grand nombre de cas avec respectivement 1041 et 818 cas, ce qui représente environ 48% de l'ensemble des cas confirmés au Maroc. Les régions de Fès-Meknès, Tanger-Tetouan-Al-Hoceima et Draa-Tafilalt viennent juste après, avec un nombre de cas respectifs de 503, 502 et 403.

Les régions du sud restent les moins touchées par l'épidémie. C'est ainsi que Laayoune-Sakia-el Hamra et Dakhla-Oued ed Dahab ont enregistré respectivement 4 et 2 cas confirmés du Covid-19.

Sur la figure 5 ci-dessous, nous avons représenté, l'incidence et la mortalité exprimées pour 100.000 habitants et la létalité générale exprimée en pourcentage.

Ces résultats montrent que l'incidence augmente régulièrement en passant de 0,03 cas pour 100.000 à 10,84 pour 100.000 habitants avec une moyenne de 2,76 cas confirmés par jour et par 100.000 habitants.

La mortalité évolue de manière comparable que l'incidence avec un taux allant de 0 à 4,42 pour 100.000 habitants. Enfin, le pourcentage de létalité connaît une nette diminution au cours du temps allant de 0 à avec une moyenne de 4,9%. Le pic du taux de létalité était enregistré le 11 et le 12 mars 2020. Le taux minimum de létalité est observé le 25 avril 2020 et est de 4,1%.

La cartographie régionale de l'incidence (Figure 6), montre que le taux d'incidence le plus élevé est relevé dans la région de Draa-Tafilelt suivie de Marrakech-Safi avec 23,8 et 17,1 cas confirmés pour 100.000 habitants. Les régions de Laayoune-Sakia el Hamra et Dakhla-Oued ed Dahab présentent une incidence ne dépassant pas 2 pour 100.000 habitants.

Discussion et conclusions

Au Maroc, la pandémie du nouveau coronavirus reste très contrôlée et son évolution reste très limitée grâce à un solide dispositif d'actions mises en œuvre par le plan national de veille et de riposte au Covid-19. Ce plan national vise à détecter précocement les cas et contenir la propagation du virus et organiser une réponse nationale adaptée à notre système de santé. C'est ainsi que l'état d'urgence

Ces résultats montrent que la propagation du virus reste lente et assez contrôlée, avec une moyenne journalière de 70,85 cas. Le pic de l'épidémie a été enregistré le 17 avril 2020 avec une valeur modale de 281 cas d'infections confirmées.

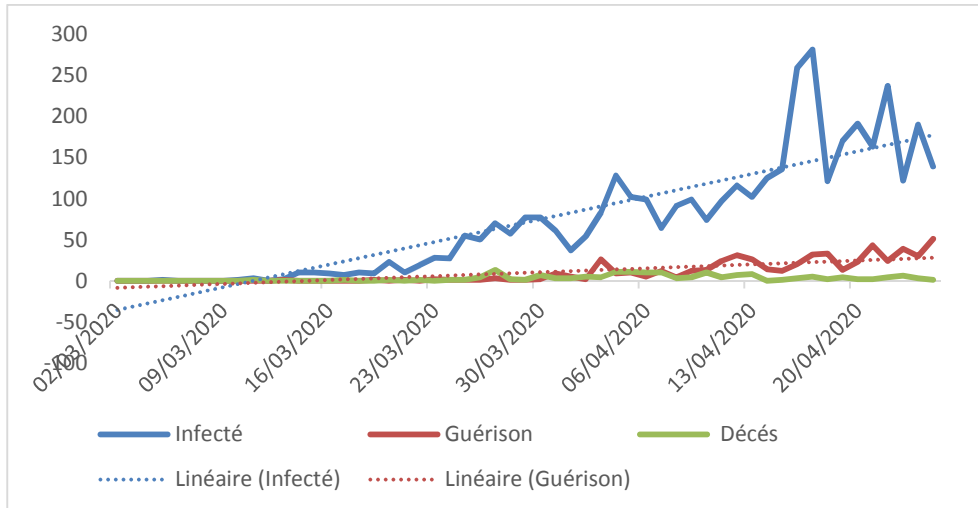


Figure 3. Évolution du nombre de cas infectés, des cas de guérison et de décès exprimé en jours au cours de la période du 02 mars 2020 au 25 avril 2020.

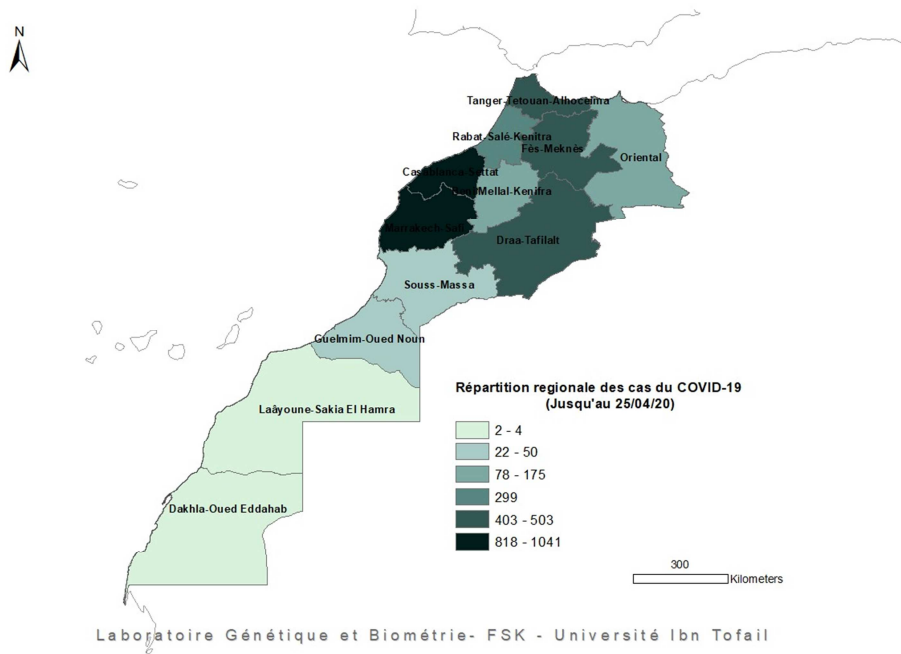
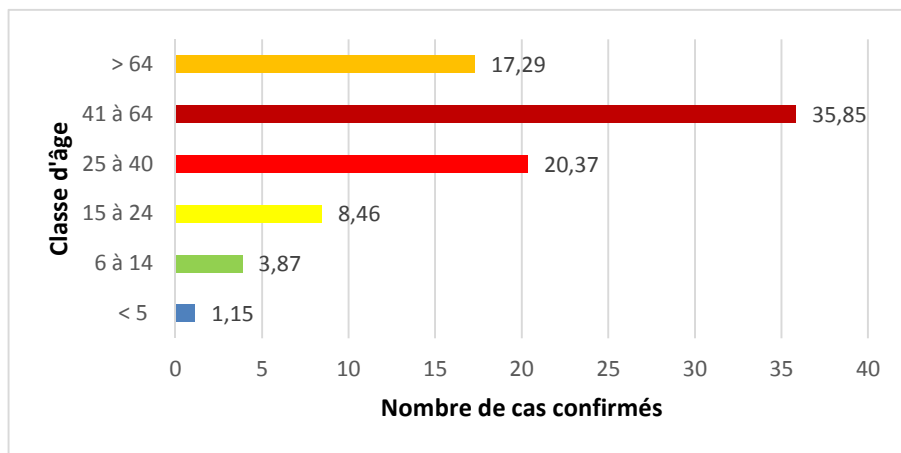


Figure 4 . Répartition régionale des cas cumulés du Covid-19 à la date du 25 avril 2020.

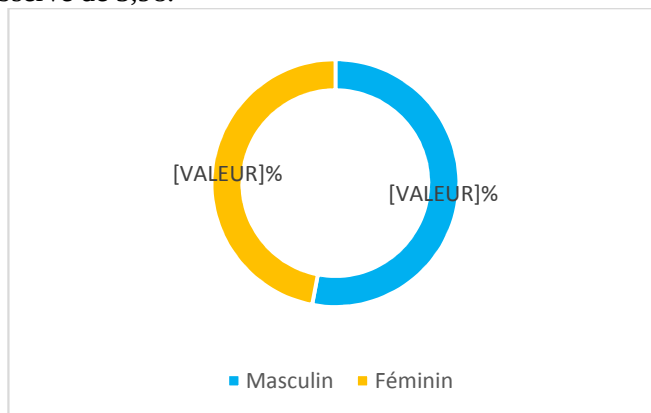
ans. Ceci pourrait probablement être lié au fait que cette classe correspond à la catégorie la plus active de la population.



Source des données Ministry of Health of Morocco (a).2020

Figure 1 . Répartition des cas cumulés de Covid-19 confirmés selon la classe d'âge, au cours de la période du 02 mars 2019 au 11 avril 2020 [8].

La distribution selon le sexe, au cours de cette même période, des cas confirmés du Covid-19, est représentée sur la figure 2 et montre que ce sont les hommes qui sont plus touchés que les femmes avec un sex-ratio H/F de 1,13 en faveur du sexe masculin. La différence entre les deux sexes étant significative au seuil de 2%, avec un χ^2 observé de 5,98.



Source des données Ministry of Health of Morocco (a).2020

Figure 2 : Répartition des cas cumulés de Covid-19 confirmés selon le sexe, (02 mars 2019 au 11 avril 2020)

La figure 3 ci-dessous représente l'évolution du nombre de cas infectés, du nombre de cas guéris et des cas de décès depuis la détection du virus jusqu'au 25 avril 2020.

cas cumulés par région en vue de caractériser la vitesse de propagation du virus au cours de la période d'étude et de se préparer au déconfinement prévu le 20 Mai 2020.

Données et méthodes

Les données que nous avons utilisées dans ce travail sont celles qui sont publiées quotidiennement par le Ministère de la santé (Ministry of Health of Morocco (a).2020). Ces données concernent particulièrement le nombre de cas infectés, le nombre de décès et le nombre de guérisons depuis l'apparition du premier cas importé le 02 mars 2020 jusqu'au 25 avril 2020.

Nous avons procédé à une analyse statistique simple utilisant le calcul des caractéristiques de position (moyenne, écart-type, mode ...) et les indicateurs de suivi de l'épidémie classiques tels l'incidence, la létalité et la mortalité.

La distribution des cas dans la population marocaine a été évaluée par le calcul des indicateurs de santé pour la période d'étude considéré. Le taux de mortalité (exprimé pour 100.000 habitants) est ainsi calculé par le rapport entre nombre cumulé des cas de décès dû au covid-19 sur la population totale au temps t, le taux de létalité correspond au rapport entre nombre cumulé des cas de décès sur le nombre de cas confirmés (exprimé pour 100 cas confirmés), enfin le taux d'incidence (exprimé pour 100.000 habitants) est calculé par le rapport entre le nombre de cas confirmés covid-19 et la population totale au temps t.

Pour déterminer ces taux, nous avons fait appel au recensement de 2014, des rétroprojections et des projections de la population et de l'enquête nationale démographique à passages répétés établies par le Haut-Commissariat au Plan du Maroc [Haut-Commissariat au Plan du Maroc] 2009 Centre National de Documentation www.hcp.ma/Demographie-population. (Consulté le 09/03/2015)].

La cartographie du nombre de cas confirmés et de l'incidence a été réalisée par le logiciel ArcGIS 9.3.

Résultats et Interprétations

A la date du 25 avril 2020, Le Ministère de la Santé du Maroc a recensé 3897cas confirmés d'infection et 159 décès, avec un taux de létalité moyen de 4,1%. Il est important de souligner qu'au début de l'épidémie, le dépistage du COVID-19 était effectué uniquement par deux établissements. Par la suite, et afin d'augmenter le taux de dépistage du virus COVID-19, le Ministère de la Santé a ouvert d'autres centres à partir du début avril 2020, dans différentes régions du pays.

La figure 1, ci-après représente la distribution des cas cumulés d'infection au Covid-19 selon les classes d'âge entre le début de l'épidémie jusqu'au 11 avril 2020 (Ministry of Health of Morocco (a).2020)

Ces résultats montrent que plus de 53% des cas confirmés sont des adultes dont l'âge est supérieur à 40 ans. Les enfants et les adolescents sont les moins touchés par la propagation du virus, alors que le mode correspond à la classe d'âge [40-64]

politique de réduction de la vitesse de transmission et peuvent constituer un atout de préparation au déconfinement.

Mots-clés : Covid-19, Epidémiologie, Cartographie, confinement, Maroc.

Introduction

Le nouveau coronavirus Covid-19, représente un véritable danger actuellement qui affecte aussi bien la santé publique que l'économie des pays. La propagation du virus a touché l'ensemble des pays du monde. Selon l'organisation mondiale de la santé, les coronavirus peuvent entraîner des infections respiratoires dont les manifestations vont du simple rhume à des maladies plus graves comme le syndrome respiratoire du Moyen-Orient (MERS) et le syndrome respiratoire aigu sévère (SRAS). Depuis le 31 décembre 2019, le nouveau coronavirus (2019-nCoV / SARS-CoV-2) a donné lieu à une épidémie de pneumonie virale à Wuhan, en Chine, caractérisée par des pneumonies sévères (Chan JF-Wet al., 2020, World Health Organization (a), 2020). Le nouveau virus a été identifié le 07 janvier 2020 et a été nommé COVID-19 par l'OMS [3]. Sur le plan symptomatique, la majorité des patients infectés par le COVID-19 sont caractérisés par la fièvre, la douleur musculaire ou myalgie, la fatigue et une toux sèche. Si la plupart des personnes atteintes guérissent sans traitement particulier (80%), le reste des patients peuvent présenter des symptomatologies plus graves telles que les douleurs, la congestion nasale, l'écoulement nasal, les maux de gorge ou la diarrhée [4-5-6]. Par ailleurs, une personne sur six contractants la maladie présente des symptômes plus graves, notamment une dyspnée. Les personnes âgées et celles qui ont des antécédents médicaux ont plus de risques de présenter des symptômes graves (World Health Organization (a), 2020). Au 25 avril 2020, l'OMS a recensé environ 2. 87 M cas et 202.000 cas de décès contre 812.000 guérisons à l'échelle mondiale.

Le virus qui entraîne la COVID-19 se transmet lorsqu'une personne infectée tousse, éternue ou lors d'une expiration. Ces gouttelettes sont trop lourdes pour rester dans l'air et tombent rapidement sur le sol ou sur toutes surfaces proches. Les personnes peuvent être infectées en touchant avec les mains la bouche, le nez ou les yeux après avoir ramassé le virus à partir de ces surfaces ou en respirant le virus dans l'air environnant d'une autre personne infectée (Huijun Chenet al., 2020)

Au Maroc, en date du 25 avril 2020, 3897 cas d'infections ont été détectées, 159 décès et 537 cas de guérisons ont été répertoriés par le ministère de la santé du Maroc [8]. Selon la même source, 21.546 cas ont été testés négativement pour le Covid-19.

Le présent travail vise à étudier l'évolution de sa propagation au Maroc depuis son apparition au 02 mars 2020 jusqu'au 25 avril 2020.

L'objectif étant d'établir le profil épidémiologique du covid-19 au Maroc à partir des données du ministère de la santé au Maroc mises à jour quotidiennement (point de presse) et de dresser une cartographie de l'incidence globale et du nombre de

EVOLUTION DE L'EPIDEMIE COVID-19 AU MAROC : EPIDEMIOLOGIE ET CARTOGRAPHIE

Abdelmajid SOULAYMANI & Abdelrhani MOKHTARI

Université Ibn Tofail. Faculté des sciences, Kénitra

soulaymani@uit.ac.ma / rhanimokhtari@yahoo.fr

ملخص

يمثل الفيروس التاجي "كوفيد-19"، جائحة حقيقية، بحيث تسببت في أكثر من 200000 حالة وفاة عبر العالم. في المغرب، إلى حدود تاريخ 25 أبريل 2020، سجلت وزارة الصحة 3897 حالة إصابة مؤكدة بالعدوى، 159 حالة وفاة و 537 حالة شفاء، بينما التحاليل المخبرية ل 21546 كانت سلبية. تهدف نتائج هذا العمل إلى إبراز الملامح الوبائية لـ كوفيد-19 في المغرب اعتمادا على معطيات وزارة الصحة التي يتم تحيينها بانتظام. لهذا الغرض، تم وضع خرائط للوقع الكلي Incidence global ولعدد الحالات المتراكمة حسب الجهات من أجل تحديد سرعة انتشار الفيروس خلال فترة الدراسة. توضح المقاربة التحليلية التي إعتدناها بأن الوباء في المغرب متحكم فيه بشكل جيد بفضل تدابير الحجر الصحي، وارتداء الأقنعة الواقية، والتباعد، وتعليق النقل الجوي والبحري والبري منذ بداية الحالات الأولى للعدوى. في الواقع، أثبتت هذه التدابير التي أقرتها السلطات المختصة والتي يحترمها غالبية السكان أنها حاسمة في تقليص سرعة العدوى ويمكن أن تشكل قاعدة جيدة للتحضير لما بعد الحجر الصحي.

الكلمات المفتاحية: كوفيد-19، علم الأوبئة، الخرائطية، الحجر الصحي، المغرب.

Résumé

Le Covid-19 diminutif des coronavirus, représente actuellement un véritable fléau qui a déjà fait plus de 200 000 décès de par le monde.

Au Maroc, en date du 25 avril 2020, 3897 cas d'infections confirmées ont été détectées, 159 décès et 537 cas de guérisons ont été répertoriés par le ministère de la santé du Maroc. Alors que 21.546 cas ont été testés négativement pour le Covid-19.

Les résultats de ce travail décrivent le profil épidémiologique du covid-19 au Maroc à partir des données du ministère de la santé au Maroc qui sont mises à jour régulièrement. Une cartographie de l'incidence globale et du nombre de cas cumulés par région en vue de caractériser la vitesse de propagation du virus au cours de la période d'étude a été établie. Cette analyse montre que l'épidémie est bien maîtrisée au Maroc grâce aux mesures de confinement, de port de masque, de distanciation, d'arrêt des transports aérien, maritime et terrestre dès le début des premiers cas d'infection. En effet, ces mesures décrétées par les autorités compétentes et respectées par la population se sont révélées cruciales dans une

COVID-19: ECLAIRAGES EPIDEMIOLOGIQUE ET GEOGRAPHIQUE

envisageable pour rechercher l'intérêt public qui nécessite de sacrifier certains droits au profit de l'intérêt collectif. Cela peut se produire au nom de la loi d'urgence et au nom des normes déontologiques médicales qui répondent aux situations de crise. Avec cette possibilité, l'universalité des droits de l'homme et la politique sanitaire publique en vigueur doivent être remises en question.

Au terme de notre modeste analyse, l'utilitarisme moral ne devrait pas être une justification pour transgresser les droits de l'homme en termes d'égalité, de dignité, de liberté et de justice sociale. Parce que le sens moral utilitaire ne permet pas la possibilité de critiquer et de revoir les politiques publics et économiques pour déterminer les responsabilités. Par conséquent, les situations de crise ne justifient pas de douter de la crédibilité des principes universels des droits de l'homme.

À cet égard, les situations de crise et d'urgence nécessitent un exercice d'interprétation des normes morales universelles comme la sagesse pratique qui évoque ces normes morales universelles en les pratiquants dans des circonstances indésirables et blâmables.

Bibliographie

- Bentham Jeremy. 2011.** *Introduction aux principes de morale et de législation*, librairie Philosophique Vrin, Analyse philosophique.
- Castoriadis Cornelius. 1999.** « L'individu privatisé », in MANIERE DE VOIR 46- Révolution dans la Communication-Le Monde Diplomatique – Juillet / Août, pp. 75 - 77.
- CONSEIL DE L'EUROPE, 2020.** Comité de bioéthique « DH-BIO » Déclaration du DH-BIO sur les considérations en matière de droits de l'Homme relatives à la pandémie de COVID19, 2020. (<https://rm.coe.int/inf-2020-2-statement-covid19-f/16809e2789>).
- Honneth Axel. 2006.** *La société du mépris. Vers une nouvelle théorie critique*. Traduit par Olivier Voirol, Pierre Rusch et Alexandre Dupeyrix. Paris, Éditions La Découverte (coll. « Armil-laïre »).
- Kant Emmanuel. 1993.** *Fondements de la métaphysique des mœurs*, traduction et notes par Victor Delbos, Librairie Générale Française, p. 111.
- LE Bihan Christine. 1997.** *Les grands problèmes de l'éthique*, Seuil, p. 53.
- Mill, John Stuart Mill. 1988.** *L'utilitarisme*, Traduit par Georges Tanesse, Flammarion (Champs), p. 153.
- Rawls John. 2002.** *Leçon sur l'histoire de la philosophie morale*, traduit par, Marc Saint-Upéry et Bertrand Guillarme, Paris, Éditions La Découverte, pp.206-209/227-232.
- Ricoeur Paul. 1996.** « Les trois niveaux du Jugement médical », *Esprit*, (12) No. 227, pp. 21-22.
- UNESCO, Déclaration sur le COVID-19. 2020.** Considération Éthiques selon une perspective mondiale, 2020. (<https://morocco.un.org/fr/39720-declaration-sur-le-covid-19-considerations-ethiques-selon-une-perspective-mondiale>).
- Weber Max. 1963.** *Le savant et le politique*, 10/18, Département d'Univers Poche, pp.206-209.

règne des fins se réalise comme l'Etat de justice sociale et de droit (Kant, E, 1993-Rawls, J, 2002). Un Etat qui assure la santé publique plus qu'il enracine l'exploitation économique et l'injustice sociale.

Cette conception nous conduit à reconstruire l'éthique de la conviction sans la distinguer de la responsabilité, tel que le conçoit Max Weber, et en même temps sans la réconcilier. Car, La responsabilité n'est pas ici mesurée par les résultats pratiques, mais plutôt par ce qui doit être fait dans les situations de crise.

A Vrai dire, pour bien éclaircir les motifs de cette conception, il importe de partir des situations particulières où l'intervention médicale nécessite de soigner et de soulager les souffrances des patients, ce qui demeure le devoir de la médecine et sa fin éthique. Le soignant essaie de soumettre ces interventions thérapeutiques médicales à une déontologie médicale qui est une éthique universelle. Et je fais de cette éthique un sujet de réflexion philosophique devant les significations de santé, de bonheur, de vie et de mort dans l'existence humaine en prenant en considération que le médecin exerce son métier dans des conditions déterminées par les politiques de santé publique.

Dans ce contexte, on pourrait conclure que la question de la sélection des patients est un fait qui révèle aussi l'échec de l'humanité à développer des politiques sanitaires morales. Le principe de sélection peut être une possibilité éventuelle, quelle que soit la solidité du système de santé, mais elle ne devrait pas être une possibilité justifiée devant des politiques économiques néolibérales qui « privatisent l'individu », selon les expressions choquantes du philosophe Cornelius Castoriadis, et qui augmentent l'inégalité, l'injustice sociale et l'humiliation, (Honneth,A, 2006).

Le triage est un choix prudentiel blâmable qui accomplit l'éthique de la conviction avec une grande responsabilité de respecter la dignité humaine dans des circonstances particulières ou insupportables. Une responsabilité réfléchissante qui assume les conséquences de la vulnérabilité humaine et la banalité des politiques immorales.

Conclusion

Actuellement, nous vivons le temps d'une pandémie mondiale et nous ne sommes pas toujours en mesure de deviner notre destin. Dans des situations aussi tragiques et urgentes, nous avons besoin de l'éthique de la solidarité entre les personnes et les institutions. Ce qui nous exige à céder à de nombreux droits. L'Etat peut prendre des décisions juridiques sévères, telles que : la déclaration de la loi d'urgence et le confinement pour contrôler la propagation de l'épidémie et pour bien gérer les droits des patients au traitement sur le même pied d'égalité. Mais, dans les situations d'urgence, tout devient possible et l'une des dures possibilités est la "sélection des patients" lorsque la proportionnalité entre les ressources de santé publique et les patients est perturbée. Ce choix reste la seule possibilité

Pour sortir de cette formalité de la loi morale, les philosophes moralistes qui croient au principe d'universalité des droits de l'homme repensent la relation entre l'universel et l'historique, et sa concrétisation réelle dans les circonstances particulières sous les lumières de l'universalité des droits de l'homme et la responsabilité devant la dignité de la vie humaine.

Pour la commodité du propos, il est à noter que dans les situations de crise, nous ne pouvons pas dire que les interventions urgentes à travers la priorisation, comme des actions morales, contredisent la conviction aux principes universels de la loi morale. Car les principes universels sont des intentions qui se diffèrent des moyens. Les intentions ont besoin des jugements empiriques. Autrement dit, les principes universels sont des normes transcendantales, dont la règle empirique donnée par le conseil médical lors des situations de crise est la manifestation temporelle. La règle empirique prend effectivement en considération les moyens disponibles. Pourtant, la responsabilité de la disponibilité des moyens n'est pas l'affaire du conseil médical. En fait, le problème de moyen est un souci politique et socio-économique.

Entre la conviction de l'égalité des patients et la responsabilité de sauver les vies de la majorité des patients dans les situations de crise, la pratique de triage s'avère une pratique qui demande **une médiation interprétative au sens d'une sagesse pratique** (la phronesis, φρονεσις) (Ricœur, P. 1996) qui met en contexte historique les principes universels de la dignité humaine. Ceci dit, l'humanité dans les situations de crise est un horizon de penser et d'agir et non comme des procédures opératoires. L'humanité des personnes comme fin morale n'est pas une procédure opératoire ou pragmatique. L'humanité d'une personne est une responsabilité qui incombe à soi-même et devant l'autre. Le médecin est tenu de respecter le principe d'égalité entre les patients en cas de pénurie de ressources comme acte opérationnel au niveau de la détermination des critères de triage. En effet, les principes universels sont des convictions directrices d'agir pour éviter de tomber dans la justification utilitariste, en prenant en compte l'impératif directif « Agis toujours de telle sorte qu'il en résulte la plus grande quantité de bonheur pour le plus grand nombre » (Jeremy Bentham).

Au cours de cette discussion, le point de mire de la thèse défendu dans cet article consiste dans une mauvaise répartition de la responsabilité. Ce n'est pas évident de considérer l'utilitarisme comme éthique de responsabilité. L'approche utilitariste tend à nous convaincre que le bonheur est le fruit d'une décision morale qui se base sur des calculs rationnels et pragmatiques entre l'intérêt des majorités et l'intérêt des minorités. Par contre, la responsabilité devant la conséquence d'une décision morale est une responsabilité justifiable et compréhensible de l'autre. Une responsabilité comme un aveu devant l'autre. Une responsabilité de sauver les vies, sans assumer la responsabilité de la situation qui oblige le médecin à agir d'une façon blâmable.

Enfin, choisir le triage et la sélection des patients en prenant en considération le droit de toutes les personnes sur un pied d'égalité en matière des soins médicaux prodigués, est une décision morale prudentielle. Une décision entre le mal et le pire, dépourvue de tout bonheur, qui cherche avec une grande espérance que le

évaluation spécifique relative à la situation sanitaire du patient qui est plus susceptible de le soigner et de sauver sa vie. L'état de santé du patient est diagnostiqué par des normes médicales approuvées basées sur une intervention procédurale urgente et efficace et une expérience médicale qualifiée. Cette justification est souvent utilisée par les médecins au cours de leur travail routinier devant les situations de crise en respectant les codes déontologiques médicaux.

L'utilité sociale : Cette justification permet aux médecins de prioriser un choix sur un autre bien que les situations sanitaires urgentes soient pareilles parce qu'elle se base sur l'utilité de l'intérêt social, par exemple : si un scientifique du laboratoire est infecté et qu'il teste un nouveau vaccin pour sauver les malades, alors, dans ce cas, sauver ce scientifique s'avère utile pour sauver l'humanité.

D'aucuns estiment que l'utilité sociale puise sa légitimité dans l'approche utilitariste morale. Dans ce cas, le critère de sauver le plus grand nombre de patients hospitalisés en sacrifiant les cas désespérés n'est pas significatif. En fait, la norme utilitaire : « Agis toujours de telle sorte qu'il en résulte la plus grande quantité de bonheur pour le plus grand nombre » (Bentham, J, 2011 - Mill, J. S, 1998) sera juste une probabilité plus virtuelle que réelle, parce qu'on va sauver le scientifique **dans l'espoir éventuel** qu'il va réussir à trouver le vaccin. C'est vrai que la primauté de l'intérêt public sur l'intérêt privé interfère avec l'utilité sociale mais, il faut se méfier de ses conséquences morales sur le principe d'égalité et de liberté individuelle.

3. Le jugement médical : Conviction ou responsabilité

En se référant au sociologue allemand Max Weber (1864-1920), qui a le mérite de distinguer entre deux approches philosophiques éthiques : *une éthique de la conviction* qui se fonde sur des principes moraux universels formels et qui conduit la personne à agir sans se soucier des conséquences de l'acte, et d'autre part, *une éthique de la responsabilité* qui conduit la personne à agir en se souciant grandement des conséquences de l'acte, même sans les avoir directement voulues (Weber, 1963).

Actuellement, nous remarquons qu'il y a une tendance à valoriser cette réconciliation, sous prétexte que la philosophie morale de conviction, qui se fonde sur le devoir universel, est envahi de contradictions quand ses actes s'actualisent à l'occasion d'un évènement inhabituel ou d'une crise, comme la situation d'urgence que nous soulignons ci- dessus qui nous a permis de découvrir le dilemme morale dans la pratique des soins médicaux.

En effet, l'universel est contredit dans les contextes particuliers, par exemple le triage ou la sélection des patients dans les situations de crise. Dans cette optique, Kant, le grand philosophe allemand et fondateur de la doctrine dite idéalisme transcendantal, affirme que l'acte moral est un acte qui se fonde sur une règle universalisable qui échappe à toute contradiction. « Cependant ce critère n'est pas opératoire, car dans les circonstances concrètes précisément il peut signifier une chose et son contraire et, de ce fait, m'interdire de choisir alors qu'il devrait m'aider à le faire. » (Le Bihan, Ch, 1997).

(CIB)¹ et la Commission mondiale d'éthique des connaissances scientifiques et des techniques (COMEST)² soulignent que la manière dont les ressources sont allouées à la santé et le manque d'accès aux soins est au cœur de nombreux problèmes. L'allocation des ressources et un système de santé publique solide doivent être d'une importance capitale pour les gouvernements. Cela peut nécessiter une coordination internationale. Les choix politiques au niveau de la macro-allocation ont des conséquences inévitables sur la micro-allocation des ressources au niveau des lieux de soins (par exemple, le triage des patients). Ces choix deviennent encore plus difficiles dans le contexte d'une pandémie où la demande d'accès aux soins augmente de manière exponentielle et rapide. La macro- et la micro-allocation des ressources de santé ne sont justifiées sur le plan éthique que lorsqu'elles sont fondées sur le principe de justice, de bienfaisance et d'équité. ***Dans le cas de la sélection des patients en cas de pénurie des ressources, il convient de tenir compte au préalable des besoins cliniques et de l'efficacité du traitement. À ce titre, les procédures doivent être transparentes et doivent respecter la dignité humaine. Les principes éthiques inscrits dans le cadre des droits de l'homme reconnaissent la protection de la santé comme un droit de chaque être humain.*** L'article 14 de la Déclaration universelle sur la bioéthique et les droits de l'homme de l'UNESCO (2005) stipule que « le meilleur état de santé qu'il [ou elle] est capable d'atteindre » est un « droit fondamental » pour tout être humain, ce qui signifie, dans le contexte actuel, l'accès aux soins les meilleurs possibles. » (UNESCO, 2020).

Dans une autre perspective, il est important de commenter le paragraphe en gras mentionné ci-dessus. Cette considération éthique qui affirme que la sélection des patients doit être transparente en respectant la dignité humaine, nous amène à nous interroger sur la possibilité d'assurer cette dignité humaine en conciliant les deux principes majeurs d'égalité et de sélection. Voilà ce que nous appelons un dilemme moral !

Pour bien comprendre les procédures médicales qui réconcilient le principe d'égalité et la sélection des patients, j'aimerais bien présenter les justifications morales qui conduisent les médecins à prioriser l'un sur l'autre en s'intéressant plus particulièrement aux questions de pronostic et d'utilité sociale :

Le pronostic : qui se base sur un protocole délibérément douteux et source d'incertitude, mais cette opération permet de prendre une décision dans le temps au moment opportun, (Le *kairos* /καίρός). La décision est prise sur la base d'une

¹ Le CIB est composé de 36 experts indépendants qui encadrent les progrès des recherches dans les sciences de la vie et leurs applications en veillant au respect des principes de dignité et de liberté de la personne humaine. C'est une instance de portée mondiale de réflexion en matière de bioéthique créée par l'UNESCO en 1993.

² La COMEST est un organe consultatif et un forum de réflexion mis en place par l'UNESCO en 1998. Composée de spécialistes des disciplines scientifiques, juridiques, philosophiques, culturelles et politiques, elle a pour rôle d'énoncer des principes éthiques susceptibles d'éclairer les débats des responsables politiques à la lumière de critères qui ne soient pas strictement économiques.

Voilà le dilemme moral auquel sont confrontés les médecins qui doivent s'acquitter, à contre nature, des devoirs et des obligations professionnelles et en même temps respecter la dignité humaine, car ils seront contraints à faire un choix déchirant de la sélection et de la priorisation des patients (êtres humains en situation vulnérable).

Nous sommes désormais invités à réfléchir et répondre à des questions éthiques ou d'ordre bioéthique qui s'imposent devant ces situations de crise en prenant en considération la question suivante : dans le cas de la saturation des ressources de soins intensifs, les patients seront-ils soumis au protocole du triage ? Et si tel est le cas, comment ? Et sur quelles normes morales ?

2. « La sélection des patients » et le principe d'égalité : un dilemme moral

Au cours de ces dernières années, notamment avec le développement de la recherche médicale, la révision du «Serment d'Hippocrate» par les conseils nationaux de l'ordre des médecins, serait nécessaire pour qu'il corresponde à des normes philosophiques morales modernes comme l'égalité, le respect de la dignité humaine et l'autonomie de l'individu. De même, cet ajustement doit être opéré conformément aux conventions des droits de l'Homme et de la biomédecine qui insistent sur l'obligation de respecter l'équité dans les soins de santé. Ainsi, « le principe de l'équité d'accès aux soins de santé, énoncé dans l'article 3 de la Convention d'Oviedo doit être respecté, même dans un contexte de rareté des ressources ». En effet, la convention « exige que l'accès aux ressources existantes doit être guidé par des critères médicaux, afin notamment que l'existence de vulnérabilités ne conduise pas à des discriminations dans l'accès aux soins. Cela est certainement pertinent pour les soins des personnes atteintes du COVID-19, mais également pour tout autre type de soins susceptible d'être rendu plus difficile par les mesures de confinement et la réallocation des ressources médicales pour lutter contre la pandémie. La protection des personnes les plus vulnérables, telles que les personnes handicapées, les personnes âgées, les réfugiés ou les migrants, est effectivement en jeu dans ce contexte. Il s'agit là des décisions d'allocation des ressources rares, de fourniture de l'assistance nécessaire à ceux qui en ont le plus besoin, ainsi que la protection et le soutien des personnes vulnérables lourdement touchées par les conséquences des mesures de confinement. » (Conseil de l'Europe, 2020).

En principe, le respect de l'égalité et de l'équité dans les soins disponibles aux patients est un impératif moral, mais dans certains cas ce principe devient inaccessible. D'ailleurs, La Déclaration de l'UNESCO, en prenant note de ce détail, a sensibilisé les responsables de la nécessité de prendre conscience des droits sanitaires des patients : « Les pandémies exposent clairement les forces et les faiblesses des systèmes de santé de différents pays, ainsi que les obstacles et les inégalités en matière d'accès aux soins. Le Comité international de bioéthique

libertés individuelles dans la mesure où, juridiquement parlant, il exige l'état d'urgence. D'où notre questionnement : dans quelle mesure et sur quelle norme peut-on justifier le confinement du point de vue moral et juridique ?

Le deuxième choix à caractère socio-économique correspond à la recherche d'un équilibre entre d'une part, les demandes d'accès aux soins qui sont fréquentes et qui augmentent de manière exponentielle, et, d'autre part, les ressources d'un système de santé publique allouées à cette pandémie. Aussi, faut-il signaler dans ce cadre que les modalités de ce choix sont déterminées par la politique de santé publique.

Devant ces deux choix, il nous est important de poser la problématique suivante :

Si les laboratoires médicaux et les recherches scientifiques épidémiologiques ne parviennent pas à trouver un vaccin efficace dans un délai proche, le confinement sera toujours décrété jusqu'à la découverte d'un traitement adéquat. Pendant ce temps, peut-on se demander si les sociétés vont continuer à supporter les répercussions économiques négatives ? Certainement, non.

Face à cette situation, nous sommes obligés de remettre en question le paradoxe qui se base sur la tautologie suivante :

- Le confinement reste le seul choix pour protéger la vie des personnes. Toutefois, en l'absence d'un vaccin efficace, l'effondrement économique sera une fatalité qui menacera la stabilité et la sécurité sociale, ainsi que la vie des personnes.

Pour surmonter ce paradoxe, il faut accepter à contrecœur un «confinement flexible », qui oscille entre rigueur et douceur, pour que le système de la santé publique maîtrise bien la situation proportionnelle entre le nombre des patients et l'offre d'accueil, et en même temps préserver la vie économique pour répondre aux besoins urgents de la société. Ainsi, le confinement est un choix justifié par la norme morale suivante : ***L'intérêt collectif prime sur l'intérêt individuel***, se trouve justifié par ***l'éthique de solidarité***.

Compte tenu de ce choix, il faut anticiper les mauvais risques. De ce fait, si le nombre des patients dépasse la capacité de l'offre d'accueil en matière de santé publique, les soignants seront amenés, voire contraints à faire un choix douloureux entre les patients comme ils le font souvent dans les accidents massifs et mortels et en réanimation. Une décision jugée nécessaire pour optimiser les ressources et augmenter le nombre de vies sauvées. Dans ce sens, nous citons l'exemple des blessés de « Blazing Wars »...

Toutefois, si les autorités sont forcées de prendre ce choix douloureux dans les jours à venir et que la décision du triage soit inéluctable, il faut prendre en compte qu'il y a presque une quasi-unanimité de la part des soignants et des hôpitaux pour accepter cette décision : « il faut être courageux, et discuter avec les personnes concernées. En cas de saturation des hôpitaux et de pression énorme pour l'accès aux soins intensifs, la seule solution pour faire le devoir c'est de sélectionner les personnes qui ont vraiment la chance de survie » ! Soulignent la plupart des médecins avec qui j'ai échangé sur cette situation-impasse.

infectieuse, qui a rapidement atteint des proportions gravissimes, a été déclarée pandémie par l'Organisation mondiale de la santé (OMS).

L'OMS a déclaré que la flambée épidémique du COVID 19 à l'échelle du globe constitue une pandémie et pour en circonscrire le risque de la propagation, des mesures indispensables de prévention sont à mettre en œuvre tout en considérant les aspects éthiques dans une perspective mondiale de gérer les situations d'urgence. Une déclaration sur la prise en compte des droits de l'Homme lors de cette pandémie a été rendue publique.

Ainsi, des actions urgentes ont été instaurées partout où le virus a été déclaré. Il s'agit du respect strict des règles d'hygiène, du confinement, la déclaration de la loi d'urgence, etc. Ces mesures prises dans la confusion ont suscité des préoccupations en matière d'éthique et des droits de l'homme.

Dans cet article, il est question de réfléchir sur certaines considérations éthiques et morales en temps de pandémie. Ainsi, dans certains pays, notamment l'Italie, la France et l'Espagne, le nombre de personnes infectées par l'épidémie a augmenté au point de dépasser largement la capacité d'accueil du système de santé publique, privé et militaire.

Face à cette situation critique, certains soignants ont été contraints d'établir une priorisation des patients. Conformément au « principe médical de triage des personnes ». Dans ce sens, des questions embarrassantes surviennent : Comment appréhender l'idée de triage médical ? Quel est le fondement philosophique derrière ce principe ?

1. Le confinement : moral et valeur

Comme je l'ai souligné au début, le confinement a été décrété dans le cadre de l'état d'urgence sanitaire dans le but de protéger la population, endiguer la pandémie et contrôler le potentiel du système sanitaire public. Ces objectifs posent des défis majeurs tant humains qu'éthiques. Le confinement per exemple, obéit à la fois à un choix thérapeutique préventif et un choix socio-économique.

S'agissant du choix thérapeutique préventif, le confinement a pour objectif essentiel de protéger la vie des citoyens contre la propagation fulgurante du virus. En matière de droit, la constitution marocaine s'engage à protéger la santé et la sécurité des citoyens notamment dans l'article 31 qui stipule que L'État œuvre à la mobilisation de tous les moyens à disposition pour faciliter l'égal accès des citoyennes et des citoyens aux conditions leur permettant de jouir des droits aux soins de santé. De même, le premier article de la loi 34-09 sur le système de santé et l'offre de soins annonce clairement que le «le droit à la protection de la santé est une responsabilité de l'État et de la société». Sur le plan moral, le Maroc est tenu de respecter les conventions internationales, y compris la Déclaration universelle des droits de l'homme.

De ce qui précède, on se rend compte que l'obligation juridique de protéger la vie humaine se fonde principalement sur la morale qui nous demande de respecter la dignité humaine.

La grande perplexité de cette situation est que le confinement est un choix à la fois moral et juridique, mais, dans le fond, c'est un choix qui interfère avec le droit des

COVID-19, CONFINEMENT, TRIAGE : EN QUETE D'UN SENS MORAL

Ahmed FERHANE

Université Ibn-Tofail, FLSH. Kénitra.
ferhane.philo.univer@gmail.com

ملخص

يصير معيار "العبرة بالنتائج" في وضعيات الأزمة هو المعيار الناجع أخلاقيا. وفي ظل الوضعية الوبائية الحالية يمكن أيضا باسم هذا المعيار تبرير كل الإجراءات التي تمس المساواة والحرية الفردية والكرامة الإنسانية: قانون الطوارئ والحجر الصحي والفرز الصحي. ويتم تبرير هذا المعيار أيضا بأولوية المصلحة العامة على المصلحة الخاصة. يندرج هذا المعيار ضمن أخلاق المنفعة، والأخلاق التي تأخذ بفعالية النتائج على العموم. نسعى في هذا المقال إلى إثبات أن "أخلاق المنفعة" لا تصلح لتسوية محدودة المعايير الكونية التي تقوم على مبدأ المساواة والحرية والكرامة الإنسانية، لأنها تعفي الأفراد والمؤسسات من تحمل مسؤولياتهم السياسية والاقتصادية، في حين نرى أن المعايير الكونية هي معايير مثالية توجيهية تتوسل في وضعيات الأزمة بقواعد عملية فطنة من قبيل "الحكمة العملية" لضمان حقوق الإنسان، وفي نفس الآن تدفع إلى تقويم السياسات العمومية.

الكلمات المفتاحية: الوباء، الحجر الصحي، الفرز الصحي، المعيار، المنفعة، الحكمة العملية، المساواة والكرامة الإنسانية.

Résumé

La norme «ce sont les résultats qui comptent» dans les circonstances de crise est la norme efficace moralement. Dans la situation épidémiologique actuelle, toutes les actions affectant l'égalité, la liberté individuelle et la dignité humaine : Loi d'urgence, confinement et « le triage sanitaire », peuvent se justifier au nom de ce critère. Celui-ci est également justifié par la priorité de l'intérêt public sur l'intérêt privé. Il fait partie de «l'éthique de l'utilitarisme» de façon générale, il s'agit d'une éthique efficace sur le plan des résultats. Dans cet article, nous cherchons à prouver que « l'éthique de l'utilitarisme » ne peut pas être justifiée par les limites des normes universelles fondées sur le principe de l'égalité, de la liberté et de la dignité humaine. Ceci, parce qu'elle dispense les individus et les institutions de leurs responsabilités politiques et économiques. Alors que les normes universelles sont des normes idéales et dirigeantes qui s'interposent dans les situations de crise avec des règles pratiques et prudentes telle que la «sagesse pratique» pour garantir les droits de l'homme, et pousser en même temps à redresser des politiques publiques.

Mots-clés : Pandémie, Triage, Norme, Utilité, Prudence, Egalité et dignité humaine.

La COVID-19 est une nouvelle maladie très contagieuse causée par un coronavirus découvert la première fois à Wuhan (Chine) en décembre 2019. Cette maladie

L'URGENCE DE L'ETHIQUE EN PERIODE DE PANDEMIE

psychique des individus. C'est ce que trois articles de ce livre ont relevés. Le premier article restitue le résultat d'une enquête menée sur un échantillon restreint mais plein d'enseignement sur les effets psychologiques du confinement. Le second article, a montré que la conjoncture de l'épidémie, avec ses implications et exigences protectrices et préventives, a entraîné l'émergence de nouveaux comportements et a conduit à des réflexions positives qui ont boostés la créativité et l'innovation. Le troisième article est une analyse des capacités biologiques face aux peurs effrayantes telle que la peur humaine de la mort personnelle. L'étude a conclu que notre accueil de « la crise du coronavirus » n'est pas comparable. Si certains individus jouissent de leurs immunités physiques, d'autres sont plutôt forts de leur immunité psychologique. Un stress léger devient une soupape de sécurité pour résister aux maladies.

Les effets de la pandémie ne se limitent pas aux niveaux comportementaux et psychologiques des sociétés, elles concernent aussi des changements d'ordre linguistiques. L'avant-dernier article s'est intéressé à la collecte, l'organisation et la classification du technolècte savant produit lors de ces circonstances de crise. Il a également essayé de mesurer la capacité de la langue arabe à assurer une communication fonctionnelle en situations anormales.

La philosophie n'est pas absente de cet ouvrage, elle est présente à travers deux articles : le premier remet en question le sens et la valeur de l'Homme au temps de la pandémie et se demande comment les illusions de supériorité et de pouvoir n'ont pas été en mesure de fournir des réponses efficaces à cette crise sanitaire, le second est une traduction d'un article philosophique de Slavoj Žižek, qui dans son analyse de la pandémie de Covid-19 se base sur la matrice conçue par la psychologue Elizabeth Cooper Ross dans son étude sur les patients malades désespérés. Face à un désastre, nous passons par cinq états psychiques : le déni d'abord, puis l'inquiétude et la colère, et finalement on accepte et on se pli à la réalité.

Le dernier article en arabe concerne un aspect relatif à la jurisprudence. Il traite du statut du contrat d'enseignement privé qui ne fait nullement allusion à l'enseignement à distance. " Établir un équilibre contractuel entre les différents intervenants du contrat de l'enseignement privé reste un défi pour la jurisprudence qui devra s'atteler à trouver un compromis entre la force majeure de la pandémie et la force obligatoire du contrat en l'absence d'une législation claire ».

Enfin, nous tenons à remercier Mr. le président de l'Université Ibn Tofail, et Mr. le Doyen de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines pour le soutien qu'ils ont accordé à ce projet. Nous remercions également tous les professeurs qui ont contribué à l'enrichissement du contenu de l'ouvrage ainsi que les professeurs qui ont accepté de relire les projets d'articles. Leurs remarques et suggestions ont substantiellement amélioré la qualité de la publication.

Jamal Al karkouri & Ahmed Ferhane

articles, leurs remarques et suggestions ont substantiellement amélioré les projets d'articles reçus.

Les articles en arabes

Les articles en arabe commencent par une ouverture sur le passée « considéré comme un vivier d'expériences et de leçons pour le présent », c'est ainsi que les premiers articles invoquent l'histoire des épidémies dans le monde", pour en extraire des éléments qui pourraient être exploités en matière de planification des stratégies de lutte contre les épidémies d'une part, ou en tirer des leçons pour l'avenir comme par exemple insister sur "l'investissement dans la recherche médicale, les méthodes préventives appropriées et les systèmes alimentaires sains", d'autre part. S'inscrivant dans la même ligne d'idées, d'autres articles, utilisent des approches différentes comme la lecture qui revisite le livre de Mohamed El-Bazzaz "Histoire des épidémies et des famines au Maroc aux XVIIIe et XIXe siècles", et qui nous permet de redécouvrir les dispositions prises par les marocains lorsqu'ils ont été confrontés aux épidémies par le passé. Un autre article nous permet entre autres, par le biais de l'annotation et la lecture d'un manuscrit inédit, de savoir qu' "à travers le temps social marocain, les « Faqihs » possédaient le pouvoir moral de se prononcer sur les pandémies en décrivant les causes, les symptômes, le traitement par supplication et remèdes et les moyens de se prémunir ". Enfin un troisième article analyse la pandémie actuelle à travers une discussion sur les difficultés épistémologiques et méthodologiques que pose l'écriture de l'histoire immédiate. Toutes ces études montrent que l'ouverture sur le passée dans ce livre est soutenue par le fait que l'historien, à travers l'analyse des expériences épidémiologiques passées, contribuent à éclairer la société en général et les décideurs en particulier sur les mesures à prendre pour faire face à de telles situations.

La sociologie quant à elle voit dans la pandémie actuelle une expérience unique pour vérifier les différents postulats produits par la discipline. Cette préoccupation se dégage à travers trois articles. Le premier article cherche à "aborder les liens sociaux et leurs changements dans le contexte des épidémies et des risques" à travers le concept de la société et du risque développé par le sociologue allemand Ulrich Beck. L'article met l'accent sur la valeur de la confiance et tout ce qui s'y rapporte comme stratégies que les acteurs mettent en œuvre pour gérer la pandémie. Le deuxième article traite d'une série de questions qui sont considérées comme "une entrée préliminaire pour comprendre l'impact social des réglementations et suivre des différentes conséquences et formes d'interaction sociétale qui menace la vie en général". L'article conclut que les pandémies ne constituent pas une exception dans l'histoire des sociétés et constituent une occasion de redéfinir les valeurs sociales, de revoir les rôles des institutions et de renforcer leur statut et leur présence dans la communauté. Le troisième article décrit la vie quotidienne de la société à travers ses individus et met en exergue les déséquilibres sociétaux aggravés par la pandémie notamment ceux qui se rapportent à la situation des femmes, des personnes âgées et des enfants considérés comme groupes fragiles.

Les services de la psychologie sont devenus très sollicités en ces temps de la pandémie, car le confinement a eu de nombreuses conséquences sur l'état

gestion intelligente de la ville en période de crise. Cette gestion requiert trois composantes: la gouvernance intelligente, ressources humaines hautement qualifiées et infrastructure technologique. En appliquant le concept à la ville de Kénitra, l'article conclue que celle-ci dispose d'un véritable potentiel pour se transformer en une ville intelligente. En faisant un rapprochement entre la crise du coronavirus et la crise climatique (les deux crises sont d'une portée globale), le deuxième article incite à considérer la pandémie comme une catastrophe globale, ayant mis à nu la vulnérabilité de tous les pays y compris ceux comptant parmi les plus développés. De ce fait il importe d'agir en amont sur les actions de limitation et d'adaptation face aux risques majeur y compris les pandémies. L'environnement est très présent dans le troisième article. Celui-ci énumère les aspects positifs du confinement qui a concerné plus de 4 milliards de personnes, suite à la pandémie du Covid-19. "L'arrêt soudain des activités industrielles et du transport routier et maritime ainsi que du transport aérien ont déjà contribué à une baisse significative des émissions des gaz polluants, en particulier le dioxyde de carbone et le dioxyde d'azote." Cela a également permis le rétablissement des équilibres biologiques. Du point de vue gestion de la crise sanitaire au Maroc, l'analyse a révélé, dans le quatrième article deux atouts importants, à savoir la centralisation des décisions et la primauté de l'intérêt général avant toute considération. Par contre deux entraves sont à surveiller dont les difficultés de financement des entreprises et le manque de protection sociale de la population. Enfin, le 5^{ème} article, propose, pour l'après Covid-19, un nouveau plan d'actions qui doit être basé sur l'éducation, la R&D, l'innovation, la compétitivité économique, le rattrapage technologique, l'industrialisation de notre économie, l'intelligence artificielle sans oublier la préservation et la valorisation des ressources naturelles du pays.

L'enseignement, qui a été lui aussi très impacté par le Covid-19, a été matière à réflexion à la lumière d'une mutation vers l'enseignement à distance. Deux articles se sont intéressés à cette thématique, le premier traite de l'expérience de l'université Ibn Tofail à travers le Département de Langue et de Littérature Françaises de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kénitra; il souligne l'importance du clavardage dans le développement des interactions entre les étudiants et les enseignants après avoir fait une analyse détaillée de l'expérience citée. Le deuxième article, en invoquant l'expérience de l'enseignement à distance de l'université Ibn Tofail pendant la pandémie, plaide pour un enseignement hybride (présentiel et à distance) pour l'après Covid-19 à travers des formations à large échelle.

A travers cette présentation l'on se rend compte de la grande diversité des problématiques liées à cette pandémie du Covid-19 et de la pluralité des approches et des référentiels. Nous espérons qu'avec ce travail, nous avons pu contribuer, même très modestement, à l'enrichissement de la discussion sur les crises qui guettent les êtres humains en général, qu'ils soient d'ordres sanitaires, naturels, technologiques ou autres, ceci d'une part, et d'autre part, sur la pandémie actuelle, sa nature ses impacts et les modes de gestion et de dépassement.

Il importe enfin de remercier, en guise de reconnaissance, tous les professeurs qui ont contribué avec leurs articles à la concrétisation de cet ouvrage et nous remercions vivement tous les professeurs qui ont participé à l'évaluation des

approches et méthodologies adoptées et en fonction de la langue de production entre l'arabe et le français. En conséquence, nous avons été amenés d'un point de vue strictement technique à scinder le livre en deux lots: les articles écrits en arabe et ceux écrits en français, puis nous avons opéré un regroupement thématique des articles au sein de chaque lot.

Les articles en français

L'urgence de la problématique oblige, les contributions en langue française débutent par un article qui pose la question de l'éthique en cette conjoncture de pandémie. Du point de vue philosophique le premier article remet en question l'application de la norme «Ce sont les résultats qui comptent» en période de crise, qui est certes efficace sur le plan des résultats mais n'est aucunement justifiée sur le plan éthique. Ceci se réalise à travers le principe de triage sanitaire entre jeunes et vieux.

À l'aide des statistiques et des modèles mathématiques et de la cartographie, deux articles abordent la pandémie d'un point de vue épidémiologique et géographique. Ainsi l'étude épidémiologique a permis de cartographier l'Incidence Global et le nombre de cas cumulés au niveau des régions pour déterminer la vitesse de propagation du virus, et a conclu que la situation épidémiologique du Maroc est restée sous contrôle au cours de la période étudiée, suite aux mesures préventives et médicales que le Maroc a instauré depuis la détection du coronavirus dans notre pays. En se basant sur les données fournies par certains sites Web qui suivent l'évolution de la maladie dans le monde, en plus des données du ministère marocain de la Santé, l'étude géographique a pu analyser le rapport possible entre la distribution spatiale de certains éléments géographiques d'une part et la trajectoire et la vitesse de propagation de l'épidémie d'autre part. Les résultats préliminaires de l'étude ont montré que cinq facteurs ont eu un impact significatif mais inégal sur la vitesse de propagation du coronavirus. Par ordre d'importance, il s'agit de la proximité par rapport aux foyers de l'épidémie, l'hypermobilité humaine, la pyramide des âges, la météorologie et enfin le degré de pollution atmosphérique.

L'économie, le secteur le plus impacté par la crise sanitaire a été au rendez-vous dans cet ouvrage à travers trois articles. Le premier traite des tendances qui se dessinent au niveau des comportements d'achats des consommateurs marocains, en cette période de crise sanitaire. Il montre que les comportements ont évolué au cours de la pandémie et que de nouveaux besoins ont émergé et pourraient ne pas avoir un caractère ponctuel, mais plutôt tracer les jalons de l'après covid-19. Sur la base de l'analyse des anciennes expériences de lutte contre les épidémies, le deuxième article établit que le coût économique des maladies infectieuses est toujours supérieur aux effets directs sur la santé en raison des mesures de précaution prises en plus des mesures d'accompagnement. En utilisant l'économétrie, le troisième article a conclu que la pandémie du Covid-19 avait eu un impact majeur sur l'attraction des IDE (Investissements Directs Etrangers), dont le niveau a considérablement baissé.

La gouvernance, le développement et l'environnement, trois thématiques très liées ont été soulevées par différentes contributions. Le premier article plaide pour une

Présentation

L'idée de ce livre collectif est née pendant les durs moments de panique qui ont accompagné la pandémie mondiale connue sous le nom de Covid-19. De ces circonstances de crise, marqués par la mise en place des mesures de précaution adoptées par notre pays pour limiter la propagation du fléau, et de l'état du confinement auquel la société marocaine a été soumise, l'idée a émergé. C'est une expérience unique, un pari difficile, visant à produire un livre dans une conjoncture exceptionnelle, en respectant les exigences scientifiques. En l'espace de deux mois, l'idée est née et s'est concrétisée par l'argumentaire que voici: " L'humanité connaît une crise exceptionnelle à tous les niveaux, en raison de la propagation du coronavirus "Covid-19" dans la plupart des régions du monde. Cette pandémie a imposé un nouvel ordre mondial, et a causé un grand choc en raison de sa progression extrêmement rapide et ses impacts multiples affectant tous les secteurs de la vie de l'ensemble de la planète. Au milieu de la lutte existentielle que l'humanité mène contre ce fléau et face à l'ampleur des changements qu'il a provoqués et qu'il est susceptible de provoquer à l'avenir, l'esprit humain n'a ni arrêté de fonctionner ni cédé à la catastrophe. La réflexion s'est poursuivie à travers le monde et a concerné divers horizons selon les différentes spécialités. Les idées se sont multipliées en fonction des préoccupations scientifiques et les analyses ont varié selon les différentes démarches et niveaux d'approche. Et parce que nous vivons la même crise, avec ses répercussions multiples, il est de notre devoir de faire connaître nos points de vue, nos analyses et nos perceptions de la réalité de l'ère du coronavirus. Mais il importe aussi de tirer des leçons et de construire des scénarios futurs du devenir de la vie, et de ce qui doit être fait afin de se préparer à de tels chocs et limiter ainsi leurs impacts. Pour ouvrir le débat entre les chercheurs et faire connaître leurs avis sur ce que nous vivons aujourd'hui et ce qui est susceptible d'être vécu à l'avenir en raison de cette pandémie, la présidence de l'Université Ibn Tofail et le décanat de la Faculté des lettres et des sciences humaines à Kénitra invitent tous les chercheurs intéressés à contribuer à un ouvrage collectif. L'ouvrage sera publié en format électronique dans un premier temps, et sortira en version papier dès que les conditions le permettront.. ».

Dès son lancement, la réaction des chercheurs a été vive et rapide. Beaucoup de chercheurs, de toute l'université, ont souhaité participer à cette publication si spéciale. Notre objectif étant atteint, nous avons considéré que le pari fut gagné car l'ouvrage commençait à prendre forme et à se concrétiser.

Il rassemble un total de 29 articles, en plus d'un certain nombre d'annexes en rapport avec la thématique du livre.

Comme prévu, parce que nous n'avions pas défini dès le début des axes du livre par souci d'enchaîner la créativité des uns et des autres, venant de spécialités diverses, les articles retenus varient considérablement, en fonction des disciplines,

Mot de Monsieur Mohamed Zarrou

Doyen de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

La publication de cet ouvrage collectif intervient dans un contexte national et mondial caractérisé par la propagation de la maladie à coronavirus «Covid-19» qui a rendu la vie très difficile. Heureusement, l'être humain, qui vit aux côtés d'autres êtres vivants dans un environnement en constante évolution, est muni de la science et de la connaissance en plus du raisonnement logique et la pratique empirique. Ceci, a rendu plus facile, pour l'humanité, de maintenir sa survie, améliorer ses conditions d'existence et élever la qualité de sa progéniture face aux conditions d'extinction et de destruction massive.

Pour répondre aux péripéties de l'épidémie, notre pays s'est fortement mobilisé dans un esprit national collectif et avec un grand élan de solidarité et un sens moral élevé. Dans ce sens, notre faculté s'est enrôlée dans l'enseignement à distance au profit de nos étudiants, malgré les circonstances difficiles et les prédispositions limitées qui ont nécessité des sacrifices de la part des professeurs et du personnel administratif. Elle a également continué à encourager la recherche scientifique en motivant les professeurs à s'engager dans des initiatives scientifiques en rapport avec la pandémie. Les réponses des professeurs ont été immédiates et à la hauteur des attentes.

Dans ce contexte, s'inscrit cette initiative de produire un ouvrage universitaire collectif sur la pandémie Coronavirus. Il rassemble, autour d'une même thématique et pour la première fois, des publications des professeurs de l'université Ibn Tofail appartenant à différents horizons scientifiques et cognitifs. Cette approche est reflétée par le contenu de l'ouvrage, qui varie selon les spécialités mais qui combine entre ce qui est théorique et ce qui est appliqué et pratique, et entre ce qui est sciences exactes et techniques et ce qui est sciences humaines et sociales. Notre soutien à ce projet de recherche scientifique émane de notre profonde conviction du rôle stratégique que la recherche scientifique puisse jouer dans le développement de notre pays sur les plans économique, culturel et social, mais aussi au niveau de l'amélioration de la compétitivité de l'université marocaine au niveau mondial.

A la fin de ce mot bref, nous exprimons notre satisfaction de ce projet et nos sincères remerciements à tous les professeurs qui ont contribué à son élaboration, qu'ils soient auteurs, évaluateurs ou superviseurs, et nous espérons que ce travail ait pu ajouter une nouvelle brique dans le bilan des réalisations de la faculté des Lettres et des sciences Humaines de l'université Ibn Tofail de Kénitra.

Mot de Monsieur Azzedine El Midaoui
Président de l'Université Ibn Tofail

En parfaite harmonie avec les Orientations Royales, les mesures gouvernementales et les instructions du Ministère de l'Éducation Nationale, de la Formation Professionnelle, de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, notre Université s'est fortement impliquée dans les efforts déployés au niveau national pour faire face aux répercussions de la crise sanitaire causée par le COVID-19.

En plus des efforts engagés en faveur de ses étudiants, l'Université Ibn Tofail n'a cessé d'encourager les chercheurs et les professeurs à poursuivre leurs recherches scientifiques, en particulier celles liées à la pandémie du nouveau Coronavirus.

Cet ouvrage collectif répond aux aspirations de la vision stratégique du développement de l'université marocaine et à sa qualification pour un engagement positif et efficace au sein de la société du savoir. Il incite, également, à la promotion de la complémentarité au niveau de la recherche scientifique à travers une approche interdisciplinaire de la pandémie (histoire, philosophie, économie, géographie, écologie, sociologie, psychologie, sciences juridiques, gouvernance, éducation, sciences appliquées et ingénierie, linguistique...). La multiplicité des sujets qui ornent ce livre relate fidèlement les préoccupations scientifiques des professeurs de l'Université Ibn Tofail au temps du coronavirus.

Ce livre cherche donc à comprendre notre présent et à présenter une production scientifique pertinente qui contribue au développement de nos connaissances sur la pandémie pour aider à surmonter les difficultés et à dépasser les contraintes qu'elle a infligé à la vie. Il est tourné également vers l'avenir à travers la présentation des propositions, des approches, des concepts et des visions qui peuvent enrichir le nouveau modèle de développement marocain en perspective.

Articles en arabe

	Histoire des pandémies: les enseignements du passé	13
Mohamed HOUBAIDA	L'histoire de l'épidémie: de la peste noire au coronavirus	14
Said EL BOUZIDI	L'historien et les pandémies : entre enseignement et reconsidération	24
Hamid FATIHI	La pandémie entre le Faqih et le médecin : "Abrégé du livre de la peste" : Présentation et annotation	31
Mohammed MEZIANE	La pandémie Covid-19 et la problématique de l'écriture de l'histoire immédiate	43
Ahmed NAOUI	Épidémies et confinement dans l'histoire contemporaine du Maroc	55
Hamid JMILI	Les épidémies et leurs effets sur la population : exemple de la peste noire	63
	Pandémie à Coronavirus et les paris de la sociologie	73
Abdelghani CHAFIQ	Les liens sociaux et la gestion des épidémies dans la société du risque : vers une approche pluridisciplinaire	74
Mbarek TAYI	Pandémies et société: du stress et la peur à la gestion et le dépassement	101
Brahim HAMDAOUI	Le vécu de la famille marocaine en période de pandémie à Coronavirus et ses répercussions sur l'avenir: Observations préliminaires	119
	Crise sanitaire et Comportements psychologiques	131
Nabil ABDESSAMAD	Les effets psychologiques du confinement	132
Aicha ZIANI	Lecture psychologique des effets positifs du stress de coronavirus sur l'individu et la société marocaine	141
Khadija OUADI	Coronavirus au temps de l'exhibition de la pulsion de mort	151
	Le technolecte savant au temps du coronavirus	159
Hanane BENDAHDANE	Expressions technolectes à l'ère du coronavirus	160
	Covid-19 : La philosophie et les crises humaines	179
Ahmed MOUSLIH	La dialectique de la philosophie et de la science pour découvrir le sens de l'humain – Réflexions au temps du Coronavirus	180
Rachid BENSID	La crise du Coronavirus (Covid-19) : Quelle issue	191
	Circonstances de la pandémie et jurisprudence	199
Ahmed Anouar NAJI	La pandémie de Coronavirus et son impact sur le contrat d'enseignement privé	200

Sommaire

Articles en français

	L'urgence de l'éthique en période de pandémie	13
Ahmed FERHANE	Covid-19, confinement, triage: en quête d'un sens moral	14
	Covid-19: Eclairages épidémiologique et géographique	23
Abdelmajid SOULAYMANI Abdelghani MOKHTARI	Evolution de l'épidémie Covid-19 au Maroc : Epidémiologie et cartographie	24
Jamal AL KARKOURI Said LAHOUIYR	La propagation du Covid-19 éclairée par la géographie	34
	L'économie face à l'épreuve du Covid-19	51
Ilham EL HARAOUI Mohammed QMICHCHOU	Cocooning et le comportement du consommateur marocain face à la crise sanitaire du covid-19	52
Hicham OUAKIL Houda LECHHEB	Les pandémies entre exigences de santé publique et contraintes économiques	70
Zahra MANSOURI	Analyse économétrique de l'impact du covid-19 sur l'entrée des investissements directs étrangers au Maroc	82
	Gouvernance, développement et environnement en temps de pandémie	95
Mohamed Nabil SRIFI	Une gouvernance urbaine intelligente pour faire face aux crises imprévues: Kénitra ville intelligente	96
Hind MAJDOUBI	Covid-19 & changement climatique: Le temps de cesser de négliger le prévisible	114
Hafida NAIM	Le confinement sanitaire mondial contre la pandémie Covid-19 et son impact sur l'Environnement	133
Mariam CHERQAOU	La Gestion de la Crise Sanitaire du Covid-19 : Une Opportunité de préciser le Modèle de Développement du Maroc	146
Driss ZEJLI	Covid-19 : Quand le cygne noir mue en cygne blanc au Maroc	157
	Crise à coronavirus et enseignement à distance au Maroc	171
Najem Eddin SOUGHATI Houda KISSANI	L'enseignement à distance au département de langue et de littérature française, Le clavardage, un outil d'apprentissage synchrone médiatisé et multidimensionnel	172
Youcef HDOUCH	Remodeler le système éducatif dans un temps de pandémie	189

Comité de lecture

Ajaoun Ahmed	Université Ibn Tofail, Kénitra
Alaoui Moulay-smail	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Al Karkouri Jamal	Université Ibn Tofail, Kénitra
Bennani Azzelarab Lahkim	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Chafik Hassan	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Chakiri Said	Université Ibn Tofail, Kénitra
Charyate Abdelilah	Université Ibn Tofail, Kénitra
Choukri Sallam Mohamed	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
El Amrani Hafida	Université Ibn Tofail, Kénitra
El Bahi Hassane	Université Ibn Tofail, Kénitra
El Bouazzaoui Mohamed	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
El Khomsi Mohamed	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Ferhane Ahmed	Université Ibn Tofail, Kénitra
Ghouati Sanae	Université Ibn Tofail, Kénitra
Hadji Khalid	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Hanchane Mohamed	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Houbaida Mohamed	Université Ibn Tofail, Kénitra
Hussaini Abdellah	Université Ibn Tofail, Kénitra
Kostani Ben Mohamed	Université Sultan Moulay Ismail, Meknès
Laghraib Mohamed	Université Ibn Tofail, Kénitra
Mamad Mohamed	Université Ibn Tofail, Kénitra
Ouchekkir Ali	Université Mohamed V, Rabat
Tiali Souad	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Tibesse Youssef	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Zarghili Arsalane	Université Sidi mohamed Ben Abdellah, Fès
Zarrou Mohamed	Université Ibn Tofail, Kénitra

Ouvrage : La Vie... A l'Ere du Coronavirus « Covid-19 » ؟

Ouvrage collectif sous la direction de :
Jamal Al Karkouri & Ahmed Ferhane

Dépôt légal: 2020MO2036

ISBN: 978-9920-9476-0-2

Première Edition

مطابع الرباط نت



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com
www.imprimerierabat.com



LA VIE A L'ERE DU CORONAVIRUS «COVID-19»?

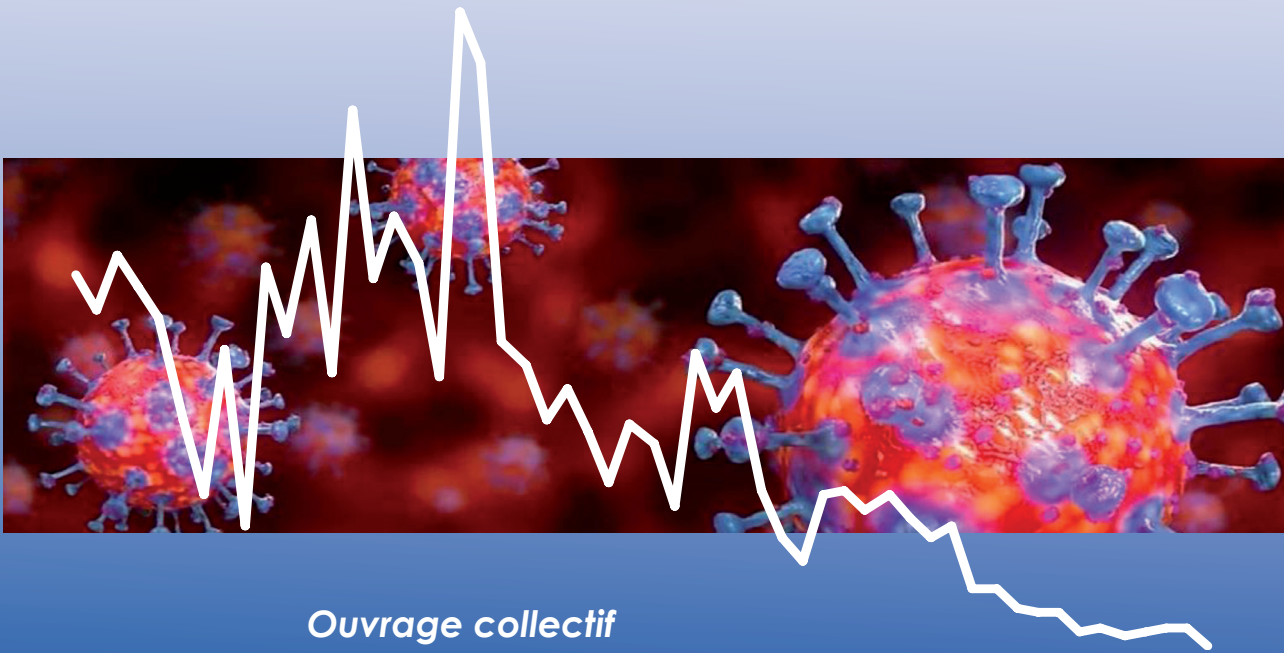
Ouvrage collectif sous la direction de :

Jamal Al Karkouri Ahmed Ferhane

juin 2020



LA VIE..... À L'ERE DU CORONAVIRUS «COVID-19»?



*Ouvrage collectif
sous la direction de:*

Jamal Al Karkouri

Ahmed Ferhane